المُسْتَطْرَف

في كُلِّ فَنٍّ مُسْتَظْرَف



المُسْتَطْرَف

في كُلِّ فَنٍّ مُسْتَظْرَف

تأليف

شهاب الدّين محمد بن أحمد الأبشيهي

المتوفى ٨٥٠ هـ

المجلّد الثّاني

طبعة جديدة منقّحة

بإشراف

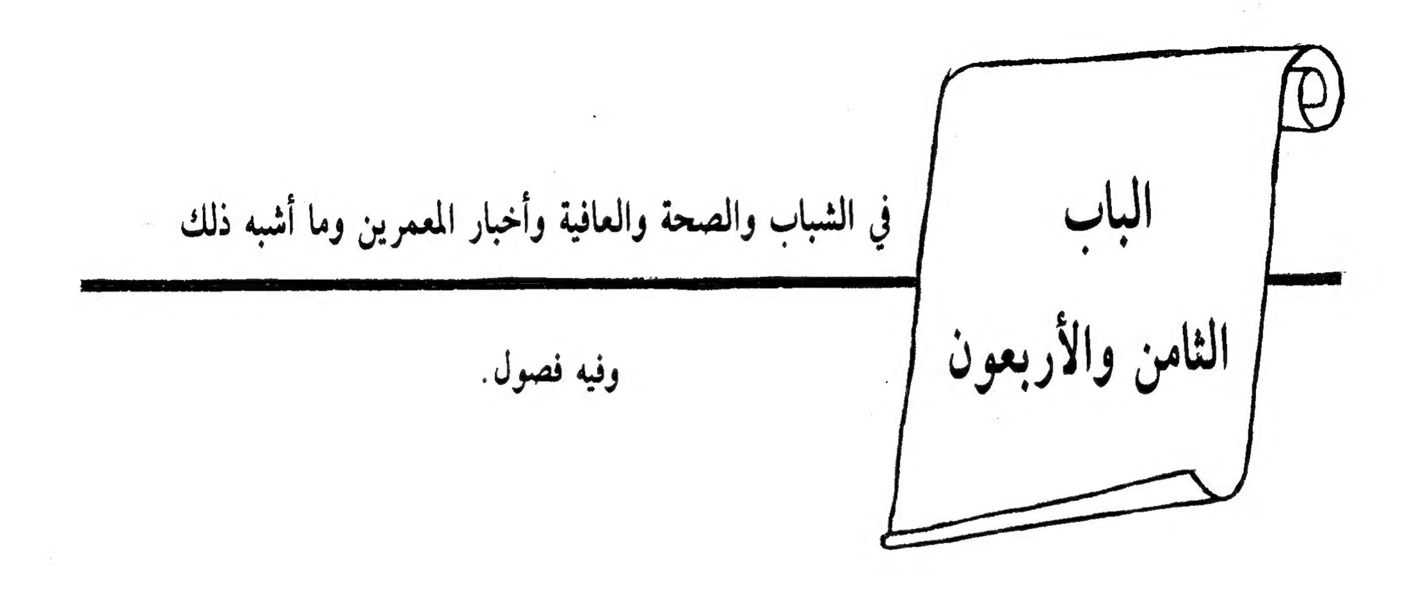
المكتب العالمي للبحوث

منشورات دار مكتبة الحياة

بيروت - لبنان



جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر



في الشباب والصحة والعافية وأخبار المعمرين وما أشبه ذلك

وفيه فصول.

الفصل الأول :

في الشباب وفضله

روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : ما بعث الله نبياً إلا شاباً ، ولا أوتي العلم عالم إلا شاباً ثم تلا هذه الآية : ﴿ **قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم** ﴾[1] وقد اخبر الله تعالى به ، ثم آتى يحيى بن زكريا الحكمة قال تعالى : ﴿ **وآتيناه الحكم صبياً** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **إذ أوى الفتية إلى الكهف** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **إنهم فتية آمنوا بربهم** ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ **وإذ قال موسى لفتاه** ﴾[5] ، وقال أنس رضي الله تعالى عنه : قبض رسول الله ﷺ وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء،وقد قدّم رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على جميع الأنصار وكبار المهاجرين على حداثة سنه ، وعتاب ابن أسيد ولّاه مكة وبها أكابر قريش ، وعبد الله بن عباس على جلالة قدره وحفظه من العلم . وقال بعض البلغاء : الشباب باكورة الحياة ، وأطيب العيش أوائله ، كما أن أطيب الثمار بواكيرها ، والشباب أبلغ الشفعاء عند النساء ، وأكثر الوسائل لقلوبهن ، ولذلك قال الشاعر :

أحلى الرجال مع النساء مواقعا ... من كان أشبههم بهنّ خدودا

---

(١) سورة الانبياء الآية ٦٠ .
(٢) سورة مريم الآية ١٢ .
(٣) سورة الكهف الآية ١٠ .
(٤) سورة الكهف الآية ١٣ .
(٥) سورة الكهف الآية ٦٠ .

وما بكت العرب على شيء ما بكت على الشباب ، ولو لم يكن هذا الشباب حميداً ، وزمانه حبيباً ، لوسامة صورته ، وبهجة منظره ، وجمال خلقته ، واعتدال قامته ، ولما جاور الله في جنات خلده شاب كما قال رسول الله ﷺ : « جردا مردا أبناء ثلاثين » وقد جاء في ذلك أشياء كثيرة ليس هذا موضع بسطها .



في الشيب وفضلـه

أوّل من شاب سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، وفي الخبر : «إن الله تعالى يقول الشيب نوري وأنا استحي أن أحرقه بناري» . وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال : جاء رجلان إلى النبي ﷺ ، شيخ وشاب فتكلم الشاب قبل أن يتكلم الشيخ فقال عليه الصلاة والسلام كبر كبر وبهذه الرواية : « من وقر كبيراً لكبر سنه ، آمنه الله من فزع يوم القيامة » . وعن أنس رضي الله تعالى عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى وعزتي وجلالي وفاقة خلقي إليّ ، إني لأستحي من عبدي وأمتي يشيبان في الإسلام أن أعذبهما ، ثم بكى فقيل له ما يبكيك يا رسول الله قال أبكي ممن يستحي الله منه ، وهو لا يستحي من الله » . وقال : « من بلغ ثمانين من هذه الأمة حرّمه الله على النار » . وقال : « وإذا بلغ المؤمن ثمانين سنة فانه أسير الله في الأرض تكتب له الحسنات وتمحى عنه السيئات » . وقيل : كان الرجل فيمن كان قبلكم لا يحتلم حتى يبلغ ثمانين سنة . وقال ابن وهب : إنَّ أصغر من مات من ولد آدم ابن مائتي سنة ، فبكته الإنس والجن لحداثة سنه . وقال النخعي : كان يقال إذا بلغ الرجل أربعين سنة على خلق لم يتغير عنه حتى يموت . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما رفعه « من أتى عليه أربعون سنة ، ثم لم يغلب خيره على شره فليتجهز إلى النار » . وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال ملك الموت لنوح عليه الصلاة والسلام يا أطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا ولذّتها ؟ قال كرجل دخل في بيت له بابان فقام وسط البيت ساعة ثم خرج من الباب الثاني . ويقال : أطع أكبر منك ولو بليلة . وقال عبد العزيز ابن مروان من لم يتعظ بثلاث لم ينته بشيء : الإسلام والقرآن والشيب . قال الشاعر :

يا عامر الدنيا على شيبه … فيك أعاجيب لمن يعجب
ما عذر من يعمر بنيانه … وعمره منهدم يخرب

وقال الشعبي : الشيب علة لا يعاد منها ، ومصيبة لا يعزى عليها .

وقال الفرزدق :

ويقول كيف يميل مثلك للظبا ... وعليك من عظم المشيب عذار
والشيب ينقص في الشباب كأنه ... ليل يصيح بعارضيه نهار

وقال أبو دلف في بياض اللحية :

تكوّنني همّ لبيضاء نابتة ... لها بغضة في مضمر القلب ثابتة
ومن عجب أني إذا رمت قصها ... قصصت سواها وهي تضحك نابتة

وقال أيضاً :

أرى شيب الرجال من الغواني ... بمبلغ شيبهنّ من الرجال

وقال ابن المعتز :

فظللت أطلب وصلها بتذلل ... والشيب يغمزها بأن لا تفعلي

قيل : صاح شاب بشيخ أحدب بكم ابتعت هذا القوس يا عماه ؟ فقال يا بني إني أعطيتها بغير ثمن . ومرّ رجل أشمط بامرأة عجيبة في الجمال فقال : يا هذه إن كان لك زوج فبارك الله لك فيه ، وإلا فأعلمينا فقالت كأنك تخطبني . قال : نعم ، فقالت : إنَّ فيّ عيباً ، قال وما هو قالت شيب في رأسي ، فثنى عنان دابته فقالت على رسلك فلا والله ما بلغت عشرين سنة ، ولا رأيت في رأسي شعرة بيضاء ولكنني أحببت أن أعلمك أني أكره منك مثل ما تكره مني ، فأنشد ويقال إنه لابن المعتز :

رأين الغواني الشيب لاح بمفرقي ... فأعرضن عني بالخدود النواضر

وقال آخر :

سألتها قبلة يوما وقد نظرت ... شيبي وقد كنت ذا مال وذا نعم
فأعرضت وتولت وهي قائلة ... لا والذي أوجد الأشياء من عدم
ما كان لي في بياض الشيب من أرب ... أفي الحياة يكون القطن حشو فمي

وقال آخر :

قالت أرى مسكة الشعر البهيم غدت ... كافورة قد أحالتها يد الزمن
فقلت طيب بطيب والتنقل في ... معادن الطيب أمر غير ممتهن
قالت صدقت وما أنكرت ذاك بذا ... المسك للشم ، والكافور للكفن

وقال آخر :

قالت أراك خضبت الشيب قلت لها ... سترته عنك يا سمعي ويا بصري
فقهقهت ثم قالت من تعجبها ... تكاثر الغش حتى صار في الشعر

وقال ابن نباتة :

تبسم الشيب بوجه الفتى ... يوجب سح الدمع من جفنه
وكيف لا يبكي على نفسه ... من ضحك الشيب على ذقنه

وقال ابن المعتز :

فما أقبح التفريط في زمن الصبا ... فكيف به والشيب في الرأس شامل

وكان المأمون يتمثل بقول الشاعر :

رأت وضحا في الرأس مني فراعها ... فريقان مبيضّ به وبهيم
تفاريق شيب في السواد لوامع ... فيا حسن ليل لاح فيه نجوم

ويقال في الرجل إذا شاب : ليله عسعس وصبحه تنفس .

إذا نازع الشيب الشباب فأصلتا ... بسيفيهما فالشيب لا شك غالب

وقال آخر :

أكان شيب العبد من نقرة القفا ... وشيب كرام الناس شيب المفارق

وقال العتبي :

قالت عهدتك مجنوناً فقلت لها ... إن الشباب جنون برؤه الكبر

وقال علي بن ربيع :

كبرت ودقّ العظم مني وعقني ... بنيّ وزالت عن فراشي العقائد
وأصبحت أعشى أخبط الأرض بالعصا ... يقودنني بين البيوت الولائد

وقال آخر :

عريت من الشباب وكنت غصناً ... كما يعرى من الورق القضيب
ونحت على الشباب بدمع عيني ... فما نفع البكاء ولا النحيب
فيا ليت الشباب يعود يوماً ... فأخبره بما فعل المشيب

وقال ابن النقيب :

وكم كان من عين عليّ وحافظ ... وكم كان من واش لها ورقيب
فلما بدا شيبي اطمأنت قلوبهم ... ولم يحفظوني واكتفوا بمشيبي

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : ما شبهت الشباب إلا كشيء كان في كمي فسقط .

قال الشاعر :

شيئان لو بكت الدماء عليهما عيناك حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الأحباب

وقال الجاحظ :

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت في زمن الشباب
لقد كذبتك نفسك لبس ثوب دريس[1] كالحديد من الثياب

ومما جاء في الخضاب : قال رسول الله ﷺ « عليكم بالخضاب فإنه أهيب لعدوّكم وأعجب لنسائكم » . وعن أبي عامر الأنصاري رضي الله عنه : رأيت أبا بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه يغير بالحناء والكتم . وقيل : خضاب الحناء يصفي البصر ، ويذهب بالصداع ، ويزيد في الباه :

تسوّد أعلاها وتأبى أصولها وليس إلى ردّ الشباب سبيل

وقيل : وفد عبد المطلب بن هاشم على سيف بن ذي يزن ، فقال له : لو خضبت شعرك ! فلما رجع إلى مكة اختضب ، فقالت امرأته نبيلة : ما أحسن هذا لو دام ، فقال :

ولو دام لي هذا الخضاب حمدته وكان بديلاً من خليل قد انصرم
تمتعت منه والحياة قصيرة ولا بدّ من موت نبيلة أو هرم

وقال آخر :

يا خاضب الشيب الذي في كل ثالثة يعود
إن الخضاب إذا نضا فكأنه شيب جديد
فدع المشيب وما يريد فلن يعود كما تريد

وقال محمود الورّاق :

فما منك الشباب ولست منه إذا سامتك لحيتك الخضابا

(١) دريس : قديم ، بالي .



في العافية والصحة

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إليك انتهت الأماني يا صاحب العافية » . وعنه ﷺ أنه قال : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة أن يقال له : ألم أصحّ بدنك وأروك بالماء البارد » . وقال عليّ رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى : ﴿ ثم لتسئلنّ يومئذ عن النعيم ﴾[1] هو الأمن ، والصحة ، والعافية . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : يسأل الله العباد عن الأبدان والأسماع والأبصار فيم استعملوها وهو أعلم بذلك . وقال ابن عيينة : من تمام النعمة طول الحياة في الصحة والأمن والسرور . وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها : لو رأيت ليلة القدر ما سألت الله إلا العفو والعافية . وقال قبيصة بن ذؤيب : كنا نسمع نداء عبد الملك بن مروان من وراء الحجرة في مرضه : يا أهل النعم لا تستقلوا شيئاً من النعم مع العافية ، ويقال : البحر لا جوار له ، والملك لا صديق له ، والعافية لا ثمن لها ، قال ابن الرومي :

إذا ما كساك الدهر سربال صحة ... ولم تخل من قوت يحل ويقرب
فلا تغبطن أهل الكثير فانما ... على قدر ما يعطيهم الدهر يسلب

ويقال : صحة البدن أوفر القسم . وذكر بعضهم العافية فقال : وأي وطاء ، وأي غطاء . وقال حكيم إن كان شيء فوق الحياة فالصحة ، وإن كان شيء مثل الحياة فالغنى ، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض ، وإن كان شيء مثل الموت فالفقر . وقال عليّ رضي الله تعالى عنه : ما المبتلي الذي اشتد به البلاء بأحوج إلى الدعاء ، من المعافى الذي لا يأمن البلاء . وقيل : إن فأرة البيوت رأت فأرة الصحراء في شدّة ومحنة ، فقالت لها : ما تصنعين ههنا اذهبي معي إلى البيوت التي فيها أنواع النعيم والخصب ، فذهبت معها وإذا صاحب البيت الذي كانت تسكنه قد هيأ لها الرصد لبنة تحتها شحمة فاقتحمت لتأخذ الشحمة فوقعت عليها اللبنة فحطمتها فهربت الفأرة البرية ، وهزّت رأسها متعجبة وقالت : أرى نعمة كثيرة وبلاء شديداً ، الا وإن العافية والفقر أحب إليّ من غنى يكون فيه الموت ثم فرّت إلى البرية . وكان

(١) سورة التكاثر الآية ٨ .

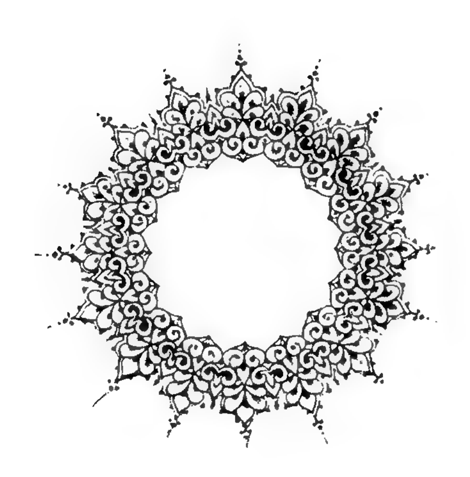
عند رومي خنزير فربطه إلى أسطوانة ووضع العلف بين يديه ليسمنه ، وكان بجنبه أتان لها جحش ، وكان ذلك الجحش يلتقط من العلف ما يتناثر ، فقال لأمه يا أماه ما أطيب هذا العلف لو دام ، فقالت له يا بنيّ لا تقربه فإنّ وراءه الطامة الكبرى ، فلما أراد الرومي أن يذبح الخنزير ووضع السكين على حلقه جعل يضطرب وينفخ ، فهرب الجحش وأتى إلى أمه وأخرج لها أسنانه وقال : ويحك يا أماه انظري هل بقي في خلال أسناني شيء من ذلك العلف فاقلعيه فما أحسن القنع مع السلامة ، والله أعلم بالصواب .

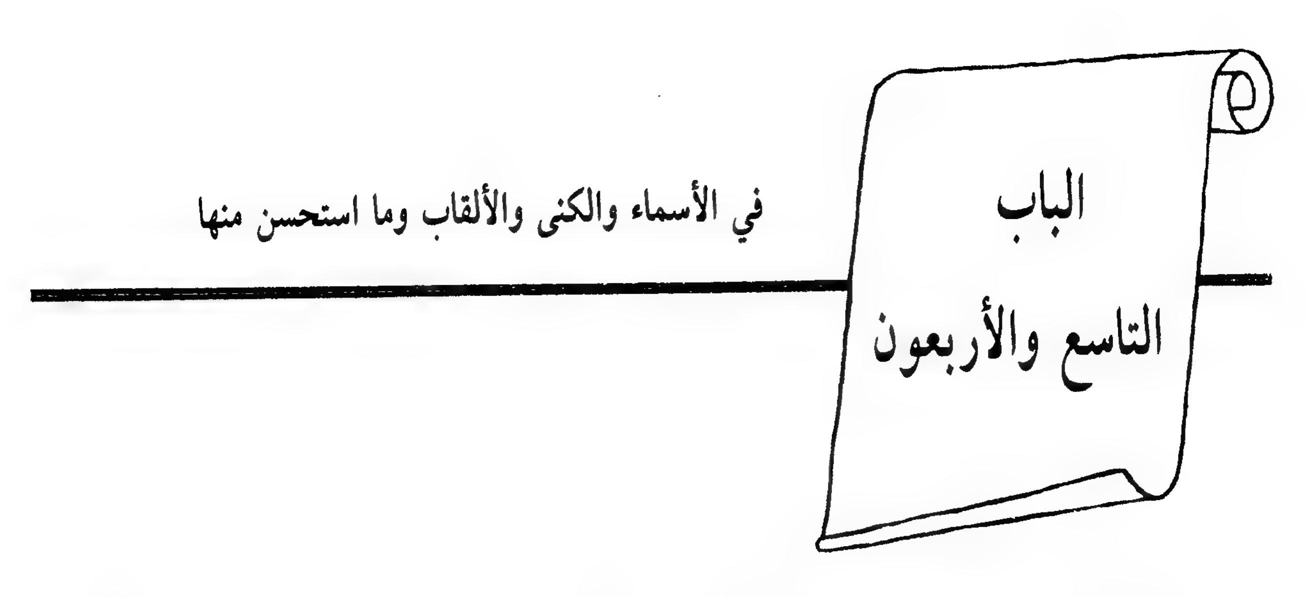


في أخبار المعمرين في الجاهلية والإسلام

قال الحسن رضي الله تعالى عنه : أفضل الناس ثواباً يوم القيامة المؤمن المعمر . وقال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخياركم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : أطولكم أعماراً في الإسلام إذا سدّدوا » وزعموا أن تبعا الفزاري كان من المعمرين ، وأنه دخل على بعض خلفاء بني أمية فسأله عن عمره ، فقال : عشت أربعمائة وعشرين سنة في فترة عيسى بن مريم عليه السلام في الجاهلية ، وستين في الإسلام ، قال له : أخبرني عما رأيت في سالف عمرك ؟ قال : رأيت الدنيا ليلة في أثر ليلة ، ويوماً في أثِر يوم ، ورأيت الناس بين جامع مال مفرق ، ومفرق مال مجموع ، وبين قويّ يظلم ، وضعيف يُظلم ، وصغير يكبر ، وكبير يهرم ، وحي يموت ، وجنين يولد ، وكلهم بين مسرور بموجود ، ومحزون بمفقود . وقد قال ابن الجوزي : إن آدم عليه السلام عاش ألف سنة ، وعاش ابنه شيث تسعمائة سنة ، وعاش ابنه مهلاييل ثمانمائة وخمساً وتسعين سنة ، وعاش إبنه إدريس ثلثمائة وخمساً وتسعين سنة ، وعاش ابنه هود تسعمائة واثنين وستين سنة ، وعاش ابنه متوشلخ تسعمائة وستين سنة ، وأما ابنه نوح عليه السلام فروي عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : عاش نوح عليه السلام ألفاً وأربعمائة وخمسين عاماً . وأما الخضر عليه السلام واسمه خضْرون فهو أطول بني آدم عمراً . وذكر أن لقمان عليه السلام عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة. وكانت العرب لا تعد من الاعمار إلا ما بلغ مائة وعشرين سنة فما فوقها ، وعاش اكثم بن صيفي ثلثمائة وستين سنة وأدرك الإسلام ، وعاش سطيح سبعمائة سنة ، وعاش قس بن ساعدة الإيادي سبعمائة سنة وكان من حكماء العرب ، وعاش لبيد بن ربيعة الشاعر مائة وعشرين سنة وأدرك الإسلام ، وعاش دريد بن الصمة مائة وسبعين سنة حتى سقط حاجباه على عينيه وأدرك الإسلام ولم يسلم . ومن المعمرين عدي بن حاتم الطائي ، وزهير بن جنادة عاشا مائتين وعشرين سنة ، ومن المعمرين ذو الأصابع العذري عاش مائتين وعشرين سنة وهو أحد

حكماء العرب في الجاهلية ، ومن المعمرين عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، ومن المعمرين عبد المسيح بن نفيلة عاش ثلاثمائة وعشرين سنة وأدرك الإسلام . وقد رأيت رجلاً من أهل محلة مسير بالغربية وذكر أنه بلغ من العمر مائة وأربعين سنة ، وأن امرأته بلغت من العمر كذلك ولقد رأيت منه ما لم أر من بعض شبان هذا العصر في القوة ، وشدة البأس ورأيت له ولداً شيخاً هو أشد قوة من ولده وذلك في صفر سنة تسع وعشرين وثمانمائة والله سبحانه وتعالى أعلم .





الباب التاسع والأربعون

في الأسماء والكنى والألقاب وما استحسن منها

فأشرف الأسماء وأعظمها بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى : ﴿ هل تعلم له سميا ﴾[1] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رفع قرطاساً من الأرض مكتوباً عليه بسم الله الرحمن الرحيم إجلالاً له لاسمه عن أن يداس كان عند الله من الصديقين وخفف عنه وعن والديه العذاب وإن كانا مشركين » وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : لم يرّن إبليس لعنه الله قط إلا ثلاث رنات ، رنة حين لعن وأخرج من ملكوت السموات والأرض ، ورنة حين ولد محمد ﷺ ، ورنة حين أنزلت سورة الحمد وفي أولها بسم الله الرحمن الرحيم . وعن رسول الله ﷺ « لا يرد دعاء أوله بسم الله الرحمن الرحيم ، وإن أمتي يأتون يوم القيامة يقولون بسم الله الرحمن الرحيم فتثقل حسناتهم في الميزان ، فتقول الأمم ما أثقل موازين أمة محمد ، فتقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : ابتداء كلامهم ثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى لو وضعت في كفة الميزان ووضعت سيئات الخلق في كفة لرجحت كفة الأسماء » .

وأما الأسماء والكنى : ففي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ : « أحب أسمائكم إلى الله تعالى عبد الله ، وعبد الرحمن وأصدقها حارث ، وهمام ، وأقبحها حرب ومرة » وينبغي أن تنادي من لا تعرف اسمه بعبارة لطيفة لا يتأذى بها ولا يكون فيها كذب ، كقولك يا فقيه ، يا أخي ، يا فقير ، يا سيدي يا صاحب الثوب الفلاني ، أو البغل الفلاني ، أو الفرس الفلاني أو السيف الفلاني ، وما أشبه ذلك . ودخل عبادة على المتوكل وبين يديه جام من ذهب فيه ألف مثقال . فقال له أسألك عن شيء إن أجبتني عنه ابتداء من غير أن تفكر فلك الجام بما فيه . فقال سل يا أمير المؤمنين : قال أسألك عن شيء له اسم ، ولا كنية له ، وعن شيء له كنية ، ولا اسم له . قال المنارة وأبو رياح . فعجب المتوكل وأعطاه الجام بما فيه . وقيل لعثمان ذو النورين رضي الله عنه لأنه هو ورقية كانا أحسن زوجين في الإسلام . وقيل لأنه تزوج برقية ، ثم بأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ

---

(١) سورة مريم الآية ٦٥ .

ولم يوجد من تزوج بابنتي نبي غيره . وكان قتادة بن النعمان الأنصاري رضي الله تعالى عنه أصيب في عينه يوم أحد فسقطت على خده ، فردها رسول الله ﷺ فكانت أحسن وأصح من الأخرى ، فكانت تعتل أي ترمد عينه الباقية ، ولا تعتل عينه المردودة فقيل له ذو العينين . وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه كنيت بهرة صغيرة كنت أحملها في حجري فألعب بها وكان رسول الله ﷺ يقول يا أبا هريرة واختلف في اسمه ، فقيل : عبد الرحمن ، وقيل عبد شمس وقيل ، عمير ، وقيل ، سليمان . وقال الشعبي رضي الله تعالى عنه كنية الدجال أبو يوسف . ذو الشهرة أبو دجانة الأنصاري رضي الله تعالى عنه كان له شهرة يلبسها بين الصفين . ذو الرياستين الفضل بن سهل لأنه دبر أمر السيف والقلم . وولى رياسة الجيوش والدواوين ودخل عليه شاعر يوم المهرجان وبين يديه الهدايا فقال :

اليوم يوم المهرجان هديتي فيه اللسان
لك دولتان حديثة وقديمة ورياستان
لك في الورى من هاشم نبت وبيت خسروان
علم الخليفة كيف أنـ ـت فصرت في هذا المكان

فأمر له بجميع الهدايا . المطيبون بنو عبد مناف وبنو أسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب . ونعيم بن مرّة والحرث بن فهر غمسوا أيديهم في خلوق ثم تحالفوا . شيبة الحمد عبد المطلب لقب بشيبة كانت في رأسه حين ولد قال حذافة :

بنو شيبة الحمد الذي كان وجهه يضيء ظلام الليل كالقمر البدر

وقيل له عبد المطلب ، لأنه عمه المطلب مرّ به في سوق مكة مردوفاً له فجعلوا يقولون من هذه الذي وراءك فيقول عبد لي. سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه اسمه عبد الله ولقباه العتيق والصديق لجماله وتصديقه بخبر الأسراء ، أو لأنه أوّل من صدق رسول الله ﷺ . سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه لقب بالفاروق لأنه قال يوم أسلم لا يعبد الله اليوم سراً فظهر به الإسلام وفرق بين الحق والباطل . الكامل سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه ، لأنه كان يكتب ويحسن الرمي والعوم . طلحة ابن عبد الله رضي الله تعالى عنه كان يقال له طلحة الخير ، وطلحة الفياض ، وطلحة الطلحات لسخائه . رشح الحجر وأبو الذباب عبد الملك بن مروان لقب بذلك لبخله وبخره . عكة العسل سعيد بن العاص رضي الله تعالى عنه . الحبر عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه لقب بذلك لعلمه كان يقال له مرة الحبر ، ومرة البحر . الأشدق عمرو بن سعيد لأنه كان مائل الشدق . الفياض عكرمة بن ربعي لقب بذلك لسخائه . المصطلق خزيمة بن سعد الخزاعي قيل له المصطلق ، لحسن صوته وشدته ، وكان أول من غنى من خزاعة . راح يكذب لقب به المهلب لأنه كان يضع الحديث أيام الخوارج فيحدث به ، فاذا رأوه قالوا راح يكذب . واصل الغزال كان يكثر الجلوس في سوق الغزالين وكان يتبع العجائز فيتصدق عليهم ولم يكن غزالا . سليمان التميمي كان داره ومسجده في بني تميم ولم يكن منهم ، وهو شيباني ، أبو عمر الشيباني لم يكن من بني شيبان ، وإنما كان يعلّم يزيد بن مزيد الشيباني . اليزيدي كان يعلم يزيد بن منصور الحميري فنسب إليه ذو القروح امرؤ

القيس كان ملك الروم كساه الحلة المسمومة فقرحته . وقالوا لم تكن الكنى لأحد من الأمم إلا للعرب وهي مفاخرهم وقال بعضهم :

أكنيه حين أناديه لاكرمه ... ولا ألقبه والسوءة اللقب

وقيل في قوله تعالى : ﴿ **فقولا له قولاً ليناً** ﴾[1] أي كنياه ، ولما ضرب موسى عليه الصلاة والسلام البحر ولم ينفلق أوحى الله تعالى إليه أن كنه ، فقال : انفلق أبا خالد ، فانفلق فكان كلّ فرق كالطود العظيم .

وأما الألقاب . فقد قال الله تعالى : ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان** ﴾[2] سمّاه الله تعالى فسوقاً ، واتفق العلماء رضي الله تعالى عنهم على جواز ذلك على وجه التعريف لمن لا يعرف إلا بذلك ، كالأعمش والأعمى ، والأعرج والأحول ، والأفطس ، والأقرع ، ونحو ذلك .وقلّ من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب ، ولم يزل في الأمم كلها يجري في المخاطبات والمكاتبات من غير نكير ، غير أنها كانت تطلق على حسب الموسومين . وأما ما استحسن من تلقيب السفلة بالألقاب العلية حتى زال الفضل ، وذهب التفاوت ، وانقلب النقص والشرف شرعاً واحداً فمنكر وهب أن العذر مبسوط في ذلك ، فما العذر في تلقيب من ليس من الدين في دبير ولا قبيل ، ولا له فيه ناقة ولا فصيل ، بل هو محتو على ما يضادّ الدين ، وينافي كمال الدين وشرف الإسلام ، وهي لعمر الله الغصة التي لا تساغ ، والغبن الذي يعجز الصبر دونه فلا يستطاع ، نسأل الله تعالى إعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، وأن يصلح فسادنا ، ويوقظ غافلنا . الرجل يكنى باسم ولده والمرأة كذلك ، وإذا كنوا من لم يكن له ولد فعلى جهة التفاؤ ل وبناء الأمر على رجاء أن يعيش فيولد له ، وقد يكنون بما يلائم المكنى من غير الأولاد ، كقول رسول الله ﷺ في عليّ رضي الله تعالى عنه « أبو تراب » وذلك أنه نام في غزوة ذي العشيرة فذهب به النوم ، فجاء رسول الله ﷺ وهو متمرغ في التراب ، فقال له : اجلس أبا تراب وكان أحبّ أسمائه إليه ، وكقولهم : أبي لهب لحمرة خديّه ولونه . وقال الزمخشري رحمه الله تعالى : وسمعتهم يكنون الكبير الرأس والعمامة بأبي الرأس ، وأبي العمامة ، وسمعت العرب ينادون الطويل اللحية : يا أبا الطويلة ، وسمعت عرب البحيرة يكنون بأسماء بناتهم كأبي زهو ، وأبي سلطانة ، وأبي ليلى ونحو ذلك ، ولا حرج في ذلك ، وقد تكنى جماعة من أفاضل الصحابة بأبي فلانة : منهم سيدنا عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه كان له ثلاث كنى : أبو عمرو ، وأبو عبد الله ، وأبو ليلى . ومنهم أبو أمامة ، وأبو رقية تميم الداري ، وأبو كريمة المقداد بن معد يكرب وكثير من الصحابة ومن التابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . أبو عائشة مسروق بن الأجدع . وكان لأنس أخ صغير وله نغير[3] يلعب به فمات ، فدخل رسول

---

(١) سورة طه الآية ٤٤ .

(٢) سورة الحجرات الآية ١١ .

(٣) نغر نغراً ونغيراً : غلا جوفه عليه غضباً .

الله ﷺ فرآه حزيناً ، فقال : ما شأنه ؟ فقالوا : مات نغيره ، فقال يا أبا عمير ما فعل النغير . ونظر المأمون إلى غلام حسن في الموكب ، فسأله عن اسمه ، فقال : لا أدري ، فقال :

تسميت لا أدري فإنك لا تدري بما فعل الحبّ المبرح في صدري

وعن علي رضي الله تعالى عنه ، عن النبي ﷺ : « إذا سميتم الولد محمداً فاكرموه ، ووسعوا له في المجلس ، ولا تقبحوا له وجهاً » . وعنه « ما من قوم كان بينهم مشورة فحضر معهم من كان اسمه محمد أو أحمد فادخلوه في مشورتهم إلّا كان خيراً لهم وما من مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه محمد أو احمد إلا قدّس الله ذلك المنزل في كل يوم مرتين كل ذلك ببركة هذا الاسم الشريف . ومما جاء في مدح الأسماء منظوماً . قال بعضهم في مليح اسمه ابراهيم :

رأيت حبيبي في المنام معانقي وذلك للمهجور مرتبة عليا
وقد رقّ لي من بعد هجر وقسوة وما ضرّ إبراهيم لو صدق الرؤيا

وفيه أيضاً :

لا زال بابك كعبة محجوبة وترابها فوق الجباه وسيم
حتى ينادي في البقاع بأسرها هذا المقام وأنت إبراهيم

وفيه أيضاً :

يا سميّ الخليل إن فؤادي فيه من لوعة الغرام جحيم
وعجيب يا قاتلي أن قلبي فيه نار وأنت فيه مقيم

ولبعضهم في مليح اسمه عمر :

يا أعدل الناس أسماكم تجوز على فؤاد مضناك بالهجران والبين
أظنهم سرقوك القاف من قمر وأبدلوها بعين خيفة العين

وفيه أيضاً :

ما عليهم في الهوى لو نظروا حين سموك فقالوا عمر
أبدلوا قافك عيناً غلطاً أخطأوا ما أنت إلا قمر

ولبعضهم في مليح حامل شمعة موقودة اسمه عثمان :

وافى إليّ بشمعة وضياؤها وضياؤه حكيا لنا القمرين
ناديته ما الاسم يا كل المنى فأجابني عثمان ذو النورين

ولبعضهم في مليح اسمه يوسف :

يا من سبى الشعراء نمل عذاره النجم يشهد لي بأني مدنف

صيرت قلبي من صدودك فاطراً ... فامنن عليّ بزورة يا يوسف

وللصفي الحلي فيمن اسمه داود :

وثقت بأن قلبي من حديد ... وفيه على الهوى بأس شديد
فلان على هواك ولا عجيب ... إذا داود لان له الحديد

وله فيمن اسمه موسى :

أتى موسى بآية خال خدّه ... حوته صوارم الحدق المراض
فآية ذا بياض في سواد ... وآية ذا سواد في بياض
فجاء بضد ما قد جاء موسى ... كليم الله في الحقب المواضي

وللقرطبي في مليح اسمه بدر :

سموه بدرا وذاك لما ... أن فاق في حسنه وتما
وأجمع الناس إذا رأوه ... بأنه اسم على مسمى

ولمؤلفه رحمه الله تعالى في قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني :

وعظ الأنام إمامنا الحبر الذي ... سكب العلوم كبحر فضل طافح
فشفى القلوب بعلمه وبوعظه ... والعلم يشفي إن يكن من صالح

وتوجهت مرة إلى بلتاج لأجتمع بالحاج خليل بن منصور في ضرورة فلم أجده ولم يقم أحد من إخوته بقضاء ما توجهت بسببه فقلت :

خصال خليل كلهن حميدة ... وأوصافه تزري بكل جميل
فلا خير في بلتاج إن لم يكن بها ... ولا خير في الدنيا بغير خليل

وقال آخر في مقبل :

يا من تحجب عن محب صادق ... ما زال عنه كل يوم يسأل
من لي بيوم فيه تسمح باللقاء ... ويقال لي هذا حبيبك مقبل

ولبعضهم في مليح اسمه محسن :

وأهيف يعلو على عشاقه ... برتبة من الجمال نالها
واسمه وهو العجيب محسن ... وكم دموع في الهوى أسالها

ولصفي الدين الحلي في اسم حسين :

حبيبي وافر والشوق مني ... طويل والهوى عندي مديد
وأعجب انني أهوى حسينا ... وشوقي في محبته يزيد

ومما قيل في أسماء النساء . في فاطمة :

عجبت من فاتنة لم تزل ... لمرتجى الوصل لها فاطمة
تنكر ما ألقاه من وجدها ... وهي بشوقي والجوى عالمة

وقال ابن مكانس في اسم عائشة :

يا دهر خبرني بحقك واشفني ... فسهام فكري في أمورك طائشة
أيحل أني في المحبة ميت ... وحبيبتي من بعد موتي عائشة

وقال شمس الدين البديري في اسم حليمة :

ولما رأتني في هواها متيماً ... أكابد من حرّ الغرام أليمه
فجادت بطيب الوصل منها ولم تجر ... ومن أين تدري الجور وهي حليمة

ولبعضهم في اسم بركة « دوبيت » :

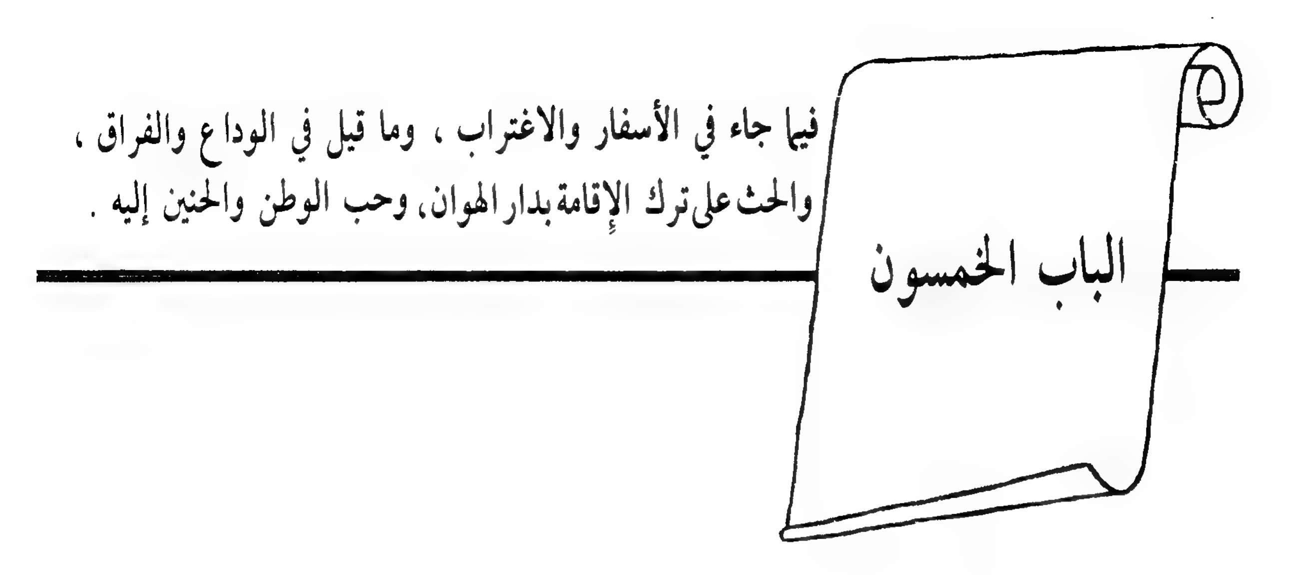
لما نصب الهوى لقلبي شركه ... ناديت وقلبي تارك من تركه
يا قلب أفق ولا تمل لشركة ... تغنيك سنين ساعة من بركة

مردوفاً أيضاً :

لما نصب الهوى لقلبي شركه ... في كل طريق
ناديت وقلبي تارك من تركه ... لو كان يفيق
يا قلب أفق ولا تمل للشركة ... ما الشرك يليق
تغنيك سنين ساعة من بركة ... عن كل صديق

ولو تتبعت هذا المعنى لاحتجت إلى مجلدات ، ولكن فيما ذكرته كفاية والله الموفق واسأله العناية ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .





الباب الخمسون

فيما جاء في الأسفار والاغتراب ، وما قيل في الوداع والفراق ، والحث على ترك الإقامة بدار الهوان، وحب الوطن والحنين إليه .

أما ما جاء في الأسفار والحث على ترك الإقامة بدار الهوان ، فقد قال الله تعالى : ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً** ﴾[1] وفي الأثر : سافروا تغنموا . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لأصبح الناس على ظهر سفر وهو ميزان الأخلاق إن الله بالمسافر رحيم». ويقال : الحركة ولود ، والسكون عاقر . وقال حكيم : السفر يسفر عن أخلاق الرجال . وكان بعضهم يريد السفر فيمنعه والده إشفاقاً عليه فقال يوماً :

ألا خلني أمضي لشأني ولا أكن ... على الأهل كلّاً إن ذا لشديد
تهيبني ريب المنون ولم أكن ... لأهرب عما ليس منه محيد
فلو كنت ذا مال لقرب مجلسي ... وقيل إذا أخطأت أنت رشيد
فدعني أجول الأرض عمري لعله ... يسرّ صديق أو يغاظ حسود

وقال رسول الله ﷺ « عليكم بالدلجة فان الأرض تطوي بالليل ، ولا تطوي بالنهار » . وقال كعب ابن مالك رضي الله تعالى عنه : كان رسول الله ﷺ يكره أن يسافر الرجل في غير رفقة . وقال ﷺ : الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب ». وقال ﷺ : إذا خرج ثلاثة في ركب فليؤمروا أحدهم » .

وقيل : أغار حذيفة بن بدر على هجان النعمان بن المنذر بن ماء السماء وسار في ليلة مسافة ثماني ليال فضرب به المثل ، وقال قيس بن الحطيم :

هممنا بالإقامة ثم سرنا ... مسير حذيفة الخير بن بدر

وسار ذكوان مولى عمر رضي الله تعالى عنه من مكة إلى المدينة في يوم وليلة . وقال المأمون : لا شيء ألذ من السفر في كفاية وعافية لأنك تحل كل يوم في محلة لم تحل فيها ، وتعاشر قوماً لم تعرفهم . ومما قيل في ترك الاقامة بدار الهوان .

---

(١) سورة الملك الآية ١٥ .

قال الفرزدق :

وفي الأرض عن دار القلى متحوّل ... وكـل بـلاد أوطـنـتـك بـلاد

وقال آخر :

ومـا هـي إلا بـلدة مـثـل بـلدتي ... خيارهما مـا كان عـوناً عـلى دهري

وقال آخر :

وإذا البـلاد تغيـرت عن حـالهـا ... فـدع المقـام وبـادر التحـويـلا
ليس المقام عليك فـرضـاً واجبـاً ... في بـلدة تـدع العـزيـز ذلـيـلاً

وقال الصفي الحلي :

تنقـل فـلذات الهـوى في التـنقـل ... ورد كل صاف لا تقف عند منهل[1]
ففي الأرض أحبـاب وفيهـا منـازل ... فـلا تبك من ذكـرى حبيب ومنـزل
ولا تستمـع قول امرىء القيس أنه ... مـضـل ومـن ذا يهـتـدي بمـضـلل

وقال عبد الله الجعدي :

فـإن تجف عني أو تـزرني إهـانـة ... أجد عنك في الأرض العريضة مذهبا

ومما قيل في الوداع والفراق والشوق والبكاء ، قال جرير :

لـو كنت أعلم أن آخـر عهـدكم ... يـوم الـرحيـل فعلت ما لم أفعـل

وقيل لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير : ما كان جدّك صانعاً في قوله فعلت ما لم أفعل ؟ قال كان يقلع عينيه حتى لا يرى مظعن أحبابه ثم أنشد يقول :

ومـا وجـد مغلول بصنعـاء مـوثق ... بسـاقيـه من مـاء الحـديـد كبـول
قـليـل المـوالي مسـلم بـجـزيـرة ... لـه بعـد نـومات العيـون أليـل
يقـول لـه الحـدّاد أنت معـذب ... غـداة غـد أو مسـلم فـقـتـيـل
بـأكـبـر مني لـوعـة يـوم راعـني ... فـراق حـبيـب مـا إليـه سـبيـل

وقال الشاعر :

وما أم خشف طول يوم وليلة ... ببلقعـة بيـداء ظمـآن صـاديـا
تهيم ولا تدري إلى أين تبتغي ... مـولهـة حـزنـا تجـوز الفيـافيـا
أضرّ بها حرّ الهجير فلم تجد ... لغلتهـا من بارد المـاء شـافيـا

---

(١) النهلة : أول قطرة . والمنهل : موضع الشرب على الطريق .

إذا بعدت عن خشفها انعطفت له   فألفته ملهوف الجوانح طاوياً
بأوجع مني يوم شدوا حمولهم   ونادى منادي البين أن لا تلاقيا

وقال عبد العزيز الماجشون وهو من فقهاء المدينة ، قال لي المهدي يا ماجشون ما قلت حين فارقت أحبابك قال : قلت يا أمير المؤمنين :

لله باك على أحبابه جزعا   قد كنت أحذر هذا قبل أن يقعا
ما كان والله شؤم الدهر يتركني   حتى يجرّ عني من بعدهم جرعا
إن الزمان رأى إلف السرور لنا   فدب بالبين فيما بيننا وسعى
فليصنع الدهر بي ما شاء مجتهدا   فلا زيادة شيء فوق ما صنعا

وقال آخر :

وقفت يوم النوى منهم على بعد   ولم أودعهم وجداً وإشفاقا
إني خشيت على الأظعان من نفسي   ومن دموعي إحراقاً وإغراقا

وقال عمر بن أحمد :

أتى الرحيل فحين جد ترحلت   مهج النفوس له عن الأجساد
من لم يبت والبين يصدع قلبه   لم يدر كيف تفتت الأكباد

وحكى بعضهم قال دخلنا إلى دير هرقل فنظرنا إلى مجنون في شباك وهو ينشد شعراً فقلنا له: أحسنت،فأومأ بيده إلى حجر يرمينا به وقال أَلِمثلي يقال أحسنت؟ ففررنا منه، فقال أقسمت عليكم إلا ما رجعتم حتى أنشدكم فان أنا أحسنت فقولوا أحسنت ، وإن أنا أسأت فقولوا أسأت فرجعنا إليه فأنشد يقول :

لما أناخوا قبيل الصبح عيسهمو   وحملوها وسارت بالدمى الابل
وقلبت بخلال السجف ناظرها   يرنو إليّ ودمع العين ينهمل
وودعت ببنان زانه عنم   نادت لا حملت رجلاك يا جمل
يا حادي العيس عرّج كي أودعهم   يا حادي العيس في ترحالك الأجل
إني على العهد لم أنقض مودتهم   يا ليت شعري لطول البعد ما فعلوا

فقلنا ماتوا . فقال : والله وأنا أموت ثم شهق شهقة فاذا هو ميت رحمه الله تعالى :

لما علمت بأن القوم قد رحلوا   وراهب الدير بالناقوس مشتغل
شبكت عشري على رأسي وقلت له   يا راهب الدير هل مرت بك الابل
فحن لي وبكى بل رق لي ورثى   وقال لي يا فتى ضاقت بك الحيل
إن الخيام التي قد جئت تطلبهم   بالأمس كانوا هنا والآن قد رحلوا

وقال الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين ابن العربي[1] رحمه الله تعالى :

ما رحلوا يوم ساروا البزل العيسا[2] إلا وقد حملوا فيها الطواويسا
من كل فاتكة الألحاظ مالكة تخالها فوق عرش الدرّ بلقيسا
إذا تمشت على صرح الزجاج ترى شمساً على فلك في حجر إدريسا
أسقفة[3] من بنات الروم عاطلة ترى عليها من الأنوار ناموسا
وحشية ما لها أنس قد اتخذت في بيت خلوتها للذكر ناووسا
إن أومأت تطلب الانجيل تحسبهم قساقسا أو بطاريقا شماميسا[4]
ناديت إذ رحلوا للبين ناقتها يا حادي العيس لا تحدو بها العيسا
غيبت أجناد صبري يوم بينهم على الطريق كراديسا كراديسا
ساروا وأصبحت أنعي الربع بعدهمو والوجد في القلب لا ينفكّ مغروسا

وقال آخر :

ولما تبدت للرحيل جمالنا وجدّ بنا سير وفاضت مدامع
تبدت لنا مذعورة من خبائها وناظرها باللؤلؤ الرطب دامع
أشارت بأطراف البنان وودعت وأومت بعينيها متى أنت راجع
فقلت لها والله ما من مسافر يسير ويدري ما به الله صانع
فشالت نقاب الحسن من فوق وجهها فسالت من الطرف الكحيل مدامع
وقالت إلهي كن عليه خليفة فيا ربّ ما خابت لديك الودائع

وقال آخر :

يا راحلاً وجميل الصبر يتبعه هل من سبيل إلى لقياك يتفق
ما أنصفتك دموعي وهي دامية ولا وفى لك قلبي وهو يحترق

---

(١) هو محمد بن علي بن محمد ابن العربي ـ ابو بكر ـ الحاتمي الطائي الاندلسي . المعروف بمحيي الدين بن عربي ، الملقب بالشيخ الاكبر . فيلسوف ، من أئمة المتكلمين في كل علم . ولد في مرسيه (بالاندلس) وانتقل إلى اشبيلية . وقام برحلة ، فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز . انكر عليه أهل الديار المصرية « شطحات » صدرت عنه . وحبس . وسعي في خلاصه علي بن فتح البجائي . فنجا واستقر في دمشق وتوفي فيها سنة :(٦٣٨هـ ـ ١٢٤٠ م) . له كتب كثيرة منها : « الفتوحات المكية » و« محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار » في الادب مجلدان . و« ديوان شعر » أكثره في التصوف . و« فصوص الحكم » و« مفاتيح الغيب » و« التعريفات » . وغيرها .
انظر : فولت الوفيات (٢ : ٢٤١) . ومفتاح السعادة (١ : ١٨٧) وميزان الاعتدال (٣ : ١٠٨) .
(٢) العيس : ماء الفحل. عاس الناقة ، يعيسها : ضربها . وبالكسر : الابل البيض يخالط بياضها شقرة .
(٣) درجة كهنوتية فوق القسيس ودون المطران .
(٤) درجة كهنوتية ادنى من القسيس .

وقال البغدادي :[1]

قـالت وقـد نـالهـا للبـين أوجعـه … والبين صعب على الأحباب موقعه
اجعل يديك على قلبي فقد ضعفت … قـواه عن حمـل مـا فيـه وأضلعـه
واعـطف على المطايا سـاعـة فعسى … من شتت شمل الهوى بالبين يجمعه
كـأنـني يـوم ولت حسـرة وأسى … غـريق بحر يـرى الشـاطىء ويمنعـه

وقال ابن البديري :

قـفـا حـادي لـيـلى فـاني وامـق … ولا تعجـلا يـومـاً عـلى من يفـارق
وزمـا مـطايـاهـا قبيـل مسيرهـا … لـيلتـذ منهـا بـالـتـزودّ عـاشـق
ولا تزجروا بـالسوق أظعـان عيسها … فـان حبيـبي لـلظعـائـن سـائـق
ولمـا الـتقينـا والـغـرام يـذيبنـا … ونحن كـلانـا في التفكـر غـارق
وقفنـا ودمـع العـين يحجب بيننـا … تـسـارقـني في نـظرة وأسـارق
فـلا تسـألا مـا حـل بـالبـين بيننـا … ولا تعجبـا أنـا مشـوق وشـائـق

وقال أيضاً :

تـذكـرت ليـلى حـين شط مـزارهـا … وعـادت منـازلهـا خليـات بلقـع
بكيت عليهـا والقنـا يقـرع القنـا … وسمـر العـوالي للمنـايـا تشـرع
وخـالفت لـوامي عليهـا وعـذلي … وحـالفت سهـدي والخليـون هجـع
ولم أستـطع يـوم النـوى رد عبرة … فؤادي أسى من حـرهـا يتقـطع
فقـال خليـلي إذ رأى الـدمـع دائماً … يفيض دمـا من مقلتي ليس يـدفـع
لئن كان هذا الـدمع يجري صبابـة … عـلى غـير ليـلى فهـو دمـع مضيـع

وقال آخر :

مـددت إلى التـوديع كفـا ضعيفـة … وأخـرى على الـرمضاء فـوق فؤادي
فـلا كان هـذا آخـر العهـد منكمـو … ولا كـان ذا التـوديـع آخـر زادي

وقال آخر :

ولمـا وقـفنـا لـلوداع عشيـة … وطـرفي وقلبي دامـع وخفـوق
بكيت فأضحكت الوشاة شماتة … كـأني سحاب والـوشاة بـروق

---

(١) هو عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي . من فلاسفة الاسلام ، وأحد العلماء المكثرين من التصنيف في الحكمة وعلم النفس والطب والتاريخ والبلدان والادب . من كتبه : « قوانين البلاغة » و« الحكمة الكلامية » و« تهذيب كلام افلاطون » و« ذيل الفصيح » وله رسائل سماها : « مقامات » وغيرها كثير . توفي سنة (٦٢٩هـ ـ ١٢٣١ م). انظر فوات الوفيات (٢ : ٧) وآداب اللغة (٣ : ٩٠).

ولمؤلفه رحمه الله تعالى :

يا سادة في سويد القلب مسكنهم ... وفي منامي أرى أني أعانقهم
أوحشتمونا وعزّ الصبر بعدكمو ... يا من يعزّ علينا أن نفارقهم

وقال آخر :

لو أن مالكا عالم بذرى الهوى ... ومحله من أضلع العشاق
ما عذب العشاق إلاّ بالهوى ... وإذا استغاثوا غاثهم بفراق

وقال ابن الوردي :[1]

دهرنا أضحى ضنيناً ... باللقا حتى ضنينا
يا ليالي الوصل عودي ... إجمعينا اجمعينا

وقال الشريف الرضي :[2]

علّلاني بذكرهم واسقياني ... وامزجا لي دمعي بكأس دهاق
وخذا النوم من جفوني فاني ... قد خلعت الكرى على العشاق

وقال آخر عند ذلك :

قالوا اترقد إذا غبنا فقلت لهم ... نعم وأشفق من دمعي على بصري
ما حق طرف هداني نحو حسنكمو ... أني أعذبه بالدمع والسهر

وقال الموصلي :

فسدت لطول بعادكم أحلامنا ... وعقولنا وجفا الجفون منام
والطيف قد وعد الجفون بزورة ... يا حبذا إن صحت الأحلام

ومما قيل في البكاء .قال الشاعر :

رجوت طيف خياله ... وكيف لي بهجوع
والذاريات جفوني ... والمرسلات دموعي

(١) هو عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس ـ ابو حفص ـ زين الدين ابن الوردي . شاعر ، أديب ، مؤرخ ولد في معرة النعمان سنة (٦٩١هـ ـ ١٢٩٢ م) من كتبه « ديوان شعر » فيه بعض نظمه ونثره ، و« تتمة المختصر » تاريخ مجلدان ، ويعرف بتاريخ ابن الوردي ، جعله ذيلاً لتاريخ أبي الفداء وخلاصة له . و« اللباب في الاعراب » و« شرح ألفية ابن مالك » وغيرها . توفي سنة (٧٤٩هـ ـ ١٣٤٩ م).
أنظر : بغية الوعاة (٣٦٥) والنجوم الزاهرة (١٠ : ٢٤٠) وآداب اللغة (٣ : ١٩٢).

(٢) هو محمد بن الحسين بن موسى ـ أبو الحسن ـ الرضي العلوي الحسيني الموسوي ولد ببغداد سنة (٣٥٩هـ ـ ٩٧٠ م). انتهت إليه نقابة الاشراف في حياة والده.له « ديوان شعر » في مجلدين و« المجازات النبوية » و« مجاز القرآن » وغيرها . توفي سنة (٤٠٦هـ ـ ١٠١٥ م) انظر تاريخ بغداد (٢ : ٢٤٦) وفيات الاعيان (٢ : ٢).

وقال آخر :

ارحم رحمت للوعتي وابعث خيالك في الكرى
ودموع عيني لا تسل عن حالها ياما جرى

وقال آخر :

إن عيني مذ غاب شخصك عنها يأمر السهد في كراها وينهي
بدموع كأنهن الغوادي لا تسل ما جرى على الخد منها

وقال آخر :

يا قلب صبراً على الفراق ولو روّعت ممن تحبّ بالبين
وأنت يا دمع إن ظهرت بما أخفيه من قلبي سقطت من عيني

وقال آخر :

خاض العواذل في حديث مدامعي لما غدا كالبحر سرعة سيره
فحبسته لأصون سرّ هواكمو حتى يخوضوا في حديث غيره

وقال ابن الموّاز :

رحت يوم الفراق أجري دموعي حسرة إذ قضى الفراق ببيني
قيل كم ذا تجري دموعك تعمى أوقف الدمع قلت من بعد عيني

وقال آخر :

لما لبست لبعده ثوب الضنى وغدوت من ثوب اصطباري عاريا
أجريت وقف مدامعي من بعده وجعلته وقفا عليه جاريا

وقال آخر :

ولم أر مثلي غار من طول ليله عليه كأنّ الليل يعشقه معي
وما زلت أبكي في دجى الليل صبوة من الوجد حتى أبيضّ من فيض أدمعي

وقال الموصلي :

عين أفاضت دموعي لطول صدّ وبين
ووجنة الخدّ قالت رأيت غسلي بعيني

وقال آخر :

وما فارقت ليلى من مراد ولكن شقوة بلغت مداها
بكيت نعم بكيت وكل إلف إذا ماتت حبيبته بكاها

وفي بعض الكتب السماوية : إنَّ مما عاقبت به عبادي أن ابتليتهم بفراق الأحبة .

ومما جاء في الحنين إلى الوطن : أما محبة الوطن فمستولية على الطباع ، مستدعية أشد الشوق إليها . روي أن أبان قدم على النبي ﷺ ، فقال يا أبان كيف تركت مكة ؟ قال : تركت الإذخر وقد أعذق ،والنمام[1] وقد أورق فاغرورقت عينا رسول الله ﷺ . وقال بلال[2] رضي الله تعالى عنه :

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة بواد وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

وقيل : من علامة الرشد أن تكون النفس إلى بلدها تواقة ، وإلى مسقط رأسها مشتاقة .

ومن حبّ الوطن : ما حكي أن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام أوصى بأن يحمل تابوته إلى مقابر آبائه ، فمنع أهل مصر أولياءه من ذلك ، فلما بعث موسى عليه الصلاة والسلام وأهلك الله تعالى فرعون لعنه الله حمله موسى إلى مقابر آبائه فقبره بالأرض المقدّسة . وأوصى الاسكندر رحمه الله تعالى أن تحمل رمته في تابوت من ذهب إلى بلاد الروم حباً لوطنه . واعتلّ سابور ذو الأكتاف وكان أسيراً ببلاد الروم ، فقالت له بنت الملك وكانت قد عشقته : ما تشتهي ؟ قال : شربة من ماء دجلة ، وشمة من تراب إصطخر ، فأتته بعد أيام بشربة من ماء وقبضة من تراب ، وقالت له : هذا من ماء دجلة ومن تربة أرضك فشرب واشتم بالوهم فنفعه من علته . وقال الجاحظ كان النفر في زمن البرامكة إذا سافر أحدهم أخذ معه تربة أرضه في جراب يتداوى به ، وما أحسن ما قال بعضهم :

بلاد ألفناها على كلّ حالة وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن
ونستعذب الأرض التي لا هواء بها ولا ماؤها عذب ولكنها وطن

ووصف بعضهم بلاد الهند فقال : بحرها درّ ، وجبالها ياقوت ، وشجرها عود ، وورقها عطر . وقال عبد الله بن سليمان في نهاوند : أرضها مسك ، وترابها الزعفران ، وثمارها الفاكهة ، وحيطانها الشهد . وقال الحجاج لعامله على أصبهان : وقد وليتك على بلدة حجرها الكحل ، وذبابها النحل ، وحشيشها الزعفران . وكان يقال : البصرة خزانة العرب ، وقبة الإسلام لانتقال قبائل العرب إليها ، واتخاذ المسلمين بها وطناً ومركزاً . وكان أبو اسحاق الزجاج يقول : بغداد حاضرة الدنيا وما سواها بادية ، وأنا أقول : مصر كنانة الله في أرضه والسلام .

ومما جاء في ذمّ السفر : قيل لرجل : السفر قطعة من العذاب ، فقال : بل العذاب قطعة من السفر . وقال بعضهم :

---

(١) الاذخر والنمام : نبت قوي الرائحة .

(٢) هو بلال بن رباح الحبشي ـ ابو عبد الله ـ مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخازنه على بيت ماله . وأحد السابقين للاسلام . وفي الحديث : « بلال سابق الحبشة » . شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.توفي سنة (٢٠هـ ـ ٦٤١ م) في دمشق . وروى له البخاري ومسلم (٤٤) حديثاً .
أنظر طبقات ابن سعد (٣ : ١٦٩) وصفوة الصفوة (١ : ١٧١) .

كلّ العذاب قطعة من السفر   يا ربّ فارددنا على خير الحضر

وقيل لاعرابي ما الغبطة ؟ قال : الكفاية مع لزوم الأوطان . ومرّ إياس بن معاوية بمكان فقال : أسمع صوت كلب غريب ، فقيل له : بم عرفت ذلك ؟ قال : بخضوع صوته وشدّة نباح غيره . وأراد أعرابيّ السفر فقال لامرأته :

عدّي السنين لغيبتي وتصبري   وذرى الشهور فإنهنّ قصار

فأجابته :

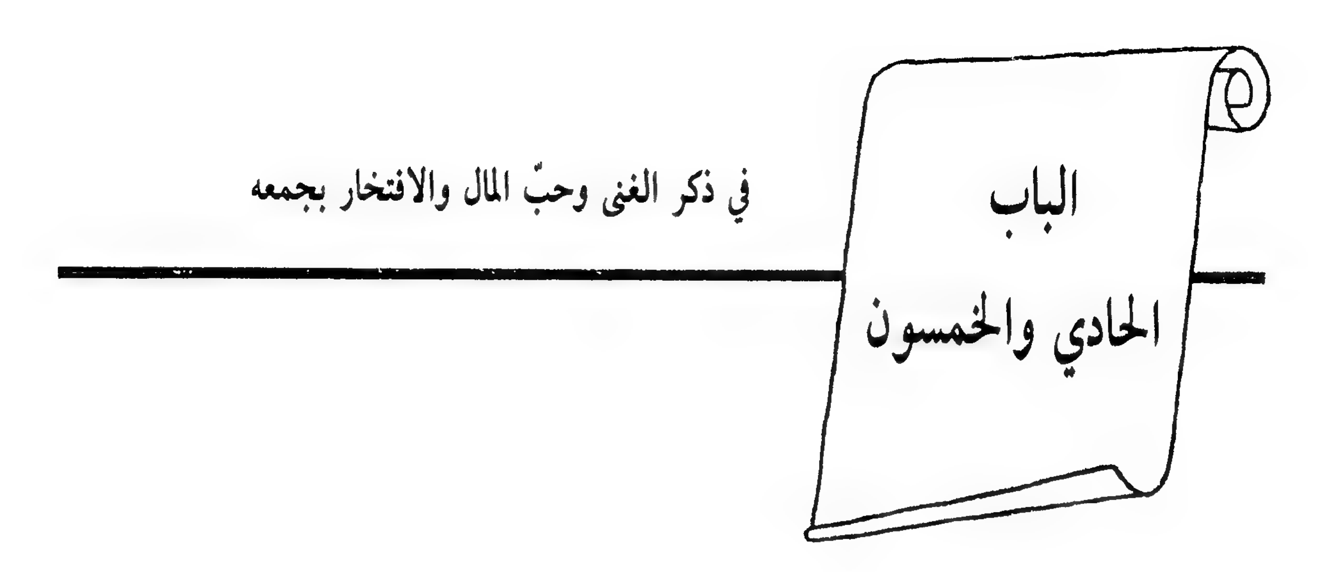
فاذكر صبابتنا إليك وشوقنا   وارحم بناتك إنهنّ صغار

فأقام وترك السفر ، ويقال : ربّ ملازم لمهنته فاز ببغيته . وقال ابن الهيثم :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها   ولكنّ أخلاق الرجال تضيق

وفيما ذكرته كفاية ، وأسأل الله التوفيق والهداية ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .





الباب الحادي والخمسون

في ذكر الغنى وحبّ المال والافتخار بجمعه

قال الله تعالى : ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** ﴾[١] وقيل : الفقر رأس كل بلاء ، وداعية إلى مقت الناس وهو مع ذلك مسلبة للمروءة مذهبة للحياء ، فمتى نزل الفقر بالرجل لم يجد بدّاً من ترك الحياء ، ومن فقد حياءه فقد مروءته ، ومن فقد مروءته مقت ، ومن مقت ازدرى به ، ومن صار كذلك كان كلامه عليه لا له . وقال رسول الله ﷺ : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » وفي الحديث « لا خير فيمن لا يحب المال ليصل به رحمه ، ويؤدي به أمانته ، ويستغني به عن خلق ربه » . وقال علي كرّم الله تعالى وجهه : الفقر الموت الأكبر ، وقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكفر والفقر وعذاب القبر . وقيل من حفظ دنياه حفظ الأكرمين : دينه وعرضه . قال الشاعر :

لا تـلـمـني إذا وقـيـت الأواقـي بـالأواقـي لـمـاء وجـهـي واقي[٢]

وقال لقمان لابنه : يا بنيّ أكلت الحنظل وذقت الصبر فلم أر شيئاً أمرّ من الفقر فإن افتقرت فلا تحدّث به الناس كيلا ينتقصوك ، ولكن اسأل الله تعالى من فضله ، فمن ذا الذي سأل الله فلم يعطه أو دعاه فلم يجبه ، أو تضرّع إليه فلم يكشف ما به . وكان العباس رضي الله عنه يقول : الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس وهو عندهم أعذب من الماء ، وأرفع من السماء ، وأحلى من الشهد ، وأزكى من الورد ، خطؤه صواب ، وسيئاته حسنات ، وقوله مقبول ، يرفع مجلسه ولا يملّ حديثه . والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب ، وأثقل من الرصاص ، لا يسلم عليه إن قدم ، ولا يسئل عنه إن غاب ، إن حضر ازدروه ، وإن غاب شتموه ، وإن غضب صفعوه ، مصافحته تنقض الوضوء ، وقراءته تقطع الصلاة . وقال بعضهم : طلبت الراحة لنفسي فلم أجد لها أروح من ترك ما لا يعنيها ، وتوحشت في البرية فلم أر وحشة أقر من قرين السوء ، وشهدت الزحوف وغالبت الأقران فلم أر قريناً

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٦ .

(٢) وقيت الأواقي : تجنبت المكاره . بالاواقي : بالمنع والتذليل . واقي : مانع وساتر .

أغلب للرجل من المرأة السوء ، ونظرت إلى كل ما يذل القوي ويكسره فلم أر شيئاً أذل له ولا أكسر من الفاقة . قال الشاعر :

وكل مقلّ حين يغدو لحاجة ... إلى كل ما يلقى من الناس مذنب
وكانت بنو عمي يقولون مرحبا ... فلما رأوني معدما مات مرحب

وقال آخر :

المال يرفع سقفاً لا عماد له ... والفقر يهدم بيت العز والشرف

وقال آخر :

جروح الليالي ما لهن طبيب ... وعيش الفتى بالفقر ليس يطيب
وحسبك أن المرء في حال فقره ... تحمقه الأقوام وهو لبيب
ومن يغترر بالحادثات وصرفها ... يبت وهو مغلوب الفؤاد سليب
وما ضرني أن قال أخطأت جاهل ... إذا قال كل الناس أنت مصيب

وقال آخر :

الفقر يزري بأقوام ذوي حسب ... وقد يسوّد غير السيد المال

وقال آخر :

لعمرك إن المال قد يجعل الفتى ... سنيا وإن الفقر بالمرء قد يزري
وما رفع النفس الدنيئة كالغنى ... ولا وضع النفس النفيسة كالفقر

وقال آخر :

إذا قل مال المرء لانت قناته ... وهان على الأدنى فكيف الأباعد

وقال ابن الأحنف :

يمشي الفقير وكل شيء ضده ... والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه مبغوضاً وليس بمذنب ... ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروة ... خضعت لديه وحركت أذنابها
وإذا رأت يوماً فقيراً عابراً ... نبحت عليه وكشرت أنيابها

وقال آخر :

فقر الفتى يذهب أنواره ... مثل اصفرار الشمس عند المغيب
والله ما الإنسان في قومه ... إذا بلي بالفقر إلا غريب

وقال آخر :

إن الدراهم في المواطن كلها ... تكسو الرجال مهابة وجمالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة ... وهي السلاح لمن أراد قتالا

وقال آخر :

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها ... فكلما انقلبت يوماً به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فان وثبت ... يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

وقال بعض الفرس : من زعم أنه لا يحب المال فهو عندي كذاب :

وقال الكناني :

أصبحت الدنيا لنا عبرة ... فالحمد لله على ذلكا
قد أجمع الناس على ذمها ... وما أرى منهم لها تاركا

وقال الزمخشري :

وإذا رأيت صعوبة في مطلب ... فاحمل صعوبته على الدينار
وابعثه فيما تشتهيه فمانه ... حجر يلين قوة الأحجار

قال الثوري رحمه الله تعالى : لئن اخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها أحب إليّ من أن احتاج إلى لئيم . وفي هذا المعنى قال الشاعر :

احفظ عرى مالك تحظى به ... ولا تفرط فيه تبقى ذليل
وإن يقولوا باخل بالعطا ... فالبخل خير من سؤال البخيل
واحفظ على نفسك من زلة ... يُرى عزيز القوم فيها ذليل

وأما ما جاء في الاحتراز على الأموال : فقد قالوا ينبغي لصاحب المال أن يحترز ويحتفظ عليه من المطمعين والمبّرطحين والمحترفين الموهمين والمتنمسين .

فأما المطمعون : فهم الذين يتلقون أصحاب الأموال بالبشرى والإكرام والتحية والإعظام إلى أن يأنسوا بهم ويعرفوهم بالمشاهدة ، وربما قضوا ما قدروا عليه من حوائجهم إلى أن يألفوهم ويحصل بينهم سبب الصداقة ، ثم إن أحدهم يذكر لصاحب المال في معرض المقال أنه كسب فائدة كثيرة في معيشته ، ثم يمشي معه في الحديث إلى أن يقول إني فكرت فيما عليك من المؤن والنفقات ، وهذا أمر يعود ضرره في المستقبل إن لم تساعد بالمكاسب ، وغرضي التقرّب إليك ونصحك وخدمتك وأريد أن أوجه إليك فائدة من المتجر بشرط أن لا أضع يدي على مال ، بل يكون مالك تحت يدك ، أو تحت يد أحد من جهتك ، ويخرج له في صفة الناصحين المشفقين فاذا أجابه إلى ذلك كان أمره معه على قسمين ، إن ائتمنه هو جعل المال بيده ، أعطاه اليسير منه على صفة أنه من الربح وطاول به الأوقات ودفع إليه في المدّة الطويلة الشيء اليسير من ماله ثم يحتجّ عليه ببعض الآفات ويدعي الخسارة ، فان لزمه صاحب المال ، قابحه وبرطل من جملة المال صاحبَ جاه فيدفعه ويقول هذا راباني ، فان روعي صاحب المال وفق

بينهما ، على أن يكتب عليه ببقية المال وثيقة فلا يستوفي ما فيها إلاّ في الآخرة ، وإن هو لم يأتمنه وعوّل أن يكون القبض بيده والمتاع مخزوناً لديه واطأ عليه البائعين والمشترين وحصل لنفسه وعمل ما يقول به ، فان حصل لصاحب المال أدنى ربح أو همه أن مفاتيح الأرزاق بيده ، وإن كسد المشتري ، أو رخص أحال الأمر على الأقدار وقال ليس لي علم بالغيب . ومن أشد المطمعين المتعرضون لصنعة الكيمياء وهم الطماعون المطمعون في عمل الذهب والفضة من غير معدنهما ، فيجب أن يحذر التقرّب منهم والاستماع لهم في شيء من حديثهم فان كذبهم ظاهر وذلك أنهم يوهمون الغير أنهم ينيلونهم خيراً ويطلعونهم على صنعتهم ابتداء منهم لا لحاجة ، وهذا يستحيل ويحتجون بأن ما يلجئهم إلى ذلك عدم الامكان وتعذر المكان ، فمنهم من يكون شوقه إلى أن يدخل إلى مكان ويترك عنده عدة لها قيمة ، فيأخذها وينسحب ، ومنهم من يشترط أن عمله لا ينتهي إلى مدة ، فيقنع في تلك المدة بالأكل غدوة وعشية ، وسبيله بعد ذلك إن كان معروفاً قال فسد عليّ العمل من جهة كيت وكيت ، ويقول للذي ينفق عليه هل لك في المعاودة ، فان حمله الطمع ووافقه كان هذا له أتمّ غرض ، ثم يحتال آخر المدة على الفراق بأيّ سبب كان ، وإن كان منكوراً غافل صاحب المكان وخرج هارباً . ومن المطمعين قوم يجعلون في الجبال أمارات من ردم وحجر ويأتون إلى أصحاب الأموال ويقولون : إنا نعرف علم كنز فيه من الأمارات كيت وكيت ، ثم يوقفونهم على ورقة متصنعة ويقولون نريد أن تأخذ لنا عدة وتنفق علينا ومهما حصل من فضل الله تعالى لنا ولك ، فيوافقهم على ذلك ويوطن نفسه على أن المدة تكون قريبة فيعملون يوماً أو يومين ، فيظهر لهم أكثر الأمارات فيزداد طمعاً ويعتقد الصحة ، ثم يستدرجونه إلى أن ينفق عليهم ما شاء الله تعالى ويكون آخر أمرهم كصاحب الكيمياء ، وإن كانوا منكورين ورغبتهم الطمعة في قماشه أو في العدة التي معه فربما قتلوه هناك لأجل ذلك ومضوا فهذا أمر المطمعين .

وأما المبرطحون : فهم من الخونة والناس بهم أكثر غرراً ، وذلك أنهم إذا ندب صاحب المال أحداً منهم لشراء حاجة سارع فيها ، واحتاط في جودتها ، وتوفير كيلها أو وزنها أو ذرعها ووضع من أصل ثمنها شيئاً وزنه من عنده ، سراً ، حتى يبيض وجهه عند صاحب المال ، ويعتقد نصحه وأمانته ونجح مساعيه وكذلك إن ندبه لشيء يبيعه استظهر واستجاد النقد ولا يزال هكذا دأبه حتى يلقي مقاليد أمره إليه فيستعطفه ويفوز به ثم يغير الحال الأول في الباطن فينبغي لصاحب المال أن لا يغفل عنه .

وأما المحترفون الموهمون : فهم الذين يتعرّضون لذوي الأموال فيظهرون لهم الغنى والكفاية ويباسطونهم مباسطة الأصدقاء ، ويعتمدون جودة اللباس ، ويستعملون كثيراً من الطيب ، ثم إن أحدهم يذكر أنه يربح الأرباح العظيمة فيما يعانيه ، ويذكر ذلك مع الغير ، ولا يزال كذلك حتى يثبت ويستقر في ذهن صاحب المال أنه يكتسب في كل سنة الجمل الكثيرة من المال ، وأنه لا يبالي إذا أنفق ، أو أكل ، أو شرب فتشره نفس صاحب المال لذلك فيقول له على سبيل المداعبة يا فلان : تريد الدنيا كلها لنفسك لم لا تشركنا في متاجرك هذه ، وأرباحك ، فيقول له : أنت جبان يعز عليك إخراج الدينار ، وتظن أنك إن أظهرته خطف منك ، ولا تدري أنه مثل البازي إن أرسلته أكل وأطعمك ، وإن أمسكته لم يصد شيئاً ، واحتجت إلى أن تطعمه وإلا مات ، وأنا والله لو كان عندي علم أنك تنبسط

لهذا ، كنت فعلت معك خيراً كثيراً ، ولكن ما كان إلا هكذا ، وما كان لا كلام فيه ، والعمل في المستأنف . فيشكره صاحب المال ويسأله أخذ المال فيمطله بتسليمه فيزداد فيه رغبة إلى أن يسلمه إليه فيكون حاله كحال المطمع إذا صار المال تحت يده .

وأما المتنمسون : فهم أهل الرياء المظهرون التعفف والنسك ، ومجانبة الحرام ، ومواظبة الصلاة والصيام لكي يشتهر ذكرهم عند الخاص والعام ، ثم يلقون ذوي الأموال بالبشر والإكرام والتلطف في المقال ، ويمشون إلى أبواب الملوك على صفة التهاني بالأعياد ، وربما يأتي معه بأحد من الأولاد ويظهرون النزاهة والغنى ، ويجعلون الدين سلماً إلى الدنيا ، وأكثر أغراضهم أن تودع عندهم الأموال ، وتفوض إليهم الوصايا ، ويجلهم العوام ، وتقبل شهادتهم الحكام ، وتندبهم الملوك إلى الوصايا والأموال وهؤلاء أشرّ من اللصوص والقطاع ، وذلك أن شهرة اللصوص والقطاع تدعو إلى الاحتراز منهم وتشبه هؤلاء بأهل الخير يحمل الناس على الاغترار بهم .قال الشاعر .

صلى وصام لأمر كان أمّله ... حتى حواه فما صلى ولا صاما

وقيل لا فقير أفقر من غنيّ يأمن الفقير . قال الشاعر :

ألم تر أن الفقر يرجى له الغنى ... وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

وأوصى بعض الحكماء ولده فقال له : يا بني عليك بطلب العلم وجمع المال فان الناس طائفتان ، خاصة وعامة ، فالخاصة تكرمك للعلم ، والعامة تكرمك للمال . وقال بعض الحكماء إذا افتقر الرجل اتهمه من كان به وثقاً ، وأساء به الظن من كان ظنه به حسناً ، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بدا من ترك الحياء ومن ذهب حياؤه ذهب بهاؤه ، وما من خلة هي للغني مدح إلا وهي للفقير عيب ، فان كان شجاعاً سمي أهوج ، وإن كان مؤثراً سمي مفسداً ، وان كان حليماً سمي ضعيفاً ، وإن كان وقوراً سمي بليداً ، وإن كان لسنا سمي مهذارا ، وإن كان صموتاً سمي عيياً . قال ابن كثير :

الناس أتباع من دامت له نعم ... والويل للمرء إن زلت به القدم
المال زين ومن قلت دراهمه ... حيّ كمن مات إلا أنه صنم
لما رأيت أخلائي وخالصتي ... والكل مستتر عني ومحتشم
أبدوا جفاء وإعراضاً فقلت لهم ... أذنبت ذنباً فقالوا ذنبك العدم

وكان ابن مقلة وزيراً لبعض الخلفاء فزوّر عنه يهودي كتاباً إلى بلاد الكفار وضمنه أموراً من أسرار الدولة ثم تحيل اليهودي إلى أن وصل الكتاب إلى الخليفة فوقف عليه ، وكان عند ابن مقلة حظية هويت هذا اليهودي فأعطته درجاً بخطه ، فلم يزل يجتهد حتى حاكى خطه ذلك الخط الذي كان في الدرج ، فلما قرأ الخليفة الكتاب أمر بقطع يد ابن مقلة وكان ذلك يوم عرفة وقد لبس خلعة العيد ومضى إلى داره وفي موكبه كل من في الدولة ، فلما قطعت يده وأصبح يوم العيد لم يأت أحد إليه ولا توجع له ، ثم اتضحت القضية في أثناء النهار للخليفة أنها من جهة اليهودي والجارية فقتلهما شرّ قتلة ثم أرسل إلى ابن مقلة أموالاً كثيرة وخلعا سنية وندم على فعله واعتذر إليه فكتب ابن مقلة على باب داره يقول :

تحـالـف الـنـاس والـزمـان　　فحيث كـان الـزمـان كـانـوا
عـاداني الـدهـر نصف يـوم　　فـانكشف الناس لي وبـانـوا
يـا أيهـا المعـرضـون عـني　　عـودوا فقـد عـاد لي الـزمـان

ثم أقام بقية عمره يكتب بيده اليسرى قال بعضهم :

إنمـا قـوّة الـظهـور النقـود　　وبهـا يكمـل الفتى ويسـود
كم كريم أزرى به الدهر يوماً　　ولئيم تسعى إليـه الـوفـود

والأطباء يعلمون أمراضاً من علاجها ، اللعب بالدينار ، وشرب الأدوية والمساليق ، التي يغلي فيها الذهب . قال الشاعر :

إحـرص على الـدرهم والعين　　تـسلم مـن العيـلة والـديـن
فـقـوّة الـعـين بـإنـسـانها　　وقـوّة الإنـسـان بـالـعـين

واعلم أن القلب عمود البدن ، فإذا قوي القلب قوي سائر البدن ، وليس له قوة أشد من المال ، وبالضد إذا ضعف من الفقر ضعف له البدن .

حكي ان ملكاً رأى شيخاً قد وثب وثبة عظيمة على نهر فتخطاه والشاب يعجز عن ذلك فعجب منه فاستحضره فحادثه في ذلك فأراه ألف دينار مربوطة على وسطه . وقال لقمان لأبنه يا بنيّ شيئان إذا أنت حفظتهما لا تبالي بما صنعت بعدهما ، دينك لمعادك ، ودرهمك لمعاشك . والكلام في هذا المعنى كثير ، وقد اقتصرت منه على النزر اليسير ، وقد كان في الناس من يتظاهر بالغنى ويراه مروءة وفخراً ، فمن ذلك ما حكي عن أحمد بن طولون[1] أنه دخل يوماً بعض بساتينه فرأى النرجس وقد تفتح زهره فاستحسنه فدعا بغدائه فتغذّى ثم دعا بشرابه فشرب ، فلما انتشى قال عليّ بألف مثقال من المسك فنثره على أوراق النرجس .

ولنذكر الآن نبذة من الذخائر والتحف : حكى الرشيد بن الزبير في كتابه الملقب بالعجائب والطرف أن أبا الوليد ذكر في كتابه المعروف بأخبار مكة أن رسول الله ﷺ : لما فتح مكة عام الفتح في سنة ثمان من الهجرة ، وجد في الجب الذي كان في الكعبة سبعين ألف أوقية من الذهب ، مما كان يهدى للبيت قيمتها ألف ألف وتسعمائة ألف وتسعون ألف دينار . وباع زهرة التميمي يوم القادسية منطقة كان قتل صاحبها بثمانين ألف دينار ، ولبس سلبه وقيمته خمسمائة ألف وخمسون ألفاً . وأصاب رجل يوم

---

(١) هو احمد بن طولون ـ ابو العباس ـ الامير صاحب الديار المصرية والشامية والثغور . تركي ، مستعرب ، كان شجاعاً ، جواداً حسن السيرة ، موصوفاً بالشدة على خصومه وكثرة الاثخان والفتك فيمن عصاه . بنى الجامع المنسوب إليه في القاهرة . ومن آثاره قلعة يافا (فلسطين) توفي سنة : (٢٧٠هـ ـ ٨٨٤ م) .
أنظر : الولاة والقضاة (٢١٢ ـ ٢٣٢) والنجوم الزاهرة (٣ : ١) . وابن خلدون (٤ : ٢٩٧) .

القادسية راية كسرى فعوّض عنها ثلاثين ألف دينار ، وكانت قيمتها ألف ألف دينار ومائتي ألف . ووجد المستورد بن ربيعة يوم القادسية إبريق ذهب مرصعاً بالجواهر فلم يدر أحد ما قيمته . فقال رجل من الفرس أنا آخذه بعشرة آلاف دينار ولم يعرف قيمته ، فذهب به إلى سعد بن أبي وقاص فأعطاه إياه . وقال لا تبعه إلا بعشرة آلاف دينار فباعه سعد بمائة ألف دينار . ولما أتت الترك إلى عبد الله بن زياد ببخارى في سنة أربع وخمسين كان مع ملكهم امرأة خاتون ، فلما هزمهم الله تعالى أعجلوها عن لبس خفها فلبست إحدى فردتيه ، ونسيت الأخرى فأصابها المسلمون فقوّمت بمائتي ألف دينار . ولما فتح قتيبة ابن‌مسلم بخارى في سنة تسع وثمانين وجد فيها قدور ذهب ينزل إليها بسلالم . ودفع مصعب بن الزبير حين أحسّ بالقتل إلى زياد مولاه فصاً من ياقوت أحمر ، وقال له انج به وكان قد قوّم ذلك الفص بألف ألف درهم ، فأخذه زياد ورضه بين حجرين وقال والله لا ينتفع به أحد بعد مصعب . وذكر مصعب بن الزبير أن بعض عمال خراسان في ولايته عثر على كنز فوجد فيه حلة كانت لبعض الأكاسرة مصوغة من الذهب ، مرصعة بالدرّ والجواهر ، والياقوت الأحمر والأصفر والزبرجد فحملها إلى مصعب بن الزبير فخرج من قوّمها فبلغت قيمتها ألفي ألف دينار ، فقال إلى من أدفعها فقيل إلى نسائك وأهلك . فقال لا بل إلى رجل قدّم‌عندنا يدا ، وأولانا جميلاً ، ادع لي عبد الله بن أبي دريد فدفعها إليه . ولما صار موجود عماد الدولة في قبضة أمير الجيوش وجد في جملته دملج ذهب فيه جوهرة حمراء كالبيضة وزنها سبعة عشر مثقالاً ، فأنفذها أمير الجيوش إلى المستنصر فقوّمت بتسعين ألف دينار . ووجد في بستان العباس بن الحسن الوزير مما أعدّ له من آلة الشرب يوم قتل سبعمائة صينية من ذهب وفضة ، ووجد له مائة ألف مثقال عنبر . وترك هشام بن عبد الملك بعد موته اثني عشر ألف قميص وشي ، وعشرة آلاف تكة حرير وحملت كسوته لما حج على سبعمائة جمل ، وترك بعد وفاته أحد عشر ألف ألف دينار . ولم تأت دولة بني العباس إلا وجميع أولاده فقراء لا مال لواحد منهم ، وبين الدولة العباسية ، ووفاة هشام سبع سنين . ولما قتل الأفضل بن أمير الجيوش في شهر رمضان سنة خمس وعشرة وخمسمائة خلف بعده مائة ألف ألف دينار ، ومن الدراهم مائة وخمسين أردبا[1] وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج ، ودواة من الذهب قوّم ما عليها من الجواهر واليواقيت بمائتي ألف دينار ، وعشرة بيوت في كل بيت منها مسمار ذهب ، قيمته مائة دينار على كل مسمار عمامة لونا ، وخلف كعبة عنبر يجعل عليها ثيابه ، إذ نزعها ، وخلف عشرة صناديق مملوءة من الجوهر الفائق الذي لا يوجد مثله ، وخلف خمسمائة صندوق كبار لكسوة حشمه ، وخلف من الزبادي الصيني والبلور المحكم ، وسق[2] مائة جمل ، وخلف عشرة آلاف ملعقة فضة ، وثلاثة آلاف ملعقة ذهب ، وعشرة آلاف زبدية فضة كبار وصغار ، وأربع قدور ذهباً ، كل قدر وزنها مائة رطل ، وسبعمائة جام[3] ذهباً بفصوص زمرد ، وألف خريطة مملوءة دراهم خارجاً عن

(١) الاردب : مكيال يساوي ٢٤ صاعاً والصاع يساوي ٤ أمداد .
(٢) الوسق : الحمولة .
(٣) الجام (كلمة فارسية) وهي الكأس وتطلق على الزجاج بشكل عام .

الأرادب ، في كل خريطة عشرة آلاف درهم ، وخلف من الخدم والرقيق والخيل والبغال والجمال وحلي النساء ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى ، وخلف ألف حسكة ذهباً وألفيّ حسكة فضة وثلاثة آلاف نرجسة ذهباً ، وخمسة آلاف نرجسة فضة ، وألف صورة ذهباً وألف صورة فضة ، منقوشة عمل المغرب ، وثلثمائة ثور ذهباً ، وأربعة آلاف ثور فضة ، وخلف من البسط الرومية والأندلسية ما ملأ به خزائن الإيوان وداخل قصر الزمرد ، وخلف من البقر والجاموس والأغنام ما يباع لبنه في كل سنة بثلاثين ألف دينار ، وخلف من الحواصل المملوءة من الحبوب ما لا يحصى .

ولما احتوى الناصر على ذخائر قصر العاضد وجد فيه طبلاً كان بالقرب من موضع العاضد محتفظاً به ، فلما رأوه سخروا منه ، فضرب عليه إنسان فضرط فضحكوا منه ، ثم أمسكه آخر وضربه فضرط فضحكوا عليه ، فكسروه استهزاء وسخرية ولم يدروا خاصيته ، وكانت الفائدة فيه أنه وضع للقولنج[1] ، فلما أخبروا بخاصيته ندموا على كسره . وقد جمعت الملوك من الأموال والذخائر والتحف كنوزاً لا تحصى ، وبعد ذلك ماتوا ونفذت ذخائرهم ، وفنيت أموالهم فسبحان من يدوم ملكه وبقاؤه . قال بعضهم :

هب الدنيا تقاد إليك عفوا ... أليس مصير ذلك للزوال

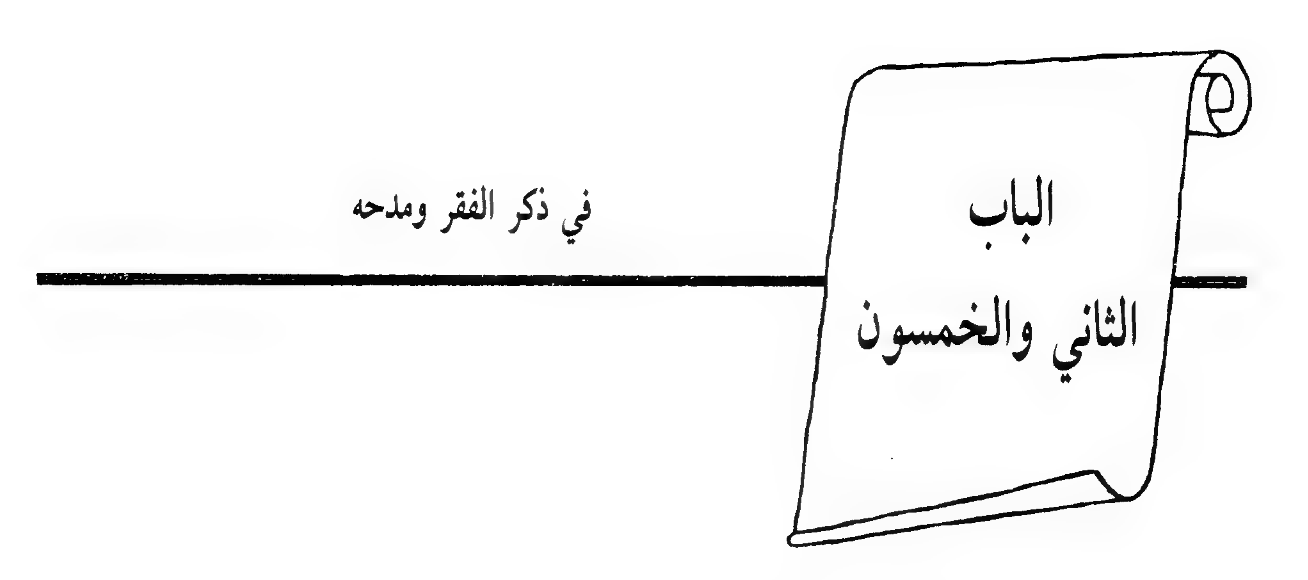
فضمنت أنا هذا البيت وقلت :

أيا من عاش في الدنيا طويلا ... وأفنى العمر في قيل وقال
وأتعب نفسه فيما سيفنى ... وجمع من حرام أو حلال
هب الدنيا تقاد إليك عفوا ... أليس مصير ذلك للزوال

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١) أحد الامراض الباطنية خاصة بالامعاء .



في ذكر الفقر ومدحه

قد دل قوله تعالى :﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى* أن رآه استغنى**﴾[1] على ذم الغنى إن كان سبب الطغيان . وسئل أبو حنيفة رحمه الله تعالى عن الغنى والفقر فقال : وهل طغى من طغى من خلق الله عز وجل إلا بالغنى ، وتلا هذه الآية المتقدمة . والمحققون يرون الغنى والفقر من قبل النفس لا في المال . وكان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يرون الفقر فضيلة ، وحدث الحسن رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بأربعين عاماً » فقال جليس للحسن أمن الأغنياء أنا أم من الفقراء فقال هل تغذيت اليوم قال نعم قال فهل عندك ما تتعشى به قال نعم قال فإذاً أنت من الأغنياء . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كان النبي ﷺ يبيت طاوياً ليالي ما له ولا لأهله عشاء . وكان عامة طعامه الشعير . وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع وكان ﷺ يأكل خبز الشعير غير منخول ، هذا وقد عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأبى أن يقبلها صلوات الله وسلامه عليه . وكان يقول اللهم توفني فقيراً ولا تتوفني غنياً ، واحشرني في زمرة المساكين . وقال جابر رضي الله تعالى عنه : دخل النبي ﷺ على ابنته فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى ، وعليها كساء من وبر الابل فبكى وقال تجرعي يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة . قال الله تعالى : ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾[2] وقال صلى الله عليه وسلم الفقر موهبة من مواهب الآخرة وهبها الله تعالى لمن اختاره ، ولا يختاره إلا أولياء الله تعالى . وفي الخبر إذا كان يوم القيامة يقول الله عز وجل لملائكته : أدنوا إليّ أحبائي فتقول الملائكة ومن أحباؤك يا إله العالمين . فيقول فقراء المؤمنين أحبائي . فيدنونهم منه . فيقول يا عبادي الصالحين إني ما زويت الدنيا عنكم لهوانكم عليّ ، ولكن لكرامتكم تمتعوا بالنظر إليّ وتمنوا ما شئتم فيقولون وعزتك وجلالك لقد أحسنت إلينا بما زويت عنها منها . ولقد أحسنت بما صرفت عنا فيأمر بهم فيكرمون ويحبرون ويزفون إلى أعلى مراتب الجنان . وقال ﷺ : « هل تنصرون إلا بفقرائكم وضعفائكم ، والذي نفسي بيده ليدخلن فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام والأغنياء يحاسبون على زكاتهم » . وقال عليه

---

(١) سورة العلق الآيتان ٦ و٧ .
(٢) سورة الضحى الآية ٥

الصلاة والسلام « رب أشعث أغبر ذي طمرين[1] لا يؤ به به لو أقسم على الله تعالى لأبره » أي لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئاً . وقال عليه الصلاة والسلام « إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤ به به الذين إذا استأذنوا على الأمير لا يؤ ذن لهم وإن خطبوا النساء لم ينكحوا ، وإذا قالوا لم ينصت لهم ، حوائج أحدهم تتلجلج في صدره لو قسم نوره على الناس يوم القيامة لوسعهم » . وروي عن خالد بن عبد العزيز أنه قال : كان حيوة بن شريح من البكائين وكان ضيق الحال جداً ، فجلست إليه ذات يوم وهو جالس وحده يدعو . فقلت له : يرحمك الله لو دعوت الله تعالى ليوسع عليك في معيشتك . قال : فالتفت يميناً وشمالاً فلم ير أحداً ، فأخذ حصاة من الأرض وقال اللهم اجعلها ذهباً فاذا هي تبرة في كفه ، ما رأيت أحسن منها قال فرمى بها إلّي . وقال هو أعلم بما يصلح عباده ، فقلت ما أصنع بهذه قال أنفقها على عيالك فهبته والله أن أردها عليه . وقال عون بن عبد الله صحبت الأغنياء فلم أجد فيهم أحداً أكثر مني هماً لأني كنت أرى ثياباً أحسن من ثيابي ، ودابة أحسن من دابتي ، ثم صحبت الفقراء بعد ذلك فاسترحت قال بعضهم :

وقـد يهلك الإنسان كثـرة مـالـه ... كما يذبح الطاووس من أجل ريشه

وقال عبد الله بن طاهر :

ألم تـر أن الـدهـر يهـدم مـا بنى ... ويأخذ مـا أعطى ويفسـد ما أسدى
فمن سـره أن لا يـرى مـا يسؤوه ... فـلا يتخذ شيئـاً ينال بـه فقـدا

وكان من دعاء السلف رضي الله تعالى عنهم : اللهم إني أعوذ بك من ذل الفقر وبطر الغنى . وقيل مكتوب على باب مدينة الرقة ويل لمن جمع المال من غير حقه ، وويلان لمن ورثّه لمن لا يحمده . وقدم على من لا يعذره . ولما فتحت بلخ في زمن عمر رضي الله تعالى عنه وجد على بابها صخرة مكتوب فيها إنما يتبين الفقير من الغني بعد الانصراف من بين يدي الله تعالى ، أي بعد العرض . قال الشاعر :

ومن يطلب الأعلى من العيش لم يزل ... حزيناً على الـدنيـا رهين غبـونهـا
إذا شئت أن تحيـا سعيداً فـلا تكن ... على حـالـة إلا رضيت بـدونهـا

وقال آخر :

ولا تـرهبنّ الفقر مـا عشت في غد ... لـكـل غـد رزق مـن الله وارد

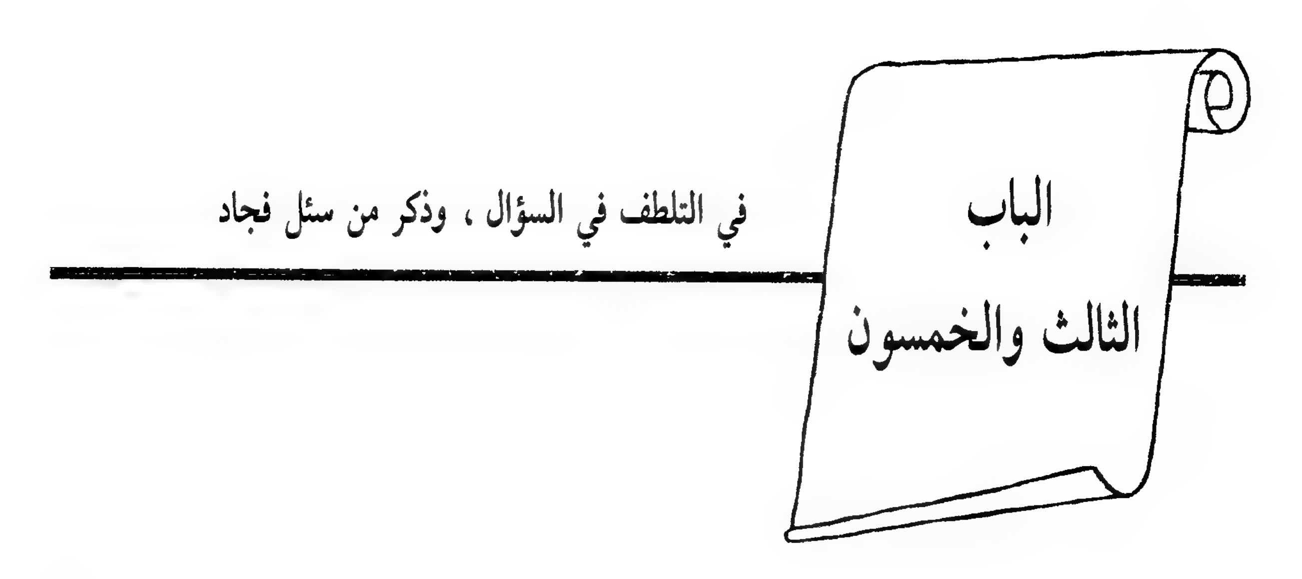
قال هارون بن جعفر الطالبي :

بـوعـدت همتي وقـورب مـالي ... ففعـالي مقـصـر عـن مقـالي
مـا اكتسى الناس مثل ثوب اقتنـاع ... وهـو من بين مـا اكتسـوا سربـالي
ولـقـد تـعـلم الـحـوادث أنـي ... ذو اصطبـار على صـروف الليـالي

وقال اعرابي : من ولد في الفقر أبطره الغنى . ومن ولد في الغنى لم يزده إلا تواضعا . فما أحسن الفقر وأكثر ثوابه وأعظم أجر من رضي به وصبر عليه . اللهم اجعلنا من الصابرين برحمتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) الطمر : الثوب البالي .



الباب الثالث والخمسون

في التلطف في السؤال ، وذكر من سئل فجاد

روى الإمام مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أعطوا السائل ولو جاء على فرس » . وما سئل عليه السلام شيئاً قط فقال لا . وأتى اعرابي إلى علي رضي الله تعالى عنه فسأله شيئاً . فقال : والله ما أصبح في بيتي شيء فضل عن قوتي . فولى الأعرابي وهو يقول : والله ليسألنك الله عن موقفي بين يديك يوم القيامة . فبكى عليّ رضي الله تعالى عنه بكاء شديداً وأمر برده . وقال يا قنبر : ائتني بدرعي الفلانية فدفعها إلى الأعرابي وقال لا تخدعن عنها ، فطالما كشفت بها الكروب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال قنبر : يا أمير المؤمنين كان يجزيه عشرون درهماً . فقال يا قنبر : والله ما يسرني أن لي زنة الدنيا ذهباً وفضة فتصدقت به ، وقبل الله مني ذلك ، وأنه يسألني عن موقف هذا ، بين يديه . وقال علي رضي الله تعالى عنه : إن لكلّ شيء ثمرة ، وثمرة المعروف تعجيل السراح . وقال مسلمة لنصيب : سلني فقال كفك بالعطية أبسط من لساني بالمسألة فقال لحاجبه : ادفع إليه ألف دينار . وسأل رجل الحسن رضي الله تعالى عنه . فقال له : ما وسيلتك ؟ قال : وسيلتي أني أتيتك عام أول فبررتني . فقال : مرحباً بمن توسل إلينا بنا ثم وصله وأكرمه . ويقال الكريم إذا سئل ارتاح ، واللئيم إذا سئل ارتاع . ولما وفد المهدي من الري إلى العراق امتدحه الشعراء فقال أبو دلامة :

إني نذرت لئن رأيتك قادماً ... أرض العراق وأنت ذو وقر

لتصلين على النبيّ محمد ... ولتملأن دراهما حجري

فقال المهدي صلى الله على محمد . فقال أبو دلامة ما أسرعك للأولى ، وأبطأك عن الثانية ، فضحك وأمر ببدرة فصبت في حجره .

وسمع الرشيد اعرابية بمكة تقول :

طحنتنا كلا كل الأعوام ... وبرتنا طوارق الأيام[1]

فأتيناكمو نَمُدّ أكفا ... لالتقام من زادكم والطعام

فاطلبوا الأجر والمثوبة فينا ... أيها الزائرون بيت حرام

---

(١) كلاكل الاعوام : شدة السنين ومصائبها .

فبكى الرشيد . وقال لمن معه سألتكم بالله تعالى إلا ما دفعتم إليها صدقاتكم فألقوا عليها الثياب حتى وارتها كثرة ،وملأوا حجرها دراهم ودنانير. وسأل أعرابي بمكة وأحسن في سؤاله فقال أخ في الله ، وجار في بلد الله ، وطالب خير من عند الله ، فهل من أخ يواسيني في الله . قال الشاعر :

ليس في كل وهلة وأوان   تتهيأ صنائع الإحسان
فاذا أمكنت فبادر إليها   حذراً من تعذر الإمكان

وقال البصري :

أضحت حوائجنا إليك مناخة   معقولة برحابك الوصال
أطلق فديتك بالنجاح عقالها   حتى تثور بنا بغير عقال

وعن علّي رضي الله تعالى عنه : قال : يا كميل مر أهلك أن يروحوا في كسب المكارم ، ويدلجوا في حاجة من هو نائم ، فوالذي وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفاً ، فاذا نابته نائبة جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه ، كما تطرد غريبة الأبل . وقال لجابر بن عبد الله : يا جابر من كثرت نعم الله تعالى عليه ، كثرت حوائج الناس إليه ، فاذا قام بما يجب لله فيها فقد عرضها للدوام والبقاء . ومن لم يقم بما يجب لله فيها عرض نعمه لزوالها . وكان لبيد[1] رحمه الله تعالى آلى على نفسه كلما هبت الصبا أن ينحر ويطعم ، وربما ذبح العناق إذا ضاق الخناق ، فخطب الوليد بن عتبة يوماً فقال : قد علمت ما جعل أبو عقيل على نفسه فأعينوه على مروءته . ثم بعث إليه بخمس من الابل وبهذه الأبيات :

أرى الجزار يشحذ مديتيه   إذا هبت رياح بني عقيل
طويل الباع أبلج جعفري   كريم الجد كالسيف الصقيل
وفي ابن الجعبريّ بما نواه   على العلات بالمال القليل

فدعا لبيد بنتاً له خماسية وقال : يا بنية إني تركت قول الشعر فأجيبي الأمير عني فقالت :

إذا هبت رياح بني عقيل   تداعينا لهبتها الوليدا
طويل الباع أبلج عبشمي   أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كأن رعيا   عليها من بني حام قعودا

---

(١) هو لبيد بن ربيعة بن مالك ـ أبو عقيل ـ العامري . أحد الشعراء الفرسان الاشراف في الجاهلية . أدرك الاسلام ، ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويعد من الصحابة ، ومن المؤلفة قلوبهم . وترك الشعر ، فلم يقل في الاسلام إلا بيتاً واحداً :

« ما عاتب المرء الكريم كنفسه   والمرء يصلحه الجليس الصالح »

له « ديوان » ترجم إلى الالمانية.توفي سنة (٤١هـ ـ ٦٦١ م)

أنظر : خزانة الادب للبغدادي (١ : ٣٣٧ ـ ٣٣٩) وآداب اللغة (١ : ١١١) .

أبـا وهب جـزاك الله خيـرا نحرنـاهـا وأطعمنا الثـريدا
فعـد إن الكـريم لـه معـاد وظني في ابن عتبة أن يعودا

فقال لقد أحسنت والله يا بنية ، لولا أنك سألت وقلت عد . فقالت يا أبت إنّ الملوك لا يستحيا منهم في المسألة فقال والله لأنت في هذا أشعر مني . ووفد رجل من بني ضبة على عبد الملك فأنشده :

والله مـا نـدري إذا مـا فـاتـنـا طـلب إليـك من الـذي نـتـطلب
ولقـد ضـربنـا في البـلاد فلم نجـد أحـداً سـواك إلى المكـارم ينسب
فـاصبـر لعـادتـك التي عـوّدتنـا أو لا فـأرشـدنـا إلى من نـذهب

فأمر له بألف دينار ، فعاد إليه من قابل وقال يا أمير المؤمنين إن الروي لينازعني ، وإن الحياء يمنعني فأمر له بألف دينار وقال : والله لو قلت حتى تنفد بيوت الأموال لأعطيتك . وقيل إن رجلاً عرض للمنصور فسأله حاجة فلم يقضها ، فعرض له بعد ذلك ، فقال له المنصور : أليس قد كلمتني مرة قبل هذه ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين ولكن بعض الأوقات أسعد من بعض ، وبعض البقاع أعز من بعض . فقال : صدقت وقضى حاجته وأحسن إليه . وروي أن أبا دلامة الشاعر كان واقفاً بين يدي السفاح في بعض الأيام فقال له سلني حاجتك . فقال : كلب صيد . فقال أعطوه إياه . فقال ودابة أصيد عليها . فقال : أعطوه دابة . فقال وغلاماً يقود الكلب ويصيد به . قال أعطوه غلاماً . قال وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه . قال أعطوه جارية . فقال هؤلاء يا أمير المؤمنين عيال ولا بد لهم من دار يسكنونها ، قال أعطوه داراً تجمعهم . قال فان لم يكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون . قال قد أقطعته عشر ضياع عامرة ، وعشر ضياع غامرة . فقال ما الغامرة يا أمير المؤمنين ؟ قال ما لا نبات فيها . قال قد أقطعتك يا أمير المؤمنين مائة ضيعة غامرة من فيافي بني أسد ، فضحك وقال اجعلوها كلها عامرة. فانظر إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها ، كيف ابتدأ بكلب صيد فسهل القضية ، وجعل يأتي بمسألة بعد مسألة على ترتيب وفكاهة حتى سأل ما سأله ، ولو سأل ذلك بديهة لما وصل إليه .

وحكي عن المأمون أنه قال ليحيى بن أكثم يوماً سر بنا نتفرّج ، فسارا فبينما هما في الطريق وإذا بمقصبة خرج منها رجل بقصبة للمأمون يتظلم له فنفرت دابته فألقته على الأرض صريعاً فأمر بضرب ذلك الرجل . فقال يا أمير المؤمنين إن المضطر يرتكب الصعب من الأمور ، وهو عالم به ويتجاوز حدّ الأدب وهو كاره لتجاوزه ، ولو أحسنت الأيام مطالبتي لأحسنت مطالبتك ، ولأنت على ردّ ما لم تفعل أقدر مني على ردّ ما قد فعلت . قال فبكى المأمون وقال : بالله أعد علّي ما قلت . فأعاده فالتفت المأمون إلى يحيى بن أكثم وقال : أما تنظر إلى مخاطبة هذا الرجل فأصغريه والنبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : « المرء بأصغريه قلبه ولسانه » ، والله لا وقفت لك إلا وأنا قائم على قدميّ ، فوقف وأمر له بصلة جزيلة واعتذر إليه ، فلما همّ المأمون بالانصراف قال الرجل : يا أمير المؤمنين بيتان قد حضراني ، ثم أنشد يقول :

مـا جـاد بـالـوفـر إلا وهـو معتـذر ولا عـفـا قط إلا وهـو مـقـتـدر
وكـلمـا قـصـدوه زاد نـائلـه كـالنـار يؤخـذ منهـا وهي تستعـر

وقيل : إن بعض الحكماء لزم باب كسرى في حاجة دهراً فلم يصل إليه ، فكتب أربعة أسطر في ورقة ودفعها للحاجب فكان في السطر الأوّل : العديم لا يكون معه صبر على المطالبة . وفي السطر الثاني : الضرورة والأمل أقدماني عليك . وفي السطر الثالث : الانصراف من غير فائدة شماتة الأعداء . وفي السطر الرابع : أمّا نعم ، فمثمرة وأمّا لا ، فمريحة ، فلما قرأها كسرى دفع له في كل سطر ألف دينار .

وحكي أن رجلاً كان جاراً لابن عبيد الله فأصاب الناس قحط بالعراق حتى رحل أكثر الناس عنه فعزم جار ابن عبيد الله على الخروج من البلاد في طلب المعيشة ، وكانت له زوجة لا تقدر على السفر ، فلما رأت زوجها تهيأ للسفر قالت له : إذا سافرت من ينفق علينا ؟ قال : إنّ لي على ابن عبيد الله دينار ومعي به إشهاد عليه شرعي ، فخذي الإشهاد وقدّميه إليه ، فإذا قرأه أنفق عليك مما عنده حتى أحضر ، ثم ناولها رقعة كتب فيها هذه الأبيات يقول :

قالت وقد رأت الأحمال محدجة	والبين قد جمع المشكوّ الشاكي
من لي إذا غبت في ذا المحل قلت لها	الله وابن عبيد الله مولاكِ

فمضت إليه المرأة وحكت له ما قال زوجها ، وأخبرته بسفره ، وناولته الرقعة فقرأها وقال : صدق زوجك وما زال ينفق عليها ويواصلها بالبرّ والإحسان إلى أن قدم زوجها ، فشكره على فضله وإحسانه .

وحكي أن مطيع بن إياس مدح معن بن زائدة بقصيدة حسنة ثم أنشدها بين يديه ، فلما فرغ من إنشاده أراد معن أن يباسطه فقال يا مطيع : إن شئت أعطيناك ؟ وإن شئت مدحناك كما مدحتنا ؟ فاستحيا مطيع من اختيار الثواب ، وكره اختيار المدح وهو محتاج ، فلما خرج من عند معن أرسل إليه بهذين البيتين :

ثناء من أمير خير كسب	لصاحب نعمة وأخي ثراء
ولكنّ الزمان برى عظامي	ومالي كالدراهم من دواء

فلما قرأها معن ضحك وقال : ما مثل الدراهم من دواء ، وأمر له بصلة جزيلة ، ومال كثير .

قال الشاعر :

هززتك لا أني جعلتك ناسياً	لأمري ولا أني أردت التقاضيا
ولكن رأيت السيف من بعد سله	إلى الهزّ محتاجا وإن كان ماضيا

وقال آخر :

ماذا أقول إذا رجعت وقيل لي	ماذا لقيت من الجواد الافضل
إن قلت أعطاني كذبت ، وإن أقل	بخل الجواد بماله لم يجمل
فاختر لنفسك ما أقول فانني	لا بدّ أخبرهم وإن لم أسئل

وقال آخر :

لنوائب الدنيا خبأتك فانتبه	يا نائماً من جملة النوام

أعلى الصراط تزيل لوعة كربتي   أم في المعاد تجود بالإنعام

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الباب ذكر شيء مما جاء في ذمّ السؤال والنهي عنه . « روي » عن عبد الرحمن بن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله تعالى عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة . فقال : ألا تبايعون رسول الله ﷺ . فبسطنا أيدينا ، وكنا حديثي عهد بالمبايعة ، فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، فعلام يا رسول الله نبايعك ؟ قال : « أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وتقيموا الصلوات الخمس ، وتطيعوا الله ، وأسر كلمة خفية وهي ولا تسألوا الناس شيئاً ، فلقد رأيت بعض اولئك النفر يسقط سوط أحدهم ، فما يسأل أحداً يناوله إياه » رواه مسلم . وقال رجل لأبنه : إياك أن تريق ماءوجهك عند من لا ماء في وجهه . وكان لقمان يقول لولده : يا بنيّ والسؤال فإنه يذهب ماء الحياء من الوجه ، وأعظم من هذا استخفاف الناس بك ، وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام لئن تدخل يدك في فم التنين إلى المرفق خير لك من أن تبسطها إلى غنّي قد نشأ في الفقر . وقيل لأعرابيّ : ما السقم الذي لا يبرأ ، أو الجرح الذي لا يندمل ؟ قال : حاجة الكريم إلى اللئيم . وقال أبو ملحلم السعدي :

إذا ما رماك الدهر في الضيق فانتجع   قديم الغنى في الناس إنك حامده
ولا تطلبنّ الخير ممن أفاده   حديثاً ومن لا يورث المجد والده

وقال رسول الله ﷺ : « مسألة الناس من الفواحش ما أحلّ من الفواحش غيرها » وقال عليه الصلاة والسلام : « لئن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه » قال الشاعر :

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله   عوضاً ولو نال الغنى بسؤال
وإذا السؤال مع النوال وزنته   رجح السؤال وخفّ كلّ نوال

وقال أحمد الأنباري :

لموت الفتى خير من البخل للغني   وللبخل خير من سؤال بخيل
لعمرك ما شيء لوجهك قيمة   فلا تلق إنساناً بوجه ذليل

وقال سلم الخاسر :

إذا أذن الله في حاجة   أتاك النجاح على رسله
فلا تسأل الناس من فضلهم   ولكن سل الله من فضله

ويقال : أحبّ الناس إلى الله من سأله ، وأبغض الناس إلى الناس من احتاج إليهم وسألهم ، وفي هذا المعنى قيل :

لا تسألنّ بني آدم حاجة   وسل الذي أبوابه لا تحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله   وبني آدم حين يسأل يغضب

وقال محمود الوراق :[1]

شــاد الملوك قصــورهم وتحصنــوا ... من كــل طــالب حــاجة أو راغب
فــارغب إلى ملك الملوك ولا تكن ... يــا ذا الضــراعة طــالبــاً من طــالب

وقال ابن دقيق العيد :

وقــائلة مــات الكــرام فـمن لنــا ... إذا عضنــا الــدهـر الشديــد بنـابــه
فقلت لهــا من كــان غــاية قصــده ... سؤالا لـمخلوق فـليس بنـابــه
إذا مات من يرجى فمقصودنا الـذي ... تــرجـينـــه بــاق فـلوذي ببـابــه

وقال بعض أهل الفضل :

لمــا افتقرت لصحبي مــا وجدتهمو ... لــجـأت لله لـبــانــي وأغـنــانــي
واها على بذل وجهي للورى سفهـا ... فـلو بـذلـت إلـى مـولاي والانـي

وسأل رجل رجلاً حاجة فلم يقضها فقال : سألت فلاناً حاجة أقل من قيمته فردني رداً أقبح من خلقته .
وسأل عروة مصعباً حاجة فلم يقضها فقال : علم الله تعالى أن لكل قوم شيخاً يفزعون إليه ، وأنا أفزع منك .
ويقال لا شيء أوجع للاخيار من الوقوف بباب الاشرار . وقال الامام الشافعي رحمه الله تعالى :

بـلوت بنـي الــدنيــا فـلم أر فيـهم ... سـوى من غدا والبخـل ملء اهـابه
فجـردت من غمد القنـاعـة صـارمـاً ... قــطعت رجـائي منهـم بــذبــابــه
فــلا ذا يــراني واقفــاً في طـريقــه ... ولا ذا يـــراني قــاعــداً عنـد بـــابــه
غنيّ بــلا مــال عن النــاس كـلهم ... وليس الغنى إلا عن الشـيء لا بــه
إذا ظـالم يستحسن الـظلم مـذهبـا ... ولــج عتــوّا في قبيــح اكتســابــه
فكله إلى صــرف الليــالي فــانهــا ... ستبـدي له مـا لم يكن في حسابه
فكم قــد رأينــا ظــالمــاً متمــرداً ... يـرى النجم تيها تحت ظـل ركـابه
فعمّـا قـليـل وهــو في غـفــلاتــه ... أنـاخت صـروف الحـادثـات ببــابه
فـأصبـح لا مـال ولا جـاه يـرتجي ... ولا حسنــات تـلتقـي في كـتــابــه
وجـوزيَ بالأمـر الـذي كـان فـاعـلاً ... وصـبّ عـليـه الله سـوط عــذابــه

وقال آخر :

لا تســألنّ إلـى صــديق حــاجــة ... فيحـول عنـك كمـا الـزمـان يحـول

---

(1) هو محمود بن حسن الوراق . شاعر أكثر شعره في المواعظ والحكم ، روى عنه ابن ابي الدنيا . جمع عدنان العبيدي ببغداد ، ما وجد من شعره في « ديوان » توفي (نحو ٢٢٥هـ ـ نحو ٨٤٠ م) .
أنظر : فوات الوفيات (٢ : ٢٨٥) .

واستعن بالشيء القليل فانه ما صان عرضك لا يقال قليل
من عف خف على الصديق لقاؤه وأخو الحوائج وجهه مملول
وأخوك من وفرت ما في كفه ومتى علقت به فأنت ثقيل

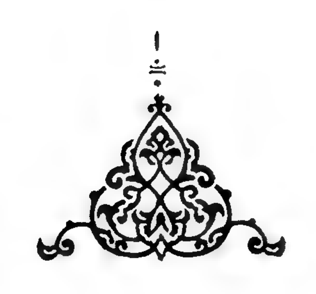
وقال آخر :

ليس جوداً أعطيته بسؤال قد يهز السؤال غير جواد
إنما الجود ما أتاك ابتداء لم تذق فيه ذلة الترداد
لا تحسبن الموت موت البلا إنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكنّ ذا أخف من ذاك لذل السؤال

وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه :

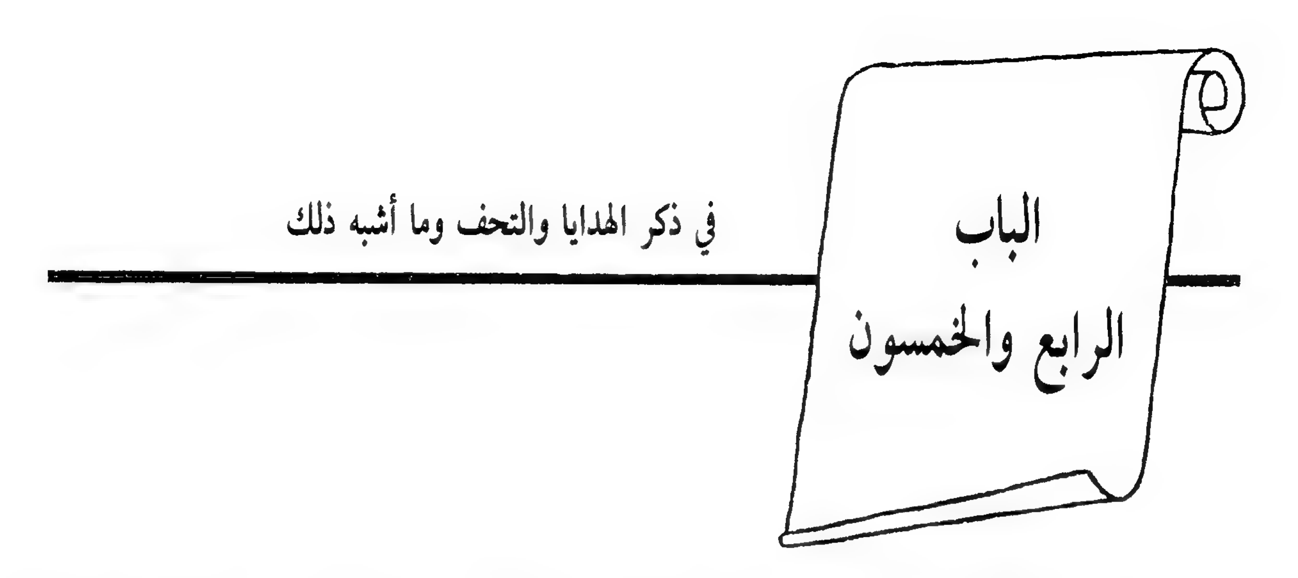
قنعت بالقوت من زماني وصنت نفسي عن الهوان(١)
خوفاً من الناس أن يقولوا فضّل فلان على فلان
من كنت عن ماله غنياً فلا أبالي إذا جفاني
ومن رآني بعين نقص رأيته بالتي رآني
ومن رآني بعين تمّ رأيته كامل المعاني

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



---

(١) الهوان : الذل .



الباب الرابع والخمسون

في ذكر الهدايا والتحف وما أشبه ذلك

قال الله تعالى :﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾[1] فسرها بعضهم بالهدية . وقال صلى الله عليه وسلم : « تهادوا تحابوا فانها تجلب المحبة وتذهب الشحناء » وقال ﷺ : « الهدية مشتركة » وقال ﷺ : « من سألكم بالله فأعطوه ، ومن استعاذكم فأعيذوه ، ومن أهدى إليكم كراعاً فاقبلوه » وكان ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها ما هو خير منها . وفي الأثر الهدية تجلب المودة إلى القلب والسمع والبصر . ومن الأمثال إذا قدمت من سفر فأهد لأهلك ولو حجراً . وقال الفضل بن سهل ما استرضى الغضبان ، ولا استعطف السلطان ، ولا سلبت السخائم ، ولا دفعت المغارم ، ولا استميل المحبوب ، ولا توقى المحذور بمثل الهدية . وأتى فتح الموصلي بهدية وهي خمسون ديناراً فقال حدّثنا عطاء عن النبي ﷺ أنه قال : « من آتاه الله رزقاً من غير مسألة وردّه فكأنما ردّه على الله تعالى » . وأهدى رسول الله ﷺ هدية إلى عمر فردّها . فقال : يا عمر لم رددت هديتي ؟ فقال عمر رضي الله تعالى عنه إني سمعتك تقول : خيركم من لم يقبل شيئاً من الناس . فقال يا عمر إنما كان ذاك ما كان عن ظهر مسألة ، فأما إذا أتاك من غير مسألة ، فإنما هو رزق ساقه الله إليك . وقالت أم حكيم الخزاعية : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تهادوا فانه يضاعف الحب ، ويذهب بغوائل الصدر » ويقال في نشر المهاداة طي المعاداة .

ذكر أنواع الهدايا للخلفاء وغيرهم ممن قصرت به قدرته فأهدى اليسير وكتب معه مكاتبة يعتذر بها

أهدي إلى سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ثمانية أشياء متباينة في يوم واحد . فيلة من ملك الهند . وجارية من ملك الترك . وفرس من ملك العرب .وجوهرة من ملك الصين .وإستبرق[2] من ملك الروم . ودرّة من ملك البحر . وجرادة من ملك النمل . وذرة من ملك البعوض . فتأمل ذلك وقال : سبحان القادر على جمع الأضداد . وأهدى ملك الروم إلى المأمون هدية . فقال أهدوا له ما يكون ضعفها مائة مرة ، ليعلم عز الإسلام ، ونعمة الله تعالى علينا ، ففعلوا ذلك ، فلما عزموا على حملها . قال : ما أعز الأشياء عندهم . قالوا المسك والسمور ، قال وكم في الهدية من ذلك قالوا : مائتا رطل مسكاً ، ومائتا فروة سمور . وأهدت قطر الندى إلى المعتضد بالله في يوم نيروز في سنة اثنتين وثمانين ومائتين هدية ، كان فيها عشرون صينية ذهب ، في عشرة منها مشام عنبر وزنها أربعة وثمانون رطلاً ، وعشرون صينية فضة ، في عشرة منها مشام صندل ، زنتها نيف وثلاثون

---

(١) سورة النساء الآية ٨٦ . (٢) نوع من القماش .

رطلاً ، وخمس خلع وشي قيمتها خمسة آلاف دينار ، وعملت شمامات ليوم النيروز بلغت النفقة عليها ثلاثة عشر ألف دينار . وأهدى يعقوب بن الليث الصفار إلى المعتمد على الله هدية في بعض السنين من جملتها عشرة بازات . منها باز أبلق لم ير مثله ، ومائة مهر ، وعشرون صندوقاً على عشر بغال فيها طرائف الصين وغرائبه ، ومسجد فضة بدرابزين يصلي فيه خمسة عشر إنساناً ، ومائة رطل من مسك ، ومائة رطل عود هندي ، وأربعة آلاف ألف درهم . وأهدت ثريا بنت الأوباري ملكة افرنجة وما والاها إلى المكتفي بالله في سنة ثلاث وسبعين ومائتين خمسين سيفاً ، وخمسين رمحاً ، وعشرين ثوباً منسوجاً بالذهب ، وعشرين خادماً صقلياً ، وعشرين جارية صقلية . وعشرة كلاب كبار لا تطيقها السباع ، وستة بازات ، وسبعة صقور ، ومضرب حرير متلوّن بجميع الألوان كلون قوس قزح ، يتلوّن في كل ساعة من ساعات النهار ، وثلاثة أطيار من الأطيار الافرنجية ، إذا نظرت إلى الطعام أو الشراب المسموم صاحت صياحاً منكراً ، وصفقت بأجنحتها حتى يعلم بذلك ، وخرزاً يجذب النصول بعد نبات اللحم عليها بغير وجع ، وحمارة وحشية عظيمة الخلقة في قدر البغل وآذانها شبه آذان البغل وهي مخططة تخطيطاً عاماً لجميع خلقتها . وأهدى قسطنطين ملك الروم إلى المستنصر بالله في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة هدية عظيمة اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطاراً من الذهب الأحمر ، كل قنطار منه عشرة آلاف دينار عربية . قيمة ذلك ثلثمائة ألف دينار عربية .

وحكي أن الخيزران[1] جارية المهدي كانت أديبة شاعرة فعزم المهدي على شراء دواء ، فأنفذت إليه جام بلور فيه شراب اختارته له مع وصيفة بكر بارعة الجمال وكتبت إليه تقول :

إذا خـرج الإمـام مـن الـدواء	وأعـقـب بـالـسـلامـة والـشـفـاء
وأصلـح حـالـه من بعـد شـرب	بـهـذا الجـام مـن هـذا الـطلاء
فـيـنـعـم لـلتي قـد أنـفـذتـه	إلـيـه بـزورة بـعـد الـعـشـاء

فسر بذلك ووقعت الجارية منه أعظم موقع ، وزار الخيزران وأقام عندها يومين .

وأهدى الصابئي إلى عضد الدولة[2] إسطرلاباً في يوم المهرجان وكتب إليه يقول :

أهـدى إليـك بنـو الأمـلاك واحتفلوا	في مهـرجـان جـديـد أنت تبليـه
لكنّ عـبـدك إبـراهيم حـين رأى	سـمـوّ قـدرك عن شيء يـدانيـه
لم يـرض بالأرض يهديها إليـك وقد	أهـدى لـك الفلك الأعـلى بما فيـه

---

(١) الخيزران : زوجة المهدي العباسي ، وام ابنيه (الهادي، وهارون الرشيد) ملكة حازمة ، متفقهة . يمانية الاصل . اخذت الفقه عن الامام الاوزاعي . وكانت من جواري المهدي ، واعتقها وتزوجها . توفيت ببغداد سنة (١٧٣هـ - ٧٨٩ م)

أنظر : الطبري (١٠ : ٥٢). وتاريخ بغداد (١٤ : ٤٣٠).

(٢) هو فناخسرو الملقب عضد الدولة بن الحسن الملقب ركن الدولة بن بويه الديلمي - ابو شجاع - تولى ملك فارس ثم ملك الموصل وبلاد الجزيرة وهو أول من خطب له على المنابر بعد الخليفة ، واول من لقب في الاسلام « شاهنشاه » كان شديد الهيبة ، جباراً ، عسوفاً ، اديباً ، عالماً بالعربية ينظم الشعر ، نعته الذهبي بالنحوي وصنف له ابو علي الفارسي « الايضاح » كما صنف له ابو اسحاق الصابي كتاب : « التاجي ». توفي سنة (٣٧٢هـ - ٩٨٣ م).

أنظر بغية الوعاة (٣٧٤). والبداية والنهاية (١١ : ٢٩٩).

وأهدى رجل إلى المتوكل قارورة ذهب وكتب معها : إن الهدية إذا كانت من الصغير إلى الكبير فكلما لطفت ودقت كانت أبهى وأحسن ، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فكلما عظمت وجلّت كانت أوقع وأنفع . وأهدى مرة أبو الهذيل إلى موسى بن عمران دجاجة ووصفها له بصفات جليلة ، ثم لم يزل يذكرها ، وكلما ذكر شيء بجمال ، أو سمن قال هو أحسن ، أو أسمن من الدجاجة التي أهديتها إليكم ، وإن ذكر حادث قال ذلك ، قبل أن أهدي لكم الدجاجة بشهر ، وما كان بين ذلك وبين إهداء الدجاجة إلا أيام قلائل فصارت مثلاً لمن يستعظم الهدية ويذكرها . قال الشاعر :

وإن امرأ أهدى إليّ صنيعة ... وذكرنيها مرة للئيم

وقال سفيان الثوري : إذا أردت أن تتزوّج فأهد للأم . وكان سفيان يروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : من أهديت إليه هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها ، فأهدى إليه صديق له ثياباً من ثياب مصر وعنده قوم فذكروا الخبر فقال إنما ذلك فيما يؤكل ويشرب ، أما في ثياب مصر فلا . وكتب الحمدوني إلى جارية اسمها برهان وقد حج مواليها فقال :

حجوا مواليك يا برهان واعتمروا ... وقد أتتك الهدايا من مواليك
فاطرفيني بما قد أطرفوك به ... ولا تكن طرفتي غير المساويك
ولست أقبل إلا ما جلوت به ... ثنيتيك وما ردّدت في فيك

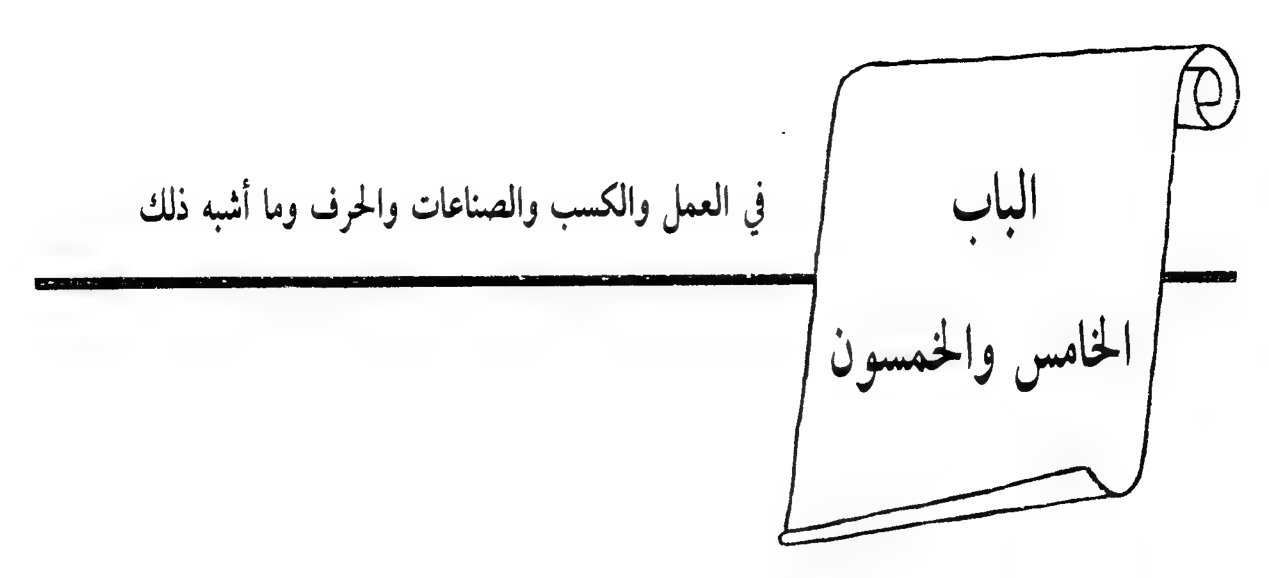
وكتب بعضهم إلى صديقه وقد أهدى إليه هدية يسيرة يقول :

تفضل بالقبول عليّ إني ... بعثت بما يقلّ العبد عندك

وأهدى بعضهم إلى صديقه هدية في يوم نيروز وكتب إليه يقول : هذا يوم جرت فيه العادة بالطاف العبيد للسادة ، وقدر الأمير يجلّ عما تحيط به المقدرة ، وفي سؤدده ما يوجب التفضل ببسط المعذرة ، وقد وجهت ما حضر علماً بأنه لا يستكثر ما جلّ ، ولا يستقل لعبده ما قل ، فان رأى أن يتطوّل بقبول القليل كتطوّله باهداء الجزيل فعل وجعل يقول :

رأيت كثير ما يهدى إليكم ... قليلاً فاقتصرت على الدعاء

وبلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش يقع فيه ويقول : ظالم ولي المظالم فأهدى إليه هدية فمدحه الأعمش بعد ذلك وقال : الحمد لله الذي ولي علينا من يعرف حقوقنا . فقيل له كنت تذمه ثم الآن تمدحه . فقال : حدثني خيثمة عن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها » وقال عبد الملك بن مروان : ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها : الكتاب يدلّ على عقل كاتبه ، والرسول يدّل على عقل مرسله ، والهدية تدلّ على عقل مهديها . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الخامس والخمسون

في العمل والكسب والصناعات والحرف وما أشبه ذلك

أما العمل فقد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال : « أفضل العمل أدومه وإن قلّ » وقال عليّ بن أبي طالب كرّم الله تعالى وجهه :«قليل مُدامٌ عليه خير من كثير مملول » وفي التوراة حرّك يداك افتح لك باب الرزق . وكان إبراهيم بن أدهم يسقي ويرعى ويعمل بالكراء ويحفظ البساتين والمزارع ويحصد بالنهار ويصلي بالليل . وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال : « جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال يا رسول ألا ما ينفي عني حجة العلم ؟ قال : العمل » . وعنه ﷺ أنه قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » . وقال الأوزاعي : إذا أراد الله بقوم سوءاً أعطاهم الجدل ومنعهم العمل ، وأنشد يقول :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ففي صالح الأعمال نفسك فاجعل

وقال بعض الحكماء : لا شيء أحسن من عقل زانه حلم ، ومن عمل زانه علم ، ومن حلم زانه صدق . ودخل بعض الخواص على إبراهيم بن صالح وهو أمير فلسطين فقال له : عظني ، فقال له الوليّ بلغني رحمك الله أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى ، فانظر ماذا تعرض على رسول الله ﷺ من عملك ، فبكى إبراهيم حتى سالت دموعه وقيل : من جدّ وجد ، وانشدوا في المعنى :

إني رأيت وفي الأيام تجربة للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقل من جدّ في أمر يحاوله واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وتقول العرب : فلان وثاب على الفرص . وقال بعضهم :

وإني إذا باشرت امراً اريده تدانت أقاصيه وهان أشدّه

وعن أنس رضي الله تعالى عنه : يتبع الميت ثلاث ، يرجع اثنان ويبقى واحد ، يتبعه : أهله ، وماله ، وعمله ، فيرجع أهله وماله ولا يرجع عمله . وقال بعضهم : العمل سعي الأركان إلى الله . والنية سعي القلوب إلى الله ، والقلب ملك ، والأركان جنود ، ولا يحارب الملك إلاّ بالجنود ، ولا الجنود إلا بالملك . وقيل : الدنيا كلها ظلمات إلا موضع العلم ، والعلم كله هباء إلا موضع العمل ، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص ، وهذا هو العمل .

وأما **الكسب** : فقد جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وعلمناه صنعة لبوس لكم** ﴾[1] أي دروع من الحديد ، وذلك أن داود عليه الصلاة والسلام كان يدور في الصحاري فاذا رأى من لا يعرفه تحدّث معه في أمر داود ، فإذا سمعه عابه بشيء يصلحه من نفسه فسمع يوماً من يقول : إني لا أجد في داود عيباً إلا أنه يأكل من غير كسبه ، فعند ذلك صلى داود عليه الصلاة والسلام في محرابه وتضرّع بين يدي الله تعالى ، وسأله أن يعلمه ما يستعين به على قوته ، فعلمه الله تعالى صنعة الحديد وجعله في يده كالشمع فاحترفها واستعان بها على أمره وسار يحكم منها الدروع . وقال رسول الله ﷺ : « جعل رزقي تحت رمحي » فكانت حرفته الجهاد . وقال رسول الله ﷺ : « إن الله يحبّ العبد المحترف » قال ﷺ : « إن الله تعالى يبغض العبد الصحيح الفارغ » . وقال عليه الصلاة والسلام « من اكتسب قوته ولم يسأل الناس لم يعذّبه الله تعالى يوم القيامة ، ولو تعلمون ما أعلم من المسألة لما سأل رجل شيئاً وهو يجد قوت يومه ، وليس عند الله أحبّ من عبد يأكل من كسب يده ، إنّ الله تعالى يبغض كل فارغ من أعمال الدنيا والآخرة » . وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « من بات في طلب الحلال أصبح مغفوراً له » . وعن الحسن رحمه الله : كسب الدرهم الحلال أشدّ من لقاء الزحف . وقيل لمحمد بن مهران : إنّ ههنا أقواماً يقولون نجلس في بيوتنا وتأتينا أرزاقنا ، فقال : هؤلاء قوم حمقى ، إن كان لهم مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن فليفعلوا . وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : لا يقعدّن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهمّ ارزقني ، فقد علمتم أنّ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . وقال أيضاً : إني لأرى الرجل فيعجبني ، فأقول أَلَهُ حرفة ؟ فإن قالوا لا سقط من عيني . واشترى سليمان وسقا من طعام وهو ستون صاعاً ، فقيل له في ذلك ، فقال : إنّ النفس إذا أحرزت رزقها اطمأنت . قال بعضهم في السعي :

خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة   إنّ الجلوس مع العيال قبيح

وقيل : إنّ أوّل من صنع لسان الميزان عبد الله بن عامر[2] ، وكان الناس إنما يزنون بالشاهيني . وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال « غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ ، فقالوا يا رسول الله سعّر لنا ، فقال : إنّ الله الخالق القابض المسعر الرازق ، وإني لأرجو أن ألقى الله تعالى وليس أحد يطلبني بمظلمة ظلمته بها في أهل ولا مال » .

وأما ما جاء في العجز والتواني فقد روي عن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه أنه قال : من أطاع التواني ضيع الحقوق ، ومن عجز طلب ما فات مما لا يمكن استدراكه ، وترك ما أمكن مما تحمد عواقبه . قال الشاعر :

على المرء أن يسعى ويبذل جهده   ويقضي إله الخلق ما كان قاضياً

---

(١) سورة الانبياء الآية ٨٠ .

(٢) هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة الاموي ـ ابو عبد الرحمن . أمير ، فاتح . ولد بمكة وولي البصرة في أيام عثمان (سنة ٢٩هـ) فوجه جيشاً إلى سجستان فافتتحها صماً ، وافتتح الداور ، وبلاداً من دار بجرد ، وهاجم مرو الروز فافتتحها ، وبلغ سرخس فانقادت له ، وفتح ابرشهر عنوة ، وطوس ، وطخارستان ونيسابور ، وابيورد ، وبلخ والطالقان والفارياب . وغيرها . مات سنة (٥٩هـ ـ ٦٧٩ م).
أنظر : تاريخ الاسلام للذهبي (٢ : ٢٦٦). وطبقات ابن سعد (٥ : ٣٠ ـ ٣٥).

ومثله قوله :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه وليس عليه أن يساعده الدهر

وقيل : احذر مجالسة العاجز ، فإنه من سكن إلى عاجز أعداه من عجزه وأمدّه من جزعه ، وعوّده قلة الصبر ، ونساه ما في العواقب ، وليس للعجز ضدّ إلا الحزم ، وقال بعض العلماء : من الخذلان مسامرة الأماني ، ومن التوفيق بغض التواني . وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « باكروا في طلب الرزق والحوائج فإنّ الغدوّ بركة ونجاح » . وقال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه : احرص على ما ينفعك ودع كلام الناس فإنه لا سبيل إلى السلامة من ألسنة الناس . وقال علي رضي الله تعالى عنه : التواني مفتاح البؤس ، وبالعجز والكسل تولدت الفاقة ونتجت الهلكة ، ومن لم يطلب لم يجد وأفضى إلى الفساد . وقال حكيم : من دلائل العجز كثرة الاحالة على المقادير . وقال بعض الحكماء : الحركة بركة ، والتواني هلكة ، والكسل شؤم ، وكلب طائف خير من أسد رابض ، ومن لم يحترف لم يعتلف . وقيل : من العجز والتواني تنتج الفاقة . قال هلال بن العلاء الرفاء هذين البيتين من جملة أبيات :

كأن التواني أنكح العجز بنته وساق إليها حين زوّجها مهرا
فراشاً وطيئاً ثم قال لها اتكي فإنكما لا بد أن تلدا الفقرا

وقال آخر :

توكل على الرحمن في الأمر كله ولا ترغبن في العجز يوما عن الطلب
ألم تر أن الله قال لمريم وهزّي إليك الجذع يساقط الرطب
فلو شاء أن تجنيه من غير هزّة جنته ولكن كل رزق له سبب

وسأل معاوية رضي الله تعالى عنه سعيد بن العاصي عن المروءة ، فقال : العفة والحرفة . وكان أيوب السختياني يقول : يا فتيان احترفوا فاني لا آمن عليكم أن تحتاجوا إلى القوم ، يعني الأمراء . وقال رجل للحسن : إني أنشر مصحفي فأقرؤه بالنهار كله . فقال : اقرأه بالغداة والعشيّ ويكون يومك في صنعتك وما لا بد منه . ومرّ رحمه الله تعالى بإسكافي فقال : يا هذا اعمل وكُلْ فان الله يحب من يعمل ويأكل ، ولا يحب من يأكل ولا يعمل ، وقال أبو تمام :

اعاذلتي ما أحسن الليل مركبا وأحسن منه في الملمات راكبه
ذريني وأهوال الزمان أقاسها فأهواله العظمى تليها رغائبه
أرى عاجزاً يدعي جليداً لقسمة ولو كلف التقوى لكلت مضاربه
وعفا يسمي عاجزاً بعفافه ولولا التقى ما أعجزته مذاهبه
وليس بعجز المرء أخطأه الغنى ولا باحتيال أدرك المال كاسبه

وقال آخر :

فلا تركن إلى كسل وعجز يحيل على المقادر والقضاء

وقال أعرابيّ : العاجز هو الشاب القليل الحيلة الملازم للأماني المستحيلة ، ويقال : فلان يخدعه الشيطان عن الحزم فيمثل له التواني في صورة التوكل ويريه الهوينا باحالته على القدر . وقال لقمان لأبنه : يا بني إياك والكسل والضجر فانك إذا كسلت لم تؤدّ حقاً وإذا ضجرت لم تصبر على حق . قال أبو العتاهية :

إذا وضع الراعي على الأرض صدره فحق عـلى المعـزى بـأن تتبـدّدا

فالتواني هو الكسل ، وتضييع الحزم ، وعدم القيام على مصالح النفس ، وترك التسبب والاحتراف والإحالة على المقادير ، وهذا من أقبح الأفعال . وأما التأني فانه خلاف التواني وهو الرفق ورفض العجلة والنظر في العواقب ، وقد قيل : من نظر في عواقب الأمور سلم من آفات الدهور . ومما جاء في ذلك قوله تعالى : ﴿ **ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه** ﴾[1] وقال رسول الله ﷺ : « من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من الدنيا والآخرة » . وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة رضي الله عنها : « عليك بالرفق فان الرفق لا يخالط شيئاً إلا زانه ولا يفارق شيئاً إلا شانه » . وفي التوراة : الرفق رأس الحكمة . وقالوا : العقل أصله التثبت وثمرته السلامة . ووجد على سيف مكتوباً : التأني فيما لا يخاف فيه الفوت أفضل من العجلة في إدراك الأمل . وقال بعض الحكماء : إذا شككت فاجزم ، وإذا استوضحت فاعزم . وقالوا يد الرفق تجني ثمرة السلامة ، ويد العجلة تغرس شجرة الندامة . وأنشدوا في ذلك :

قـد يـدرك المتـأني بعض حـاجتـه وقـد يكـون مـع المستعجـل الـزلـل

وقالوا : التأني حصن السلامة ، والعجلة مفتاح الندامة . وقالوا : إذا لم يدرك الظفر بالرفق والتأني فبماذا يدرك . وقال المهلب : أناة في عواقبها درك خير من عجلة في عواقبها فوت . وقالوا : من تأنى نال ما تمنى ، والرفق مفتاح النجاح . وقال بعض الحكماء : إياك والعجلة فإنها تكنى أمّ الندامة لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم ، ويجيب قبل أن يفهم ، ويعزم قبل أن يفكر ، ويحمد قبل أن يجرّب ، ولن تصحب هذه الصفة أحداً إلا صحب الندامة وجانب السلامة .

وأما الصناعات والحرف وما يتعلق بها :

فقد روي عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عمل الأبرار من الرجال الخياطة، وعمل الأبرار من النساء الغزل » وكان صلى الله عليه وسلم يخيط ثوبه ، ويخصف نعله ، ويحلب شاته ، ويعلف ناضحه ، وقال سعيد بن المسيب : كان لقمان الحكيم خياطاً ، وقيل : كان إدريس عليه السلام خياطاً ، ووقف علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على خياط ، فقال له : يا خياط ثكلتك الثواكل صلب الخيط ، ودقق الدروز ، وقارب الغروز . فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الله الخياط الخائن وعليه قميص ورداء مما خاط وخان فيه » واحذر السقطات فانّ صاحب الثوب أحقّ بها ، ولا تتخذ بها الأيادي وتطلب المكافأة . وقال

---

(١) سورة طه الآية ١١٤ .

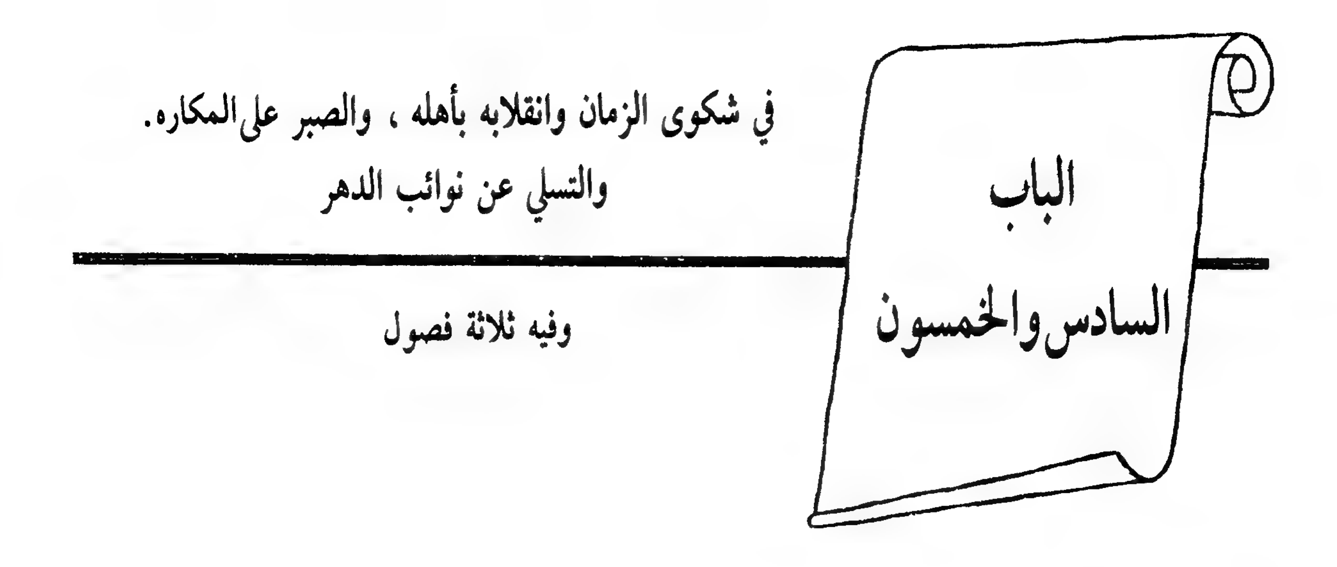
فيلسوف : إنَّ من القبيح أن يتولى امتحان الصناع من ليس بصانع . وفي الحديث « أكذب أمّتي الصوّاغون والصباغون » . وكذب الدلال مثل . وقالوا : لكل أحد رأس مال ، ورأس مال الدلال الكذب . وقال عبد الرحمن بن شبل : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « التجار هم الفجار » ، قيل : أليس الله تعالى قد أحلّ البيع ؟ قال : نعم ، ولكن يحدّثون فيكذبون . ويحلفون فيحنثون . وقال الفضيل : بخس الموازين سواد في الوجه يوم القيامة ، وإنما أهلكت القرون الأولى لأنهم أكلوا الربا ، وعطلوا الحدود ، ونقصوا الكيل والميزان . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ واتّبعك الأرذلون﴾[1] قيل : هم الحاكة والأساكفة وقيل : إنّ حائكاً سأل إبراهيم الحربي ما تقول فيمن صلى العيد ولم يشتر ناطفاً ما الذي يجب عليه ؟ فتبسم إبراهيم ثم قال : يتصدّق بدرهمين ، فلما مضى قال : ما علينا أن نفرح المساكين من مال هذا الأحمق . وقيل لرجل : هل فيكم حائك ؟ قال : لا ، قيل : فمن ينسج لكم ثيابكم ؟ قال : كلّ منا ينسج لنفسه في بيته ، وكان أردشير بن بابك لا يرتضي لمنادمته ذا صناعة رديئة ، كحائك وحجام ، ولو كان يعلم الغيب مثلاً . وقال كعب : لا تستشيروا الحاكة فإن الله تعالى سلب عقولهم ، ونزع البركة من كسبهم ، لأن مريم عليها السلام مرّت بجماعة من الحياكين فسألتهم عن الطريق فدلوها على غير الطريق ، فقالت : نزع الله البركة من كسبكم . قال أبو العتاهية :

ألا إنما التقوى هي العزّ والكرم وحبك للدنيا هو الذلّ والسقم
وليس على عبد تقيّ نقيصة إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم

وهذا ما أردنا سياقه في هذا الباب ، والله الموفق للصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١) سورة الشعراء الآية ١١١ .



في شكوى الزمان وانقلابه بأهله ، والصبر على المكاره.
والتسلي عن نوائب الدهر

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الاول :

في شكوى الزمان وانقلابه بأهله

روي عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أنه قال : « ما من يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنة إلا والذي قبله خير منه » سمعت ذلك من نبيكم ﷺ . وكان معاوية رضي الله تعالى عنه يقول : معروف زماننا منكر ، زمان قد مضى ، ومنكره معروف ، زمان لم يأت . وكانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء لا تسبق ، فجاء أعرابيّ فسبقها فشقّ ذلك على الصحابة رضي الله تعالى عنهم . فقال ﷺ :«إنّ حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من هذه الدنيا إلا وضعه » .

وحكي عن شيخ من همدان قال : بعثني أهلي في الجاهلية إلى ذي الكلاع الحميري بهدايا ، فمكثت شهراً لا أصل إليه ، ثم بعد ذلك أشرف اشرافة من كوّة له ، فخرّ له من حول القصر سجداً ، ثم رأيته بعد ذلك وقد هاجر إلى حمص ، واشترى بدرهم لحماً وسمطه خلف دابته ، وهو القائل هذه الأبيات :

أف للدّنيا إذا كانت كذا ... أنا منها في بلاء وأذى
إن صفا عيش امرىء في صبحها ... جرعته ممسياً كأس الردى
ولقد كنت إذا ما قيل من ... أنعم العالم عيشاً قيل ذا

وقال يونس بن ميسرة : لا يأتي علينا زمان إلا بكينا منه ، ولا يتولى عنا زمان إلا بكينا عليه ، ومن ذلك قوله :

ربّ يوم بكيت منه فلمّا ... صرت في غيره بكيت عليه

ومثله :

وما مرّ يوم ارتجي فيه راحة ... فأخبره إلا بكيت على أمسي

ومن كلام ابن الأعرابيّ :

عـن الأيـام عـدّ فـعـن قـلـيـل ‏ ‏ تـرى الأيـام في صـور الـلـيـالي

وقال علي رضي الله تعالى عنه : ما قال الناس لشيء طوبى إلا وقد خبأ له الدهر يوم سوء . قال الشاعر :

فما الناس بالناس الذين عهدتهم ‏ ‏ ولا الـدار بـالـدار التي كنت أعهـد

ودخل داود عليه الصلاة والسلام غاراً فوجد فيه رجلاً ميتاً وعند رأسه لوح مكتوب فيه أنا فلان ابن فلان الملك عشت ألف عام ، وبنيت ألف مدينة ، وافتضضت ألف بكر ، وهزمت ألف جيش ، ثم صار أمري إلى أن بعثت زنبيلاً من الدراهم في رغيف ، فلم يوجد ، ثم بعثت زنبيلاً من الجوهر فلم يوجد ، فدققت الجواهر واستفيتها فمتُّ مكاني فمن أصبح وله رغيف ، وهو يحسب أن على وجه الأرض أغنى منه أماته الله كإماتتي . وذكر أن عبد الرحمن بن زياد لما ولي خراسان حاز من الأموال ما قدّر لنفسه أنه إن عاش مائة سنة ينفق في كلّ يوم ألف درهم على نفسه أنه يكفيه ، فرؤى بعد مدة وقد احتاج إلى أن باع حلية مصحفه وأنفقها . وقال هيثم بن خالد الطويل : دخلت على صالح مولى منارة في يوم شات وهو جالس في قبة مغشاة بالسمور ، وجميع فروشها سمور ، وبين يديه كانون فضة يبخر فيه بالعود ، ثم رأيته بعد ذلك في رأس الجسر وهو يسأل الناس . ولما قَتَل عامر بن اسماعيل مروان بن محمد[1] ونزل في داره وقعد على فرشه ، دخلت عليه عبدة بنت مروان فقالت : يا عامر إن دهراً أنزل مروان عن فرشه وأقعدك عليه لقد أبلغ في عظتك . وقال مالك بن دينار مررت بقصر تضرب فيه الجواري بالدفوف ويقلن :

ألا يـا دار لا يـدخـلك حـزن ‏ ‏ ولا يـغـدر بـصـاحـبـك الـزمـان
فـنعـم الـدار تـأوي كـل ضـيـف ‏ ‏ إذا مـا ضـاق بـالـضيـف المكـان

ثم مررت عليه بعد حين وهو خراب وبه عجوز فسألتها عما كنت رأيت وسمعت فقالت : يا عبد الله إنّ الله يغير ولا يتغير ، والموت غالب كل مخلوق ، وقد والله دخل بها الحزن وذهب بأهلها الزمان . وقال أبو العتاهية :

لئن كنت في الـدنيـا بصيـراً فـانمـا ‏ ‏ بـلاغـك منهـا مثـل زاد المسـافـر
إذا أبقت الـدنيا عـلى المرء دينـه ‏ ‏ فـما فـاتـه فـليس بـضـائـر

وقال عبد الملك بن عمير رأيت رأس الحسن رضي الله تعالى عنه بين يدي ابن زياد في قصر الكوفة ، ثم رأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار ، ثم رأيت رأس المختار بين يدي مصعب ، ثم رأيت رأس مصعب بين يدي عبد الملك . قال سفيان : فقلت له كم كان بين أول الرؤوس وآخرها قال اثنتاعشرة سنة . وقال الشاعر :

---

(١) هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الاموي ـ ابو عبد الملك ـ القائم بحق الله ، ويعرف بالجعدي وبالحمار . آخر ملوك بني امية في الشام . ولد بالجزيرة سنة (٧٢هـ ـ ٦٩٢ م) له فتوحات كثيرة . قتله عامر أو عمرو بن اسماعيل المراوي الجرجاني سنة (١٣٢هـ ـ ٧٥٠ م) وحمل رأسه إلى السفاح العباسي .
أنظر اخباره في الكامل لابن الاثير (٥ : ١١٩ و١٥٨) وابن خلدون (٣ : ١١٢ و١٣٠). والطبري (٩ : ٥٤ و١٣٣).

إن لـلدّهـر صـرعـة فـاحـذرنها لا تـبـيـتـن قـد أمـنـت الـشـرورا
قـد يـبـيـت الفـتى معـافى فـيـردى ولـقـد كـان آمـنـاً مـسـرورا

وكان محمد بن عبد الله بن طاهر في قصره على الدجلة ينظر فاذا هو بحشيش في وسط الماء وفي سطه قصبة على رأسها رقعة فدعا بها فاذا فيها مكتوب شعراً وهو للشافعي رضي الله تعالى عنه :

تـاه الأعيـرج واستعـلى بـه البـطر فقل لـه خير ما استعملته الحذر
أحسنت ظنـك بـالأيـام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يـأتي بـه القـدر
وسـالمتك الليـالي فـاغتـررت بهـا وعند صفو الليـالي يحدث الكـدر

قال فما انتفع بنفسه مدة . وأعجب ما وجد في السِّير خبر القاهر أحد الخلفاء ، وقلعه من الملك وخروجه إلى الجامع في بطانة جبة بغير ظهارة ومدّ يده يسأل الناس بعد أن كان ملكه لأقطار الأرض ، فتبارك الله يعز من يشاء ويذل من يشاء . وقيل كان لمحمد المهلبي قبل اتصاله بالسلطان حال ضعيف ، فبينما هو في بعض أسفاره مع رفيق له من أصحاب الحرث والمحراث إلا أنه من أهل الأدب إذ أنشده يقول :

ألا مـوت يبـاع فـأشتـريـه فهـذا العيش ما لا خـير فيه
ألا رحم المهيمـن نفس حـر تصدّق بـالـوفـاة عـلى أخيـه

قال فرثى له رفيقه وأحضر له بدرهم ما سد به رمقه ، وحفظ الأبيات وتفرقا ، ثم ترقى المهلبي إلى الوزارة وأخنى الدهر على ذلك الرجل الذي كان رفيقه فتوصل إلى إيصال رقعة إليه مكتوب فيها :

ألا قـل لـلوزيـر فـدتـه نـفـسي مـقـالا مـذكـرا مـا قـد نـسـيـه
أتـذكـر إذ تـقـول لضنـك عيش ألا مـوت يـبـاع فـأشـتـريـه

فلما قرأها تذكر ، فأمر بسبعمائة درهم ووقع تحت رقعته ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة** ﴾[1] ثم قلده عملاً يرتزق منه . ودخل مسلمة بن زيد بن وهب على عبد الملك بن مروان فقال : أي الزمان أدركته أفضل وأي الملوك أكمل ؟ فقال أما الملوك فلم أر إلا حامداً وذاماً ، وأما الزمان فيرفع أقواماً ويضع آخرين وكلهم يذكر أنه يبلي جديدهم ، ويفرق عديدهم ، ويهرم صغيرهم ، ويهلك كبيرهم . وقال حبيب بن أوس :

لم أبك من زمن لم أرض خلته إلا بكيت عليـه حين يـنصـرم

وقال آخر :

يـا معرضـاً عني بوجـه مـدبـر ووجـوه دنـيـاه عليـه مـقـبلة
هل بعد حالك هذه من حالة أو غـايـة إلا انحطاط المنـزلة

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦١ .

وقال عبد الله بن عروة بن الزبير :

ذهب الذين إذا رأوني مقبلاً بشوا إلي ورحبوا بالمقبل
وبقيت في خلف كان حديثهم ولغ الكلاب تهارشت في المنزل

وقال آخر في معناه :

يا منزلاً عبث الزمان بأهله فأبادهم بتفرّق لا يجمع
أين الذين عهدتهم بك مرة كأن الزمان بهم يضرّ وينفع
أيام لا يغشى لذكرك مربع إلا وفيه للمكارم مرتع
ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقي الذين حياتهم لا تنفع

وقال اسحاق بن إبراهيم الموصلي :

وإني رأيت الدهر منذ صحبته محاسنه مقرونة ومعايبه
إذا سرني في أول الأمر لم أزل على حذر من أن تذّم عواقبه

وقال بعضهم :

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت في خلف يزين بعضه بعضاً ليدفع معور عن معور
حلف الزمان ليأتين بمثلهم حنثت يمينك يا زمان فكفر

وكان يقال : إذا أدبر الأمر أتى الشر من حيث يأتي الخير . وكان يقال بتقلب الدهر تعرف جواهر الرجال ، ويقال : زمام العافية بيد البلاء ، ورأس السلامة تحت جناح العطب . وقال بعضهم : نحن في زمن لا يزداد الخير فيه إلا ادباراً ، والشر إلا إقبالاً ، والشيطان في هلاك الناس إلا طمعاً . أضرب بطرفك حيث شئت هل تنظر إلا فقيراً يكابد فقراً ، أو غنياً بدل نعمة الله كفراً ، أو بخيلاً اتخذ بحق الله وفراً ، أو متمرداً كأن بسمعه عن سماع المواعظ وقراً . وقال آخر : نحن في زمان إذا ذكرنا الموتى حييت القلوب ، وإذا ما ذكرنا الأحياء ماتت القلوب . ويؤيد ذلك قوله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر أخيه فيقول يا ليتني مكانه » . ويقال لا يقاوم عز الولاية بذل العزل :

ما من مسيء وإن طالت إساءته إلا ويكفيك يوم من مساعيه

وقال الأمين :

يا نفس قد حقّ الحذر أين المفرّ من القدر
كل امرىء مما يخـ ـاف ويرتجيه على خطر
من يرتشف صفو الزمـ ـان يغص يوماً بالكدر

وقال بعضهم :

وقـال مـا بـال وجهـك قـد نضت ... محـاسنـه والجسم بـان شحـوبـه
فقلت لها هـاتي من النـاس واحداً ... صفـا وقتـه والنـائبـات تـنـوبـه

وللأمير أبي علي بن منقذ :

أمـا والـذي لا يملك الأمـر غيـره ... ومـن هـو بـالسـرّ المكتـم أعـلم
لئن كـان كتمـان المصـائب مؤلمـاً ... لإعـلانها عـنـدي أشـدّ وأعـظم
وبي كـل مـا يبكي العيـون أقله ... وإن كـنـت مـنـه دائـماً أتبـسـم

وقال عليّ بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه : وايم الله ما كان قوم قط في خفض عيش فزال عنهم إلا بذنوب اقترفوها لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد . ولو أن الناس حين ينزل بهم الفقر ويزول عنهم الغنى فزعوا إلى ربهم بصدق نياتهم لردّ عليهم كل شارد ، وأصلح لهم كل فاسد . قال الشاعر :

يقـولـون الـزمـان بـه فسـاد ... وهم فسـدوا وما فسـد الزمـان

وكفى بالقرآن واعظاً قال الله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[1] والله سبحانه وتعالى أعلم .



(١) سورة الرعد الآية ١١ .



في الصبر على المكاره ومدح التثبت وذم الجزع

قد مدح الله تعالى الصبر في كتابه في مواضع كثيرة وأمر به وجعل أكثر الخيرات مضافاً إلى الصبر ، وأثنى على فاعله وأخبر أنه سبحانه وتعالى معه وحثّ على التثبت في الأشياء ومجانبة الاستعجال فيها . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** ﴾[1] فبدأ بالصبر قبل الصلاة ثم جعل نفسه مع الصابرين دون المصلين ، وقوله تعالى : ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا** ﴾[3] . وقوله تعالى : ﴿ **وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا** ﴾[4] . وبالجملة فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر في كتابه العزيز في نيف وسبعين موضعاً ، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم به فقال تعالى : ﴿ **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم** ﴾[5] . وقد روي عن النبيّ ﷺ في ذلك أخبار كثيرة . فمن ذلك قوله ﷺ : « النصر في الصبر » وقوله عليه الصلاة والسلام : « بالصبر يتوقع الفرج » وقوله : « الأناة من الله تعالى والعجلة من الشيطان » فمن هداه الله تعالى بنور توفيقه ألهمه الصبر في مواطن طلباته والتثبت في حركاته وسكناته ، وكثيراً ما أدرك الصابر مرامه أو كاد . وفات المستعجل غرضه أو كاد . وقال الأشعث بن قيس : دخلت على امير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهاراً فقلت يا أمير المؤمنين إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة ، فما زادني إلا أن قال :

اصبر على مضض الادلاج في السحر ... وفي الرواح إلى الطاعات في البكر
إني رأيت وفي الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقلّ من جدّ في أمر يؤمله ... واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

فحفظتها منه ، وألزمت نفسي الصبر في الأمور فوجدت بركة ذلك . وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا همّ ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا حط الله بها من خطاياه » وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة » وقال ﷺ : « إن أعظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله

---

(١) سورة البقرة الآية ١٥٣ .
(٢) سورة الزمر الآية ١٠ .
(٣) سورة السجدة الآية ٢٤ .
(٤) سورة الاعراف الآية ١٣٧ .
(٥) سورة الاحقاف الآية ٣٥

الرضا ومن سخط فله السخط » رواه الترمذي وقال حديث حسن . وعن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن أنس ابن مالك قال، قال النبي ﷺ : « الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر ، والصبر عند الصدمة الأولى ، وعظم الأجر على قدر المصيبة ، ومن استرجع بعد مصيبته جدّد الله له أجرها كيوم أصيب بها » . وروي عن علي ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال : احفظوا عني خمساً ، اثنتين واثنتين وواحدة : لا يخافن أحدكم إلا ذنبه ، ولا يرجو إلا ربه ، ولا يستحي أحد منكم إذا سئل عن شيء وهو لا يعلم أن يقول لا أعلم ، واعلموا أن الصبر من الأمور بمنزلة الرأس من الجسد إذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد ، وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور ، وأيما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات في حبسه مات شهيداً ، فان ضربه فمات فهو شهيد . وروي في الخبر : « لما نزل قوله تعالى: ﴿**من يعمل سوءاً يجز به**﴾[1] قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يا رسول الله : كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « غفر الله لك يا أبا بكر أليس تمرض ، أليس يصيبك الأذى أليس تحزن ؟ قال بلى يا رسول الله قال فهذا ما تجزون به » يعني جميع ما يصيبك من سوء يكون كفارة لك . وبهذا اتضح لك أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والبلاء . وروي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال : « بينما رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة وأبو جهل وأصحابه جلوس وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل لعنه الله ايكم يقوم إلى سلا الجزور فيلقيه على كتفيّ محمد إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم فأخذه وأتى به ، فلما سجد ﷺ وضع بين كتفيه السلا والفرث والدم فضحكوا ساعة وأنا قائم أنظر . فقلت لو كان لي منعة لطرحته عن ظهر رسول الله ﷺ والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضي الله تعالى عنها ، فجاءت فطرحته عن ظهره ثم أقبلت عليهم فسبتهم ، فلما قضى ﷺ الصلاة رفع يديه فدعا عليهم فقال : اللهم عليك بقريش ثلاث مرات ، فلما سمع القوم صوته ودعاءه ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته . فقال اللهم عليك بأبي جهل وعتبة وشيبة وربيعة والوليد وأمية بن خلف . فقال عليّ رضي الله تعالى عنه والذي بعث محمداً بالحق رأيت الذين سماهم صرعى يوم بدر . وكان الصالحون يفرحون بالشدة لأجل غفران الذنوب لأن فيها كفارة السيئات ورفع الدرجات . وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ثلاث من رُزقهنْ فقد رزق خيريّ الدنيا والآخرة : الرضا بالقضاء ، والصبر على البلاء ، والدعاء في الرخاء » . وحكي أن امرأة من بني إسرائيل لم يكن لها إلا دجاجة فسرقها سارق فصبرت وردّت أمرها إلى الله تعالى ولم تدع عليه ، فلما ذبحها السارق ونتف ريشها نبت جميعه في وجهه فسعى في إزالته فلم يقدر على ذلك إلى أن أتى حبراً من أحبار بني إسرائيل فشكا له فقال : لا أجد لك دواء إلا أن تدعو عليك هذه المرأة ، فأرسل إليها من قال لها أين دجاجتك فقالت سرقت . فقال لقد آذاك من سرقها . قالت : قد فعل ولم تدع عليه . قال : وقد فجعك في بيضها . قالت هو كذلك ، فما زال بها حتى أثار الغضب منها فدعت عليه فتساقط الريش من وجهه . فقيل لذلك الحبر من أين علمت ذلك ؟ قال لأنها لما صبرت ولم تدع عليه انتقم لها الله ، فلما انتصرت لنفسها ودعت عليه سقط الريش من وجهه . فالواجب على العبد أن يصبر على ما يصيبه من الشدّة ويحمد الله تعالى ، ويعلم أن النصر مع الصبر ، وأن مع العسر يسرا ، وأن المصائب والرزايا إذا توالت أعقبها الفرج والفرح عاجلاً .

ومن أحسن ما قيل في ذلك من المنظوم :

---

(١) سورة النساء الآية ١٢٣ .

وإذا مسّك الزمان بضرّ — عظمت دونه الخطوب وجلت
وأتت بعده نوائب أخرى — سئمت نفسك الحياة وملت
فاصطبر وانتظر بلوغ الأماني — فالرزايا إذا توالت تولت
وإذا أوهنت قواك وجلت — كشفت عنك جملة وتخلت

ولمحمد بن بشر الخارجي :

إنّ الأمور إذا استدّت مسالكها — فالصبر يفتح منها كلّ مرتجا
لا تيأسنّ وإن طالت مطالبة — اذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

ولزهير بن أبي سلمى :

ثلاث يعزّ الصبر عند حلولها — ويذهل عنها عقل كل لبيب
خروج اضطرار من بلاد يحبها — وفرقة إخوان ، وفقد حبيب

وقال بعضهم :

عليك بإظهار التجلد للعدا — ولا تظهرن منك الذبول فتحقرا
أما تنظر الريحان يشمم ناضرا — ويطرح في البيدا إذا ما تغيرا

ولابن نباتة :

صبراً على نوب الزمـ — ـان وإن أبى القلب الجريح
فلكلّ شيء آخر — إمّا جميل أو قبيح

وقال أبو الأسود وأجاد :

وإن امرأ قد جرّب الدهر لم يخف — تقلب عصريه لغير لبيب
وما الدهر والأيام إلا كما ترى — رزية مال أو فراق حبيب

ومن كلام الحكماء : ما جوهد الهوى بمثل الرأي ، ولا استنبط الرأي بمثل المشورة ، ولا حفظت النعم بمثل المواساة ، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر ، وما استنجحت الأمور بمثل الصبر . وقال نهشل :

ويوم كأن المصطلين بحرّه — وإن لم يكن نار قيام على الجمر
صبرنا له صبرا جميلا وإنما — تفرّج أبواب الكريهة بالصبر

وقال ابن طاهر :

حذّرتني وذا الحذر — ليس يغني من القدر
ليس من يكتم الهوى — مثل من باح واشتهر

إنــمــا يــعــرف الــهــوى ... مــن عــلـى مــرّه صــبــر
نـفس يـا نفس فـاصبـري ... فـاز بـالصبـر من صبـر

وكان يقال : من تبصر تصبر . وكان يقال : إن نوائب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر . وكان يقال لا دواء لداء الدهر إلا بالصبر ، ولله درّ القائل :

الـدهـر أدّبني والـصبـر ربـانـي ... والقـوت أقنعني واليـأس أغنـاني
وحـنكـتني مـن الأيـام تـجـربـة ... حتى نهيت الـذي قد كـان ينهاني

وما أحسن ما قال محمود الورّاق :

إنـي رأيت الـصبـر خيـر معـوّل ... في النـائبـات لمـن أراد معـوّلا
ورأيت أسبـاب القنـاعـة أكـدت ... بعرى الغنى فجعلتها لي معقـلاً
فـإذا نـبـا بي مـنـزل جـاوزتـه ... وجـعلت مـنـه غيـره لـي مـنـزلا
وإذا غــلا شــيء علـيّ تـركـتـه ... فيكـون أرخص ما يكـون إذا غـلا

وقال بعضهم :

إذا مـا أتـاك الـدهـر يـوماً بنكبـة ... فافـرغ لها صبرا ووسـع لها صـدرا
فـإن تصـاريف الـزمـان عجيبـة ... فيوماً ترى يسراً ويـوما تـرى عسرا

وقال بعضهم :

ومـا مسني عسـر ففـوّضت أمـره ... إلـى الملك الجبـار إلا تيسـرا

وما أحسن ما قيل :

الـدهـر لا يبقى على حـالـة ... لا بـدّ أن يقبـل أو يـدبـر
فـإن تـلقـاك بـمـكـروهـه ... فـاصبر فـإن الدهـر لا يصبر

ونقل عن محمد بن الحسن رحمه الله تعالى قال : كنت معتقلاً بالكوفة فخرجت يوماً من السجن مع بعض الرجال وقد زاد همي وكادت نفسي أن تزهق وضاقت علي الأرض بما رحبت وإذا برجل عليه آثار العبادة قد أقبل علي ورأى ما أنا فيه من الكآبة ، فقال : ما حالك فأخبرته القصة ، فقال : الصبر الصبر ، فقد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال : « الصبر ستر للكروب وعون على الخطوب » وروي عن ابن عمه علي رضي الله تعالى عنه أنه قال : « الصبر مطية لا تدبر وسيف لا يـكـلّ » وأنا أقول :

ما أحسن الصبر في الدنيا وأجمله ... عنـد الإلـه وانجـاه من الجـزع
من شـدّ بالصبـر كفاً عند مؤلمة ... ألـوت يـداه بحبـل غيـر منقـطع

فقلت له: بالله عليك زدني فقد وجدت بك راحة ، فقال ما يحضرني شيء عن النبيّ ﷺ ولكني أقول :

أما والذي لا يعلم الغيب غيره ومن ليس في كلّ الأمور له كفو
لئن كان بدء الصبر مرّا مذاقه لقد يجتني من بعده الثمر الحلو

ثم ذهب فسألت عنه فما وجدت أحداً يعرفه ولا رآه أحد قبل ذلك في الكوفة ، ثم أخرجت في ذلك اليوم من السجن ، وقد حصل لي سرور عظيم بما سمعت منه وانتفعت به . ووقع في نفسي أنه من الأبدال الصالحين قيضه الله تعالى لي : يوقظني ويؤدّبني ويسليني . وقيل : إن رجلاً كان يضرب بالسياط ، ويجلد جلداً بليغاً ولم يتكلم ويصبر ولم يتأوه ، فوقف عليه بعض مشايخ الطريقة فقال له : أما يؤلمك هذا الضرب الشديد ؟ فقال بلى ، قال لم لا تصيح : فقال إن في هؤلاء القوم الذين وقفوا عليّ صديقاً لي يعتقد فيّ الشجاعة والجلادة وهو يرقبني بعينيه فأخشى إن ضجيت يذهب ماء وجهي عنده ، ويسوء ظنه بي ، فأنا أصبر على شدّة الضرب وأحتمله لأجل ذلك . قال الشاعر :

على قدر فضل المرء تأتي خطوبه ويحمد منه الصبر مما يصيبه
فمن قلّ فيما يلتقيه اصطباره لقد قلّ فيما يرتجيه نصيبه

وقال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله تعالى عنها : « يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر ، ولم يكلفني إلا ما كلفوا به » ، فقال عزّ وجل : ﴿ **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل** ﴾[1] ، وإن والله لأصبرن كما صبروا » فان النبيّ ﷺ لما صبر كما أُمر أسفر وجه صبره عن ظفره ونصره . وكذلك الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الذين هم أولوا العزم لما صبروا ظفروا وانتصروا . وقد اختلف أهل العلم فيهم على أقوال كثيرة فقال مقاتل رضي الله تعالى عنه : هم نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويونس وأيوب صلوات الله عليهم . وقال قتادة : هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، ويقال : ما الذي صبروا عليه حتى سماهم الله تعالى أُولي العزم ؟ فأقول ذكر ما صبروا عليه :

أما نوح عليه الصلاة والسلام فقد قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : كان نوح عليه الصلاة والسلام يضرب ثم يلف في لبد ويلقى في بيته يرون أنه قد مات ثم يعود ويخرج إلى قومه ويدعوهم إلى الله تعالى ، ولما أيس منهم ومن إيمانهم جاءه رجل كبير يتوكأ على عصاه ومعه ابنه فقال لأبنه يا بنيّ أنظر إلى هذا الشيخ واعرفه ولا يغرّك ، فقال له ابنه يا أبت مكني من العصا ، فأخذها من أبيه وضرب بها نوحاً عليه الصلاة والسلام فشج بها رأسه وسال الدم على وجهه ، فقال

---

(١) سورة الاحقاف الآية ٣٥

رب قد ترى ما يفعل بي عبادك فان يكن لك فيهم حاجة فاهدهم وإلا فصبرني إلى أن تحكم ، فأوحى الله تعالى إليه : ﴿ **إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون* واصنع الفلك** ﴾[1] قال يا رب وما الفلك ؟ قال بيت من خشب يجري على وجه الماء انجي فيه أهل طاعتي وأغرق أهل معصيتي ، قال يا رب وأين الماء ، قال انا على كل شيء قدير ، قال يا رب وأين الخشب ؟ قال اغرس الخشب ، فغرس الساج عشرين سنة ، وكفّ عن دعائهم ، وكفوا عن ضربه ، إلا أنهم كانوا يستهزئون به ، فلما أدرك الشجر ، أمره ربه فقطعها وجففها ، وقال يا رب : كيف اتخذ هذا البيت ، قال اجعله على ثلاث صور ، وبعث الله له جبريل فعلمه ، وأوحى الله تعالى إليه أن عجل بعمل السفينة فقد اشتدّ غضبي على من عصاني ، فلما فرغت السفينة جاء أمر الله سبحانه وتعالى بانتصار نوح ونجاته وإهلاك قومه وعذابهم ، إلا من آمن معه ، وفار التنور ، وظهر الماء على وجه الأرض ، وقذفت السماء بأمطار كأفواه القرب حتى عظم الماء وصارت أمواجه كالجبال ، وعلا فوق اعلى جبل في الأرض أربعين ذراعاً . وانتقم الله سبحانه وتعالى من الكافرين ونصر نبيه نوحاً عليه الصلاة والسلام ، وفي تمام قصته ، وحديث السفينة كلام مبسوط لأهل التفسير ليس هذا موضع شرحه وبسطه ، فهذا زبدة صبر نوح عليه الصلاة والسلام وانتصاره على قومه .

وأما إبراهيم عليه الصلاة والسلام فإنه لما كسر أصنام قومه التي كانوا يعبدونها لم يروا في قتله ونصرة آلهتهم أبلغ من إحراقه ، فأخذوه وحبسوه ببيت ثم بنوا حاجزاً كالحوش طول جداره ستون ذراعاً إلى سفح جبل عال ، ونادى منادي ملكهم أن احتطبوا لإحراق إبراهيم ، ومن تخلف عن الاحتطاب أحرقه ، فلم يتخلف منهم أحد ، وفعلوا ذلك أربعين يوماً ، ليلاً ونهاراً حتى كاد الحطب يساوي رؤوس الجبال ، وسدوا أبواب ذلك الحاجز وقذفوا فيه النار ، فارتفع لهبها حتى كان الطائر يمرّ بها فيحترق من شدة لهبها ، ثم بنوا بنياناً شامخاً وبنوا فوقه منجنيقاً ، ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان ، فرفع إبراهيم عليه الصلاة والسلام طرفه إلى السماء . ودعا الله تعالى وقال حسبي الله ونعم الوكيل وقيل كان عمره يومئذ ستة وعشرين سنة فنزل إليه جبريل عليه الصلاة والسلام وقال يا إبراهيم ، ألك حاجة ؟ قال أما إليك فلا . فقال جبريل سل ربك ، فقال حسبي من سؤالي علمه بحالي . فقال الله تعالى : ﴿ **يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم** ﴾[2] فلما قذفوه فيها نزل معه جبريل عليه الصلاة والسلام فجلس به على الأرض وأخرج الله له ماء عذباً . قال كعب ما أحرقت النار غير كتافه[3] وأقام في ذلك الموضع سبعة أيام ، وقيل أكثر من ذلك . ونجّاه الله تعالى ثم أهلك نمرود وقومه بأخسّ الأشياء ، وانتقم منهم وظفر إبراهيم عليه

---

(١) سورة هود الآيتان ٣٦ و٣٧ .

(٢) سورة الانبياء الآية ٦٩ .

(٣) وثاقه .

الصلاة والسلام بهم . فهذه ثمرة صبره على مثل هذه الحالة العظمى ، ولم يجزع منها وصبر وفوّض أمره إلى الله تعالى في ذلك ، وتوكل عليه ووثق به ، ثم جاءته قصة ذبح ولده ، وأمره الله تعالى بذلك فقابل أمره بالتسليم والامتثال ، وسارع إلى ذبحه من غير إهمال ولا إمهال ، وقصته مشهورة وتفاصيل القصة في كتب التفسير مسطورة فلما ظهر صدقه ورضاه ومبادرته إلى طاعة مولاه ، وصبره على ما قدّره وقضاه ، عوّضه الله تعالى عن ذبح ولده أن فداه ، واتخذه خليلاً من بين خلقه واجتباه . وأما الذبيح صلوات الله وسلامه عليه فانه صبر على بلية الذبح ، وتلخيصها أن الله تعالى لما ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذبح ولده قال إني أريد أن أقرب قرباناً ، فأخذ ولده والسكين والحبل وانطلق ، فلما دخل بين الجبال قال ابنه أين قربانك يا أبت ؟ قال إن الله تعالى قد أمرني بذبحك فانظر ماذا ترى قال : ﴿ **يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين** ﴾[1]. يا أبت أشدد وثاقي كي لا أضطرب واجمع ثيابك حتى لا يصل إليها رشاش الدم فتراه أمي فيشتّد حزنها وأسرع إمرار السكين على حلقي ليكون أهون للموت علي وإذا لقيت أُمي فاقرأ السلام عليها ، فأقبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ولده يقبله ويبكي ويقول نعم العون أنت يا بني على ما أمر الله تعالى . قال مجاهد لما أمرّ السكين على حلقه انقلبت السكين فقال يا أبت اطعن بها طعناً . وقال السدي : جعل الله حلقه كصفيحة من نحاس لا تعمل فيها السكين شيئاً ، فلما ظهر فيهما صدق التسليم نودي أن يا إبراهيم هذا فداء ابنك ، فأتاه جبريل عليه السلام بكبش أملح ، فأخذه وأطلق ولده وذبح الكبش ، فلا جرم أن جعل الذبيح نبياً بصبره وامتثاله لأمره .

وأما يعقوب عليه الصلاة والسلام فإنه لما ابتلي بفراق ولده ، وذهاب بصره ، واشتداد حزنه ، قال : فصبر جميل . وكذلك يوسف صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، لما ابتلاه الله تعالى بالقائه في ظلمة الجب وبيعه كما تباع العبيد ، وفراقه لأبيه ، وإدخاله السجن وحبسه فيه بضع سنين ، وأنه تلقى ذلك كله بصبره وقبوله ، فلا جرم أورثهما صبرهما جمع شملهما واتساع القدرة بالملك في الدنيا مع ملك النبوّة في الآخرة .

وأما أيوب عليه الصلاة والسلام ، فانه ابتلاه الله تعالى بهلاك أهله وماله وتتابع المرض المزمن والسقم المهلك حتى أفضى أمره إلى ما تضعف القوى البشرية عن حمله . ولنذكر شيئاً مختصراً من ذلك وهو أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل كان يظلم الناس ، فنهاه جماعة من الأنبياء عن الظلم ، وسكت عنه أيوب عليه الصلاة والسلام ولم يكلمه ولم ينهه لأجل خيل كانت له في مملكته فأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام تركت نهيه عن الظلم لأجل خيلك لأطيلنّ بلاءك . فقال إبليس لعنه الله : يا رب سلطني على أولاده وماله ، فسلطه ، فبث إبليس مردته من الشياطين ، فبعث بعضهم إلى دوابه ورعاتها ، فاحتملوها جميعاً وقذفوها في البحر ، وبعث

---

(١) سورة الصافات الآية ١٠٢ .

بعضهم إلى زرعه وجناته فأحرقوها ، وبعث بعضهم إلى منازله . وفيها أولاده وكانوا ثلاثة عشر ولداً وخدمه وأهله فزلزلوها فهلكوا ، ثم جاء إبليس إلى أيوب عليه الصلاة والسلام وهو يصلي فتمثل له في صورة رجل من غلمانه . فقال يا أيوب أنت تصلي ودوابك ورعاتك قد هبت عليها ريح عظيمة وقذفت الجميع في البحر ، وأحرقت زرعك ، وهدمت منازلك على أولادك وأهلك ، فهلك الجميع ما هذه الصلاة ؟ فالتفت إليه وقال : الحمد لله الذي اعطاني ذلك كله ثم قبله مني ، ثم قام إلى صلاته ، فرجع إبليس ثانياً فقال : يا ربّ سلطني على جسده ، فسلطه فنفخ في إبهام رجله فانتفخ ، ولا زال يسقط لحمه من شدّة البلاء إلى أن بقي أمعاؤه تبين ، وهو مع ذلك كله صابر محتسب ، مفوّض أمره إلى الله تعالى ، وكان الناس قد هجروه واستقذروه وألقوه خارجاً عن البيوت من نتن ريحه ، وكانت زوجته رحمة بنت يوسف الصدّيق قد سلمت فتردّدت إليه متفقدة ، فجاءها إبليس يوماً في صورة شيخ ومعه سخلة وقال لها ليذبح أيوب هذه السخلة على اسمي فيبرأ . فجاءته فأخبرته فقال لها إن شفاني الله تعالى لأجلدنك مائة جلدة ، تأمريني أن أذبح لغير الله تعالى فطردها عنه ، فذهبت وبقي ليس له من يقوم به فلما رأى أنه لا طعام له ، ولا شراب ، ولا أحد من الناس يتفقده خرّ ساجداً لله تعالى وقال : رب ﴿ **إني مسنى الضـرّ وأنت أرحم الراحمين** ﴾[1] فلما علم الله تعالى منه ثباته على هذه البلوى طول هذه المدّة وهي على ما قيل ثمان عشرة سنة وقيل غير ذلك وأنه تلقى جميع ذلك بالقبول وما شكا إلى مخلوق ما نزل به عاد الله تعالى بألطافه عليه فقال تعالى : ﴿ **فكشفنا ما به من ضرّ وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا** ﴾[2] وأفاض عليه من نعمه ما أنساه به بلوى نقمه ، ومنحه من أقسام كرمه أن أفتاه في يمينه تحلة قسمه ، ومدحه في نص الكتاب فقال تعالى : ﴿**وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب** ﴾[3] فلو لم يكن الصبر من أعلى المراتب ، وأسنى المواهب لما أمر الله تعالى به رسله ذوي الحزم وسماهم بسبب صبرهم أولي العزم ، وفتح لهم بصبرهم أبواب مرادهم وسؤالهم ، ومنحهم من لدنه غاية أمرهم ومأمولهم ومرامهم ، فما أسعد من اهتدى بهداهم ، واقتدى بهم وإن قصر عن مداهم ، وقيل : العسر يعقبه اليسر ، والشدّة يعقبها الرخاء ، والتعب يعقبه الراحة ، والضيق يعقبه السعة ، والصبر يعقبه الفرج ، وعند تناهي الشـدّة تنزل الرحمة ، والموفق من رزقه الله صبراً وأجراً ، والشقيّ من ساق القدر إليه جزعاً ووزراً .

ومما شنف السمع من نجح هذه الإشارة ، وأتحف النفع في نهج هذه العبارة ما روي عن الحسن البصري رضي الله تعالى عنه قال : كنت بواسط فرأيت رجلاً كأنه قد نُبش من قبر ، فقلت : ما دهاك يا هذا ؟ فقال : اكتم علي أمري ، حبسني الحجاج منذ ثلاث سنين فكنت في أضيق حال ، وأسوأ عيش ، وأقبح مكان ، وأنا مع ذلك كله صابر لا أتكلم ، فلما كان بالأمس

---

(١) سورة الانبياء آية ٨٣ .

(٢) سورة الانبياء الآية ٨٤ .

(٣) سورة ص الآية ٤٤ .

أُخرجت جماعة كانوا معي فضربت رقابهم ، وتحدّث بعض أعوان السجن أن غداً تضرب عنقي . فأخذني حزن شديد وبكاء مفرط ، وأجرى الله تعالى على لساني ، فقلت : إلهي اشتدّ الضر وفقد الصبر وأنت المستعان ثم ذهب من الليل أكثره فأخذتني غشية وأنا بين اليقظان والنائم إذ أتاني آت فقال لي : قم فصل ركعتين وقل : يا من لا يشغله شيء عن شيء ، يا من أحاط علمه بما ذرأ وبرأ[1] ، وأنت عالم بخفيات الأمور ومحصي وساوس الصدور ، وأنت بالمنزل الأعلى وعلمك محيط بالمنزل الأدنى تعاليت علوّاً كبيراً ، يا مغيث أغثني وفكّ أسري واكشف ضرّي فقد نفد صبري . فقمت وتوضأت في الحال وصليت ركعتين وتلوت ما سمعته منه ولم تختلف علي منه كلمة واحدة فما تمّ القول حتى سقط القيد من رجلي ونظرت إلى أبواب السجن فرأيتها قد فتحت فقمت فخرجت ولم يعارضني أحد فأنا والله طليق الرحمن ، وأعقبني الله بصبري فرجاً ، وجعل لي من ذلك الضيق مخرجاً ، ثم ودّعني وانصرف يقصد الحجاز . وفيما يروى عن الله تعالى أنه أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام : يا داود من صبر علينا وصل إلينا . وقال بعض الرواة : دخلت مدينة يقال لها وقار ، فبينما أنا أطوف في خرابها إذ رأيت مكتوباً بباب قصر خرب بماء الذهب واللازورد هذه الأبيات :

يا من ألحّ عليه الهمّ والفكر ... وغيرت حاله الأيام والغير
أما سمعت لما قد قيل في مثل ... عند الإياس فأين الله والقدر
ثم الخطوب إذا أحداثها طرقت ... فاصبر فقد فاز أقوام بما صبروا
وكلّ ضيق سيأتي بعده سعة ... وكلّ فوت وشيك بعده الظفر

ولما حبس أبو أيوب في السجن خمس عشرة سنة ضاقت حيلته وضاق صدره ، فكتب إلى بعض إخوانه يشكو إليه طول حبسه وقلة صبره ، فردّ عليه جواب رقعته يقول :

صبراً أبا أيوب صبر مبرح ... وإذا عجزت عن الخطوب فمن لها
إن الذي عقد الذي انعقدت به ... عقد المكارة فيك يملك حلها
صبراً فإنّ الصبر يعقب راحة ... ولعها أن تنجلي ولعلها

فأجابه أبو أيوب يقول :

صبّرتني ووعظتني وأنا لها ... وستنجلي بل لا أقول لعلها
ويحلها من كان صاحب عقدها ... كرماً به إذا كان يملك حلّها

فما لبث بعد ذلك أياماً حتى أطلق مكرماً . وأنشدوا :

إذا ابتليت فثق بالله وأرض به ... إن الذي يكشف البلوى هو الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه ... لا تيأسن فإنّ الصانع الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته ... فما ترى حيلة فيما قضى الله

---

(١) ذرأ : ترك . وبرأ ـ يبرأ فهو بريء : أي نقي .



في التأسيّ في الشدّة والتسلي عن نوائب الدهر

قال الثوري رحمه الله تعالى : لم يفقه عندنا من لم يعدّ البلاء نعمة ، والرخاء مصيبة ، وقيل الهموم التي تعرض للقلوب كفارات للذنوب . وسمع حكيم رجلاً يقول لآخر : لا أراك الله مكروهاً . فقال : كأنك دعوت عليه بالموت ، فان صاحب الدنيا لا بدّ له أن يرى مكروهاً . وتقول العرب : ويل أهون من ويلين . وقال ابن عيينة : الدنيا كلها غموم فما كان فيها من سرور فهو ربح . وقال العتبي : إذا تناهى الغمّ انقطع الدمع بدليل أنك لا ترى مضروباً بالسياط ولا مقدماً لضرب العنق يبكي . وقيل : تزوّج مغنّ بنائحة فسمعها تقول : اللهمّ أوسع لنا في الرزق ، فقال لها يا هذه : إنما الدنيا فرح وحزن وقد أخذنا بطرفي ذلك ، فان كان فرح دعوني ، وان كان حزن دعوك . وقال وهب ابن منبه : إذا سلك بك طريق البلاء سلك بك طريق البلاء الأنبياء .

وقال مطرف : ما نزل بي مكروه قط فاستعظمته إلا ذكرت ذنوبي فاستصغرته . وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه يرفعه « يودّ أهل العافية يوم القيامة أن لحومهم كانت تقرض بالمقاريض ، لما يرون من ثواب الله تعالى لأهل البلاء » وروى أبو عتبة عن النبيّ ﷺ قال : « إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه فاذا أحبه الحبّ البالغ اقتناه . قالوا وما اقتناه ؟ قال لا يترك له مالاً ولا ولداً » ومرّ موسى عليه الصلاة والسلام برجل كان يعرفه مطيعاً لله عزّ وجلّ قد مزقت السباع لحمه ، وأضلاعه ، وكبده ملقاة على الأرض فوقف متعجباً فقال : أي ربي عبدك ابتليته بما أرى . فأوحى الله تعالى إليه إنه سألني درجة لم يبلغها بعمله فأحببت أن أبتليه لأبلغه تلك الدرجة . وكان عروة بن الزبير صبوراً حين ابتلي ، حكي أنه خرج إلى الوليد بن يزيد فوطىء عظماً ، فما بلغ إلى دمشق حتى بلغ به كل مذهب ، فجمع له الوليد الأطباء ، فأجمع رأيهم على قطع رجله . فقالوا له : اشرب مرقدا . فقال ما أحب أن أغفل عن ذكر الله تعالى ، فأحمي له المنشار وقطعت رجله فقال ضعوها بين يدي ولم يتوجع . ثم قال لئن كنت ابتليت في عضو فقد عوفيت في أعضاء ، فبينما هو كذلك إذا أتاه خبر ولده أنه اطلع من سطح على دواب الوليد فسقط بينها فمات . فقال الحمد لله على كل حال ، لئن أخذت واحداً لقد أبقيت جماعة . وقدم على الوليد وفد من عبس فيهم شيخ ضرير ، فسأله عن حاله وسبب ذهاب بصره . فقال : خرجت مع رفقة مسافرين ومعي مالي ، وعيالي ، ولا أعلم عبسياً يزيد ماله على مالي ، فعرسنا في بطن واد فطرقنا سيل فذهب ما كان لي من أهل ، ومال ، وولد ، غير صبي صغير ، وبعير . فشرد البعير فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لأخذ البعير فسمعت صيحة الصغير فرجعت إليه فاذا رأس الذئب في بطنه وهو يأكل فيه فرجعت إلى البعير فحطم وجهي برجليه فذهبت عيناي فأصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل . فقال الوليد اذهبوا به إلى عروة ليعلم أن في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه . وقيل الحوادث الممضة مكسبة لحظوظ جليلة ، إما ثواب مدخر ، أو تطهير من ذنب ، أو تنبيه من غفلة ، أو تعريف لقدر النعمة . قال البحتري يسلي محمد بن يوسف على حبسه :

وما هـذه الأيـام إلا مـنـازل | فمن منزل رحب إلى منزل ضنك
وقـد دهمتك الحـادثـات وإنمـا | صفا الذهب الأبريز قبلك بالسبك
أمـا في نبيّ الله يـوسف أسـوة | لمثلك محبوس عن الظلم والافك
أقام جميل الصبر في السجن برهة | فآل به الصبر الجميل إلى الملك

وقال علّي بن الجهم لما حبسه المتوكل :

قالوا حبست فقلت ليس بضائري | حبسي وأيّ مهنـد لا يغمـد
والشمس لـولا أنهـا محجـوبـة | عن نـاظريـك لما أضـاء الفرقـد
والنـار في أحجـارهـا مخبـوءة | لا تصطلي إن لم تثرهـا الأزند
والحبس مـا لم تغشـه لـدنيـة | شنعـاء نعم المنـزل المتـودد
بيت يـجـدد للكـريـم كـرامـة | ويـزار فيـه ولا يـزور ويحمـد
لـو لم يكن في الحبس إلا أنـه | لا تستـذلـك بـالحجـاب الأعبـد
غـرّ الليـالي بـاديـات عـوّد | والمـال عـاريـة يعـار وينفـد
ولكـلّ حيّ معقـب ولـربمـا | أجلى لـك المكروه عمـا يحمـد
لا يؤيسنـك من تفـرج نكبـة | خـطب رماك بـه الزمـان الأنكـد
كم من عليـل قد تخطاه الردى | فنجـا ومـات طبيبـه والعـود
صبـرا فـان اليـوم يعقبـه غـد | ويـد الخلافـة لا تـطاولهـا يـد

قال وأنشد إسحاق الموصلي إبراهيم بن المهدي حين حبس :

هي المقـادير تجـري في أعنتهـا | فاصبر فليس لها صبر على حال
يوما تريك خسيس الأصل ترفعـه | إلى العلاء ويومـا تخفض العالي

فلما أمسى حتى وردت عليه الخلع السنية من المأمون ورضي عنه . وقال إبراهيم بن عيسى الكاتب في إبراهيم بن المدني حين عزل :

ليهن أبـا إسحـاق أسبـاب نعمـة | مجـددة بـالعـزل والعـزل أنبـل
شهدت لقد منوا عليك وأحسنـوا | لأنـك يوم العـزل أعلى وأفضـل

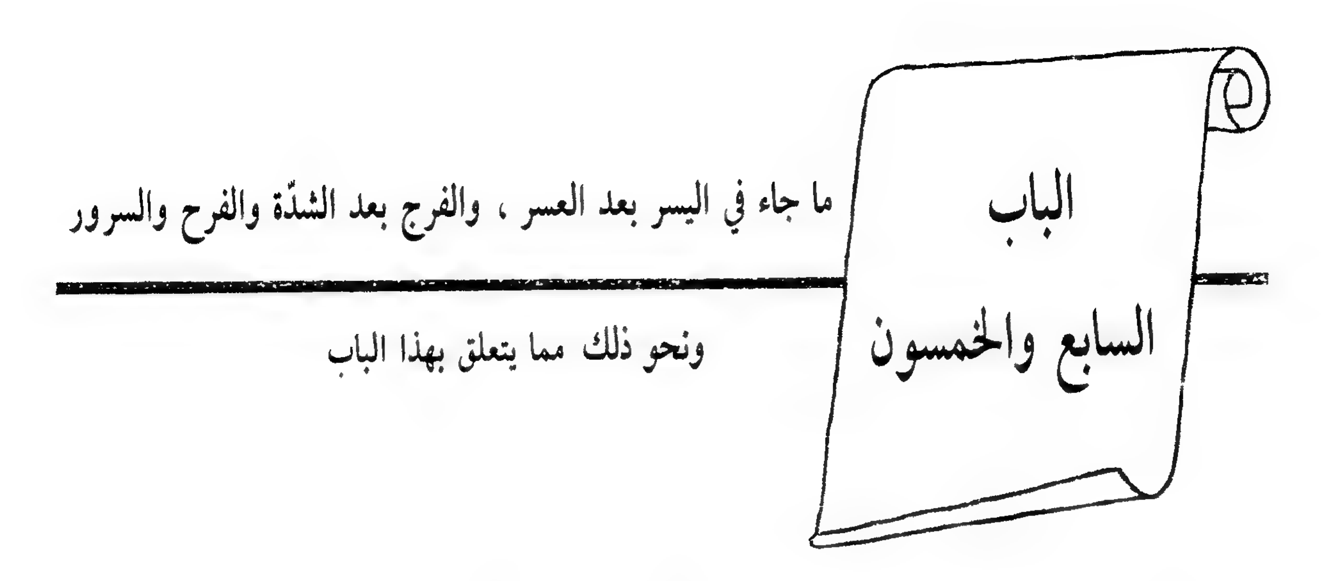
وقال آخر :

قـد زاد ملك سليمـان فعـاوده | والشمس تنحط في المجرى وترتفع

وقال أبو بكر الخوارزمي لمعزول : الحمد لله الذي ابتلى في الصغير وهو المال ، وعافى في الكبير وهو الحال .

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة | ولكنّ عـاراً أن يـزول التجمـل

وقيل المال حظ ينقص ثم يزيد ، وظلّ ينحسر ثم يعود . وسئل بزرجمهر عن حاله في نكبته ؟ فقال عوّلت على أربعة أشياء : أولها أني قلت القضاء والقدر لا بد من جريانهما ، الثاني أني قلت إن لم أصبر فما أصنع ، الثالث أني قلت قد كان يجوز أن يكون أعظم من هذا ، الرابع أني قلت لعلّ الفرج قريب ، والله تعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



ما جاء في اليسر بعد العسر ، والفرج بعد الشدّة والفرح والسرور ونحو ذلك مما يتعلق بهذا الباب

فيما يليق بهذا الباب من كتاب الله عزّ وجلّ قوله تعالى : ﴿ **سيجعل الله بعد عسر يسراً** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الوليّ الحميد** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فننجّي من نشاء** ﴾[3] ويروى عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال : « لو كان العسر في جحر لدخل عليه اليسر حتى يخرجه » . وقال عليه الصلاة والسلام « عند تناهي الشدة يكون الفرج ، وعند تضايق البلاء يكون الرخاء » وقال علي رضي الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ : « أفضل عبادة أمتي انتظارها فرج الله تعالى » وقال الحسن لما نزل قوله تعالى﴿ **فان مع العسر يسرا * إن مع العسر يسرا** ﴾[4] قال النبي ﷺ : « أبشروا فلن يغلب عسر يسرين » ومن كلام الحكماء إن تيقنت لم يبق هم . وقال أبو حاتم :

إذا اشتملت على البؤس القلوب ... وضاقت بما به الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره واطمأنت ... وأرست في مكامنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضرّ وجهاً ... ولا أغنى بحيلته إلا ريب
أتاك على قنوط منك غوث ... يمنّ به اللطيف المستجب

وقال آخر :

عسى الهم الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب
فيأمن خائف ويغاث عان ... ويأتي أهله النائي الغريب

---

(١) سورة الطلاق الآية ٧ .
(٢) سورة الشورى الآية ٢٨ .
(٣) سورة يوسف الآية ١١٠ .
(٤) سورة الانشراح الآية (٥ و٦).

وقال آخر :

تصبر أيها العبد اللبيب لعلك بعد صبرك ما تخيب
وكل الحادثات إذا تناهتْ يكون وراءها فرج قريب

وقال إبراهيم بن العباس :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج

وقال آخر :

لئن صدع البين المشتت شملنا فللبين حكم في الجموع صدوع
وللنجم من بعد الرجوع استقامة وللشمس من بعد الغروب طلوع
وإن نعمة زالت عن الحر وانقضت فان لها بعد الزوال رجوع
فكن واثقاً بالله واصبر لحكمه فان زوال الشر عنك سريع

ولنذكر نبذة ممن حصل له الفرج بعد الشدة :

روي أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى صالح بن عبدالله عامله على المدينة المنورة أن أخرج الحسن بن الحسن ابن علي من السجن ، وكان محبوساً واضربه في مسجد رسول الله ﷺ خمسمائة سوط، فأخرجه إلى المسجد واجتمع الناس وصعد صالح يقرأ عليه الكتاب ، ثم نزل يأمر بضربه فبينما هو يقرأ الكتاب إذ جاء علي بن الحسين عليه السلام فأفرج له الناس حتى أتى إلى جنب الحسن فقال يا ابن العم مالك ، ادع الله تعالى بدعاء الكرب يفرج الله عنك قال ما هو يا ابن العم فقال لا إله إلا الله الحليم الكريم ، لا إله إلا الله العلي العظيم سبحان رب السموات السبع ورب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين ثم انصرف عنه . وأقبل الحسن يكررها فلما فرغ صالح من قراءة الكتاب ونزل قال أراه في سجنه مظلوماً أخرجوه، وأنا أراجع أمير المؤمنين في أمره فأطلق بعد أيام ، وأتاه الفرج من عند الله . وقال الربيع لما حبس المهدي موسى بن جعفر رأى في المنام علياً رضي الله تعالى عنه وهو يقول : يا محمد فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض ، وتقطعوا أرحامكم . قال الربيع : فأرسل المهدي إليّ ليلاً فراعني ذلك فجئته فاذا هو يقرأ هذه الآية وكان حسن الصوت فقص عليّ الرؤ يا ، ثم قال ائتني بموسى بن جعفر فجئته به فعانقه وأجلسه إلى جانبه وقال يا أبا الحسن رأيت أمير المؤمنين يقرأ عليّ كذا فعاهدني أن لا تخرج عليّ ولا على أحد من ولدي فقال والله ما ذاك من شأني . فقال صدقت ثم قال يا ربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار ورده إلى أهله بالمدينة . قال الربيع فأحكمت أمره ليلاً فما أصبح إلا على الطريق . وقال إسماعيل بن بشار :

وكل حر وإن طالت بليته يوماً تفرج غماه وتنكشف

وقال مسلم بن الوليد : كنت يوماً جالساً عند خياط بازاء منزلي ، فمر بي إنسان أعرفه ، فقمت إليه وسلمت عليه وجئت به إلى منزلي لأضيفه وليس معي درهم ، بل كان عندي زوج أخفاف ، فأرسلتها مع جاريتي لبعض معارفي فباعها بتسعة دراهم واشترى بها ما قلته لها من الخبز واللحم فجلسنا نأكل ، وإذا بالباب يطرق

فنظرت من شق الباب وإذا بإنسان يسأل هذا منزل فلان ففتحت الباب وخرجت . فقال : أنت مسلم بن الوليد قلت نعم واستشهدت له بالخياط على ذلك ، فأخرج لي كتاباً وقال : هذا من الأمير يزيد بن مزيد فاذا فيه قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم لتكون في منزلك ، وثلاثة آلاف درهم تتجمل بها لقدومك علينا ، فأدخلته إلى داري وزدت في الطعام واشتريت فاكهة وجلسنا فأكلنا ، ثم وهبت لضيفي شيئاً يشتري به هدية لأهله ، وتوجهنا إلى باب يزيد بالرقة فوجدناه في الحمام فلما خرج استؤذن لي عليه فدخلت فاذا هو جالس على كرسي وبيده مشط يسرح به لحيته ، فسلمت عليه فرد أحسن رد وقال : ما الذي أقعدك عنّا . قلت : قلة ذات اليد ، وأنشدته قصيدة مدحته بها قال أتدري لم أحضرتك ؟ قلت لا أدري . قال كنت عند الرشيد منذ ليال أحادثه فقال لي يا يزيد من القائل فيك هذه الأبيات :

سـل الخليفة سيفـاً من بني مضر   يمضي فيختـرق الأجسـام والهـامـا
كـالـدهـر لا ينثني عـمّا يهـم بـه   قـد أوسـع النـاس إنعـاماً وإرغـاما

فقلت : والله لا أدري يا أمير المؤمنين . فقال : سبحان الله أيقال فيك مثل هذا ولا تدري من قاله : فسألت . فقيل لي هو مسلم بن الوليد . فأرسلت إليك فانهض بنا إلى الرشيد ، فسرنا إليه واستؤذن لنا فدخلنا عليه ، فقبلت الأرض ، وسلمت فردّ علي السلام فأنشدته مالي فيه من شعر ، فأمر لي بمائتي ألف درهم ، وأمر لي يزيد بمائة وتسعين ألف درهم وقال لا ينبغي لي أن أساوي أمير المؤمنين في العطاء ، فانظر إلى هذا التيسير الجسيم بعد العسر العظيم ، وما أحسن ما قيل :

الأمـن والخـوف أيـامـاً مـداولـة   بـين الأنـام وبعـد الضيق تـتسـع

ولما وجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق ، ليطلق أهل السجون ، ويقسم الأموال ضيق على يزيد بن أبي مسلم . فلما ولي يزيد بن عبد الملك الخلافة ولى يزيد بن أبي مسلم أفريقية ، وكان محمد بن يزيد والياً عليها ، فاستخفى محمد بن يزيد فطلبه يزيد بن أبي مسلم وشدد في طلبه ، فأتى به إليه في شهر رمضان عند المغرب ، وكان في يد يزيد بن أبي مسلم عنقود عنب فقال لمحمد بن يزيد حين رآه يا محمد بن يزيد . قال نعم ، قال : طالما سألت الله أن يمكنني منك . فقال وأنا والله طالما سألت الله أن يجيرني منك . فقال والله ما أجارك ، ولا أعاذك وإن سبقني ملك الموت إلى قبض روحك سبقته ، والله لا آكل هذه الحبة العنب حتى اقتلك ، ثم أمر به فكتّف ، ووضع في النطع ، وقام السياف فأقيمت الصلاة ، فوضع العنقود من يده وتقدم ليصلي ، وكان أهل أفريقية قد أجمعوا على قتله ، فلما رفع رأسه ضربه رجل بعمود على رأسه فقتله . وقيل لمحمد بن يزيد اذهب حيث شئت فسبحان من قتل الأمير وفك الأسير . قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : رأيت رسول الله ﷺ في النوم وهو يقول أطلق القاتل فارتعت لذلك ، ودعوت بالشموع ونظرت في أوراق السجن ، وإذا ورقة إنسان أدّعي عليه بالقتل ، وأقرّ به فأمرت باحضاره ، فلما رأيته وقد ارتاع قلت له إن صدقتني أطلقتك . فحدّثني أنه كان هو وجماعة من أصحابه يرتكبون كل عظيمة ، وإن عجوزاً جاءت لهم بامرأة ، فلما صارت عندهم صاحت الله الله وغشي عليها ، فلما أفاقت قالت أنشدك الله في أمري فان هذه العجوز غرّتني وقالت إن في هذه الدار نساء صالحات ، وأنا شريفة جدّي رسول الله ﷺ وأمي فاطمة ، وأبي الحسين بن علي فاحفظوهم فيّ ، فقمت دونها وناضلت عنها ،

فاشتد عليّ واحد من الجماعة وقال لا بد منها ، وقاتلني وخلصت الجارية من يده ، فقالت سترك الله كما سترتني . وسمع الجيران الصيحة فدخلوا علينا فوجدوا الرجل مقتولاً والسكين بيدي ، فأمسكوني وأتوا بي إليك وهذ أمري . فقال إسحاق قد وهبتك لله ولرسوله ، فقال وحق اللذين وهبتني لهما لا أعود إلى معصية أبداً . وأمر الحجاج باحضار رجل من السجن ، فلما حضر أمر بضرب عنقه ، فقال أيها الأمير أخرني إلى غد ، قال وأيّ فرج لك في تأخير يوم واحد ، ثم أمر بردّه إلى السجن ، فسمعه الحجاج وهو راجع إلى السجن يقول :

عسى فرج يأتي به الله إنَّه　　　له كل يوم في خليقته أمر

فقال الحجاج والله ما أخذه إلا من كتاب الله وهو قوله تعالى : ﴿ **كل يوم هو في شأن** ﴾[1]، وأمر باطلاقه .
وقال بعض جلساء المعتمد : كنا بين يديه ليلة فخفق رأسه بالنعاس فقال لا تبرحوا حتى أغفو سويعة ، فغفا ساعة ثم أفاق جزعاً مرعوباً ، وقال امضوا إلى السجن وائتوني بمنصور الجمال ، فجاءوا به فقال له كم لك في السجن ؟ قال سنة ونصف قال على ماذا ، قال أنا جمال من أهل الموصل وضاق علي الكسب ببلدي ، فأخذت جملي وتوجهت إلى بلد غير بلدي لأعمل عليه فوجدت جماعة من الجند قد ظفروا بقوم غير مستقيمي الحال وهم مقدار عشرة أنفس ، وجدوهم يقطعون الطريق ، فدفع واحد منهم شيئاً للأعوان فأطلقوه وأمسكوني عوضه ، وأخذوا جملي فناشدتهم الله ، فأبوا وسجنت أنا والقوم فأطلق بعضهم ، ومات بعضهم ، وبقيت أنا . فدفع له المعتمد خمسمائة دينار وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل شهر . وقال اجعلوه على جمالنا ، ثم قال أتدرون ما سبب فعلي هذا ؟ قلنا لا ، قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو يقول : أطلق منصوراً الجمال من السجن ، وأحسن إليه . وأخذ الطاعون أهل بيت فسدّ بابه ، ففضل فيه طفل يرضع لم يشعر به أحد ، ففتح الباب بعد شهر فوجدوا الطفل قد عطف الله عليه كلبة ترضعه مع جرو لها ، فسبحان القادر على كل شيء ، لا آله غيره ولا معبود سواه . قال الشاعر :

إذا تضايق أمر فانتظر فرجا　　　فأضيق الأمر أدناه إلى الفرج

وقال آخر :

فلا تجزعن إن أظلم الدهر مرة　　　فان اعتكار الليل يؤذن بالفجر

وقال آخر :

لعمرك ما كل التعاطيل ضائر　　　ولا كل شغل فيه للمرء منفعة
إذا كانت الأرزاق في القرب والنوى　　　عليك سواء فاغتنم لذة الدعة
فإن ضقت فاصبر يفرّج الله ما ترى　　　ألا ربّ ضيق في عواقبه سعة

وقال الرياشي : ما اعتراني همّ فأنشدت قول أبي العتاهية حيث قال :

هي الأيام والغير　　　وأمر الله ينتظر
أتيأس أن ترى فرجاً　　　فأين الله والقدر

---

(١) سورة الرحمن الآية ٢٩ .

إلا سري عني وهبت ريح الفرج . ويروى أن سلطان صقلية أرق ذات ليلة ، ومُنع النوم فأرسل إلى قائد البحر وقال له انفذ الآن مركباً إلى أفريقية يأتوني بأخبارها . فعمد القائد إلى مقدم مركب وارسله فلما أصبحوا إذا بالمركب في موضعه كأنه لم يبرح ، فقال الملك لقائد البحر أليس قد فعلت ما أمرتك به . قال نعم قد امتثلت أمرك ، وأنفذت مركباً فرجع بعد ساعة ، وسيحدّثك مقدم المركب . فأمر باحضاره فجاء ومعه رجل فقال له الملك ما منعك أن تذهب حيث أمرت ، قال ذهبت بالمركب ، فبينما أنا في جوف الليل ، والرجال يجدفون إذا بصوت يقول يا الله ، يا غياث المستغيثين يكرّرها مراراً ، فلما استقرّ صوته في أسماعنا ناديناه مراراً : لبيك لبيك وهو ينادي يا الله يا غياث المستغيثين ، فجدفنا بالمركب نحو الصوت فلقينا هذا الرجل غريقاً في آخر رمق من الحياة فطلعنا به المركب وسألناه عن حاله ، فقال كنا مقلعين من أفريقية فغرقت سفينتنا منذ أيام وأشرفت على الموت ، وما زلت أصيح حتى أتاني الغوث من ناحيتكم ، فسبحان من أسهر سلطاناً ، وأرقه في قصره لغريق في البحر حتى استخرجه من تلك الظلمات الثلاث : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة الوحدة فسبحانه لا إله غيره ولا معبود سواه .

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي في كتابه سراج الملوك ، قال : أخبرني أبو الوليد الباجي عن أبي ذر . قال : كنت أقرأ على الشيخ أبي حفص عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد جزءاً من الحديث في حانوت رجل عطار ، فبينا أنا جالس معه في الحانوت إذ جاءه رجل من الطّوافين ممن يبيع العطر في طبق يحمله على يده ، فدفع إليه عشرة دراهم وقال له : أعطني بها أشياء سماها له من العطر فأعطاه إياها فأخذها في طبقه ، وأراد أن يمضي ، فسقط الطبق من يده ، فانكب جميع ما فيه . فبكى الطوّاف ، وجزع حتى رحمناه . فقال أبو حفص لصاحب الحانوت لعلك تعينه على بعض هذه الأشياء . فقال : سمعاً وطاعة فنزل وجمع له ما قدر على جمعه منها ، ودفع له ما عدم منها ، وأقبل الشيخ على الطّواف يصبره ويقول له لا تجزع فأمر الدنيا أيسر من ذلك ، فقال الطّواف أيها الشيخ ، ليس جزعي لضياع ما ضاع لقد علم الله تعالى أني كنت في القافلة الفلانية ، فضاع لي هميان[1] فيه أربعة آلاف دينار ومعها فصوص قيمتها كذلك ، فما جزعت لضياعها حيث كان لي غيرها من المال ، ولكن ولد لي ولد في هذه الليلة فاحتجنا لأمه ما تحتاج النفساء ، ولم يكن عندي غير هذه العشرة دراهم ، فخشيت أن أشتري بها حاجة للنفساء ، فأبقى بلا رأس مال ، وأنا قد صرت شيخاً كبيراً لا أقدر على التكسب . فقلت في نفسي أشتري بها شيئاً من العطر فأطوف به صدر النهار فعسى أستفضل شيئاً أسدّ به رمق أهلي ، ويبقى رأس المال أتكسب به . واشتريت هذا العطر ، فحين انكب الطبق علمت أنه لم يبق لي إلا الفرار منهم ، فهذا الذي أوجب جزعي . قال أبو حفص وكان رجل من الجند جالساً إلى جانبي يستوعب الحديث ، فقال للشيخ أبي حفص : يا سيدي أريد أن تأتي بهذا الرجل إلى منزلي فظننا أنه يريد أن يعطيه شيئاً . قال فدخلنا إلى منزله فأقبل على الطوّاف وقال له عجبت من جزعك ، فأعاد عليه القصة ، فقال له الجندي وكنت في تلك القافلة ؟ قال نعم وكان فيها فلان وفلان ، فعلم الجندي صحة قوله ، فقال وما علامة الهميان ؟ وفي أيّ موضع سقط منك ، فوصف له المكان والعلامة . قال الجندي إذا رأيته تعرفه ، قال نعم . فأخرج الجندي له همياناً ووضعه بين يديه ، فحين رآه صاح وقال هذا همياني والله ، وعلامة صحة قولي أن فيه من الفصوص ما هو كيت ، وكيت . ففتح الهميان فوجده كما ذكر . فقال

---

(١) الهميان : كيس تجعل فيه النفقة ويشد بخيط من الوسط . (الكلمة فارسية) .

الجندي : خذ مالك بارك الله لك فيه . فقال الطوّاف إن هذه الفصوص قيمتها مثل الدنانير وأكثر ، فخذها وأنت في حلّ منها ونفسي طيبة بذلك ، فقال الجندي : ما كنت لآخذ على أمانتي مالاً ، وأبى أن يأخذ شيئاً ، ثم دفعه للطوّاف جميعها فأخذها ومضى ، ودخل الطّواف وهو من الفقراء ، وخرج وهو من الأغنياء . اللهم أغن فقرنا . ويسر أمرنا برحمتك يا أرحم الراحمين .

وحكي أن الملك ناصر الدولة من آل حمدان كان يشكو وجع القولنج حتى أعيا الأطباء دواؤه ، ولم يجدوا له شفاء فدسوا على قتله ، وأرصدوا له رجلاً ومعه خنجر فلما كان في بعض دهاليز القصر وثب عليه ذلك الرجل وضربه بالخنجر فجاءت الضربة أسفل خاصرته فلم تخط المعي الذي فيه القولنج فخرج ما فيه من الخلط فعافاه الله تعالى ، وبرىء أحسن ما كان . وبضدّ هذا ما حكاه أبو بكر الطرطوشي قال : حدّثنا القاضي أبو مروان الداراني بطرطوشة قال : نزلت قافلة بقرية خربة من أعمال دانية فآوا إلى دار خربة هناك فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار ، واستوقدوا نارهم وسوّوا معيشتهم وكان في تلك الخربة حائط مائل قد أشرف على الوقوع . فقال رجل منهم يا هؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط ولا يدخلنّ أحد في هذه البقعة فأبوا إلا دخولها فاعتزلهم ذلك الرجل وبات خارجاً عنهم ولم يقرب ذلك المكان فأصبحوا في عافية ، وحملوا على دوابهم فبينما هم كذلك إذ دخل ذلك الرجل إلى الدار ليقضي حاجته فخرّ عليه الحائط فمات لوقته . قال : وأخبرني أبو القاسم بن حبيش بالموصل قال : لقد جرت في هذه الدار ، وأشار إلى دار هناك قضية عجيبة . قلت وما هي ؟ قال كان يسكن هذه الدار رجل من التجار ممن يسافر إلى الكوفة في تجارة الخزّ ، فاتفق أنه جعل جميع ما معه من الخزّ في خرج وحمله على حماره وسار مع القافلة ، فلما نزلت القافلة ، أراد إنزال الخرج عن الحمار ، فثقل عليه ، فأمر إنساناً هناك فأعانه على إنزاله ، ثم جلس يأكل فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه ، فسأله عن أمره ، فأخبره أنه من أهل الكوفة ، وأنه خرج لحاجة عرضت له بغير نفقة ولا زاد فقال له الرجل : كن رفيقي آنس بك وتعينني على سفري ونفقتك ومؤنتك علي ، فقال له الرجل : وأنا أيضاً أختار صحبتك وأرغب في مرافقتك ، فسار معه في سفره وخدمه أحسن خدمة إلى أن وصلا إلى تكريت ، فنزل الرفقة خارج المدينة ، ودخل الناس إلى قضاء حوائجهم ، فقال التاجر لذلك الرجل : احفظ حوائجنا حتى أدخل المدينة وأشتري ما نحتاج إليه ، ثم دخل المدينة وقضى جميع حوائجه ورجع فلم يجد القافلة ولا صاحبه ، ورحلت الرفقة ولم ير أحداً فظنّ أنه لما رحلت الرفقة رحل ذلك الخادم معهم فلم يزل يسير ويجدّ السير في المشي إلى أن أدرك القافلة بعد جهد عظيم وتعب شديد ، فسألهم عن صاحبه ، فقالوا : ما رأيناه ولا جاء معنا ولكنه ارتحل على أثرك فظننا أنك أمرته . فكرّ الرجل راجعاً إلى تكريت وسأل عن الرجل فلم يجد له أثراً ولا سمع له خبراً فيئس منه ، ورجع إلى الموصل مسلوب المال فوصلها نهاراً فقيراً جائعاً عرياناً مجهوداً ، فاستحى أن يدخلها نهاراً فتشمت به الأعداء ، نعوذ بالله من شماتتهم ، وخشي أن يحزن الصديق إذا رآه على تلك الحالة فاستخفى إلى الليل ، ثم عاد إلى داره فطرق الباب فقيل له من هذا ؟ قال فلان يعني نفسه فأظهروا له سروراً عظيماً وحاجة إليه وقالوا : الحمد لله الذي جاء بك في هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة والحاجة ، فإنك أخذت مالك معك وما تركت لنا نفقة كافية ، وأطلت سفرك واحتجنا وقد وضعت زوجتك اليوم ، والله ما وجدنا ما نشتري به شيئاً للنفساء ، فاتنا بدقيق ودهن نسرج به علينا ، فلا سراج عندنا ، فلما سمع ذلك ازداد غماً على غمه وكره أن يخبرهم بحاله فيحزنهم بذلك ، فأخذ وعاء للدهن ، ووعاء للدقيق وخرج إلى حانوت أمام داره وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ونحو ذلك ، وكان البياع أطفأ سراجه وأغلق حانوته

ونام فناداه فعرفه فأجابه وشكر الله على سلامته فقال له افتح حانوتك واعطنا ما نحتاج إليه من دقيق وعسل ودهن فنزل البياع إلى حانوته وأوقد المصباح ووقف يزن له ما طلب ، فبينما هو كذلك إذ حانت من التاجر التفاتة إلى قعر الحانوت ، فرأى خرجه الذي هرب به صاحبه فلم يملك نفسه أن وثب إليه والتزمه وقال : يا عدوّ الله ائتني بمالي ، فقال له البياع ما هذا يا فلان ! والله ما علمتك متعدّياً ، وأنا ابداً ما جنيت عليك ولا على غيرك فما هذا الكلام ؟ قال : هذا خرجي هرب به خادم كان يخدمني وأخذ حماري وجميع مالي . فقال البياع : والله مالي علم غير أن رجلاً ورد علي بعد العشاء واشترى مني عشاءه ، وأعطاني هذا الخرج فجعلته في حانوتي وديعة إلى حين يصبح ، والحمار في دار جارنا ، والرجل في المسجد نائم قال له : احمل معي الخرج وامض بنا إلى الرجل ، فرفع الخرج على عاتقه ومضى معه إلى المسجد فاذا الرجل نائم في المسجد فوكزه برجله فقام الرجل مرعوباً فقال مالك ؟ قال : أين مالي يا خائن ؟ قال : ها هو في خرجك فوالله ما أخذت منه ذرة . قال : فأين الحمار وآلته ؟ قال : هو عند هذا الرجل الذي معك ، فعفا عنه وخلّى سبيله ومضى بخرجه إلى داره فوجد متاعه سالماً فوسع على أهله وأخبرهم بقصته فازداد سرورهم وفرحهم وتبركوا بذلك المولود ، فسبحان من لا يخيب من قصده ولا ينسى من ذكره .

ولنلحق بهذا الباب ذكر شيء مما جاء في التهنئة والبشائر : كتب بعضهم إلى أخيه وقد أتاه خبراً استبشر به ، سمعت عنك خبراً ساراً كتب في الألواح ، وامتزج بالأرواح ، وعدّ في جملة البشائر العظام وجرى في العروق وتمشى في العظام . وكان خالد بن عبد الله القسري أخا هشام بن عبد الملك من الرضاع ، وكان يقول له : إني لأرى فيك آثار الخلافة ولا تموت حتى تليها . فقال له : إن أنا وليتها فلك العراق ، فلما ولي أتاه فقام بين الصفين وقال : يا أمير المؤمنين أعزّك الله بعزته وأيدك بملائكته ، وبارك لك فيما ولّاك ورعاك فيما استرعاك ، وجعل ولايتك على أهل الإسلام نعمة ، وعلى أهل الشرك نقمة ، لقد كانت الولاية إليك أشوق منك إليها ، وأنت لها أزين منها لك ، وما مثلها ومثلك إلا كما قال الأحوص هذه الأبيات :

وإن الـدرّ زاد حـسـن وجـوه	كـان لـلدّر حسـن وجهـك زينـا
وتـزيـدنّ أطيب الـطيب طيبـا	إن تمـسّـه أيـن مـثـلك أيـنـا

ودخل على المهدي أعرابيّ فقال له : فيم جئت ؟ قال : أتيتك برسالة ، قال هاتها قال : أتاني آت في منامي فقال : أئت أمير المؤمنين فابلغه هذه الآبيات .

لـكـم إرث الخـلافـة من قـريش	تـزفّ إلـيكـمـو أبـداً عـروسـا
إلى هـارون تهـدى بعـد مـوسى	تميس[1] ومـا لهـا أن لا تميـسـا

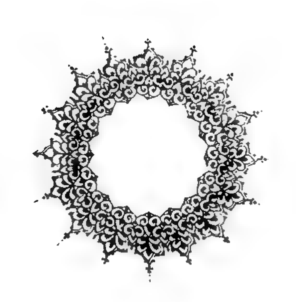
فقال المهدي : يا غلام علي بالجواهر ، فحشا فاه حتى كاد ينشقّ . ثم قال : اكتبوا هذه الأبيات واجعلوها في بخانق صبياننا . وقال إبراهيم الموصلي في تهنئة الرشيد بالخلافة .

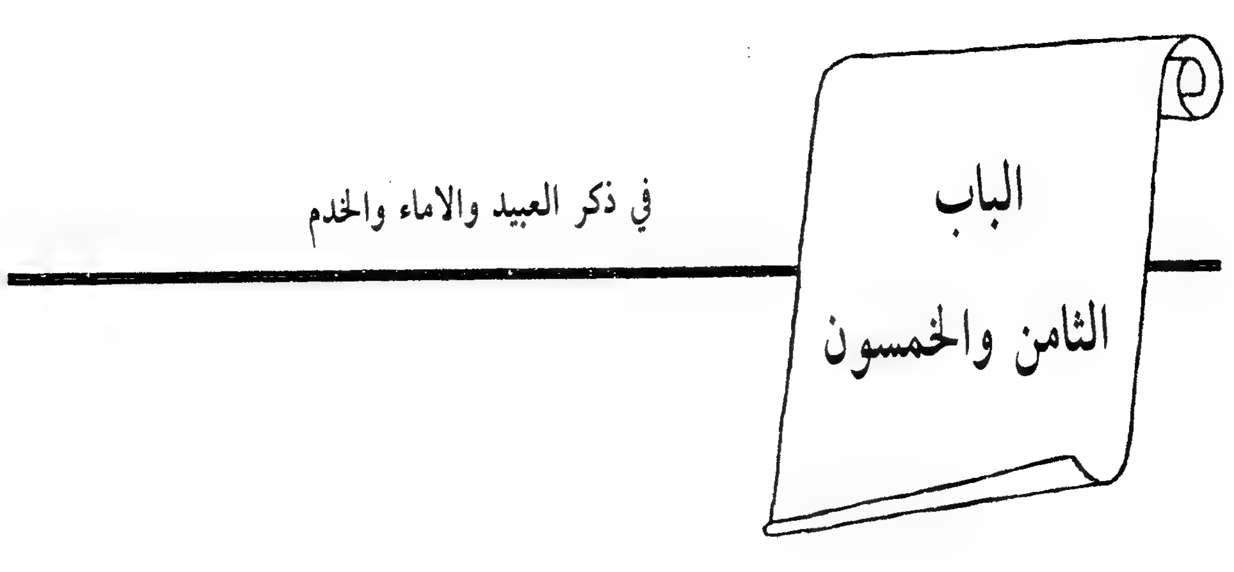
ألم تـر أن الشمس كـانت مـريضة	فـلما أتى هـارون أشـرق نـورهـا
تـلبست الـدنيـا جمـالاً بمـلكـه	فهـارون واليهـا ويحيى وزيـرهـا

---

(١) تميس : تختال .

وغناه بهما من وراء الحجاب فوصله بمـائة ألف دينار ، ويحيى بخمسين ألفاً . ودخل عطاء بن أبي صيفي على يزيد بن معاوية وهو أوّل من جمع بين التهنئة والتعزية فقال : رزئت خليفة الله وأعطيت خلافة الله قضى معاوية نحبه ، فغفر الله ذنبه ، ووليت الرياسة وكنت أحق بالسياسة ، فاحتسب عند الله أعظم الرزية ، وأشكر الله على أعظم العطية . ومر عمر بن هبيرة بعد إطلاقه من السجن بالرقة فاذا امرأة من بني سليم على سطح لها تحادث جارة لها ليلاً.وهي تقول : لا والذي أسأله أن يخلص عمر بن هبيرة مما هو فيه ما كان كذا ، فرمى إليها بصرة فيها مائة دينار وقال قد خلص الله عمر بن هبيرة فطيبي نفساً وقري عيناً . والله سبحانه وتعالى اعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .





في ذكر العبيد والاماء والخدم

الفصـل الاول :

في مدح العبيد والإماء والاستيصاء بهم خيراً .

عن علي رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أول من يدخل الجنة شهيد ، وعبد أحسن عبادة ربه ، ونصح لسيده » . وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما رفعه « إن العبد إذا نصح لسيده ، وأحسن عبادة ربه فله أجره مرتين » وكان زيد بن حارثة خادماً لخديجة رضي الله تعالى عنها إشتري لها بسوق عكاظ فوهبته لرسول الله ﷺ ، فجاءه أبوه يريد شراءه منه ، فقال رسول الله ﷺ إن رضي بذلك فعلت . فسئل زيد فقال ذل الرق مع صحابة رسول الله ﷺ ، أحب إليّ من عز الحرية مع مفارقته فقال رسول الله ﷺ ، إذا اختارنا اخترناه ، فأعتقه وزوّجه أم أيمن وبعدها زينب بنت جحش . وعن علي رضي الله تعالى عنه قال : كان آخر كلام رسول الله ﷺ : « أوصيكم بالصلاة ، واتقوالله فيما ملكت أيمانكم ». وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه : لا يقولنّ أحدكم عبدي ، وأمتي كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي . وعن ابن مسعود الأنصاريّ قال : ضربت غلاماً لي فسمعت من خلفي صوتاً : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك عليه . فالتفت فاذا هو النبيّ ﷺ ، فقلت يا رسول الله هو حرّ لوجه الله تعالى . فقال أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار . وروي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله كم تعفو عن الخادم ، ثم أعاد عليه فصمت ، فلما كانت الثالثة قال له : أعفو عنه كل يوم سبعين مرة . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال حدثني أبو القاسم نبيّ التوبة ﷺ : « من قذف مملوكه وهو بريء مما قال جلد له يوم القيامة حدّاً . وقيل : أراد رجل بيع جاريته فبكت . فقال لها مالك ؟ فقالت لو ملكت منك ما ملكت مني ، ما أخرجتك من يدي ، فأعتقها وتزوّجها . وقال أبو اليقظان : إن قريشاً لم تكن ترغب في أمهات الأولاد حتى ولدن ثلاثة هم خير أهل زمانهم : علي بن الحسين ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله . وذلك أن عمر رضي الله تعالى عنه أُتي ببنات يزدجرد بن شهريار بن كسرى مسبيات ، فأراد بيعهن فأعطاهن للدلال

ينادي عليهن بالسوق فكشف عن وجه إحداهن فلطمته لطمة شديدة على وجهه فصاح واعمراه وشكا إليه ، فدعاهن عمر وأراد أن يضربهن بالدرة . فقال علي رضي الله تعالى عنه يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال : أكرموا عزيز قوم ذلّ ، وغني قوم افتقر ، إن بنات الملوك لا يبعن ، ولكن قوّموهن . فقوّمهن وأعطاه أثمانهن ، وقسمهن بين الحسن بن علي ، ومحمد بن أبي بكر ، وعبد الله ابن عمر فولدن هؤلاء الثلاثة ، وقيل استبق بنو عبد الملك فسبقوا مسلمة ، وكان ابن أمة ، فتمثل عبد الملك بقول عمرو العبدي :

نهيتكمو أن تحملوا فوق خيلكم　　هجيناً لكم يوم الرهان فيدرك
فتعثر كفاه ويسقط سوطه　　ويخدر ساقاه فما يتحرك
وهل يستوي المرآن هذا ابن حرة　　وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك

فقال له مسلمة : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ليس هذا مثلي ، ولكن كما قال ابن معمر هذه الأبيات :

فما أنكحونا طائعين بناتهم　　ولكن خطبناهم بأرماحنا قسرا
فما زادنا فيها السباء مذلة　　ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدرا
وكم قد ترى فينا من ابن سبية　　إذا لقي الأبطال يطعنهم شزرا
ويأخذ ريان الطعان بكفه　　فيوردها بيضا ويصدرها حمرا

فقبل رأسه وعينيه وقال : أحسنت يا بنيّ ذاك والله أنت ، وأمر له بمائة ألف درهم مثل ما أخذ السابق والله أعلم .





في ذم العبيد والخدم

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بئس المال في آخر الزمان المماليك » وقال مجاهد : إذا كثرت الخدم كثرت الشياطين . وقال لقمان لأبنه : لا تأمننّ امرأة على سر ، ولا تطأ خادماً تريدها للخدمة . ووصف بعضهم عبداً فقال : يأكل فارها ، ويعمل كارهاً ، ويبغض قوماً ، ويحب نوماً ! وقيل لبعضهم ألك غلام ، فقال :

وما لي غلام فأدعو به   سوى مَنْ أبوه أخو عمتي

وقال أكثم : الحر حر وإن مسه الضر ، والعبد عبد وإن ألبسته الدر . ودعا بعض أهل الكوفة إخوانه وله جارية فقصرت فيما ينبغي لهم من الخدمة فقال :

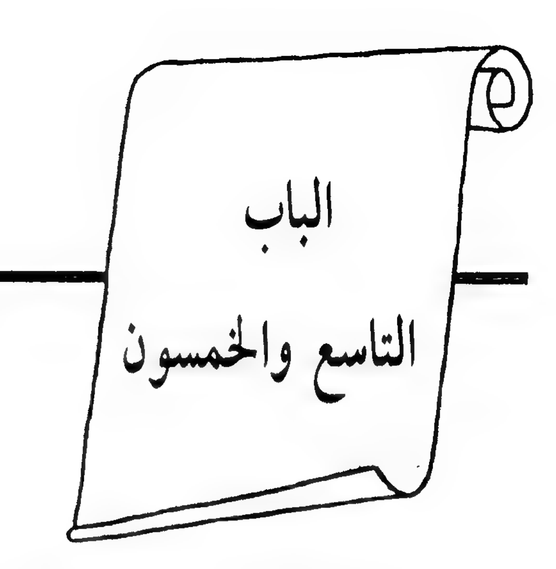
إذا لم يكن في منزل الماء حرّة   رأى خللاً فيما تولى الولائد
فلا يتخذ منهن حر قعيدة   فهن لعمر الله بئس القعائد

وكان لرجل غلام من أكسل الناس ، فأرسله يوماً يشتري له عنباً وتيناً فأبطأ عليه حتى عيل صبره ، ثم جاء بأحدهما فضربه وقال : ينبغي لك إذا استقضيتك حاجة أن تقضي حاجتين ، فمرض الرجل فأمر الغلام أن يأتيه بطبيب فغاب ثم جاء بالطبيب ومعه رجل آخر فسأله عنه . فقال : أما ضربتني وأمرتني أن أقضي حاجتين في حاجة فجئتك بالطبيب فان شفاك الله تعالى وإلا حفر لك هذا قبرك ، فهذا طبيب ، وهذا حفّار . وقيل كان عمرو الأعجمي يلي حكم السند فكتب إلى موسى الهادي ان رجلاً من أشراف أهل الهند من آل المهلب بن أبي صفرة اشترى غلاماً أسود فرباه وتبناه فلما كبر وشب اشتد به هوى مولاته فراودها عن نفسها فأجابته ، فدخل مولاه يوماً على غفلة منه من حيث لا يعلم فاذا هو على صدر مولاته فعمد إليه ، فجبّ ذكره ، وتركه يتشحط في دمه ، ثم أدركته عليه رقة وندم على ذلك فعالجه إلى أن بريء من علته ، فأقام الغلام بعدها مدة يطلب أن يأخذ ثأره من مولاه ، ويدبر عليه أمراً يكون فيه شفاء غليله ، وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل ، والآخر يافع كأنهما الشمس والقمر ، فغاب الرجل يوماً عن منزله لبعض الأمور ، فأخذ الأسود الصبيين فصعد بهما على ذروة سطح عال فنصبهما هناك ، وجعل يعللهما بالمطعم مرة ، وباللعب أخرى إلى أن دخل مولاه فرفع رأسه فرأى ابنيه في شاهق مع الغلام فقال : ويلك عرضت ابني للموت قال أجل ، والله الذي لا يحلف العبد بأعظم منه ، لئن لم تجب ذكرك مثل ما جببتني لارمينّ بهما فقال : الله الله يا ولدي في

تربيتي لك ، قال : دع هذا عنك ، فوالله ما هي إلا نفسي وإني لاسمح بها في شربة ماء ، فجعل يكرر عليه ، ويتضرع له ، وهو لا يقبل ذلك ويذهب الوالد يريد الصعود إليه فيدليهما من ذلك الشاهق . فقال أبوهما : ويلك فاصبر حتى أخرج مدية وأفعل ما أردت ، ثم أسرع وأخذ مدية فجب نفسه وهو يراه ، فلما رأى الأسود ذلك رمى الصبيين من الشاهق فتقطعا وقال إن جبك لنفسك ثأري ، وقتل أولادك زيادة فيه . فأخذ الأسود وكتب بخبره لموسى الهادي ، فكتب موسى لصاحب السند عمرو الأعجمي بقتل الغلام . وقال ما سمعت بمثل هذا قط وأمر أن يخرج من مملكته كل أسود فما ترى أردأ من العبيد ، ولا أقل خيراً منهم . وأكثرهم رداءة المولدون ، لو أحسنت إلى أحدهم الدهر كله بكل ما تصل يدك اليه أنكره ، كأن لم ير منك شيئاً ، وكلما أحسنت إليه تمرد ، وإن أسأت إليه خضع وذل ، وقد جربت أنا ذلك كثيراً ، وما أحسن ما قيل :

إذا أنت أكـرمت الكـريم ملكتـه وإن أنـت أكـرمت الـلئـيم تمـردا

وقيل إن العبد إذا شبع فسق ، وإن جاع سرق ، وكان جدي لأمي يقول شر المال تربية العبيد ، والمولدون منهم الأم من الزنوج وأردأ ، لأن المولد لا يعرف له أباً ، وربما يعرف الزنجي أبويه . ويقال في المولد بغل لأنه مجنس ، والبغل تكون أمه فرساً ، وأبوه حماراً ، وبالعكس فلا تثق بمولد لأنه قل أن يكون فيه خير ، وإن كان فذاك نادر لا حكم له وأنا استغفر الله العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .



في أخبار العرب الجاهلية وأوابدهم وذكر غرائب من عوائدهم وعجائب من أكاذيبهم

للعرب أوابد وعوائد كانوا يرونها فضلاً وقد دلّ على بعضها القرآن العظيم وأكذب الله دعاويهم فيها فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ **ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون** ﴾[1] قال أهل اللغة : البحيرة ناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن ، وكان الأخير ذكراً بحروا أذنها أي شقوا أذنها وامتنعوا من ذكاتها ولا تمنع من ماء ولا مرعى . وكان الرجل إذا أعتق عبداً وقال هو سائبة فلا عقد بينهما ولا ميراث ، وأما الوصيلة ففي الغنم ، كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهي لهم ، وإن ولدت ذكراً جعلوه لآلهتهم ، فان ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلا يذبح الذكر لآلهتهم . وأما الحام فالذكر من الإبل . كانت العرب إذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا : حمي ظهره فلا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى . وقال تعالى : ﴿ **إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون** ﴾[2] فالخمر ما خامر العقل ومنه سميت الخمر خمراً ، والميسر القمار ، والأنصاب حجارة كانت لهم يعبدونها وهي الأوثان وأحدها نصب ، والأزلام سهام كانت لهم مكتوب على بعضها أمرني ربي ، وعلى بعضها نهاني ربي ، فاذا أراد الرجل سفراً أو أمراً يهتّم به ضرب بتلك القداح فاذا خرج الأمر مضى لحاجته ، وإذا خرج النهي لم يمض . ومن أوابدهم وأد البنات أي دفنهن أحياء . كانوا في الجاهلية إذا رزق أحدهم أنثى وأدها وإذا بشّر بها ضاق صدره ، وكظم غيظه ، وأسودّ وجهه ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وإذا بشّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم** ﴾[4] وقد قيل إنهم

---

(١) سورة المائدة الآية ٩٠.

(٢) سورة المائدة الآية ١٠٣.

(٣) سورة النحل الآية ٥٨ .

(٤) سورة الاسراء الآية ٣١ .

كانوا يقتلونهن خوف العار ، وبمكة جبل يقال له أبو دلامة كانت قريش تئد فيه البنات . وقيل بن صعصعة جد الفرزدق كان يشتري البنات ويفديهن من القتل كل بنت بناقتين عشراوين وجمل . وفاخر الفرزدق رجلاً عند بعض خلفاء بني أمية فقال أنا ابن محي الموق فأنكر الرجل ذلك فقال إن الله تعالى يقول : ﴿ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾[1] . وأما الرفادة في الحجّ فكانت خرجاً تخرجه قريش في كل موسم من أموالهم إلى قصيّ ، فيصنع به طعاماً للحاج فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ، وذلك أن قصيّاً فرضه على قريش فقال لهم حين أمرهم به : يا معشر قريش إنكم جيران الله ، وأهل بيته ، وأهل الحرم وان الحجاج ضيوف الله ، وزوار بيته ، وهم أحقّ ضيف بالكرامة . فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم . ففعلوا وكانوا يخرجون ذلك كل عام من أموالهم فيدفعونه إليهم . وقيل أول من أقام الرفادة عبد المطلب ، وهو الذي حفر بئر زمزم وكانت مطمومة واستخرج منها الغزالين الذهب اللذين عليهما الدر والجوهر وغير ذلك من الحلي ، وسبعة أسياف ، وخمسة دروع سوابغ[2] فضرب من الأسياف بباب الكعبة ، وجعل أحد الغزالين الذهب صفائح الذهب ، وجعل الآخر في الكعبة . واعلم وفقني الله وإياك أنه لم يسمع بعجب أعظم من عجب سعيد بن زرارة وعبد الله بن زياد التميمي ، وابن سماك الأسدي الذي ضرب بهم المثل ، أمّا سعيد بن زرارة فقيل إنه مرت به امرأة . فقالت له : يا عبد الله كيف الطريق إلى مكان كذا . فقال لها يا هنتاه ، مثلي يكون من عبيد الله . وأما عبد الله بن زياد التميمي فقيل إنه خطب الناس بالبصرة فأحسن وأوجز فنودي من نواحي المسجد ، كثر الله فينا مثلك . فقال : لقد كلفتم الله شططاً ، وأما ابن سماك فأنه أضل راحلته فالتمسها فلم توجد . فقال : والله لئن لم يرد راحلتي علي لا صليت له أبداً ، فوجدت وقد تعلق زمامها ببعض أغصان الشجر . فقيل له قد رد الله عليك راحلتك فصل . فقال إنما كانت يميني يميناً قصداً . فانظر رحمك الله إلى هذا العجب كيف ذهب بهم حتى أفضى بهم إلى الكفر وصاروا حديثاً مستبشعاً ، ومثلاً بين العالمين مستشنعاً نعـوذ بالله من الخذلان المؤدي إلى النيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

حكي عن الحجاج بن يوسف الثقفي أنه قيل له : كيف وجدت منزلك بالعراق ، قال خير منزل ، إن الله أظفرني بأناس بلغني الأمل فيهم ، وأعانني على الانتقام منهم ، فكنت أتقرب إليه بدمائهم . فقيل له من هم فذكر هؤلاء الثلاثة وذكر حديثهم ، ولا محالة أنها من محاسن الحجاج ، وإن قلت في جنب سيئاته والله تعالى أعلم .

ذكر أديان العرب في الجاهلية : كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة . وكانت اليهودية في نمير ، وبني كنانة ، وبني الحرث ، بن كعب ، وكندة . وكانت المجوسية في بني تميم منهم زرارة بن عدي ، وابنه علي ، وكان تزوّج ابنته ثم ندم ، ومنهم الأقرع بن جابس كان مجوسياً .

---

(١) سورة المائدة الآية ٣٢ .

(٢) السابغ : الثوب إذا طال .

وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الجزيرة . وكانت بنو حنيفة اتخذوا في الجاهلية صنماً من حيس فعبدوه دهراً طويلاً ثم أدركتهم مجاعة فأكلوه . وقد قيل إن أول من غير الحنيفية عمرو بن لحى أبو خزاعة ، وهو أنه رحل إلى الشام فرأى العماليق يعبدون الأصنام فأعجبه ذلك . فقال ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها . قالوا : هذه أصنام نستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا . فقال أعطوني منها صنماً أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه فأعطوه صنماً يقال له هبل فقدم به مكة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه ، وقيل إن أول ما كانت عبادة الأحجار في بني إسماعيل ، وسبب ذلك أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حتى ضاقت عليهم ، وتفرقوا في البلاد وما من أحد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، وأفضى ذلك بهم إلى أن عبدوا مااستحسنوه من الحجارة ، ثم خلفت الخلوف ، ونسوا ما كانوا عليه من دين إسماعيل فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلال . وكانت قريش قد اتخذت صنماً على بئر في جوف الكعبة ، يقال له هبل . وأيضاً اتخذوا إسافاً ونائلة على موضع زمزم فينحرون عندها ، ويطعمون وكان إساف ونائلة رجلاً وامرأة فوقع إساف على نائلة في الكعبة فمسخهما الله حجرين . واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه ، فإذا أراد الرجل سفراً تمسح به حين يركب ، وكان ذلك آخر ما يصنع إذا توجه إلى سفره ، وإذا قدم من سفره بدأ به قبل أن يدخل إلى أهله ، واتخذت العرب الأصنام وانهمكوا ، على عبادتها ، وكانت لقريش وبني كنانة ، العزّى وكان حجابها بني شيبة ، وكانت اللات ، لثقيف بالطائف ، وكان حجابها بني مغيث من ثقيف ، وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم . وأما يغوث ويعوق ونسر فقيل : إنهم كانوا أسماء أولاد آدم عليه الصلاة والسلام ، وكانوا أتقياء عباداً ، فمات أحدهم فحزنوا عليه حزناً شديداً ، فجاءهم الشيطان وحسّن لهم أن يصوّروا صورته في قبلة مسجدهم ليذكروه إذا نظروا فكرهوا ذلك . فقال اجعلوه في مؤخر المسجد ، ففعلوا وصوّروه من صفر ورصاص ، ثم مات آخر ففعلوا ذلك إلى أن ماتوا كلهم فصوّروهم هناك وأقام من بعدهم على ذلك إلى أن تركوا الدين وحسّن لهم الشيطان عبادة شيء غير الله ، فقالوا له : من نعبد ؟ قال : آلهتكم المصوّرة في مصلاكم فعبدوها إلى أن بعث الله نوحاً عليه الصلاة والسلام فنهاهم عن عبادتها . فقالوا كما أخبر الله عنهم : ﴿ **لا تذرن آلهتكم ولا تذرنّ وداً ولا سواعا** ﴾[1] الآية ، ولما عمّ الطوفان الأرض طمها وعلا عليها التراب زماناً طويلاً فأخرجها الشيطان لمشركي العرب فعبدوها ، وذكر الواحدي في الوسيط أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام ، فسوّل الشيطان لقومهم بعد موتهم أن يصوّروا صورهم ليكون أنشط لهم ، وأشوق للعبادة كلما رأوهم ففعلوا ، ثم نشأ بعدهم قوم جهال بالأحوال فحسن لهم عبادتها ، وأن من سبقهم من قومهم عبدوها فسموها بأسمائهم . وقال الواقدي : كان ودّ على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر ، والله تعالى أعلم أيّ ذلك كان .

---

(١) سورة نوح الآية ٢٣ .

ذكر أوابدهم. الرتم : شجر معروف كانت العرب إذا خرج أحدهم إلى سفر عمد إلى شجرة منه فيعقد غصناً منها ، فإذا عاد من سفره ووجده قد انحلّ قال قد خانتني امرأتي ، وإن وجده على حالته قال لم تخني . الرتيمة : ناقة كانت العرب إذا مات واحد منهم عقلوا ناقته عند قبره وسدّوا عينيها حتى تموت ، يزعمون أنه إذا بعث من قبره ركبها . التعمية والتفقئة : كان الرجل إذا بلغت إبله ألفاً قلع عين الفحل يقولون : إن ذلك يدفع عنها العين ، فاذا زادت عن الألف فقأ عينه الأخرى . العرّ : داء يصيب الإبل ، شبه الجرب كانوا يكوون السليمة ، ويزعمون أن ذلك يبرىء داء العرّ . ضرب الثور عن البقر : كانت البقر إذا امتنعت عن الشرب ضربوا الثور ، يزعمون أن الجنّ يركبون الثيران فيصدّون البقر عن الشرب . الهامة : كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر يسمى الهامة وهو كالبومة فلا يزال يصيح على قبره اسقوني إلى أن يؤخذ بثأره . وكان للعرب مذاهب في الجاهلية في النفس ، وتنازع في كيفياتها فمنهم من زعم أن النفس هي الدم ، وأن الروح الهواء الذي في باطن جسم الإنسان الذي منه نفسه وقالوا : إنّ الميت لا يوجد فيه الدم وإنما يوجد في الحياة مع الحرارة والرطوبة ، لأنّ كل حي فيه حرارة ورطوبة ، فاذا مات ذهبت حرارته ، وحلّ به اليبس والبرودة . وطائفة منهم يزعمون أن النفس طائر ينشط من جسم الإنسان إذا مات أو قتل ، ولا يزال متصوّراً في صورة الطائر يصرخ على قبره مستوحشاً له ، وفي ذلك يقول بعضهم :

سلط الموت والمنون عليهم فلهم في صدى المقابر هام

ثم جاء الإسلام والعرب ترى صحة أمر الهام حتى قال النبي ﷺ : « لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هام » وزعموا أن هذا الطائر يكون صغيراً ويكبر حتى يصير كضرب من البوم ، ويتوحش ويصرخ ويوجد في الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى ، ويزعمون أن الهامة لا تزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره فتخبر الميت . والصفر : زعموا أن الإنسان إذا جاع عضّ على شرسوفه[1] الصفر ، وهي حية تكون في البطن . تثنية الضربة . زعموا أن الحية تموت في أوّل ضربة فإذا ثنيت عاشت . الغيلان والتغوّل للعرب في الغيلان والتغوّل أخبار وأقاويل ، يزعمون أن الغول يتغوّل لهم في الخلوات في أنواع الصور فيخاطبونها وتخاطبهم ، وزعمت طائفة من الناس أن الغول حيوان مشؤوم وأنه خرج منفرداً لم يستأنس وتوحش وطلب القفار وهو يشبه الإنسان والبهيمة ويتراءى لبعض السفار في أوقات الخلوات وفي الليل .

وحكي أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رآه في سفره إلى الشام فضربه بالسيف . وقال الجاحظ : الغول كلّ شيء يتعرّض للسيارة ويتلّون في ضروب من الصور والثياب وفيه خلاف . وقالوا إنه ذكر وأنثى إلا أن أكثر كلامهم أنه أنثى . وأما القطرب في قولهم فهو نوع من الأشخاص المتشيطنة يعرف بهذا الاسم فيظهر في أكناف اليمن ، وصعيد مصر في أعاليه ، وربما أنه يلحق الإنسان فينكحه فيدوّد دبره فيموت ، وربما نزا على الإنسان وأمسكه فيقول أهل تلك

(١) هو طرف الضلع المشرف على البطن .

النواحي التي ذكرناها : أمنكوح هو أو مذعور ؟ فان كان قد نكحه أيسوا منه ، وإن كان قد ذعر سكن روعه ، وشجع قلبه ، وإذا رآه الإنسان وقع مغشياً عليه ، ومنهم من يظهر له فلا يكترث به لشهامته وثبات قلبه .

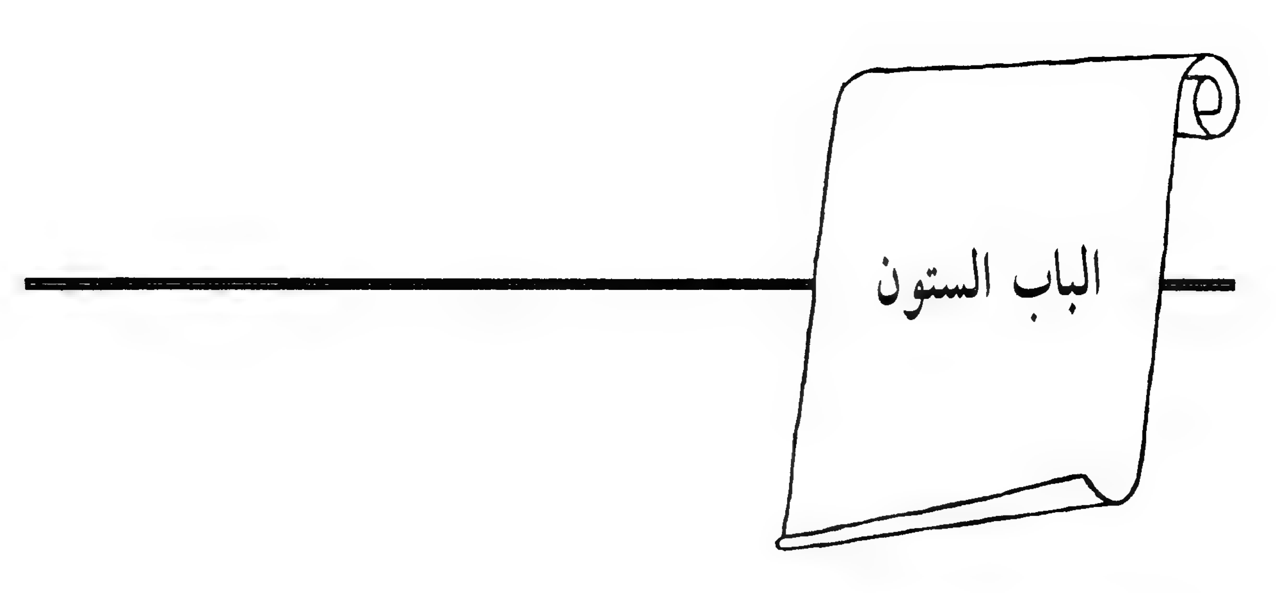
ذكر الهواتف . أما الهواتف فقد كانت كثرت في العرب ، وكان أكثرها أيام ولد سيدنا رسول الله ﷺ وأن من حكم الهواتف أن تهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئي .

ومن عجيب ما حكي من أمر الهواتف ما حكاه أبو عمرو بن العلاء قال : خرجنا حجاجاً فصاحبنا رجل وجعل يقول في طريقه : ليت شعري هل بغت عليّ .

فلما انصرفنا من مكة قالها في بعض الطريق فأجابه صوت في الظلام :

نعم نعم وناكها حجيه   وهو رجل أحمر ضخم في قفاه كية

فسكت الرجل فلما سرنا إلى البصرة ، أخبرنا ذلك الرجل قال : دخل جيراني يسلمون علي فاذا فيهم رجل أحمر ضخم في قفاه كية فقلت لأهلي من هذا ؟ قالت رجل كان ألطف جيراننا بنا فجزاه الله خيراً ، فسألتها عن اسمه فقالت حجية فقلت الحقي بأهلك . وآما بكاء المقتول فكانت النساء لا يبكين المقتول حتى يؤخذ بثأره فاذا أخذ بثأره بكينه . وأما رمي السنّ فكانوا يزعمون أن الغلام إذا أثغر فرمى سنه في عين الشمس بسبابته وإبهامه وقال أبدليني بأحسن منها فانه يأمن على أسنانه العوج والفلج . وأما خضاب النحر ، فكانوا إذا أرسلوا الخيل على الصيد فسبق واحد منها خضبوا صدره بدم الصيد علامة . وأما نصب الراية فكانت العرب تنصب الرايات على أبواب بيوتها لتعرف بها . وأما جزّ النواصي ، فكانوا إذا أسروا رجلاً ومنوا عليه وأطلقوه جزوا ناصيته . وأما الالتفات ، فكانوا يزعمون أن من خرج في سفر والتفت وراءه لم يتمّ سفره ، فان التفت تطيروا له ، وكانوا يقولون : من علق عليه كعب الأرنب لم تصبه عين ولا سحر ، وذلك أن الجنّ تهرب من الأرنب لأنها تحيض ، وليست من مطايا الجن ، ويزعمون أن المرأة إذا أحبت رجلاً وأحبها ثم لم يشق عليها رداءه وتشق عليه برقعها فسد حبهما . ويزعمون أن الرجل إذا قدم قرية فخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها ونهق كما تنهق الحمير لم يصبه وباؤها . ويزعمون أن الحرقوص وهو دويبة أكبر من البرغوث تدخل في فروج الأبكار فتفتضهن . ويزعمون أن الرجل إذا ضل فقلب ثيابه اهتدى . وكانوا يزعمون أن الناقة إذا نفرت وذكر اسم أمها فانها تسكن . وكانت لهم خرزة يزعمون أن العاشق إذا حكها وشرب ما يخرج منها صبر ، وتسمى السلوان . ونكاح المقت من سنتهم وهو أن الرجل إذا مات قام ولده الأكبر فألقى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها فان لم يكن له بها حاجة زوّجها لبعض إخوته بمهر جديد ، فكانوا يرثون النكاح كما يرثون المال ، ولهم حكايات عجيبة وأحوال غريبة والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .



في الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤية وما أشبه ذلك

أما الكهانة : فكانت فاشية في الجاهلية حتى جاء الإسلام فلم يسمع فيه بكاهن ، وكان ذلك من معجزات النبوة وآياتها . وللكهنة أخبار ، فمنهم سطيح ورد عليه عبد المسيح وهو يعالج الموت وأخبره على ما يزعمون بما جاء لأجله وذلك أن الموبذان رأى إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها فلما أصبح أعلم كسرى بذلك فتصبر كسرى تشجعاً ، ثم رأى أن لا يكتم ذلك عن وزرائه ورؤ ساء مملكته ، فلبس تاجه وقعد على سريره ، وجمع وزراءه ورؤ ساء مملكته فأخبرهم بالخبر فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران ، وارتجاس الايوان ، فازدادوا غماً على غمهم فكتب كسرى كتاباً إلى النعمان بن المنذر . أما بعد فوجه إليّ رجلاً عالماً بما أريد أن أسأله عنه ، فوجه إليه عبد المسيح الغساني . فقال له كسرى : أعندك علم بما أريد أن أسألك عنه قال ليخبرني الملك ، فان كان عندي علم منه ، وإلا أخبرته بمن يعلمه به ، فأخبره بما رآه الموبذان ، فقال علم ذلك عند كاهن يسكن مشارف الشام يقال له سطيح . قال فاته فاسأله عما سألتك وائتني بالجواب . فركب عبد المسيح وتوجه إلى سطيح فوجده قد أشرف على الضريح فسلم عليه وحياه ولم يخبره عبد المسيح بما جاء بسببه غير أنه أنشده شعراً يذكر فيه أنه جاء برسالة من قبل ملك العجم ، ولم يذكر له السبب فرفع رأسه وقال : عبد المسيح على جمل يسيح إلى سطيح بعثك ملك بني ساسان لارتجاس الايوان ، وخمود النيران ، ورؤ يا الموبذان ، رأى ابلاً صعابا تقود خيلاً عرابا ، قد قطعت الدجلة وانتشرت في بلادها . يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة وفاض وادي سماوة ، وغاصت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليس الشام لسطيح شاماً ولا العجم لعبد المسيح مقاماً يرتفع أمر العرب وأظن أن وقت ولادة محمد قد اقترب يملك منهم ملوكاً وملكات بعدد الشرافات ، وكل ما هو آت آت . ثم قضى سطيح مكانه فسار عبد المسيح إلى راحلته وعاد فأخبر كسرى بذلك .

وحكي أن ربيعة بن مضر اللخمي رأى مناماً هاله فأراد تفسيره فقال له أهل مملكته : ما يفسره لك إلا شق وسطيح . فأحضرهما وقال لسطيح : إني رأيت مناماً هالني فان عرفته فقد أصبت تفسيره . فقال رأيت جمجمة خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض نهمة ، فأكل منها كل ذات جمجمة .

فقال له الملك ما أخطأت شيئاً فما تفسيره ؟ قال ليهبطنّ بأرضك الحبش وتملك ما بين أبين إلى جرش . فقال الملك ان هذا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن ، أفي زماني أم بعده ؟ قال بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين تمضي من السنين ، ثم يقتتلون بها أجمعين ويخرجون منها هاربين . قال ومن ذا الذي يملك بعدهم قال أراه ذا يزن يخرج عليهم من عدن فما يترك منهم أحداً باليمن . قال الملك فيدوم ذلك أم ينقطع . قال بل ينقطع قال : ومن يقطعه قال نبي زكي يأتيه الوحي من العليّ . قال : وممـن يكون هذا النبي قال من ولد عدنان بن فهر بن مالك بن النضر يكون في قومه الملك إلى آخر الدّهر . قال وهل للدهر من آخر ؟ قال نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، ويسعد فيه المحسنون ، ويشقى المسيئون قال أو حق ما تخبر ؟ قال والشفق والقمر إذا اتسق إن ما أنبأتك به لحق . ثم دعا بشق . فقال مثل ما قال سطيح . ومن ذلك ما حكي أن أمية بن عبد شمس دعا هاشم بن عبد مناف إلى المفاخرة . فقال له هاشم : أفاخرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة فرضي أمية بذلك ، وجعل بينهما الخزاعي الكاهن حكماً ، فخبأوا له شيئاً وخرجا إليه ومعهما جماعة من قومهما . فقالوا قد خبأنا لك خبيئاً فان علمته تحاكمنا إليك ، وإن لم تعلمه تحاكمنا إلى غيرك . فقال لقد خبأتم لي كيت وكيت . قالوا : صدقت احكم بين هاشم بن عبد مناف ، وبين أمية بن عبد شمس ، أيهما أشرف بيتاً ونسباً ونفساً . فقال والقمر الباهر ، والكوكب الزاهـر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر ، ولأمية أواخر ، فأخذ هاشم الابل ونحرها وأطعمها من حضر . وخرج أمية إلى الشام وأقام بها عشر سنين . ويقال إنها أول عداوة وقعت بين بني هاشم وبني أمية .

وحكي أن هند بنت عتبة بن ربيعة كانت تحت الفاكه بن المغيرة ، وكان الفاكه من فتيان قريش ، وكان له بيت ضيافة خارجاً عن البيوت تغشاه الناس من غير إذن ، فخلا البيت ذات يوم واضطجع فيه هو وهند ثم نهض لحاجة ، فأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه ، فلما رأى هنداً رجع هارباً ، فلما نظره الفاكه دخل عليها فضربها برجله ، وقال لها من هذا الذي خرج من عندك . قالت : ما رأيت أحداً قط وما انتبهت حتى نبهتني قال فارجعي إلى بيت أبيك . وتكلم الناس فيها فقال أبوها يا بنية إن الناس قد أكثروا فيك الكلام ، فان يكن الرجل صادقاً دسيت عليه من يقتله لينقطع كلام الناس ، وإن يك كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن . فقالت له : لا والله ما هو علي بصادق . فقال له يا فاكه إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم فحاكمني إلى بعض كهان اليمن فخرج الفاكه في جماعة من بني مخزوم ، وخرج أبوها في جماعة من بني عبد مناف ومعهم هند ونسوة فلما شارفوا البلاد قالوا غداً نرد على هذا الرجل فتغيرت حالة هند فقال لها أبوها إني أرى حالك قد تغير وما هذا إلا لمكروه عندك فقالت : لا والله ولكن أعرف أنكم تأتون بشراً يخطىء ويصيب ، ولا آمنه أن يسمني بسيما تكون علي سبة فقال لها لا تخشي فسوف اختبره فصفر لفرسه حتى أدلى ، ثم أدخل في إحليله حبة حنطة وربطه فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم ونحر لهم ، فلما تغدوا قال له عتبة قد جئناك في أمر وقد خبأنا لك خبيئة نختبرك بها . قال خبأتم لي ثمرة في كمرة . قال إني

أريد أبين من هذا . قال حبة برّ في إحليل مهر . قال فانظر في أمر هؤلاء النسوة فجعل يأتي إلى كل واحدة منهن ويضرب بيده على كتفها ويقول لها إنهضي حتى بلغ هنداً فقال انهضي غير رسحاء[1] ولا زانية وستلدين ملكاً اسمه معاوية فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها فجذبت يدها من يده . وقالت : إليك عني فوالله إني لأحرص أن يكون ذلك من غيرك فتزوجها أبو سفيان ، فولدت منه أمير المؤمنين معاوية رضي الله تعالى عنه .

وأما القيافة فهي على ضربين : قيافة البشر وقيافة الأثر . فأما قيافة البشر فالاستدلال بصفات أعضاء الإنسان ، وتختص بقوم من العرب يقال لهم بنو مدلج يعرض على أحدهم مولود في عشرين نفراً فيلحقه بأحدهم .

وحكي عن بعض أبناء التجار أنه كان في بعض أسفاره راكباً على بعيره يقوده غلام أسود ، فمرّ بهؤلاء القبيلة فنظر إليه واحد منهم وقال : ما أشبه الراكب بالقائد . قال ولد التاجر فوقع في نفسي من ذلك شيء ، فلما رجعت إلى أمي ذكرت لها القصة . فقالت : يا ولدي إن أباك كان شيخاً كبيراً ذا مال وليس له ولد ، فخشيت أن يفوتنا ماله فمكنت هذا الغلام من نفسي فحملت بك ولولا أن هذا شيء ستعلمه غداً في الدار الآخرة لما أعلمتك به في الدنيا . وأما قيافة الأثر فالاستدلال بالأقدام والحوافر والخفاف ، وقد اختص به قوم من العرب أرضهم ذات رمل ، إذا هرب منهم هارب أو دخل عليهم سارق ، تتبعوا آثار قدمه فيظفروا به ، ومن العجب يعرفون قدم الشاب من الشيخ ، والمرأة من الرجل ، والبكر من الثيب ، والغريب المستوطن ، ويذكر أن في قطية وثغر البرلس أقواماً بهذه الصفة . وقد وقعت من قريش حين خرج النبي ﷺ وأبو بكر إلى الغار على صخر صلد ، وأحجار صم ، ولا طين ولا تراب تبين فيه الأقدام فحجبهم الله تعالى عن نبيه ﷺ وبما كان من نسيج العنكبوت ، وما لحق القائف من الحيرة ، وقوله إلى ههنا انتهت الأقدام ، هذا ومعهم الجماعة من قريش وأبصارهم سليمة ، ولولا أن هناك لطيفة لا يتساوى الإنسان فيها يعني في علمها لما استأثر بعلم ذلك طائفة دون أخرى . وقيل القيافة لبني مدلج في أحياء مضر ، واختلف رجلان من القافة في أمر بعير ، وهما بين مكة ومنى ، فقال أحدهما هو جمل ، وقال الآخر هي ناقة وقصدا يتبعان الأثر حتى دخلا شعب بني عامر ، فاذا بعير واقف فقال أحدهما لصاحبه أهو ذا قال نعم فوجداه خنثى فأصابا جميعاً . ومنهم من كان يخط الرمل في الأرض ويقول فيوافق ما يأتي بعد . وقال رجل : شردت لي إبل فجئت إلى خراش فسألته عنها فأمر ابنته أن تخط في الأرض فخطت ، ثم قامت فضحك خراش ثم قال أتدري قيامها لأي شيء ؟ قلت لا قال قد علمت أنك تجد إبلك وتتزوّجها فاستحيت ، ثم خرجت فوجدت إبلي ثم تزوّجتها . وخرج عمرو بن عبد الله بن معمر ومعه مالك بن خراش الخزاعي غازيين فمرا بامرأة وهي تخط للناس في الأرض ، فضحك منها مالك هزواً وقال ما هذا ؟ فقالت أما والله لا تخرجنّ من سجستان حتى تموت ، ويتزّوج عمرو هذا زوجتك فكان كما ذكرت .

---

(١) أي قل لحم عجزه وفخذيه .

وأما الزجر والعرافة فأحسنه ما روي أن كسرى أبرويز بعث إلى النبي ﷺ حيث بعث زاجراً ومصوّراً ، فقال للزاجر انظر ما ترى في طريقك وعنده ، وقال للمصوّر ائتني بصورته فلما عاد إليه أعطاه المصوّر صورته ﷺ فوضعها كسرى على وسادته ، ثم قال للزاجر ماذا رأيت قال ما رأيت ما أزجر به إلا أنه سيعلو أمره عليك لأنك وضعت صورته على وسادتك . وبعث صاحب الروم إلى النبيّ ﷺ رسولاً وقال له انظر إليه ، وملْ إلى جانبه ، وانظر إلى ما بين كتفيه حتى ترى الخاتم والشامة . فقدم الرسول فرأى النبيّ ﷺ على نشز عال واضعاً قدميه في الماء ، وعن يمينه علي رضي الله تعالى عنه ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال له تحوّل فانظر ما أمرت به ، فنظر الرسول ، فلما رجع إلى صاحبه أخبره الخبر فقال ليعلوّن أمره وليملكنّ ما تحت قدمي ، فتفاءل بالنشز ، العلوّ . وبالماء ، الحياة .

وقال المدايني : وقع الطاعون بمصر في ولاية عبد العزيز بن مروان حين أتاها فخرج هارباً ونزل بقرية من قرى الصعيد ، فقدم عليه حين نزلها رسول لعبد الملك بن مروان . فقال للرسول : ما اسمك ؟ قال طالب بن مدرك . فقال أواه ما أظنّ أني أرجع إلى الفسطاط فمات ولم يرجع . وكانت نائلة بنت عمار الكلبي تحت معاوية ، فقال لفاختة بنت قرظة اذهبي فانظري إليها فذهبت ونظرت فقالت ما رأيت مثلها ، ولكني رأيت تحت سرتها خالاً ليوضعن معه رأس زوجها في حجرها فطلقها معاوية وتزوجها بعده رجلان ، حبيب بن مسلمة ، والنعمان بن بشير فقتل احدهما ووضع رأسه في حجرها . وبينما مروان بن محمد جالس في إيوانه يتفقد الأمور إذ تصدعت زجاجة من الايوان فوقعت منها الشمس على منكب مروان ، وكان هناك عرّاف ، وقيل قياف فقام فتبعه ثوبان ، مولى مروان فسأله فقال : صدع الزجاج صدع السلطان ، ستذهب الشمس بملك مروان ، بقوم من الترك أو خراسان ذلك عندي واضح البرهان ، فما مضى غير شهرين حتى مضى ملك مروان . وروى المدايني أن علياً رضي الله تعالى عنه بعث معقلاً في ثلاثة آلاف ليقيم بالرقة ، وذلك في وقعة صفين فسار حتى نزل الحديبية ، فبينما هو ذات يوم جالس ، إذ نظر إلى كبشين ينتطحان فجاء رجلان فأخذ كل منهما كبشاً فذهب به . فقال شدّاد بن أبي ربيعة الخثعمي الزاجر : إنكم لتنصرفون من موجهكم هذا لا تَغْلبون ولا تُغْلبون . أما ترى الكبشين كيف انتطحا حتى حجز بينهما فتفرّقا ولا فضل لأحدهما على الآخر .

وحكي أن الأسكندر ملك بعض البلاد فدخل فيها فوجد امرأة تنسج ثوباً فلما رأته قالت له أيها الملك قد أعطيت ملكاً ذا طول وعرض . ثم دخل عليها بعد ذلك فقالت ستعزل من الملك . قال فغضب عند ذلك . فقالت له لا تغضب : فانك في المرة الأولى دخلت علي والشقة بيدي أدير طولها وعرضها ، ودخلت عليّ الآن والشقة في يديّ أريد قطعها لأني قد فرغت من نسجها فلا تغضب ، فان النفوس تعلم أشياء بعلامات . قال الراوي فكان كذلك .

وحكي أن سيف بن ذي يزن لما استنجد كسرى على قتال الحبشة بعث إليه بجيش عظيم ، فخرج إليه ملك الحبشة وهو مسروق بن أبرهة في مائة جلف من الحبشة ، وكان بين عينيه ياقوتة

حمراء بعلاقة من الذهب على تاجه تضيء كالنور وهو على فيل عظيم . قال وكان في عسكر ذي يزن رجل يقال له زهير فتأمل ذلك منه ثم قال لأميره اصبر لننظر إلى ما يكون من أمره . قال فتحوّل مسروق من الفيل إلى جمل ، فقال اصبر فتحوّل بعد ذلك الى فرس ، ثم إلى بغل ، ثم إلى حمار وكأنه أنف من مقاتلتهم على شيء من ذلك إلا على حمار ، لما أنه استصغرهم واستحقرهم ، وتفرس ذلك الرجل فيه من الانتقال من أعلى إلى أدنى وقال احملوا عليهم فان ملكهم قد ذهب فانه انتقل من كبير إلى صغير فحملوا عليهم فكسرهم وقتل الملك . وحكي أنه كان عرّاف من الطرقيين ببغداد يخبر بما يسئل عنه فلم يخطىء . فسأله رجل عن شخص محبوس هل ينطلق . قال نعم ، ويخلع عليه . قال : فقلت له بأي شيء عرفت ذلك . فقال إنك لما سألتني التفت يميناً وشمالاً فوجدت رجلاً على ظهره قربة ماء ففرغها ثم حملها على كتفه فأوّلت الماء بالمحبوس ، وتفريغه بالانطلاق ،ووضعها على كتفه بالخلعة ، قال وكان الأمر كذلك . وأما الفأل : فقد روي أن النبيّ ﷺ كان يحب الفأل الصالح والاسم الحسن ، وروى أنه ﷺ لما نزل المدينة على كلثوم دعا غلامين له : يا بشار ، ويا سالم فقال ﷺ لأبي بكر رضي الله تعالى عنه أبشر يا أبا بكر فقد سلمت لنا الدار . وقال الأصمعي : سألت ابن عون عن الفأل قال هو أن يكون مريض ،فيسمع يا سالم أو طالب حاجة فيسمع يا واحد وما أشبه ذلك . وأما الطيرة : فقد كان ﷺ يحبّ الفأل ويكره الطيرة . وقيل ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال : « من عرض له من هذه الطيرة شيء فليقل اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » وعنه ﷺ أنه قال : « ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن له » وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما رفعه : « من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر » . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه « من أتى كاهناً فصدقه فيما يقول ، أو أتى امرأته حائضاً أو أتى امرأته في دبرها فقد برىء مما نزل على محمد » . وأنشد المبرد هذه الأبيات يقول :

لا يعلم المـرء ليـلاً مـا يصبحـه ... إلا كـواذب مـا يجـري بـه الفـال
والفـأل والـزجـر والكهـان كلهم ... مـضـللون ودون الـغـيـب أقـفـال

وقال لبيد :

لعمري ما تدري الطوارق بـالحصى ... ولا زاجـرات الطير مـا الله صـانـع

وقال آخر :

تـعـلـم أنـه لا طـير إلا ... عـلى مـتـطـير وهـو الثـبـور
عـلى شيء يوافق بعض شيء ... أحـايـيـنـا وبـاطـلـه كـثـير

وكانت العرب تتطير بأشياء كثيرة منها العطاس . وسبب تطيرهم منه أن دابة يقال لها العاطوس كانوا يكرهونها ، وكانوا إذا أرادوا سفراً خرجوا من الغلس ، والطير في أوكارها على الشجر فيطيرونها فان أخذت يميناً أخذوا يميناً ، وإن أخذت شمالاً أخذوا شمالاً ، ومنه قول امرىء القيس :

وقـد اغتـدى والـطير في وكنـاتهـا　　بمنجـرد قيـد الأوابـد هيـكـل
مكـرّ مفـرّ مقبـل مـدبـر معـاً　　كجلمود صخر حطه السيل من عل

والعرب أعظم ما يتطيرون منه الغراب . فالقول فيه أكثر من أن يطلب عليه شاهد ، ويسمونه حاتماً لأنه يحتم عندهم بالفراق ، ويسمونه الأعور على جهة التطير إذا كان أصح الطير بصراً . وفيه يقول بعضهم :

إذا ما غراب البين صاح فقل له　　ترفق رمـاك الله يـا طـير بـالبعـد
لأنت عـلى العشـاق أقبـح منـظر　　وأبشع في الأبصار من رؤية اللحد
تصيـح ببـين ثم تـعـثر مـاشيـاً　　وتبرز في ثـوب من الحـزن مسود
متى صحت صح البين وانقطع الرجا　　كـأنك من يـوم الفـراق عـلى وعـد

وأعرض بعضهم عن الغراب ، وتطير بالإبل ، وذلك لكونها تحمل أثقال من ارتحل ، وفي ذلك قال بعضهم مفرداً وأجاد :

زعمـوا بـأن مـطيهم سبب النـوى　　والمـؤذنـات بـفـرقـة الأحـبـاب

وقالوا : من تطير من شيء وقع فيه . وحكي عن إبراهيم بن المهدي قال : أرسل إلي محمد بن زبيدة في ليلة من ليالي الصيف المقمرة يقول يا عم : إني مشتاق إليك فاحضر الآن عندنا فجئته وقد بسط له على سطح زبيدة ، وعنده سليمان بن أبي جعفر وجاريته نعيم . فقال لها غنينا شيئاً فقد سررت بعمومتي فغنت وهي تقول هذه الأبيات :

همـو قتلوه كي يكـونـوا مكـانـه　　كما فعلت يـومـاً بكسرى مـرازبـه
بني هـاشم كيف التـواصـل بيننا　　وجنـد أخيـه سيفـه ونجـائبـه

فقال فغضب وتطير وقال لها ما قصتك ويحك انتبهي وغني ما يسرني فغنت تقول :

كليب لعمـري كـان أكـثر نـاصـرا　　وأكـثر حـزمـاً منـك ضـرّج بـالـدم

فقال لها ويحك ما هذا الغناء في هذه الليلة غني غير هذا فغنت هذه الأبيات :

مـا زال يعدو عليهم ريب دهـرهم　　حتى تفـانـوا وريب الـدهـر عـداء
تـبكـي فـراقهـم عـيـني فـأرّقـهـا　　إن الـتـفـرق لـلمـشـتـاق بـكـاء

قال فانتهرها . وقال لها قومي إلى لعنة الله . فقالت : والله يا مولاي لم يجر على لساني غير هذا ، وما ظننت إلا أنك تحبه ، ثم انها قامت من بين يديه . وكان بين يديه قدح بلور كان أبوه يحبه فأصابه طرف ردائها فانكسر. قال إبراهيم بن المهدي فالتفت إليّ وقال يا عمي : أرى أن هذا آخر أمرنا فقلت كلا بل يبقيك الله يا أمير المؤمنين ، ويسرك فسمعت هاتفاً يقول قضي الأمر الذي فيه تستفتيان . فقال لي أسمعت ما سمعت يا عم فقلت ما سمعت شيئاً ، وما هذا إلا توهم فإذا الصوت قد علا ، فقال يا عم اذهب إلى بيتك فمحال أن يكون بعد هذا اجتماع . قال فانصرفت

من عنده وكان هذا آخر عهدي به . وخرج أبو الشمقمق مع خالد بن يزيد بن مزيد وقد تقلد الموصل فلما أراد الدخول إليها اندق لواؤه في أود درب منها فتطير لذلك فأنشده أبو الشمقمق يقول :

ما كان مندق اللواء لريبة تخشى ولا أمر يكون مبذلا
لكن هذا الرمح ضعف متنه صغر الولاية فاستقل الموصلا

فسرّ خالد وأمر لأبي الشمقمق بعشرة آلاف درهم . ودخل الحجاج الكوفة متوجهاً إلى عبد الملك فصعد المنبر فانكسر تحت قدمه لوح فعلم أنهم قد تطيروا له بذلك ، فالتفت إلى الناس قبل أن يحمد الله تعالى فقال : شاهت الوجوه ، وتبت الأيدي ، وبؤتم بغضب من الله إذا انكسر عود جذع ضعيف تحت قدم أسد شديد تفاءلتم بالشؤوم ، وإني على أعداء الله تعالى لأنكد من الغراب الأبقع ، وأشأم من يوم نحس مستمر ، وإني لأعجب من لوط وقوله لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد فأي ركن أشد من الله تعالى ، أوما علمتم ما أنا عليه من التوجه إلى أمير المؤمنين ، وقد وليت عليكم أخي محمد بن يوسف وأمرته بخلاف ما أمر به رسول الله ﷺ معاذاً في أهل اليمن ، فانه أمره أن يحسن إلى محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم ، وقد أمرته أن يسيء إلى محسنكم وأن لا يتجاوز عن مسيئكم وأنا أعلم أنكم تقولون بعدي لا أحسن الله له الصحابة ، وأنا معجل لكم الجواب ، لا أحسن الله عليكم الخلافة ، أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم . وخرج بعض ملوك الفرس إلى الصيد فأول من استقبله أعور فضربه وأمر بحبسه ، ثم ذهب للصيد فاصطاد صيداً كثيراً فلما عاد استدعى بالأعور فأمر له بمال . فقال لا حاجة لي به . ولكن ائذن لي في الكلام فقال تكلم فقال : أيها الملك إنك تلقيتني فضربتني وحبستني وتلقيتك فصدت وسلمت فأينا أشأم صباحاً على صاحبه ، فضحك منه وأمر له بصلة .

وحكي أيضاً أن صاحب قرطبة أصابه وجع فأمر بعض جواريه أن تغنيه ليلهو عن وجعه فقالت :

هذي الليالي علمنا أن ستطوينا فشعشعينا بماء المزن واسقينا

فقال فتطير من ذلك وأمرها بالانصراف ولم يقم بعد ذلك غير خمسة أيام ومات .

وحكي أن نور الدين محمود ، وهمام الدين ركبا في يوم عيد وخرجا للتفرج فتجاولا في الكلام ثم قال محمود يا من درى هل نعيش إلى مثل هذا اليوم . فقال له همام الدين هل نعيش إلى آخر هذا الشهر فان العام كثير ، قال فأجرى الله على منطقهما ما كان مقدراً في الأزل ، فمات أحدهما قبل تمام الشهر ، ومات الآخر قبل تمام العام .

وأما الفراسة فقد قال الله تعالى : ﴿ إنّ في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾[1] ، وقال رسول

---

(١) سورة الحجر الآية ٧٥ .

الله ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » وقال علي رضي الله تعالى عنه : ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه . وقيل : أشار ابن عباس رضي الله تعالى عنهما على علي رضي الله تعالى عنه بشيء فلم يعمل به ثم ندم فقال : يرحم الله ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق .

وحكى أبو سعيد الخراز أنه كان في الحرم فقير ليس عليه إلا ما يستر عورته ، فأنفت نفسي منه ، فتفرّس ذلك مني فقرأ : ﴿ **واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه** ﴾[1] ، فندمت واستغفرت الله في قلبي ، فتفرّس ذلك أيضاً فقرأ : ﴿ **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده** ﴾[2] .

وحكي عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنهما رأيا رجلاً فقال أحدهما إنه نجار ، وقال الآخر إنه حدّاد فسألاه عن صنعته فقال كنت حدّاداً وأنا الآن نجار .

وحكي أن شخصاً من أهل القرآن سأل بعض العلماء مسألة فقال له اجلس فاني أشم من كلامك رائحة الكفر ، فاتفق بعد ذلك أنه سافر السائل ، فوصل إلى القسطنطينية فدخل في دين النصرانية . قال من رآه ولقد رأيته متكئاً على دكة وبيده مروحة يروّح بها عليه ، فقلت السلام عليك يا فلان ، فسلم عليّ وتعارفنا ، ثم قلت له بعد ذلك : هل القرآن باق على حاله أم لا ؟ فقال لي لا أذكر منه إلا آية واحدة وهي قوله تعالى : ﴿ **ربما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾[3] قال فبكيت عليه وتركته وانصرفت . وكان الحسن بن السقاء من موالي بني سليم ولم يكن في الأرض أحزر منه كان ينظر إلى السفينة فيحزر ما فيها فلا يخطىء ، وكان حزره للمكيول والموزون والمعدود سواء ، كان يقول في هذه الرمانة كذا وكذا حبة وزنتها كذا وكذا ، ويأخذ العود الآس فيقول فيه كذا وكذا ورقة فلا يخطىء . وقالوا : إذا رأيت الرجل يخرج بالغداة ويقول لشيء ما عند الله خير وأبقى فاعلم أن في جواره وليمة ولم يدع إليها ، وإذا رأيت قوماً يخرجون من عند قاض وهم يقولون ما شهدنا إلا بما علمنا فاعلم أن شهادتهم لم تقبل ، وإذا قيل للمتزوّج صبيحة البناء على أهله كيف ما تقدّمت عليه فقال : الصلاح خير من كل شيء فاعلم أن امرأته قبيحة . وإذا رأيت إنساناً يمشي ويلتفت فاعلم أنه يريد أن يحدث ، وإذا رأيت فقيراً يعدو ويهرول فاعلم أنه في حاجة غني ، وإذا رأيت رجلاً خارجاً من عند الوالي وهو يقول : يد الله فوق أيديهم فاعلم أنه صفع . ويقال : عين المرء عنوان قلبه . وكانوا يقولون : عظم الجبين يدل على البله ، وعرضه تدل على قلة العقل ، وصغره يدل على لطف الحركة ، وإذا وقع الحاجب على العين دلّ على الحسد ، والعين المتوسطة في حجمها دليل الفطنة وحسن الخلق والمروءة ، والتي يطول تحديقها تدل على الحمق ، والتي يكسر طرفها تدل على خفة وطيش ، والشعر في الأذن يدل على جودة السمع ، والأذن الكبيرة المنتصبة تدل

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٥ .
(٢) سورة الشورى الآية ٢٥ .
(٣) سورة الحجر الآية ٢ .

على حمق وهذيان . وكانت الفرس تقول : إذا فشا الموت في الوحوش دل على ضيقة ، وإذا فشا في الفأر دل على الخصب ، وإذا نعق غراب فجاوبته دجاجة عمر الخراب ، وإذا قوّقت دجاجة فجاوبه غراب خرب العمار والله أعلم بكل شيء ، عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً ، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين .

وأما النوم والسهر وما جاء فيهما : فقد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « أشرف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل » . وروي أن أم سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام قالت له : يا بني لا تكثر النوم بالليل فان صاحب النوم يجيء يوم القيامة مفلساً . وكان زمعة بن صالح يصلي ليلاً طويلاً فاذا أسحر نادى أهله :

يا أيها الركب المعرسونا أكل هذا الليل ترقدونا

فيتواثبون بين باك وداع ومتضرّع ، فاذا أصبح نادى : عند الصباح يحمد القوم السرى . وأنشدوا :

يا أيها الراقد كم ترقد قم يا حبيبي قد دنا الموعد
وخذ من الليل وساعاته حظاً إذا ما هجع الرقد
من نام حتى ينقضي ليله لم يبلغ المنزل أو يجهد
قل لذي الألباب أهل التقى قنطرة الحشر لكم موعد

وقيل : إن نومة الضحى تورث الغم والخوف ، ونومة العصر تورث الجنون ، وأنشد بعضهم :

ألا إن نومات الضحى تورث الفتى غموما ، ونومات العصير جنون

وعن العباس بن عبد المطلب أنه مرّ يوماً بابنه وهو نائم نومة الضحى فوكزه برجله وقال له : قم لا أنام الله عينيك ، أتنام في ساعة يقسم الله تعالى فيها الرزق بين العباد ، أَوما سمعت ما قالت العرب أنها مكسلة مهزلة منسية للحاجة . والنوم على ثلاثة أنواع : نومة الخرق ، ونومة الخلق ، ونومة الحمق ، فنومة الخرق نومة الضحى ، ونومة الخلق هي التي أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بها أمته فقال : « قيلوا فانّ الشياطين لا تقيل » ونومة الحمق النومة بعد العصر لا ينامها إلا سكران أو مجنون . وكان هشام بن عبد الملك يقول لولده : لا تصطبح بالنوم فانه شؤم ونكد . وقال الثوري لطبيب : دلني على شيء إذا أردت النوم جاءني . فقال ادهن رأسك وأكثر من ذلك واتق الله . وكان طاوس يقول : لئن تختلف السياط على ظهري ، أحبّ إليّ من أن أنام يوم الجمعة والإمام يخطب . وكان شدّاد بن أوس يتلوّى على فراشه كالحية على المقلى ويقول اللهم إن النار منعتني النوم ، وأنشدوا في المعنى :

غيرت موضع قدمي يوماً ففارقني السكون
قل لي فأوّل ليلتي في حفرتي أنّى ، أكون

وأنشد أبو دلف :

أمالكتي ردّي علي رقاديا ونومي فقد شردته عن وساديا
أما تتقين الله في قتل عاشق أمت الكرى عنه فأحيا اللياليا

وأنشد أبو غانم الثقفي :

رقدت رقاد الهيم حتى لو انني يكون رقادي مغنما لغنيت

فقيل لمن هذا ؟ فقال لرقاد من رقاد العرب . وقيل إن نوم عبود يضرب به المثل ، وكان عبود هذا عبداً أسود قيل إنه نام أسبوعاً ، وقيل إنما تماوت على أهله وقال اندبوني لأعلم كيف تندبوني إذا أنا متّ ، فسجى ونام وندب فاذا هو قد مات .

وأما الرؤيا فقد قيل فيها أقاويل . وهو أنهم قالوا : إن النوم هو اجتماع الدم وانحداره إلى الكبد ، ومنهم من رأى أن ذلك هو سكون النفس ، وهدوء الروح ، ومنهم من زعم أن ما يجده الإنسان في نومه من الخواطر إنما هو من الأطعمة والأغذية والطبائع . وذهب جمهور الأطباء إلى أن الأحلام من الأخلاط ، وأن ذلك بقدر مزاج كل واحد منها وقوّته ، فالذي يغلب عليه الصفراء يرى بحوراً وعيوناً ومياهاً كثيرة ، ويرى أنه يسبح ويصيد سمكاً ، ومن غلبت على مزاجه السوداء رأى في منامه أحداثاً وأمواتاً مكفنين بسواد وبكاء وأشياء مفزعة ، ومن غلب على مزاجه الدم رأى الخمر والرياحين وأنواع الملاهي والثياب المصبغة . والذي يقع عليه التحقيق أن الرؤيا الصالحة كما قد جاء جزء من ستين جزءاً من النبوة . وكان النبي ﷺ أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . والرؤيا على ضربين فمنهم من يرى رؤيا فتجيء على حالها لا تزيد ولا تنقص ، ومنهم من يرى الرؤيا في صورة مثل ضرب له .

فمن ذلك ما حكي أن النبي ﷺ رأى في الجنة غرفاً فقال لمن هذه ؟ فقيل لأبي جهل بن هشام فقال ما لأبي جهل والجنة ، والله لا يدخلها أبداً . قال فأتاه عكرمة ولده مسلماً فتأوّلها به . وكذلك تأوّل في قتل الحسين لما رأى أن كلباً أبقع يلغ في دمه ، وكان ذلك بعد رؤياه عليه الصلاة والسلام بخمسين عاماً . وكذلك حين قال لأبي بكر رضي الله تعالى عنه إني رأيت كأني رقيت أنا وأنت درجاً في الجنة فسبقتك بدرجتين ونصف . فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، يا رسول الله أقبض بعدك بسنتين ونصف . ورأت عائشة رضي الله تعالى عنها سقوط ثلاثة أقمار في حجرتها ، فأوّلها أبوها بموته ، وموت النبي ﷺ ، وموت عمر رضي الله تعالى عنهما . ودفنهم في حجرتها فكان الأمر كذلك .

وحكي أن أم الشافعي رضي الله تعالى عنه ، لما حملت به رأت كأن المشتري خرج من فرجها وانقض بمصر ، ثم تفرق في كل بلد قطعة ، فأوّل بعالم يكون بمصر وينتشر علمه بأكثر البلاد فكان كذلك .

وحكي أيضاً أن عاملاً أتى عمر رضي الله تعالى عنه فقال : رأيت الشمس والقمر اقتتلا فقال

له عمر مع من كنت ؟ قال مع القمر فقال مع الآية الممحوة ، والله لا وليت لي عملاً فعزله . ثم اتفق أن علياً رضي الله تعالى عنه وقع بينه وبين معاوية ما وقع فكان ذلك الرجل مع معاوية .

وأما من مهر في تعبير الرؤيا فهو ابن سيرين . جاءه رجل فقال له رأيت كأني أسقي شجرة زيتون زيتاً فاستوى جالساً فقال ما التي تحتك قال علجة اشتريتها ، وفي رواية جارية ، وأنا أطؤها . فقال : أخاف أن تكون أمك فكشف عنها فوجدها أمه . وجاءه رجل فقال رأيت كأن في يدي خاتماً أختم به فروج النساء وأفواه الرجال . فقال له أنت مؤذن تؤذن بالليل فتمنع الرجال والنساء من الأكل والوطء . وجاءه رجل فقال رأيت جارية لي قد ذبحت في بيت من دارها . فقال هي امرأة نكحت في ذلك البيت ، وكانت امرأة لصديق ذلك الرجل فاغتمّ لذلك ، ثم بلغه أن الرجل قدم في تلك الليلة وجامع مع زوجته في ذلك البيت . وجاءه رجل ومعه جراب فقال له رأيت في النوم كأني أسدّ الزقاق سداً وثيقاً شديداً . فقال له أنت رأيت هذا ؟ قال نعم فقال لمن حضره ينبغي أن يكون هذا الرجل يخنق الصبيان ، وربما يكون في جرابه آلة الخنق ، فوثبوا عليه وفتشوا الجراب فوجدوا فيه أوتاراً وحلقاً فسلّموه إلى السلطان . وجاءته امرأة وهو يتغدى فقالت له رأيت في النوم كأن القمر دخل في الثريا ونادى مناد من خلفي أن أئتي ابن سيرين فقصي عليه فتقلصت يده وقال ويلك كيف رأيت هذا فأعادت عليه فقال لأخته هذه تزعم أني أموت لسبعة أيام ، وأمسك يده على فؤاده وقام يتوجع ، ومات بعد سبعة أيام . وجاءه رجل فقال رأيت كأني آخذ البيض وأقشره فآكل بياضه وألقي صفاره فقال إن صدق منامك فأنت نباش الموتى فكان كذلك .

وحكي أن ابن سيرين رأى الجوزاء قد تقدمت على الثريا فجعل يوصي وقال يموت الحسن وأموت بعده وهو أشرف مني فمات الحسن ، ومات هو بعده بمائة يوم .

وحكي أن رجلاً رأى عيسى عليه السلام فقال له: يا نبي الله صلبك حق ؟ قال نعم فعبره على بعضهم فقال تكذب رؤياك بقوله تعالى : ﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم** ﴾[1] ولكن هو عائد على الرائي فكان كذلك . وأتى ابنة مغيث آت في المنام فقال لها :

لك البشرى بولد أشبه شيء بالأسد
إذا الرجال في كبد تغالبوا على بلد
كان له حظ الأسد

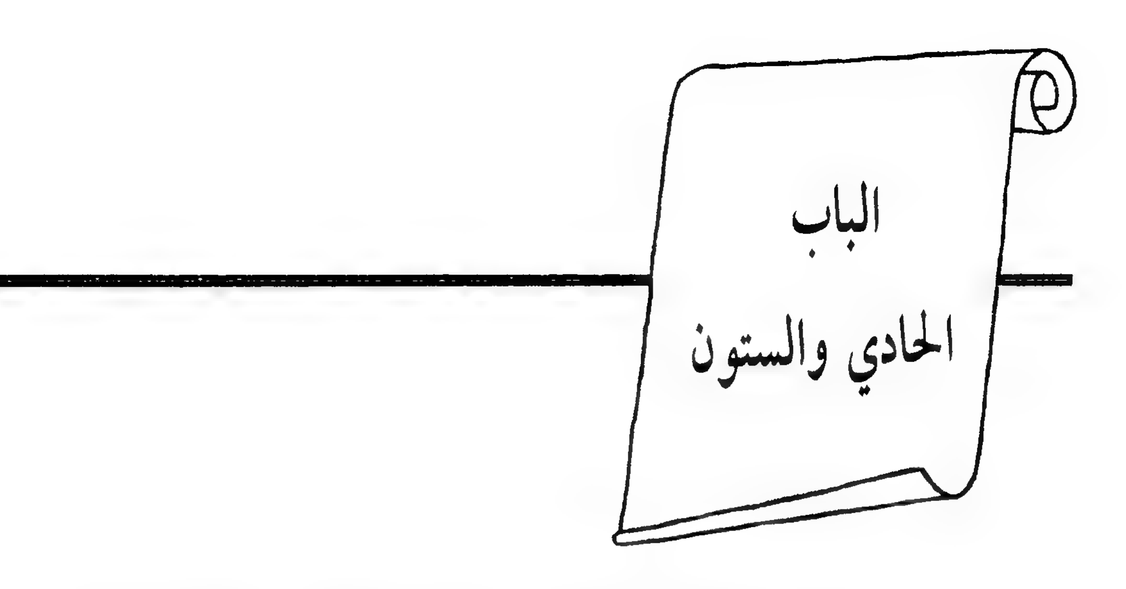
فولدت المختار بن أبي عبيد وذلك في عام الهجرة . وقال رجل لسعيد بن المسيب رأيت كأني بلت خلف المقام أربع مرات قال كذبت لست صاحب هذه الرؤيا . قال هو عبد الملك فقال يلي أربعة من صلبه الخلافة . وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه رأيت علياً رضي الله تعالى عنه في المنام . فقال لي ناولني كتبك فناولته إياها فأخذها وبددها فأصبحت أخا كآبة فأتيت الجعد فأخبرته

---

(١) سورة النساء الآية ١٥٧ .

فقال سيرفع الله شأنك وينشر علمك . وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من رآني في منامه فقد رآني حقاً فان الشيطان لا يتمثل بي » وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : رأيت كأن رأسي قد قطع وأنا أنظر إليه فضحك رسول الله ﷺ وقال بأي عين كنت تنظر إلى رأسك ، فلم يلبث رسول الله ﷺ أن توفي وأوّلوا رأسه به بنبيه ونظره إليه باتباع سنته . وقال رجل لعلي بن الحسين رأيت كأني أبول في يدي فقال تحتك محرم فنظروا فاذا بينه وبين امرأته رضاع . وقال أبو حنيفة رضي الله عنه رأيت كأني نبشت قبر رسول الله ﷺ فضممت عظامه إلى صدري فهالني ذلك ، فسألت ابن سيرين : فقال ما ينبغي من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤ يا ، قلت : أنا رأيتها قال إن صدقت رؤ ياك لتحيّين سنة نبيك ﷺ . وقال النبي ﷺ : « الرؤ يا بشارة للمؤمن بما له عند الله من الكرامة في الدنيا والآخرة ». وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قد تضرعت إلى ربي سنة أن يريني أبي في النوم حتى رأيته وهو يمسح العرق عن جبينه فسألته فقال لولا رحمة الله لهلك أبوك ، إنه سألني عن عقال بعير للصدقة ، فسمع بذلك عمر بن عبد العزيز فصاح وضرب بيده على رأسه وقال فعل هذا بالتقيّ الطاهر ، فكيف بالمقترف عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنهم أجمعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .





في الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر

الحيلة من فوائد الآراء المحكمة وهي حسنة ما لم يستبح بها محظور ، وقد سئل بعض الفقهاء عن الحيل في الفقه فقال علمكم الله ذلك فإنه قال : ﴿ **وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث** ﴾[1] وكان ﷺ إذا أراد غزوة ورى بغيرها وكان يقول : « الحرب خدعة » ولما أراد عمر رضي الله تعالى عنه قتل الهرمزان[2] استسقى ماء فأتوه بقدح فيه ماء فأمسكه في يده واضطرب . فقال له عمر لا بأس عليك حتى تشربه فألقى القدح من يده فأمر عمر بقتله . فقال أو لم تؤمني ؟ قال كيف أمنتك . قال : قلت لا بأس عليك حتى تشربه ، وقولك لا بأس عليك أمان ، ولم أشربه . فقال عمر قاتلك الله أخذت مني أماناً ولم أشعر . وقيل كان دهاة العرب أربعة كلهم ولدوا بالطائف : معاوية ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، والسائب بن الأقرع . وكان يقال الحاجة تفتح أبواب الحيل . وكان يقال ليس العاقل الذي يحتال للأمور إذا وقع فيها ، بل العاقل الذي يحتال للأمور أن لا يقع فيها . وقال الضحاك بن مزاحم لنصراني لو أسلمت فقال ما زلت محباً للإسلام إلا أنه يمنعني منه حبي للخمر . فقال أسلم واشربها فلما أسلم قال له : قد أسلمت فإن شربتها ، حديناك ، وإن ارتددت قتلناك فاختر لنفسك . فاختار الإسلام وحسن إسلامه فأخذه بالحيلة . وقيل دليت من السماء سلسلة في أيام داود عليه الصلاة والسلام عند الصخرة التي في وسط بيت المقدس ، وكان الناس يتحاكمون عندها فمن مدّ يده إليها وهو صادق نالها ، ومن كان كاذباً لم ينلها إلى أن ظهرت فيهم الخديعة فارتفعت ، وذلك أن رجلاً أودع رجلاً جوهرة فخبأها في مكانه في عكازة ثم إن صاحبها طلبها من الذي أودعها عنده فأنكرها فتحاكما عند السلسلة . فقال المدعي : اللهم إن كنت صادقاً فلتدن مني السلسلة فدنت منه فمسها ، فدفع المدعى عليه العكازة للمدعي ، وقال اللهم إن

---

(١) سورة ص الآية ٤٤ .

(٢) أمير في الجيش الفارسي (في وقعة القادسية).

كنت تعلم أني رددت الجوهرة إليه فلتدن مني السلسلة فدنت منه فمسها ، فقال الناس قد سوت السلسلة بين الظالم والمظلوم فارتفعت بشؤوم الخديعة . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام أن أحكم بين الناس بالبينة واليمين فبقي ذلك إلى قيام الساعة . وكان المختار بن أبي عبيد الثقفي من دهاة ثقيف ، وثقيف دهاة العرب قيل إنه وجه إبراهيم بن الأشتر إلى حرب عبيد الله بن زياد ثم دعا برجل من خواصه فدفع إليه حمامة بيضاء وقال له : إن رأيت الأمر عليكم فأرسلها . ثم قال للناس اني لأجد في محكم الكتاب وفي اليقين والصواب أن الله ممدكم بملائكة غضاب صعاب تأتي في صور الحمام تحت السحاب . فلما كادت الدائرة تكون على أصحابه عمد ذلك الرجل إلى الحمامة فأرسلها فتصايح الناس الملائكة . . الملائكة ! ! وحملوا فانتصروا وقتلوا ابن زياد . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خرجت امرأتان ومعهما صبيان فعدا الذئب على صبي إحداهما فأكله فاختصمتا في الصبي الباقي إلى داود عليه الصلاة والسلام فقال كيف أمركما فقصتا عليه القصة ، فحكم به للكبرى منهما ، فاختصمتا إلى سليمان عليه الصلاة والسلام فقال ائتوني بسكين أشق الغلام نصفين لكل منهما نصف . فقالت الصغرى أتشقه يا نبي الله ؟ قال : « نعم » قالت : لا تفعل ونصيبي فيه للكبرى فقال : « خذيه فهو ابنك وقضى به لها » وجاء رجل إلى سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام وقال يا نبيّ الله إن جيراناً يسرقون أوزي فلا أعرف السارق ، فنادى الصلاة جامعة ثم خطبهم وقال في خطبته : وإن أحدكم ليسرق أوز جاره ثم يدخل المسجد والريش على رأسه ، فمسح الرجل رأسه فقال سليمان خذوه فهو صاحبكم . وخطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة ، وكان شاباً جميلاً فأرسلت إليهما أن يحضرا عندها فحضرا وجلست بحيث تراهما وتسمع كلامهما فلما رأى المغيرة ذلك الشاب وعاين جماله علم أنها تؤثره عليه فأقبل على الفتى وقال لقد أوتيت جمالاً فهل عندك غير هذا ، قال نعم فعدد محاسنه ثم سكت فقال المغيرة كيف حسابك مع أهلك . قال ما يخفى علي منه شيء وإني لأستدرك منه أدق من الخردل . فقال المغيرة لكني أضع البدرة في بيتي فينفقها أهلي على ما يريدون فلا أعلم بنفادها حتى يسألوني غيرها . فقالت المرأة والله لهذا الشيخ الذي لا يحاسبني أحب إلي من هذا الذي يحصي علي مثقال الذرة فتزوجت المغيرة . وبلغ عضد الدولة أن قوماً من الأكراد يقطعون الطريق ويقيمون في جبال شامخة ولا يقدر عليهم . فاستدعى بعض التجار ، ودفع إليه بغلاً عليه صندوقان فيهما حلوى مسمومة كثيرة الطيب في ظروف فاخرة ، ودنانير وافرة ، وأمره أن يسير مع القافلة ويظهر أن هذه هدية لأحد نساء الأمراء ففعل التاجر ذلك وسار أمام القافلة فنزل القوم فأخذوا الأمتعة والأموال وانفرد أحدهم بالبغل وصعد به الجبل فوجد به الحلوى فقبح على نفسه أن ينفرد بها دون أصحابه فاستدعاهم فأكلوا على مجاعة فماتوا عن آخرهم ، وأخذ أرباب الأموال أموالهم . وأتي لبعض الولاة برجلين قد اتها بسرقة فأقامهما بين يديه ثم دعا بشربة ماء فجيء له بكوز[1] فرماه بين يديه فارتاع أحدهما وثبت الآخر ، فقال للذي ارتاع اذهب إلى حال سبيلك ، وقال للآخر أنت أخذت المال وتلذذت به وتهدده فأقر فسئل عن

---

(١) الكوز : اناء للشرب وجمعها اكواز وكيزان .

ذلك فقال إن اللص قوي القلب ، والبريء يجزع ولو تحرّك عصفور لفزع منه . وقصد رجل الحج فاستودع إنساناً مالاً فلما عاد طلبه منه فجحده المستودع فأخبر بذلك القاضي إياساً . فقال أعلم بأنك جئتني ؟قال لا قال فعد إلي بعد يومين ، ثم إن القاضي إياساً بعث إلى ذلك الرجل فأحضره . ثم قال له أعلم أنه قد تحصلت عندي أموال كثيرة لأيتام وغيرهم وودائع للناس وإني مسافر سفراً بعيداً ، وأريد أن أودعها عندك لما بلغني من دينك وتحصين منزلك . فقال حباً وكرامة قال فاذهب وهيىء موضعاً للمال وقوماً يحملونه فذهب الرجل وجاء صاحب الوديعة ، فقال له القاضي إياس امض إلى صاحبك وقل له ادفع إلي مالي وإلا شكوتك للقاضي إياس . فلما جاء وقال له ذلك دفع إليه ماله واعتذر إليه فأخذه وأتى إلى القاضي إياس وأخبره . ثم بعد ذلك أتى الرجل ومعه الحمالون لطلب الأموال التي ذكرها له القاضي ، فقال له القاضي بعد أن أخذ الرجل ماله منه بدا لي ترك السفر امض لشأنك لا أكثر الله في الناس مثلك . ولما أراد شيرويه قتل أبيه أبرويز . قال للداخل عليه ليقتله إني لأدلك على شيء فيه غناك لوجوب حقك علي قال : وما هو قال الصندوق الفلاني ، فلما قتله وذهب إلى شيرويه وأخبره الخبر فأخرج الصندوق فاذا فيه حق فيه حَبٌ ورقعة مكتوب فيها من تناول منه حبة واحدة افتض عشرة أبكار ، وكان لشيرويه غرام في الباه فتناول منه حبة فهلك من ساعته ، فكان أبرويز أول مقتول أخذ بثأره من قاتله . ولما بايع الرشيد لأولاده الثلاثة بولاية العهد تخلف رجل مذكور من الفقهاء فقال له الرشيد لم تخلفت . فقال : عاقني عائق فقال اقرأوا عليه كتاب البيعة فقال يا أمير المؤمنين هذه البيعة في عنقي إلى قيامي الساعة ، فلم يفهم الرشيد ما أراد وظن أنه إلى قيام الساعة يوم الحشر ، وما أراد الرجل إلا قيامه من المجلس . وقال المغيرة بن شعبة لم يخدعني غير غلام من بني الحرث بن كعب فاني ذكرت امرأة منهم لأتزوجها فقال أيها الأمير لا خير لك فيها . فقلت ولم قال : رأيت رجلاً يقبلها فأعرض عنها فتزوجها الفتى فلمته وقلت : ألم تخبرني أنك رأيت رجلاً يقبلها قال نعم رأيت أباها يقبلها . وأتى رجل إلى الأحنف فلطمه . فقال : ما حملك على هذا ؟ فقال : جُعل لي جعل على أن ألطم سيد بني تميم فقال لست بسيدهم عليك بحارثة ابن قدامة فإنه سيدهم ، فمضى إليه فلطمه فقطعت يده . وقال الشعبي : وجهني عبد الملك إلى ملك الروم فقال لي : من أهل بيت الخلافة أنت ؟ قلت : لا ولكني رجل من العرب فكتب إلى عبد الملك رقعة دفعها إلي ، فلما قرأها عبد الملك قال لي : أتدري ما فيها ؟ قلت : لا . قال فيها : العجب لقوم فيهم مثل هذا كيف يولون أمرهم غيره . قال : أتدري ما أراد بهذا ؟ قلت لا قال : حسدني عليك فأراد أن أقتلك ، فقلت : إنما كبرت عنده يا أمير المؤمنين لأنه لم يترك شيئاً إلا سألني عنه ، وأنا أجيبه ، فبلغ ملك الروم ما قاله عبد الملك للشعبي ، فقال لله أبوه ما عدا ما في نفسي . ولما وليّ عبد الملك بن مروان أخاه بشراً الكوفة وكان شاباً ظريفاً غزلاً بعث معه روح بن زنباع وكان شيخاً متورّعاً فثقل على بشر مرافقته فذكر ذلك لندمائه فتوصل بعض ندمائه إلى أن دخل بيت روح ابن زنباع ليلاً في خفية ، فكتب على حائط قريب من مجلسه هذه الأبيات :

يا روح من لبنيات وأرملة إذا نعاك لأهل المغرب الناعي
إنّ ابن مروان قد حانت منيته فاحتل بنفسك يا روح بن زنباع

فتخوّف من ذلك وخرج من الكوفة ، فلما وصل إلى عبد الملك أخبره بذلك ، فاستلقى على قفاه من شدّة الضحك وقال : ثقلت على بشر وأصحابه فاحتالوا لك .

ومن الحيل الظريفة ما حكي أن النبي ﷺ لما فتح خيبر ، وأعرس بصفية ، وفرح المسلمون جاءه الحجاج بن علاط السلمي وكان أوّل من أسلم في تلك الأيام وشهد خيبر ، فقال : يا رسول الله إنّ لي بمكة مالاً عند صاحبتي أمّ شيبة ، ولي مال متفرّق عند تجار مكة فأذن لي يا رسول الله في العودة إلى مكة عسى أسبق خبر إسلامي إليهم ، فإني أخاف إن علموا بإسلامي أن يذهب جميع مالي بمكة فأذن لي لعلي أخلصه ، فأذن له رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله إني أحتاج إلى أن أقول ، فقال له رسول الله ﷺ : قل وأنت في حلّ . قال الحجاج : فخرجت فلما انتهيت إلى الثنية ثنية البيضاء وجدت بها رجالاً من قريش يتسمعون الأخبار وقد بلغهم أن رسول الله ﷺ سار إلى خيبر ، فلما أبصروني قالوا :هذا لعمر الله عنده الخبر أخبرنا يا حجاج فقد بلغنا أن القاطع يعنون محمداً ﷺ قد سار إلى خيبر ؟ قال : قلت إنه سار إلى خيبر وعندي من الخبر ما يسركم . قال : فأحدقوا حول ناقتي يقولون إيه يا حجاج . قال : فقلت هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وأسر محمد ، وقالوا لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم . قالوا فصاحوا بمكة : قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم . قال : فقلت أعينوني على جمع مالي من غرمائي فإني أريد أن أقدم خيبر فأغنم من ثقل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى هناك فقاموا معي فجمعوا لي مالي كأحسن ما أحبّ ، فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر أقبل علي حتى وقف إلى جانبي وأنا في خيمة من خيام التجار ، فقال يا حجاج ما هذا الخبر الذي جئت به . قال : فقلت وهل عندك حفظ لما أودعه عندك من السر ؟ فقال : نعم والله . قال : قلت استأخر عني حتى ألقاك على خلاء فإني في جمع مالي كما ترى ، فانصرف عني حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة وأجمعت على الخروج لقيت العباس فقلت له احفظ علي حديثي يا أبا الفضل فإني أخشى أن يتبعوني ، فاكتم علي ثلاثة أيام ثم قل ما شئت . قال : لك علي ذلك . قال : قلت والله ما تركت ابن أخيك إلا عروساً على ابنة ملكهم يعني صفية وقد افتتح خيبراً وغنم ما فيها وصارت له ولأصحابه . قال : أحقٌّ ما تقول يا حجاج ؟ قال : قلت إي والله ولقد أسلمت وما جئت إلا مسلماً لآخذ مالي خوفاً من أن أغلب عليه ، فإذا مضت ثلاثة فاظهر أمرك فهو والله على ما تحبّ . قال فلما كان في اليوم الرابع لبس العباس حلة له ، وتخلق بالطيب وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها فلما رأوه قالوا يا أبا الفضل هذا والله هو التجلد لحرّ المصيبة . قال : كلا والذي حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر ، وترك عروساً على ابنة ملكهم ، وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه . قالوا : من جاءك بهذا الخبر ؟ قال : الذي جاءكم بما جاءكم ولقد دخل عليكم مسلماً ، وأخذ ماله وانطلق ليلحق محمداً وأصحابه ليكون معهم . قالوا : تفلت عدوّ الله ، أما والله لو علمنا به لكان لنا وله شأن . قال : ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك ، فتوصل الحجاج بفطنته واحتياله إلى تخليصه وتحصيل ماله .

ولما اجتمعت الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ عام الخندق ، وقصدوا المدينة وتظاهروا وهم في جمع كثير ، وجمّ غفير من قريش وغطفان ، وقبائل العرب ، وبني النضير ، وبني قريظة من اليهود ونازلوا رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين ، واشتدّ الأمر ، واضطرب المسلمون ، وعظم الخوف على ما وصفه الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ **إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا* هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً** ﴾[1] فجاء نعيم بن مسعود بن عامر الغطفاني إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت ، فقال له رسول الله ﷺ : خذل عنا إن استطعت فإنّ الحرب خدعة ، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان نديماً لهم في الجاهلية ، فقال يا بني قريظة قد علمتم ودّي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم . قالوا : صدقت لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إنّ قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، فإنّ البلد بلدكم ، وبه أموالكم وأبناؤكم ، ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحوّلوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه ، وأموالهم ، وأولادهم ، ونساؤهم بغير بلدكم وليسوا مثلكم لأنهم إن رأوا فرصة اغتنموها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به ، إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم ، على أن تقاتلوا معهم محمداً . قالوا : أشرت بالرأي ، ثم أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب وكان إذ ذاك قائد المشركين من قريش ومن معه من كبراء قريش قد علمتم ودّي لكم وفراقي محمداً وأنه قد بلغني أمر وأحببت أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموه علي قالوا نعم قال : اعلموا أن معشر يهود بني قريظة قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد . وقد أرسلوا إليه يقولون : إنا قد ندمنا على نقض العهد الذي بيننا وبينك فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنسلمهم إليك فتضرب رقابهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم فنستأصلهم . فأرسل يقول نعم . فان بعث إليكم يهود يلتمسون منكم رهائن من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً ، ثم خرج حتى أتى غطفان فقال لهم ، مثل ما قال لقريش وحذرهم ، فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان ورؤوس بني غطفان إلى بني قريظة يقولون لهم : إنا لسنا بدار مقام وقد هلك الخف والحافر ، فاعتدّوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ فيما بيننا وبينه فأرسلوا يقولون لهم اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً ، فإنا نخشى إن دهمتكم الحرب واشتدّ عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم وتتركونا ، والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا به ، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان . والله إن الذي حدّثكم به نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا إلى بني قريظة يقولون ، إنا لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فان كنتم تريدون القتال

---

(١) سورة الاحزاب الايتان ١٠ و١١ .

فاخرجوا وقاتلوا . فقالت بنو قريظة ، حين انتهت إليهم الرسل : إن الكلام الذي ذكره نعيم بن مسعود لحق ، وما يريد القوم إلا أن تقاتلوا ، فان رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك شمروا إلى بلادهم ، وخلوا بينكم ، وبين الرجل في بلدكم ، فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنّا لا نقاتل حتى تعطونا رهناً ، فأبوا عليهم ، فخذل الله تعالى بينهم ، وأرسل عليهم الريح فتفرّقوا وارتحلوا وكان هذا من لطف الله تعالى أن الهم نعيم بن مسعود هذه الفتنة وهداه إلى اليقظة التي عمّ نفعها وحسن وقعها .

وأما ما جاء في التيقظ والتبصر في الأمور فقد قالت الحكماء : من أيقظ نفسه وألبسها لباس التحفظ أيس عدوّه من كيده له ، وقطع عنه أطماع الماكرين به . وقالوا : اليقظة حارس لا ينام ، وحافظ لا ينسام ، وحاكم لا يرتشى فمن تدرّع بها أمن من الاختلال ، والغدر ، والجور ، والكيد ، والمكر . وقيل إن كسرى أنو شروان كان أشدّ الناس تطلعاً في خفايا الأمور ، وأعظم خلق الله تعالى في زمانه تفحصاً وبحثاً عن أسرار الصدور ، وكان يبث العيون على الرعايا ، والجواسيس في البلاد ، ليقف على حقائق الأحوال ، ويطلع على غوامض القضايا ، فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب ، والمصلح فيجازيه بالإحسان ، ويقول : متى غفل الملك عن تعرف ذلك ، فليس له من الملك إلا اسمه وسقطت من القلوب هيبته .

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ليلة من الليالي يطوف يتفقد أحوال المسلمين فرأى بيتاً من الشعر مضروباً لم يكن قد رآه بالأمس فدنا منه فسمع فيه أنين امرأة ، ورأى رجلاً قاعداً فدنا منه وقال له من الرجل ؟ فقال له : رجل من البادية قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله . قال فما هذا الأنين ؟ قال امرأة تتمخض قد أخذها الطلق ، قال فهل عندها أحد ،قال لا ، فانطلق عمر والرجل لا يعرفه فجاء إلى منزله فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب بنت فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنهما هل لك في أجر قد ساقه الله تعالى لك ؟ قالت وما هو ؟ قال امرأة تتمخض ليس عندها أحد ، قالت إن شئت ، قال فخذي معك ما يصلح للمرأة من الخرق والدهن وائتني بقدر وشحم وحبوب ، فجاءت به فحمل القدر ومشيت خلفه حتى أتى البيت ، فقال ادخلي إلى المرأة ، ثم قال للرجل أوقد لي ناراً ، ففعل ، فجعل عمر ينفخ النار ويضرمها والدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضجها ، وولدت المرأة ، فقالت أم كلثوم رضي الله تعالى عنها بشر صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام ، فلما سمعها الرجل تقول يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل وقال واخجلتاه منك يا أمير المؤمنين أهكذا تفعل بنفسك ، قال يا أخا العرب من ولي شيئاً من أمور المسلمين ينبغي له أن يتطلع على صغير أمورهم وكبيره فانه عنها مسؤول ، ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة ، ثم قام عمر رضي الله تعالى عنه وأخذ القدر من فوق النار ، وحملها إلى باب البيت ، وأخذتها أم كلثوم وأطعمت المرأة ، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم ، فقال عمر رضي الله تعالى عنه للرجل قم إلى بيتك وكل ما بقي في البرمة وفي غد ائت إلينا . فلما أصبح جاءه فجهزه بما أغناه به وانصرف ، وكان رضي الله تعالى عنه من شدة حرصه على تعرّف الأحوال ، وإقامة قسطاس العدل ، وإزاحة أسباب الفساد ، وإصلاح الأمة يعسّ بنفسه

ويباشر أمور الرعية سراً في كثير من الليالي ، حتى إنه في ليلة مظلمة خرج بنفسه فرأى في بعض البيوت ضوء سراج وسمع حديثاً ، فوقف على الباب يتجسس ، فرأى عبداً أسود قدّامه إناء فيه مزر وهو يشرب ومعه جماعة ، فهمّ بالدخول من الباب فلم يقدر من تحصين البيت فتسور على السطح ونزل إليهم من الدرجة ومعه الدرّة ، فلما رأوه قاموا وفتحوا الباب وانهزموا فمسك الاسود، فقال له يا أمير المؤمنين قد أخطأت وإني تائب فاقبل توبني ، فقال أريد أن أضربك على خطيئتك ، فقال يا أمير المؤمنين إن كنت قد أخطأت في واحدة فأنت قد أخطأت في ثلاث فإنّ الله تعالى قال : ﴿ **ولا تجسسوا** ﴾[1] وأنت تجسست . وقال تعالى : ﴿ **وأتوا البيوت من أبوابها** ﴾[2] وأنت أتيت من السطح وقال تعالى : ﴿ **ولا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها** ﴾[3] وأنت دخلت وما سلمت فهب هذه لهذه ، وأنا تائب إلى الله تعالى على يدك أن لا أعود ، فاستتوبه واستحسن كلامه . وله رضي الله تعالى عنه وقائع كثيرة مثل هذه . وكان معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه قد سلك طريق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ذلك . وكان زياد بن أبيه يسلك مسلك معاوية في ذلك حتى نقل عنه أن رجلاً كلمه في حاجة له وجعل يتعرّف إليه ويظنّ أن زياداً لا يعرفه فقال أنا فلان بن فلان ، فتبسم زياد وقال له أتتعرف إلي وأنا أعرف بك منك بنفسك ،والله إني لأعرفك وأعرف أباك وأعرف أمك ، وأعرف جدّك ، وجدّتك وأعرف هذه البردة التي عليك وهي لفلان وقد أعارك إياها ، فبهت الرجل وارتعد حتى كاد يغشى عليه . ثم جاء بعدهم من اقتدى بهم ، وهو عبد الملك بن مروان والحجاج ، ولم يسلك بعدهما ذلك الطريق واقتفى آثار ذلك الفريق ، إلا المنصور ثاني خلفاء بني العباس ، ولي الخلافة بعد أخيه السفاح وهي في غاية الاضطراب ، فنصب العيون وأقام المتطلعين وبثّ في البلاد والنواحي من يكشف له حقائق الأمور والرعايا ، فاستقامت له الأمور ودانت له الجهات ، ولقد ابتلي في خلافته بأقوام نازعوه وأرادوا خلعه ، وتمردوا عليه ، وتكاثروا ، فلولا أن الله تعالى أعانه بتيقظه وتبصره ما ثبت له في الخلافة قدم ولا رفع له مع قصد أولئك القاصدين علم ، لكنه بثّ العيون فعرف من انطوى على خلافه فعالجه باتلافه ، واطلع على عزائم المعاندين فقطّ رؤوس عنادهم بأسيافه ، وكان لكمال يقظته يتلقى المحذور بدفعه دون رفعه ، ويعاجل المخوف بتفريق شمله قبل جمعه ، فذلت له الرقاب ولانت لخلافته الصعاب ، وقرّر قواعدها وأحكمها بأوثق الأسباب ، فمن آثار يقظته وفطنته ما نقله عنه عقبة الأزدي قال : دخلت مع الجند على المنصور فارتابني ، فلما خرج الجند أدناني وقال لي من أنت ؟ فقلت رجل من الأزد ، وأنا من جند أمير المؤمنين قدمت الآن مع عمر بن حفص ، فقال إني لأرى لك هيبة ، وفيك نجابة ، وإني أريدك لأمر وأنا به معني فان كفيتنيه رفعتك ، فقلت إني لأرجو أن أصدق ظنّ أمير المؤمنين فيّ ، فقال أخف نفسك واحضر في يوم كذا ، قال فغبت عنه إلى ذلك اليوم

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٢ .

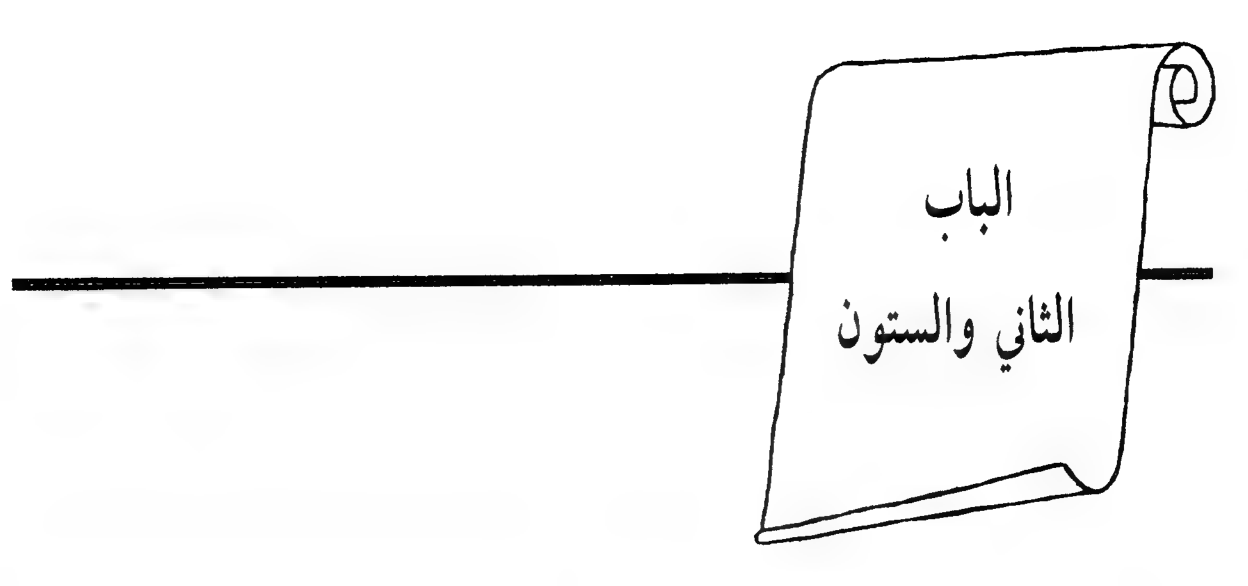
(٢) سورة البقرة الآية ١٨٩ .

(٣) سورة النور الآية ٢٧ .

وحضرت ، فلم يترك عنده أحداً ، ثم قال لي : اعلم أن بني عمنا هؤلاء قد أبو إلا كيد ملكنا واغتياله ، ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا ، يكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم وألطاف بلادهم ، فخذ معك عيناً من عندي وألطافاً وكتباً واذهب حتى تأتي عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب فأقدم عليه متخشعاً ، والكتب على ألسنة أهل تلك القرية ، والألطاف من عندهم إليه ، فإذا رآك فإنه سيردّك ويقول : لا أعرف هؤلاء القوم ، فاصبر عليه وعاوده وقل له : قد سيّروني سرّاً وسيّروا معي ألطافاً وعيناً ، وكلما جبهك وأنكر ، اصبر عليه وعاوده واكشف باطن أمره . قال عقبة : فأخذت كتبه ، والعين ، والألطاف وتوجهت إلى جهة الحجاز حتى قدمت على عبد الله بن الحسن فلقيته بالكتب فأنكرها ونهرني وقال : ما أعرف هؤلاء القوم . قال عقبة : فلم أنصرف وعادوته القول ، وذكرت له اسم القرية ، وأسماء أولئك القوم وأن معي ألطافاً وعيناً فأنس بي وأخذ الكتب وما كان معي . قال عقبة : فتركته ذلك اليوم ثم سألته الجواب . فقال : أما كتاب فلا أكتب إلى أحد ، ولكن أنت كتابي إليهم فاقرئهم السلام وأخبرهم أن ابنيّ محمداً وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقت كذا وكذا . قال عقبة : فخرجت من عنده وسرت حتى قدمت على المنصور فأخبرته بذلك ، فقال لي المنصور : إني أريد الحج فإذا صرت بمكان كذا وكذا وتلقاني بنو الحسن ، وفيهم عبد الله فإني أعظمه وأكرمه وأرفعه وأحضر الطعام ، فإذا فرغ من أكله ونظرت إليه فتمثل بين يديّ وقف قدّامه ، فإنه سيصرف وجهه عنك فدر حتى تقف من ورائه واغمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينيه منك ، ثم انصرف عنه وإياك أن يراك وهو يأكل ثم خرج المنصور يريد الحج حتى إذا قارب البلاد تلقاه بنو الحسن ، فأجلس عبد الله إلى جانبه فحادثه فطلب الطعام للغداء فأكلوا معه فلما فرغوا أمر برفعه فرفع ، ثم أقبل على عبد الله بن الحسن وقال يا أبا محمد : قد علمت أن مما أعطيتني من العهود والمواثيق أنك لا تريدني بسوء ولا تكيد لي سلطاناً قال : فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين . قال عقبة : فلحظني المنصور بعينه فقمت حتى وقفت بين يدي عبد الله بن الحسن فأعرض عني فدرت من خلفه وغمزت ظهره بإبهام رجلي فرفع رأسه وملأ عينيه مني ، ثم وثب حتى جثا بين يدي المنصور وقال : أقلني يا أمير المؤمنين أقالك الله ، فقال له المنصور : ولا أقالني الله إن لم أقتلك ، وأمر بحبسه وجعل يتطلب ولديه محمداً وإبراهيم ويستعلم أخبارهما . قال علي الهاشمي صاحب غدائه . دعاني المنصور يوماً فاذا بين يديه جارية صفراء وقد دعا لها بأنواع العذاب وهو يقول لها : ويلك أصدقيني فوالله ما أريد إلا الألفة ولئن صدقتني لأصلنّ رحمه ، ولأتابعنّ البرّ إليه وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهي تقول : لا أعرف له مكاناً فأمر بتعذيبها ، فلما بلغ العذاب منها أغمي عليها فقال : كفوا عنها ، فلما رأى أن نفسها كادت تتلف قال : ما دواء مثلها ؟ قالوا : شمّ الطيب ، وصبّ الماء البارد على وجهها ، وأن تسقى السويق ففعلوا بها ذلك وعالج المنصور بعضه بيده ، فلما أفاقت سألها عنه فقالت لا أعلم ، فلما رأى إصرارها على الجحود قال لها : أتعرفين فلانة الحجامة ؟ فلما سمعت منه ذلك تغير وجهها وقالت نعم يا أمير المؤمنين تلك في بني سليم قال : صدقت هي والله أمتي ابتعتها بمالي ورزقي يجري عليها في كلّ شهر ، وكسوة شتائها من عندي ، وأمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتتعرّف أحوالكم

وأخباركم ، ثم قال لها : أتعرفين فلاناً البقال ؟ قالت : نعم يا أمير المؤمنين هو في بني فلان قال صدقت هو والله غلامي دفعت إليه مالاً وأمرته أن يبتاع به ما يحتاج إليه من الأمتعة وأخبرني أن أمة لكم يوم كذا وكذا جاءت إليه بعد صلاة المغرب تسأله حناء وحوائج ، فقال لها ما تصنعين بهذا ؟ قالت : كان محمد بن عبد الله بن الحسن في بعض الضياع بناحية البقيع وهو يدخل الليلة وأردنا هذ ليتخذ النساء ما يحتجن إليه عند دخول أزواجهنّ من المغيب ، فلما سمعت الجارية هذا الكلام من المنصور ارتعدت من شدّة الخوف ، وأذعنت له بالحديث وحدّثته بكلّ ما أراد ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .





في ذكر الدوابّ والوحوش والطير والهوام والحشرات وما أشبه ذلك مرتباً على حروف المعجم

الأسد : من السباع والأنثى أسدة ، وله أسماء كثيرة : فمن أشهرها أسامَة ، والحرث ، وقَسْور والغضنفر ، وحيدرة ، والليث ، والضرغام ، ومن كناه أبو الأبطال ، وأبو الشبل ، وأبو العباس ، وهو أنواع : منها ما وجهه وجه إنسان وشكل جسده كالبقر ، وله قرون سود نحو شبر . ومنها ما هو أحمر كالعناب وغير ذلك ، وتلده أمّه قطعة لحم وتستمر تحرسه ثلاثة أيام ، ثم يأتي أبوه فينفخ فيه فتنفرج أعضاؤه وتتشكل صورته ثم ترضعه ، وتستمرّ عيناه مغلوقة سبعة أيام ثم تفتح ، ويقيم على تلك الحالة بين أبيه وأمه إلى ستة أشهر ثم يتكلف الكسب بعد ذلك ، وله صبر على الجوع والعطش وعنده شرف نفس ، يقال : إنه لا يعاود فريسته ولا يأكل من فريسة غيره ، ولا يشرب من ماء ولغ فيه كلب . وفي ذلك يقول بعضهم :

سأترك حبكم من غير بغض ... وذاك لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام ... رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء ... إذا كان الكلاب يلغن فيه

وإذا أكل نهش نهشاً ، وريقه قليل جداً ولذلك يوصف بالبخر[1]، وعنده شجاعة وجبن وكرم ، فمن شجاعته : الإقدام على الأمور ، وعدم الاكتراث بالغير ، ومن جبنه : أنه يفرّ من صوت الديك ، والسنور ، والطست ، ويتحير عند رؤية النار . ومن كرمه أنه لا يقرب المرأة خصوصاً إذا كانت حائضاً . وقيل : أربع عيون تضيء بالليل : عين الأسد ، وعين النمر ، وعين السنور ، وعين الأفعى . وروي أنه لما تلا رسول الله ﷺ : ﴿ **والنجم إذا هوى** ﴾[2] قال عتبة بن أبي لهب : كفرت بربّ النجم يعني نفسه ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهمّ سلط عليه كلباً من كلابك ينهشه ، فخرج

(١) البخر : رائحة غير زكية تخرج من الفم .
(٢) سورة النجم الآية ١ .

مع أصحابه في عير إلى الشام حتى إذا كانوا بمكان يقال له الزرقاء زأر الأسد ، فجعلت فرائصه ترتعد ، فقالوا له : من أي شيء ترتعد فرائصك ، فوالله ما نحن وأنت إلا سواء ، فقال : إنّ محمد دعا علي ، ووالله ما أظلت السماء من ذي لهجة أصدق من محمد ، ثم وضعوا العشاء فلم يدخل يده فيه ، ثم جاء النوم فحاطوا أنفسهم بمتاعهم وجعلوه بينهم وناموا فجاء الأسد يتهمس وشمهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إليه فضغطه ضغطة كانت إياها وهو بآخر رمق يقول : ألم أقل لكم إن محمداً أصدق الناس.ولبعضهم في الأسد :

عبوس شموس مصلخد مكابد	جريّ على الأقران للقرن قاهر
براثنه شثن وعيناه في الدجى	كجمر الغضى في وجهه الشر ظاهر
يديل بأنياب حداد كأنها	إذا قلص الأشداق عنها خناجر

فائدة : إذا أقبلت على واد مسبع فقل أعوذ بدانيال والجب من شر الأسد ، وسبب ذلك على ما قيل أن بختنصر رأى في نومه أن هلاكه يكون على يد مولود فجعل يأمر بقتل الأطفال فخافت أم دانيال عليه فجاءت إلى بئر فألقته فيه ، فأرسل الله له أسداً يحرسه ، وقيل إن بختنصر توهم ذلك في دانيال فضرى له أسدين وجعلهما في الجب وألقاه عليهما فلم يؤذياه ، وصارا يبصبصان حوله ويلحسانه فأقام ما شاءالله تعالى أن يقيم ، ثم اشتهى الطعام والشراب فأوحى الله تعالى إلى أرمياء بالشام أن اذهب إلى أخيك دانيال بجبّ كذا ، بمكان كذا ، قال أرمياء فسرت إلى ذلك الموضع فلما وقفت على رأس ذلك الجب ناديته فعرفني فقال من أرسلك إلّي قلت أرسلني إليك ربك بطعام وشراب فقال الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره والحمد لله الذي لا يخيب من قصده ، والحمد لله الذي من وثق به لا يكله إلى غيره ، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً وبالصبر نجاة وغفراناً ، والحمد لله الذي يكشف ضرنا بعد كربنا ، والحمد لله الذي هو ثقتنا حين تسوء ظنونا بأعمالنا ، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا . قال ثم صعد به أرمياء من الجب وأقام عنده مدة ثم فارقه ورجع .

وحكي أن يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام مر بقبر دانيال عليه الصلاة والسلام فسمع منه صوتاً يقول : سبحان من تعزز بالقدرة وقهر العباد بالموت . قال بعض الصالحين : من قال هذه الكلمات استغفر له كل شيء .

وحكي أن إبراهيم بن أدهم[٢] كان في سفر ومعه رفقة فخرج عليهم الأسد فقال لهم قولوا :

---

(١) الفرائص : الاطراف .

(٢) هو إبراهيم بن ادهم بن منصور ، التميمي البلخي ـ ابو اسحاق ـ زاهد مشهور ، كان أبوه من أهل الغنى في بلخ ، فتفقه ورحل إلى بغداد ، وجال في العراق ، والشام ، والحجاز . وأخذ عن كثير من علماء الاقطار .
مات في بلخ سنة (٦٣٠هـ ـ ١٢٣٣ م) .
أنظر تهذيب ابن عساكر (٢ : ١٦٧) . والبداية والنهاية (١٠ : ١٣٥)

اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام ، واحفظنا بركنك الذي لا يرام ، وارحمنا بقدرتك علينا ، فلا نهلك وأنت رجاؤنا يا الله يا الله يا الله قال فولى الأسد هارباً وقيل لما حمل نوح عليه الصلاة والسلام في سفينته من كل زوجين اثنين قال أصحابه كيف نطمئن ومعنا الأسد ، فسلط الله علينا الحمى ، وهي أول حمى نزلت في الأرض ثم شكوا إليه العذرة ، فأمر الله تعالى الخنزير فعطس فخرج منه الفأر فلما كثر ضرره شكوا ذلك إلى نوح عليه الصلاة والسلام فأمر الله سبحانه وتعالى الأسد فعطس فخرج منه الهر فحجب الفأر عنهم ويحرم أكل السبع لنهيه عليه الصلاة والسلام عن أكل كل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطير .

خواصه : فمن خواصه أن صوته يقتل التماسيح ، وشحمه من طلى به يده لم يقربه سبع ، ومرارة الذكر منه تحل المعقود ، ولحمه ينفع من الفالج وإذا وضعت قطعة من جلده في صندوق لم يقربه سوس ولا أرضة ، وإذا وضع على جلد غيره من السباع تساقط شعره وهو من الحيوان الذي يعيش ألف سنة على ما ذكر وعلامة ذلك كثرة سقوط أسنانه .

الابل : قيل ما خلق الله شيئاً من الدواب خيراً من الإبل ، إن حملت أثقلت ، وإن سارت أبعدت ، وإن حلبت أروت ، وإن نحرت أشبعت وفي حديث « الابل عز لأهلها ، والغنم بركة ، والخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة » وهي من الحيوان العجيب وإن كان عجبه قد سقط لكثرة مخالطته الناس وقد أطاعها الله للآدمي وغيره حتى قيل إن قطاراً كان ببعض حبله دهن ، فمرت فأرة فجذبته ، فسار معها القطار بواسطة جذبها له ، وهي مراكب البر ، ولذلك قرنها الله تعالى بالسفن فقال تعالى : ﴿ **وعليها وعلى الفلك تحملون** ﴾[1] ولما كانت مراكب البر ، والبرّ فيه ما ماؤه قليل ، وما ماؤه كثير جعل الله تعالى لها صبراً على العطش حتى قيل إنه يرتفع ظمؤها إلى عشر ، وفي الحديث : « لا تسبوا الإبل فانها من نفس الله تعالى » أي مما يوسع به على الناس حكاه ابن سيده ، والذي يعرف : لا تسبوا الريح فانها من نفس الرحمن . قال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان ليس لشيء من الفحول مثل ما للجمل عند هيجانه فانه يسوء خلقه ، فيظهر زبده ، ويقل رغاؤه فلو حمل عليه ثلاثة أضعاف عادته حمل ، ويقلّ أكله ، ويخرج له عند رغائه شقشقة لا تعرف من أي شيء هي من أجزائه ، وهو من الأحرار حتى قيل إنه لا ينزو على أمه ، ولا على أخته ، حتى قيل إن بعض العرب ستر ناقة بثوب ، ثم أرسل عليها ولدها ، فلما عرف ذلك عمد إلى إحليله فأكله ثم حقد على صاحبه حتى قتله ، وليس له مرارة ولذلك كثر صبره . وقيل يوجد على كبده شيء رقيق يشبه المرارة ينفع الغشاوة في العين كحلا ، وفي معدته قوّة حتى انها تهضم الشوك وتستطيبه ، ويحلّ أكله بالنص والإجماع . وأما تحريم يعقوب عليه الصلاة والسلام أكلها فباجتهاد منه . وذلك أنه كان يسكن البوادي فاشتكى عرق النسا فلم يجد ما يلائمه إلا ترك أكل لحومها فلذلك حرّمها . وأما انتقاض الوضوء بأكل لحمها فاختلف العلماء في ذلك ، فذهب الأكثرون إلى أنه

---

(١) سورة المؤمن الآية ٢٢ .

لا ينقض ، وعليه الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود، وأبي ، وابن عباس ، وأبو الدرداء ، وأبو طلحة . وعامر بن ربيعة ، وأبو أمامة وجماهير التابعين ، وبه أخذ مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم . وخالف في ذلك أحمد ، وإسحاق ، ويحيى بن يحيى ، وابن المنذر ، وابن خزيمة . واختاره البيهقي وهو مذهب الشافعي القديم .

خواصه : قال ابن زهير وغيره : أكل لحمه يزيد في الباه وفي الإنعاظ[1] بعد الجماع وبوله يفيق السكران ، ووبره إذا أحرق وذرّ على دم سائل قطعه ، وقراده إذا ربط على كم عاشق يزول عشقه .

الأرضة : بفتح الهمزة والراء دويبة صغيرة كنصف العدسة تأكل الخشب والورق ، ولما كان فعلها في الأرض أضيف اسمها إليها . قال القزويني : إذا أتى على الأرضة سنة نبت لها جناحان طويلان تطير بهما ، ويقال انها الدابة التي دلت الجنّ على موت سليمان عليه الصلاة والسلام . ومن شأنها أنها تبني لنفسها بيتاً من عيدان تجمعها مثل بيت العنكبوت منخرطاً من أسفله إلى أعلاه ، وله في إحدى جهاته باب مربع ومنه تعلم الأوائل وضع النواويس لموتاهم ، والنمل عدوّها وهو أصغر منها فيأتي من خلفها ويحتملها ويمشي بها إلى جحره لأنه إذا أتاها مستقبلاً لا يغلبها .

الأرنب : حيوان شبه العناق قصير اليدين طويل الرجلين يطأ الأرض على مؤخر قدميه ، وهو اسم يطلق على الذكر والأنثى ، وله شدة شبق ، وربما تسفد وهي حبلى ويكون عاماً ذكراً ، وعاماً أنثى . ومن عجائبها أنها تنام وعيناها مفتوحتان فيأتي الصياد فيظنها مستيقظة . قيل : من رأى أرنباً عند خروجه من بيته أوّل ما يخرج أو رآه عند قيامه من نومه واصطبح به لم تقض له حاجة في ذلك اليوم . ومن عجيب أمره أن تحمل الأنثى منه باثنين وثلاثة وأربعة ، ولا تلد إلا تحت الأرض خوفاً على أولادها من الإنسان ، وتحفر تحت الأرض الحفائر القوية حتى انها تخرب الجدران وعند ولادتها ينتحل شعرها ، وتحضن الأولاد إلى عشرين يوماً ، ومن طبعه أنه أبله وفيه قوّة وشدّة وفي سفاده حالة نزوه يصرخ الذكر والأنثى كالسنانير ، فاذا وقع منه الإنزال وقع على الأرض قليل الحركة ، وعند سفاده تدير له وجهها فاذا ملكها بعد ذلك فانها تجري به وهو راكب عليها ويجري معها .

فائدة : ذكر ابن الأثير في الكامل أن صديقاً له اصطاد أرنباً ، وله أنثيان ، وذكر وفرج ، وقيل التقطت الأرنب تمرة فاختلسها الثعلب فأكلها فانطلقا يتخاصمان إلى الضبّ . فقال الأرنب : يا أبا حسل فقال . سميعا دعوت . قالت : أتيناك لنختصم . قال : عادلاً حكيماً . قالت : فاخرج إلينا قال في بيته يؤتى الحكم . قالت : إني وجدت تمرة حلوة قال فكليها . قالت : قد اختلسها الثعلب قال لنفسه بغى الخير . قالت : فلطمته قال بحقك أخذت . قالت فلطمني قال اقتص . قالت : فاقض بيننا قال قد قضيت فذهبت أقواله أمثالاً . ومن ذلك ما حكي أن عدي بن أرطأة أتى شريحاً القاضي في مجلس حكمه فقال له : أين أنت ؟ قال بينك وبين الحائط قال فاسمع مني قال للاستماع جلست قال إني تزوّجت امرأة قال بالرفاء والبنين قال فشرط أهلها أن لا أخرجها من بينهم . قال أوف لهم بالشرط . قال فأنا أريد الخروج قال الشرط أملك قال أريد أن أذهب قال في حفظ الله قال

---

(١) الانعاظ : الشبق .

فاقض بيننا قال قد فعلت قال فعلى من قضيت . قال على ابن أمك قال بشهادة من ؟ قال بشهدة ابن اخت خالك .

الخواص : قال الجاحظ : من علق عليه كعب أرنب لم تضرّه عين ولا سحر ، وأكل دماغه يبرىء من الارتعاش العارض من البرد ، وإن شربت المرأة الحامل أنفحة الذكر ولدت ذكراً ، وإن شربت أنفحة الأنثى ولدت أنثى ، وإن علقت عليها زبلها لم تحمل ، والأرنب البحري من السموم فلا يحلّ أكله .

سقنقور : دابة شكلها كالوزغة[1] إذا أخذت وسلخت وملحت وشرب منها مثقال ، زاد في الباه . من الأشياء النفيسة عند أهل الهند ، يقال إنه يهدى إليهم فيذبحونه بسكين من الذهب ويحشونه من ملح مصر فاذا وضعوا منه مثقالاً على لحم أوبيض نفع نفعاً عظيماً .

الأفعى : الأنثى من الحيات ، والذكر أفعوان ، وهو يعيش ألف سنة على ما يقال ، ويعرف بالشجاع والأسود وهو أشرّ الحيات ، وأشرّها حيلت وأفاعي سجستان . ومن عجيب ما يحكى عنها أنها لدغت إنساناً في رجله فانصدعت جبهته .

وحكي أنها نهشت ناقة وفصيلها يرضع فمات قبل أمه . وقيل : لما دخل شبيب بن شبة على المنصور قال له يا شبيب أدخلت سجستان ؟ فقال : نعم . قال صف لي أفاعيها . قال يا أمير المؤمنين هي دقاق الأعناق ، صغار الأذناب ، مقلصة الرؤوس ، رقش برش كأنما كسين أعلام الحبرات ، كبارهنّ حتوف ، وصغارهنّ سيوف . وقيل إنها تندفن في التراب أربعة أشهر في البرد ، ثم تخرج وقد أظلمت عيناها فتمرّ بشجر الرازيانج وهو الشمر الأخضر فتحك عينيها به فيرجع إليها بصرها ، فسبحان من ألهمها ذلك . وقال الزمخشري : إذا عميت الأفعى بعد ألف سنة ألهمها الله تعالى أن تأتي البساتين وتلقي نفسها على هذه الشجرة وتحكّ عينيها بها فتبصر . وقيل : إذا قطع ذنبها عاد كما كان ، وإذا قلع نابها ، عاد بعد ثلاثة أيام ، وهي أعدى عدوّ للانسان . وقال بعضهم : رأيت حية قد ابتلعت كبشاً عظيم القرنين فجعلت تضرب به الحجارة يميناً ويساراً حتى كسرت القرنين وابتلعته وقرنيه والله تعالى أعلم . وقيل : إذا قطع ذنب الحية تعيش إن سلمت من الذر[2] . وقيل إن بالحبشة حيات لها أجنحة تطير بها . وقيل : إن جلدها ينسلخ عنها في كل سنة مرّة . وقيل : إن الجلد لا ينسلخ ، وإنما الذي ينسلخ قشر فوق الجلد ، وغلاف يخلق لها كل عام ، وهي تبيض على عدد أضلاعها : أي ثلاثين بيضة فيجتمع عليها النمل فيفسدها بقدرة الله تعالى إلا نادراً .

ومن عجيب أمرها أنها لا ترد الماء ، ولا تريده ولكنها إذا شمت رائحة الخمر فلا تكاد تصبر عنه مع أنه سبب هلاكها لأنها إذا شربت سكرت فتعرّضت للقتل ، والذكر لا يقيم في الموضع ، وإنما

---

(١) الوزغة : ضرب من الزواحف .
(٢) الذر : صغار النمل .

تقيم الأنثى لأجل فراخها حتى تكتسب قوة ، فاذا قويت أخذتهم وانسابت ، فأيّ جحر وجدته دخلت فيه وأخرجت صاحبه منه ، وعينها لا تدور ، إذا قلعت عادت .

ومن عجيب أمرها أنها تهرب من الرجل العريان ، وتفرح بالنار وتقرب منها ، وتحبّ اللبن حبّاً شديداً وإذا دخلت بصدرها في جحر لا يستطيع أقوى الناس إخراجها منه ولو قطعت قطعاً وليس لها قوائم ولا أظفار وإنما تقوى بظهرها لكثرة أضلاعها .

وحكى عمر بن يحيى العلوي قال : كنا في طريق مكة فأصاب رجلاً منا استسقاء ، فاتفق أن العرب سرقوا منا قطار جمال على أحدها ذلك الرجل . قال : ثم بعد أيام جمعتنا المقادير فوجدته قد برىء فسألناه عن حاله ، فقال : إن العرب لما أخذوني جعلوني في أواخر بيوتهم فكنت في حالة أتمنى فيها الموت ، وبينما أنا كذلك إذا أتوني يوماً بأفاعي اصطادوها وقطعوا رؤوسها وأذنابها وشووها بعد ذلك ، فقلت في نفسي : هؤلاء اعتادوها فلا تضرّهم فلعلي إن أكلت منها متّ فاسترحت . فاستطعمتهم فأطعموني واحدة ، فلما استقرّت في بطني أخذني النوم فنمت نوماً ثقيلاً ، ثم استيقظت وقد عرقت عرقاً شديداً ، واندفعت طبيعتي نحو مائة مرّة ، فلما أصبحت وجدت بطني قد ضمر وقد انقطع الألم ، فطلبت منهم مأكولاً فأكلت وأقمت عندهم أياماً فلما نشطت ووثقت من نفسي بالحركة أخذت في الطريق مع بعضهم وأتيت الكوفة .

فائدة : قيل إن الريحان الفارسي لم يكن قبل كسرى وإنما وجد في زمانه ، وسببه أن كسرى كان ذات يوم جالساً في بعض متفرجاته إذ جاءته حية فانسابت بين يديه وتمرّغت وصارت تتقلق مثل الذي يشتكي ، فأراد بعض الجند قتلها فمنعهم الملك ثم قال لهم انظروا أمرها فلما سمعت ذلك انسابت بين يديه ، فأمرهم أن يتبعوها إلى المكان الذي تريده . قال فجاءت إلى بئر وصارت تنظر فيه قال فنظروا فاذا فيه حية عظيمة وعلى ظهرها عقرب أسود فنخسها بعضهم برمح فقتلها وتركوها ورجعوا فأخبروا الملك بذلك ، فلما كان الغد جاءت الحية للملك وفي فمها بزر فنثرته بين يدي الملك وذهبت فقال الملك : إنها أرادت مكافأتنا اجعلوه في الأرض لننظر ما يكون من أمره . قال ففعلوا ذلك فطلع منه الريحان . قال : فلما انتهى أمره أتوا به إلى الملك . قال : وكان به زكام فشمه فبرىء .

لطيفة : من غريب ما اتفق لعماد الدولة أنه لما ملك شيراز اجتمع عليه أصحابه وطلبوا منه مالاً ولم يكن عنده ما يرضيهم به فاغتمّ لذلك ونام مستلقياً على قفاه مفكراً في ذلك ، وإذا بحية عظيمة خرجت من سقف ذلك المجلس ودخلت في سقف آخر . قال : فطلب سلماً وصعد لينظر المكان الذي خرجت منه فلما رآه وجد كوة فنظر في داخلها فاذا هي مطمورة فدخلها ، فوجد فيها صندوقاً فيه خمسمائة ألف دينار فأمر بإخراجه وإنفاقه على عسكره .

ومن ألطف ما اتفق له أيضاً أنه كان بتلك البلد خياط أطروش[1]، وكان الملك الذي قبله قد

---

(١) اطروش : اصم .

أودع عنده وديعة مال ، قال : فطلبه عماد الدولة ليخيط له على عادته لأنه هو الذي يخيط للملوك . قال : فتوهم الأطروش أنه غمز عليه بسبب الوديعة ، فلما حضر بين يدي عماد الدولة قال له : إن فلاناً الملك لم يدع عندي سوى اثني عشر صندوقاً ولم أدر ما فيها ، فأمر بإحضارها فأحضرها فأخذها عماد الدولة ووسع بها على جنده وتعجب من هاتين القضيتين . فكانت هذه الأسباب من دلائل السعادة له . وأمر النبي ﷺ بقتل الحيات بعد أن تنذر ثلاث مرات ، وقيل ثلاثة أيام ، وأما سكان البيوت فالإنذار لها متعين . وفي الحديث : « من قتل حية فكأنما قتل مشركاً ومن لبس خفاً فلينفضه ، ومن آوى إلى فراشه فلينظفه » .

الخواص : يقال إن دمها يجلو البصر ، وقلبها إذا علق على إنسان لا يؤثر فيه السحر ، وضرسها إذا علق على من به وجع الضرس سكن الأيمن للأيمن ، والأيسر للأيسر . ولحمها قال بقراط الحكيم : من أكله أمن من الأمراض الصعبة .

الأنيس : وتسميه الرماة الأنيسة لأنه من طيور الواجب عندهم ، وهو طير له لون حسن ، غذاؤه الفاكهة ، ومأواه الأنهار والبساتين والغياض ، وله صوت حسن كالقمري .

الأوزّ : طير يحب السباحة وفراخه تخرج من البيضة تسبح .

الخواص : في جوفه حصاة تنفع المبطون ، ودهنه ينفع من ذات الجنب ، ودواء الثعلب إذا طلي به ، ولسانه ينفع لقطار البول ، وغذاؤه جيد إلا أنه بطيء الهضم .

الأيّل : بتشديد الياء المكسورة ، ذكر الوعل وله أسماء باختلاف اللغات ، وهو يشبه بقر الوحش ، وإذا خاف من الصياد رمى بنفسه من رأس الجبل ولا يتضرّر بذلك ، وإذا لسعته حية ذهب إلى البحر فأكل السرطان فيشفى .

خواصه : إن السمك يحب رؤيته وهو يحب ذلك ولذلك أكثر ما يكون بقرب البحر ، والصيادون يعرفون ذلك فيلبسون جلده ليراهم السمك ، فيأتي لهم وهو مولع بأكل الحيات وربما لسعته فتسيل دموعه تحت محاجر عينيه ، حتى تصير نقرتين من كثرة ذلك ثم تجمد تلك الدموع فتصير كالشمع ، فتؤخذ وتجعل دواء للسم . وهو الذي يسمى بالبنزهير الحيواني ، وأجوده الأصفر ، وأكثر ما يكون ببلاد الهند ، والسند ، وفارس ، وإذا وضع على لسعة الحيات أبرأها ، وإن وضعه الملسوع في فيه نفعه ، وهذا الحيوان لا تنبت قرناه إلا بعد سنتين ، وينبتان في أوّل الأمر مستقيمين ثم بعد ذلك يحصل فيهما التشعب ، ولا يزالان يزيدان إلى ست سنين فحينئذ يصيران كنخلتين ، ثم بعد ذلك يلقيهما في كل سنة مرة ثم ينبتان . قال أرسطو : وهذا النوع يصاد بالصفير ، والأصوات المطربة فانه يحب الطرب ، والصيادون يشغلونه بذلك ، ويأتونه من ورائه فاذا رأوه قد استرخت أذناه وثبوا عليه ، وقرنه مصمت ، وإحليله من عصب لا عظم فيه ولا لحم ، وهو من الحيوان الذي يزد في السمن ، فاذا حصل له ذلك فرّ من مكانه خوفاً من الصيادين وحكمه حل أكله .

ومن خواصه إذا بخر بقرنه البيت طرد الهوام التي فيه ، وإذا أحرق واستاك به الذي به صفرة

الأسنان زال ذلك عنه ، ومن علق عليه شيء منه ذهب نومه . ومن خواصه أن دمه يفتت الحصاة التي بالمثانة شرباً ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

حرف الباء الموحدة

باز : كنيته أبو الأشعث ، وهو من أشد الحيوان تكبراً ، وأضيقها خلقاً ، قال القزويني : انها لا تكون إلا أنثى ، وذكرها من غيرها ، إما من جنس الحدأة أو الشواهين ولأجل ذلك تختلف ألوانها وهو أصناف منها البازي ، والباشق ، والشاهين ، والبيدق ، والصقر ، والبازي ، أحرّها مزاجاً لأنه لا يصبر على العطش فلذلك لا يفارق الماء والأشجار المتسعة ، والظل الظليل ، وهو خفيف الجناح ، سريع الطيران تكثر أمراضه من كثرة طيرانه لأنه كلما طار انحط لحمه وهزل ، وأحسن أنواعه ما قل ريشه واحمرت عيناه مع حدّة فيهما . قال الشاعر :

لو استضاء المرء في إدلاجه بعينه كفته عن سراجه

ودونه الأزرق ، الأحمر العينين ، والأصفر دونهما . ومن صفاته المحمودة أن يكون طويل العنق ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، شديد الانحطاط من الجو ، غليظ الذراعين مع قصر فيهما .

لطيفة : من عجيب أمره أن الرشيد خرج ذات يوم للصيد فأرسل بازاً فغاب قليلاً ثم أتى وفي فمه سمكة ، فأحضر الرشيد العلماء وسألهم عن ذلك . فقال مقاتل : يا أمير المؤمنين روينا عن جدك ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : إن الجو معمور بأمم مختلفة الخلق ، وفيه دواب تبيض وتفرخ على هيئة السمك لها أجنحة ليست بذوات ريش . فأجاز مقاتلاً على ذلك وأكرمه .

بالة : سمكة عظيمة . قال القزويني يقال إن طولها يبلغ خمسمائة ذراع ، وقال غيره خمسون ، ويقال لها العنبر ، وهي تظهر في بعض الأحايين لأصحاب المراكب ، فاذا رأوها طبلوا بالطبول ، حتى إنها تنفر لأن لها جناحين كالقناطر إذا نشرتها أغرقتهم ، فاذا بغت على حيوان البحر وزاد شرها أرسل الله عليها سمكة نحو الذراع تلتصق بأذنها ولا خلاص لها منها ، فتنزل إلى قعر البحر وتضرب رأسها به حتى تموت ثم تطفو بعد ذلك فيقذفها الريح إلى الساحل فيأخذها أهله ويشقون جوفها ويستخرجون منها العنبر .

ببغاء : هي أصناف كثيرة منها الأخضر ، والرمادي ، والأصفر ، والأبيض يتخذها الملوك والرؤساء لحسن لونها ، وصوتها ، وفصاحتها .

حكي أنه أهدي لمعز الدولة درة بيضاء سوداء الرجلين والمنقار ويقال أن نوعاً منها يقرأ القرآن .

الخواص : من أكل لسانها تفصح ، وإذا جفف دمها وجعل بين الصديقين حصلت بينهما الخصومة ، وزبلها يخلط بماء الحصرم ويكتحل به ينفع من الرمد وظلمة البصر .

بجع : طائر أبيض اللون يميل إلى صفرة ، طويل المنقار ، كبير البطن أكثر أكله السمك .

بح : طائر لطيف يأوي أطراف الماء ، وهو خلقة شريفة لم يوجد غالباً إلا اثنين فقط .

براق : هو الدابة التي ركبها النبي ﷺ ، وهو دون البغل ، وفوق الحمار أبيض اللون .

برذون : نوع من الخيل دون الفرس العربي ، وفي الحديث أن النبيّ ﷺ ركبه ، وكذا عمر رضي الله تعالى عنه ، فلما ركبه عمر جعل يتخلخل به فنزل عنه ، وضرب وجهه وقال لا علم الله من علمك هذه الخيلاء ولم يركب برذوناً قبله ولا بعده ، وكنيته أبو الأخطل لطول ذنبه . وأنشد السراج الوراق في ذم البراذين يقول :

لصاحب الأحباس[1] برذونة	بعيدة العهد عن القرط
إذا رأت خيلاً على مربط	تقول سبحانك يا معطي
تمشي إلى خلف إذا ما مشت	كأنما تكتب بالقبطي

الخواص : إذا شربت امرأة دمه لم تحبل أبداً وزبله يخرج المشيمة والجنين الميت ، وإذا جفف وذر منه على من به الرعاف انقطع رعافه وكذا الجرح .

برغوث : تفتح منه الباء وتضم وكنيته أبو طامر ، وأبو عدى ، وأبو وثاب وهو يثب إلى ورائه .

حكي أنه يعرض له الطيران كالنمل وهو يطيل السفاد ويبيض ، ويفرخ وأصله أولاً من التراب لا سيما في الأماكن المظلمة ، وسلطانه في أواخر الشتاء وأول فصل الربيع ، ويقال إنه على صورة الفيل وله أنياب وخرطوم وقال بعضهم دبيبها من تحتي أشدّ من عضها ، وليس ذلك بدبيب ، ولكن البرغوث خبيث يستلقي على ظهره ويرفع قوائمه فيزغزغ بها فيظنّ من لا علم له أنه يمشي تحت جنبيه ، وكان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يفلي ثوبه فيلتقط البراغيث ويدع القمل فقال له أنس في ذلك . فقال أبدأ بالفرسان وأكر على الرجالة وأنشد أعرابيّ :

ليل البراغيث أعياني وأنصبني	لا بارك الله في ليل البراغيث
كأنهن وجلدي إذ خلون به	قضاة سوء أغاروا في المواريث

وقال أبو الرماح الأزدي :

تطاول بالفسطاط ليلي ولم يكن	بوادي الغضى ليلي علي يطول
تؤرقني حدب قصار أذلة	وإن الذي يؤذينه لذليل
إذا جلت بعض الليالي منهن جولة	تعلقن في رجلي حيث أجول
إذا ما قتلناهن أضعفن كثرة	علينا ولا ينعى لهن قتيل
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة	وليس لبرغوث علي سبيل

---

(١) الاحباس : الاوقاف .

وقال ابن أيبك الصفدي :

أشكو إلى الرحمن ما نالني   من البراغيث الخفاف الثقال
تعصبوا الليل لما دروا   أني تقنعت بطيف الخيال

ولا يسبّ البرغوث لما ورد أن النبي ﷺ سمع رجلاً يسبّ برغوثاً فقال لا تسبه فانه أيقظ نبياً إلى صلاة الفجر .

فائدة : سئل مالك عن البرغوث ، من يقبض روحه . فقال : أله نفس ؟ قيل نعم الله يتوفى الأنفس حين موتها . ولقد شكا عامل إفريقية إلى عمر بن عبد العزيز شر الهوام فكتب إليه : إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليقرأ : ﴿ **وما لنا ألاَّ نتوكل على الله** ﴾[1] الآية . وقال حنين بن إسحاق : الحيلة في دفع البرغوث أن تأخذ شيئاً من الكبريت فتدخن به في البيت فانها تفرّ من ذلك ، وقيل يرشّ البيت بماء السذاب ، وقيل مشاق المراكب يحرق في البيت مع قشور النارنج .

بعوض : قيل إنه على خلقة الفيل إلا أنه أكثر أعضاء منه ، فان للفيل أربعة أرجل وللبعوض ستة ، أو يزيد عليه بأربعة أجنحة ، وله خرطوم مجوّف نافذ فاذا طعن به جسد إنسان استقى الدم وقذف به إلى جوفه فهو له كالبلعوم والحلقوم ، ومما ألهمه الله تعالى إذا جلس على عضو إنسان يتتبع مسام العروق فانها أرق واسرع له في إخراج الدم وعنده شره في مصه حتى قيل إنه لا يمصّ شيئاً فيتركه باختياره إلى أن ينشق أو يطار . ومن عجيب أمره أنه ربما قتل البعير وغيره من ذوات الأربع فيتركه طريحاً . وقال الجاحظ : من علّم البعوض أن وراء جلد الجاموس دماً ، وأن ذلك الدم غذاء لها ، وأنها إذا طعنت في ذلك الجلد الغليظ نفذ فيه خرطومها مع ضعفه ولو أنك طعنت فيه بمسلات شديدة المتن رهيفة الحدّ لانكسرت ، فسبحان من رزقها على ضعفها بقوّته وقدرته . قال بعضهم :

أقول لنازل البستان طوبى   لعيشك لم تشك فيه البعوض
يململه فليس له قرار   ويشخنه فليس له نهوض
حماه قرصه وطنينه أن   يبيت وعينه فيها غموض
كأنك حين تهدى بالأغاني   تكرر في مسامعك العروض

ومن الحكم التي أودعها الله تعالى إياها أن جعل فيها قوة الحافظة ، والفكر ، وحاسة اللمس والبصر ، والشم ومنفذ الغذاء ، وجوفاً ، ومخاً ، وعروقاً وعظاماً فسبحان من قدر فهدى ولم يترك شيئاً سدى . وقال الزمخشري في تفسير سورة البقرة في ذلك :

يا من يرى مد البعوض جناحها   في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها   والمخ من تلك العظام النحل
ويرى خرير الدم في أوداجها   متنقلاً من مفصل في مفصل

---

(١) سورة إبراهيم الآية ١٢ .

ويرى وصول غذاء الجنين ببطنها | في ظلمة الأحشاء بغير تمقل
ويرى مكان الوطء من أقدامها | في سيرها وحثيثها المستعجل
ويرى ويسمع حسن ما هو دونها | في قاع بحر مظلم متهوّل
أمنن علي بتوبة تمحو بها | ما كان مني في الزمان الأول

بغل : معروف ، وكنيته أبو قموص ، وأبو حرون وله كنى غير ذلك كثيرة ، وهو مركب من الفرس ، والحمار ، ولذلك صار له صلابة الحمار ، وعظم الخيل وهو عقيم لا نسل له . روى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن علي كرم الله وجهه ، أنها كانت تتناسل فدعا عليها إبراهيم الخليل لأنها كانت تسرع في نقل الحطب لنار المنجنيق فقطع الله نسلها ، وهو أشر الطباع لأنه تجاذبه الأعراق المتضادة ، والأخلاق المتباينة والعناصر المتباعدة ، ومن العجيب أن كل عضو فرضته منه كان بين الفرس والحمار .

الخواص : يقال إن حافر البغلة السوداء ينفع لطرد الفأر إذا بخر به البيت ، وإذا سحق حافره بعد حرقه وخلط بذهن الآس وجعل على رأس الأقرع نبت شعره ، وزبله إذا شمه المزكوم زال زكامه على ما ذكروه .

بقر : هو حيوان شديد القوة خلقه الله تعالى لمنفعة الإنسان ، وهو أنواع منها الجواميس وهي أكثر ألباناً ، وكل حيوان إناثه أرق أصواتاً من ذكوره ، إلا البقر وأنثاه يضربها الفحل في السنة مرة ، إذا اشتد شبقها تركت المرعى وذهبت ، وإذا طلع الفحل عليها التوت تحته إذا أخطأ المجرى لشدة ضربة ذكره . قال المسعودي : رأيت بالري البقر تحمل كالبعير فتبرك على ركبتيها ثم تثور بالحمل .

عجيبة : حكي في الإحياء أن شخصاً كان له بقرة وكان يشوب لبنها بالماء ويبيعه ، فجاء السيل في بعض الأودية وهي واقفة ترعى فمر عليها فغرقها فجلس صاحبها يندبها فقال له بعض بنيه:يا أبت لا تندبها فان المياه التي كنا نخلطها بلبنها اجتمعت فغرّقتها .

فائدة : ذكر ابن الفضل في كتابه عن وهيب بن منبه أنه قال : لما خلق الله تعالى الأرض ماجت واضطربت كالسفينة فخلق الله تعالى ملكاً في نهاية العظم والقوّة وامره أن يدخل تحتها ويجعلها على منكبيه فدخل وأخرج يداً من المشرق ، ويداً من المغرب وقبض على أطراف الأرض وأمسكها ثم لم يكن لقدميه قرار ، فخلق الله تعالى صخرة من ياقوتة حمراء في وسطها سبعة آلاف ثقب ، فخرج من كل ثقب بحر لا يعلم عظمه إلا الله تعالى ، ثم أمر الصخرة أن تدخل تحت قدميّ الملك ، ثم لم يكن للصخرة قرار فخلق الله تعالى ثوراً عظيماً يقال له كيوثا ، له أربعة آلاف عين ، ومثلها أنوف وآذان وأفواه وألسنة ، وقوائم ما بين كل قائمتين منها مسيرة خمسمائة عام ، وأمر الله تعالى هذا الثور فدخل تحت الصخرة ، وحملها على ظهره وقرونه ، ثم لم يكن للثور قرار ، فخلق الله تعالى حوتاً يقال له يهموت ثم أمره الله تعالى أن يدخل تحته ، ثم جعل الحوت على ماء ، ثم جعل الماء على الهواء ، ثم جعل الهواء على ماء أيضاً ، ثم جعل الماء على الثرى ، ثم الثرى على الظلمة ، ثم انقطع علم الخلائق .

الخواص : شحم البقر إذا خلط بزرنيخ أحمر طرد العقارب ، وإذا طلي بـه إناء اجتمعت البراغيث إليه ، وإذا شرب لبنها زاد في الانعاظ ، وقرنها إذا سحق وجعل في طعام صاحب الحمى فأكله زالت الحمى ، ومرارتها إذا خلطت بماء الكراث نفعت من البواسير طلاء . وإذا طلي به على الأثر الأسود في البدن أزاله ، وخصية الفحل إذا جففت وسحقت وجعلت في عسل وأكلت فانها تزيد في الباه ، وشعرها إذا أحرق واستيك به نفع من وجع الأسنان ، وإذا خلط مع السكنجين وشرب نفع من الطحال على ما ذكروه .

بومة : وكنيتها أم الخراب ، وأم الصبيان ومن طبعها أن تدخل على كل طير في وكره وتأكل أفراخه ، ولمعاداة الطيور لها يجعلها الصيادون في أشراكهم حتى يقع عليها الطير . ونقل المسعودي عن الجاحظ أن البومة لا تخرج بالنهار خوفاً من العين لأنها تظن أنها حسناء وهي أصناف وكلها تحب الخلوة بنفسها .

الخواص : من خواصها أنها تنام باحدى عينيها ، والأخرى مفتوحة ، فإذا أخذت المفتوحة وجعلت تحت فص خاتم فمن لبسه لم ينم ما دام في يده ، وعكسها المغموضة ، وإذا أردت معرفة ذلك فألقهما في الماء ، فالراسبة للنوم ، والطافية لليقظة وإذا أخذ قلب البومة وجعل على اليد اليسرى من المرأة ، وهي نائمة تحدثت في نومها بجميع ما فعلته .

بوقير : طير أبيض يأتي منه في كل سنة طائفة إلى جبل بالصعيد ، يقال له جبل الطير ، فيه كوة فتدخل من تلك الكوة فيمسك منها شيء ، فإن أمسكت واحدة كان ذلك العام متوسط الخصب ، وإن أمسكت اثنتين كان كثير الخصب ، وإن لم تمسك شيئاً كانت السنة مجدبة وأهل تلك الناحية تعرف ذلك . وهذا الجبل بالقرب من بلدة مارية أم ابراهيم ولد النبي ﷺ .

(حرف التاء)

تمساح : حيوان عجيب على صورة الضب ، له فم واسع ، وفيه ستون ناباً ، وقيل ثمانون وبين كل نابين سن صغيرة وهي أنثى في ذكر ، إذا أطبق فمه على شيء لا يفلته حتى يخلعه من موضعه ، وله لسان طويل ، وظهر كالسلّحفاة ولا يعمل الحديد فيه ،وله أربعة أرجل وذنب طويل وهو لا يوجد إلا بنيل مصر . وقال المسافرون إنه يوجد ببحر الهند وطوله في الغالب ستة أذرع إلى عشرة في عرض ذراعين ، أو ذراع ، ويقيم في البحر تحت الماء أربعة أشهر لا يظهر وذلك في زمن الشتاء ، ويتغوط من فيه في الغالب ويحصل في فيه الدود فيؤذيه فيلهمه الله تعالى فيخرج إلى بعض الجزائر ويفتح فاه فيرسل الله تعالى له طيراً يقال له القطقاط فيدخل في فيه فيأكل من الدود فيحصل له راحة ، فعند ذلك يطبق فمه على الطير ليأكله فيضربه بريشتين خلقهما الله تعالى في جناحيه كريشة الفصاد فيؤلمه فيفتح فاه فيخرج ولذلك يضرب به المثل فيقال جازاه مجازاة التمساح . وزعم بعض الباحثين عن أحوال التمساح ، أن له ستين ناباً وستين عرقاً ويسفد ستين مرة ، ويبيض ستين بيضة ويحضن ذلك ستين يوماً ، ويعيش ستين سنة ، فاذا أفرخ فما صعد الجبل صار ورلاً ، وما نزل البحر صار

تمساحاً ، وفكه الأسفل لا يستطيع تحريكه لأن فيه عظماً متصلاً بصدره ، وإذا أراد السفاد أخذ أنثاه وطلع بها إلى البر وقلبها وجامعها فاذا قضى حاجته قلبها ثانية لأنه لو تركها على تلك الحالة بقيت حتى تموت . وما ذلك إلا أنها لا تستطيع الإنقلاب ليبوسة ظهرها وصلابته ، وقد سلط الله تعالى عليه أضعف الحيوان ، وهو كلب الماء يقال إنه يتلبط بالطين ويغافل التمساح ويقذف بنفسه في فيه فيبتلعه لنعومته فاذا حصل في جوفه ذاب ما عليه من سخونة فيعمد إلى أمعائه فيقطعها ويقطع مراق بطنه فيقتله .

الخواص : عينه تشدّ على من به رمد اليمنى لليمنى واليسرى لليسرى وشحمه إذا قطر في أذن من به صمم نفعه .

تنين : ضرب من الحيات ، وهو طويل كالنخلة السحوق ، وجسده كالليل ، أحمر العينين لهما بريق واسع الفم والجوف ، يبتلع الحيوان وأول أمره يكون حية متمردة ثم تطغى وتتسلط على حيوان البر فيستغيث منها ، فيأمر الله تعالى ملكاً فيحملها ويلقيها في البحر فتقيم فيه مدة ، ثم تتسلط على حيوانه أيضاً فيستغيث منها إلى ربه فيأمر الله تعالى بالقائها في النار فيعذّب بها الكافرين وقيل يأمر الله تعالى بالقائها على يأجوج ومأجوج . وروى ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يسلط الله على الكافر في قبره تسعة وتسعين تنيناً تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة ولو أن تنيناً منها نفخ على الأرض ما نبتت فيها خضراء » .

حرف الثاء

ثعلب : وهو معروف ذو مكر وخديعة وله حيل في طلب الرزق . فمن ذلك أنه يتماوت وينفخ بطنه ويرفع قوائمه حتى يظنّ أنه مات . فاذا قرب منه حيوان وثب عليه وصاده ، وحيلته هذه لا تتمّ على كلب الصيد . ومن حيلته أنه إذا تعرّض للقنفذ نفش القنفذ شوكه ، فيسلح[١] هو عليه ، فيلمّ شوكه فيقبض على مراق بطنه ويأكله ، وسلحه أنتن من سلح الحباري[٢] .

ومن لطيف أمره أنه إذا تسلطت عليه البراغيث حملها وجاء إلى الماء وقطع قطعة من صوفه وجعلها في فيه ونزل في الماء والبراغيث تطير قليلاً حتى تجتمع في تلك الصوفة فيلقيها في الماء ويخرج . وفروه أدفأ الفراء وفيه الأبيض والرمادي وغير ذلك . وذكر في عجائب المخلوقات أنه أهدي إلى أبي منصور السلماني ثعلب له جناحان من ريش ، إذا قرب الإنسان منه نشرهما وإذا بعد لصقهما .

لطيفة : ذكر ابن الجوزي في آخر كتاب الأذكياء ، والحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء عن الشعبي أنه قال : مرض الأسد فعادته السباع والوحوش ما خلا الثعلب فنمّ عليه الذئب ، فقال الأسد إذا حضر فأعلمني ، فلما حضر الثعلب أعلمه الذئب بذلك وكان قد أخبره بما قاله الذئب .

---

(١) يسلح : يتبرز .
(٢) الحباري : طائر اكبر من الدجاج وأطول عنقاً يضرب به المثل في البلاهة فيقال : (ابله من الحُباري).

فقال الأسد : أين كنت يا أبا الفوارس قال : كنت أتطلب لك الدواء . قال : وأيّ شيء أصبته ؟ قال:قيل لي خرزة في عرقوب أبي جعد قال فضرب الأسد بيده في ساق الذئب فأدماه ولم يجد شيئاً . فخرج ودمه يسيل على رجله ، وانسلّ الثعلب . فمرّ به الذئب فناداه يا صاحب الخف الأحمر إذ قعدت عند الملوك فانظر ما يخرج منك فان المجالس بالأمانات . وقيل خرج الأسد والثعلب والذئب يتصيدون فاصطادوا حمار وحش ، وضباً ، وغزالاً ثم جلسوا يقتسمون فقال الأسد للذئب : اقسم علينا فقال حمار الوحش لي ، والغزال لأبي الحرث ، والضب للثعلبّ فضربه الأسد في رأسه فرضخها . فقال الثعلب : أنا أقسم حمار الوحش لأبي الحرث يتغدى به ، والغزال لأبي الحرث يتعشى به ، والضبّ لأبي الحرث ينتقل به فيما بين ذلك . فقال له الأسد : لله درك من فرضي ما أعلمك بالفرائض . من علمك هذا ؟ قال علمني التاج الأحمر الذي ألبسته هذا وأشار إلى الذئب .

وحكي أن الثعلب مر في السحر بشجرة فرأى فوقها ديكاً . فقال له : أما تنزل نصلي جماعة فقال إن الامام نائم خلف الشجرة فأيقظه،فنظر الثعلب فرأى الكلب فضرط وولى هارباً فناداه أما تأتي لنصلي . فقال : قد انتقض وضوئي فاصبر حتى أجدد لي وضوءاً وأرجع . ومن العجيب في قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله ، والثعلب يصيد القنفذ فيأكله ، والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها ، والأفعى تصيد العصفور ، والعصفور يصيد الجراد ، والجراد يصيد الزنانير ، والزنانير تصيد النحل ، والنحل تصيد الذباب ، والذباب يصيد البعوض ، والبعوض يصيد النمل ، والنمل يأكل كل ما تيسر من صغير وكبير فتبارك الله الذي أتقن ما صنع .

الخواص : رأسه إذا ترك في برج حمام هرب الحمام منه ، ونابه يشدّ على الصبي يحسن خلقه ومرارته يجعل منها في أنف المصروع يبرأ ، ولحمه ينفع من اللقوة والجذام ، وخصيته تشدّ على الصبي تنبت أسنانه ، وفروه أنفع شيء للمربوط ، ودمه إذا جعل على رأس أقرع نبت شعره إذا كان دون بلوغ ، وطحاله يشد على من به وجع الطحال يبرأ .

ثعبان : هو الكبير من الحيات ذكراً كان أو أنثى ، وهو عجيب الشأن في هلاك بني آدم يلتوي على ساق الإنسان فيكسرها وليس له عدو إلا النمس ، ولولا النموس لأكلت الثعابين أهل مصر .

لطيفة : قيل إن عبد الله بن جدعان كان في ابتداء أمره صعلوكاً وكان شريراً يفتك ويقتل ، وكان أبوه يعقل عنه ، فضجر من ذلك وأراد قتله فخرج هارباً على وجهه فتوصل لجبل فوجد فيه شقاً فدخل فيه فوجد في صدره شيئاً كهيئة الثعبان ، فدنا منه وقال لعله يثب عليّ فيقتلني وأستريح . قال فدنا منه فوجده مصنوعاً من ذهب ، وعيناه ياقوتتان ثم وجد من داخله بيتاً فيه جثث طوال بالية على أسرة الذهب والفضة ، وعند رؤوسهم لوح مكتوب فيه تاريخهم ، وإذا بهم رجال من جرهم ، وفي وسط البيت كوم من الياقوت الأحمر ، والزمرد ، والذهب والفضة ، واللؤلؤ فأخذ منه قدر ما يحمل وعلّم الشق وذهب إلى قومه فأغناهم ورجع فلم يدر مكان الشق . قال رسول الله ﷺ : « لقد

كنت أستظل بجفنة عبد الله بن جدعان من الهجير» . قالت عائشة يا رسول الله هل ينفعه ذلك شيئاً قال : « لا لأنه لم يقل ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين » .

(حرف الجيم)

جراد : حيوان معروف وليس له جهة مخصوصة ، وإنما يكون هائماً هارباً ، وإذا أراد أن يبيض ذهب إلى بعض الصخور فضربها بذنبه فتفرج له فيلقي بيضه فيها ، وله ستة أرجل وأطراف أرجله كالمنشار ، وهو ألوان عديدة ، وفيه خلقة عشرة من الجبابرة ، وجه فرس ، وعينا فيل ، وعنق ثور ، وقرنا أيل ، وصدر أسد ، وبطن عقرب ، وجناحا نسر ، وفخذا جمل ، ورجلا نعامة ، وذنب حية ، وهو من الحيوان الذي ينقاد إلى رئيسه كالعسكر ، إذا طعن أميره تتابع خلفه وفي الحديث : أن جرادة وقعت بين يدي رسول الله ﷺ فاذا مكتوب محلى جناحها بالعبرانية نحن جند الله الأكبر ، ولنا تسعة وتسعون بيضة . ولو تمت لنا المائة لأكلنا الدنيا بما فيها . فقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم أهلك الجراد اللهم أقتل كبارها ، وأمت صغارها ، وأفسد بيضها ، وسد أفواهها عن مزارع المسلمين وعن معايشهم إنك سميع الدعاء » . قال : فجاء جبريل فقال إنه قد استجيب لك في بعضها . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « ان الله تعالى خلق ألف أمة ، ستمائة منها في البحر ، وأربعمائة في البر ، وأن أوّل هلاك هذه الأمة الجراد ، فاذا هلك الجراد تتابعت الأمم مثل الدر إذا قطع سلكه » قيل : كان طعام يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام الجراد ، وقلوب الشجر ، وكان يقول : من أنعم منك يا يحيى وقد أجمع المسلمون على أكل لحمه ، ومن خواصه أن الإنسان إذا تبخر به نفعه من عسر البول .

جرو : بكسر الجيم وفتحها وضمها ، وهو الصغير من أولاد الكلاب والسباع ، وقد كان ﷺ أمر بقتل الكلاب . وسببه أن جبريل عليه السلام وعده ليأتيه ، فتأخر . قال فلقيه النبي ﷺ بعد ذلك فقال ما أخرك عن وعدك ؟ فقال ما تأخرت ولكن لا ندخل بيتاً فيه صورة ، ولا كلب فأمر بقتلها .وروى مسلم والطبراني عن خولة بزيادة ولفظها ، أن جرواً دخل تحت سرير في بيته ﷺ فمات ، فمكث النبي ﷺ أياماً لا يأتيه الوحي قال لعله حدث في البيت شيء ، فخرج للمسجد فنزل عليه الوحي ، قالت خولة فقممت[1] البيت فوجدت الكلب تحت السرير .

عجيبة : حكي أن رجلاً لم يولد له ولد ، فكان يأخذ أولاد الناس فيقتلهم فنهته زوجته عن ذلك وقالت : يؤاخذك الله بذلك . فقال : لو آخذ لفعل في يوم كذا ، وصار يعدد أفعاله لها . فقالت له : إن صاعك لم يمتلىء ، ولو امتلأ آخذك . قال فخرج ذات يوم وإذا بغلامين يلعبان ومعهما جرو فأخذهما الرجل ودخل البيت فقتلهما وطرد الجرو . قال فطلبهما أبوهما فلم يجدهما فانطلق إلى نبي لهم فأخبره بذلك فقال : ألهما لعبة كانا يلعبان بها ؟ قال جرو كلب . قال ائتني به فأتاه به فجعل خاتمه بين عينيه ثم قال اذهب خلفه فأي بيت دخله ادخل معه فان ولديك فيه . قال فجعل الجرو يجوز الدروب ، والحارات حتى دخل بيت القاتل فدخل الناس خلفه وإذا بالغلامين متعفران بدمهما ،

---

(١) قمم : رفع القمامة وهي الاقذار .

وهو قائم يحفر لهما مكاناً يدفنهما فيه ، فأمسكوه وأتوا به لنبيهم فأمر بصلبه ، فلما رأته زوجته عى الخشبة قالت ألم أحذرك هذا اليوم ، وتقول ما تقول ! الآن امتلأ صاعك . وسيأتي الكلام عى الكلب في حرف الكاف إن شاء الله تعالى .

جعل : دويبة معروفة تسمى أبا جعفران والزعقوق يعض البهائم في وجهها فتهرب منه وهو أكبر من الخنفساء شديد السواد ، في بطنه لون حمرة ، للذكر قرنان ، يوجد كثيراً في مراح البقر والجاموس ، قيل أنه يتولد من أخثائها ومن شأنه جمع الروث وادخاره ، ومن عجيب أمره أنه إذا شم الورد مات ، ويعيش بعوده للروث ، وله جناحان لا يكادان يريان إلا إذا طار ، وله ستة أرجل وسنام مرتفع جداً ، وهو يمشي القهقرى ، ومن طبعه أنه يحرس النيام فاذا قام أحدهم يتغوّط تبعه ليأكل من رجيعه ، وذلك من شدّة شهوته للغائط .

(حرف الحاء)

حجل : طير فوق الحمامة أغبر اللون ، أحمر المنقار والرجلين يسمى دجاج البرّ ، وهو صنفان نجدي ، وتهامي ، النجدي أغبر ، والتهامي أبيض وله شدة في الطيران . وإذا تقاتل ذكران تبعت الأنثى الغالب . وله شدّة شبق وأفراخه تخرج من البيض كاسية ، ويعمر في الغالب عشرين سنة وإذا قوي على غيره أخذ بيضه فحضنه ، ومن سرّ الله تعالى إذا أفرخ ذلك البيض تبع الفرخ أمه التي باضته ، ومن طبعه أنه يخدع غيره في قرقرته . ولذلك يتخذه الصيادون في أشراكهم .

غريبة : قيل إن أبا نصر بن مروان أكل مع بعض مقدمي الأكراد فأتى على سماطه بحجلتين مشويتين فلما رآهما ضحك فقال مم تضحك ؟ قال : كنت أقطع الطريق في عنفوان شبابي فمرّ بي تاجر فأخذته ، فلما أردت قتله تضرّع إلي فلم أقله ، فلما علم أنه لا بد لي من قتله التفت يميناً وشمالاً فرأى حجلتين كانتا بقربنا فقال اشهدا لي أنه قاتلي ظلماً ، فقتلته ، فلما رأيت هاتين الحجلتين تذكرت حمقه في استشهاده بهما ، فقال أبو نصر والله لقد شهدا عليك عند من أقادك بالرجل ، ثم أمر به فضربت عنقه .

الخواص : لحمها جيد معتدل الهضم ، ومرارتها تنفع الغشاوة في العين وإذا سعط بها إنسان في كل شهر مرة جاد ذهنه ، وقلّ نسيانه ، وقوي بصره .

حدأة : بكسر الحاء وفتح الدال مع همزة ، أخسّ الطير تبيض بيضتين وربما باضت ثلاثاً وتحضن عشرين يوماً ، ومن ألوانها الأسود والرمادي ، وهي لا تصيد إلّا خطفاً وفي طبعها أنها تقف في الطيران ، وهي أحسن الطير مجاورة لأنها إذا جاعت لا تأكل كل أفراخ جارها . ويقال إنها طرشاء وفي طبعها أنها لا تخطف من الجهة اليمنى لأنها عسراء ، وهي سنة ذكر ، وسنة أنثى كالأرنب .

عجيبة : روى الحافظ النسفي في فضائل الاعمال أن عاصم بن أبي النجود شيخ القراء في زمانه قال أصابتني خصاصة . فجئت إلى بعض إخواني فأخبرته بأمري فرأيت في وجهه الكراهة فخرجت من منزله إلى الجبانة فصليت ما شاء الله ثم وضعت رأسي على الأرض وقلت : يا مسبب

الأسباب ، يا فاتح الأبواب ، يا سامع الأصوات ، يا مجيب الدعوات ، يا قاضي الحاجات ، اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عمن سواك . فوالله ما رفعت رأسي حتى سمعت وقعة بقربي فاذا بحدأة قد طرحت كيساً أحمر فقمت فأخذته فاذا فيه ثمانون ديناراً ، وجوهرة ملفوفة في قطن ، قال فاتجرت بذلك واشتريت لي عقاراً وتزوّجت .

الخواص : مرارتها تجفف في الظل ، وتنقع في إناء زجاج فمن لسع وقَطَر منها في ذلك الموضع واكتحل مخالفاً لجهة اللسع ثلاثة أميال أبرأته ، ودسمها إذا خلط بقليل من المسك وماء الورد وشرب على الريق نفع من ضيق النفس ،وإذا وضع في بيت لم تدخله حية ولا عقرب .

حرباء : دويبة صغيرة على هيئة السمك ورأسها تشبه رأس الحجل ، إذا رأت الإنسان انتفشت وكبرت ، ولها أربعة أرجل وسنام كهيئة الجمل ، ولها كنى كثيرة منها أم قرة ، ويقال لها جمل اليهود وهي أبداً تطلب الشمس فمن أجل ذلك يقال إنها مجوسية وتستقبلها بوجهها وتدور معها كيفما دارت فاذا غابت الشمس أخذت في كسبها ومعاشها ، ويقال إن لسانها طويل نحو ذراع وهو مطوي في حلقها فلذلك تخطف به ما بعد عنها من الذباب وتبتلعه . والأنثى من هذا النوع تسمى أم حبين ، ويقال إنّ الصبيان ينادونها : أم حبين انشري برديك ، إن الأمير ناظر إليك ، وضارب بسوطه جنبيك . فاذا زادوا عليها نشرت جناحيها وانتصبت على رجليها ، فاذا زادوا عليها أيضاً نشرت أجنحة أحسن من تلك ملوّنة . وإذا مشت تطأطىء برأسها وتتلّون ألواناً ولذا يقال يتلوّن كالحرباء .

حمار أهلي : معروف ليس في الحيوان من ينزو على غير جنسه إلا هو والفرس ونزوه بعد تمام ثلاثين شهراً ، وكنيته أبو محمود ، وأبو جحش وغير ذلك ، وهو أنواع فمنه ما هو لين الأعطاف سريع الحركة ، ومنه ما هو بضد ذلك ويوصف بالهداية إلى سلوك الطريق .

لطيفة : في الحديث عن النبيّ ﷺ أنه لما فتح خيبر أصاب حماراً أسود فكلمه فقال ما اسمك ؟ فقال يزيد بن شهاب أخرج الله تعالى من نسل جدي ستين حماراً كلها لا يركبها إلا نبيّ ، ولم يبق من الأنبياء غيرك ، وكنت أتوقعك لتركبني ، وأنا عند يهودي يجيع بطني ، ويضرب ظهري ، وكنت أعثر به عمداً فسماه النبيّ ﷺ يعفوراً وقال له : أتشتهي الإناث قال لا وكان ﷺ يركبه في حوائجه ، وإذا أراد حاجة عند إنسان أرسله إليه فيدفع الباب برأسه فيخرج صاحب البيت فيعرفه ويقضي حاجته ، فلما توفي النبي ذهب إلى بئر كانت لأبي الهيثم فتردّى فيها جزعاً على النبيّ ﷺ فكانت قبره . وقيل هذا الحديث منكر ، وقد ذكره السهيلي في التعريف والاعلام ، وللناس في ذمه ومدحه أقوال متباينة بحسب الأغراض ، فمن مدحه أن أبا صفوان وجد راكباً على حمار فقيل له في ذلك . فقال : عير هنيء من نسل الأكراد ، يحمل الرحل ويبلغ العقبه ، ويمنعني أن أكون جباراً في الأرض . وقال آخر هو أقل الدواب مؤنة ، وأكثرها معونة ، وأخفضها مهوى ، وأقربها مرتعاً وكان حمار أبي يسارة مثلاً في الصحة والقوّة وهو حمار أسود حمل الناس عليه من منى إلى المزدلفة أربعين سنة . وكان خالد بن صفوان ، والفضل بن عيسى الرقاشي يختاران ركوب الحمار ويجعلان أبا يسارة قدوة لهما وحجة . ومَنْ ذمّه ما نقل عن عبيد الحميد الكاتب أنه قال لا نركب الحمار فأنه إن كان فارها أتعب

يدك ، وإن كان بليداً أتعب رجلك . وقيل ما ينبغي لمركب الدجال أن يكون مركباً للرجال . وقال أعرابيّ : الحمار بئس المطية إن أوقفته أدلى ، وإن تركته ولى ، كثير الروث ، قليل الغوث ، سريع إلى الفرارة بطيء في الغارة لا توقى به الدماء ، ولا تمهر به النساء ،ولا يحلب في الإناء . قال الزمخشري :

إنّ الحمار ومن فوقه حماران شرّهما الراكب

ومن العرب من لا يركبه أبداً ولو بلغت به الحاجة والجهد . قيل : كان لرجل بالبادية حمار ، وكلب ، وديك . فالديك يوقظه للصلاة ، والكلب يحرسه إذا نام ، والحمار يحمل أثاثه إذا رحل . قال فجاء الثعلب فأكل الديك . فقال عسى أن يكون خيراً ، ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم عسى أن يكون خيراً ، ثم جاء الذئب فبقر بطن الحمار فقال عسى أن يكون خيراً . قال ثم إنّ جيرانه من الحيّ أغير عليهم فأخذوا فأصبح ينظر إلى منازلهم وقد خلتْ فقيل له إنما أخذوا بأصوات دوابهم . فقال : إنما كانت الخيرة في هلاك ما عندي فمن عرف لطف الله رضي بفعله .

حمام : هو أنواع كثيرة والكلام في الذي ألف البيوت وهو قسمان : أحدهما بري ، وهو الذي يوجد في القرى والآخر أهلي ، وهو أنواع وأشكال فمنه الرواعب ، والمراعيش ، والشداد ، والغلاب ، والمنسوب ، ومن طبعه أنه يطلب وكره ولو كان في مسافة بعيدة ولأجل ذلك يحمل الأخبار ومنه من يقطع عشرة فراسخ في يوم واحد ، وربما صيد وغاب عن وطنه عشر سنين وهو على ثبات عقله ، وقوة حفظه ، حتى يجد فرصة فيطير ويعود إلى وطنه ، وسباع الطير تطلبه أشدّ الطلب وخوفه من الشاهين أشدّ من غيره وهو أطير منه ، لكن إذا أبصره يعتريه ما يعتري الحمار إذا رأى الأسد ، والشاة إذا رأت الذئب ، والفأر إذا رأى الهر ، ومن طبعه أنه لا يريد إلاّ ذكره إلى أن يهلك أو يفقد أحدهما ، ويحب الملاعبة والتقبيل ويسفد لتمام أربعة أشهر ، ويحمل أربعة عشر يوماً ، ويبيض بيضتين ، ويحضن عشرين يوماً ، ويخرج من إحدى البيضتين ذكر ، والأخرى أنثى واتخاذها في البيوت لا بأس به غير أنه لا يجوز تطييرها والاشتغال بها ، والارتقاء بها على الأسطحة ، وعليه حمل أهل العلم قوله عليه الصلاة والسلام : « شيطان يتبع شيطانة حين رأى شخصاً يتبع حمامة » فان لم يحصل شيء مما ذكر جاز اتخاذها . قال رسول الله ﷺ : « اتخذوا الحمام في بيوتكم فانها تلهي الجنّ عن صبيانكم » واللعب بها من عمل قوم لوط . وقال النخعي :من لعب بالحمام لم يمت حتى يذوق ألم الفقر ولم يوجد شيء أبله من الحمام فانه تؤخذ أفراخه فتذبح في مكان ، ثم يعود في ذلك المكان ويبيض فيه ويفرخ . وقال الجاحظ : وللحمام من الفضيلة والفخر أن الحمامة قد تباع بخمسمائة دينار ، ولم يبلغ ذلك القدر شيء من الطير غيره ، وهو الهادر الذي جاوز الغاية . قالوا : ولو دخلت بغداد والبصرة وجدت ذلك بلا معاناة . ولو حدثت أن برذوناً أو فرساً بيع بخمسمائة دينار لكان ذلك سمراً ، وقد تباع البيضة الواحدة من بيض ذلك الحمام بخمسة دنانير ، والفرخ بعشرين . فمن

كان له زوج منه قام في الغلة مقام ضيعة ، وأصحابه يبنون من أثمانه الدور والحوانيت ، وهو مع ذلك ملهى عجيب ومنظر أنيق .

الخواص : دمه ينفع الجراحات العارضة للعين والغشاوة ويقطع الرعاف ، ويبريء حرق النار إذا خلط بالزيت منه ، وزبل الأحمر ينفع للسع العقرب إذا وضع عليه وإذا شرب منه مقدار درهمين مع ثلاثة دراهم دار صيني نفع من الحصاة .

(حرف الخاء)

الخطاف : أنواع كثيرة فمنه نوع دون العصفور رمادي اللون يسكن ساحل البحر ، ومنه ما لونه أخضر ، وتسميه أهل مصر الخطار ، ونوع طويل الأجنحة رقيق يألف الجبال ، ونوع أصفر ، يألف المساجد يسميه الناس السنونو ، وزعم بعضهم أنه الطير الأبابيل ، ويقال إن آدم عليه الصلاة والسلام لما أهبط إلى الأرض حصل له وحشة فخلق الله له هذا الطير يؤنسه فلأجل ذلك لا تجدها تفارق البيوت ، وهي تبني بيتها في أعلى مكان بالبيت ، وتحكم بنيانه وتطينه فإن لم تجد الطين ذهبت إلى البحر فتمرّغت في التراب والماء وأتت فطينته ، وهي لا تزبل داخله بل على حافته أو خارجاً عنه ، وعنده ورع كثير لأنه وإن ألف البيوت لا يشارك أهلها في أقواتهم ولا يلتمس منهم شيئاً ولقد أحسن واصفه حيث يقول :

كن زاهداً فيما حوته يد الورى   تبقى إلى كلّ الأنام حبيبا
وانظر إلى الخطاف حرّم زادهم   أضحى مقيماً في البيوت ربيبا

ومن شأنه أن لا يفرخ في عشّ عتيق ، بل يجدد له عشاً ، وأصحاب اليرقان يلطخون أفراخه بالزعفران فيذهب فيأتي بحجر اليرقان[1] ويلقيه في عشه لتوهمه أن اليرقان حصل لأولاده ، وهو حجر صغير فيه خطوط يعرفه غالب الناس ، فعند ذلك يأخذه من به اليرقان ويحكه ويستعمله ، ومن عجيب أمره أنه يكاد يموت من صوت الرعد ، وإذا عمي ذهب إلى شجرة يقال لها عين شمس فيتمرّغ فيها فيفيق من غشوته ويفتح عينيه .

لطيفة : قيل إن خطافاً وقف على قبة سليمان وتكلم مع خطافة وراودها عن نفسها فامتنعت . فقال لها تتمنعين مني ولو شئت قلبت هذه القبة . قال فسمع سليمان فدعاه وقال ما حملك على ما قلت ؟ فقال: يا نبيّ الله إن العشاق لا يؤاخذون بأقوالهم .

الخواص : مرارته تسوّد الشعر ولحمه يورث السهر ، وقلبه يهيج الباه ، إذا أكل جافاً ، ودمه يسكن الصداع .

خفاش : طير يوجد في الأماكن المظلمة وذلك بعد الغروب . وقبل العشاء لأنه لا يبصر نهاراً ، ولا

---

(١) اليرقان : ديدان يسطو على الزروع .

في ضوء القمر وقوته البعوض ، وهذا الوقت الذي يخرج فيه البعوض أيضاً لطلب رزقه فيأكله الخفاش فيتسلط طالب رزق ، على طالب رزق ، وهو من الحيوان الشديد الطيران . قيل إنه يطير الفرسخين في ساعة ، وهو يعمر مثل النسر وتعاديه الطيور فتقتله لأنه قيل إن عيسى عليه الصلاة والسلام لما سألته النصارى في طير لا عظم فيه صنع لهم ذلك باذن الله تعالى ، فهي تكرهه لأنه مباين لخلقتها ، ومن طبعه الحنو على ولده حتى قيل إنه يرضعه وهو طائر .

خنزير : حيوان معروف وله كنى كثيرة منها أبو جهم ، وأبو زرعة ، وأبو دلف وهو مشترك بين البهيمة والسبع لأنه ذو ناب ويأكل العشب والعلف وهو كثير الشبق حتى قيل إنه يجامع الأنثى وهي سائرة فيرى في مشيها ستة أرجل فيتوهم الرائي أنه حيوان بستة أرجل وليس كذلك ، والذكر منها يطرد الذكر مثله ، فمن غلب استقلّ بالنزو على الأنثى وتحرك أذنابها في زمن هيجانها وتطأطىء رأسها ، وتغير أصواتها وتحمل من نزوة واحدة ، وتحمل ستة أشهر وتضع عشرين ولداً ، وينزو الذكر إذا بلغ ستة أشهر ، وقيل أربعة باختلاف البلاد ، وقيل ثمانية وإذا بلغت الأنثى خمس عشرة سنة لا تحمل ، وهذا الجنس أسفد الحيوان ، والذكر أقوى الفحول وليس لذوات الأربع ما للخنزير في نابه من القوة حتى قيل إنه يضرب به السيف والرمح فينقطع ما لاقاه ، وإذا التقى ناباه من الطول مات ، لأنهما حينئذ يمنعانه من الأكل ، ومن عجيب أمره أنه يأكل الحيات ولا يؤثر فيه سمها ، وإذا عضّ كلباً سقط شعره ، وإذا مرض وأطعم السرطان يفيق ، ومن عجيب أمره أنه إذا ربط على ظهر حمار وبال الحمار وهو على ظهره مات ، ولا يسلخ جلده إلا بالقلع مع شيء من لحمه على ما ذكروا .

خنفساء : دويبة تتولد من عفونات الأرض وبينها وبين العقرب مودة ، وكنيتها أم فسو ، لأن كل من وضع يده عليها يشم رائحة كريهة .

فائدة : قيل إن رجلاً رأى خنفساء فقال ما يصنع الله بهذه . فابتلاه الله تعالى بقرحة عجز الأطباء فيها فبينما هو ذات يوم وإذا بطرقي يقول من به وجع كذا، إلى أن قال من به قرحة ، فخرج إليه ذلك الرجل فلما رأى ما به قال ائتوني بخنفساء فضحك منه الحاضرون فقال ائتوه بالذي يطلب فأتوه بها فأخذها وأخذ رمادها وجعل منه على تلك القرحة فبرئت فعلم ذلك المقروح أن الله تعالى ما خلق شيئاً سدى ، وأن في أخس المخلوقات أهمّ الأدوية ، فسبحان القادر على كل شيء .

الخواص : إذا قطعت رؤوس الخنافس وجعلت في برج الحمام كثر في ذلك البرج ، والاكتحال بما في جوفها من الرطوبة يحد البصر ، ويجلو الغشاوة والبياض ، وإذا بخر المكان بورق الدلب هربت منه الخنافس على ما ذكر .

خيل : جماعة الأفراس ، وسميت بذلك لأنها تختال في مشيتها وهي من الحيوان المشرّف ولقد مدحها الله تعالى ووصّى بها النبي عليه الصلاة والسلام فقال : « الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة » وقال : « عليكم بإناث الخيل فان ظهورها عز وبطونها كنز » . وروي عن ابن عباس أو علي رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لما أراد الله تعالى خلق الخيل أوحى إلى الريح الجنوب . وقال

إني خالق منك خلقاً فاجتمعي فاجتمعت ، فأتى جبريل فأخذ منها قبضة فخلق الله منها فرساً كميتا ، وقال خلقتك عربياً ، وفضلتك على سائر البهائم فالرزق بناصيتك ، والغنائم تقاد على ظهرك ، وبصهيلك أرهب المشركين وأعز المؤمنين ثم وسمه بغرة وتحجيل ، فلما خلق الله تعالى آدم قال له : يا آدم اختر أي الدابتين الفرس أو البراق ، فقال الفرس يا رب ، فقال الله تعالى : اخترت عزك وعز أولادك». وفي الحديث « ما من فرس إلا ويقول في كل يوم اللهم من جعلتني له فاجعلني أحب أهله إليه » وقيل الخيل ثلاثة : فرس للرحمن وهي المغزو عليها ، وفرس لك وهي التي تسابق عليها ، وفرس للشيطان وهي التي جعلت للخيلاء . وفي الحديث : « إن الملائكة لا تحضر شيئاً من اللهو إلا في مسابقة الخيل ، وملاعبة الرجل أهله » ولقد سابق النبي ﷺ على الخيل ، وقيل إن الذكر من الخيل أقوى من الأنثى . ولا يرد علينا ركوب جبريل في قصة موسى وفرعون الأنثى ، لأن ذلك من حكمة الله تعالى حتى تبعتها أحصنتهم فأغرقوا ، لأن الحصان إذا رأى الحجرة تبعها . وقيل إن الله تعالى أمر نبيه موسى عليه الصلاة والسلام أن يعبر البحر فعبره وهم خلفه فأعمى أعينهم عن الماء فكانوا يرون بلقعاً ، والخيل تراه ماء فلولا دخول جبريل البحر بفرسه لما دخلت خيلهم ، وهي أصناف : منها الصافنات وهي التي إذا ربطت في مكان وقفت على إحدى رجليها ، وقلبت بعض الأخرى في الوقوف ، وقيل غير ذلك ، وكانت الصافنات ألف فرس لسليمان عليه الصلاة والسلام فعرضها يوماً ففاتته الصلاة . قيل صلاة العصر ، فأمر بعقرها فعوضه الله عنها الريح فكانت فرسه ، وقيل إنما عقرها على وجه القربى كالهدى ، وقيل إن الفرس لا يحب الماء الصافي ولا يضرب فيه بيده ، كما يضرب بها في الماء الكدر فرحاً به ، فانه يرى شخصه في الماء الصافي فيفزعه ، ولا يراه في الماء الكدر ، وقد قيل في الحث على حب الخيل :

أحبوا الخيل واصطبروا عليها ... فــان الـعــزّ فيـهـا والجمـالا
إذا مـا الخيـل ضيعهـا أنـاس ... ربـطـنـاهـا فـأشـركت العيـالا
تقـاسمهـا المعيشـة كـل يـوم ... وتكسبنـا الأبـاعـر والجمـالا

(حرف الدال)

دابة : اسم لكل ما دبّ على الأرض ، وأما التي ذكرها الله تعالى في سورة سبأ ، فقيل الأرضة ، وقيل السوسة ، وسبب ذلك أن سليمان عليه الصلاة والسلام كان قد أمر الجن ببناء صرح فبنوه ، ودخل فيه وأراد أن يصفو له يوم واحد من دهره ، فدخل عليه شاب . فقال له : كيف دخلت من غير استئذان فقال أذن لي رب البيت ، فعلم سليمان أن رب البيت هو الله تعالى ، وأن الشاب ملك الموت أرسل ليقبض روحه ، فقال سبحان الله هذا اليوم طلبت فيه الصفاء ، فقال : طلبت ما لم يخلق ، قال وكان قد بقي من بناء المسجد الأقصى بقية ، فقال يا أخي يا عزرائيل أمهلني حتى يفرغ . قال : ليس في أمر ربي مهلة قال فقبض روحه وكان من عادته الانقطاع في التعبد شهرين وثلاثة ، ثم يأتي فينظر ما صنعت الجن ، فلما قبض كان متوكئاً على عصاه ، واستمر ذلك مدة والجن تتوهم أنه مشرف عليها فتعمل كل يوم بقدر عشرة أيام ، حتى أراد الله ما أراد فسلط على العصا الأرضة فأكلتها فخر ميتاً فتفرقت الجن عنه . وقيل إن واحداً منهم مر

عليه فسلم فلم يجبه فدنا منه فلم يجد له نفساً ، فحركه فسقطت العصا فاذا هو ميت . قال : وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة ، والعصا التي اتكأ عليها من خرنوب . قال الله تعالى : ﴿ **فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين** ﴾[1] قال فشكرت الجن الأرضة حتى قيل إنهم كانوا يأتونها بالماء حيث كانت . وأما الدابة التي من أشراط الساعة فاختلف في أمرها فقيل تخرج من الصفا وهو الصحيح . وقيل من الطائف ، وقيل من الحجر وطولها ستون ذراعاً ذات قوائم ، وهي مختلفة الألوان وذلك في ليلة يكون الناس مجتمعين بمنى أو سائرين إلى منى ، ومعها عصا موسى ، وخاتم سليمان لا يدركها طالب ، ولا يفوتها هارب ، تلحق المؤمن فتضربه بالعصا فتكتب في وجهه مؤمن ، وتدرك الكافر فتسمه بالخاتم ، وتكتب في وجهه كافر ، وروي أنها تخرج إذا انقطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلّ الخير .

داجن : هو ما يربيه الناس في البيوت من صغار الغنم ، والحمام ، والدجاج ، وغير ذلك وفي حديث **الإفك** « ما نعلم لها قضية غير أنها جارية حديثة السن ، تعجن وتنام فتأتي الداجن فتأكل العجين » .

دب : من السباع وكنيته أبو جهينة ، وأبو جهل ، وغير ذلك ولا يخرج زمن الشتاء حتى يطيب الهواء ، وإذا جاع يمص يديه ورجليه فيندفع جوعه ، وهو كثير الشبق وينعزل بأنثاه وتضع جرواً واحداً وتصعد به إلى أعلى شجرة خوفاً عليه من النمل لأنها تضعه قطعة لحم ثم لا تزال تلحسه وترفعه في الهواء أياماً حتى تنفرج أعضاؤه وتخشن ، ويصير له جلد . في ولادتها صعوبة وربما ماتت منها ، وقد تلده ناقص الخلق شوقاً منها للسفاد ، وهي من الحيوان الذي يدعو الإنسان للفعل به ، وقيل إن الدب يقيم أولاده تحت شجرة الجوز ثم يصعد فيرمي بالجوز إليها إلى أن تشبع ، وربما قطع من الشجرة الغصن العتل الضخم الذي لا يقطع إلا بالفأس والجهد ثم يشد به على الفارس فلا يضرب أحداً إلا قتله .

دجاجة : وكنيتها أم ناصر الدين ، وأم الوليد ، وغير ذلك وإذا هربت لم يبق لبيضها مح وتوصف بقلة النوم ، وقيل إن نومها بقدر ما تتنفس وعندها خوف في الليل ولأجل ذلك تطلب وقت الغروب مكاناً عالياً ، وتخشى الثعلب ، قيل إنها إذا رأته ألقت نفسها إليه من شدة الخوف ولا تخشى من بقية السباع . وقيل يعرف الذكر من الأنثى بامساك منقاره فان تحرك فذكر ، وإلا فأنثى : ومن الدجاج ما يبيض في اليوم مرتين وهو من أسباب موتها ، ويستكمل خلق البيضة في بطن الدجاجة في عشرة أيام، وفي الحديث : أن النبي ﷺ أمر باتخاذ الغنم للأغنياء ، وباتخاذ الدجاج للفقراء . ومن العجيب في صنعة الله تعالى أن خلق الفروج من البياض ، وجعل الصفار غذاء له ، كما خلق الطفل من المني ، وجعل دم الحيض غذاء له فتبارك الله أحسن الخالقين .

الخواص : لحم الدجاج الفتي يزيد في العقل ، ويصفي اللون ويزيد في المني ويقيم الباه ، والمداومة عليه تورث النقرس والبواسير على ما ذكر .

دج : طير كبير أغبر يكون بساحل البحر كثيراً ، وبالقرب من الاسكندرية ، والناس يصطادونه ويأكلونه .

---

(١) سورة سبأ الآية ١٤ .

دود : اسم جنس ومنه دود القزّ ويقال لها الهندية . ومن عجيب أمرها أنها تكون أوّلاً مثل بزر التين، ثم تصير دوداً وذلك في أوائل فصل الربيع ، ويكون عند خروجه مثل الذرّ في قدره ولونه ويخرج في الأماكن الدافئة ، إذا كان مصروراً في حق ، وربما تأخر خروجه فتجعله النساء تحت ثديهنّ فيخرج وغذاؤه ورق التوت الأبيض . قال ولا يزال يكبر حتى يصير بقدر أصبع ، وينتقل من السواد إلى البياض ، وكل ذلك في مدّة ستين يوماً . قال : ثم يأخذ في النسيج بما يخرجه من فيه إلى أن ينفد ما في جوفه ، ثم يخرج شيئاً كهيئة الفراش له جناحان لا يسكنان من الاضطراب وعند خروجه يهيج إلى السفاد ، ويلصق الذكر مؤخره إلى مؤخر الأنثى ويلتحمان مدّة ثم يفترقان ويكون قد فرش لهما خرقة بيضاء فينشران البزر عليها ثم يموتان : هذا إذا أريد منهما البزر ، وإن أريد الحرير تركا في الشمس بعد فراغهما من النسج فيموت ، وهو سريع العطب حتى إنه ليخشى عليه من صوت الرعد والعطاس ، ومسّ المرأة الحائض ، والرجل الجنب ، ورائحة الدخان ، والحرّ الشديد ، والبرد الشديد ، ونحو ذلك . قال أبو الفتح البستي :

ألم تـر أن المـرء طـول حـيـاتـه ... معني بـأمـر لا يـزال يعـالجـه
كـذلـك دود القـزّ ينـسـج دائـماً ... ويهلك غماً وسط ما هـو نـاسجـه

وقال آخر :

يفني الحـريص بجمـع المـال مدّتـه ... وللحـوادث مـا يبقي ومـا يـدع
كـدودة القـزّ مـا تبنيـه يهلكهـا ... وغيـرهـا بـالـذي تبنيـه ينتـفـع

ديك : وكنيته أبو حسان ، وأبو حماد ، وغير ذلك . ويسمى الأنيس والمؤانس ، ومن طبعه لا يألف زوجة واحدة ، وهو أبله الطبيعة لأنه إذا سقط من بيت أصحابه لا يهتدي إلى الرجوع إليه ، وفيه من الخصال الحميدة ما لا يحصر : منها أنه يساوي بين أزواجه في الطعمة ، ويذكر الله تعالى في الليل حتى قيل إنه ليوقته ، ويقسمه ، وربما لا يخرم في توقيته . وفي الحديث « إذا سمعتم صياح الديك فاذكروا الله تعالى فإنه يصيح بصياح ديك العرش » . وروى الغزالي عن ميمون بن مهران :إن لله ملكاً تحت العرش على صورة الديك . فإذا مضى ثلث الليل الأوّل ضرب بجناحه وقال ليقم المسلمون ، فاذا مضى الثلث الثاني ، ضرب بجناحيه وقال ليقم الذاكرون ، فإذا كان السحر وطلع الفجر ضرب بجناحيه وقال ليقم الغافلون وعليهم أوزارهم . وفي الحديث أن النبيّ ﷺ قال : « إنّ لله ديكاً أبيض له جناحان موشحان بالزبرجد ، والياقوت ، واللؤلؤ، جناح بالمشرق، وجناح بالمغرب ، ورأسه تحت العرش ، وقوائمه في الهواء فإذا كان ثلث الليل الأوّل خفق بجناحيه وقال : سبحان الملك القدّوس ، فإذا كان الثلث الثاني خفق بجناحيه وقال : قدّوس قدّوس ، فإذا كان الثلث الثالث خفق بجناحيه وقال : ربنا الرحمن الرحيم لا إله إلا هو » . وروى الثعلبي بإسناده عن النبيّ ﷺ أنه قال : ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى : صوت الديك ، وصوت قاريء القرآن ، وصوت المستغفر بالأسحار » . وفي الحديث : « لا تسبوا الديك فإنه يؤقت للصلاة » .

وزعم أهل التجربة أن الرجل إذا ذبح الديك الأبيض الأفرق لم يزل ينكب في أهله وماله .

نـادرة : قيل كان لإبراهيم بن مزيد ديك ، وكان كريماً عليه ، فجاء العيد وليس عنده شيء يضحي

عليه فأمر امرأته بذبحه واتخاذ طعام منه ، وخرج إلى المصلى فأرادت المرأة أن تمسكه ففرّ فتبعته فصار يخترق من سطح إلى سطح وهي تتبعه ، فسألها جيرانها وهم قوم هاشميون عن موجب ذبحه فذكرت لهم حال زوجها . فقالوا : ما نرضى أن يبلغ الاضطرار بأبي إسحاق إلى هذا القدر فأرسل إليه هذا ، شاة ، وهذا شاتين ، وهذا بقرة ، وهذا كبشاً حتى امتلأت الدار فلما جاء رأى ذلك قال ما هذا ؟ فقصت عليه زوجته القصة ، فقال : إنّ هذا الديك لكريم على الله فإنّ إسماعيل نبيّ الله فدي بكبش واحد وهذا فدي بما أرى .

(حرف الذال)

ذباب : وكنيته أبو جعفر ، وهو أصناف كثيرة يتولد من العفونة . ومن عجيب أمره أنه يلقي رجيعه على الأبيض يسودّ ، وعلى الأسود يبيض ولا يقعد على شجرة الدباء . وفي الحديث « إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه فانّ في أحد جناحيه دواء وفي الآخر داء » ، وإنّ من طبعه أن يلقي نفسه بالجناح الذي فيه الداء .

وحكي أن المنصور كان جالساً فألح عليه الذباب حتى أضجره . فقال انظروا من بالباب من العلماء ؟ فقالوا مقاتل بن سليمان فدعا به ، ثم قال له : هل تعلم لأي حكمة خلق الله الذباب ؟ قال ليذلّ به الجبابرة . قال صدقت ثم أجازه . ومن خصائص النبيّ ﷺ أنه كان لا يقع عليه ذباب قط . وقال المأمون : قالوا إنّ الذباب إذا دلك به موضع لسعة الزنبور سكن ألمه ، فلسعني زنبور فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة فما سكن له ألم ، فقالوا هذا كان حتفاً قاضياً ، ولولا هذا العلاج لقتلك . وقال الجاحظ : من منافع الذباب أنها تحرق وتخلط بالكحل ، فاذا اكتحلت به المرأة كانت عينها أحسن ما يكون . وقيل : إن المواشط تستعمله ويأمرن به العرائس ، وقيل إن الذباب إذا مات وألقي عليه برادة الحديد عاش ، وإذا بخر البيت بورق القرع هرب منه الذباب .

ذئب : حيوان معروف وكنيته أبو جعدة ، وأبو جاعد ، وأبو ثمامة ، لونه رمادي ، وهو من الحيوان الذي ينام بإحدى عينيه ويحرس بالأخرى حتى تملّ فيغمضها ويفتح الأخرى كما قال بعض واصفيه :

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي   بأخرى المنايا فهو يقظان هاجع

وإذا أراد السفاد اختفى ويطول في سفاده كالكلب ، وإذا جاع عوى فتجتمع الذئاب حوله ، فمن هرب منها أكلوه ، وإذا خاف منه الإنسان طمع فيه ، وليس في الأرض أسد يعضّ على عظم إلا ويسمع لتكسيره صوت بين لحييه إلا الذئب ، فإن لسانه يبري العظم بري السيف ولا يسمع له صوت . وقيل : إذا أدماه الإنسان فشمّ الذئب رائحة الدم لا يكاد ينجو منه ، وإن كان أشدّ الناس قلباً وأتمهم سلاحاً ، كما أن الحية إذا خدشت طلبها الذرّ ، فلا تكاد تنجو منه ، وكالكلب إذا عضّ الإنسان يطلبه الفأر فيبول عليه فيكون في ذلك هلاكه فيحتال له بكل حيلة . قيل : ولا يعرف الإلتحام عند السفاد إلا في الكلب والذئب ، وإذا هجم الصياد على الذئب والذئبة وهما يتسافدان قتلهما كيف شاء والله أعلم .

(حرف الراء)

رخ : طير عظيم الخلقة يوجد بجزائر الصين . قال أبو حامد الأندلسي : ذكر لي بعض المسافرين في البحر أنهم أرسوا بجزيرة ، فلما أصبحوا وجدوا في طرفها لمعاناً وبريقاً فتقدموا إليه وإذا هم بشيء مثل القبة قال فجعلوا يضربون فيه بالفؤوس إلى أن كسروه فوجدوه كهيئة البيضة وفيه فرخ عظيم قال فتعلقوا بريشه وجرّوه ونصبوا القدور وخرجوا يحتطبون من تلك الجزيرة حطباً يقال له حطب الشباب ، فلما أكلوا ذلك الطعام أسودّت لحية ولمة كل ذي شيب ، قال فلما أصبحوا جاءهم الرخ فوجدهم قد صنعوا بفرخه ما صنعوا ، فذهب وأتى في رجليه بحجر عظيم وتبعهم بعد ما ساروا في البحر وألقاه على سفينتهم فسبقت السفينة وكانت مشرعة بتسع قلوع ووقع الحجر في البحر فنجاهم الله تعالى منه ، وكان ذلك من لطف الله تعالى بهم ، وقال وقد كان بقي معهم أصل ريشة ، قيل إنهم كانوا يجعلون فيها الماء فتسع مقدار قربة ، فسبحان الخالق الأكبر .

رخم : طير أغبر أصفر المنقار معروف وهو من أشرّ الطيور ، ويقال انها صماء وسبب ذلك ما قيل في بعض الحكايات أن موسى عليه الصلاة والسلام لما توفي تكلمت بوفاته وكانت تعرف مكانه فأصمها الله تعالى حتى لا ترشد أحداً إلى موضعه .

(حرف الزاي)

زرافة : حيوان غريب الخلقة ، ولما كان مأكولها ورق الشجر خلق الله تعالى يديها أطول من رجليها ، وهي ألوان عجيبة يقال إنها متولدة من ثلاث حيوانات : الناقة الوحشية ، البقرة الوحشية ، والضبع فينزو الضبع على الناقة ، فتأتي بذكر فينزو ذلك الذكر على البقرة فتتولد منه الزرافة والصحيح أنها خلقة بذاتها ، ذكر وأنثى كبقية الحيوانات لأن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا بحكمة .

زنبور : حيوان فوق النحل له ألوان وقد أودعه الله حكمة في بنيانه بيته ، وذلك أنه يبنيه مربعاً له أربعة أبواب ، كل باب مستقل جهة من الرياح الأربعة ، فاذا جاء الشتاء دخل تحت الأرض ، ويبقى إلى أيام الربيع فينفخ الله تعالى فيه الروح فيخرج ويطير ، وفي طبعه التهافت على الدم واللحم ، ومن خاصيته أنه إذا وضع في الزيت مات ، وفي الخل عاش ، ولسعته تزال بعصارة الملوخية .

(حرف السين)

سعلاة : نوع من المتشيطنة . قال السهيلي : هو حيوان يتراءى للناس بالنهار ، ويغول بالليل وأكثر ما يوجد بالغياض ، وإذا انفردت السعلاة بإنسان وأمسكته صارت ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفأر ، قال وربما صادها الذئب وأكلها ، وهي حينئذ ترفع صوتها وتقول : أدركوني فقد أخذني الذئب ، وربما قالت من ينقذني منه وله ألف دينار ، وأهل تلك الناحية يعرفون ذلك فلا يلتفتون إلى كلامها .

سمندل : حيوان يوجد بأرض الصين ، ومن عجيب أمره أنه يبيض في النار ويفرخ فيها ويؤخذ وبره فينسج ويجعل منه المناشف ، وهذه المناشف إذا اتسخت جعلت في النار فتأكل النار وسخها ولا تحرقها .

حكي أن شخصاً بلّ واحدة من هذه المناشف بالزيت ، وجعلت في النار وأوقدت ساعة ولم تحترق .

سنجاب : حيوان كهيئة الفأر يوجد في بلاد الترك على قدر اليربوع إذا أبصر الإنسان هرب منه ، وشعره كشعر الفأر ، وهو ناعم فيؤخذ ويسلخ جلده ويجعل فرواً يلبس ، وطبعه موافق لكل طبع وأحسنه الأزرق .

سنور : حيوان متواضع ألوف خلقه الله تعالى لدفع الفأر والحشرات ، كناه وأسماؤه كثيرة .

حكي أن اعرابياً صاد سنّوراً فرآه شخص . فقال ما تصنع بهذا القط ؟ ولقيه آخر فقال ما تصنع بهذا الخيدع ؟ ولقيه آخر فقال ما تصنع بهذا الخيطل ؟ ولقيه آخر فقال ما تصنع بهذا الهر ؟ قال أبيعه.قال له بكم قال بمائة درهم فقال إنه يساوي نصف درهم . قال فرمى به وقال لعنه الله ما أكثر أسماءه وأقل قيمته ، وهذا الحيوان يهيج في زمان الشتاء في شهرين منه . وتراهن يتردّدن صارخات في طلب السفاد ، فكم من حرة خجلت ، وذي غيرة هاجت حميته ، وعزب تحركت شهوته . وطيب فم السنور كطيب فم الكلب في النكهة ، وقيل إنّ الهرة تحمل خمسين يوماً وهو يجمع بين العض بالناب والخمش بالمخلاب وليس كل سبع كذلك ، وهو يناسب الإنسان في بعض الأحوال فيعطس ويتمطى ، ويغسل وجهه بلعابه ويلطخ وبر ولده بلعابه حتى يصير كأن الدهن يسري في جلده . وقيل إذا بال الهرّ وشم بوله ودفنه ، قيل لأجل الفأر فاذا شمه علم أن هناك هراً فلم يخرج ، وأما سنور الزباد فهو بأرض الهند ويوجد الزباد تحت إبطيه وفخذيه .

سوس : هو دود الحبوب والفاكهة ، ومن الفوائد التي تكتب في الحبوب فلا تسوّس أسماء الفقهاء السبعة الذين كانوا بالمدينة ، وقد نظمها بعضهم فقال :

ألا كل من لا يقتدي بأئمة ... فقسمته ضيزى[1] عن الحق خارجة

فخذهم عبيد الله عروة قاسم ... سعيد أبو بكر سليمان خارجة

(حرف الشين)

شادهوار : حيوان يوجد بأرض الترك يقال إن له قرناً عليه اثنتان وسبعون شعبة مجوّفة فاذا هبت الريح سمع لها تصويت عجيب يكاد يدهش وربما قيل إن فيه شعبة يورث سماعها البكاء والحزن ، وأخرى تورث الفرح والضحك ، وأنه أهدي إلى بعض الملوك شيء من شعبها فرأى فيه ذلك . ويقال إن من الحيوان شيئاً يوجد بالغياض في قصبة أنفه اثنا عشر ثقباً ، إذا تنفس يسمع له صوت كصوت المزمار ، فتأتيه الحيوانات لتسمعه فتدهش فيغفل بعضها من الصرب فيثب عليه فيأخذه ويأكله وهي تعلم ذلك منه وتحترز ، فاذا لم يمسك منها شيئاً ضاق خلقه ، وصاح بها صيحة فتهرب وتتركه .

شاهين : طير يكون كهيئة الصقر إلا أنه عظيم الهامة ، واسع العينين ومزاجه أيبس من مزاج الصقر ، وحركته من العلو إلى أسفل أقوى ولذلك ينقض على الطير بشدة فربما يخطئه فيضرب نفسه بالأرض بشدة فيموت ، وقيل أوّل من صاده قسطنطين ، وذلك أنه قد جعل له الحكماء الشواهين تظله من الشمس إذا سار ، فاتفق في بعض الأيام أنه ركب فدارت الشواهين عليه وسار . قال فطار واحد منها وانقضّ على صيد فأخذه فأعجب الملك ذلك وصار يتصيد به .

---

(١) ضيزى : غير منصفة .

شحرور : طير أسود فوق العصفور يصوّت بأصوات عجيبة مطربة .

(حرف الصاد)

صرد : حيوان يسمى الصرصار على قدر الخنفساء له جناحان ويقال له الصوام لأنه أوّل طير صام يوم عاشوراء .

صعو : طير من صغار العصافير أحمر الرأس .

(حرف الضاد)

ضأن : نوع من الحيوانات ذوات الأربع وهو من الحيوانات المباركة تحمل الأنثى منه بواحد واثنين ، وفيها البركة وغيرها تحمل بالسبعة والتسعة ، وليس فيها بركة ، وإذا رعت زرعاً نبت عوضه وذلك لبركتها بخلاف غيرها من ذوات الأربع ، ومن عجيب أمرها أنها إذا رأت الذئب تخور وتخاف منه ولا تخاف من سائر السباع . قال بعض القصاص : مما أكرم الله تعالى به الكبش أن خلقه مستور العورة من قبل ، ومن دبر ومما أهان به التيس أن خلقه مهتوك الستر مكشوف العورة من قبل ومن دبر ، ويقال الضأن من دواب الجنة وهي صفوة الله من البهائم . ويقال في المدح هو كبش من الكباش ، وفي الذم هو تيس من التيوس . وأهدى بعضهم إلى صديقه شاة هزيلة فقال :

تقــول لي الأخـوان حــين طبختهــا أتـطبخ شـطر نجا عـظاماً بـلا لحم

ومن العجب أن يأتي غنم من الهند ، للكبش منها ألية في صدره ، وأليات في كتفيه ، وألية على ذنبه وربما تكبر ألية الضأن حتى تمنعه من المشي ، ومن عجيب أمرها أنها إذا تسافدت وقت المطر لا تحمل ، وعند هبوب الريح إن كانت شمالية حملت ذكراً ، أو جنوبية حملت أنثى والله أعلم .

ومن خواصها أن لحمها ينفع للسوداء ويزيد في المني والباه ، وإذا تحملت المرأة بصوفها قطع حبلها ، وإذا غطى إناء العسل بصوف الضأن الأبيض منع وصول النمل إليه ، وإذا دفن قرن كبش تحت شجرة كثر حملها على ما ذكر ، والله أعلم .

ضبّ : حيوان يجعل جحره في الأرض الصلدة وعنده بلد فربما لا يهتدي لجحره إذا خرج منه ، فلذلك لا يحفره إلا بقرب كودية ، أو إشارة وهو من الحيوان الذي يعمر ، قيل إنه يعيش سبعمائة سنة ومن طبعه أنه يصبر على الماء . يقال إنه لا يشرب فانه يبول في كلّ أربعين يوماً قطرة ، والأنثى تبيض سبعين بيضة وأكثر وتجعلها في الأرض وتتعاهدها في كلّ يوم إلى أربعين يوماً فيخرج وبيضها قدر بيض الحمام ، وهذا الحيوان شديد الخوف من الآدمي ، ولذلك يجعل العقارب في جحره حتى يمتنع بها ، ويخرج من جحره كليل البصر فيستقبل الشمس فيحصل له بذلك حدّة في بصره وإذا عطش تنشق النسيم فيروى ، وبينه وبين الأفاعي مناسبة وذلك أنه لا يخرج زمن الشتاء .

فائدة : قيل إن أعرابياً أتى النبي ﷺ وفي كمه ضبّ قد صاده وقال لولا أن تسميني العرب عجولاً لقتلتك وسررت الناس بقتلك . فقال عمر : دعني يا رسول الله أقتله فقال عليه الصلاة والسلام : « مهلاً يا

عمر أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبياً » ، قال ثم أقبل الأعرابي على النبيّ ﷺ وقال والله لا آمنت بك إلا أن يؤمن بك هذا الضب ، وأخرجه من كمه قال فعند ذلك قال النبيّ ﷺ يا ضب فأجابه بلسان فصيح لبيك وسعديك يا رسول رب العالمين فقال من تعبد قال الذي في السماء عرشه ، وفي الأرض سلطانه ، وفي البحر سبيله ، وفي الجنة رحمته ، وفي النار عذابه ، فقال من أنا يا ضبّ . قال : رسول رب العالمين قد أفلح من صدّقك وقد خاب من كذبك . قال فقال الاعرابي عند ذلك يا ويلاه ضب اصطدته بيدي من البرية يشهد لك بالرسالة ، أنا أولى منه بذلك هات يدك أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله حقاً ولقد أتيتك وما على وجه الأرض أحد أكثر بغضاً مني لك . ولقد صرت الآن اذهب من عندك وما على وجه الأرض أحد أكثر محبة مني لك ، ولأنت الســاعة أحب إليّ ، من أهلي وولدي وما تملك يدي فقد آمن بك شعري وبشري ، وداخلي وخارجي وسرّي وعلانيتي . فقال النبي ﷺ : « الحمد لله الذي هداك لهذا الدين الذي يعلو ولا يعلى عليه ، ولكن لا يقبله الله إلا بصلاة ، ولا يقبل الصلاة إلا بقراءة » . قال فعلمني يا حبيبي قال فعلمه سورة الفاتحة ، وسورة الاخلاص . وقال من قرأها ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن . وقال إلهنا يقبل اليسير ، ويعفو عن الكثير ، ثم سأله ألك مال فقال يا حبيبي ليس في بني سليم أفقر مني . فقال لأصحابه أعطوه فأعطوه حتى أثقلوه . فقال عبد الرحمن بن عوف يا رسول الله عندي ناقة عشارية أعطيها له . فقال : إن الله يعطيك ناقة في الجنة من درة ، قوائمها من الزبرجد الأخضر ، وعيناها من الياقوت الأحمر ، وعليها هودج من السندس تخطفك من الصراط كالبرق . قال فخرج الأعرابي من عنده فتلقاه ألف فارس من المشركين كلهم يريدون قتل النبي ﷺ . فأخبرهم بقصته فأسلموا عن آخرهم . وأمّر النبيّ ﷺ خالد بن الوليد عليهم وهذه القصة ذكرها الدارقطني بتمامها والبيهقي ، والحاكم ، وابن عدي .

الخواص : قلبه يذهب الحزن والخفقان ، وشحمه يطلى به الذكر يزيد في الباه ، وكعبه يشد على وجع الضرس ، يبرأ وإذا جعل على وجه فرس لا يسبقه شيء ، وبعره يذهب البرص والكلف طلاء ، ومن أكل لحمه لا يعطش زماناً طويلاً .

ضبع : حيوان معروف ، ومن كناه أم عامر ، ومن طبعه حبّ لحم الآدمي حتى قيل إنه ينبش القبور ، وإذا مرّ بإنسان نائم حفر تحت رأسه ووثب عليه وبقر بطنه وشرب دمه .

الخواص : من شرب دمه ذهب وسواسه ، ومن علق عليه عينه أحبه الناس ، وإذا جعلها في خل سبعة أيام ثم جعلها تحت فص خاتم فكل من كان به سحر وجعل الخاتم في قليل ماء وشربه زال سحره .

ضفدع : حيوان يتولد من المياه الضعيفة الجري ، ومن العفونات ، وعقيب الأمطار وأول ما يظهر مثل الحب الأسود ثم ينمو ثم تتشكل له الأعضاء ، وإذا نقّ جعل فكه الأسفل في الماء والأعلى من خارج وفي صوته حدة . قال سفيان ليس من الحيوانات أكثر ذكراً لله تعالى من الضفدع . وفي الآثار أن داود عليه الصلاة والسلام قال لأسبحن الله تعالى بتسبيح ما سبحه أحد قبلي ، فنادته ضفدعة يا داود : تمنّ على الله تعالى بتسبيحك ؟ وأنا لي تسعون سنة ما جف لساني عن ذكر الله تعالى . قال فما تقولين في تسبيحك ؟ قالت أقول : سبحان من هو مسبح بكل لسان ، سبحان من هو مذكور بكل مكان ، فقال داود وما عسى أن أقول ؟ وقال بعضهم : إنها كانت تأخذ الماء بفيها وتجعله على نار إبراهيم الخليل والله سبحانه وتعالى أعلم .

(حرف الطاء)

طاوس : طير مليح ذو ألوان عجيبة ، وعنده الزهوّ في نفسه ، والعجب ، ومن طبعه العفة وهو من الطير ، كالفرس من الحيوان ، والأنثى تبيض حين يمضي لها من العمر ثلاث سنين وفي ذلك الأوان يكمل ريش الذكر ، ويتم لونه . وتبيض الأنثى مرة واحدة في كل شهر ، ففي السنة اثنتا عشرة بيضة أو أقل ، أو أكثر ويسفد الذكر في أيام الربيع ويرمي ريشه في أيام الخريف كالشجر فاذا بدا طلوع الورق طلع ريشه ، ومدة حضنه ثلاثون يوماً .

فائدة : قيل ان آدم لما غرس الكرمة جاء إبليس لعنه الله فذبح عليها طاوساً فشربت دمه فلما طلعت أوراقها ذبح عليها قرداً فشربت دمه ، فلما طلعت ثمرتها ذبح عليها أسداً فشربت دمه فلما انتهت ثمرتها ذبح عليها خنزيراً فشربت دمه ، فمن أجل ذلك تجد شارب الخمر أول ما يشربها وتدب فيه يزهو بنفسه ، ويميس عجباً كالطاوس ، فاذا جاء مبادى السكر لعب وصفق بيديه كالقرد ، فاذا قوي سكره قام وعربد كهيئة الأسد ، فاذا انتهى سكره انقبض كما ينقبض الخنزير ، ثم يطلب النوم والناس تتشاءم باقامته بالدور قيل لأنه كان سبباً لدخول إبليس الجنة وخروج آدم منها ، والله على كل شيء قدير .

(حرف الظاء)

ظبي : واحد الغزلان وهو ثلاثة أصناف : الأول الآرام وهو ظباء الرمل ولونها رمادي وهي سمينة العنق ، والثاني العفر ولونها أحمر وهي قصيرة العنق ، والثالث الأدم وهي طويلة العنق وتوصف بحدة البصر . وقيل إن الظبي يقضم الحنظل قضماً ويمضغه مضغاً ، وماؤه يسيل من شدقيه ويرد الماء الملح فيشرب الماء الأجاج ، ويغمس خرطومه فيه كما تغمس الشاة لحييها في الماء العذب ، فأي شيء أعجب من حيوان يستعذب ملوحة البحر ويستحلي مرارة الحنظل .

الخواص : لسانه يجفف ويطعم للمرأة السليطة تزول سلاطتها ، وبعره وجلده يحرقان ويسحقان ويجعلان في طعام الصبي ، يزيد ذكاؤه ويصير فصيحاً ذلقاً حافظاً .

ظربان : دويبة فوق جرو الكلب ، منتنة الريح تزعم العرب أن من صادها وفست في ثوبه لا تزول الرائحة منه حتى يغلي الثوب . ويحكى من شؤمها أنها تأتي بيت الظبي فتفسو فيه ثلاث مرات فتقتل ما فيه وتأكله بعد ذلك .

(حرف العين)

عجل : حيوان معروف ، وهو ذكر البقر وسمي بذلك لاستعجال بني إسرائيل بعبادته ، والسبب في ذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام وقت الله له ثلاثين ليلة ، ثم أتمها بعشر ، وكان فيهم شخص يسمى موسى بن ظفر السامري في قلبه من حب عبادة البقر شيء ، فابتلى الله به بني إسرائيل فقال : ائتوني بحلي قال فأتوه بجميع حليهم فصنع منه عجلاً جسداً ، وألقى عليه قبضة من التراب الذي كان أخذه من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار له خوار ، كما أخبر الله تعالى ، فعكفوا على عبادته من دون الله تعالى وكانوا

يأتون إليه ويرقصون حوله ويتواجدون فيخرج منه تصويت كهيئة الكلام فيتعجبون من ذلك ، ويظنون أنه تكلم وإنما فعل ذلك بإغواء إبليس لعنه الله حتى يطغيهم .

فائدة : نقل القرطبي عن سيدي أبي بكر الطرطوشي رحمهما الله ، أنه سئل عن قوم يجتمعون في مكان فيقرأون من القرآن ، ثم ينشد لهم الشعر فيرقصون ويطربون ، ثم يضرب لهم بعد ذلك بالدف والشبابة . هل الحضور معهم حلال أم حرام ؟ فقال : مذهب الصوفية أن هذه بطالة وجهالة وضلالة ، وما الاسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذوا العجل فهذه الحالة هي حالة عبّاد العجل ،وإنما كان النبي ﷺ ومع أصحابه في جلوسهم كأنما على رؤوسهم الطير مع الوقار والسكينة ، فينبغي لولاة الأمر وفقهاء الإسلام أن يمنعوهم من الحضور في المساجد وغيرها ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم . هذا مذهب الشافعي ، وأبي حنيفة ، ومالك ، وأحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى .

عقرب : هو من الحشرات . قال الجاحظ : إنها تلد من فيها مرتين ، وتحمل أولادها على ظهرها وهم كهيئة القمل كثيرو العدد ، وقال غيره إذا حملت تسلط عليها أولادها فأكلوا بطنها وخرجوا كهيئة الذر ثم يكبرون ويطوفون بالأرض ولها ثمانية أرجل ، ومن عجيب أمرها أنها لا تضرب النائم إلا إذا تحرك شيء منه ، والخنافس تأوي إليها وربما لسعت التنين العظيم فقتلته .

غريبة : قال ذو النون المصري بينما أنا في بعض سياحتي إذ مررت بشاطيء البحر فرأيت عقرباً أسود قد أقبل إلى أن جاء إلى شاطىء البحر فظننت أنه يشرب فقمت لأنظر فاذا بضفدع قد خرج من الماء وأتاه فحمله على ظهره وذهب به إلى ذلك الجانب . قال ذو النون فاتزرت بمنزري وعمت خلفه ، حتى إذا صعد من ذلك الجانب صعدت وسرت وراءه فما زال حتى جاء إلى شجرة فوجدت تحتها غلاماً نائماً من شدة السكر قد أقبل عليه تنين عظيم . قال فلصقت العقرب برأس التنين ولسعته فقتلته ، ثم رجعت إلى ظهر الضفدع فعبر بها الماء وسار بها إلى المكان الذي جاءت منه . قال ذو النون فتعجبت وأنشدت :

يا راقداً والجليل يحفظه   من كل سوء يكون في الظلم
كيف تنام العيون عن ملك   يأتيك منه فوائد النعم

ثم أيقظت الغلام وأخبرته بذلك . قال فلما سمع ذلك قال أشهدك عليّ أني قد تبت عن هذه الخصلة ثم جرينا ذلك التنين ورميناه في البحر ولبس ذلك الغلام مسحاً وساح إلى أن مات رحمة الله تعالى عليه وما أحسن ما قال بعضهم :

إذا لم يسالمك الزمان فحارب   وباعد إذا لم تنتفع بالأقارب
ولا تحتقر كيد الضعيف فربما   تموت الأفاعي من سموم العقارب
فقد هدّ قدما عرش بلقيس هدهد   وخرّب فأر قبل ذا سد مأرب
إذا كان رأس المال عمرك فاحترز   عليه من التضييع في غير واجب
فبين اختلاف الليل والصبح معرك   يكر علينا جيشه بالعجائب

فائدة : إذا لدغ أحد فاقرأ عليه هذه الكلمات وهي : سلام على نوح في العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد في المرسلين من حاملات السم أجمعين ، لا دابة بين السماء والأرض إلا ربي آخذ بناصيتها كذلك يجزي عباده المحسنين ، إن ربي على صراط مستقيم . نوح قال لكم من ذكرني لا تلدغوه ، إن ربي بكل شيء عليم ، وصلى الله على سيدنا محمد الكريم . وقال بعض العلماء : من قال عقدت زبان العقرب ، ولسان الحية ، ويد السارق بقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أمن من العقرب ، والحية ، والسارق ، وفي البخاري : أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ ، وقال يا رسول الله ماذا لقيت من عقرب لدغتني البارحة ، فقال له النبي ﷺ : « أما إنك لو قلت إذا أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرك » وروى الترمذي : « ان من قال حين يمسي أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ثلاث مرات ، ثم قال سلام على نوح في العالمين لم تضره الحية والعقرب » والسر في ذكر نوح دون غيره هو ، أنه لما ركب في السفينة سألته الحية والعقرب أن يحملهما معه فشرط عليهما أنهما لا يضران من ذكر اسمه بعد ذلك فشرطا له ذلك .

الخواص : من بخر البيت بزرنيخ أحمر وشحم بقر ، هربت منه العقارب ، ومن شرب مثقالين من حبّ الأترج أبرأه من سمها ، ومن علق عليه شيء من ورق الزيتون بريء أيضاً لوقته .

عقعق : طير ذو لونين طويل الذنب قدر الحكامة على شكل الغراب وجناحاه أكبر من جناحيّ الحمامة وهو لا يأوي إلا الأماكن العالية ، وإذا باض جعل حول بيضه ورق الدلب خوفاً عليه من الخفاش لا يفسده .

الخواص : دمه إذا جعل على قطن وألصق على موضع النصل ، والشوكة الغائبة في البدن أخرجه .

علق : دود أحمر وأسود يكون بالماء يعلق بالخيل والادمي ، فاذا علقت بك فرش عليها ماء وملحاً ، وإذا علقت بفرس فبخره بوبر الثعلب فإنها تنفصل من رائحة دخانه .

ومن خواصه : أن البيت إذا بخر به هرب ما فيه من البقّ والبعوض وإذا جفف وسحق وقلع الشعر وطلي به مكانه منع نباته .

عنقاء : اختلف فيها ، فقال بعضهم هو طائر عظيم الخلقة له وجه إنسان ، وفيه من كل حيوان لون . وقال بعضهم هو طائر غريب الشكل يبيض بيضاً كالجبال ، ويبعد في طيرانه ، وسميت بذلك لأنه كان في عنقها طوق أبيض ، قال القزويني : إنها تخطف الفيلة لعظمها وكبر جثتها كما تخطف الحدأة الفأر . وقال : وكانت في قديم الزمان بين الناس إلى أن خطفت عروساً بحليها فذهب أهلها إلى نبيّ ذلك الزمان فشكوها إليه فدعا عليها ، فذهب بها إلى بعض الجزائر التي خلف خط الاستواء وهي جزيرة لا يصل إليها أحد وجعل لها فيها ما تقتات به من السباع كالفيل والكركند وغير ذلك . وقال أصحاب التواريخ : إن هذا الطير يعمر حتى قيل إنه يعيش ألفي سنة ويتزوّج إذا مضى عليه خمسمائة .

وحكى الزمخشري في ربيع الأبرار أن الله تعالى خلق في زمن موسى عليه الصلاة والسلام طيراً يقال له العنقاء له وجه كوجه الإنسان ، وأربعة أجنحة من كل جانب ، وخلق له أنثى مثله ، ثم أوحى الله تعالى

إلى موسى أني خلقته كهيئة الطير ، وجعلت رزقه الوحوش والطير التي حول بيت المقدس . قال : فتناسلا وكثر نسلهما ، فلما توفي موسى عليه الصلاة والسلام انتقلت إلى نجد والعراق فلم تزل تأكل الوحوش وتخطف الصبيان إلى أن تنبأ خالد بن سنان العبسي فشكوها له فدعا عليها فانقطعت وانقطع نسلها وانقرضت .

عنكبوت : دويبة لها ثمانية أرجل وستة عيون وهو من الحيوان الذي صيده الذباب ، وولده يخرج قوياً على النسج من غير تعليم ولا تلقين ، ويخرج أولاده دوداً صغيراً ثم يتغير ويصير عنكبوتاً وتكمل صورته .

فائدة : قيل إن إمرأة ولدت جارية ثم قالت لخادم لها : اقتبس لنا ناراً ، فخرج فوجد بالباب سائلاً فقال له ما ولدت سيدتك ؟ فقال بنتاً ، فقال لا تموت حتى تبغي بألف رجل ويتزوّجها خادمها ويكون موتها بالعنكبوت ، فقال الخادم : وأنا أصبر لهذه حتى يحصل منها ما يحصل فصبر حتى قامت أمها لتقضي بعض شؤونها وعمد إلى البنت فشقّ بطنها بسكين وهرب . قال : فجاءت أمها فوجدتها على تلك الحالة فدعت بمن يعالجها حتى شفيت فلما كبرت بغت . قال : ثم إنها سافرت وأتت مدينة على ساحل من سواحل البحر فأقامت هناك تبغي . قال وأما الرجل فانه صار من التجار وقدم بتلك المدينة ومعه مال كثير فقال لامرأة عجوز هناك : اخطبي لي امرأة حسنة أتزوّج بها . قال : فوصفتها له وقالت ليس هنا أحسن منها ولكنها تبغي ، فقال للعجوز ائتني بها . قال فذهبت وأخبرتها بالقصة ، فقالت لها حباً وكرامة فإني قد تبت عن البغي ، فتزوّج الرجل بها وأحبها حباً شديداً وأقام معها أياماً ، وكان يودّ أن يراها متجردة فلم يمكنه ذلك ، حتى إذا كان في بعض الأيام خرج على عادته لقضاء أشغاله ودخلت هي الحمام وعرضت له حاجة فرجع إلى الدار وصعد إلى قصرها فلم يرها ، فسأل عنها فقيل له هي في الحمام فدخل عليها فرآها متجرّدة ، ورأى في بطنها أثراً كالخياطة ، فقال ما هذا ؟ قالت له : لا أعلم إلا أن أمي أخبرتني أنه كان لنا خادم وأنه يوم ولادتي غافل أمي ، وشقّ بطني بسكين وهرب ، وأنها حين رأتني كذلك دعت بعض الأطباء فخاط بطني وعالجني حتى اندمل جرحي وشفيت وبقي هذا الأثر ، فقال لها : أنا ذلك الخادم وحكى لها السبب وأن ذلك السائل أخبره أنها تموت بالعنكبوت ، ثم إنه اهتّم بأمرها وجمع مهندسي البلدة التي هم فيها وسألهم أن يبنوا له بناء لا ينسج عليه العنكبوت ، فقالوا كلّ بناء ينسج عليه إلا أن يكون البلور لنعومته لا ينسج عليه ، فأمرهم أن يصنعوا لها قصراً من البلور وبذل لهم ما أرادوا فعملوه وفرشه ، وأمرها أن تقيم فيه ولا تخرج منه خوفاً عليها من العنكبوت . قال : فبينما هو ذات يوم إذ رأى عنكبوتاً قد نسج في ذلك القصر ، فقام إليه فرماه وقال لها : هذا الذي يكون موتك منه . قال : فداسته بإبهامها وقالت كالمستهزئة أهذا الذي يقتلني ! فشدخته فتعلق بطرف إبهامها من مائه شيء فعمل بها حتى ورمت ساقها ثم وصل الورم إلى قلبها فقتلها فما أفاده قصره ولا صرحه شيئاً . قال الله تعالى : ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة** ﴾[1] .

فائدة : نسج العنكبوت على ثلاثة مواضع : على غار النبيّ ﷺ ، وعلى غار عبد الله بن أنيس لما بعثه

---

(١) سورة النساء الآية ٧٨.

النبيّ ﷺ لخالد الهذلي فقتله وحمل رأسه ودخل به في غار خوفا من أهله ، ونسج على عورة زيد بن عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم لما صلب عرياناً . وقيل إنها نسجت مرتين على داود حين كان جالوت يطلبه .

الخواص : نسجها إن وضع على الجراح الطرية يقطع دمها ويجلو الفضة إذا دلكت به والذي يوجد من نسجها في بيت الخلاء ينفع المحموم إذا تبخر به .

ابن عرس : حيوان معروف وهو بأرض مصر كثير ويسمى العرسة ، وهو عدو للفأر وعنده الحيل ، قيل إنه عدا خلف فأر فصعد منه على شجرة فصعد خلفه وأمر أنثاه أن تقف تحت الشجرة ثم قطع الغصن الذي كان عليه الفأر فسقط فأخذته أنثاه . ومما يحكى عنه أنه يحب الذهب فيسرقه ويلد عليه .

عجيبة : قيل إن رجلاً صاد فرخاً من أولاده وحبسه تحت طاسة فجاء أبوه فوجده فذهب وأتى بدينار فوضعه فلم يفلته ، ثم ذهب وأتى بآخر ، وما زال كذلك حتى أتى بخمسة دنانير فلم يفلته ، ثم أتى بخرقة فأراد ابن عرس أن يأخذ ما برطله به ، فلما علم الرجل ذلك فهم أنه لم يبق عنده شيء فأفلته له .

(حرف الغين)

غراب : وكنيته أبو حاتم ، وله كنى غير ذلك وهو أنواع كثيرة : منها الأكحل ، وغراب الزرع ، والأزرق ، وهذا النوع يحكي جميع ما سمعه ، والعرب تتفاءل بصياح الغراب فتقول إذا صاح مرتين فشرّ ، وإذا صاح ثلاثة فخير . وهو كالإنسان عند الجماع ، وفي طبعه الاستتار عن الناس عند مجامعته ، والأنثى تبيض ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً وتحضن ذلك ، والأب يسعى في طعمتها الى أن تفرخ ، فاذا فرخت خرجت أفراخها قبيحة المنظر فتتفرق عنها وتتركها وتغيب فيرسل الله لها البعوض فتتغذى به ، ثم لا تزال تتعاهدها حتى ينبت لها الريش فتأتيها ، ومنه قول الحريري :

يـا رازق النعـاب في عـشـه وجـابر العـظم الكسير المهيض

ومن طبعه لا يتعاطى الصيد بل إن وجد رمة أكل منها ، ويقم من الأرض ما وجد ، ويسمى بالباسق لأنه لما أرسله نوح عليه السلام ليكشف عن الماء فوجد في طريقه رمة فسقط عليها وترك ما أرسل إليه ، ويسمى بالبين لأنه إذا رحل العرب من مكان نزل فيه وزعق في أثرهم . ومن الغرائب أن بين الغراب وبين الذئب إلفة ، وذلك أنه إذا رأى الذئب بقر بطن شاة سقط وأكل منها معه والذئب لا يضرّه .

الخواص : إذا غمس الغراب في الخل ثم جفف وسحق ريشه وطلي به الشعر سوّده ،وإذا علق منقاره على إنسان زالت عنه العين . وزبل الغراب الأبقع ينفع الخوانيق ، والخنازير طلاء ، وإن صرّ في خرقة على من به السعال زال .

غرغر : دجاج بني إسرائيل ، يقال إن فرقة من بني إسرائيل كانت بتهامة فطغت وبغت وتجبرت وكفرت فعاقبهم الله تعالى بأن جعل رجالهم القردة ، وكلابهم الأسود ، وعنبهم الأراك وجوزهم المقل ،

ودجاجهم الغرغر ، وهو دجاج الحبشة فلا ينفع لحمه لرائحته الكريهة وهذا مشاهد في زماننا هذا الآن على ما نقل ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(حرف الفاء)

فاختة : طير أغبر من ذوات الأطواق بقدر الحمام لها حسن الصوت ، يحكى أن الحيات تهرب من صوتها وفي طبعها الأنس ، فمن أجل ذلك تتخذ بيتها في البيوت وهي من الحيوان الذي يعمر وقد ظهر منها ما عاش خمساً وعشرين سنة .

فأرة : وكنيتها أم خراب وغير ذلك ، وتسمى بالفويسقة ، وذلك أن النبي ﷺ انتبه ليلة فوجدها قد جذبت الفتيلة وأحرقت طرف سجادته فقتلها وأمر بقتلها . وهي التي قطعت حبل سفينة نوح عليه السلام وأذاها لا يكاد ينحصر ، ومنه أنها تأتي إلى إناء الزيت فتشرب منه فاذا نقص صارت تشرب بذنبها فاذا لم تصل إليه ذهبت وأتت في فيها بماء وأفرغته فيه حتى يعلوها الزيت فتشربه ، وربما وضعت فيه حجراً فكسرته ويقال إنها من بقايا الممسوخين الذين كانوا يهوداً . ومن أراد أن يعلم ذلك فليضع لها لبن ناقة في إناء فان لم تشربه فهي منهم .

الخواص : عينه تشد على الماشي يسهل تعبه وإذا بخر البيت بزبل الذئب أو الكلب ذهب منه الفأر .

فرس البحر : حيوان غليظ ، يوجد بالنيل ،أفطس الوجه ، ناصيته كالفرس ، ورجلاه كالبقر ، وذنبه قصير يشبه ذنب الخنزير وجلده غليظ ، ووجهه أوسع من وجه الفرس ، يصعد البرّ ويرعى الزرع وربما قتل الإنسان وغيره .

فهد : حيوان شرس الأخلاق ، قال أرسطو : هو متولد من الأسد والنمر وفي طبعه مشابهة بطبع الكلب ونومه ثقيل ، وفي طبعه الحنوّ على أنثاه ، وقيل أوّل من صاد به كليب بن وائل ، وأوّل من حمله على الخيل يزيد بن معاوية ، وأكثر من اشتهر باللعب به أبو مسلم الخراساني .

فيل : حيوان يوجد بأرض الهند وكنيته أبو الحجاج . والأنثى أم سبل ، وهو ينزو على أنثاه إذا بلغ من العمر خمس سنين ، وتحمل أنثاه سنتين ثم تضع ، ولا يقربها الذكر في مدة حملها ولا بعده بثلاث سنين ولا يلقح إلا ببلاده . وإذا أرادت الوضع دخلت النهر لأن رجليها لا ينثنيان فتخاف عليه ، والذكر يحرسها خوفاً على ولده من الحيات فانها تأكله وهو عند شدة غلمته كالجمل ، ويهيج في زمن الربيع ، وزعم أهل الهند أن لسانه مقلوب ولولا ذلك لكان يتكلم لشدة ذكائه ، وقيل إن ثدييه في صدره كالانسان ، وهو أضخم الحيوان وأعظمه جرماً ، وما ظنك بخلق ربما كان نابه أكثر من ثلثمائة سنّ ، وهو مع ذلك أملح وأظرف من كل نحيف الجسم ، رشيق وربما مرّ الفيل مع عظم بدنه خلف القاعد فلا يشعر برجله ولا يحس بمروره لخفة همسه ، واحتمال بعض جسده لبعض ، وأهل الهند يزعمون أن أنياب الفيل قرناه يخرجان مستبطنين حتى يخرقان ، وخرطوم الفيل أنفه ويده ، وبه يتناول الطعام إلى جوفه ، وبه يقاتل ، وبه يصيح وصياحه ليس في مقدار جرمه ، وقيل إن الفيل جيد السباحة وإذا سبح رفع خرطومه ، كما يغيب الجاموس بدنه إلا منخريه

ويقوم خرطومه مقام عنقه ، والخرق الذي في خرطومه لا ينفذ وإنما هو وعاء إذا ملأه من طعام أو ماء أولجه في فيه لأنه قصير العنق ، لا ينال ماء ولا مرعى وأهل الهند تجعله في القتال وهو أيضاً يقاتل مع جنسه فمن غلب دخلوا تحت أمره ، وقيل جعل الله في طبع الفيل الهرب من السنور .

حكي عن هارون مولى الأزد أنه خبأ معه هراً ومضى بسيف إلى الفيل ، فلما دنا منه رمى بالهر في وجهه فأدبر هارباً وكبر المسلمون وظنوا أنه هرب منه . قال أبو الشمقمق :

يا قوم إني رأيت الفيل بعدكم   تبارك الله لي في رؤية الفيل
رأيت بيتاً له شيء يحركه   فكدت أفعل شيئاً في السراويل

وقيل : إذا اغتم الفيل لم يكن لسواسه (ج : سائس) همّ إلا الهرب بأنفسهم ويتركونه ، ومن عجيب أمره أن سوطه الذي به يحث ويضرب محجن حديد أحد طرفيه في جبهته ، والآخر في يد راكبه فاذا أراد شيئاً غمزه به في لحمه ، وأوّل شيء يؤدّبون به الفيل يعلمونه السجود للملك . قيل : خرج كسرى أبرويز لبعض الأعياد وقد صفوا له ألف فيل ، وأحدق به ثلاثون ألف فارس ، فلما رأته الفيلة سجدت له فما رفعت رؤوسها حتى جذبت بالمحاجن وراضتها الفيالون . وتزعم أهل الهند أن جبهة الفيل تعرق كل عام عرقاً غليظاً سائلاً أطيب من رائحة المسك ، ولا يعرض ذلك العرق إلا في بلادها خاصة، وأن عظام الفيل كلها عاج إلا أن جواهر نابه أكرم وأثمن ولولا شرف العاج وقدره لما فخر الأحنف بن قيس على أهل الكوفة في قوله : نحن أكثر منكم عاجاً وساجاً ، وديباجاً وخراجاً . وقيل إن الفيلة لا تتسافد في غير بلادها .

فائدة : من قرأ سورة الفيل ألف مرة في كل يوم ، عشرة أيام متوالية ثم جلس على ماء جار وقال : اللهم أنت الحاضر المحيط بمكنونات الضمائر ، اللهم عزّ الظالم ، وقلّ الناصر ، وأنت المطلع العالم ، اللهم إن فلاناً ظلمني وأساءني ولا يشهد بذلك غيرك أنت مالكه فأهلكه ، اللهم سربله سربال الهوان وقمصه قميص الرّدى ، اللهم اقصفه ست مرات ، اللهم اخفضه مرتين ، فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله واق ، فان الله يستجيب له ما لم يكن ظالماً .

الخواص : جلده إذا بخر به بيت هرب بقه وإذا سقي إنسان من وسخ أذنيه نام نومة طويلة ، وإذا علق من نابه شيء على شجرة لم تثمر ، وإذا عمل من جلده ترس يكون أصلب من كل ترس .

(حرف القاف)

قاقم : دويبة تشبه السنجاب إلا أنه أبرد منه مزاجاً وهو أبيض يقق وجلده أعزّ قيمة من السنجاب .

قاوند : طير يكون بساحل البحر يبيض في الرمل ، ويحضن بيضه سبعة أيام ثم تخرج أفراخه بعد ذلك فيزقها بعد سبعة أيام ، ويقال ما يمسك الله البحر في هيجانه عن أن يفيض على الساحل إلا إكراماً له ، لأنه يقال إنه يبرّ بوالديه .

خواصه : انه يقيم المقعد ، ويحلل البلاغم المزمنة ، وينفع الأمراض الباردة ، وأوجاع الأعصاب .

قرد : حيوان معروف وكنيته أبو خالد ، وغير ذلك وهو قبيح المنظر مليح الذكاء ، سريع الفهم ، يتعلم الصنائع . قيل إنه أهدي للمتوكل قرد خياط ، وآخر صائغ وأهل اليمن يعلمون القردة البيع والجلوس في الدكاكين حتى قيل إنه يخرز النعل ، ويصرّ القرطاس وهو ذو غيرة وعنده لواط حتى قيل إنه يعدو خلف المليح من شدة المحبة ، والتفت ابن الرومي يوماً إلى أبي الحسن الأخفش وهو يحاكي مشية القرد فقال :

هنيئاً يا أبا الحسن المفدى بلغت من الفضائل كلّ غاية
شركت القرد في قبح وسخف وما قصرت عنه في الحكاية

قنفذ : بالذال المعجمة ، وكنيته أبو سفيان ، ومن عجيب أمره أنه يصعد الكرم فيرمي العنقود ثم ينزل فيأكل منه ما أطاق ، فإن كان له أفراخ تمرغ في الباقي فيتعلق بشوكه فيذهب به إلى أولاده ، وهو مولع بأكل الأفاعي فاذا لدغته لا يؤثر فيه سمها لدفع ذلك بشوكه وإذا تأذى منها ذهب فأكل السعتر البري ، فيزول أذاها وهو من الحيوان الذي يسفد مباطنة كالرجل وله خمسة أرجل .

(حرف الكاف)

كركند : حيوان يوجد ببلاد الهند والنوبة وهو دون الجاموس وله قرن واحد عظيم لا يستطيع رفع رأسه منه لثقله ، وهو مصمت قوّي يقاتل به الفيل فيغلبه ولا تعمل نابا‌ه شيئاً معه وعرض قرنه شبران وليس بطويل جداً ، وهو محدد الرأس شديد الملاسة وإذا نشر قرنه ظهرت في معاطفه صور عجيبة كالطواويس ، والغزلان ، وأنواع الطير والشجر ، وبني آدم ولذلك يتخذ منه صفائح الأسرة ، والمناطق للملوك ويتغالون في ثمنها بحيث تبلغ المنطقة أربعة آلاف ، أو أكثر ، والأنثى تحمل ثلاث سنين ، ويخرج ولدها نابت الأسنان والقرون قوي الحافر . ويقال إنها إذا قاربت الوضع أخرج الولد رأسه من بطنها وصار يرمي أطراف الشجر ، فاذا شبع أدخل رأسه في بطن أمه ، ويزعم أهل الهند أنه إذا كان ببلاد لم يدع فيها من الحيوان شيئاً حتى يكون بينها وبينه مائة فرسخ من جميع الجهات هيبة له ، وهرباً منه ، ويسمى الحمار الهندي ، وهو شديد العداوة للانسان يتبعه إذا سمع صوته فيقتله ولا يأكل منه شيئاً .

كروان : طير معروف لا ينام غالب الليل خصوصاً في القمر وعنده ذكاء ، قيل إنه يتكلم بجميع ما يبصره ولا يحتمل المغابنة .

كركي : طير محبوب للملوك وله مشتى ومصيف ، فمشتاه بأرض مصر ، ومصيفه بأرض العراق وهو من الحيوان الرئيس . قيل إنه إذا نزل بمكان اجتمع حلقة ونام ، وقام عليه واحدٌ يحرسه ، وهو يصوّت تصويتاً لطيفاً حتى يفهم أنه يقظان ، فاذا تمت نوبته ايقظ غيره لنوبته . قال القزويني وإذا مشى وطىء الأرض باحدى رجليه وبالأخرى قليلاً خوفاً من أن يحسّ به ، وإذا طار سار سطراً يتقدمه واحد كهيئة الدليل ثم تتبعه البقية .

كلب : معروف وهو نوعان : أهلي ، وسلوقي وهذان النوعان سواء ، إلا أن أنثى السلوقي أسرع في التعلم من ذكره ، وهذا الحيوان حليم وعنده رياضة وفي طبعه إكرام الأجلاء من الناس .

حكي أن رجلاً عزم جماعة ، فتخلى شخص منهم في منزله ودخل على زوجة صاحب المنزل فضاجعها فوثب الكلب عليهما فقتلهما فرجع صاحب المنزل فوجدهما قتيلين فأنشد يقول :

وما زال يرعى ذمتي ويحوطني ويحفظ عهدي والخليل يخون
فواعجبا للخلّ يهتك حرمتي وواعجبا للكلب كيف يصون

وحكى أبو عبيدة قال : خرج رجل إلى الجبانة ومعه أخوه وجاره لينظروا إلى الناس ، فتبعه كلب فضربه ورماه بحجر فلم ينته ولم يرجع ، فلما قعد ربض الكلب بين يديه فجاء عدوّ له في طلبه ، فلما رآه خاف على نفسه فاذا بئر هناك قريبة القعر فنزل فيها وأمر أخاه وجاره أن يهيلا عليه التراب ، ثم ذهب أخوه وجاره إلى سبيلهما وصار الكلب ينبح حوله . فلما انصرف العدّو أتاه الكلب فما زال يبحث في التراب إلى أن كشفه عن رأسه ، فتنفس الرجل ومرّ به أناس فتناولوه وردوه إلى أهله . فلما مات ذلك الكلب عمل له قبراً ودفنه فيه وجعل عليه قبة وسمى ذلك قبر الكلب وفي ذلك قيل :

تفـرّق عنـه جـاره وشقيقـه وما حاد عنه كلبه وهو ضاربه

ومن ذلك ما حكي أن رجلاً قتل ودفن وكان معه كلب ، فصار يأتي كل يوم إلى الموضع الذي دفن فيه ، وينبح وينبش ويتعلق برجل هناك فقال الناس : إن لهذا الكلب شأناً فكشفوا عن ذلك وحفروا ذلك الموضع ، فوجدوا قتيلاً ، فقبضوا على ذلك الرجل الذي ينبح عليه الكلب وضربوه فأقّر بقتله فقتل . وهو من الحيوان الذي يعرف الحسنة . وقيل إن الأنثى تحيض في كل شهر سبعة أيام ، وأكثر ما تضع اثنا عشر جرواً ، وذلك في النادر والغالب خمسة أو ستة ، وربما ولدت واحداً ، ويعيش الكلب في الغالب عشر سنين ، وربما بلغ عشرين سنة . وصف للمتوكل كلب بأرمينية يفترس الأسد فأرسل من جاء به إليه فجوّع أسداً وأطلقه عليه فتهارشا وتواثبا حتى وقعا ميتين . وقيل كلب الصياد ، يشبه به الفقير المجاور للغني ، لأنه يرى من نعمته ، وبؤس نفسه ما يفتت كبده . وقيل لرجل ما بال الكلب يرفع رجله إذا بال ، قال يخاف أن يلوّث ذراعيه قيل أو للكلب ذراعان قال هو يتوهم ذلك .

فائدة : حكي أن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه سمع شخصاً من وراء النهر يروي أحاديث مثلثة ، فسار إليه ودخل عليه ، فوجده يطعم كلباً ، وهو مشتغل به . قال الامام أحمد : فأخذت في نفسي وأضمرت أن أرجع إذا لم يلتفت الرجل إلي ، ثم قال حدثني أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة فلم يلج الجنة » وإن أرضنا هذه ليست بأرض كلاب وقد قصدني هذا الكلب فخشيت أن أقطع رجاءه . قال : فقال الامام أحمد رحمه الله ، هذا الحديث يكفيني ثم رجع قافلاً إلى أهله .

فائدة أخرى : قال الترمذي لما أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض سلط عليه إبليس السباع وكان أشدها الكلب . قال فنزل عليه جبريل عليه السلام وأمره أن يضع يده عليه ، ففعل واطمأنّ إليه وألفه ، وصار يحرسه ، وبقيت الالفة فيه لأولاده إلى يوم القيامة . وقيل إن أول من اتخذ الكلب بعد آدم نوح عليهما الصلاة والسلام ، وذلك لأن قومه كانوا يعمدون بالليل فيفسدون ما صنعه في السفينة

بالنهار ، فأمره الله أن يتخذ كلباً حارساً ففعل . قال فكان الكلب إذ أتاه مفسد قام عليه فيتيقظ نوح عليه الصلاة والسلام فيدفعه .

فائدة أخرى : قيل كان كلب أهل الكهف أسمر واسمه قطمير ، وقيل أصفر وقيل خلنجي اللون وليس في الحيوان ما يدخل الجنة إلا هو ، وكبش إسماعيل ، وناقة صالح ، وحمار العزيز ، وبراق النبي ﷺ .

فائدة أخرى : إذا نبح عليك كلب وخفت منه فاقرأ ﴿ **يا معشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان** ﴾[1] وقل بعد ذلك لا إله إلا الله فانك تكفاه .

(حرف اللام)

لغلغ : طير معروف . قيل إنه من طيور الفواخت ويأتي إلى أرض مصر في أيام الشتاء فيأكل ما قسم الله له من الرزق ، ويأكل منه من له فيه رزق ثم يرحل إلى بلاده .

(حرف الميم)

مالك الحزين : طير يوجد بالضحضاح ، غذاؤه السمك ، وسمي بذلك لأنه قيل إنه لا يشرب حتى يروى خوفاً من أن ينقص الماء وإذا نشف الضحضاح حزن لأنه لا يستطيع العوم . ونظيره دويبة بأرض فارس معروفة عندهم يقال إن غذاءها التراب فإذا أكلت لا تشبع خوفاً من أن يفرغ .

(حرف النون)

نمل : قال عليه الصلاة والسلام : « ألا تنظرون إلى صغير من خلق الله كيف أحكم خلقه ، وأتقن تركيبه . وفلق له السمع والبصر ، وسوّى له العظم والبشر ، انظروا إلى النملة في صغر جثتها ، ولطافة هيئتها ، ولا تكاد تنال بلحظ البصر ، ولا بمستدرك الفكر كيف دبت على الأرض ، وسعت في مناكبها ، وطلبت رزقها تنقل الحبة إلى جحرها تجمع في حرها لبردها ، وفي وردها لصدرها ، لا يغفل عنها المنان ، ولا يحرمها الديان ، ولو فكرت في مجاري أكلها في علوها وسفلها وما في الجوف من شراسيف بطنها ، وما في الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجباً ، وللقيت من وصفها تعباً ، فتعالى الله أقامها على قوائمها ، وبناها على دعائمها لم يشركه في فطرتها فاطر ، ولم يعنه على خلقها قادر لا إله إلا هو ولا معبود سواه » وقيل إذا خافت على حبها أن يعفن أخرجته إلى ظهر الأرض ليجف ، وقيل إنها تفلق الحبة نصفين خوفاً من أن تنبت فتفسد ، إلا الكزبرة فأنها تفلقها أربعاً لأنها من دون الحب ، ينبت نصفها وليس كل أرباب الفلاحة يعرف هذا ، فسبحان من ألهمها ذلك . وقيل إنها تشم رائحة الشيء من بعيد ولو وضعته على أنفك لم تجد له رائحة ، وإذا عجزت عن حمل الشيء استعانت برفقتها فيحملونه جميعاً إلى

---

(١) سورة الرحمن الآية ٣٣.

باب جحرها ، وقيل إذا انفتح باب قرية النمل فجعلت فيه زرنيخاً أو كبريتاً هجرتها والله أعلم .

نحل : حيوان ليس له نظر في العواقب ، وله معرفة بفصول السنة وأوقاتها ، وأوقات المطر ، وفي طبعه الطاعة لأميره ، والانقياد له ، ومن شأنه في تدبير معاشه أنه يبني له بيتاً من الشمع شكلاً مسدساً لا يوجد فيه اختلاف كالقطعة الواحدة ، وإذا طار ارتفع في الهواء وحط على الأماكن النظيفة ، وأكل نوار الزهر والأشياء الحلوة ، وشرب من الماء الصافي وأتى فأخرج ذلك ، فأول ما يخرج الشمع ليكون كالوعاء ، ثم العسل ، وقيل : إنه يقسم الأعمال ، فبعضه يعمل البيوت ، وبعضه يعمل الشمع ، وبعضه يعمل العسل ، وفي طبعه النظافة فيجعل رجيعه خارج الخلية ، وما مات منه أخرجه ورماه ، وعنده الطرب فيحب الأصوات اللذيذة ، وله آفات تقطعه كالظلمة ، والغيم ، والريح ، والمطر ، والدخان ، والنار ، وكذلك المؤمن له آفات تقطعه منها ظلمة الغفلة ، وغيم الشك ، وريح الفتنة ، ودخان الحرام ، ونار الهوى .

فائدة : قيل مرض شخص فقال ائتوني بماء وعسل فأتوه بذلك فخلط الجميع وشربه فشفي ، وروي أن شخصاً شكا للنبي ﷺ ، بطن أخيه فأمره بشرب العسل فشربه ، ثم جاء ثانياً فأمره بشربه ، ثم جاء في الثالثة ، فقال يا رسول الله إن بطنه لم يزل ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق الله وكذب بطن أخيك ، أسقه عسلاً » فسقاه الثالثة فشفي .

نادرة : قيل إن بعضهم حضر مجلس المنصور ، فقال بعض الحاضرين المراد من قوله تعالى : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾[1] أهل البيت فانهم النحل ، والشراب القرآن ، فقال له بعض من حضره من اللطفاء : جعل الله طعامك وشرابك ما يخرج من بطون بني هاشم ، فضحك الحاضرون عليه وأبهته .

الخواص : إذا خلط العسل الخالص بمسك خالص واكتحل به نفع من نزول الماء في العين ، والتلطخ به يقتل القمل ولعقه علاج لعضة الكلب ، والمطبوخ منه نافع للمسموم .

نسر : هو سيد الطيور ويعمر طويلاً ، وقيل إنه يعيش ألف سنة وله قوة على الطيران حتى قيل إنه يقطع من المشرق إلى المغرب في يوم ، وجثته عظيمة حتى قيل إنه يحمل أولاد الفيلة ، وله قوة حاسة الشم ، حتى قيل إنه يشم رائحة الجيفة من مسيرة أربعمائة فرسخ ، وإذا سقط على جيفة تباعدت عنها الطيور هيبة له حتى يفرغ من الأكل ، وعنده شره ، قيل إنه يأكل حتى يضعف عن الحركة بحيث إن أضعف الناس لو أراد إمساكه في تلك الحالة أمسكه ، وإذا باض ذهب وأتى بورق الدلب فجعله في عشه خوفاً من الخفاش أن يفسد بيضه . وهو لا يحضن البيض وإنما يبيض في الأماكن العالية ويبقيه في الشمس فتكون حرارتها له بمنزلة الحضن . ومن طبعه أنه لو شم الطيب مات ، وعنده الحزن على فراق إلفه حتى قيل إنه ليموت كمداً ، ويقال للأنثى منه أم قشعم وفي الحديث : « أتاني جبريل عليه الصلاة

---

(١) سورة النحل الآية ٦٩ .

والسلام فقال يا محمد لكل شيء سيد فسيد البشر آدم ، وسيد ولد آدم أنت ، وسيد الروم صهيب ، وسيد فارس سليمان ، وسيد الحبش بلال ، وسيد الطيور النسر ، وسيد الشهور رمضان ، وسيد الأيام الجمعة ، وسيد الكلام العربي ، وسيد العربي القرآن ، وسيد القرآن سورة البقرة » .

الخواص : إذا أخذ قلب النسر وجعل في جلد ذئب وعلق على شخص كان مهاباً عند الناس مقضي الحاجة ، وإذا عسر على المرأة الوضع جعل تحتها من ريشه يسهل وضعها .

نعام : يذكر ويؤنث ، وتسمى الأنثى بأم البيض والذكر بالظليم . ومن عجيب أمرها أنها تبيض بيضاً طوالاً متساوية القدر وتجعلها أثلاثاً : ثلثا للحضن ، وثلثا تأكله في حضنها ، وثلثا تكسره وتفتحه فيتعفن ويدوّد فيكون منه غذاء أولادها ، وعندها الحمق ، يقال إنها تخرج من حضنها فتجد بيض غيرها فتحضنه وتترك بيض نفسها .

فائدة : روى كعب الأحبار رضي الله تعالى عنه : إن الله تعالى لما خلق القمح ، وأنزله على آدم كان على قدر بيض النعام ، وقال له هذا رزقك ، ورزق أولادك ، قم فاحرث وازرع . قال ولم يزل الحبّ على ذلك مدّة ثم نزل إلى بيض الدجاجة ، ثم الحمامة ، ثم النبق ، وكان في زمن العزيز على قدر الحمص . وقيل كل حيوان إذا كسرت رجله مشى بالأخرى إلا النعام ، فإنه يبرك إلى أن يموت ، وخلق الله تعالى له قوّة الشمّ البليغ . حتى قيل إنه يشمّ رائحة القناص ، من مسيرة نصف ميل . وهي لا تشرب الماء كالضبّ ، ويقال إن القناص إذا أدركها أدخلت رأسها في شيء ، إما شعب ، أو حجر تظنّ أنها قد استترت منه ، ولها معدة قوية تقطع الحديد والصوّان والجمر ، وفي طبعها الأذى يقال إنها تخطف الحلق من أذن الصغير . وقيل إن الذئب لا يتعرض لبيض النعام وأفراخه ما دام الأبوان حاضرين لأنهما إذا رأياه ركضه الذكر إلى أن يسلمه إلى الأنثى فتركضه إلى أن تسلمه إلى الذكر ولا يزالان به حتى يقتلاه أو يعجزهما هرباً ، وقيل أشدّ ما يكون عدوها إذا استقبلت الريح ، وتقول العرب : صنفان من الحيوان أصمان لا يسمعان : النعام والأفاعي . وسأل أبو عمرو الشيباني[١] بعض العرب عن الظليم[٢] هل يسمع ؟ فقال : يعرف بعينيه وأنفه ولا يحتاج معهما إلى سمع .

نمر : حيوان أغبر وكنيته أبو الصعب ، وهو صنفان : صنف عظيم الجثة صغير الذنب ، والآخر بالعكس . قال الجاحظ : وهو يحبّ الشراب وعنده شراسة في خلقه ويقال : إنّ أنثاه لا تدع ولدها إلا مطوّقاً بحية ، ولا يضرّه نهشها وذلك لأجل الصياد حتى لا يظفر به ، وإذا مرض أكل الفأر فيبرأ ، وفي

---

(١) هو اسحاق بن مرار الشيباني ـ ابو عمرو ـ لغوي ، أديب . سكن بغداد ومات فيها سنة (٢٠٦ هـ ـ ٨٢١ م) . جاور بني شيبان وادب بعضهم ، فنسب إليهم ، وجمع أشعار نيف وثمانين قبيلة من العرب ودوّنها ، وجعلها في مسجد الكوفة . أخذ عنه جماعة منهم الامام أحمد بن حنبل . من تصانيفه : « كتاب اللغات » و« كتاب الخيل » و« النوادر » و« غريب الحديث » .

أنظر : وفيات الاعيان (١ : ٦٥) . وميزان الاعتدال (٣ : ٣٧٣) .

(٢) الظليم : الذكر من النعام .

طبعه عداوة الأسد . وعنده شرف في نفسه ، يقال : إنه لا يأكل جيفة ولا يأكل من صيد غيره ، ولا يملك نفسه عند الغضب وأدنى وثبته عشرون ذراعاً وأكثرها أربعون .

الخواص : من حمل من جلده شيئاً صار مهاباً عند الناس ، ومن كان به بواسير فجلس على جلده زالت بواسيره .

حرف الهاء)

هدهد : طير معروف ، وهو من رسل سليمان عليه الصلاة والسلام وعنده حدّة البصر حتى قيل إنه يرى الماء تحت الأرض ، وسبب غيابه عن خدمة سليمان عليه الصلاة والسلام حين سأل عنه ولم يجده ، هو أن هدهداً من سبأ أخبره أن عرش بلقيس صفته كذا وكذا ، فذهب لينظر ، فدخلت الشمس من مكانه فرآها سليمان عليه الصلاة والسلام فتفقده وطلبه فلما حضر قال: يا نبيّ الله إني رأيت كيت وكيت وقصّ عليه القصة ، ويقال إنه قال لسليمان عليه الصلاة والسلام لما أراد تعذيبه يا نبيّ الله اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى فارتعد سليمان من هذا الكلام وأطلقه .

الخواص : إذا بخر البيت بريشه طرد الهوام[1] عنه ، وعينه إذا علقت على صاحب النسيان ذكر ما نسيه ، وريشه إذا حمله إنسان وخاصم غلب خصمه ، وقضيت حاجته ، وظفر بما يريد ، ولحمه إذا أكل مطبوخاً نفع من القولنج ، وإن بخر بمخه برج حمام لم يقربه شيء يؤذيه ، من علق عليه لحيه الأسفل أحبه الناس ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(حرف الواو)

ورشان : طير يتولد بين الحمام والفاختة[2] ، وهو حسن شديد الحنوّ يقال إنه يكاد يقتل نفسه إذا أمسك القناص أولاده من شدّة حنّوه . وقال بعضهم إنه يقول في صياحه : لدوا للموت وابنوا للخراب ، والهدهد يقول : إذا نزل القضاء عمي البصر ، والفاختة تقول : ليت هذا الخلق ما خلقوا ، وليتهم إذا خلقوا علموا لماذا خلقوا ، وليتهم عملوا لما علموا ، والخطاف يقول : قدّموا خيراً تجدوه عند ربكم . والحمامة تقول : سبحان ربي الأعلى ، والبازي يقول : سبحان ربي وبحمده ، والسرطان يقول : سبحان المذكور بكل لسان ، والدراج يقول : الرحمن على العرش استوى ، والعقاب يقول : البعد عن الناس رحمة ، ومن الطيور من يقرأ الفاتحة كالدرة ويمدّ صوته في الضالين كالقارىء .

(حرف الياء)

ياجوج وماجوج : سموا بذلك لكثرتهم ، وقيل بل هو اسم أعجمي غير مشتق . قال مقاتل : هم ولد يافث بن نوح عليه الصلاة والسلام . وقول من قال إن آدم نام فاحتلم فالتصق منيه بالتراب فتولد

---

(١) الهوام : الحشرات .

(٢) الفاختة : نوع من الحمام البري .

منه هذا الحيوان ، مردود بعدم احتلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وفي الحديث « يأجوج ومأجوج أمّة عظيمة لا يموت أحدهم حتى يرى من صلبه ألف نسمة » انتهى . وهم أصناف : منهم ما طوله عشرون ذراعاً ، وما طوله ذراع ، وأقل وأكثر . وعن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه أن لهم مخالب الطير ، وأنياب السباع ، وتداعي الحمام ، وتسافد البهائم ، ولهم شعور تقيهم الحر والبرد ، وإذا مشوا في الأرض كان أوّلهم بالشام وآخرهم بخراسان . يشربون مياه المشرق إلى بحيرة طبرية ، ويمنعهم الله تعالى من دخول مكة والمدينة وبيت المقدس ، ويأكلون كل شيء يمرون به ومن مات منهم أكلوه . ويقال إن صنفاً منهم له أذنان إحداهما صلدة ، والأخرى وبرة . فهو يلتحف بإحداهما ويفترش الأخرى وفي الحديث : « إنه عليه الصلاة والسلام سئل هل بلغتهم الدعوة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : دعوتهم ليلة أُسّري بي فلم يجيبوا فهم خلق النار » . وفي الحديث أيضاً :« إن الله عز وجل إذا كان يوم القيامة قال : يا آدم أرسل بعث النار . فيقول يا رب وما بعث النار ؟ فيقول الله تعالى من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون للنار ، وواحد للجنة قال فاشتدّ الأمر على المسلمين . فقال رسول الله ﷺ أبشروا فان من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم واحد » وفي الحديث : « أن رجلاً جاء إلى النبيّ ﷺ فأخبره بالردم . فقال صفه . فقال يا رسول الله انطلقت إلى أرض ليس لأهلها إلا الحديد يعملونه فدخلت في بيت ، فلما كان وقت الغروب سمعت ضجة عظيمة أفزعتني فارتعدت منها قال : فقال صاحب البيت لا بأس عليك ، إن هذه الضجة أصوات قوم يذهبون هذه الساعة من خلف هذا الردم ، أتريد أن تنظر إليه ، فاذا لبنه مثل الصخرة ومساميره مثل جذوع النخل كله من حديد كأنه البرد المحبر . فقال رسول الله ﷺ : « من سره أن ينظر إلى من رأى الردم فلينظر هذا الرجل » .

قال المفسرون : وهذا هو السدّ الذي بناه ذو القرنين ، وهذه الأمة خلفه تطلب المجيء إلى هذه الجهة تنقبه كل يوم فيعيده الله كما كان إلى أن يقضي الله أمره ثم يسلط عليهم بعد ذلك دوداً يطلع في حلاقيمهم فيهلكهم الله به ، والأخبار في ذلك كثيرة .

يحمور : دابة وحشية لها قرنان طويلان كأنهما منشاران تنشر بهما الشجر ، وقيل هو كالإبل يلقي قرنيه في كل سنة وهما صامتان . وقال الجوهري هو الحمار الوحشي .

نادرة : قيل : ترافق رجلان في طريق ، فلما قربا من مدينة من المدن قال أحدهما للآخر قد صار لي عليك حق ، وإني رجل من الجانّ ولي إليك حاجة ، قال وما هي ؟ قال إذا وصلت إلى المكان الفلاني من هذه المدينة فهناك عجوز عندها ديك فاشتره منها واذبحه . فقال له الآخر وأنا أيضاً لي إليك حاجة قال وما هي ؟ قال إذا ركب الجني إنساناً ما يعمل له . قال تشد إبهاميه بسير من جلد اليحمور ، وتقطر في أذنيه من ماء السذاب[1] في اليمنى أربعاً ، وفي اليسرى ثلاثاً ، فان الراكب له يموت . ثم تفرّقا ودخل الإنسي ، ففعل ما أمره به الجني من شراء الديك وذبحه فلم يشعر بعد أيام إلا وقد أحاط به أهل صبية من تلك البلدة وقالوا له أنت ساحر ، ومن حين ذبحك الديك سلبت من صبية عندنا عقلها فلا نفلتك

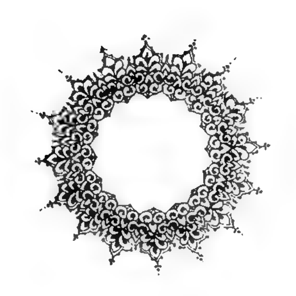
---

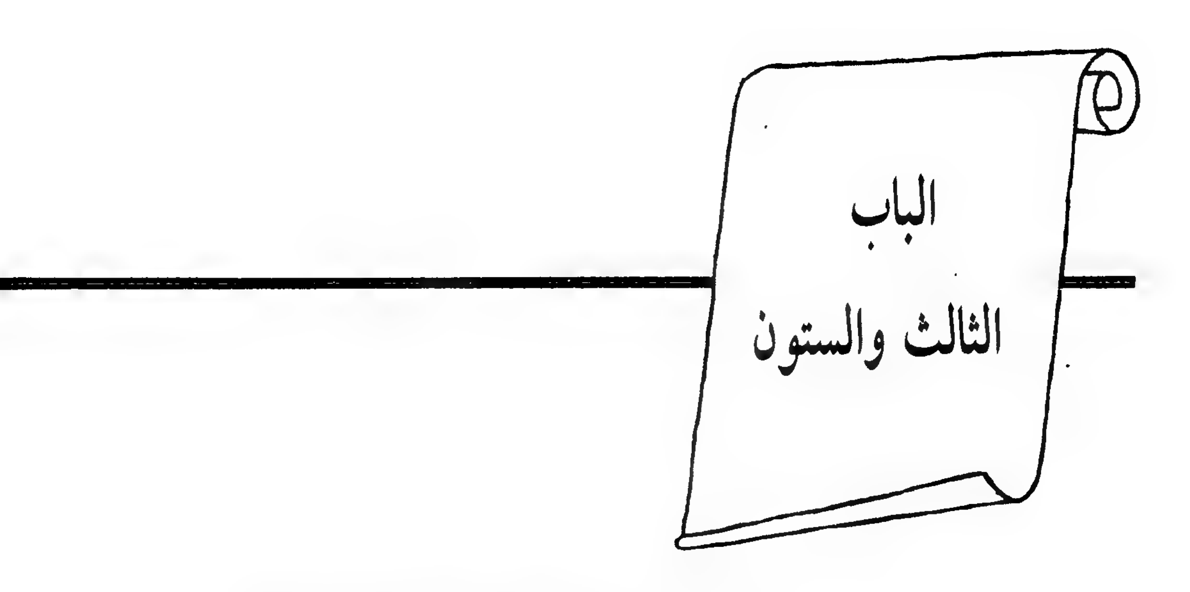
(١) السذاب : نبات : « بقل ». والسذاب نبات قوي الرائحة ازهاره صغيرة .

إلا إلى صاحب المدينة . قال فقلت لهم ائتوني بسير من جلد اليحمور وقليل من ماء السذاب ودخلت على الصبية فربطت إبهاميها ، وقطرت ماء السذاب في أذنيها فسمعت صوتاً يقول : آه علمتك على نفسي ، ثم مات من ساعته ، وشفى الله تلك الشابة .

فصل في خواص الطير ، والحيوان على الإجمال

الضب والخنزير لا يلقيان شيئاً من أسنانهما أبداً ، وكل حيوان يعوم بالطبع ، إلا الإنسان والقرد ، وكل ذي عين فان أهداب عينه في الجهة العليا فقط ، إلا الإنسان فانه من الجهتين والفرس لا طحال له ، والبعير لا مرارة له ، والظليم لا مخ لعظمه ، والحيات لا ألسنة لها ، والسمكة لا رئة لها لأنها تتنفس من كبدها ، وكل حيوان لا حافر له فله قرن ، وما لا قرن له ، فله حافر ، والحيوان المتهم باللواط : القرد والخنزير والحمار ، والسنور . والعيون التي تضيء بالليل عين : الأسد ، والنمر ، والأفعى والسنور . والذي يدّخر القوت من الحيوان : الانسان ، والفأر والغراب ، والنحل ، والنمل ، والذي يحيض من الحيوان : الانسان والفرس ، والكلب ، والأرنب ، والضبع ، والخفاش ، ويقال أيضاً الرعاد من السمك ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، وهذا آخر ما قصدت إيراده في هذا الباب والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .





في ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم

ذكر المسعودي[1] في كتابه عن بعض العلماء أن الله سبحانه وتعالى خلق في الأرض قبل آدم ثمانياً وعشرين أمة على خلق مختلفة ، وهي أنواع ، منها ذوات أجنحة وكلامهم قرقعة ، ومنها ما له أبدان كالأسود ، ورؤوس كالطير ، ولهم شعور وأذناب وكلامهم دوي ومنها ما له وجهان واحد من قبله والآخر من خلف وأرجل كثيرة ، ومنها ما يشبه الانسان بيد ورجل وكلامهم مثل صياح الغرانيق ، ومنها ما وجهه كالآدمي وظهره كالسلحفاة وفي رأسه قرن ، وكلامهم مثل عواء الكلاب ، ومنها ما له شعر أبيض وذنب كالبقر ، ومنها ما له أنياب بارزة كالخناجر ، وآذان طوال . ويقال إن هذه الأمم تناكحت وتناسلت حتى صارت مائة وعشرين أمة . ولم يخلق الله تعالى أفضل ولا أحسن ولا أجمل من الإنسان . وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : خلق الله تعالى ألف أمة وعشرين أمة ، منها ستمائة في البحر ، وأربعمائة وعشرون في البّر ، وفي الإنسان من كل خلق ، فلذلك سخر الله له جميع الخلق ، واستجمعت له جميع اللذات ، وعمل بيده جميع الآلات ، وله النطق ، والضحك ، والبكاء ، والفكرة ، والفطنة ، واختراعات الأشياء ، واستنباط جميع العلوم ، واستخراج المعادن وعليه وقع الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، والنعيم والعذاب ، وإياه خاطب وله قرّب ، وخلق الله تعالى إسرافيل عليه السلام على صورة الإنسان ، وهو أقرب الملائكة إليه ، وفي الحديث : « لا تضربوا الوجوه فانها على صورة إسرافيل » وآيات الله تعالى في البشر أكثر من أن تحصر : ﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾[2] وقال الشيخ عبد الله صاحب كتاب تحفة

---

(١) هو علي بن الحسين بن علي ـ ابو الحسن ـ المسعودي مؤرخ ، رحالة ، بحاثة ، من أهل بغداد . أقام بمصر وتوفي فيها سنة (٣٤٦هـ ـ ٩٥٧ م). من تصانيفه « مروج الذهب » « أخبار الزمان ومن أباده الحدثان » ، تاريخ في نحو ثلاثين مجلداً . و« التنبيه والاشراف » وغيرها .
أنظر فوات الوفيات (٢ : ٤٥). ولسان الميزان (٤ : ٢٢٤).

(٢) سورة المؤمنون الآية ١٤ .

الألباب : دخلت إلى باشقرد فرأيت قبور عاد فوجدت سنّ أحدهم طوله أربعة أشبار كلوح الرخام ، قال : ولقد رأيت في بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل عاد ، رجلاً طويلاً ، طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعاً كان يسمى دنقي أو دبقي كان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الولد الصغير ، وكان من قوّته يكسر بيده ساق الفرس ، ويقطع جلده وأعضاءه كما يقطع باقة البقل ، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً تحمل على عجلة ، وبيضة عادية لرأسه كأنها قطعة من جبل ، وكان يأخذ في يده شجرة من البلوط كالعصا لو ضرب بها الفيل لقتله وكان خيّراً متواضعاً ، كان إذا لقيني يسلم علي ويرحب بي ويكرمني ، وكان رأسي لا يصل إلى ركبته رحمة الله تعالى عليه . ولم يكن في بلغار حمام يمكنه دخولها إلا حمام واحدة ، وكانت له أخت على طوله ورأيتها مرات في بلغار ، وقال لي قاضي بلغار يعقوب بن النعمان إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها ، وكان اسمه آدم ، وكان أقوى أهل بلغار ، قيل إنها ضمته إليها فكسرت أضلاعه فمات من ساعته . وروي عن وهب بن منبه في عوج بن عنق أنه كان من أحسن الناس وأجملهم ، إلا أنه كان لا يوصف طوله ، قيل كان يخوض في الطوفان فلم يبلغ ركبتيه ، ويقال إن الطوفان علا على رؤوس الجبال أربعين ذراعاً ، وكان يجتاز بالمدينة فيتخطاها كما يتخطى أحدكم الجدول الصغير ، وعمره الله دهراً طويلاً حتى أدرك موسى عليه الصلاة والسلام ، وكان جباراً في أفعاله يسير في الأرض براً وبحراً ويفسد ما شاء ، ويقال إنه لما حصر بنو اسرائيل في التيه ذهب فأتى بقطعة من جبل على قدرهم واحتملها على رأسه ليلقيها عليهم ، فبعث الله طيراً في منقاره حجر مدوّر فوضعه على الحجر الذي على رأسه فانثقب من وسطه وانخرق في عنقه وأخبر الله عزّ وجل نبيه موسى عليه الصلاة والسلام بذلك فخرج إليه وضربه بعصاة فقتله ، ويقال إن موسى عليه الصلاة والسلام كان طوله عشرة أذرع ، وعصاه عشرة أذرع ، وقفز في الهواء عشرة أذرع ، وضربه فلم يصل إلى عرقوبه﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾[1]، ومن ذلك ما قيل عن أمه عنق بنت آدم عليه الصلاة والسلام ، وكانت مفردة بغير أخ ، وكانت مشوّهة الخلقة لها رأسان وفي كل يد عشرة أصابع ، ولكل أصبع ظفران كالمنجلين . وقال عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه هي أوّل من بغى في الأرض ، وعمل الفجور ، وجاهر بالمعاصي ، واستخدم الشياطين وصرفهم في وجوه السحر . وكان قد أنزل الله على آدم عليه الصلاة والسلام أسماء عظيمة تطيعها الشياطين بها ، وأمره أن يدفعها إلى حوّاء لتحترز بها فغافلتها عنق وسرقتها، واستخدمت بها الشياطين وتكلمت بشيء من الكهانة فدعا عليها آدم . وأمنت على ذلك حواء فأرسل الله عليها أسداً أعظم من الفيل فهجم عليها وقتلها وذلك بعد ولادتها عوجا بسنتين . ومن ذلك ما حكي عن بعض فقهاء الموصل أنه شاهد ببلاد الأكراد المحمدية في جبل من أبال الموصل إنساناً طوله تسعة أذرع ، وهو صبيّ لم يبلغ الحلم ، وكان يأخذ بيده الرجل القوي ويرميه خلف ظهره فأراد صاحب الموصل استخدامه فقيل له في عقله خبل فتركه وروي عن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال : دخلت بلدة من بلاد اليمن فرأيت بها إنساناً من وسطه إلى أسفله بدن واحد ، ومن وسطه إلى أعلاه بدنان مفترقان برأسين ووجهين ، وأربع أيد وهما يأكلان ويشربان ، ويتقاتلان ويتلاطمان ويصطلحان . قال : ثم غبت عنها قليلاً ورجعت فقيل لي أحسن الله عزاءك في أحد الشقين فقلت وكيف

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١٤ .

صنع به فقيل ربط في أسفله حبل وثيق وترك حتى ذبل ثم قطع ورأيت الجسد الآخر في السوق ذاهباً وراجعا ومنه ما أرسله بطارقة الأرمن إلى ناصر الدولة . وهو رجلان في جسد واحد ، فاحضر الأطباء وسألهم عن انفصال أحدهما عن الآخر فسألوهما هل تجوعان معاً وتعطشان معاً قالا نعم فقالوا لا يمكن فصلهما . ويقال إنه أحضر أباهما فسأله عن حالهما فأخبر أنهما يختصمان في بعض الأحيان وأنه يصلح بينهما . ومن ذلك ما ذكر أنه أهدي إلى أبي منصور الساماني فرس له قرنان ، وثعلب له جناحان إذا قرب منه إنسان نشرهما وإذا بعد ألصقهما . وذكر القاضي عياض رحمة الله تعالى عليه أنه ولد له مولود على أحد جنبيه مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهذا لا يبعد فانه يوجد كثيراً في السنور الدبركي . وذكر أنه ولد بالقاهرة غلام له أربعة أرجل ، ومثلها أيد ، وذكر أنه كان لبعض ولاة مصر مملوك يدعى طقطو فولاه قوص من أعمال الصعيد فتزوج بها وولد له ولد . ثم انقلب امرأة ، فتزوج بها وولدت ولدين . وأما كبش بأربعة قرون ، ودجاجة بأربعة أرجل ، وحيوان برأسين والمخرج واحد فكثير وعجائب الله تعالى في مصنوعاته غير متناهية فللّه الحمد على ما أنعم به علينا لا نحصي ثناء عليه . ومن ذلك إنسان الماء ، وهو حيوان يشبه الآدمي ، وفي بعض الأوقات يطلع ببحر الشام شيخ بلحية بيضاء ويستبشر الناس برؤيته في تلك السنة بالخصب . ومن ذلك بنات الماء وهم أمة ببحر الروم يشبهن النساء ذوات شعور وثديّ وفروج ، وهن حسان ولهن كلام لا يفهم وضحك ولعب ولهن رجال من جنسهن ويقال إن الصيادين يصطادونهن ، ويجامعونهن فيجدون لذة عظيمة لا توجد في غيرهن من النساء ، ثم يعيدونهن في البحر ثانياً . ويقال إن هذا الصنف يوجد بالبرلس[1] ورشيد على ما ذكر . وحكي عن الشيخ أبي العباس الحجاري قال حدثني بعض التجار أنه في سنة من السنين خرجت إليه سمكة عظيمة فنقبوا أذنها وجعلوا فيها الحبال وأخرجوها ففتحت أذنها فخرجت جارية حسناء جميلة بيضاء سوداء الشعر ، حمراء الخدين ، كحلاء العينين ، من أحسن ما يكون من النساء ، ومن صرّتها إلى نصف ساقيها شيء كالثوب يستر قبلها ودبرها ودائر عليها كالازار فأخذها الرجال إلى البر فصارت تلطم وجهها وتنتف شعرها ، وتعض يدها كما تصيح النساء حتى ماتت في أيديهم فألقوها في البحر فتبارك الله أحسن الخالقين . وحكى القزويني عن بعض البحريين أن الريح ألقتهم على جزيرة ذات أشجار وأنهار فأقاموا بها مدة ، وكانوا إذا جاء الليل يسمعون همهمة وأصواتاً وضحكاً ولعباً ، فخرج من المركب جماعة وكمنوا في جانب البحر فلما جاء الليل خرج بنات الماء على عادتهن فوثبوا عليهن فأخذوا منهن اثنتين فتزوج بهما شخصان ، فأما أحدهما فوثق بصاحبته فأطلقها فوثبت في البحر ، وأما الآخر فبقي مع صاحبته زماناً وهو يحرسها حتى ولدت له ولداً كأنه القمر ، فلما طاب الهواء وركبوا البحر ووثق بها فأطلقها فأغفلته وألقت نفسها في البحر ، فتأسف عليها تأسفاً عظيماً ، فلما كان بعد أيام ظهرت من البحر ، ودنت من المركب ، وألقت لصاحبها صدفاً فيه درّ وجوهر فباعه وصار من التجار . ونظير هذه الحكاية ما ذكره ابن زولاق في تاريخه أن رجلاً من الأندلس من الجزيرة الخضراء صاد جارية منهن حسناء الوجه ، سوداء الشعر ، حمراء الخدين ، نجلاء العينين ، كأنها البدر ليلة التمام كاملة الأوصاف فأقامت عنده سنين ، وأحبها حباً شديداً وأولدها ولداً ذكراً ، وبلغ من العمر أربع سنين ثم إنه أراد السفر فاستصحبها معه ووثق بها ، فلما توسطت

---

(١) اسم ناحيه وبحيرة على دلتا النيل .

البحر أخذت ولدها وألقت نفسها في البحر فكاد أن يلقي نفسه خلفها حسرة عليها فلم يمكنه أهل المركب من ذلك ، فلما كان بعد ثلاثة أيام ظهرت له وألقت له صدفاً كثيراً فيه درّ ثم سلمت عليه وتركته ، فكان ذلك آخر العهد بها ، فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه . وما لم نشاهده ونسمع به أكثر فسبحان القادر على كل شيء لا إله إلا هو ولا معبود سواه فالعاقل يعرف الجائز والمستحيل ، ويعلم أن كل مقدور بالاضافة إلى قدرة الله تعالى قليل ، وإذا سمع عجباً جائزاً استحسنه ولم يكذب قائله ، والجاهل إذا سمع ما لم يشاهده قطع بتكذيب قائله وتزييف ناقله وذلك لقلة عقله وقد وصف الله تعالى الجاهل بعدم العقل بقوله تعالى : ﴿ **أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون** ﴾[1] وقد أودع الله تعالى من عجائب المصنوعات في الآفاق والسموات ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ **وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون** ﴾[2] فلا تكن منكر العجائب فكل الأشياء من آياته :

فيا عجباً كيف يعصى الإلـ ـه أم كيف يجحده الجاحد
وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنه الواحد

ومن شاهد حجر المغناطيس وجذبه للحديد ، وكذلك حجر الماس الذي يعجز عن كسره الحديد ويكسره الرصاص ، ويثقب الياقوت والفولاذ ولا يقدر على ثقب الرصاص يعلم أن الذي أودعه هذا السر قادر على كل شيء فلا تكن مكذباً بما لا تعلم وجه حكمته فان الله تعالى قال : ﴿ **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله** ﴾[3] قال صاحب تحفة الألباب : إن في بلاد السودان أمة لا رؤوس لهم ، وقد ذكرهم الشعبي في كتاب سير الملوك ، وذكر أن في بلاد المغرب أمة من ولد آدم كلهم نساء ولا يعيش في أرضهم ذكر ، وأن هؤلاء النساء يدخلن في ماء عندهن فيحبلن من ذلك الماء ، وتلد كل امرأة منهن بنتاً ، ولا يلدن ذكراناً أبداً ، وقيل : إن ولد تبّع اليماني وصل إليهم لما أراد أن يصل إلى الظلمات التي دخلها ذو القرنين ، وإن ولد تبّع هذا كان اسمه إفريقش ، وهو الذي بنى إفريقية وسماها باسمه ، وأنه وصل إلى واد السبت وهو وادي يجري فيه الرمل كما يجري السيل ، لا يمكن أن يدخل فيه حيوان إلا هلك ، فلما رآه استعجل الرجوع ، وذو القرنين لما وصل إليه أقام إلى يوم السبت فسكن جريانه فعبره إلى أن وصل إلى الظلمات فيما يقال . والله سبحانه وتعالى أعلم . وتلك الأمة التي لا رؤوس لهم ، أعينهم في مناكبهم ، وأفواههم في صدورهم ، وهم كثيرون كالبهائم يتناسلون ولا مضرّة على أحد منهم . وأما الملك العظيم ، والعدل الكثير ، والنعم الجزيلة ، والسياسة الحسنة والرخاء والأمن الذي لا خوف معه ، ففي بلاد الهند وبلاد الصين ، وأهل الهند أعلم الناس بعلم الطبّ ، وعلم النجوم ، والهندسة والصناعات العجيبة ، التي لا يقدر أحد سواهم على أمثالها ، وفي بلادهم وجزائرهم ينبت العود ، وشجر الكافور ، وجميع أنواع الطيب كالقرنفل ، والسنبل ، والدارصيني ، والكبابة ، والبسباسة وأنواع العقاقير والأدوية ، وعندهم حيوان المسك وهو حيوان كالغزال يجتمع المسك في سرته ، وعندهم حيوان الزباد ، وهو حيوان كالسنور يخرج منه عرق

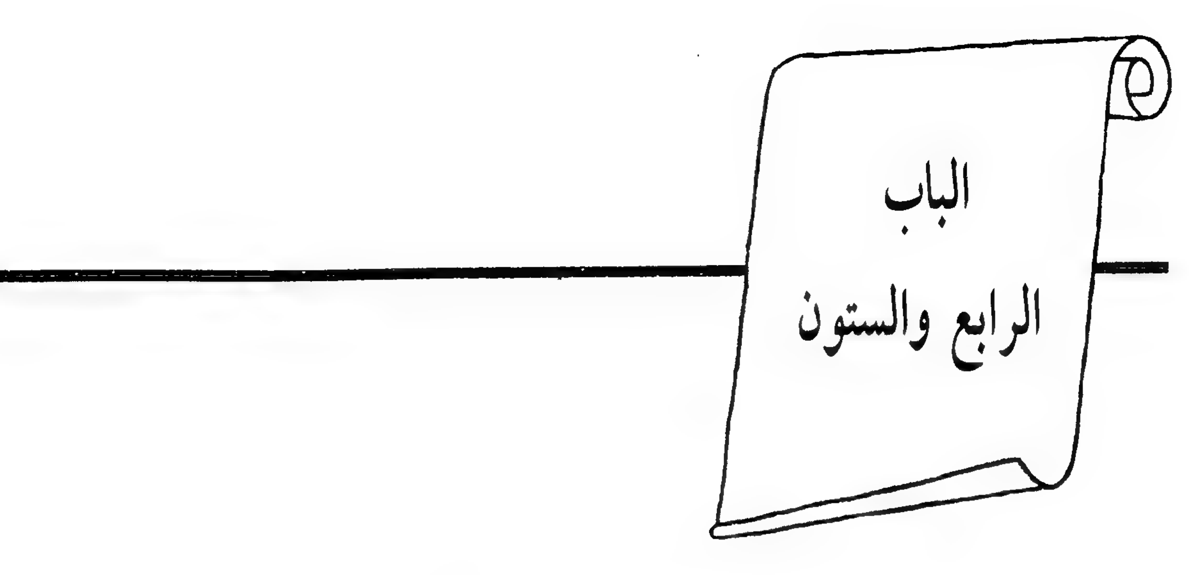
---

(١) سورة الفرقان الآية ٤٥.
(٢) سورة يوسف الآية ١٠٥ .
(٣) سورة يونس الآية ٣٩.

كالقطران أسود ثخين يسيل من جسده وتزيد رائحته بالتغرّب بحيث يكون أذكى من المسك الأذفر ، ويخرج من بلادهم أنواع اليواقيت وأكثرها في جزيرة سرنديب ، وعلى جبلها نزل آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة فيما يقال .

وحكي أنه كان ببابل سبع مدائن ، كل مدينة فيها أعجوبة ، كان في إحداها تمثال الأرض فاذا التوى على الملك بعض أهل مملكته ، وامتنعوا عن القيام بالخراج خرق أنهارها عليهم في التمثال ، فلا يطيق أهل تلك الناحية سدّ الماء حتى يعتدلوا ، وما لم يسدّ في التمثال لا يسدّ في ذلك البلد ، وفي الثانية حوض إذا أراد الملك أن يجمعهم لطعامه أتى كل واحد بما أحبّ من الشراب فصبه في ذلك الحوض فاختلطت الأشربة فكل من سقي من ذلك الحوض كان شرابه الذي جاء به ، وفي الثالثة طبل إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب عن أهله قرعوه ، فان كان حياً سمع له صوت ، وإن كان ميتاً لم يسمع له صوت . وفي الرابعة مرآة إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب نظروا فيها فأبصروه على أيّ حالة هو عليها ، كأنهم يشاهدونه . وفي الخامسة أوزة من نحاس فاذا دخل الغريب صوتت الأوزة صوتاً يسمعه أهل المدينة ، وفي السادسة قاضيان جالسان على الماء فيأتي الخصمان فيمشي المحقّ على الماء حتى يجلس مع القاضيين ويقع المبطل في الماء ، وفي السابعة شجرة ضخمة لا تظل إلا ساقها ، فان جلس تحتها أحد أظلته إلى ألف شخص ، فاذا زادوا على الألف واحداً جلسوا في الشمس كلهم ، ولو بسطت المقال في ذلك لاتسع المجال . وقد اقتصرت في ذلك على ما ذكرت ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وصلى الله على سيدنا محمد النبيّ الأميّ وعلى آله وصحبه وسلم .





في خلق الجانّ وصفاتهم

روي عن الشيخ عبد الله صاحب تحفة الألباب أنه قال : قرأت في بعض الكتب المتقدّمة المأثورة عن العلماء رحمهم الله تعالى ، أن الله تعالى لما أراد أن يخلق الجانّ خلق نار السموم ، وخلق من مارجها[1] خلقاً سماه جاناً كما قال الله تعالى : ﴿ **والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم** ﴾[2] وقال الله تعالى في موضع آخر : ﴿ **وخلق الجانّ من مارج من نار** ﴾[3]. وقيل إن الله تعالى خلق الملائكة من نور النار ، والجانّ من لهبها ، والشياطين من دخانها . وقد جاء في بعض الأخبار أن نوعاً من الجنّ في قديم الزمان قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام كانوا سكاناً في الأرض قد طبقوها براً وبحراً ، وسهلاً وجبلاً وكان فيهم الملك والنبوّة ، والدين والشريعة ، وكانوا يطيرون إلى السماء ، ويسلمون على الملائكة ، ويستعلمون منهم خبر ما في السماء ، وكثرت نعم الله عليهم إلى أن بغوا وطغوا وتركوا وصايا أنبيائهم ، فأرسل الله تعالى عليهم جنداً من الملائكة فحصل بينهم مقتلة عظيمة ، وغلبوا الجنّ وطردوهم إلى أطراف البحار وأسروا منهم أمماً كثيرة . وذكر المسعودي أن الفرس واليونان قالوا كان الجن بالارض قبائل منهم من يسترق السمع ، ومنهم من ينط مع لهب النار ، ومنهم من يطير ولكل قبيلة ملك ، وكان من جملتهم إبليس لعنه الله ثم بعد خمسة آلاف سنة افتقروا وملكوا عليهم ملوكاً وأقاموا على ذلك مدّة طويلة ، ثم تحاسدوا على الملك وأغار بعضهم على بعض ، وجرت بينهم وقائع وحروب ، وكان إبليس لعنه الله يصعد إلى السماء ، ويختلط بالملائكة فبعثه الله تعالى بجيوش من الملائكة فهزم الجنّ وقتلهم ، وتملك الأرض مدّة طويلة إلى أن خلق آدم عليه الصلاة والسلام واتفق له معه ما اتفق ، وأهبط آدم إلى الأرض وعظم شأنه فعند ذلك انتقل إبليس إلى البحر المحيط وسكن هناك . ثم ألقى عليه قوّة شهوة السفاد فهو لا يلد لكنه يلقح كالطير ويبيض ويفرخ . قيل إنه يخرج

---

(١) المارج : نار بلا دخان .
(٢) سورة الحجر الآية ٢٧ .
(٣) سورة الرحمن الآية ١٥ .

من كل بيضة ستون ألف شيطان فيسلطهم على الخلق ، وأقربهم إليهم وأدناهم منه ومن مجلسه أكثرهم إيذاء للخلق . وفي الحديث : « إنّ إبليس لعنه الله قال يا ربّ أنزلتني إلى الأرض وطردتني وجعلتني رجيماً فاجعل لي مسكناً ، قال مسكنك الأسواق ، قال فاجعل لي طعاماً قال ما لم يذكر اسمي عليه ، قال فاجعل لي شراباً قال كل مسكر ، قال فاجعل لي مؤذناً ، قال المزامير ، قال فاجعل لي صيداً أو قال مصايد قال النساء » .



في مكايده لعنه الله

منها أنه كان في بني إسرائيل عابد يدعى برصيصاً ، وله جار له بنت ، فحصل لها مرض فقال له جيرانه لو حملتها إلى جارك برصيصاً ليدعو لها . قال فجاء إبليس إلى العابد وقال : إنّ لجارك عليك حق الجوار ، وإن له بنتاً مريضة ، فما ضرك لو جعلتها عندك في جانب البيت ، ودعوت الله لها عقب عبادتك ، فعسى أن تشفى من مرضها . قال فلما أتاه جاره بالبنت قال له العابد دعها وانصرف ، قال فتركها عنده مدّة حتى شفيت . فجاء له إبليس ووسوس له حتى وطئها فحملت منه ، فلما حملت جاء له إبليس لعنه الله فقال له اقتلها لئلا تفتضح قال فقتلها ودفنها . قال فعند ذلك ذهب الشيطان إلى أهلها وأعلمهم بذلك . فجاءوا إلى العابد وكشفوا عن قضيته ، ثم أخذوه ومضوا ليقتلوه فعارضه إبليس اللعين في الطريق . فقال له إن سجدت لي خلصتك منهم ، فسجد له فعند ذلك تبرّأ منه . ومات الرجل كافراً . اللهمّ اعصمنا من مكايد الشيطان برحمتك يا أرحم الراحمين . ومن ذلك ما اتفق أن بني إسرائيل اتخذوا شجرة وصاروا يعبدونها ، فجاء بعض عبادهم بفأس ليقطعها فعارضه إبليس لعنه الله . وقال له تركت عبادتك وجئت لشيء لا يعود عليك نفعه ، ولم يزل به حتى تقاتل معه فصرعه العابد وجلس على صدره ، ثم رجع ولم يزل يعمل معه ذلك في كل يوم إلى ثلاثة أيام ، فلما رآه لا يرجع ، قال له : اترك قطعها وأنا أجعل لك في كل يوم دينارين تستعين بهما على نفقتك وعبادتك . وعاهده على ذلك ، فرجع قال:فجعل له تحت وسادته دينارين ، ثم دينارين ، ثم دينارين ، ثم قطع ذلك عنه فأخذ العابد الفأس وذهب إلى قطع الشجرة فعارضه إبليس في الطريق وتحاور معه وتجاذبا فصرعه إبليس وجلس على صدره وقال له : إن لم ترجع عن قطعها وإلا ذبحتك فقال له العابد : خلّ عني وأخبرني كيف غلبتني . فقال له : لما غضبت لله غلبتني ، ولما غضبت لنفسك غلبتك . ومنها أشياء كثيرة ليس هذا محلّ استيفائها قال الله تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوّ بئس للظالمين بدلاً** ﴾[١] .

---

(١) سورة الكهف الآية ٥٠ .



فصل

في المتشيطنة ، وهم أنواع كثيرة

منها الولهان يوجد في جزائر البحار على صورة الإنسان . حكى بعض المسافرين أنه عرض لمركب وهو راكب على نعامة يريد أخذ المركب وصاح بهم صيحة عظيمة خروا منها على وجوههم . وأخذ بعض من في المركب ومنه السعلاة . يحكي أن صنفاً منها يتزيا بزيّ النساء ويتراءى للرجال . وحكي أن بعضهم تزوج امرأة منهن وهو لا يعلم ، فأقامت معه مدة وولدت منه أولاداً ذكوراً وإناثاً فلما كانت ذات ليلة صعدت معه السطح فنظرت فرأت ناراً من بعد عند الجبانة فاضطربت وقالت : ألم تر نيران السعالى وتغير لونها . وقالت بنوك وبناتك أوصيك بهم خيراً ، ثم طارت ولم تعد إليه . ومنها نوع يقال له المذهب يخدم العباد ومقصوده بذلك أن يعجبوا بأنفسهم . حكي أن بعض العباد نزل صومعة يتعبد فيها فأتاه شخص بسراج وطعام فتعجب العابد من ذلك . فقال له شخص بالصومعة إنه المذهب يريد أن يخيل لك أن ذلك من كرامتي ، والله إني لأعلم أنه شيطان . وقال بعض الصوفية المذهب أصناف منهم من يحمل الفانوس بين يدي الشيخ ، ومنهم من يأتيه بالطعام والشراب وغير ذلك ، ومنهم من ينشد الشعر . وقال بعض المسافرين أبق لي غلام فخرجت في أثره فاذا أنا بأربعة يتناشدون شعر الفرزدق ، وجرير . قال فدنوت منهم وسلمت عليهم . فقالوا ألك حاجة ؟ قلت لا ، فقال بعضهم تريد غلامك قلت وما أعلمك بغلامي ؟ قال كعلمي بجهلك قلت أو جاهل أنا ؟ قال نعم وأحمق ، قال : ثم غاب وأتاني بالغلام مقيداً ، فلما رأيته غشي علي فلما أفقت قال انفخ في يده ففعلت فانفرج القيد عنه وصرت لا أنفخ في شيء من ذلك ، ولا في وجع من الأوجاع إلا برىء وخلص صاحبه . ومنها نوع يقال له العفريت يختطف النساء ، يقال إن رجلاً اختطفت ابنته في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه . وقال بعض المسافرين بينما نحن سائرون ذات ليلة إذ عرض لي قضاء الحاجة فانفردت عن رفقتي وضللت عنهم ، فبينما أنا سائر في أثرهم إذ رأيت ناراً عظيمة وخيمة فجئت إلى جانبها وإذا أنا بجارية جميلة جالسة فيها فسألتها عن حالها ، فقالت أنا فزارة اختطفني عفريت يقال له ظليم وجعلني ههنا فهو يغيب عني بالليل ويأتيني بالنهار ، فقلت لها امضي معي ، فقالت : أهلك أنا وأنت ، فانه يتبعنا ويأتينا فيأخذني ويقتلك ، فقلت لا يستطيع أخذك ولا قتلي ، وما زلت أرددها الحديث حتى رضيت فأنخت لها ناقتي فركبتها وسرت بها حتى طلع الفجر . فالتفت فاذا أنا بشخص عظيم مهول قد أقبل ورجلاه تخطان في الأرض . فقالت ها هو قد أتانا فأنخت ناقتي وخططت حولها خطاً ، وقرأت آيات من القرآن ، وتعوذت بالله العظيم فتقدم وأنشأ يقول :

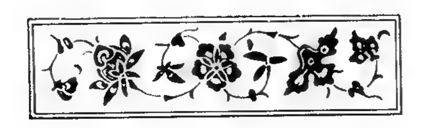
يا ذا الذي للحين يدعوه القدر   خلّ عن الحسناء رسلاً ثم سر

وإن تكن ذا خبرة فينا اصطبر

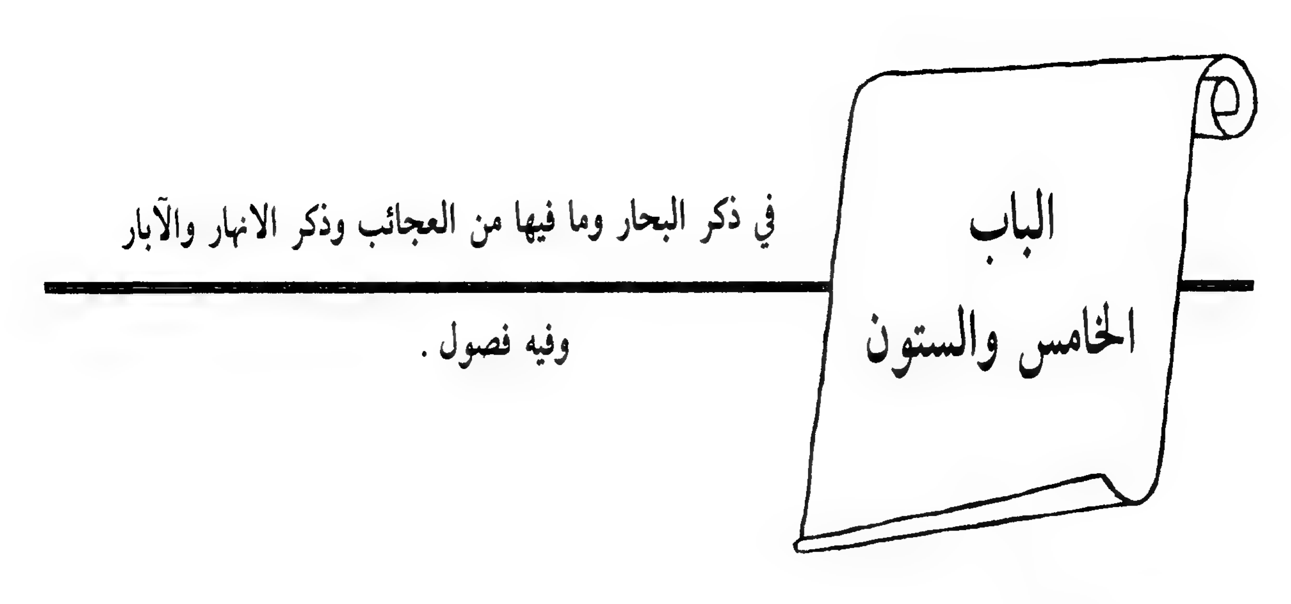
قال فأجبته :

يـا ذا الـذي للحين يـدعـوه الحمق　　خـلّ عن الحسناء رسـلاً وانـطلق
مـا أنت في الجن بـأول من عشق

قال فتبدى لي في صورة أسد وجاذبته ساعة ، فلم يظفر أحد منا بصاحبه فلما أيس مني قال هل لك في جزّ ناصيتي أو إحدى ثلاث خصال . قلت : وما هن ؟ قال : مائتان من الابل ، أو أخدمك أيام حياتي ، أو ألف دينار الساعة ، وخلّ بيني وبين الجارية ، فقلت لا أبيع ديني بدنياي ولا حاجة لي بخدمتك فاذهب من حيث أتيت . قال فانطلق وهو يتكلم بكلام لا أفهمه ، وسرت بالجارية إلى أهلها وتزوجت بها وجاءني منها أولاد . وقيل لما سخر الله تعالى الجن لسليمان عليه الصلاة والسلام نادى جبريل عليه السلام أيها الجن والشياطين أجيبوا نبي الله سليمان بن داود باذن الله تعالى . قال فخرجت الجن والشياطين من الجبال ، والكهوف ، والغيران ، والأودية ، والفلوات والآجام وهم يقولون لبيك لبيك والملائكة تسوقهم سوق الراعي للغنم حتى حشرت بين يدي سليمان عليه الصلاة والسلام طائعة ذليلة وكانوا إذ ذاك أربعاً وعشرين فرقة ، فنظر إلى ألوانها فاذا هي سود ، وشقر ، ورقط ، وبيض ، وصفر ، وخضر ، وعلى صور جميع الحيوانات ، ومنهم من رأسه رأس الأسد ، وبدنه بدن الفيل ومنهم من له خرطوم وذنب ، ومنهم من له قرون وحوافر وغير ذلك من الأنواع ، قال فعند ذلك تعجب نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام من هذه الأشكال وسجد شكراً لله تعالى وقال : إلهي البسني هيبة من عندك ، وجعل يسألهم عن طباعهم ، وعن طعامهم وشرابهم وهم يجيبونه ، ثم فرقهم في الصنائع من قطع الصخور ، والأحجار ، والأشجار ، والغوص في البحار ، وأبنية الحصون ، وفي استخراج المعادن والجواهر . قال الله تعالى : ﴿ **هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب** ﴾[1] . ونكتفي من ذلك بهذا القدر اليسير واللهالمسؤول في تيسير كل عسير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١) سورة ص الآية ٣٩ .



الفصل الأول :

في ذكر البحار

روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : لما أراد الله تعالى أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء لا يعلم طولها وعرضها إلا الله سبحانه وتعالى ، ثم نظر إليها بعين الهيبة فذابت وصارت ماء ، فاضطرب الماء ، فخلق الريح ووضع عليها الماء ، ثم خلق العرش ووضعه على متن الماء وعليه قوله تعالى : ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾[1] واعلم أن بحر الظلمات[2] لا يدخله شمس ولا قمر ، وأن بحر الهند خليج منه ، وبحر اللاذقية خليج منه ، وبحر الصين خليج منه ، وبحر الروم خليج منه ، وبحر فارس خليج منه ، وكل هذه البحار التي ذكرتها أصلها من البحر الأسود الذي يقال له البحر المحيط . وأما بحر الخزر وبحر خوارزم ، وبحر أرمينيا والبحر الذي عند مدينة النحاس وغير ذلك من البحار الصغار فهي منقطعة عن البحر الأسود ، ولذلك ليس فيها جزر ولا مد ، وقيل : سئل النبي ﷺ عن الجزر والمد فقال : « هو ملك عال قائم بين البحرين إن وضع رجله في البحر حصل له المد ، وإذا رفعها حصل لها الجزر » وقيل إنما سمي البحر الأسود لأن ماءه في رأي العين كالحبر الأسود فان أخذ منه الإنسان في يده شيئاً رآه أبيض صافياً إلا أنه أمر من الصبر ، مالح شديد الملوحة ، فاذا صار ذلك الماء في بحر الروم ، تراه أخضر كالزنجار ، والله تعالى يعلم لأي شيء ذلك ، وكذلك يرى في بحر الهند خليج أحمر كالدم ، وبحر أصفر كالذهب ، وخليج أبيض كاللبن ، تتغير هذه الألوان في هذه المواضع ، والماء في نفسه أبيض صاف . وقيل إن تغير الماء بلون الأرض . وأما ما يخرج من البحر من السمك وغيره فقد روي عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى ساحل البحر ، وأمّر علينا أبا عبيدة رضي الله تعالى عنه نتلقى عير قريش وزودنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره ، فكان أبو عبيدة يعطينا ثمرة ثمرة نمصها ثم نشرب عليها الماء ،

---

(١) سورة هود الآية ٧ .

(٢) المحيط الاطلسي .

فتكفينا يومنا إلى الليل ، فأشرفنا على ساحل البحر فرأينا شيئاً كهيئة الكثيب الضخم فأتيناه فاذا هو دابة من دواب البحر تدعى العنبر ، فأقمنا شهراً نأكل منها ونحن ثلثمائة حتى سمنا ولقد رأيتنا نغترف من الدهن الذي في وقب عينيها بالقلال ، ونقطع منه القطعة كالثور ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينها وأخذ ضلعاً من أضلاعها فأقامها ، ثم رحل أعظم بعير معنا فمرّ من تحتها وتزودنا من لحمها . فلما قدمنا المدينة ذكرنا لرسول الله ﷺ ذلك . فقال : هو رزق أخرجه الله لكم ، فهل معكم شيء من لحمها فتطعمونا فأرسلنا له منه فأكله . وقيل يخرج من البحر سمكة عظيمة ، فتتبعها سمكة أخرى أعظم منها لتأكلها ، فتهرب منها إلى مجمع البحرين ، فتتبعها فيضيق عليها مجمع البحرين لعظمها وكبرها ، فترجع إلى البحر الأسود ، وعرض مجمع البحرين مائة فرسخ ، فتبارك الله رب العالمين . وقال صاحب تحفة الألباب : ركبت في سفينة مع جماعة ، فدخلنا إلى مجمع البحرين فخرجت سمكة عظيمة مثل الجبل العظيم ، فصاحت صيحة عظيمة لم أسمع قط منها ولا أقوى ، فكاد قلبي ينخلع وسقطت على وجهي أنا وغيري ثم ألقت السمكة نفسها في البحر ، فاضطرب البحر اضطراباً شديداً وعظمت أمواجه وخفنا الغرق فنجّانا الله تعالى بفضله ، وسمعت الملاحين يقولون : هذه سمكة تعرف بالبغل . قال ورأيت في البحر سمكة كالجبل العظيم ، ومن رأسها إلى ذنبها عظام سود كأسنان المنشار كل عظم أطول من ذراعين وكان بيننا وبينها في البحر أكثر من فرسخ . فسمعت الملاحين يقولون : هذه السمكة تعرف بالمنشار إذا صادفت أسفل السفينة قصمتها نصفين . ولقد سمعت أنا من يقول إن جماعة ركبوا سفينة في البحر ، فأرسوا على جزيرة ، فخرجوا إلى تلك الجزيرة فغسلوا ثيابهم واستراحوا ، ثم أوقدوا ناراً ليطبخوا ، فتحركت الجزيرة وطلبت البحر وإذا بها سمكة فسبحان القادر على كل شيء لا إله إلا هو ولا معبود سواه . وقيل إن في البحر سمكة تعرف بالمنارة لطولها ، يقال إنها تخرج من البحر إلى جانب السفينة فتلقي نفسها عليها فتحطمها وتهلك من فيها ، فإذا أحسّ بها أهل السفينة صاحوا ، وكبروا ، وضجوا ، وضربوا الطبول ، ونفروا الطسوت والسطول والأخشاب لأنها إذا سمعت تلك الأصوات ربما صرفها الله تعالى عنهم بفضله ورحمته .

وقال الشيخ عبد الله صاحب تحفة الألباب : كنت يوماً في البحر على صخرة فإذا أنا بذنب حية صفراء منقطة بسواد طولها مقدار باع فطلبت أن تقبض على رجلي فتباعدت عنها فأخرجت رأسها كأنه رأس أرنب من تحت تلك الصخرة ، فسللت خنجراً كبيراً كان معي فطعنت به رأسها فغار فيه فلم أقدر على خلاصه منها فأمسكت نصابه بيدي جميعاً ، وجعلت أجره حتى ألصقتها بباب الجحر فتركت الجحر وخرجت من تحت الصخرة ، فاذا هي خمس حيات في رأس واحد ، فتعجبت من ذلك وسألت من كان هناك عن اسم هذه الحية فقال هذه تعرف بأم الحيات . وذكروا أنها تقبض على الآدمي في الماء فتمسكه حتى يموت وتأكله ، وأنها تعظم حتى تكون كل حية أكثر من عشرين ذراعاً ، وأنها تقلب الزوارق ، وتأكل من قدرت عليه من أصحابها ، وأن جلدها أرقّ من جلد البصل ، ولا يؤثر فيها الحديد شيئاً . قال : ورأيت مرة في البحر صخرة عليها شيء كثير من النارنج الأحمر الطري الذي كأنه قطع من شجرة فقلت في نفسي هذا قد وقع من بعض السفن ، فذهبت إليه فقبضت منه نارنجه ، فاذا هي ملتصقة بالحجر فجذبتها ، فاذا هي حيوان يتحرّك ويضرب في يدي فلففت يدي بكم ثوبي وقبضت عليه وعصرته فخرج من فيه مياه كثيرة وضمر فلم أقدر أن أقلعه من مكانه فتركته عجزاً عنه ، وهو من عجائب خلق الله تعالى ، وليس له عين ولا جارحة إلا

الفم والله سبحانه وتعالى أعلم لأي شيء يصلح ذلك . قال ولقد رأيت يوماً على جانب البحر عنقود عنب أسود كبير الحب ، أخضر العرجون[1] كأنما قطف من كرمه ، فأخذته وكان ذلك في أيام الشتاء ، وليس في تلك الأرض التي كنت فيها عنب ، فرمت آكل منه فقبضت على حبة منه وجذبتها فلم أقدر أن أقلعها من العنقود ، حتى كأنها من الحديد قوّة وصلابة فجذبتها جذبة أقوى من الأولى فانقشرت قشرة من تلك الحبة كقشر العنب وفي داخلها عجم كعجم العنب فسألت عن ذلك فقيل لي هذا من عنب البحر ورائحته كرائحة السمك . وفي البحر أيضاً حيوان رأسه يشبه رأس العجل وله أنياب كأنياب السباع وجلده ، له شعر كشعر العجل ، وله عنق ، وصدر ، وبطن ، وله رجلان كرجلي الضفدع وليس له يدان ، يعرف بالسمك اليهودي ، وذلك أنه إذا غابت الشمس ليلة السبت يخرج من البحر ويلقي نفسه في البرّ ولا يتحرّك ولا يأكل ولو قتل ، ولا يدخل البحر حتى تغيب الشمس ليلة الأحد فحينئذ يدخل البحر ، ولا تلحقه السفن لخفته وقوّته ، وجلده يتخذ منه نعل لصاحب النقرس ، فلا يجد له ألماً ما دام ذلك الجلد عليه وهو من العجائب . وقيل إنّ في بحر الروم سمكاً طويلاً طول السمكة مائة ذراع وأكثر ، وله أنياب كأنياب الفيل ، تؤخذ وتباع في بلاد الروم ، وتحمل إلى سائر البلاد وهي أحسن وأقوى من أنياب الفيل ، وإذا شق الناب منها يظهر فيه نقوش عجيبة ، ويسمونه الجوهر ويتخذون منه نصباً للسكاكين وهو مع قوّته وحسن لونه ثقيل الوزن كالرصاص . وفي البحر أيضاً سمك يسمى الرعاد ، إذا دخل في شبكة فكل من جرّ تلك الشبكة ، أو وضع يده عليها ، أو على حبل من حبالها ، تأخذه الرعدة حتى لا يملك من نفسه شيئاً كما يرعد صاحب الحمّى . فاذا رفع يده زالت عنه الرعدة فإن أعادها عادت إليه الرعدة . وهذا أيضاً من العجائب فسبحان الله جلت قدرته . وقال صاحب تحفة الألباب : حدّثني الشيخ أبو العباس الحجازي . قال حدّثني رجل يعرف بالهاروني من ولد هارون الرشيد أنه ركب سفينة في بحر الهند فرأى طاووساً قد خرج من البحر أحسن من طاووس البرّ ، وأجمل ألواناً قال فكبرنا لحسنه فجعل يسبح وينظر لنفسه وينشر أجنحته وينظر إلى ذنبه ساعة ثم غاص في البحر . وفي البحر دابة يقال لها الدرفين تنجي الغريق لأنها تدنو منه حتى يضع يده على ظهرها فيستعين بالاتكاء عليها ، ويتعلق بها فتسبح به حتى ينجيه الله بقدرته ، فسبحان من دبر هذا التدبير اللطيف ، وأحكم هذه الحكمة البالغة . وزعموا أن السمك يتجه نحو الغناء والصوت الحسن ، ويصبو لسماعه ، وربما قيل إن بعض الصيادين يحفرون في البحر حفائر ، ثم يجلسون فيضربون بالمعازف وآلات الطرب فيجتمع السمك ويقع في تلك الحفائر ، وقيل إن الدرفين وأنواع السمك إذا سمعت صوت الرعد هربت إلى قعر البحر ، وقيل إن خيل البحر توجد بنيل مصر ، وهي صفة خيل البرّ ، وقيل إنها تأكل التماسيح وربما خرجت فرعت الزرع ، وإذا رأى أهل مصر أثر حوافرها حكموا أن ماء النيـل ينتهي في طلوعه إلى ذلك المكان ، وقيل إن في البحر المحيط شيئاً يتراءى كالحصون فيرتفع على وجه الماء ويظهر منه صور كثيرة ويغيب . ومن عجيب ما حكي أن فيه جزيرة فيها ثلاث مدن عامرة ، وهي كثيرة الأمطار ، وأهلها يحصدون زرعها قبل جفافه لقلة طلوع الشمس عندهم ويجعلونه في بيت ويوقدون حوله النيران حتى

---

(١) العرجون : العذق ، أو إذا يبس وأعوج ، أو عود الكباسة .

يجف وعجائبه لا تحصى ولا يمكن حصرها . ويقال إن الإسكندر لما سار إلى بحر الظلمات مرّ بجزيرة بها أمة رؤوسهم مثل رؤوس الكلاب يخرج من أفواههم مثل لهب النار ، وخرجوا إلى مراكبه وحاربوه ثم تخلص منهم وسار فرأى صوراً متلونة بألوان شتى ، وسمكاً طوله مائة ذراع وأكثر ، وأقل . فسبحان الله تعالى ما أكثر عجائب خلقه . ويقال إنه مرّ في بعض الجزائر على قصر مصنوع من البلور على قلعة محكمة البناء وحولها قناديل لا تطفأ .

ومن جزائر البحر جزيرة القمر ، ويقال : إن بها شجراً طول الشجرة مائتا ذراع ، ودور ساقها مائة وعشرون ذراعاً ، وبها طوائف من السودان عرايا الأبدان يلتحفون بورق الشجر ، وهو ورق يشبه ورق الموز لكنه أسمك وأعرض وأنعم ، ويقال إن هذه الجزيرة بالقرب من نيل مصر ، وإن هذه الأمة التي بها يتمذهبون بمذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه ، وهم في غاية اللطافة ، من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . وبالقرب منهم معدن الذهب ، والياقوت ، وبها الفيلة البيض وحيوانات مختلفة الأشكال من الوحوش وغيرها ، وبها العود القماري والآبنوس والطواويس ، وبها مدن كثيرة ، ومنها جزيرة الواق خلف جبل يقال له اصطفيون[1] داخل البحر الجنوبي ، ويقال إن هذه الجزيرة كانت ملكتها امرأة ، وأن بعض المسافرين وصل إليها ودخل ورأى هذه الملكة وهي جالسة على سرير وعلى رأسها تاج من ذهب وحولها أربعمائة وصيفة كلهنّ أبكارا ، وفي هذه الجزيرة من العجائب شجر يشبه شجر الجوز ، وخيار الشنبر ، ويحمل حملاً كهيئة الإنسان فاذا انتهى سمع له تصويت يفهم منه واق واق ثم يسقط . وهذه الجزيرة كثيرة الذهب حتى قيل إن سلاسل خيلهم ، ومقاود كلابهم وأطواقها من الذهب . ومنها جزيرة الصين يقال إن بها ثلثمائة مدينة ونيفاً سوى القرى والأطراف ، وأبوابها أثنا عشر باباً وهي جبال في البحر بين كل جبلين فرجة وهذه الجبال تمرّ بها المراكب مسيرة سبعة أيام ، وإذا جاوزت السفينة الأبواب سارت في ماء عذب حتى تصل إلى الموضع الذي تريده ، وفيها من الأودية والأشجار والأنهار ما لا يمكن وصفه فتبارك الله رب العالمين . وقيل إن الاسكندر لما فرغ من بناء سدّه حمد الله تعالى وأثنى عليه ثم نام ، وإذا بحيوان عظيم صعد من البحر إلى أن علا وسدّ الأفق فظنّ من حول الملك أنه يريد ابتلاعهم ففزعوا فانتبه . فقال : ما لكم ؟ فقالوا له انظر ما حلّ بنا . فقال ما كان الله ليأخذ نفساً قبل انقضاء أجلها ، وقد منعني من العدوّ فلا يسلط علي حيواناً من البحر . قال فاذا بالحيوان قد دنا من الملك وقال : أيها الملك أنا حيوان من هذا البحر وقد رأيت هذا السدّ بني وخرب سبع مرات ولم يزد على ذلك ثم غاب في البحر فتبارك من له هذا الملك العظيم لا إله إلا هو العزيز الحكيم . وقيل إن بجزيرة النسناس باليمن مدينة بين جبلين وليس لها ماء يدخل فيها إلا من المطر وطولها نحو ستة فراسخ ، وهي حصينة ذات كروم ، ونخيل ، وأشجار وغير ذلك ، وإذا أراد إنسان الدخول فيها حثى في وجهه التراب ، فان أبى إلا الدخول خنق أو صرع ، وقيل إنها معمورة بالجان ، وقيل بخلق من النسناس . ويقال إنهم من بقايا عاد الذين أهلكهم الله بالريح العقيم . وكل واحد منهم شق إنسان . ونقل عن بعض المسافرين أنه قال : بينما نحن سائرون إذ أقبل علينا الليل فبتنا بواد ، فلما أصبح

---

(١) اسم وهمي لجبل خيالي في تصور بعض المؤرخين .

الصباح سمعنا قائلاً يقول من الشجر يا أبا بجير : الصبح قد أسفر والليل قد أدبر ، والقناص قد حضر فالحذر الحذر . قال : فلما ارتفع النهار أرسلنا كلبين كانا معنا نحو الشجرة فسمعت صوتاً يقول ناشدتك . قال : فقلت لرفيقي دعهما . قال : فلما وثقا منا نزلا هاربين فتبعهما الكلبان وجدّا في الجري فأمسكا شخصاً منهما . قال : فأدركناه وهو يقول :

الـويـل لي ممـا بـه دهـاني　　دهـري من الهمـوم والأحـزان
قـفـا قليـلاً أيهـا الـكـلبـان　　إلى مـتى إلي تجـريـان

قال : فأخذناه ورجعنا فذبحه رفيقي وسوّاه فعفته ، ولم آكل منه شيئاً فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه لا إله إلا هو ولا معبود سواه .



في ذكر الأنهار والآبار والعيون

قال الله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض** ﴾[1] . قال المفسرون هو المطر ، ومعنى سلكه أدخله في الأرض وجعله عيوناً ومسايل ومجاري كالعروق في الجسد ، فمن الأنهار ما هو من الأمطار المجتمعة ، ولهذا ينقطع عند فراغ مادّته ، ومنها ما ينبع من الأرض وأطول ما يكون من الأنهار ألف فرسخ ، وأقصره عشرة فراسخ إلى اثنين وثلاثة وبين ذلك ، وكلها تبتدىء من الجبال وتنتهي إلى البحار والبطائح ، وفي ممرها تسقي المدن والقرى وما فضل منها ينصبّ في البحر الملح ، ويختلط به ، ولا يمكن استيفاء عددها لكنا نشير إلى بعضها فنقول : النيل المبارك ، ليس في الأنهار أطول منه لأنه مسيرة شهرين في بلاد الإسلام ، وشهرين في بلاد النوبة ، وأربعة في الخراب وقيل إن مسافته من منبعه إلى أن ينصبّ في البحر الرومي ألف وسبعمائة فرسخ وثمانية وأربعون فرسخاً . قال ذلك صاحب « مباهج الفكر ومناهج العبر » واختلف في زيادته ، فقيل : إن الأنهار والعيون تمدّه في الوقت الذي يريده الله تعالى . وفي الحديث أنه من أنهار الجنة . وقال أهل الأثر إن الأنهار التي من الجنة تخرج من أصل واحد من قبة في أرض الذهب ، ثم تمرّ بالبحر المحيط وتشقّ فيه . قالوا ولولا ذلك لكانت أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور . نهر الفرات يوجد بأرض أرمينية فضائله كثيرة والنيل أصدق حلاوة منه ، وبه من السمك الأبيض ما تكون الواحدة قنطاراً بالدمشقي ، وطول هذا النهر من حين يخرج من عند ملطية إلى أن يأتي إلى بغداد

---

(١) سورة الزمر الآية ٢١ .

ستمائة وثلاثون فرسخاً ، وفي وسطه مدن وجزائر تعدّ من أعمال الفرات . جيحون[١] نهر عظيم تتصل به أنهار كثيرة ويمرّ على مدن كثيرة حتى يصل إلى خوارزم ولا ينتفع به شيء من البلاد سوى خوارزم لأنها متسفلة عنه ، ثم ينصبّ في بحيرة بينها وبين خوارزم ستة أيام ، وهو يجمد في الشتاء خمسة أشهر ، والماء يجري من تحت الجمد فيحفر أهل خوارزم منه لهم أماكن ليستقوا منها وإذا اشتدّ جموده مروا عليه بالقوافل والعجل المحملة ولا يبقى بينه وبين الأرض فرق ، ويعلوه التراب ويبقى على ذلك شهرين . سيحون[٢] نهر عظيم قيل : إن مبدأه من حدود الترك ويجري حتى يتصل ببلاد الفرغانة[٣] وربما يجتمع مع جيحون في بعض الأماكن . الدجلة نهر بغداد وله أسماء غير ذلك ، وماؤه أعذب المياه بعد النيل وأكثرها نفعاً . قيل مقداره ثلثمائة فرسخ وفي بعض الأوقات يفيض حتى قيل إنه يخشى على بغداد الغرق منه ، وهو نهر مبارك كثيراً ما ينجو غريقه . حكي أنه وجد به غريق فيه الروح فلما أفاق سألوه عن حاله فأخبرهم أنه لما غلب على نفسه رأى كأنّ أحداً يحمله ويصعد به . وروي في الأثر : أن الله تعالى أمر دانيال عليه الصلاة والسلام أن يحفر لعباده ما يستقون منه وينتفعون به ، فكان كلما مرّ بأرض ناشده أهلها أن يحفر ذلك عندهم إلى أن حفر دجلة والفرات . وأما الأنهار الصغار فكثيرة ولكنا نذكر منها طرفاً فنقول : نهر حصن المهدي قال صاحب تحفة الألباب : إنه بين البصرة والأهواز وأنه يرتفع منه في بعض الأوقات شيء يشبه صورة الفيل ولا يعرف أحد شأنه . نهر أذربيجان قيل : إن بالقرب منه،نهراً يجري فيه الماء سنة ، ثم ينقطع ثمان سنين ، ثم يعود في التاسعة . وقيل : إنه ينعقد حجراً ويستعمل منه اللبن ويبنى به . وقيل إن في تلك الأرض بحيرة تجفّ فلا يوجد فيها ماء ولا سمك ولا طين سبع سنين ثم يعود الماء والسمك والطين فتبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . نهر صقلاب ، يجري فيه الماء يوماً واحداً في كل أسبوع ثم ينقطع ستة أيام . نهر العاصي ، بأرض حماة وقيل بحمص وهو نهر معروف وفيه يقول بعضهم :

مدينة حمص كعبة القصف أصبحت ... يطوف بها الداني ويسعى لها القاصي
بها روضة من حسنها سندسية ... تعلق في أكناف أذيالها العاصي

نهر العمود بأرض الهند عليه شجرة نابتة من حديد ، وقيل من نحاس وتحتها عمود من نحاس ، وقيل من حديد طوله من فوق الماء نحو عشرة أذرع وعرضه ذراع وعلى رأسه ثلاث شعب مسنونة محددة وعنده رجل يقرأ كتاب الله تعالى ويقول يا عظيم البركة طوبى لمن صعد هذه الشجرة وألقى بنفسه على هذا العمود فيدخل الجنة . وقال أهل تلك الناحية من يريد ذلك فيصعد على تلك الشجرة ويلقي نفسه فيتقطع . نهر باليمن ، قال صاحب تحفة الألباب إنه عند طلوع الشمس يجري من المشرق إلى المغرب وعند غروبها يجري من المغرب إلى المشرق نهر ببلاد الحبشة والسودان ، يجري إلى المشرق يشبه النيل في زيادته ونقصانه وأرضه بها الخصب والبركة ، وبها شجر كالأراك يحمل ثمراً كالبطيخ داخله شيء يشبه القند[٤] في الحلاوة ، ولكن فيه بعض حموضة ، وهذا النهر يجري في بلادهم ثمانية أشهر ثم ينصب في البحر المحيط فسبحان من دبر هذا التدبير وأحكم هذه الصنعة لا إله إلا هو الحكيم الخبير .

(١ ، ٢) انهار في خراسان .

(٣) بلاد في تركستان بروسيا .

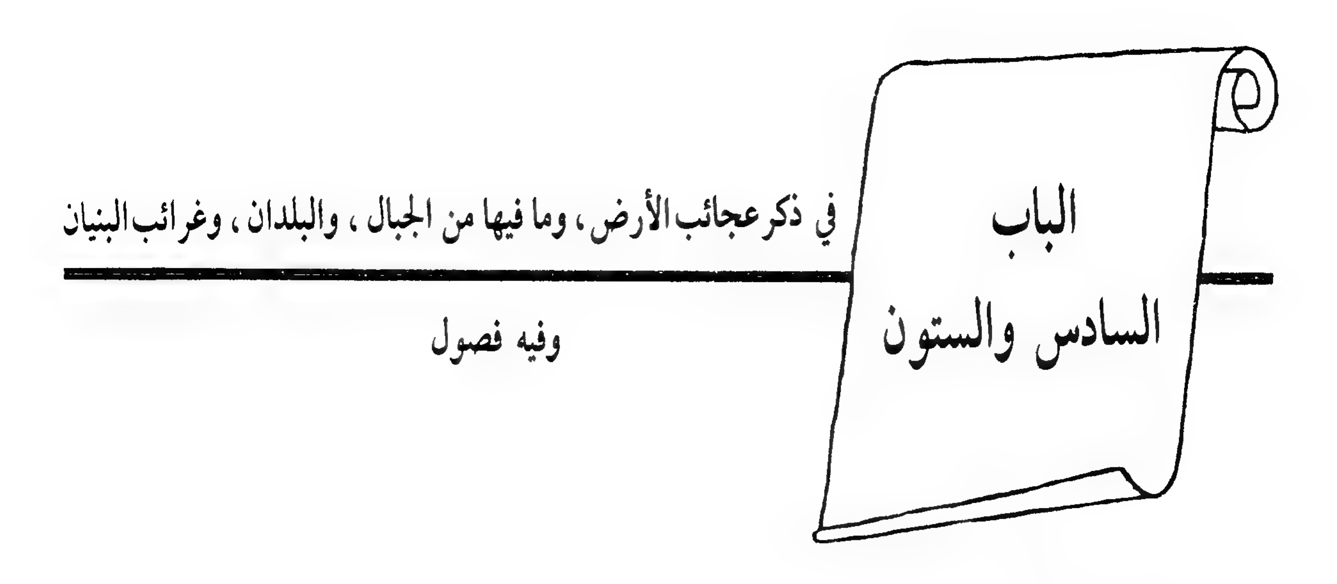
(٤) القند : والقندة ، والقنديد : عسل قصب السكر إذا جمد (معرب) .



في ذكر الآبار

قال مجاهد : كنت أحبّ أن أرى كل شيء غريب ، فسمعت أن ببابل بئر (هاروت وماروت) فسرت إليهما ، فلما وصلت إلى ذلك المكان وجدت عنده بيوتاً فدخلت في بعضها فوجدت شخصاً فسلمت عليه فرحب بي وسألني عن حاجتي ، فذكرت له غرضي فأمر يهودياً يذهب معي فيوقفني على البئر ويطلعني على الملكين . قال فسرنا إلى البئر ففتح سرداباً ونزلنا ، فأمرني أن لا أذكر اسم الله تعالى . قال فلما رأيت الملكين رأيت شيئاً كالجبلين العظيمين منكسين على رأسيهما وعليهما الحديد من أعناقهما إلى ركبهما . قال مجاهد فلما رأيت ذلك ففكرت بالله تعالى قال فاضطربا اضطراباً شديداً حتى كادا يقطعان السلاسل . قال ففر اليهودي فتعلقت به. فقال : أما أمرتك أن لا تذكر اسم الله تعالى كدنا والله نهلك.(بئر برهوت) بقرب حضرموت وهي التي قال النبي صلى الله عليه وسلم إنها مجمع أرواح الكفار . قال علي كرم الله وجهه : أبغض البقاع إلى الله تعالى بئر برهوت ماؤ ها أسود منتن تأوي إليها أرواح الكفار ، والموكل بها ملك يسمى دومة . (بئر عسفان) ماؤ ها يستشفى به قيل إن النبيّ ﷺ تفل فيها . قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما كنا نغسل المريض منها فيعافى ، وقيل إن النبيّ ﷺ توضأ منها . (بئر معروفة بأرض حلب) خاصيتها أنها إذا شرب منها المكلوب زال كلبه ما لم يجاوز الأربعين . وبنيسابور آبار كثيرة وهي معادن الفيروزج ، وإنما يمنع الناس عنها كثرة عقاربها . وبأرض فارس بئر ينبع منها ماء في وقت من السنة ، فيرتفع على وجه الأرض لمحة واحدة ويجري فينتفع به في سقي الزرع ثم يعود إلى ما كان . وعجائب الله كثيرة لا تكاد تنحصر لا إله إلا هو ولا معبود سواه .





الباب السادس والستون

في ذكر عجائب الأرض ، وما فيها من الجبال ، والبلدان ، وغرائب البنيان

وفيه فصول

الفصل الأول :

في ذكر الأرض وما فيها من العمران والخراب

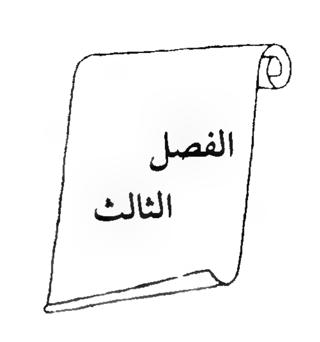
روى وهب بن منبه رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى ثمانية عشر ألف عالم ، الدنيا منها عالم واحد ، وما العمران في الخراب إلا كخردلة في كف أحدكم » وقال رواة الأثر : إن لله عز وجل دابة في مرج من مروجه في غامض علمه رزقها في كل يوم بقدر رزق العالم بأسره ، وجميع مدائن الدنيا أربع آلاف مدينة وخمسمائة وست وخمسون مدينة وقيل غير ذلك . وأقالم الأرض سبعة : الاقليم الأول : الهند . الثاني : الحجاز . الثالث : إقليم مصر . الرابع : إقليم بابل . الخامس : إقليم الروم والشام . السادس : إقليم الترك . السابع : إقليم الصين ، وأوسط الأقاليم إقليم بابل وهو أعمرها وفيه جزيرة العرب وفيه العراق الذي هو سرة الدنيا ، وبغداد في وسط هذا الإقليم ، فلاعتداله اعتدلت ألوان أهله فسلموا من شقرة الروم ، وسواد الحبشة ، وغلظ الترك ، وجفاء أهل الجبال ، ودمامة أهل الصين . والممالك المشهورة التي ضبطت عدتها في زمن المأمون ثلثمائة وثلاث وأربعون مملكة ، أوسعها ثلاثة أشهر ، وأضيقها ثلاثة أيام ، وقال أهل الهيئة إنه يكون عند خط الاستواء ربيعان وصيفان وخريفان وشتاءان في سنة واحدة . وانه يكون في بعض البلاد ستة أشهر ليل ، وستة أشهر نهار وبعضها حرّ وبعضها برد فسبحان من خلق كلّ شيء فاتقنه لا إله إلا هو ولا معبود سواه .



في ذكر الجبال

قيل إن الله تعالى لما خلق الأرض ماجت واضطربت فخلق الجبال وأرساها بها فاستقرّت ومجموع ما

عرف بالأقاليم السبعة من الجبال مائة وثمانية وتسعون جبلاً فمنها ما طوله عشرون فرسخاً ، ومنها ما طوله مائة فرسخ ، إلى ألف فرسخ . ولنذكر منها ما هو مشهور معروف بين الناس . فمن أعجبها جبل سرنديب وطوله مائتان ونيف وستون ميلاً ، وفيه أثر قدم آدم عليه الصلاة والسلام حين أهبط ، وحوله الياقوت ، وفي أوديته الماس الذي يقطع به الصخور ويثقب به اللؤلؤ ، وفيه العود والفلفل ودابة المسك ودابة الزباد . (جبل الروم) الذي فيه السد طوله سبعمائة فرسخ ، وينتهي إلى بحر الظلمات . (جبل أبي قبيس) سمي بذلك لأن آدم عليه الصلاة والسلام كناه بذلك حين اقتبس منه النار التي بين أيدي الناس وقيل غير ذلك . (جبل القدس) جبل شريف مبارك فيه غار يضيء بالليل من غير سراج ويزوره الناس . (جبل اروند) بهمذان برأسه عين تخرج من صخرة أياماً معدودة في السنة ، قصد من كلّ وجه يستشفى بها . (جبل بالشام) لونه أسود كالفحم ، وترابه أبيض تبيض به الثياب . (جبل الأندلس) فيه غار إذا دهنت فتيلة وأدخلتها فيه أوقدت ، وبها جبل به عينان إحداهما باردة ، والأخرى حارة والمسافة التي بينهما مقدار شبر . وجبل به معدن الكبريت والزئبق والزنجفر . (جبل سمرقند) يقطر منه ماء في الصيف يصير جلمداً وفي الشتاء يحرق من حرارته . (جبل الصور) بكرمان يكسر حجره فيخرج منه كصور الآدميين ، قائمين وقاعدين ، ومضطجعين وإذا سحق وطرح في الماء يرى كذلك . (جبل الأرّجان) بطبرستان يقطر منه ماء كل قطرة تصير حجراً مسدساً أو مثمناً . (جبل هرمز) ينزل منه ماء إلى وهدة فان صاح إنسان صيحة وقف ، فان ثنى جرى . (جبل الطير) بإقليم الصعيد يجتمع عنده الطير في كل سنة مرة ويدخل في كوة هناك ، فتمسك الكوة على واحدة وتطير البقية ، ويكون ذلك علامة الخصب في تلك السنة . ولنقتصر على ذلك ومن أراد الوقوف على جميعها فعليه بتاريخ مرآة الزمان .



في ذكر المباني العظيمة وغرائبها وعجائبها

قال أهل التواريخ ونقلة الأخبار : إن أول بناء بني على وجه الأرض الصرح الذي بناه نمرود الأكبر بن كوش بن حام بن نوح عليه الصلاة والسلام ، وبقعته بكوني من أرض بابل وبه إلى عصرنا أثر ذلك البناء كأنه جبال شاهقات ، قالوا وكان طوله خمسة آلاف ذراع بناه بالحجارة والرصاص والشمع واللبان ليمتنع هو وقومه من طوفان ثان فأخرب الله تعالى ذلك الصرح في ليلة واحدة بصيحة فتبلبلت بها ألسنة الناس فسميت أرض بابل . ﴿ **إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد** ﴾[1]

---

(١) انظر سورة الفجر الآيتان ٧ و٨ .

حكى الشعبي في كتاب سير الملوك أن شداد بن عاد ملك جميع الدنيا وكان قومه قوم عاد الأولى زادهم الله بسطة في الأجسام وقوة حتى قالوا من أشد منا قوة قال الله تعالى : ﴿ **أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة** ﴾[1] وأن الله تعالى بعث إليهم هوداً نبياً عليه الصلاة والسلام فدعاهم إلى الله تعالى فقال له شداد إن آمنت بالهك فماذا لي عنده ؟ قال يعطيك في الآخرة جنة مبنية من ذهب ، ويواقيت ، ولؤلؤ وجميع أنواع الجواهر . قال شداد أنا أبني مثل هذه الجنة ولا أحتاج إلى ما تعدني به . قال : فأمر شداد ألف أمير من جبابرة قوم عاد أن يخرجوا ويطلبوا أرضاً واسعة كثيرة الماء ، طيبة الهواء ، بعيدة من الجبال ليبني فيها مدينة من ذهب . قال فخرج أولئك الأمراء ومع كل أمير ألف رجل من خدمه وحشمه فساروا في الأرض حتى وصلوا إلى جبل عدن فرأوا هناك أرضاً واسعة طيبة الهواء فأعجبتهم تلك الأرض فأمروا المهندسين والبنائين فخطوا مدينة مربعة الجوانب دورها أربعون فرسخاً ، من كل جهة عشرة فراسخ ، فحفروا الأساس إلى الماء وبنوا الجدران بحجارة الجزع اليماني حتى ظهر على وجه الأرض ، ثم أحاطوا به سوراً ارتفاعه خمسمائة ذراع ، وغشوه بصفائح الفضة المموهة بالذهب فلا يكاد يدركه البصر إذا أشرقت الشمس . وكان شداد قد بعث إلى جميع معادن الدنيا فاستخرج منها الذهب ، واتخذه لبناً ، ولم يترك في يد أحد من الناس في جميع الدنيا شيئاً من الذهب إلا غصبه ، واستخرج الكنوز المدفونة ، ثم بنى داخل المدينة مائة ألف قصر بعدد رؤساء مملكته ، كل قصر على عمد من أنواع الزبرجد واليواقيت معقودة بالذهب طول كل عمود مائة ذراع ، وأجرى في وسطها أنهاراً وعمل منها جداول لتلك القصور والمنازل ، وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت ، وحلى قصورها بصفائح الذهب والفضة ، وجعل على حافات الأنهار أنواع الأشجار ، جذوعها من الذهب وأوراقها وثمرها من أنواع الزبرجد واليواقيت واللآلىء ، وطلى حيطانها بالمسك والعنبر ، وجعل فيها جنة مزخرفة له ، وجعل أشجارها الزمرد واليواقيت وسائر أنواع المعادن ، ونصب عليها أنواع الطيور المسموعة ، الصادح والمغرد وغير ذلك ، ثم بنى حول المدينة مائة ألف منارة برسم الحراس الذين يحرسون المدينة ، فلما كمل بناؤها أمر في مشارق الأرض ومغاربها أن يتخذوا في البلاد بسطاً ، وستوراً ، وفرشاً ، من أنواع الحرير لتلك القصور والغرف ، وأمر باتخاذ أواني الذهب والفضة فاتخذوا جميع ما أمر به ، فلما فرغوا من ذلك جميعه خرج شداد من حضرموت في أهل مملكته وقصد مدينة إرم ذات العماد فلما أشرف عليها ورآها قال قد وصلت إلى ما كان هو يعدني به بعد الموت وقد حصلت عليه في الدنيا فلما أراد دخولها أمر الله تعالى ملكاً فصاح بهم صيحة الغضب ، وقبض ملك الموت أرواحهم في طرفة عين ، فخروا على وجوههم صرعى ، قال الله تعالى : ﴿ **وأنه أهلك عاداً الأولى** ﴾[2] وذلك قبل هلاك عاد بالريح العقيم ، وأخفى الله تعالى تلك المدينة عن أعين الناس فكانوا يرون بالليل في تلك البرّية التي بنيت فيها معادن الذهب والفضة واليواقيت تضيء كالمصابيح ، فاذا وصلوا إليها لم يجدوا هناك شيئاً . وقد نقل أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال لـــه عبد الله بن قلابة الأنصاري دخل إليها ، وذلك أنه ضلت له إبل فخرج

---

(١) سورة النجم الآية ٥٠ .

(٢) سورة فصلت الآية ١٥ .

في طلبها فوصل إليها ، فلما رآها دهش وبهت ورأى ما أذهله وحيره وقال في نفسه : هذه تشبه الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين في الآخرة فقصد باباً من أبوابها ، فلما وصل إليه أناخ راحلته ودخل المدينة فرأى تلك القصور ، والأنهار ، والأشجار ولم ير في المدينة أحداً فقال أرجع إلى معاوية وأخبره بهذه المدينة وما فيها ، ثم حمل معه شيئاً من تلك الجواهر واليواقيت في وعاء وجعله على راحلته ، وعلّم على المدينة علامة ، وقال قربها من جبل عدن كذا ، ومن الجهة الفلانية كذا ، ثم انصرف عنها بعد ما ظفر بإبله ، ثم دخل على معاوية رضي الله تعالى عنه بدمشق وأخبره بجميع ما رآه . فقال له معاوية : في اليقظة رأيتها أم في المنام . قال بل في اليقظة وقد حملت معي من حصبائها وأخرج له شيئاً مما حمله من الجواهر واليواقيت فتعجب معاوية من ذلك ثم أرسل إلى كعب الأحبار رضي الله تعالى عنه فلما دخل عليه قال معاوية : يا أبا إسحاق هل بلغك أن في الدنيا مدينة من ذهب قال نعم يا أمير المؤمنين وقد ذكرها الله عز وجل في القرآن لنبيه صلى الله عليه وسلم بقوله عز من قائل :﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد** ﴾[1] وقد أخفاها الله تعالى عن أعين الناس وسيدخلها رجل من هذه الأمة يقال له عبد الله بن قلابة الأنصاري . ثم التفت فرأى عبد الله بن قلابة . فقال ها هو يا أمير المؤمنين وصفته واسمه في التوراة ولا يدخلها أحد بعده إلى يوم القيامة . وقيل إن ذلك كان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، وأن الرجل الذي دخلها حكى ذلك لعمر بن الخطاب فلم ينكره ولا من كان حاضراً ، بل قال إن النبي صلى الله عليه وسلم قال يدخلها بعض أمتي والله سبحانه وتعالى أعلم.(ومن المباني العجيبة الخورنق) الذي بناه النعمان بن امرىء القيس ، وهو النعمان الأكبر بناه في عشرين سنة ، فلما انتهى أعجبه فخشي أن يبني لغيره مثله فأمر أن يلقى بانيه من أعلاه فألقوه فتقطع ، واسم بانيه سنمار فصارت العرب تضرب به المثل : جزاه جزاء سنمار قال الشاعر :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنمار

ومن المباني العجيبة(حائط العجوز) واسمها دلوك القبطية ، وسبب بنائها لذلك أنها ولدت ولداً فأخذت له الرصد ، فقيل لها يخشى عليه من التمساح ، فلمّا شب الغلام خافت عليه فبنت الحائط وجعلته من العريش إلى أسوان شاملاً لكورة مصر من الجانب الشرقي . وقيل بنته خوفاً على مصر وأهلها بعد غرق فرعون أن يطمع الملوك فيها . وقد قيل إنها أرادت أن تخوّف ولدها من التمساح حتى لا ينزل البحر فصورت له صورة التمساح فرآه شكلاً مهولاً فأذهله ، وأخذه الفزع والهم فضعف وانسل إلى أن مات لا مفر من قضاء الله تعالى . (ومن المباني العجيبة الأهرام) وهي بالجانب الغربي من مصر مشاهدة في زماننا هذا ، قيل إن دور الهرم الأكبر من الثلاثة ، ألفا ذراع ، من كل جهة خمسمائة ذراع وعلوه خمسمائة ذراع ، وقد ذهب المأمون إلى مصر حتى شاهدها على ما ذكر ، وفتح منها هرماً وتعجب من بنيانها وصفتها . قيل إن كل حجر من حجارتها ثلاثون ذراعاً في عرض عشرة أذرع وقد أحكم إلصاقه ونحته وتسويته ، ولا يقدر النجار الصانع أن يتخذ من خشب صندوقاً صغيراً على إحكامه ، وهي من عجائب الدنيا . قال بعضهم :

---

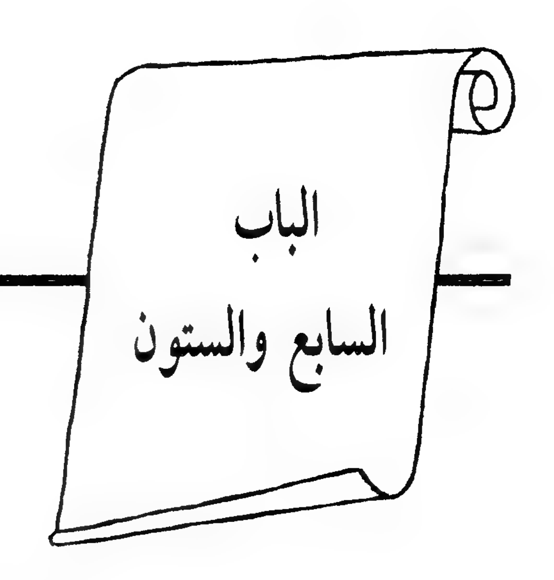
(١) سورة الفجر الآيات ٦ و٧ و٨ .

أين الـذي الهرمـان من بنيانـه   مـا قومـه ما يـومه مـا الصرع
تتخـلف الآثــار عن سكــانها   حينـاً ويدركهـا الفنـاء فتصـرع

وزعم قوم أن الأهرام الموجودة بمصر قبور لملوك عظام أرادوا أن يتميزوا بها عن الناس بعد مماتهم ، كما تميزوا عنهم في حياتهم ، ورجوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخي العصور . ولما وصل المأمون إلى مصر أمر بنقبها فنقب أحدها بعد جهد شديد وعناء طويل فوجد داخله مزاليق ومهاوي يهول أمرها ويعسر السلوك فيها ووجد في أعلاه بيت وفي وسطه حوض من رخام مطبق ، فلما كشف غطاؤه لم يوجد فيه إلا رمة بالية فعند ذلك أمر المأمون بالكف عما سواه ، ويقال إن الذي بناها اسمه سوريد بن سهراق بن سرياق لرؤيا رآها ، وهي آفة تنزل من السماء وهي الطوفان . فقالوا إنه بناها في ستة أشهر وقال : قل لمن يأتي بعدنا يهدمها في ستمائة سنة ، والهدم أيسر من البنيان ، وكسوناها الديباج الملّون فليكسها حصراً ، والحصر أهون من الديباج والأمر فيها عجيب جداً والله سبحانه وتعالى أعلم . (ومن المباني العجيبة منارة الاسكندرية التي بناها ذو القرنين) قيل إنها كانت مبنية بحجارة مهندمة مغموسة في الرصاص فيها نحو من ثلثمائة بيت تصعد الدابة بحملها إلى كل بيت ، وللبيوت طاقات تطل على البحر ، ويقال إن طولها كان ألف ذراع وفي أعلاها تماثيل من نحاس ، منها تمثال رجل قد أشار بيده إلى البحر فاذا صار العدوّ على نحو ليلة منه سمع له تصويت يعلم به أهل المدينة مجيء العدّو فيستعدون له ، ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة صوّت مطرباً ، ويقال إنه كان بأعلاها مرآة من الحديد الصيني عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيها المراكب بجزيرة قبرس ، وقيل كانوا يرون فيها من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم ، فان كانوا أعداء تركوهم حتى يقربوا من المدينة ، فاذا مالت الشمس للغروب أداروا المرآة مقابلة الشمس واستقبلوا بها السفن فيقع شعاعها بضوء الشمس على السفن فتحرق في البحر ويهلك كل من فيها . وكانت الروم تؤدّي الخراج ليأمنوا بذلك من إحراق السفن ولم تزل كذلك إلى زمن الوليد بن عبد الملك . قال المسعودي : قيل إن ملكاً من الروم تحيل على الوليد وأظهر أنه يريد الإسلام ، وأرسل إليه تحفاً وهدايا ، وأظهر له بواسطة حكماء كانوا عنده أن ببلاده دفائن ، وأرسل له بذلك قسيسين من خواصه ، وأرسل معهم أموالاً ، قيل إنهم حفروا بقرب المنارة ودفنوا تلك الأموال . وقالوا للوليد إن تحت المنارة كنوزاً لا تنفد وبازائها خبية ، بها كذا وكذا ألف دينار فأمرهم باستخراج ما بالقرب من المنارة ، فان كان ذلك حقاً استخرجوا ما تحت المنارة بعد هدمها ، فحفروا واستخرجوا ما دفنوه بأيديهم ، فعند ذلك أمر الوليد بهدم المنارة واستخراج ما تحتها ، فهدموها فلم يجدوا تحتها شيئاً وهرب أولئك القسيسون ، فعلم الوليد أنها مكيدة عليه فندم على ذلك غاية الندم ، ثم أمر ببنائها بالآجر ولم يقدروا أن يرفعوا إليها تلك الحجارة ، فلما أتموها نصبوا عليها المرآة كما كانت ، فصدئت ولم يروا فيها شيئاً مثل ما كانوا يرون أوّلاً وبطل أحراقها فندموا على ما فعلوا ، وفاتهم من جهلهم وطمعهم نفع عظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وقد عملت الجنّ لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في الاسكندرية مجلساً على أعمدة من الجزع اليماني المصقول كالمرآة ، إذا نظر الإنسان إليها يرى من يمشي خلفه لصفائها ، وفي وسط ذلك المجلس عمود من الرخام طوله مائة وأحد عشر ذراعاً ، وفي تلك الأعمدة عمود واحد يتحرّك شرقاً وغرباً بطلوع الشمس وغروبها

يشاهد الناس ذلك ولا يعلمون ما سببه . وفي مدينة حمص ، مدينة أخرى تحت المدينة المسكونة العليا ، فهي من عجائب البنيان ، والبيوت ، والغرف والماء الجاري في كل طريق من طرقها ما لا يعلمه إلا الله تعالى . وعند حوران مدينة عظيمة يقال لها اللجأة ، فيها من البنيان ما يعجز عن وصفه ألسنة العقلاء ، كل دار منها مبنية من الصخر المنحوت ، ليس في الدار خشبة واحدة ، بل أبوابها ، وغرفها ، وسقوفها ، وبيوتها من الصخر المنحوت الذي لا يستطيع أحد أن يعمله من الخشب ، وفي كل دار بئر وطاحون ، وكل دار مفردة لا يلاصقها دار أخرى ، وكل دار كالقلعة الحصينة ، إذا خاف أهل تلك النواحي من العدوّ دخلوا إلى تلك المدينة ، فينزل كل إنسان في دار بجميع عياله ، وخيله ، وغنمه ، وبقره ويغلق بابه ، ويجعل خلف الباب حصاة فلا يقدر أحد على فتح ذلك الباب لإحكامه ، وفي هذه المدينة أكثر من مائتي ألف دار فيها يقال ولا يعلم أحد من بناها ، وسمتها العرب اللجأة لأنهم يلجأون إليها عند الخوف . ومن المباني العجيبة إيوان كسرى أنو شروان ، بناه سابور ذو الاكتاف في نيف وعشرين سنة ، وطوله مائة ذراع في عرض خمسين بناه بالآجر والجص ، وجعل طول كل شرافة من شراريفه خمسة عشر ذراعاً ، ولما ملك المسلمون المدائن أحرقوا هذا الإيوان ، فأخرجوا منه ألف ألف دينار ذهباً . وحكي أن المنصور لما أراد بناء بغداد عزم على هدمه ، وأن يجعل آلته في بنائه فقيل له إن نقضه يتكلف بقدر العمارة فلم يسمع وهدم شرافة ، وحسب ما أنفق عليها فوجد الأمر كذلك . وقيل إنّ بعض رؤساء مملكته قال له لما أراد هدمه هو آية الإسلام فلا تهدمه . وحكي أنه كان بمدينة قيسارية كنيسة بها مرآة ، إذا اتهم الرجل امرأته بزنا نظر في تلك المرآة فيرى صورة الزاني ، فاتفق أن بعض الناس قتل غريمه فعمد أهله إليها فكسروها والله سبحانه وتعالى أعلم ، وقد اقتصرت من ذلك على هذا القدر اليسير وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .





في ذكر المعادن ، والأحجار ، وخواصها

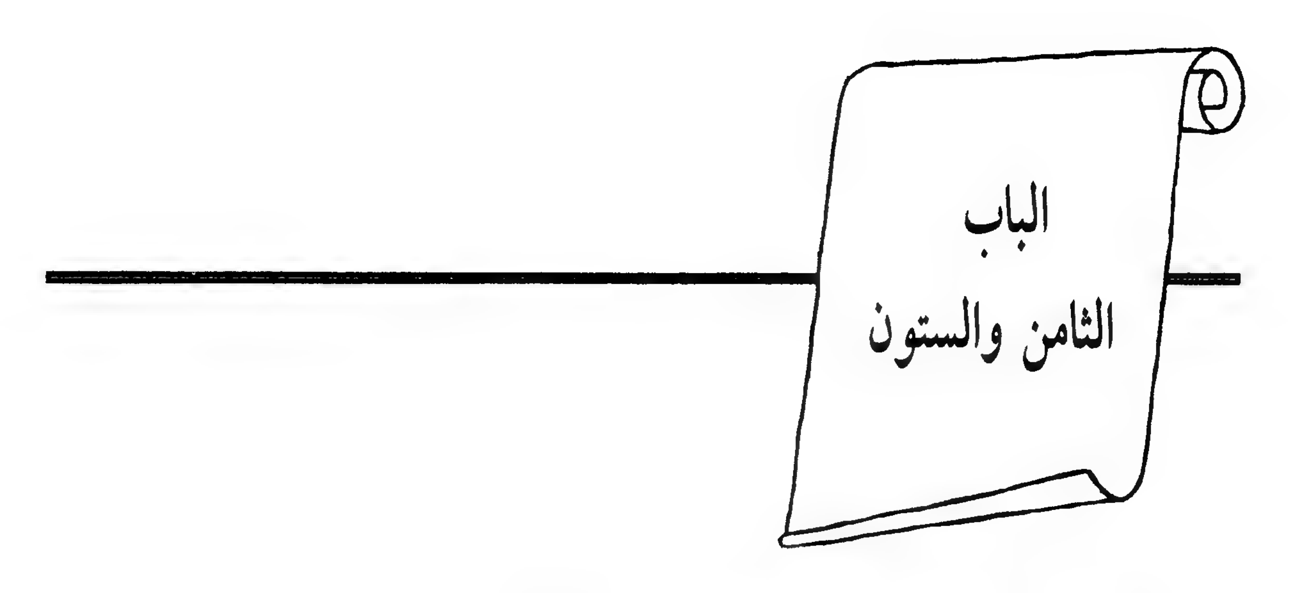
المعادن لا تكاد تحصى لكن منها ما يعرفه الناس ، ومنها ما لا يعرفونه ، .وهي مقسومة إلى ما يذوب وإلى ما لا يذوب ، والذي اشتهر بين الناس من المعادن سبعة وهي : الذهب ، والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والقصدير ، والأسرب ، والخارصيني . ولنبدأ أوّلاً بذكر الذهب : فقيل طبعه حارّ لطيف ولشدّة اختلاط أجزائه المائية بالترابية قيل إن النار لا تقدر على تفريق أجزائه فلا يحترق ، ولا يبلى ولا يصدأ وهو لين برّاق ، حلو الطعم أصفر اللون ، فالصفرة من ناريته ، والليونة من دهنيته ، والبرّاقة من صفاء مائه .

خواصه : يقوّي القلب ، ويدفع الصرع تعليقاً ويمنع الفزع والخفقان ويقوّي العين كحلاً ويجلوها إذا كان ميلاً ويحسن نظرها ، وإذا ثقبت به الأذن لم تلتحم ، وإذا كوي به لم ينفط ويبرأ سريعاً ، وإمساكه في الفم يزيل البخور .(الفضة) : قريبة منه ، وتصدأ ، وتحترق وتبلى بالتراب وإذا أصابتها رائحة الرصاص والزئبق تكسرت ورائحة الكبريت اسودّت. ومن خواصها أنها تزيل البخر من الفم إذا وضعت فيه ، وإذا أذيبت مع الزئبق وطلي بها البدن نفع ذلك من الحكة والجرب وعسر البول . (النحاس) : قريب منها لكنه أيبس وأغلظ في الطبع . ومن خواصه إذا صدىء وطلي بالحامض زال صدؤه ، والأكل في آنيته ، يولد أمراضاً لا دواء لها . (الحديد) : كثير الفائدة إذ ما من صنعة إلا وله فيها مدخل . ومن خواصه أنه يمنع غطيط النائم إذا علق عليه ، وحمله يقوّي القلب ، ويزيل الخوف والأفكار والأحلام الرديئة ، ويسرّ النفس ، وصدؤه ينفع أمراض العين كحلاً ، والبواسير تحملا (القصدير) :صنف من الفضة دخل عليه آفات من الأرض . ومن خواصه أنه إذا ألقي في قدر لم ينضج ما فيها .(الأسرب) هو الرصاص . ومن خواصه أنه يكسر الماس ، ومن خواصّ الماس الدخول في كلّ شيء ، وإذا شدّ من الرصاص قطعة على الخنازير والغدد أبرأتها . (الخارصيني) :حجر لونه أسود يعطي حمرة . ومن خواصه إذا عمل منه مرآة ونظر فيها في الظلمة نفعت للقوة ، وإذا نتف الشعر بملقاط منه لم ينبت .

(الأحجار الجوهرية) :أصل الجوهر ، وهو الدرّ على ما قيل إن حيواناً يصعد من البحر على ساحله وقت المطر ، ويفتح أذنه يلتقط بها المطر ويضمها ويرجع إلى البحر فينزل ، إلى قراره ، ولا يزال طابقاً أذنه

على ما فيها خوفاً أن يخالط بأجزاء البحر حتى ينضج ما فيها ويصير دراً ، فان كانت القطرة صغيرة كانت الدرّة صغيرة ، وإن كانت كبيرة فكبيرة ، فإن كان في بطن هذا الحيوان شيء من الماء المرّ كانت الدّرة كدرة ، وإن لم يكن ، كانت صافية وقيل غير ذلك . والدرّ نوعان كبير وصغير . وقيل أنه تصل الواحدة إلى مثقال . ومن خواصه أنه يفرح القلب ، ويبسط النفس ، ويحسن الوجه ، ويصفي دم القلب ، وإذا خلط مع الكحل شدّ عصب العين . (الياقوت) سيد الأحجار وأصول ألوانه أربعة : الأحمر ، والأصفر ، والأزرق ، والأسمانجوني ، ويتولد منها ألوان كثير ، وأعدلها الأحمر الخالص الرماني الشبيه بحبّ الرمان الأحمر ، ودونه الأحمر المشرب ببياض ، ثم الوردي ، ثم الخمري ، ثم العصفري ، وأردؤه الأزرق الذي لونه يشبه زهر السوسن ، وأقله قيمة الأبيض . خواصه أنه لا يعمل فيه الفولاذ ، ولا حجر الماس ، ولا تدنسه النار ، ويورث لابسه مهابة ووقاراً ، ويسهل قضاء الحوائج ويدرّ الريق في الفم ، ويقطع العطش ، ويدفع السمّ ، ويقوّي القلب وجميعه ينفع للمصروع تعليقاً ، والأبيض منه يبسط النفس ، ويوجد من الأصفر ما وزنه ثلاثون مثقالاً على ما قيل . (البلخش) هو مقارب للياقوت في القيمة ودونه في الشرف . ومن خواصه أنه يورث قبض النفس ، وسوء الخلق والحزن ، وهو ألوان : أحمر ، وأخضر ، وأصفر . (البنقش) أصناف : أحمر مفتوح اللون صاف ، وأحمر قويّ الحمرة ، وأسود يعلوه حمرة مطوّسة بزرقة خفيفة ، ثم أصفر مفتوح اللون . (عين الهرّ) حجر يتكوّن من معدن الياقوت ، والغالب عليه البياض الناصع باشراق مفرط ومائيته رقيقة شفافة ، وفي مائيته سرّ إذا حرّك يميناً تحركت يساراً وبالعكس . ومن خواصه إذا علق على العين أمن عليها من الجدري على ما قيل . (الماس) يوجد بواد بالهند يقال إنه مشحون بالحيات ، فيأتي من يريد استخراجه من ذلك الوادي فيضع في الوادي مرآة كبيرة فتأتي الحيات فتنظر إلى خيالها في المرآة فتفرّ من ذلك الجانب فينزل فيأخذ ما له فيه رزق ، وقيل إنهم ينحرون الجزر ويلقون لحمها في ذلك الوادي فيلتصق بالماس وغيره باللحم فتأتي الطير فتختطف اللحم وتصعد به إلى الجبال فتأكل اللحم وتترك الحجر فيأخذه صاحب اللحم . وقيل إن الحيات لها مشتى ستة أشهر في مكان ، ومصيف ستة أشهر في مكان آخر فاذا ذهبت إلى مشتاها ومصيفها أخذ الحجر في غيبتها ، والله أعلم بصحة ذلك . ومن عجيب أمره أنه إذا أريد كسره جعل في أنبوبة قصب وضرب فانه يتفتت ، وكذا إذا جعل في شمع أو قار وإذا جعل عليه دم تيس وقرّب من النار ذاب . ومن خواصه أن الملوك يتخذونه عندهم لشرفه ، وهو من السموم القاتلة ، القطعة الصغيرة منه إذا حصلت في الجوف ولو بقدر السمسمة خرقت الأمعاء . ومن خواصه الجليلة أنه يعرق عند وجود السمّ أو الطعام المسموم . (الزمرد) ويسمى الزبرجد ، وهو ألوان : أخضر ، وزنجاري ، وصابوني ويكون الحجر منه خمسة مثاقيل وأقل . ومن خواصه أنه يدفع العين ، ويفرح القلب ويقوّي البصر ، ويصفي الذهنّ ، وينشط النفس . (الفيروزج) : نوعان : إسحاقي ، وخلنجي ، وأجوده الأسحاقي الأزرق الصافي . خواصه : النظر فيه يجلو البصر ، ويقوّيه وينشط النفس ولا يصيب المتختم به آفة من قتل أو غرق . وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه : ما افتقرت يد تختمت بفيروزج ، وإذا مضى له بعد خروجه من معدنه عشرون سنة نقص لونه ولا يزال كذلك حتى ينطفىء . (العقيق) معدن بأرض صنعاء اليمن ، وهو ألوان ويوجد عليه غشاوة ، ويحمى عليه ببعر الإبل ثم يبرد ويكسر . وقيل يوجد بالهند ، ولكن اليمنّي أجود . خواصه : التختم به وحمله يورث الحلم والأناة وتصويب الرأي ويسرّ النفس ،

ويكسب حامله وقاراً وحسن الخلق ، ويسكن الحدّة عند الخصومة . قال رسول الله ﷺ : « من تختم بالعقيق لم يزل في بركة » . (الجزع) هو حجر أيضاً يؤتى به من اليمن ، والصين وألوانه كثيرة ، والناس يكرهونه لأنه يورث الهمّ ، والأحلام الرديئة ، وسوء الخلق ، وتعسر قضاء الحوائج ويكثر بكاء الصبيّ وسيلان لعابه ، ويثقل اللسان . إذا سحق وشرب ماؤه وإذا وضع بين قوم لا علم لهم به حصلت بينهم العداوة لكنه يسهل الولادة تعليقاً . (البلور) هو صنف من الزجاج . يحكى أن ببلاد كيسان جبلين : أحدهما بلور . وإذا أريد قطع البلور في ذلك الموضع قطع في الليل لأنه في النهار يكون له شعاع عظيم . خواصه : النظر فيه يشرح القلب ويبسط النفس ، ويسكن وجع الضرس . (المرجان) هو واسطة بين النبات والمعدن لأنه بتشجره يشبه النبات ، وبتحجره يشبه المعدن ولا يزال ليناً في معدنه ، فإذا فارقه تحجر ويبس . خواصه : النظر فيه يشرح الصدر ، ويبسط النفس ، ويفرح القلب ، ويذهب بالداء المحتبس في العين ، ويسكن الرمد ، وسحاقته المخلوطة بالخلّ تجلو قلح الأسنان ، وإذا وضع على الجرح منعه من الانتفاخ . وأنواعه كثيرة : أحمر ، وأزرق ، وأبيض ، وأصله من البحر . قيل : إنه شجر ينبت . وقيل : إنه من حيوانه . (حجر الماطليس) هو حجر هندي لا يعمل فيه الحديد ، والبيت الذي يكون فيه لا يدخله السحر ولا الجنّ ، ولأجل ذلك كان الأسكندر يجعله في عسكره . (الحجر الماهاني) من تختم به أمن من الروع ، والهمّ ، والحزن ، والغم ، ولونه أبيض وأصفر ويوجد بأرض خرسان . (حجر مراد) يوجد بناحية الجنوب . وخاصيته : أن الجنّ تتبع حامله وتعمل له ما أراد . (الدهنج) خاصيته : أنه إذا سقي إنسان من محكه يفعل فعل السمّ ، وإذا سقي شارب السمّ منه نفعه ، وإذا مسح به موضع اللدغ سكن ، وينفع من خفقان القلب ، وإذا طلي بحكاكته بياض البرص أزاله ، وإن علق على إنسان غلب عليه الباه . (السبج) خواصه : أنه يقوّي الضعيف من الكبر أو نزول الماء ، ولبسه ينفع عسر البول ، وإدمان النظر فيه يحدّ البصر وسحاقته تجلو البصر وإذا علق على من به الصداع زال عنه . (المغناطيس) يوجد في بحر الهند ، وهناك لا يتخذ في السفن حديد ، ويوجد ببلاد الأندلس أيضاً ، وأجود أنواعه ما كان أسود يضرب إلى حمرة . خواصه : الاكتحال بسحاقته يورث ألفة بين المكتحل وبين من يحبه ، ويسهل الولادة تعليقاً ، ومن تختم به كانت حاجته مقضية وتعليقه في العنق يزيد في الذهن ، وإذا سحق وشرب من سحاقته من به سمّ بطل سمه ، وإذا أصابته رائحة الثوم بطلت خاصيته ، وإذا غسل بالخلّ عاد إلى حالته ، وأجوده ما جذب نصف مثقال من الحديد . (حجر الخطاف) الخطاف يوجد في عشه حجران أحدهما أحمر ، والآخر أبيض ، فالأحمر إذا علق على من يفزع في نومه زال فزعه ، والأبيض إذا علق على من به صرع زال عنه . (حجر الزاج) إذا دخن البيت بسحاقته هرب منه الفأر والذباب . (حجر الزنجفر) أصله من الزئبق واستحال وخاصيته أنه يدمل الجراحات وينبت اللحم . (حجر الملح) هو أنواع وأجوده ما يوجد بأرض سدوم بالقرب من بحر لوط وقد جعله الله قواماً للدنيا . ومن خاصيته أنه يحسن الذهب ويزيد في صفرته وعن النبي ﷺ أنه قال : « ينفع الأرحام التي غلبت عليها الرطوبة ينشفها ويقويها ، وإذا ألقي في العجين طيبه ، وبيضه ، ونشفه ، وهو نوعان أبيض وأحمر . (حجر اللازورد) مشهور ، قال أرسطو : من تختم به عظم في أعين الناس ، وينفع من السهر والله أعلم . ومن أراد التعمق في ذلك فعليه بالكتب الموضوعة له ولكن قد ذكرنا ما هو معروف والحمد لله على كل حال وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الثامن والستون

في الأصوات والألحان ، وذكر الغناء واختلاف الناس فيه ، ومن كرهه ، ومن استحسنه

وما ذكرت هذا إلا لأني كرهت أن يكون كتابي هذا بعد اشتماله على فنون الأدب ، والتحف والنوادر ، والأمثال عاطلاً من هذه الصناعة التي هي مراد السمع ، ومرتع النفس ، وربيع القلب ، ومجال الهوى ، ومسلاة الكئيب ، وأنس الوحيد ، وزاد الراكب لعظم موقع الصوت الحسن من القلب وأخذه بمجامع النفس .



فصل

في الصوت الحسن

قال بعض أهل التفسير في قوله تعالى : ﴿ **يزيد في الخلق ما يشاء** ﴾[1] هو الصوت الحسن ، وعن النبيّ ﷺ أنه قال : « أتدرون متى كان الحداء ؟ » قالوا لا بأبينا أنت وأمنا يا رسول الله قال : « إن أباكم مضر خرج في طلب مال له فوجد غلاماً له قد تفرّقت إبله فضربه على يده بالعصا ، فعدا الغلام في الوادي ، وهو يصيح وايداه فسمعت الإبل صوته فعطفت عليه . فقال مضر : لو اشتقّ من الكلام مثل هذا ، لكان كلاماً تجتمع عليه الإبل ، فاشتق الحداء» .وقال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه لما أعجبه حسن صوته : « لقد أوتيت مزمار.من مزامير آل داود » وقيل : إن داود عليه الصلاة والسلام

---

(١) سورة فاطر الآية ١ .

كان يخرج إلى صحراء بيت المقدس يوماً في الأسبوع ، وتجتمع عليه الخلق ، فيقرأ الزبور بتلك القراءة الرخيمة ، وكان له جاريتان موصوفتان بالقوّة والشدّة فكانتا تضبطان جسده ضبطاً شديداً خيفة أن تتخلع أوصاله مما كان ينتحب ، وكانت الوحوش والطير تجتمع لاستماع قراءته . قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى : بلغنا أن الله تعالى يقيم داود عليه الصلاة والسلام يوم القيامة عند ساق العرش فيقول يا داود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم . وقال سلام الحادي للمنصور وكان يضرب المثل بحدائه : مُرْ يا أمير المؤمنين بأن يظمئوا إبلاً ، ثم يوردوها الماء فاني آخذ في الحداء ، فترتفع رؤوسها وتترك الشرب . وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يجري في الجسم مجرى الدم في العروق فيصفو له الدم ، وتنمو له النفس ، ويرتاح له القلب ، وتهتزّ له الجوارح ، وتخف له الحركات ، ولهذا كرهوا للطفل أن ينام على أثر البكاء حتى يرقص ويطرب . وزعمت الفلاسفة أن النغم فضل بقي من النطق لم يقدر اللسان على استخراجه ، فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع ، لا على التقطيع ، فلما ظهر عشقته النفس ، وحنت إليه الروح ، ألا ترى إلى أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان ، واستراحت إليها أنفسهم ، وليس من أحد كائناً من كان إلا وهو يطرب من صوت نفسه ، ويعجبه طنين رأسه . ولو لم يكن من فضل الصوت الحسن إلا أنه ليس في الأرض لذة تكتسب من مأكل ولا مشرب ولا ملبس ولا نكاح ولا صيد إلا وفيها معاياة على البدن ، وتعب على الجوارح ما خلا السماع فأنه لا معاياة فيه على البدن ولا تعب على الجوارح ، وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خيريّ الدنيا والآخرة ، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف ، وصلة الأرحام والذبّ عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب ، وقد يبكي الرجل بها على خطيئته ، ويتذكر نعيم الملكوت ، ويمثله في ضميره . ولأهل الرهبانية نغمات وألحان شجية يمجدون الله تعالى بها ، ويبكون على خطاياهم ويتذكرون نعيم الآخرة . وكان أبو يوسف القاضي يحضر مجلس الرشيد وفيه الغناء فيجعل مكان السرور به بكاء كأنه يتذكر نعيم الآخرة ، وقد تحنّ القلوب إلى حسن الصوت حتى الطير والبهائم . وكان صاحب الفلاحات يقول إن النحل أطرب الحيوان كله على الغناء . قال الشاعر :

والطير قد يسوقه للموت   إصغاؤه إلى حنين الصوت

وزعموا أن في البحر دواب ، ربما زمرت أصواتاً مطربة ، ولحوناً مستلذة يأخذ السامعين الغشي من حلاوتها فاعتنى بها وضعة الألحان ، بأن شبهوا أغانيهم فلم يبلغوا ، وربما يغشى على سامع الصوت الحسن للطافة وصوله إلى الدماغ ، وممازجته للقلب ، ألا ترى إلى الأم كيف تناغي ولدها فيقبل بسمعه على مناغاتها ، ويتلهى عن البكاء ، والإبل تزداد في نشاطها وقوّتها بالحداء ، فترفع آذانها وتلتفت يمنة ويسرة وتتبختر في مشيتها . وزعموا أن السماكين بنواحي العراق يبنون في جوف الماء حفائر ثم يضربون عندها بأصوات شجية فيجتمع السمك في الحفائر فيصيدونه وقد نبهت على ذلك في باب ذكر البحار ، وما فيها من العجائب . والراعي إذا رفع صوته ونفخ في يراعته تلقته الغنم بآذانها وجدت في رعيها والدابة تعاف الماء ، فاذا سمعت الصفير بالغت في الشرب وليس شيء مما يستلذّ به أخف مؤنة من السماع . قال أفلاطون : من حزن فليسمع الأصوات الحسنة ، فأن النفس إذا حزنت خمدت نارها ، فإذا سمعت ما

يطربها ويسرّها اشتعل منها ما خمدت ، وما زالت ملوك فارس تلهي المحزون بالسماع ، وتعلل به المريض وتشغله عن التفكر ، ومنهم أخذت العرب حتى قال ابن غيلة الشيباني :

وسماع مسمعة يعللنا ... حتى ننام تناوم العجم

وحكي أن البعلبكي مؤذن المنصور رجع في أذانه ليلة وجارية تصبّ الماء على يد المنصور فارتعدت حتى وقع الإبريق من يدها ، فقال له المنصور : خذ هذه الجارية فهي لك ولا تعد ترجع هذا الترجيع . وقال عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمارة في قينة :

ألم ترها لا أبعد الله دارها ... إذا رجعت في صوتها كيف تصنع
تدير نظام القول ثم ترده ... إلى صلصل من صوتها يترجع

وبعد ، فهل خلق الله شيئاً أوقع بالقلوب وأشد اختلاساً للعقول من الصوت الحسن لا سيما إذا كان من وجه حسن كما قال الشاعر :

رب سماع حسن ... سمعته من حسن
مقرّب من فرح ... مبعد من حزن
لا فارقاني أبداً ... في صحة من بدن

وهل على الأرض من جبان مستطار الفؤاد يغني بقول جرير :

قل للجبان إذا تأخر سرجه ... هل أنت من شرك المنية ناجي

الا شاجن شجعت نفسه وقوي قلبه ، أم هل على الأرض من بخيل قد انقبضت أطرافه يوماً يغني بقول حاتم الطائي :

يرى البخيل سبيل المال واحدة ... إن الجواد يرى في ماله سبلا

إلا انبسطت أنامله ورشحت أطرافه . واختلف الناس في الغناء ، فأجازه عامة أهل الحجاز وكرهه عامة أهل العراق ، فمن حجة من أجازه ما روي عن النبي ﷺ قال لحسان : « شن الغطاريف على بني عبد مناف فوالله لشعرك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام » . واحتجوا في إباحة الغناء وإستحسانه بقول النبي ﷺ لعائشة رضي الله تعالى عنها : أهديتم الفتاة إلى بعلها؟ قالت : نعم . قال فبعثتم معها من يغني ؟ قالت لم نفعل. قال أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم القول ؟ ألا بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم ... فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمراء ... لم نحلل بواديكم

ولا بأس بالغناء إذا لم يكن فيه أمر محرّم ، ولا يكره السّماع عند العرس ، والوليمة ، والعقيقة وغيرها فان فيه تحريكاً لزيادة سرور مباح ، أو مندوب ويدل عليه ما روي من إنشاد النساء بالدف والألحان عند قدوم النبي ﷺ حيث قلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

ويدل عليه ما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد الحرام حتى أكون أنا التي أسأمه . ويدل عليه أيضاً ما روي في الصحيحين من حديث عقيل عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى يدفقان ويضربان ، والنبي ﷺ متغش بثوبه فانتهرهما أبو بكر ، فكشف النبي ﷺ عن وجهه وقال : « دعهما يا أبا بكر فانها أيام عيد » وعن قرة بن خالد بن عبد الله بن يحيى قال قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه للنابغة الجعدي : أسمعني بعض ما عفا الله لك عنه من هناتك. فأسمعه كلمة . فقال له وإنك لقائلها ؟ قال نعم قال طالما غنيت بها خلف جمال الخطاب . وعن عبد الله بن عوف قال أتيت باب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فسمعته يغني بالركابية يقول :

فكيف ثوائي بالمدينة بعدما قضى وطراً منها جميل بن معمر

وكان جميل بن معمر من أخصاء عمر ، قال فلما استأذنت عليه قال لي أسمعت ما قلت ؟ قلت نعم. قال : إنا إذا خلونا قلنا ما يقول الناس في بيوتهم . وقد أجازوا تحسين الصوت في القراءة ، والأذان ، فان كانت الألحان مكروهة ، فالقراءة والأذان أحق بالتنزيه عنها ، وإن كانت غير مكروهة فالشعر أحوج إليها لاقامة الوزن . وما جعلت العرب الشعر موزوناً إلا لمد الصوت ، والدندنة ، ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنثور . ومن حجة من كره الغناء أنه قال : إنه ينفر القلوب ، ويستفز العقول ، ويبعث على اللهو ، ويحض على الطرب ، وهذا باطل في أصله وتأولوا في ذلك قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً** ﴾[1] وأخطأ من أوّل هذا التأويل إنما نزلت هذه الآية في قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السير ، والأحاديث القديمة ويضاهون بها القرآن ، ويقولون إنها أفضل منه ، وليس من سمع الغناء يتخذ آيات الله هزواً . وقال رجل للحسن البصري :ما تقول في الغناء يا أبا سعيد؟ فقال نعم العون على طاعة الله تعالى ، يصل الرجل به رحمه ، ويواسي به صديقه ، قال ليس عن هذا أسألك . قال وعمّ سألتني ؟ قال أن يغني الرجل ، قال وكيف يغني ، فجعل الرجل يلوي شدقيه ويفتح منخريه ، فقال الحسن والله يا ابن أخي ما ظننت أن عاقلاً يفعل بنفسه هذا أبداً ، فلم ينكر الحسن عليه إلا تشويه وجهه وتعويج فمه . وسمع ابن المبارك سكرانا يغني هذا البيت :

أذلني الهوى فانا الذليل وليس إلى الذي أهوى سبيل

قال فأخرج دواة وقرطاساً وكتب البيت . فقيل له : أتكتب بيت شعر سمعته من رجل سكران . فقال : أما سمعتم المثل : رب جوهرة في مزبلة . وكان لأبي حنيفة جار من الكيالين مغرم بالشراب وكان

---

(١) سورة لقمان الآية ٦ .

يغني على شرابه بقول العرجي :

أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

قالوا فأخذه العسس ليلة وحبسه ، ففقد أبو حنيفة صوته ، واستوحش له . فقال لأهله ما فعل جارنا الكيال ؟ قالوا أخذه العسس وهو في الحبس ، فلما أصبح أبو حنيفة توجه إلى عيسى بن موسى فاستأذن عليه فأسرع إذنه ، وكان أبو حنيفة قليلاً ما يأتي أبواب الملوك ، فأقبل عليه عيسى بن موسى وسأله عما جاء بسببه . فقال أصلح الله الأمير : إن لي جاراً من الكيالين أخذه عسس الأمير ليلة كذا ، فوقع في حبسه . فأمر عيسى بن موسى باطلاق كل من في الحبس إكراماً لأبي حنيفة فأقبل الكيال على أبي حنيفة يتشكر له ، فلما رآه أبو حنيفة قال له هل أضعناك يا فتى ؟ يعرض له بشعره الذي ينشده . قال لا والله ولكنك بررت وحفظت . وكان عروة بن أدية ثقة في الحديث روى عنه مالك بن أنس ، وكان شاعراً مجيداً لبقاً غزلاً وكان يصوغ ألحان الغناء على شعره ويلحنها للمغنين. قيل : إنه وقفت عليه امرأة يوماً وحوله التلامذة فقالت له أنت الذي يقال فيك الرجل الصالح وأنت تقول :

إذا وجدت أوار الحب في كبدي عمدت نحو سقاء القوم أبترد
هبني بردت ببرد الماء ظاهره فمن لنار على الاحشاء تتقد

وكان عبد الملك الملقب بالقس عند أهل مكة ، بمنزلة بن أبي رباح في العبادة. قيل إنه مر يوماً بسلامة وهي تغني فأقام يسمع غناءها فرآه مولاها فقال له : هل لك أن تدخل وتسمع ؟ فأبى ، فلم يزل به حتى دخل فغنته فأعجبته ولم يزل يسمعها ويلاحظها النظر حتى شغف بها ، فلما شعرت بلحظه إياها غنته :

ربّ رسولين لنا بلغا رسالة من قبل أن نبرحا
الطرف للطرف بعشناهما فقضيا حاجا وما صرحا

قال فأغمي عليه وكاد يهلك فقالت له : إني والله أحبك قال وأنا والله أحبك . قالت وأحب أن أضع فمي على فمك . قال وأنا والله كذلك قالت فما يمنعك من ذلك ؟ قال أخشى أن تكون صداقة ما بيني وبينك عداوة يوم القيامة. أما سمعت قوله تعالى : ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين** ﴾[1]، ثم نهض وعاد إلى طريقته التي كان عليها وأنشأ يقول :

قد كنت أعذل في السفاهة أهلها فأعجب لما تأتي به الأيام
فاليوم أعذرهم وأعلم أنما سبل الضلالة والهدى أقسام

وقدم عبد الله بن جعفر على معاوية بالشام فأنزله في دار عياله ، وأظهر من إكرامه ما يستحقه فغاظ ذلك فاختة بنت قرظة زوج معاوية فسمعت ذات ليلة غناء عند عبد الله بن جعفر فجاءت إلى معاوية فقالت : هلم فاسمع ما في منزل الذي جعلته من لحمك ودمك وأنزلته بين حرمك ، فجاء معاوية فسمع

---

(١) سورة الزخرف الآية ٦٧ .

شيئاً حركه وأطربه . فقال : والله إني لأسمع شيئاً تكاد الجبال أن تخرّ له . ثم انصرف فلما كان في آخر الليل وسمع معاوية قراءة عبد الله بن جعفر وهو قائم يصلي فنبه فاختة وقال لها : اسمعي مكان ما أسمعتني . هؤلاء قومي ملوك بالنهار ، ورهبان بالليل ، ثم إن معاوية أرق ذات ليلة فقال لخادمه اذهب فانظر من عند عبد الله بن جعفر وأخبره أني قادم عليه ، فذهب وأخبره فأقام عبد الله كل من كان عنده فلما جاء معاوية لم ير في المجلس غير عبد الله فقال مجلس من هذا ؟ قال عبد الله هذا مجلس فلان يا أمير المؤمنين . فقال معاوية : مره فليرجع إلى مجلسه حتى لم يبق إلا مجلس رجل واحد ، قال مجلس من هذا ؟ قال مجلس رجل يداوي الآذان يا أمير المؤمنين .قال إن أذني عليلة فمره أن يرجع إلى مجلسه، وكان مجلس بديح المغني، فأمره عبد الله بن جعفر فرجع إلى موضعه . فقال له معاوية : داو أذني من علتها ، فتناول العود وغنى وقال :

ودِّع سعاد فان الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

قال فحرّك عبد الله بن جعفر رأسه . فقال له معاوية : لم حركت رأسك يا ابن جعفر ؟ قال أريحية أجدها يا أمير المؤمنين ، لو لقيت لأبليت ، ولو سئلت لأعطيت ، وكان معاوية قد خضب . قال فقال ابن جعفر لبديح هات غير هذا ، وكان عند معاوية جارية أعزّ جواريه عليه ، وكانت تتولى خضابه فغنى بديح وقال :

أليس عندك شكر للتي جعلت ما ابيض من قادمات الرأس كالحمم
وجدّدت منك ما قد كان أخلقه صرف الزمان وطول الدهر والقدم

فطرب معاوية طرباً شديداً ، وجعل يحرّك رجله ، فقال له ابن جعفر يا أمير المؤمنين إنك سألتني عن تحريك رأسي فأجبتك وأخبرتك ، وأنا أسألك عن تحريك رجلك فقال : كل كريم طروب . ثم قام وقال لا يبرح أحد منكم حتى يأتي له إذني ، ثم ذهب فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ، ومائة ثوب من خاصة كسوته ، وإلى كل رجل منهم بألف دينار ، وعشرة أثواب .

وحدث ابن الكلبي والهيثم بن عدي قالا : بينما عبد الله بن جعفر في بعض أزقة المدينة إذ سمع غناء فأصغى إليه فاذا صوت رقيق لقينة تغني وتقول :

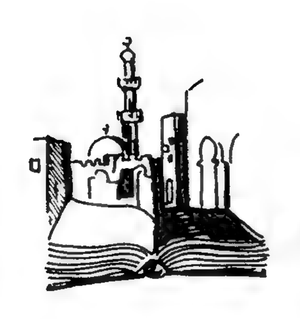
قل للكرام ببابنا يلجوا ما في التصابي على الفتى حرج

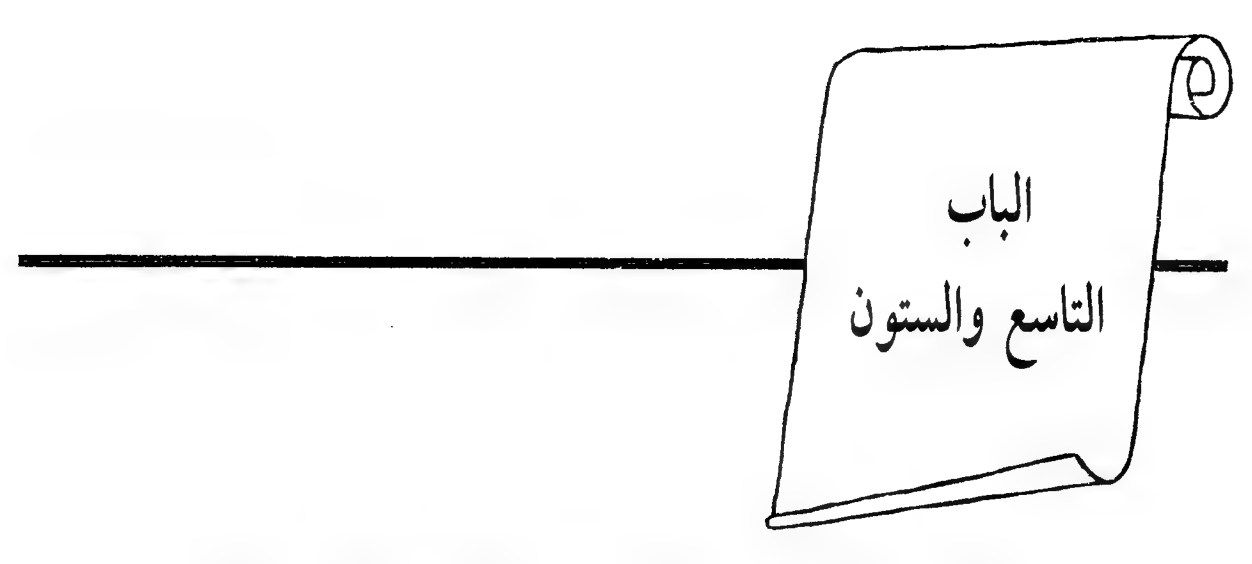
فنزل عبد الله عن دابته ، ودخل على القوم بلا إذن فلما رأوه قاموا إجلالاً له ورفعوا مجلسه فأقبل عليه صاحب المجلس وقال : يا ابن عم رسول الله ﷺ أتدخل مجلسنا بلا إذن ، وليس هذا من شأنك . فقال عبد الله لم أدخل إلا بأذن . فقال : ومن أذن لك قال قينتك هذه سمعتها تقول :

قل للكرام ببابنا يلجوا . فولجنا فان كنا كراماً فقد أذن لنا ، وإن كنا لئاماً خرجنا مذمومين. فقبل صاحب المنزل يده ، وقال : جعلت فداك والله ما أنت إلا من أكرم الناس . فبعث عبد الله إلى جارية من جواريه فحضرت ، ودعا بثياب وطيب فكسا القوم ، وطيبهم ، ووهب الجارية لصاحب المنزل وقال هذه أحذق بالغناء من جاريتك . وسمع سليمان بن عبد الملك مغنياً في عسكره فقال اطلبوه فجاءوا به . فقال :

أعد عليّ ما غنيت به . فغنى واحتفل ، وكان سليمان أغير الناس ، فقال لأصحابه كأنها والله جرجرة الفحل في الشوك ، وما أظنّ أنثى تسمع هذا إلا صبت إليه ، ثم أمر به فخصي .

أصل الغناء ومعدنه : قال أبو المنذر هشام : الغناء على ثلاثة أوجه : النصب ، والسناد ، والهزج ، فأما النصب فغناء الفتيان والركبان ، وأما السناد فالثقيل الترجيع الكثير النغمات ، وأما الهزج فالخفيف كله ، وهو الذي يستفز القلوب ، ويهيج الحليم . وقيل كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى فاشياً ظاهراً ، وهي المدينة والطائف وخيبر ، وفدك ، ووادي القرى ، ودومة الجندل ، واليمامة وهذه القرى مجامع أسواق العرب . ويقال إن أوّل من صنع العود ، لامك بن قابن بن آدم وبكى به على ولده . ويقال إن صانعه بطليموس صاحب الموسيقى ، وهو كتاب اللحون الثمانية ، والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .





في ذكر المغنين ، والمطربين ، وأخبارهم ، ونوادر الجلساء في مجالس الرؤساء

قيل إن أوّل من غنى في العرب قينتان للنعمان يقال لهما الجرادتان ومن غنائهما :

ألا يـاقـين ويحـك قم فهينم　　لعـلّ الله يسـقينـا غمـامـا

وإنما غنتا هذا حين حبس الله عنهم المطر . وقيل أوّل من غنى في الإسلام الغناء الرقيق طويس وهو الذي علّم ابن سريج والدلال نوبة الضحى ، وكان يكنى أبا عبد النعيم ، ومن غنائه وهو أوّل صوت غني به في الإسلام هذا البيت :

قـد بـراني الـشـوق حـتى　　كـدت مـن وجـدي أذوب

ثم نجم بعد طويس ، ابن طنبور ، وأصله من اليمن وكان أهزج الناس وأخفهم غناء ومن غنائه :

وفتيـان عـلى شـرب جميعـا　　دلفت لهم ببـاطيـة[1] هـدور
فـلا تشـرب بـلا طـرب فـاني　　رأيت الخيـل تشـرب بـالصفـير

ومنهم حكم الوادي ومن غنائه :

أمـدح الكـأس ومن أعملهـا　　واهـج قـومـا قتلونـا بـالعـطش
إنمـا الـراح ربـيـع بـاكـر　　فـاذا مـا وافـت المـرء انتـعش

وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين ، منهم إبراهيم الموصلي ، وابن جامع السهمي وغيرهما ، وكان له زامر يقال له برصوما ، وكان إبراهيم أشدّهم تصرّفاً في الغناء ، وابن جامع أحلاهم نغمة ، فقال الرشيد يوماً لبرصوما ما تقول في ابن جامع ؟ قال يا أمير المؤمنين، وما أقول في العسل الذي من حيثما ذقته فهو

---

(١) الباطية : اناء من الزجاج .

طيب . قال فابراهيم الموصلي ؟ قال بستان فيه جميع الأزهار والرياحين . وكان ابن محرز يغني كل إنسان بما يشتهيه كأنه خلق من قلب كل إنسان . وغنى رجل بحضرة الرشيد بهذه الأبيات :

وأذكـر أيـام الحمى ثم أنثـني على كبدي من خشية أن تصدعا
فليست عشيات الحمى برواجع عليك ولكن خل عينيك تدمعا
بكت عيني اليسـرى فلما نهيتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

قال فاستخف الرشيد الطرب فأمر له بمائة ألف درهم . وحدث ابن الكلبي عن أبيه : قال كان ابن عائشة من أحسن الناس غناء ، وأنبههم فيه وكان من أضيق الناس خلقاً ، إذا قيل له غن . قال : لمثلي يقال غن ؟ عليّ عتق رقبة إن غنيت يومي هذا ! فلما كان في بعض الأيام سال وادي العقيق فلم يبق في المدينة مخبأة ، ولا مخدّرة ، ولا شاب ، ولا كهل ، إلا خرج يبصره وكان فيمن خرج ابن عائشة المغني وهو معتجر بفضل ردائة . فنظر إليه الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم ، وكان الحسن فيمن خرج إلى العقيق وبين يديه عبدان أسودان كأنهما ساريتان يمشيان أمام دابته فقال لهما : أقسم بالله إن لم تفعلا ما آمركما به لأنكلن بكما . فقالا : يا مولانا قل ما تأمرنا به فلو أمرتنا أن نقتحم النار فعلنا . قال اذهبا إلى ذلك الرجل المعتجر بفضل ردائه فأمسكاه ، فان لم يفعل ما آمره به وإلا فأقذفا به في العقيق . قال فمضيا والحسن يقفوهما ، فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما آخذان بمنكبيه . فقال : من هذا . فقال له الحسن أنا هذا يا ابن عائشة. فقال : لبيك وسعديك ، بأبي أنت وأمي. قال: اسمع مني ما أقول لك ، واعلم أنك مأسور في أيديهما ، وقد أقسمت إن لم تغن مائة صوت ليطرحانك في العقيق . قال فصاح ابن عائشة واويلاه ، واعظم مصيبتاه . فقال له الحسن دعنا من صياحك وخذ فيما ينفعنا . قال اقترح ، وأقم من يحصي ، ثم أقبل يغني فترك الناس العقيق وأقبلوا عليه فلما تمت أصواته مائة كبر الناس بلسان واحد تكبيرة ارتجت لها أقطار الأرض وقال للحسن صلى الله على جدك حياً وميتاً فما اجتمع لأحد من أهل المدينة سرور قط إلا بكم أهل البيت . فقال له الحسن ما فعلت هذا بك يا ابن عائشة إلا لأخلاقك الشرسة . فقال ابن عائشة والله ما مرت بي شدة أعظم من هذه ، لقد بلغت أطراف أعضائي ، فكان ابن عائشة بعد ذلك إذا قيل له ما أشد يوم مرّ عليك يقول يوم العقيق .

وحدث أبو جعفر البغدادي قال : حدثني عبد الله بن محمد كاتب بغداد عن أبي عكرمة قال : خرجت يوماً إلى المسجد الجامع فمررت بباب أبي عيسى بن المتوكل فاذا على بابه المشدود ، وهو أحذق خلق الله تعالى بالغناء . فقال : أين تريد يا أبا عكرمة قلت المسجد الجامع لعلي أستفيد حكمة أكتبها فقال ادخل بنا إلى أبي عيسى . قلت : أمثل أبي عيسى في قدره وجلالته يدخل عليه بلا إذن ؟ فقال للحاجب : اعلم أمير المؤمنين بمكان أبي عكرمة ، فما لبث إلا ساعة حتى خرج الغلمان إليّ ، فحملوني حملاً فدخلت إلى دار ما رأيت أحسن منها بناء ، ولا أظرف منها هيئة ، فلما نظرت إلى أبي عيسى قال لي : ما يعيش من يحتشم ، اجلس فجلست فأتينا بطعام كثير فلما انقضي أتينا بشراب . وقامت جارية تسقينا شراباً كالشعاع في زجاجة كأنها كوكب دري . فقلت أصلح الله الأمير وأتم عليه نعمه ، ولا سلبه ما وهبه. قال : فدعا أبو عيسى بالمغنين . وهم المشدود ودبيس ورقيق ، ولم يكن في ذلك الزمان أحذق من هؤلاء الثلاثة بالغناء فابتدأ

المشدود وغنّى يقول :

لما استقل ، بأرداف تجاذبه ... واخضر فوق بياض الدر شاربه
وأشرق الورد من نسرين وجنته ... واهتز أعلاه وارتجت حقائبه
كلمته بجفون غير ناطقة ... فكان من رده ما قال حاجبه

ثم سكت وغنّى دبيس :

الحب حلو أمرّته عواقبه ... وصاحب الحب صب القلب ذائبه
أستودع الله من بالطرف ودعني ... يوم الفراق ودمع العين ساكبه
ثم انصرفت وداعي الشوق يهتف بي ... ارفق بقلبك قد عزت مطالبه

ثم سكت وغنى رقيق :

بدر من الأنس حفته كواكبه ... قد لاح عارضه واخضر شاربه
إن يوعد الوعد يوماً فهو مخلفه ... أو ينطق القول يوماً فهو كاذبه
عاطيته كدم الأوداج صافية ... فقام يشدو وقد مالت جوانبه

ثم سكت وابتدأ المشدود يقول :

يا ديرحنة من ذات الاكيراج[1] ... من يصح عنك فاني لست بالصاحي

ثم سكت وغنى دبيس :

دع البساتين من آس وتفاح ... وأعدل هديت إلى شيخ الأكيراح
واعدل إلى فتية ذابت لحومهم ... من العبادة إلا نضو أشباح
وخمرة عتقت في دنها حقباً ... كأنها دمعة في جفن سياح

ثم سكت وغنى رقيق :

لا تحفلن بقول اللائم اللاحي ... واشرب على الورد من مشمولة الراح
كاسا إذا انحدرت في حلق شاربها ... أغناه لألاؤها عن كل مصباح
ما زلت أسقي نديمي ثم ألثمه ... والليل ملتحف في ثوب أمساح
فقام يشدو وقد مالت سوالفه ... يا دير حنة من ذات الأكيراح

ثم أقبل أبو عيسى على المشدود وقال له غن لي شعري فغناه :

يا لجة الدمع هل للغمض مرجوع ... أم الكرى من جفون العين ممنوع
ما حيلتي وفؤادي هائم دنف ... بعقرب الصدغ من مولاي ملسوع
لا والذي تلفت نفسي بفرقته ... فالقلب من فرق الأحزان مصدوع
ما أرق العين إلا حب مبتدع ... ثوب الجمال على خديه مخلوع

---

(١) الاكيراج : بيت الراهب (معربة) .

قال أبو عكرمة ، فوالله لقد حضرت من المجالس ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى ، فما حضرت مثل ذلك المجلس ، ولولا أن أبا عيسى قطعهم ما انقطعوا . وحكي عن الرشيد أنه قال يوماً للفضل بن الربيع : من بالباب من الندماء ؟ قال جماعة فيهم : هاشم بن سليمان مولى بني أمية ، وأمير المؤمنين يشتهي سماعه قال فأذن له وحده فدخل فقال هات يا هاشم فغناه من شعر جميل حيث يقول :

إذا ما تراجعنا الذي كان بيننا　　جرى الدمع من عيني بثينة بالكحل
فيا ويح نفسي حسب نفسي الذي بها　　ويا ويح أهلي ما أصبت به أهلي
خليليّ فيما عشتما هل رأيتما　　قتيلاً بكى من حبّ قاتله قبلي

قال : فطرب الرشيد طرباً شديداً ، وقال : أحسنت لله أبوك ، ثم قلده عقداً نفيساً ، فلما رآه هاشم ترقرقت عيناه بالدموع ، فقال له الرشيد ما يبكيك يا هاشم ؟ فقال يا أمير المؤمنين إنّ لهذا العقد حديثاً عجيباً إن أذن لي أمير المؤمنين حدّثته به . قال : لك ، قال يا أمير المؤمنين : قدمت يوماً على الوليد وهو على بحيرة طبرية ومعه قينتان لم ير مثلهما جمالاً وحسناً ، فلما وقعت عينه عليّ قال هذا أعرابي قد ظهر من البوادي ، أدعو به لنسخر به ، فدعاني فسرت إليه ولم يعرفني فغنت إحدى الجاريتين بصوت هو لي فأخطأته الجارية ، فقلت لها أخطأت يا جارية ، فضحكت ثم قالت : يا أمير المؤمنين ألم تسمع ما يقول هذا الأعرابي يعيب علينا غناءنا . فنظر إليّ كالمنكر . فقلت يا أمير المؤمنين : أنا أبين لك الخطأ فلتصلح وتر كذا ، ووتر كذا ففعلت وغنت شيئاً ما سمع منها إلا في هذا اليوم . فقامت الجارية مكبة عليّ وقالت أستاذي هاشم ورب الكعبة . فقال الوليد أهاشم بن سليمان أنت ؟ قلت نعم يا أمير المؤمنين وكشفت عن وجهي وأقمت معه بقية يومنا فأمر لي بثلاثين ألف درهم . فقالت الجارية يا أمير المؤمنين أتأذن لي في برّ أستاذي ؟ فقال الوليد ذلك إليك ،فحلت يا أمير المؤمنين هذا العقد من عنقها ووضعته في عنقي وقالت : هو لك . ثم قربوا إليه السفينة ليرجع الى موضعه ،فركب في السفينة وطلعت معه احدى الجاريتين واتبعتها صاحبتي فارادت أن ترفع رجلها وتطلع السفينة فسقطت في الماء فغرقت لوقتها وطلبت فلم يقدر عليها . فاشتدّ جزع الوليد عليها وبكى بكاء شديداً وبكيت أنا عليها أيضاً بكاء شديداً . فقال لي يا هاشم ما نرجع عليك بما وهبناه لك ولكن نحبّ أن يكون هذا العقد عندنا نذكرها به ، فبعني إياه فعوّضني عنه ثلاثين ألف درهم . فلما وهبتني العقد يا أمير المؤمنين تذكرت قضيته وهذا سبب بكائي . فقال الرشيد لا تعجب ، فان الله كما ورثنا مكانهم ورثنا أموالهم . وقال عليّ بن سليمان النوفلي غنى دحمان الأشقر عند الرشيد يوماً فأنشده :

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا　　كفى لمطايانا برؤياك هاديا
ذكرتك بالديرين يوماً فأشرفت　　بنات الهوى حتى بلغنا التراقيا
إذا ما طواك الدهر يا أمّ مالك　　فشأن المنايا القاضيات وشانيا

قال : فطرب الرشيد طرباً شديداً واستعاده منه مرات ، ثم قال له تمنّ علي ، قال أتمنى الهنيء والمريء ، وهما ضيعتان غلتهما أربعون ألف دينار في كل سنة ، فأمر له بهما ، فقيل له : يا أمير المؤمنين إن هاتين الضيعتين من جلالتهما يجب أن لا يسمح بمثلهما ، فقال الرشيد : لا سبيل إلى استرداد ما أعطيت ، ولكن احتالوا في شرائهما منه فساوموه فيهما حتى وقفوا معه على مائة ألف دينار فرضي بذلك ، فقال الرشيد

ادفعوها له ، فقالوا يا أمير المؤمنين في إخراج مائة ألف دينار من بيت المال طعن ، ولكن نقطعها له . فكان يوصل بخمسة آلاف وثلاثة آلاف حتى استوفاها .

ومن ذلك ما حكى إسحاق الموصلي قال : كان الواثق بن المعتصم أعلم الناس بالغناء ، وكان يضع الألحان العجيبة ويغني بها شعره وشعر غيره ، فقال له يوماً يا أبا محمد لقد فقت أهل العصر في كل شيء فغنني شعراً أرتاح إليه ، وأطرب عليه يومي هذا . قال إسحاق فغنيته هذه الأبيات :

ما كنت أعلم ما في البين من حُرق — حتى تنادوا بأن قد جيء بالسفن
قامت تودّعني والدمع يغلبها — فهمهمت ببعض ما قالت ولم تبن
مالت إليّ وضمتني لترشفني — كما يميل نسيم الريح بالغصن
وأعرضت ثم قالت وهي باكية — يا ليت معرفتي إياك لم تكن

قال : فخلع علي خلعة كانت عليه ، وأمر لي بمائة ألف درهم . قال وغنيته يوماً :

قفي ودّعينا يا سعاد بنظرة — فقد حان منا يا سعاد رحيل
فيا جنة الدنيا ويا غاية المنى — ويا سؤل نفسي هل إليك سبيل
وكنت إذا جئت جئت لعلة — فأفنيت علاتي فكيف أقول
فما كلّ يوم لي بأرضك حاجة — ولا كلّ يوم لي إليك وصول

فقال : والله لا سمعت يومي غيره ، وألقى علي خلعة من ثيابه وأمر لي بصلة ما أمر لي قبلها بمثلها .

ومن حكايات الخلفاء ، ومكارم أخلاقهم ما حكي عن إبراهيم بن المهدي قال : قال جعفر بن يحيى يوماً لبعض ندمائه إني قد استأذنت أمير المؤمنين في الخلوة غداً فهل من مساعد ؟ فقلت جعلت فداءك أنا أسعد بمساعدتك ، وأسرّ بمشاهدتك ، فقال : بكر بكور الغراب . قال فأتيته عند الفجر فوجدت الشموع قد أوقدت بين يديه وهو ينتظرني في الميعاد ، فما زلنا في أطيب عيش إلى وقت الضحى ، فقدمت إلينا موائد الأطعمة عليها من أفخر الطعام وأطيبه فأكلنا وغسلنا أيدينا ثم خلعت علينا ثياب المنادمة ، وضمخنا بالخلوق وانتقلنا إلى مجلس الطرب ومدّت الستائر وغنت القينات فظللنا بأنعم يوم ، ثم إنه داخله الطرب فدعا بالحاجب وقال له ، إذا أتى أحد يطلبنا فأذن له ، ولو كان عبد الملك بن صالح بنفسه فاتفق بالأمر المقدّر أن عمّ الرشيد عبد الملك ابن صالح قدم علينا في ذلك الوقت ، وكان صاحب جلالة وهيبة ورفعة وعنده من الورع والزهد والعبادة ما لا مزيد عليه ، وكان الرشيد إذا جلس مجلس لهو لا يطلعه على ذلك لشدّة ورعه ، فلما قدم دخل به الحاجب علينا ، فلما رأيناه رمينا ما في أيدينا وقمنا إجلالاً له نقبل يده وقد ارتعنا لذلك وخجلنا ، وزاد بنا الحياء ، فقال لا بأس عليكم كونوا على ما أنتم عليه . ثم صاح بغلام فدفع له ثيابه ، ثم أقبل علينا وقال اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم . قال فما كان بأسرع من أن طرحت عليه ثياب خزّ معلم وقدّمت له موائد الطعام والشراب فطعم وشرب الشراب لساعته ، ثم قال خففوا عني فانه شيء والله ما فعلته قط . قال فتهلل وجه جعفر ثم التفت إلى عبد الملك فقال له : جعلت فداءك قد علوت علينا وتفضلت ، فهل من حاجة تبلغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي فأقضيها لك مكافأة لك على ما صنعت . قال :

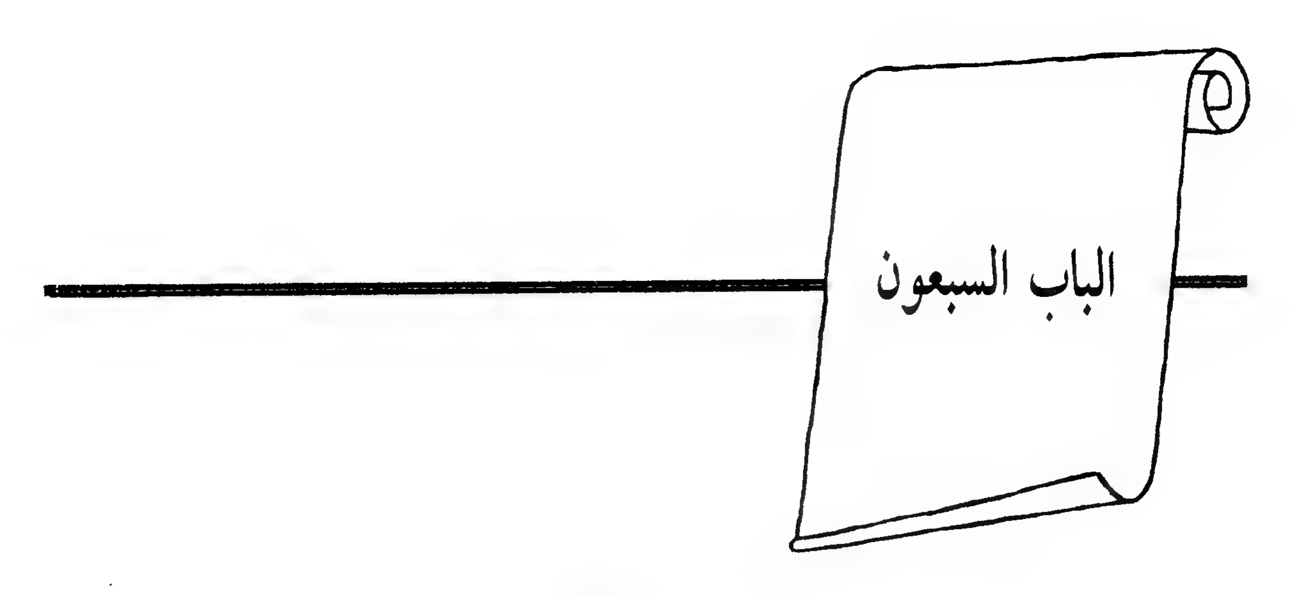
بلى إنّ في قلب أمير المؤمنين بعض تغير علي فتسأله الرضا عني . فقال جعفر قد رضي عنك أمير المؤمنين . قال وعليّ عشرة آلاف دينار ، فقال جعفر هي حاضرة لك من مالي ، ولك من مال أمير المؤمنين مثلها . قال وأريد أن أشدّ ظهر ابني إبراهيم بمصاهرة من أمير المؤمنين . قال قد زوّجه أمير المؤمنين بابنته الغالية ، قال وأحبّ أن تخفق الألوية على رأسه ، قال وقد ولاه أمير المؤمنين مصر . فانصرف عبد الملك بن صالح ، وبقيت متعجباً من إقدام جعفر على ذلك من غير استئذان وقلت عسى أن يجيبه أمير المؤمنين إلى ما سأله من الولاية والمال ، والرضا عنه ، إلا المصاهرة . قال : فلما كان من الغد بكرت إلى باب الرشيد لأنظر ما يكون من أمرهم ، فدخل جعفر فلم يلبث أن دعي بأبي يوسف القاضي ، ثم إبراهيم بن عبد الملك بن صالح ، فخرج إبراهيم وقد عقد نكاحه بالغالية بنت الرشيد ، وعقد له على مصر ، والرايات والألوية تخفق على رأسه وخرج كلّ من في القصر معه إلى بيت عبد الملك بن صالح ، قال ثم بعد ذلك خرج إلينا جعفر وقال : أظنّ أن قلوبكم تعلقت بحديث عبد الملك بن صالح ، وأحببتم سماع ذلك . قلنا هو كما ظننت . قال : لما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه قال : كيف كان يومك يا جعفر بالأمس ، فقصصت عليه القصة حتى بلغت إلى دخول عبد الملك بن صالح ، فكان متكئاً فاستوى جالساً وقال : لله أبوك ما سألك ؟ قلت سألني رضاك عنه يا أمير المؤمنين . قال بم أجبته قلت قد رضي عنك أمير المؤمنين . قال قد رضيت عنه ، ثم ماذا ، قلت وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار . قال فبم أجبته قلت قد قضاها عنك أمير المؤمنين . قال وقد قضيتها . ثم ماذا ؟ قلت ورغب أن يشدّ أمير المؤمنين ظهر ولده إبراهيم بمصاهرة منه . قال فبم أجبته ؟ قلت قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية قال قد أجبته إلى ذلك . ثم ماذا قلت ؟ قال وأحب أن تخفق الألوية على رأسه . قال فبم أجبته ؟ قلت قد ولاه أمير المؤمنين مصر . قال قد وليته إياها ثم نجز له جميع ذلك من ساعته . قال إبراهيم بن المهدي فوالله ما أدري أي الثلاثة أكرم ، وأعجب فعلاً ؟ ما ابتداه عبد الملك بن صالح من المنادمة ولم يكن فعل ذلك قط . أم إقدام جعفر على الرشيد ، أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر . فهكذا تكون مكارم الأخلاق . وحكى أبو العباس عن عمر الرازي قال : أقبلت من مكة أريد المدينة فجعلت أسير في جمد من الأرض فسمعت غناء لم أسمع مثله فقلت والله لأتوصلن إليه فاذا هو عبد أسود . فقلت له . أعد عليّ ما سمعت .فقال والله لو كان عندي قرى[1] أقْريكه لفعلت ، ولكني أجعله قراك فاني والله ربما غنيت بهذا الصوت وأنا جائع فأشبع ، وربما غنيته وأنا كسلان فأنشط ، أو عطشان فأروى ، ثم اندفع يغني ويقول :

وكنت إذا جئت سعدى أزورها	أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ودّ جليسها	إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

قال عمر فحفظته منه ثم تغنيت به على الحالات التي وصفها لي فاذا هي كما ذكر ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) قرى : الضيافة والكرم .



في ذكر القينات والأغاني

حكى عليّ بن الجهم قال : لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المتوكل أهدى إليه عبد الله بن طاهر من خراسان جارية يقال لها محبوبة كانت قد نشأت بالطائف فبرعت في الجمال ، والأدب ، وأجادت قول الشعر ، وحذاقة الغناء فشغف بها أمير المؤمنين المتوكل حتى كانت لا تفارق مجلسه ساعة واحدة ، ثم إنه حصل منه عليها بعد ذلك جفاء فهجرها . قال عليّ بن الجهم فبينما أنا نائم عنده ذات ليلة إذ أيقظني فقال يا عليّ ، قلت لبيك يا أمير المؤمنين قال قد رأيت الليلة في منامي كأني رضيت على محبوبة وصالحتها فقلت خيراً رأيت يا أمير المؤمنين أقرّ الله عينك ، إنما هي جاريتك والرضا والجفاء بيدك ، فوالله أنا لفي حديثها إذ جاءت وصيفة فقالت : يا أمير المؤمنين . سمعت صوت عود من حجرة محبوبة ، فقال قم بنا يا علي ننظر ما تصنع ، فنهضنا حتى أتينا حجرتها فاذا هي تضرب بالعود وتقول :

أدور في القصر لا أرى أحدا ... أشكو إليه ولا يكلمني
كأنني قد أتيت معصية ... ليس لها توبة تخلصني
فهل شفيع لنا إلى ملك ... قد زارني في الكرى وصالحني
حتى إذا ما الصباح لاح لنا ... عاد إلى هجره وصارمني

قال فصاح أمير المؤمنين فلما سمعته تلقته وأكبت على رجليه تقبلها فقال ما هذا ؟ قالت يا مولاي رأيت في منامي هذه الليلة كأنك قد رضيت عني ، فأنشدت ما سمعت . قال وأنا والله رأيت مثل ذلك . ثم قال يا علي هل رأيت أعجب من هذا الاتفاق ، ثم أخذ بيدها ومضى إلى حجرتها وكان من أمرهما ما كان . قيل : وكان أمير المؤمنين الواثق إذا شرب رقد في موضعه الذي شرب فيه ، ومن كان معه من ندمائه شرب ورقد ، ولم يخرج . فشرب يوماً وخرج من كان عنده إلا مغنياً واحداً أظهر التراقد فترك وكانت مغنية من حظايا الخليفة نائمة ، فلما خلا المجلس كتب المغني رقعة ورمى بها إليها فاذا فيها :

إني رأيتك في المنام ضجيعتي ... مسترشفاً من ريق فيك البارد

وكأن كفك في يدي وكأننا — بتنا جميعاً في لحاف واحد
ثم انتبهت ومنكباك كلاهما — في راحتيّ وتحت خدّك ساعدي
فقطعت يومي كله متراقدا — لأراك في نومي ولست براقد

فكتبت إليه على ظهرها تقول :

خيرا رأيت وكل ما أملته — ستناله مني برغم الحاسد
وتبيت بين خلاخلي ودمالجي[1] — وتحلّ بين مراشفي ونواهدي
ونكون أنعم عاشقين تعاطيا — ملح الحديث بلا مخافة راصد

فلما مدّت يدها لترمي إليه بالرقعة ، رفع الواثق رأسه فأخذها من يدها وقال ما هذا فحلفا له أنه لم يجر بينهما قبل ذلك كلام ، ولا كتاب ، ولا رسول . إلا أن العشق قد خامرهما قال فأعتقها من وقتها وزوّجها به ، وقال خذها ولا تقربنا بعد اليوم . وكان لأسماء بنت المهدي جارية يقال لها كاعب وكانت بكراً ناهداً بنت ثلاث عشرة سنة قال فتلاعب عليها أبو نواس فتمنعت فوقع في قلبه منها ما وقع ، وأحبته هي أيضاً ، فجعل أبو نواس كلما أمسكها تمنعت ، فظفر بها ليلة من الليالي في ناحية من القصر فأمسكها فبكت . وقالت له يا سيدي الموت دون ذلك . فقال أبو نواس هذا جزع الأبكار فاتفق أنه خرج يوماً من القصر وقد ترقرق الدجا فوجدها في سدلة وهي سكرى لا تفيق ، فتقرّب منها وحلّ سراويلها ووقع عليها فاذا هي خالية من البكارة فارتاع وظن أن يكون أتاها دم فلم يجد فقام عنها وندم على ما كان منه وأنشد يقول :

وناهدة الثديين من خدم القصر — مرقرقة الخدّين ليلية الشعر
كلفت بها دهراً على حسن وجهها — طويلاً وما حب الكواعب من أمري
فما زلت بالأشعار حتى خدعتها — وروضتها والشعر من خدع السحر
أطالبها شيئاً فقالت بعبرة — أموت ولا هذا ودمعتها تجري
فلما تعارضنا توسطت لجة — غرقت بها يا قوم في لجج البحر
فصحت أغثني يا غلام فجاءني — وقد زلقت رجلي وصرت إلى الصدر
ولولا صياحي بالغلام وأنه — تداركني بالحبل صرت إلى القعر
فأقسمت عمري لا ركبت سفينة — ولا سرت طول الدهر إلا على ظهر

ومن ذلك ما حدّث الشيباني قال : كان عند رجل بالعراق قينة ، وكان أبو نواس يختلف إليها وكانت تظهر له أنها لا تحب غيره وكان كلما دخل إليها وجد عندها شاباً يجالسها ويحادثها فقال فيها هذه الأبيات :

ومظهرة لخلق الله ودّاً — وتلقي بالتحية والسلام
أتيت لبابها أشكو إليها — فلم أخلص إليه من الزحام

---

(١) الدمالج : مفردها دملج : وهي حليّ يلبس في المعصم .

فيـا من ليس يكفيها خليـل ولا ألفـا خليـل كـل عـام
أراك بقيـة من قـوم مـوسى فهم لا يصبرون عـلى طعـام

وقال أبو سويد : حدّثني أبو زيد الأسدي قال دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو جالس في إيوان مبلط بالرخام الأحمر ، مفروش بالديباج الأخضر ، في وسط بستان ملتف قد أثمر وأينع ، وعلى رأسه وصائف كل واحدة منهنّ أحسن من صاحبتها . وقد غابت الشمس وغنت الأطيار فتجاوبت وصفقت الرياح على الأشجار فتمايلت . فقلت السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته وكان مطرقاً فرفع رأسه وقال : أبا زيد في مثل هذا الحين تصاحبنا ؟ فقلت أصلح الله الأمير أو قامت القيامة ؟ قال نعم على أهل المحبة ، ثم أطرق ملياً ورفع رأسه وقال أب زيد ما يطيب في يومنا هذا ؟ قلت أصلح الله الأمير قهوة حمراء ، في زجاجة بيضاء تناولها غادة هيفاء ، مضمومة لفاء ، أشربها من كفها وأمسح فمي بخدّها ، فأطرق سليمان ملياً لا يردّ جواباً وتنحدر من عينيه عبرات بلا شهيق . فلما رأت الوصائف ذلك تنحين عنه ، ثم رفع رأسه فقال أبا زيد حضرت في يوم فيه انقضاء أجلك ، ومنتهى مدتك ، وتصرّم عمرك والله لأضربنّ عنقك أو لتخبرني ما أثار هذه الصفة من قلبك . قلت نعم أصلح الله الأمير كنت جالساً عند دار أخيك سعيد بن عبد الملك ، فاذا أنا بجارية قد خرجت من باب القصر كأنها غزال انفلت من شبكة صياد عليها قميص سكب اسكندراني يبين منه بياض بدنها وتدوير سرّتها ، ونقش تكتها وفي رجليها نعلان صراران قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعليها ، بذؤ ابتين تضربان إلى حقويها لها صدغان كأنهما نونان ، وحاجبان قد قوّسا على محاجر عينيها ، وعينان مملوءتان سحراً ، وأنف كأنه قصبة بلور ، وفم كأنه جرح يقطر دماً ، وهي تقول عباد الله من لي بدواء ما لا يشتكى ، وعلاج ما لا يسمى ، طال الحجاب ، وأبطأ الجواب ، والقلب طائر ، والعقل عازب ، والنفس والهة ، والفؤ اد مختلس ،والنوم محتبس رحمة الله على قوم عاشوا تجلداً ، وماتوا كمداً ولو كان إلى الصبر حيلة ، أو إلى ترك الغرام سبيل لكان أمراً جميلاً . ثم أطرقت طويلاً ورفعت رأسها فقلت لها أيتها الجارية إنسية أنت أم جنية ، سماوية أنت أم أرضية ، فقد أعجبني ذكاء عقلك وأذهلني حسن منطقك ، والمقاساة لصب معاند . ثم انصرفت ، فوالله ما أكلت طعاماً طيباً إلا غصصت به لذكرها ، ولا رأيت حسناً إلا سمج في عيني لحسنها . فقال سليمان أبا زيد كاد الجهل يستفزني والصبا يعاودني ، والحلم يعزب عني لشجو ما سمعت ، اعلم يا أبا زيد أن تلك التي رأيتها هي الذلفاء التي قيل فيها :

إنمـا الـذلـفـاء يـاقـوتـة أخـرجـت من كـيس دهقـان

شراؤ ها على أخي ألف ألف درهم ، وهي عاشقة لمن باعها ، والله إن مات ما يموت إلا بحبها ، ولا يدخل القبر إلا بغصتها ، وفي الصبر سلوة ، وفي توقيع الموت نهبة ، قم أبا زيد في دعة الله تعالى . ثم قال يا غلام نفله ببدرة فأخذتها وانصرفت . قال فلما أفضت الخلافة إليه صارت الذلفاء إليه ، فأمر بفسطاط فأخرج على دهناء الغوطة ، وضرب في روضة خضراء مونقة زهراء ذات حدائق بهجة تحتها أنواع الزهر ما بين أصفر فاقع ، وأحمر ساطع ، وأبيض ناصع ، وكان لسليمان مغنّ يقال له سنان به يأنس ،وإليه يسكن ، فأمره أن يضرب فسطاطه بالقرب منه ، وكانت الذلفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المنتزه فلم يزل سنان يومه ذلك عند سليمان في أكمل سرور ، وأتمّ حبور إلى أن انصرف من الليل إلى فسطاطه فنزل به جماعة من إخوانه فقالوا له : نريد قرى أصلحك الله ، قال : وما قراكم؟ قالوا: أكل ، وشرب ، وسماع . قال : أما الأكل والشرب فمباحان لكم ، وأما السماع

فقد عرفتم شدة غيرة أمير المؤمنين ونهيه عنه إلّا ما كان في مجلسه، قالوا لا حاجة لنا بطعامك وشرابك إن لم تسمعنا. قال ، فاختاروا صوتاً واحداً أغنيكموه قالوا غننا صوت كذا فرفع صوته يغني بهذه الأبيات :

محجوبة سمعت صوتي فأرقها ... من آخر الليل لما نبه السحر
في ليلة البدر ما يدري مضاجعها ... أوجهها عنده أبهى أم القمر
لم يحجب الصوت أحراس ولا غلق ... فدمعها لطروق الصوت منحدر
لو مكنتْ لمشت نحوي على قدم ... تكاد من لينها في المشي تنفطر

قال فسمعت الذلفاء صوت سنان ، فخرجت إلى صحن الفسطاط تسمع ، فجعلت لا تسمع شيئاً من حسن خلق ، ولطافة قدّ ، إلا رأت ذلك كله في نفسها وهيئتها ، فحرّك ذلك ساكناً من قلبها فهملت عيناها وعلا نحيبها ، فانتبه سليمان فلم يجدها معه فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحالة فقال ما هذا يا ذلفاء فقالت :

ألا ربّ صوت رائع من مشوّه ... قبيح المحيا واضع الأب والجد
يروعك منه صوته ولعله ... إلى أمة يعزى معاً وإلى عبد

فقال سليمان دعيني من هذا ، فوالله لقد خامر قلبك منه ما خامر ، ثم قال يا غلام علي بسنان فدعت الذلفاء خادماً لها فقالت له إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان فحذرته لك عشرة آلاف درهم وأنت حر لوجه الله تعالى ، فخرج الرسولان فسبق رسول أمير المؤمنين سليمان ، فلما أتى به قال يا سنان : ألم أنهك عن مثل هذا ، قال يا أمير المؤمنين حملني على ذلك حلمك ، وأنا عبد أمير المؤمنين ، وغرس نعمته فان رأى أمير المؤمنين أن يعفو عن عبده فليفعل . قال قد عفوت عنك ولكن أما علمت أن الفرس إذا صهل ، دقت له الحجرة ، وأن الفحل إذا هدر ضبعت له الناقة ، وأن الرجل إذا تغنى أصغت له المرأة ، إياك إياك والعوْد إلى ما كان منك فيطول غمك .

وحكي أن الرشيد فصد يوماً فأرسلت إليه بعض حظاياه قدحاً فيه شراب مع وصيفة لها جميلة الوجه حسنة الطلعة بديعة المحيا ، وغطته بمنديل مكتوب عليه هذه الأبيات :

فصدت عرقا تبتغي صحة ... ألبسك الله به العافية
فاشرب بهذا الكأس يا سيدي ... واهنأ به من كف ذي الجارية
واجعل لمن أنفذه خلوة ... تحظى بها في الليلة الآتية

قال فنظر الرشيد إلى الوصيفة التي جاءت بالقدح فاستحسنها فافتضها ، ثم أرسلها فعلمت مولاتها بذلك فكتبت إليه رقعة تقول فيها هذه الأبيات :

بعثت الرسول فأبطأ قليلاً ... على الرغم مني فصبرا جميلا
وكنت الخليل ، وكان الرسولا ... فصرت الرسول وصار الخليلا
كذا من يوجه في حاجة ... إلى من يحبّ رسولا جميلا ؟

قال فاستحسن الرشيد ذلك منها وأرسل إليها أنا عندك الليلة . وأهدى داود بن روح المهلبي إلى المهدي

جارية فحظيت عنده فواعدته المبيت عنده ليلة فمنعها الحيض فكتب إليها يقول :

لأهجرنّ حبيبا خان موعده | وكان منه لصفو العيش تكدير

فأرسلت إليه تجيبه :

لا تهجرن حبيبا خان موعده | ولا تذمنّ وعدا فيه تأخير
ما كان حبسي إلا من حدوث أذى | لا يستطاع له بالقول تفسير

وقال محمد بن مروان يصف جارية له :

أمست تباع ولو تباع بوزنها | درّاً بكى أسفا عليها البائع

وكان للمأمون جويرية من أحسن الناس وأسبقهم إلى كلّ نادرة فحظيت عنده فحسدها الجواري وقلن لا حسب لها ، فنقشت على خاتمها حسبي حسبي ، فازداد بها المأمون عجباً فسمتها الجواري فماتت فجزع عليها المأمون جزعاً شديداً وقال :

اختلست ريحانتي من يدي | أبكي عليها آخر الأبد
كانت هي الأنس إذا استوحشت | نفسي من الأقرب والأبعد
وروضة كان بها مرتعي | ومنهلا كان بها موردي
كانت يدي كان بها قوّتي | فاختلس الدهر يدي من يدي

وللمتوكل في قينة :

أمازحها فتغضب ثم ترضى | فكلّ فعالها حسن جميل
فان غضبت فأحسن ذي دلال | وإن رضيت فليس لها عديل

وحدث أبو عبد الله بن عبد البر قال : حدثني إسحاق بن إبراهيم ، عن الهيثم بن عدي قال : كان في المدينة رجل من بني هاشم ، وكان له قينتان يقال لإحداهما رشا ، وللأخرى جؤزر ، وكان بالمدينة رجل مضحك لا يكاد يغيب عن مجلس المستظرفين فأرسل الهاشمي إليه ذات يوم ليسخر به ، فلما أتاه قال له أصلحك الله إنك لفي لذتك ، ولا لذة لي . قال : وما لذتك قال تحضر لي نبيذاً فانه لا يطيب لي عيش إلا به ، فأمر الهاشمي بإحضار نبيذ ، وأمر أن يطرح فيه سكر العشر فلما شربه المضحك تحرك عليه بطنه فتناوم الهاشمي وغمز جاريتيه عليه فلما ضاق عليه الأمر واضطر إلى التبرزّ ، قال في نفسه ما أظنّ هاتين المغنيتين إلاّ يمانيتين ، وأهل اليمن يسمون الكنف بالمراحيض ، فقال لهما يا حبيبتي أين المرحاض ، فقالت إحداهما لصاحبتها ما يقول سيدنا قالت يقول غنياني :

رحضت فؤادي فخليتني | أهيم من الحبّ في كلّ واد

فاندفعتا تغنيانه . فقال في نفسه والله ما أظنها ما فهمتا عني ، وما أظنهما إلا مكيتين وأهل مكة يسمونها المخارج . فقال يا حبيبتي أين المخرج فقالت إحداهما لصاحبتها ما يقول سيدنا قالت يقول غنياني :

خرجت لها من بطن مكة بعدما | أقام المنادي بالعشيّ فأعتما

فاندفعتا تغنيانه . فقال في نفسه لم يفهما عني وما أظنهما إلا شاميتين ، وأهل الشام يسمونها المذاهب فقال يا حبيبتيّ أين المذاهب فقالت إحداهما لصاحبتها ما يقول حبيبنا قالت يقول غنياني :

ذهبت من الهجران في كل مذهب   ولم يك حقاً كـلّ هذا التجنب

فغنتاه الصوت ، فقال لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لم يفهما عني وما أظن القحبتين إلا مدنيتين وأهل المدينة يسمونها بيت الخلاء فقال يا حبيبتي أين بيت الخلاء فقالت إحداهما لصاحبتها ما يقول سيدنا قالت يقول غنياني :

خلا علي بقاع الأرض إذ ظعنوا   من بطن مكة واسترعاني الحزن

قال فغنتاه ، فقال إنا لله وإنا إليه راجعون ، ما أظن الفاسقتين إلا بصريتين ، وأهل البصرة يسمونها الحشوش . فقال يا حبيبتي أين الحشوش . فقالت إحداهما لصاحبتها ما يقول سيدنا قالت يقول غنياني :

أوحشـوني وعـز صبـري فيهم   مـا احتيالي ومـا يكـون فعـالي

قال فاندفعتا تغنيانه فقال ما أراهما إلا كوفيتين ، وأهل الكوفة يسمونها الكنف فقال لهما يا حبيبتي أين الكنيف فقالت إحداهما لصاحبتها يعيش سيدنا ما رأيت أكثر اقتراحاً من هذا الرجل قالت ما يقول قالت يسأل أن تغني له :

تـكـنـفـني الهـوى طـفـلاً   فـشـيـبـني ومـا اكـتـهـلا

فقال : واويلاه واعظم مصيبتاه هذا ، والهاشمي يتقطع ضحكاً فقال لهما يا زانيتان إن لم تعلماني به ، أنا أعلمكما ثم رفع ثيابه وسلح عليهما ، وعلى الفراش ، فانتبه الهاشمي وقد غشي عليه من شدة الضحك وقال : ويلك ما هذا تسلح على وطائي . فقال الرجل حياة نفسي أعز علي من وطائك ، وقيل إنه لما قيل له ويلك ما هذا قال المضحك هذه الأبيات :

تـكنـفني المـلاح وأضـجـروني   عـلى مـا بي بنيـات الـزواني
فلما قـل عن ذاك اصـطبـاري   قـذفت به عـلى وجـه الغـواني

قال فانبسط الهاشمي ودفع إليه مالاً ، ومضى إلى سبيله . وقال علي بن الجهم قلت لقينة :

هـل تعلمين وراء الحب منـزلة   تـدني إليك فـان الحب أقصاني

قالت تأتي من باب الذهب وأنشدت :

اجعل شفيعك منقـوشاً تقـدمه   فلم يزل مَدْنيا من ليس بالداني

وكان أشعث يختلف إلى قينة بالمدينة فجلس عندها يوماً يطارحها الغناء ، فلما أراد الخروج قال لها ناوليني خاتمك أذكرك به . قالت : إنه ذهب وأخاف أن تذهب ، ولكن خذ هذا العود فلعلك أن تعود وناولته عوداً من الأرض . وكان بعض القينات من الجمال والحسن بجانب ، ثم أصابتها علة فتغير حالها فكانت تنشد :

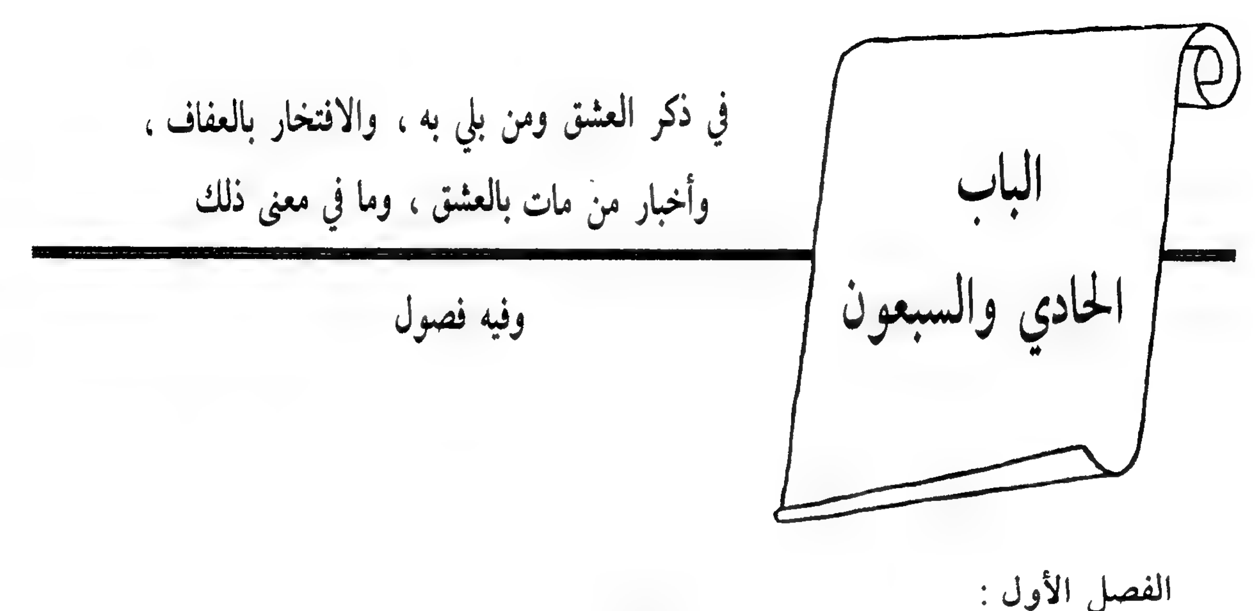
ولي كبـد مقـروحـة من يبيعني	بهـا كبداً ليست بـذات قـروح
أباها علـي الناس لا يشتـرونها	ومن يشتـري ذا علة بصحيـح

وكان المعتصم يحب قينة من حظاياه فاتفق أنه خرج إلى مصر وتركها فذكرها في بعض الطريق فاشتاق إليها فغلبه الوجد فدعا مغنياً وقال : ويحك قد ذكرت جاريتي فلانة فأقلقني الشوق إليها ، فعسى أن تغنيني شيئاً في معنى ما ذكرته لك . فأطرق ملياً ثم غناه :

وددت من الشـوق المبـرح أنني	أعـار جنـاحي طـائـر فـأطـير
فـما لنعيم ليس فيـه بشـاشـة	ومـا لسـرور ليس فيـه سـرور
وإن امـرأ في بلدة نصف قلبه	ونصف بأخرى غيـرها لصبـور

والحكايات في معنى ذلك كثيرة ، ولو أردت بسطها لاحتجت إلى مجلدات ولكن ما قل وجل خير من كثير يمل . وفيما ذكرته كفاية والله المسؤول أن يمدني منه باللطف والعناية ونسأله التوفيق والهداية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .





في ذكر العشق ومن بلي به ، والافتخار بالعفاف ،
وأخبار من مات بالعشق ، وما في معنى ذلك

وفيه فصول

الفصل الأول :

في وصف العشق

قال الجاحظ : العشق اسم لما فضل عن المحبة ، كما أن السرف اسم لما جاوز الجود . وقال اعرابي العشق خفيّ أن يرى ، وجليّ أن يخفى فهو كامن ككمون النار في الحجر إن قدحته أورى ، وإن تركته توارى ، وقيل أول العشق النظر ، وأول الحريق الشرر ، وكان العشاق فيما مضى يشق الرجل برقع حبيبته ، والمرأة تشق رداء حبيبها ويقولون : إنهما إذا لم يفعلا ذلك عرض البغض بينهما ، وقال عبد بني الحسحاس :

كم قد شققنا من رداء محبر ومن برقع عن طفلة غير عانس
إذا شق برد شق بالبرد برقع من الحب حتى كلنا غير لابس

وقيل : لأعرابي ما بلغ من حبك لفلانة . قال : إني لأذكرها وبيني وبينها عقبة الطائف ، فأجد من ذكرها رائحة المسك . وقيل رأى شبيب أخو بثينة جميلاً عندها فوثب عليه وآذاه ثم إن شبيباً أتى مكة وجميل فيها فقيل لجميل دونك شبيباً فخذ بثأرك منه فقال :

وقالوا يا جميل اتى أخوها فقلت أتى الحبيب أخو الحبيب

وأنشد الأخفش الحداد يقول :

مطارق الشوق منها في الحشى أثر يطرقن سندان قلب حشوه الفكر
ونار كور الهوى في الجسم موقدة ومبرد الحب لا يبقي ولا يذر

وفي « الجليس الأنيس » لأبي العالية الشامي قال سأل أمير المؤمنين المأمون يحيى بن أكثم عن العشق ما هو ؟ فقال هو سوانح تسنح للمرء ، فيهيم بها قلبه وتؤثرها نفسه . وقال ثمامة : العشق جليس ممتع . وأليف مؤنس وصاحب ملك مسالكه ضيقة ، ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جائرة ، ملك الأبدان وأرواحها والقلوب وخواطرها ، والعيون ونواظرها ، والعقول وآراءها وأعطى عنان طاعتها ، وقوة تصريفها، توارى عن الأبصار

مدخله ، وخفي في القلوب مسلكه . وكان شيخ بخراسان له أدب وحسن معرفة بالأمور قال لسليمان بن عمرو ومن معه : أنتم أدباء وقد سمعتم الحكمة ،ولكم حداء ونغم ، فهل فيكم عاشق ؟ قالوا لا . قال : اعشقوا فان العشق يطلق اللسان ، ويفتح جبلة البليد والبخيل ، ويبعث على التلطف وتحسين اللباس ، وتطييب المطعم . ويدعو إلى الحركة والذكاء وتشريف الهمة . وقال المجنون :

قالت جننت على ذكري فقلت لها الحب أعظم مما بالمجانين
الحب ليس يفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين

قال ذو الرياستين : إن بهرام جور كان له ابن ، وكان قد رشحه للأمر من بعده فنشأ الفتى ناقص الهمة ، ساقط المروءة ، خامل النفس ، مسيء الأدب فغمه ذلك فوكل به من المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلازمه ويعلمه وكان يسألهم عنه فيحكون له ما يغمه من سوء فهمه ، وقلة أدبه إلى أن سأل بعض مؤدبيه يوماً فقال له المؤدب قد كنا نخاف سوء أدبه فحدث من أمره ما صيرنا إلى الرجاء في فلاحه . قال وما ذاك الذي حدث ؟ قال رأى ابنة فلان المرزبان فعشقها فغلبت عليه ، فهو لا يهدأ إلا بها ، ولا يتشاغل إلا بها ، فقال بهرام الآن رجوت فلاحه ثم دعا بأبي الجارية فقال له : إني مسرّ إليك سراً فلا يعدوك ، فضمن له ستره ، فأعلمه أن ابنه قد عشق ابنته ، وأنه يريد أن ينكحها إياه وأمره أن يأمرها باطماعه في نفسها ، ومراسلته من غير أن يراها وتقع عينه عليها ، فاذا استحكم طمعه فيها تجتنبه وتهجره ، فان استعلمها أعلمته أنها لا تصلح إلا لملك ، ثم لتعلمني خبرها ولا تطلعها على ما أسرّه إليك . فقبل أبوها ذلك منه . ثم قال للمؤدّب الموكل بأدبه حضه وشجعه على مراسلة المرأة ففعل ذلك وفعلت المرأة كما أمرها أبوها ، فلما انتهت إلى التجني عليه ، وعلم الفتى السبب الذي كرهته لأجله أخذ في الأدب ، وطلب الحكمة ، والعلم ، والفروسية ، والرماية ، وضرب الصولجان حتى مهر في ذلك ، ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج إلى الدواب ، والآلات ، والمطاعم ، والملابس ، والندماء وما أشبه ذلك ، فسر الملك بذلك وأمر له بما طلب ، ثم دعا مؤدّبه فقال له : إنّ الموضع الذي وضع به ابني نفسه من خبر هذه المرأة ، لا يدري به ، فتقدّم إليه ومره أن يرفع أمرها إلي ويسألني أن أزوّجه إياها ، ففعل المؤدب ذلك فرفع الفتى ذلك لأبيه فدعا بأبيها وزوّجه إياها وأمر بتعجيلها إليه ، وقال له إذا اجتمعت أنت وهي فلا تحدث شيئاً حتى أصير إليك . فلما اجتمعا صار إليه فقال : يا بنيّ لا يضعن قدرها عندك مراسلتها إياك ، وليست في خبائك ، فاني أمرتها بذلك ، وهي أعظم الناس منة عليك بما دعتك إليه من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك حتى بلغت الحدّ الذي تصلح معه للملك من بعدي فزدها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك . ففعل الفتى وعاش مسروراً بالجارية ، وعاش أبوه مسروراً به ، وأحسن ثواب أبيها ورفع منزلته لصيانة سرّه ، وأحسن جائزة المؤدّب لامتثال أمره به . وكان عبد الله بن عبيدة الريحاني يهوى جارية فزارته يوماً فأقام يحدّثها ويشكو إليها ألم الفراق فحان وقت الظهر فناداه إنسان الصلاة يا أبا الحسن . فقال : رويدك حتى تزول الشمس ، أي حتى تقوم الجارية . وقالت ليلى العامرية في قيسها :

لم يكن المجنون في حالة إلا وقد كنت كما كانا
لكنه باح بسرّ الهوى وإنني قد ذِبْت كتمانا

وقال أحمد بن عثمان الكاتب :

وإني ليـرضيني الممرّ ببـابهـا   وأقنـع بهـا بـالشتيمـة والـزجـر

وقال الفتح بن خاقان صاحب المتوكل :

أيهـا العـاشق المعـذّب صبراً   فخـطايا أخي الهـوى مغفـورة
زفـرة في الهـوى أحطّ لـذنب   مـن غـزاة وحـجـة مـبـرورة

وقال عمر ابن أبي ربيعة : كنت بين امرأتين ، هذه تساررني ، وهذه تعضني فما شعرت بعضة هذه من لذّة هذه . وأنشد شيبان العذري يقول :

لو حزّ بالسيف رأسي في محبتها   لطار يهوى سريعا نحوها رأسي

وقال يحيى بن معاذ الرازي : لو أمرني الله أن أقسم العذاب بين الخلق ما قسمت للعاشقين عذاباً .



من هذا الباب

فيمن عشق وعفّ والافتخار بالعفاف

روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « من عشق فعفّ فمات فهو شهيد » وقال ﷺ : « عفواً ، تعف نساؤكم » وقال بعضهم رأيت امرأة مستقبلة البيت في غاية الضعف ، والنحافة ، رافعة يديها تدعو . فقلت لها : هل من حاجة ؟ فقالت حاجتي أن تنادي في الموقف بقولي :

تـزود كـل النـاس زاداً يقيهم   ومالي زاد والسلام عـلى نفسي

فناديت كما أمرتني ، وإذا بفتى نحيل الجسم قد أقبل إلي فقال أنا الزاد فمضيت به إليها ، فما زاد على النظر والبكاء . ثم قالت له انصرف بسلام ، فقلت : ما علمت أن لقاءكما يقتصر على هذا ، فقالت أمسك يا هذا أما علمت أن ركوب العار ودخول النار شديد . قال إبراهيم بن محمد المهلبي :

كم قـد ظفـرت بمن أهـوى فيمنعني   منـه الحيـاء وخـوف الله والحـذر
وكـم خلوت بمـن أهـوى فيـقنعـني   منـه الفكـاهـة والتـأنيس والنـظر
أهـوى الملاح وأهـوى أن أجالسهم   ولـيس لي في حـرام منهـم وطـر
كـذلـك الحبّ لا إتيـان معصيـة   لا خـير في لـذّة من بعـدهـا سقـر

وقال بعض بني كلب :

إن أكن طـامح اللحـاظ فـإني   والـذي يمـلك الفـؤاد عفيـف

ونحو ذلك قول القائل :

فقالت بحق الله إلّا أتيتنا ... إذا كان لون الليل شبه الطيالس
فجئت وما في القوم يقظان غيرها ... وقد نام عنها كلّ واش وحارس
فبتنا بليل طيب نستلذّه ... جميعاً ولم أقلب لها كفّ لامس

ونزل رجل على صديق له مستتراً خائفاً من عدو له فأنزله في منزله وتركه فيه وسافر لبعض حوائجه وقال لامرأته : أوصيك بضيفي خيراً ، فلما عاد بعد شهر قال لها كيف ضيفنا ؟ قالت ما أشغله بالعمى عن كل شيء ، وكان الضيف قد أطبق عينيه ، فلم ينظر إلى امرأة صاحبه ، ولا إلى منزله إلى أن عاد من سفره . وكان عمر ابن أبي ربيعة عفيفاً يصف ويعف ويحوم ولا يرد . ودخلت بثينة على عبد الملك بن مروان فقال لها : يا بثينة ما أرى فيك شيئاً مما كان يقوله جميل ، فقالت يا أمير المؤمنين إنه كان يرنو إلي بعينين ليستا في رأسك . قال : فكيف رأيتيه في عشقه ؟ قالت كان كما قال الشاعر :

لا والذي تسجد الجباه له ... ما لي بما تحت ذيلها خبر
ولا بفيها ولا هممت بها ... ما كان إلا الحديث والنظر

وقد قدّمت هذين البيتين في الجزء الأوّل فيما جاء في الكتابة على سبيل الرمز . وعن أبي سهل الساعدي قال : دخلت على جميل وبوجهه آثار الموت . فقال لي : يا أبا سهيل إنّ رجلاً يلقى الله ، ولم يسفك دماً ، ولم يشرب خمراً ، ولم يأت فاحشة أفترجو له الجنة ؟ قلت : إي والله فمن هو ؟ قال إني لأرجو أن أكون ذلك . فذكرت له بثينة فقال إني لفي آخر يوم من الدنيا ، وأوّل يوم من الآخرة لا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن كنت حدّثت نفسي بريبة قط . وعن عبد الله بن عبد المطلب والد النبيّ ﷺ ، أنه دعته بغيّ إلى نفسها ، وبذلت له مالاً ، وكانت تتكهن وتسمع باتيان رسول الله ﷺ ، وكانت جميلة فأرادت أن تخدع عبد الله رجاء أن يكون النبي ﷺ منها للنور الذي رأته بين عينيه فأبى وقال :

أما الحرام فالحمام[1] دونه ... والحلّ لا نأبى ونستدينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه ... يحمي الكريم عرضه ودينه

وقال آخر :

وأحور مخضوب البنان محجب ... دعاني فلم أعرف إلى ما دعا وجها
بخلت بنفسي عن مقام يشينها ... ولست مريداً ذاك طوعا ولا كرها

وراود شاب ليلى الأخيلية عن نفسها فاشمأزّت وقالت :

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها ... فليس إليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحب وخليل

---

(١) الحِمام : الموت .

وقال ابن ميادة :

موانع لا يعطين حبة خردل ... وهن دوان في الحديث أوانس
ويكرهن أن يسمعن في اللهو ريبة ... كما كرهت صوت اللجام الشوامس

وقال آخر :

حور حرائر ما هممن بريبة ... كظباء مكة صيدهنّ حرام
يحسبن من لين الكلام فواسقا ... ويصدهن عن الخنى الاسلام[1]

وكان الأصمعي يستحسن بيتيّ العباس بن الأحنف :

أتأذنون لصبّ في زيارتكم ... فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يظهر الشوق إن طال الجلوس به ... عف الضمير ولكن فاسق النظر

واختفى إبراهيم بن المهدي في هربه من المأمون عند عمته زينب بنت أبي جعفر فوكلت بخدمته جارية لها اسمها ملك ، وكانت واحدة زمانها في الحسن والأدب ، طلبت منها بخمسمائة ألف درهم ، فهويها إبراهيم وكره أن يراودها عن نفسها فغنى يوماً وهي قائمة على رأسه :

يا غزالاً لي إليه ... شافع من مقلتيه
أنا ضيف وجزا ... ء الضيف إحسان إليه

ففهمت الجارية ما أراد ، فحكت ذلك لمولاتها فقالت اذهبي إليه فأعلميه أني قد وهبتك له ، فعادت إليه فلما رآها أعاد البيتين فأكبت عليه . فقال لها كفى ، فلست بخائن . فقالت قد وهبتني لك مولاتي وأنا الرسول ، فقال أما الآن فنعم . وأنشد المبرّد :

ما إن دعاني الهوى لفاحشة ... إلا نهاني الحياء والكرم
فلا إلى فاحش مددت يدي ... ولا مشت بي لزلة قدم

وقال آخر :

يقولون لا تنظر فذاك بلية ... بلى كلّ ذي عينين لا بد ناظر
وهل باكتحال العين بالعين ريبة ... إذا عفّ بينهن السرائر

وكان بعض الخلفاء قد نذر على نفسه أن لا ينشد شعراً ، ومتى أنشد بيت شعر فعليه عتق رقبة . قال : فبينما هو في الطواف يوماً إذ نظر إلى شاب يتحدّث مع شابة جميلة الوجه . فقال له : يا هذا اتق الله أفي مثل هذا المكان . فقال يا أمير المؤمنين والله ما ذاك لخنى ، ولكنها ابنة عمي وأعزّ الناس عليّ ، وإن أباها منعني من تزوّجها لفقري وفاقتي ، وطلب مني مائة ناقة ، ومائة أوقية من الذهب ولم أقدر على ذلك . قال فطلب الخليفة أباها ودفع إليه ما اشترطه على ابن اخيه ولم يقم من مقامه حتى عقد له عليها ثم دخل الخليفة إلى بيته وهو يترنم ببيت من الشعر فقالت له جارية من حظاياه أراك اليوم يا مولاي تنشد الشعر ، أفنسيت ما نذرت ، أم نراك قدهويت .فأنشد هذه الأبيات

---

(١) الخنى : الفحش .

يقول :

تـقـول ولـيـدتي لمـا رأتـني | طربْتَ وكنت قد أسليت حينا
أراك اليـوم قد أحـدثت عهدا | وأورثـك الهـوى داء دفيـنـا
بحقك هل سمعت لها حديثا | فشـاقـك أو رأيت لهـا جبينا
فـقـلت شـكـا إلي أخ محـبّ | كمثـل زمـاننـا إذ تعلمينـا
وذو الشجو القديم وإن تعـزّى | محبّ حـين يلقى العـاشقينـا

ثم عدّ الأبيات ، فاذا هي خمسة أبيات ، فأعتق خمس رقاب . ثم قال لله درّك من خمس ، أعتقت خمسة وجمعت بين رأسين في الحلال . وروي عن عثمان الضحاك قال خرجت أريد الحج فنزلت بخيمة بالأبواء فاذا بجارية جالسة على باب الخيمة فأعجبني حسنها فتمثلت بقول نصيب :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب | وقـل لا تمـلينـا فـما مـلك القـلب

فقالت يا هذا : أتعرف قائل هذا البيت قلت بلى هو نصيب . فقالت :أتعرف زينبه؟ قلت لا، قالت : أنا زينبه؟قلت حياك الله وحياك، قالت أما والله إن اليوم موعده وعدني العام الأول بالاجتماع في هذا اليوم فلعلك أن لا تبرح حتى تراه . قال فبينما هي تكلمني إذا أنا براكب . قالت : ترى ذلك الراكب . قلت نعم قالت إني لأحسبه إياه فأقبل فاذا هو نصيب ، فنزل قريباً من الخيمة ثم أقبل ، فسلم ثم جلس قريباً منها فسألته أن ينشدها فأنشدها فقلت في نفسي محبان قد طال التنائي بينهما فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة . فقمت إلى بعيري لأشد عليه فقال على رسلك إنّي معك . فجلست حتى نهض معي فسرنا وتسامرنا فقال لي : أقلت في نفسك محبان التقيا بعد طول تناء ، فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة ، قلت نعم قد كان ذلك . قال وربّ هذا البيت منذ أحببتها ما جلست منها مجلساً هو أقرب من مجلسي هذا ، فتعجبت لذلك وقلت : والله هذه هي العفة في المحبة .
وعن محمد بن يحيى المدني قال سمعت بعض المدنيين يقول : كان الرجل إذا أحب الفتاة يطوف حول دارها حولاً يفرح إن يرى من يراها ، فان ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار . واليوم هو يشير إليها وتشير إليه ويعدها وتعده ، فان التقيا لم يتشاكيا حباً ، ولم يتناشدا شعراً ، بل يقوم إليها ويجلس بين شعبتيها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة .
وقال الأصمعي : قلت لأعرابية ما تعدون العشق فيكم . قالت الضمة ، والغمزة ، والقبلة . ثم أنشأت تقول :

مـا الحـبّ إلا قـبـلة | وغـمـز كـفّ وعـضـد
مـا الحـبّ إلا هـكـذا | إن نـكـح الحـب فـسـد

ثم قالت كيف تعدون أنتم العشق . قلت نمسك بقرنيها ، ونفرق بين رجليها . قالت لست بعاشق ، أنت طالب ولد ثم أنشأت تقول :

قـد فسد العشق وهـان الهـوى | وصـار من يعشق مستعجـلا
يـريـد أن ينكـح أحبـابـه | من قبـل أن يشهـد أوينحلا[1]

---

(١) ينحلا : من النحلة وهي المهر .

وقيل لرجل وقد زفت عشيقته على ابن عم لها : أيسرّك أن تظفر بها الليلة . قال : نعم والذي أمتعني بحبها وأشقاني بطلبها قيل فما كنت صانعاً بها ، قال : كنت أطيع الحبّ في لثمها وأعصي الشيطان في إثمها ، ولا أفسد عشق عشرين سنة بما يبقى ذميم عاره ، وينشر قبيح أخباره إني للئيم ، لم يلدني كريم . ومر سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه ليلة في بعض سكك المدينة فسمع امرأة تقول :

ألا طال هذا الليل وازورّ جانبه	وليس إلى جانبي خليل ألاعبه
فوالله لولا الله تخشى عواقبه	لحرّك من هذا السرير جوانبه
مخافة ربي والحياء يعفني	وإكرام بعلي أن تنال مراتبه

قال فسأل عمر رضي الله تعالى عنه عنها ، فقيل له إنها امرأة فلان ، وله في الغزاة ثمانية أشهر . فأمر عمر رضي الله تعالى عنه أن لا يغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر . ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزي في كتاب « تلقيح فهوم الأثر » عن محمد بن عثمان بن أبي خيثمة السلمي عن أبيه عن جدّه قال : بينما عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يطوف ذات ليلة في سكك المدينة إذ سمع امرأة تقول :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها	أم من سبيل إلى نصر بن حجاج
إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل	سهل المحيا كريم غير ملجاج
تنميه أعراق صدق حين تنسبه	أخي وفاء عن المكروب فرّاج

فقال عمر رضي الله تعالى عنه : لا أرى معي بالمدينة رجلاً تهتف به العواتق في خدورهنّ ،عليَّ بنصر بن حجاج ، فلما أصبح أتى بنصر بن حجاج فاذا هو من أحسن الناس وجهاً ، وأحسنهم شعراً ، فقال عمر عزيمة من أمير المؤمنين لتأخذن من شعرك ، فأخذ من شعره فخرج من عنده ، وله وجنتان كأنهما شقتا قمر فقال له اعتم فاعتم فافتتن الناس بعينيه . فقال له عمر والله لا تساكنني في بلدة أنا فيها ، فقال يا أمير المؤمنين ما ذنبي ؟ قال هو ما أقول لك ثم سيره إلى البصرة ، وخشيت المرأة التي سمع منها عمر ما سمع أن يبدر من عمر إليها شيء ، فدست إليه المرأة أبياتاً وهي :

قل للامام الذي تخشى بوادره	ما لي وللخمر أو نصر بن حجاج
لا تجعل الظن حقاً أن تبينه	إن السبيل سبيل الخائف الراجي
إن الهوى زم بالتقوى فتحبسه	حتى يقرّ بالجام وإسراج

قال فبكى عمر رضي الله تعالى عنه وقال : الحمد لله الذي زم الهوى بالتقوى ، قال وطال مكث نصر بن حجاج بالبصرة فخرجت أمه يوماً بين الأذان والإقامة متعرّضة لعمر ، فاذا هو قد خرج في إزار ورداء وبيده الدرّة . فقالت له يا أمير المؤمنين : والله لأقفنّ أنا وأنت بين يديّ الله تعالى ، وليحاسبنك الله أيبيتنّ عبد الله وعاصم إلى جنبيك ، وبيني وبين ابني الفيافي والأودية . فقال لها ابنيّ لم تهتف لهما العواتق في خدورهنّ . ثم أرسل عمر إلى البصرة بريداً إلى عتبة بن غزوان فأقام أياماً ثم نادى عتبة ، من أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين فليكتب فان البريد خارج ، فكتب نصر بن حجاج : بسم الله الرحمن الرحيم : سلام عليك يا أمير المؤمنين ، أما بعد فاسمع مني هذه الأبيات :

لعمري لئن سيرتني أو حرمتني وما نلت من عرضي عليك حرام
فأصبحت منفياً على غير ريبة وقد كان لي بالمكتين مقام
لئن غنت الذلفاء يوماً بمنية وبعض أماني النساء غرام
ظننت بي الظن الذي ليس بعده بقاء ومالي جرمة فألام
فيمنعني مما تقول تكرّمي وآباء صدق سالفون كرام
ويمنعها مما تقول صلاتها وحال لها في قومها وصيام
فهاتان حالان فهل أنت راجعي فقد جب مني كاهل وسنام

قال : فلما قرأ عمر رضي الله تعالى عنه هذه الأبيات . قال : أما ولي السلطان فلا ، وأقطعه داراً بالبصرة في سوقها ، فلما مات عمر ركب راحلته وتوجه نحو المدينة والله سبحانه وتعالى أعلم .



من هذا الباب
في ذكر من مات بالحب والعشق

حدّث أبو القاسم بن اسماعيل بن عبد الله المأمون قال : حدثني أبي قال كانت بالمدينة قينة من أحسن الناس وجهاً ، وأكملهم عقلاً ، وأكثرهم أدباً ، قد قرأت القرآن ، وروت الأشعار وتعلمت العربية ، فوقعت عند يزيد ابن‌عبد الملك ، فأخذت بمجامع قلبه فقال لها ذات يوم ، ويحك أما لك قرابة أو أحد تحبين أن أضيفه وأسدي إليه معروفاً ؟ قالت يا أمير المؤمنين : أما قرابة فلا ، ولكن بالمدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولاي ، وأحبّ أن ينالهم خير مما صرت إليه . فكتب إلى عامله بالمدينة في إحضارهم إليه ، وأن يدفع إلى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم . فلما وصلوا إلى باب يزيد استؤذن لهم في الدخول عليه . فأذن لهم وأكرمهم غاية الإكرام وسألهم عن حوائجهم ، فأما اثنان منهم فذكرا حوائجهما فقضاها ، وأما الثالث فسأله عن حاجته فقال يا أمير المؤمنين مالي حاجة . قال : ويحك أو لست أقدر على حوائجك ؟ قال بلى يا أمير المؤمنين ، ولكن حاجتي ما أظنك تقضيها . فقال : فاسألني فانك لا تسألني حاجة أقدر عليها إلا قضيتها . قال فلي الأمان يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم . قال إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تأمر جاريتك فلانة ، التي أكرمتنا بسببها ، أن تغني ثلاثة أصوات أشرب عليها ثلاثة أرطال فافعل . قال فتغير وجه يزيد ثم قام من مجلسه فدخل على الجارية فأعلمها ، فقالت وما عليك يا أمير المؤمنين ، فأمر بالفتى فأحضر ، وأمر بثلاثة كراسي من ذهب فنصبت فقعد يزيد على أحدها ، والجارية على الآخر ، والفتى على الثالث ، ثم دعا بصنوف الرياحين والطيب فوضعت ، ثم أمر بثلاثة أرطال فملئت ، ثم قال للفتى سل حاجتك. فقال تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغني بهذا الشعر :

لا أستطيع سلوّاً عن مودّتها أو يصنع الحبّ بي فوق الذي صنعا
أدعو إلى هجرها قلبي فيسعدني حتى إذا قلت هذا صادق نزعا

فأمرها فغنت ، وشرب يزيد ، وشرب الفتى وشربت الجارية ، ثم أمر بالارطال فملئت وقال للفتى سل حاجتك ، فقال مرها يا أمير المؤمنين أن تغني بهذا الشعر :

تخيرت من نعمان عود أراكة لهند ولكن من يبلغه هندا
ألا عرّجا بي بارك الله فيكما وإن لم تكن هند لأرضكما قصدا

فأمرها فغنت ، وشرب يزيد ، وشرب الفتى ، وشربت الجارية ، ثم أمر بالأرطال فملئت ، ثم قال للفتى سل حاجتك . قال تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغني هذا الشعر :

مني الوصال ومنكم الهجر حتى يفرق بيننا الدهر
والله لا أسلوكمو أبداً ما لاح بدر أو بدا فجر

فأمرها فغنت ، قال فلم تتمّ الأبيات حتى خرّ الفتى مغشياً عليه ، فقال يزيد للجارية قومي انظري ما حاله ، فقامت إليه فحركته فاذا هو ميت ، فقال لها يزيد أبكيه ، فقالت لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حيّ ، فقال لها أبكيه فوالله لو عاش ما انصرف إلا بك . فبكت الجارية ، وبكى أمير المؤمنين وأمر بالفتى فجهز ودفن ، وأما الجارية فلم تمكث بعده إلا أياماً قلائل وماتت . وحكي عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قدم على عبد الملك بن مروان فجلس ذات ليلة يسامره فتذاكرا الغناء ، والجواري المغنيات ، والعشق ، فقال عبد الملك لعبد الله : حدّثني بأمر ما مرّ لك في هذه الأغاني ، وما رأيت من الجواري . قال نعم يا أمير المؤمنين اشتريت جارية مولدة بعشرة آلاف درهم ، وكانت حاذقة مطبوعة فوصفت ليزيد بن معاوية فكتب إلّي في شأنها ، فكتبت إليه والله لا تخرج مني ببيع ، ولا هبة ، فأمسك عني فكانت عندي على تلك الحالة لا أزداد فيها إلا حباً ، فبينما أنا ذات ليلة إذ اتتني عجوز من عجائزنا فذكرت لي أن بعض اعراب المدينة يحبها وتحبه ، ويراها وتراه ، وأنه يجيء كل ليلة متنكراً فيقف بالباب فيسمع غناءها ويَبكي شغفاً وحباً ، فراعيت ذلك الوقت الذي قالت عليه العجوز ، فاذا به قد أقبل مقنعاً رأسه ، وقعد مستخفياً فلم أدع بها في تلك الليلة وجعلت أتأمّل موضعها وموضعه ، فاذا بها تكلمه ويكلمها ، ولم أر بينهما إلا عتباً . ولم يزالا كذلك حتى أبيض الصبح فدعوت بها وقلت : لقيمة الجواري أصلحي فلانة بما يمكنك فأصلحتها وزينتها ، فلما جاءت بها قبضت على يديها وفتحت الباب وخرجت فجئت إلى الفتى فحركته فانتبه مذعوراً ، فقلت لا بأس عليك ولا خوف هي هبة مني إليك ، فدهش الفتى ولم يجبني فدنوت إلى أذنه وقلت : قد أظفرك الله تعالى ببغيتك فقم وانصرف بها إلى منزلك ، فلم يردّ جواباً فحركته فاذا هو ميت . فلم أر شيئاً قط كان أعجب من أمره . قال عبد الملك : لقد جئتني بعجب ، فما صنعت الجارية ؟ قلت : ماتت والله بعده بأيام بعد نحول عظيم وتعليل ، وماتت كمداً ووجداً على الغلام . وقيل : إن عبد الله بن عجلان الهندي رأى أثر كف عشيقته في ثوب زوجها فمات . وذكر محمد بن واسع الهيتي أن عبد الملك بن مروان بعث كتاباً إلى الحجاج بن يوسف الثقفي يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عند عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف ، أمّا بعد إذا ورد عليك كتابي هذا وقرأته فسيّر لي ثلاث جوار مولدات أبكاراً يكون إليهنّ المنتهى في

الجمال ، واكتب لي بصفة كل جارية منهنّ ، ومبلغ ثمنها من المال . فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالنخاسين وأمرهم بما أمره به أمير المؤمنين وأمرهم أن يسيروا إلى أقصى البلاد حتى يقعوا بالغرض ، وأعطاهم المال وكتب لهم كتباً إلى كلّ الجهات فساروا يطلبون ما أراد أمير المؤمنين فلا يزالوا من بلد ، إلى بلد ، ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا بالغرض ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار مولدات ليس لهن مثيل . قال وكان الحجاج فصيحاً فجعل ينظر إلى كل واحدة منهنّ ومبلغ ثمنها فوجدهن لا يقام لهنّ بقيمة ، وأن ثمنهنّ ثمن واحدة منهنّ . ثم كتب كتاباً إلى عبد الملك بن مروان يقول فيه بعد الثناء الجميل : وصلني كتاب أمير المؤمنين أمتعني الله تعالى ببقائه يذكر فيه أن اشتري له ثلاث جوار مولدات أبكارا ، وأن أكتب له صفة كل واحدة منهنّ وثمنها . فأما الجارية الأولى أطال الله تعالى بقاء أمير المؤمنين فانها جارية عبيطاء[1] السوالف ، عظيمة الروادف ، كحلاء العينين ، حمراء الوجنتين قد أنهدت نهداها والتفت فخذاها كأنها ذهب شيب بفضة وهي كما قيل :

بيضاء فيها إذا استقبلتها دعج   كأنها فضة قد شابها ذهب

وثمنها يا أمير المؤمنين ثلاثون ألف درهم ، وأما الثانية فأنها جارية فائقة في الجمال معتدلة القدّ والكمال تشفي السقيم بكلامها الرخيم ، وثمنها يا أمير المؤمنين ستون ألف درهم ، وأما الثالثة فأنها جارية فاترة الطرف ، لطيفة الكفّ عميمة الردف شاكرة للقليل ، مساعدة للخليل ، بديعة الجمال كأنها خشف الغزال ، وثمنها يا أمير المؤمنين ثمانون ألف درهم ثم أطنب في الشكر والثناء على أمير المؤمنين وطوى الكتاب وختمه ودعا النخاسين فقال لهم : تجهزوا للسفر بهؤلاء الجواري إلى أمير المؤمنين . فقال أحد النخاسين أيد الله الأمير . إني رجل كبير ضعيف عن السفر ، ولي ولد ينوب عني أفتأذن لي في ذلك قال نعم فتجهزوا وخرجوا ففي بعض مسيرهم نزلوا يوماً ليستريحوا في بعض الأماكن فنامت الجواري فهبت الريح فانكشفت بطن إحداهنّ وهي الكوفية فبان نور ساطع وكان اسمها مكتوم ، فنظر إليها ابن النخاس وكان شاباً جميلاً ففتن بها لساعته فأتاها على غفلة من أصحابه وجعل يقول :

أمكتوم كم من عاشق في قتل الهوى   وقلبي رهين كيف لا أتعشق

فأجابته تقول :

لو كان حقاً ما تقول لزرتنا   ليلاً إذا هجعت عيون الحسد

قال فلما ، جنّ الليل انتضى الفتى ابن النخاس سيفه ، وأتى نحو الجارية فوجدها قائمة تنتظر قدومه فأخذها وأراد أن يهرب ففطن به أصحابه فأخذوه وكتفوه وأوثقوه بالحديد ولم يزل مأسوراً معهم إلى أن قدموا على عبد الملك بن مروان ، فلما مثلوا بالجواري بين يديه أخذ الكتاب ففتحه وقرأه فوجد الصفة وافقت اثنتين من الجواري ، ولم توافق الثالثة ورأى في وجهها صفرة وهي الجارية الكوفية فقال للنخاسين ما بال هذه الجارية لم توافق حليتها التي ذكرها الحجاج في كتابه ، وما هذا الاصفرار الذي بها والانتحال ؟ فقالوا يا أمير المؤمنين نقول ولنا الأمان . قال :

---

(١) عبيطاء السوالف : مرتفعة السوالف . أي ما تدلى من شعر .

إن صدقتم أمنتم ، وإن كذبتم هلكتم ، فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى وهو مصفد بالحديد ، فلما قدّموه بين يدي أمير المؤمنين بكى بكاءً شديداً وأيقن بالعذاب ، ثم أنشأ يقول :

أمــير المؤمنــين أتـيـت رغـــما وقــد شــدّت إلى عنقي يــديـا
مقــرّاً بــالقبيــح وســوء فعــلي ولست بمـا رميت بـه بــريــا
فــإن تقتــل ففــوق القتــل ذنبي وإن تعفــو فمن جــود عليــا

فقال عبد الملك يا فتى ما حملك على ما صنعت ، أستخفاف بنا ، أم هوى الجارية ؟ قال : وحق رأسك يا أمير المؤمنين وعظم قدرك ، ما هو إلا هوى الجارية . فقال هي لك بما أعددته لها ، فأخذها الغلام بكل ما أعدّه لها أمير المؤمنين من الحلي والحلل ، وسار بها فرحاً مسروراً إلى نحو أهله ، حتى إذا كانا ببعض الطريق نزلا بمرحلة ليلاً فتعانقا وناما ، فلما أصبح الصباح وأراد الناس السير نبهوهما فوجدوهما ميتين . فبكوا عليهما ودفنوهما بالطريق ووصل خبرهما إلى عبد الملك فبكى عليهما وتعجب من ذلك . ومن ذلك ما روي عن النبيّ ﷺ ، أنه أخرج خالد بن الوليد المخزومي رضي الله تعالى عنه إلى مشركي خزاعة . قال خالد : فأخرجني إليهم رسول الله ﷺ في عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والبأس ، قال فجدّينا المسير إليهم فسبق إليهم الخبر فخرجوا إلينا فقاتلناهم قتالاً شديداً ، حتى تعالى النهار ، وطار الشرار ، وهاجت الفرسان ، وتلاحمت الأقران ، فلولا أن الله تعالى أيدنا بنصره لكادت الدائرة أن تكون علينا ولكن تداركنا الله برحمة منه فهزمناهم وقتلناهم قتلاً ذريعاً ، ولم ندع لهم فارساً إلا قتلناه ، ثم طلبنا البيوت فنهبنا وسبينا ، فلما هدأ القتال والنهب أمرت أصحابي بجمع السبايا لنقدم بهنّ على رسول الله ﷺ ، فلما خرجنا وأحصيناهم خرج منهم غلام لم يراهق الحلم ، ولم يجر عليه القلم وهو ماسك بشابة جميلة ، فقلنا له يا غلام انعزل عن النساء ، فصاح صيحة مزعجة وهجم علينا ، فوالله لقد قتل منا في بقية نهارنا مائة رجل ، قال خالد فرأيت أصحابي قد كرهوا قتاله وتأخروا عنه ، فملك منهم جواداً وعلا على ظهره ونادى البراز يا خالد ، قال فبرزت إليه بنفسي بعد أن أنشدت شعراً ، فوالله لم يمهلني حتى أتم شعري بل حمل علي فتطاعنا حتى تكسرت القنا ، وتضاربنا بالسيوف حتى تفللت ، فوالله لقد اقتحمت الأهوال ، ومارست الأبطال ، فما رأيت أشد من حملاته ، ولا أسرع من هجماته ، فبينما نحن نعترك إذ كبا به فرسه فصار بين قوائمه ، فوثبت عليه وعلوت على صدره وقلت له أفد نفسك بقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنا أردك من حيث جئت . قال يا خالد ما أنصفتني اتركني حتى أجد من نفسي القوّة قال خالد فتركته وقلت لعله أن يسلم ثم شددته وثاقا ، وصفدته بالحديد وأنا أبكي إشفاقاً على حسن شبابه ، ثم أوثقته على بعير لي ، فلما علم أن لا خلاص له قال يا خالد سألتك بحق إلهك إلا ما شددت ابنة عمي على ناقة أخرى إلى جانبي ، قال خالد فأخذتها وشددتها على ناقة أخرى إلى جانبه ووكلت بهما جماعة من أشدّ القوم بالقواضب والرماح وسرنا ، فلما استقامت مطاياهم جعل الغلام والجارية يتناشدان الأشعار ، ويبكيان إلى آخر الليل فسمعته يذكر قصيدة يسبّ فيها الإسلام ويذكر أن لا يسلم أبداً . فأخذت السيف وضربته فرميت رأسه فصاحت الجارية وأكبت صارخة فحرّكتها فوجدتها ميتة . فأبركنا الأباعر وحفرنا ودفناهما . فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أقبلنا نحدّثه بعجيب ما رأينا مع الغلام فقال لا تحدّثوني شيئاً أنا أحدّثكم به ، فقلنا من أعلمك به يا رسول الله : قال أخبرني جبريل عليه السلام وتعجب رسول الله ﷺ من موافقتهما ، وموافقة أجلهما .

ومن ذلك ما حكاه الثوري قال حدثني جبلة بن الأسود وما رأيت شيخاً أصبح ولا أوضح منه قال : خرجت في طلب إبل لي ضلت فما زلت في طلبها إلى أن أظلم الظلام ، وخفيت الطريق فصرت أطوف وأطلب الجادّة فلا أجدها . فبينما أنا كذلك إذ سمعت صوتاً حسناً بعيداً وبكاء شديداً فشجاني حتى كدت أن أسقط عن فرسي . فقلت لأطلبن الصوت ولو تلفت نفسي ، فما زلت أقرب إليه إلى أن هبطت وادياً ، فاذا راع قد ضم غنماً له إلى شجرة وهو ينشد ويترنم :

وكنت إذا ما جئت سعدى أزورها ... أرى الأرض تطوي لي ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ودّ جليسها ... إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

قال فدنوت منه وسلمت عليه ، فردّ عليّ السلام وقال من الرجل ؟ فقلت منقطع به المسالك أتاك يستجير بك ويستعينك . قال مرحباً وأهلاً انزل على الرحب والسعة فعندي وطاء وطيء ، وطعام غير بطيء ، فنزلت ، فنزع شملته وبسطها تحتي . ثم أتاني بتمر وزبد ولبن وخبز ، ثم قال اعذرني في هذا الوقت ، فقلت والله إنّ هذا لخير كثير ، فمال إلى فرسي فربطه وسقاه وعلفه . فلما أكلت توضأت وصليت ، واتكأت فاني لبين النائم واليقظان إذ سمعت حسّ شيء ، وإذا بجارية قد أقبلت من كبد الوادي فضحت الشمس حسناً ، فوثب قائماً إليها وما زال يقبل الأرض حتى وصل إليها وجعلا يتحادثان . فقلت هذا رجل عربيّ ولعلها حرمة له ، فتناومت وما بي نوم ، فما زالا في أحسن حديث ، ولذة مع شكوى وزفرات إلا أنهما لا يهم أحدهما لصاحبه بقبيح . فلما طلع الفجر عانقها وتنفسا الصعداء وبكى وبكت ، ثم قال لها يا ابنة العم سألتك بالله لا تبطئي عني كما أبطأت الليلة ، قالت يا ابن العم أما علمت أني أنتظر الواشين والرقباء حتى يناموا ، ثم ودّعته وسارت وكل واحد منهما يلتفت نحو الآخر ويبكي . فبكيت رحمة لهما وقلت في نفسي والله لا أنصرف حتى أستضيفه الليلة وأنظر ما يكون من أمرهما ، فلما أصبحنا قلت له جعلني الله فداءك ، الأعمال بخواتيمها ، وقد نالني أمس تعب شديد ، فأحب الراحة عندك اليوم . فقال على الرحب والسعة ، لو أقمت عندي بقية عمرك ما وجدتني إلا كما تحبّ ، ثم عمد إلى شاة فذبحها وقام إلى نار فأججها وشواها وقدّمها إليّ ، فأكلت وأكل معي ، إلا أنه أكل أكل من لا يريد الأكل ، فلم أزل معه نهاري ذلك ، ولم أر أشفق منه على غنمه ، ولا ألين جانباً ولا أحلى كلاماً إلا أنه كالولهان ، ولم أعلمه بشيء مما رأيت . فلما أقبل الليل وطأت وطائي فصليت وأعلمته أني أريد الهجوع لما مرّ بي من التعب بالأمس . فقال لي : نم هنيئاً فأظهرت النوم ولم أنم فأقام ينتظرها إلى هنيهة من الليل ، فأبطأت عليه فلما حان وقت مجيئها قلق قلقاً شديداً ، وزاد عليه الأمر فبكى ثم جاء نحوي فحركني فأوهمته أني كنت نائماً فقال يا أخي هل رأيت الجارية التي كانت تتعهدني وجاءتني البارحة قلت قد رأيتها قال فتلك ابنة عمي ، وأعز الناس علي ، وإني لها محبّ ، ولها عاشق وهي أيضاً محبة لي أكثر من محبتي لها ، وقد منعني أبوها من تزويجها لي لفقري وفاقتي وتكبره علي فصرت راعياً بسببها ، فكانت تزورني في كلّ ليلة وقد حان وقتها الذي تأتي فيه واشتغل قلبي عليها وتحدثني نفسي أن الأسد قد افترسها ثم أنشأ يقول :

ما بال مية لا تأتي كعادتها ... أعاقها طرب أم صدها شغل
نفسي فداؤك قد أحللت بي سقما ... تكاد من حرّه الأعضاء تنفصل

قال ثم انطلق فغاب عني ساعة وأتى بشيء فطرحه بين يدي فاذا هي الجارية قد قتلها الأسد ، وأكل أعضاءها ، وشوه خلقتها ثم أخذ السيف وانطلق فأبطأ هنيهة وأتى ومعه رأس الأسد فطرحه ثم أنشأ يقول :

ألا أيها الليث المدلّ بنفسه هلكت لقد جريت حقاً لك الشرا
وخلفتني فردا وقد كنت آنساً وقد عادت الأيام من بعدها غبرا

ثم قال بالله يا أخي إلا ما قبلت ما أقول لك ، فاني أعلم أن المنية قد حضرت لا محالة ، فاذا أنا مت فخذ عباءتي هذه فكفني فيها وضم هذا الجسد الذي بقي منها معي وادفنا في قبر واحد وخذ شويهاتي هذه . وجعل يشير إليها فسوف تأتيك امرأة عجوز هي والدتي فأعطها عصاي هذه ، وثيابي وشويهاتي وقل لها مات ولدك كمداً بالحب فانها تموت عند ذلك فادفنها إلى جانب قبرنا وعلى الدنيا مني السلام . قال فوالله ما كان إلا قليل حتى صاح صيحة ووضع يده على صدره ومات لساعته . فقلت والله لأصنعن له ما أوصاني به . فغسلته وكفنته في عباءته وصليت عليه ودفنته ودفنت باقي جسدها إلى جانبه وبت تلك الليلة باكياً حزيناً فلما كان الصباح أقبلت امرأة عجوز وهي كالولهانة فقالت لي هل رأيت شاباً يرعى غنماً فقلت لها نعم . وجعلت أتلطف بها ثم حدثتها بحديثه وما كان من خبره فأخذت تصيح وتبكي وأنا ألاطفها إلى أن أقبل الليل ، وما زالت تبكي بحرقة إلى أن مضى من الليل برهة فقصدت نحوها فاذا هي منكبة على وجهها وليس لها نفس يصعد ، ولا جارحة تتحرك . فحركتها فاذا هي ميتة فغسلتها وصليت عليها ودفنتها إلى جانب قبر ولدها وبت الليلة الرابعة فلما كان الفجر قمت فشددت فرسي وجمعت الغنم وسقتها فاذا أنا بصوت هاتف يقول :

كنا على ظهرها والدهر يجمعنا والشمل مجتمع والدار والوطن
فمزّق الدهر بالتفريق الفتنا وصار يجمعنا في بطنها الكفن

قال فأخذت الغنم ، ومضيت إلى الحي لبني عمهم فأعطيتهم الغنم ، وذكرت لهم القصة فبكى عليهم أهل الحي بكاء شديداً ، ثم مضيت إلى أهلي وأنا متعجب مما رأيت في طريقي . ومن ذلك ما حكي أن زوج عزّة أراد أن يحج بها فسمع كُثَيِّر الخبر فقال والله لأحجّن لعلي أفوز من عزّة بنظرة . قال فبينما الناس في الطواف إذ نظر كُثَيِّر لِعَزَّة وقد مضت إلى جمله فحيته ومسحت بين عينيه وقالت حييت يا جمل فبادر ليلحقها ففاتته فوقف على الجمل وقال :

حييتك عَزَّة بعد الحج وانصرفت فحيّ ويحك من حياك يا جمل
لو كنت حييتها ما كنت ذا سرف عندي ولا مسك الإدلاج والعمل

قال فسمعه الفرزدق فتبسم وقال له : من تكون يرحمك الله قال أنا كُثَيِّر عَزَّة فمن أنت يرحمك الله قال أنا الفرزدق بن غالب التميمي قال أنت القائل :

رحلت جمالهم بكلّ أسيلة تركت فؤادي هائماً مخبولا
لو كنت أملكهم إذا لم يرحلوا حتى أودع قلبي المتبولا
ساروا بقلبي في الحدوج وغادروا جسمي يعالج زفرة وعويلا

فقال الفرزدق : نعم . فقال كُثَيِّر ، والله لولا أني بالبيت الحرام ، لأصيحنّ صيحة أفزع بها هشام بن عبد

الملك وهو على سرير ملكه . فقال الفرزدق والله لأعرفن بذلك هشاماً ثم توادعا وافترقا . فلما وصل الفرزدق إلى دمشق دخل إلى هشام بن عبد الملك فعرفه بما اتفق له مع كُثير . فقال له : اكتب إليه بالحضور عندنا لنطلق عَزَّة من زوجها ونزوجه إياها . فكتب إليه بذلك فخرج كُثَيِّر يريد دمشق فلما خرج من حيه وسار قليلاً رأى غراباً على بانة وهو يفلي نفسه وريشه يتساقط فاصفر لونه ، وارتاع من ذلك وجدّ في السير ، ثم إنه مال ليسقي راحلته من حي بني فهد وهم زجرة الطير فبصر به شيخ من الحي فقال : يا ابن أخي أرأيت في طريقك شيئاً فراعك؟قال نعم يا عم رأيت غراباً على بانة يتفلى وينتف ريشه فقال له الشيخ : أما الغراب فانه اغتراب ، والبانة بين ، والتفلي فرقة فازداد كُثَيِّر حزناً على حزنه لما سمع من الشيخ هذا الكلام وجدّ في السير إلى أن وصل إلى دمشق ودخل من أحد أبوابها فرأى الناس يصلون على جنازة فنزل وصلى معهم فلما قضيت الصلاة صاح صائح لا إله إلا الله ما أغفلك يا كُثَيِّر عن هذا اليوم فقال ما هذا اليوم يا سيدي فقال إن هذه عَزَّة قد ماتت وهذه جنازتها فخر مغشياً عليه فلما أفاق أنشأ يقول :

فما أعرف الفهدي لا درّ درّه — وأزجره للطير لا عز ناصره
رأيت غرابا قد علا فوق بانة — ينتف أعلى ريشه ويطايره
فقال غراب اغتراب من النوى — وبانة بين من حبيب تعاشره

ثم شهق شهقة فارقت روحه الدنيا ، ومات من ساعته ، ودفن مع عَزَّة في يوم واحد .

وحكى الأصمعي قال : بينما أنا أسير في البادية إذ مررت بحجر مكتوب عليه هذا البيت :

أيا معشر العشاق بالله خبروا — إذا حل عشق بالفتى كيف يصنع

فكتبت تحته :

يداري هواه ثم يكتم سره — ويخشع في كل الأمور ويخضع

ثم عدت في اليوم الثاني فوجدت مكتوباً تحته :

فكيف يداري والهوى قاتل الفتى — وفي كل يوم قلبه يتقطع

فكتبت تحته :

إذا لم يجد صبراً لكتمان سره — فليس له شيء سوى الموت أنفع

ثم عدت في اليوم الثالث فوجدت شاباً ملقى تحت ذلك الحجر ميتاً ، فقلت لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم وقد كتب قبل موته :

سمعنا أطعنا ثم متنا فبلغوا — سلامي على من كان للوصل يمنع

وحكي أيضاً عن الأصمعي رحمه الله تعالى أنه قال : بينما أنا نائم في بعض مقابر البصرة إذ رأيت جارية على قبر تندب وتقول :

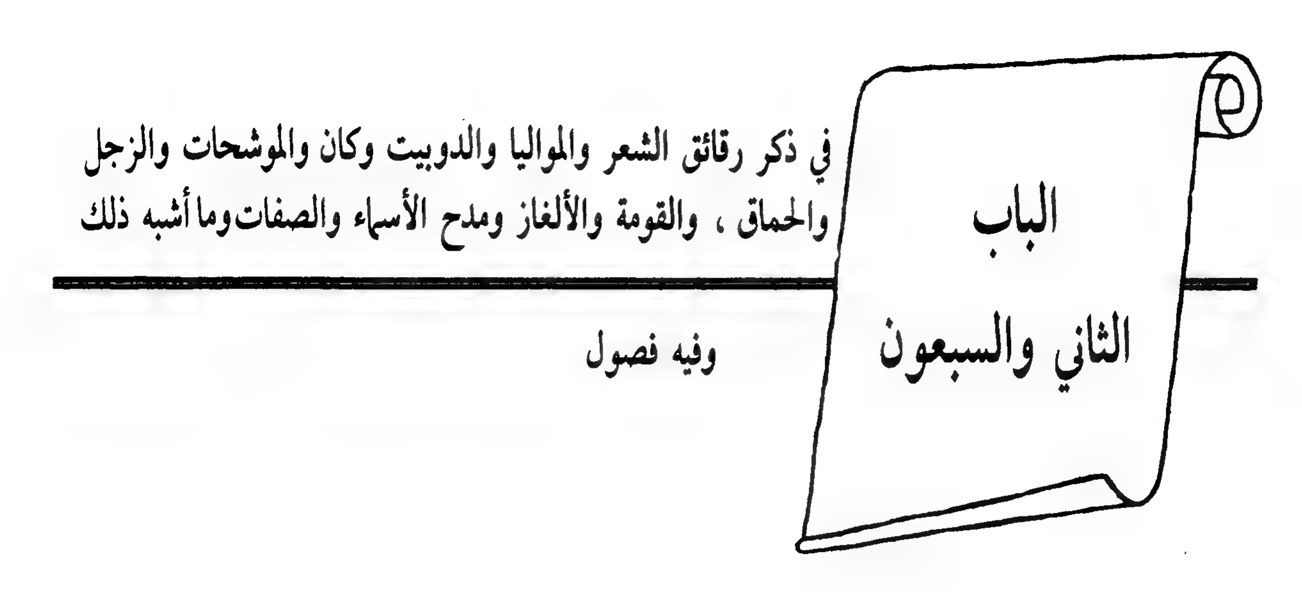
بروحي فتى أوفى البرية كلها — وأقواهم في الحب صبراً على الحب

قال : فقلت لها يا جارية بم كان أوفى البرية ، وبم كان أقواها ؟ فقالت يا هذا إنه ابن عمي هوين فهويته ، فكان إن أباح عنّفوه ، وإن كتم لاموه ، فأنشد بيتيّ شعر ، وما زال يكرّرهما إلى أن مات ، والله لأندبنه حتى أصير مثله في قبر إلى جانبه ، فقلت لها يا جارية فما البيتان ؟ قالت :

يقولون لي إن بحت قد غرّك الهوى وإن لم أبح بالحب قالوا تصبرا
فما لامرىء يهوى ويكتم أمره من الحب إلا أن يموت فيعذرا

ثم إنها شهقت شهقة فارقت روحها الدنيا رحمة الله تعالى عليها ، والحكايات في ذلك كثيرة ، وفي الكتب مشهورة ، ولولا الإطالة والخوف من الملالة لجمعنا في هذا المعنى أشياء كثيرة ، ولكن اقتصرنا على هذه النبذة اليسيرة والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .





الباب الثاني والسبعون

في ذكر رقائق الشعر والمواليا والدوبيت وكان والموشحات والزجل والحماق ، والقومة والألغاز ومدح الأسماء والصفات وما أشبه ذلك

وفيه فصول

الفصل الأول :

في الشعر

قد قسم الناس الشعر خمسة أقسام : مرقص كقول أبي جعفر طلحة وزير سلطان الأندلس :

والشمس لا تشرب خمر الندى   في الروض إلا من كؤوس الشقيق

ومطرب كقول زهير :

تــراه إذا مــا جئتــه متهللا   كأنك تعطيه الـذي أنت سائله

ومقبول كقول طرفة بن العبد :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً   ويـأتيك بـالأخبار من لم تـزوّد

ومسموع مما يقام به الوزن دون أن يمجه الطبع كقول ابن المعتز :

سقى المـطيرة ذات الـظلّ والشجر   وديـر عبـدون هـطال من المـطر

ومتروك وهو ما كان كلاً على السمع والطبع كقول الشاعر :

تقلقلت بـالهم الذي قلقـل الحشـا   قـلاقـل هـمّ كـلهـنّ قـلاقـل

وقد قسم الناس فنون الشعر إلى عشرة أبواب حسبما بوب أبو تمام في الحماسة . وقال عبد العزيز بن أبي الأصبع الذي وقع لي أن فنون الشعر ثمانية عشر فناً وهي : غزل ، ووصف ، وفخر ، ومدح ، وهجاء ، وعتاب ، واعتذار ، وأدب ، وزهد ، وخمريات ، ومراث ، وبشارة ، وتهان ، ووعيد ، وتحذير ، وتحريض ، وملح ، وباب مفرد للسؤال والجواب ، ولنذكر إن شاء الله تعالى من ذلك ما تيسر على سبيل الاختصار ، ولنبدأ من ذلك بذكر الغزل المذكر .

ابن نباتة :

أأغصان بان ما أرى أم شمائل وأقمار تم ما تضم الغلائل
وبيض رقاق أم من جفون فواتر وسمر دقاق أم قدود قواتل
وتلك نبال أم لحاظ رواشق لها هدف مني الحشا والمقاتل
بروحي أفدي شادنا قد ألفته غدوت وبي شغل من الوجد شاغل
أمير جمال والملاح جنوده يجور علينا قدّه وهو عادل
له حاجب عن مقلتي حجب الكرى وناظره الفتان في القلب عامل
رفعت إليه قصة الدمع شاكيا فوقع يجري فهو في الخدّ سائل
شكوت فما ألوى وقلت فما صغى وجدّ بقلبي حبه وهو هازل
طويل التواني دله متواتر مديد التجني وافر الحسن كامل
أطارحه بالنحو يوماً تعللا فيبدو وللإعراب فيه دلائل
ويرفع وصلي وهو مفعول في الهوى وينصب هجري عامداً وهو فاعل
تفقهت في عشق له مثل ما غدا خبيرا بأحكام الخلاف يجادل
فيا مالكي ما ضرّ لو كنت شافعي بوصلك فافعل بي كما أنت فاعل
فاني حنيفي الهوى متحنبل بعشقك لا أصغي وإن قال قائل

كمال الدين بن النبيه :

الله أكبر كل الحسن في العرب كم تحت لمة ذا التركي من عجب
صبح الجبين بليل الشعر منعقد والخدّ يجمع بين الماء واللهب
تنفست عن عبير الراح ريقته وافتر مبسمه الشهديّ عن حبب
لا في العذيب ولا في بارق غزلي بل في جنى فمه أو ريقه الشنب
كأنه حين يرمي عن حنيته بدر رمى عن هلال الأفق بالشهب
يا جاذب القوس تقريباً لوجنته والهائم الصب منها غير مقترب
أليس من نكد الأيام يحرمها فمي ويلثمها سهم من الخشب
من لي بأغيد قاسي القلب مبتسم لا عن رضا معرض عني بلا غضب
فكم له في وجود الذنب من سبب وليس لي في قيام العذر من سبب
تميل أعطافه تيهاً بطرّته كما تميل رماح الخط بالعذب
أشار نحوي وجنح الليل معتكر بمعصم بشعاع الكأس مختضب
بكر جلاها أبوها قبل ما جليت في حجرة الدن أو في قشرة العنب

البهاء زهير :

يعاهدني لا خانني ثم ينكث وأحلف لا كلمته ثم أحنث

وذلـك دأبي لا يـزال ودأبـه فيـا معشـر العشـاق عنا تحـدّثـوا
أقـول لـه صلني يقـول نعم غـدا ويكسـر جفنـا هـادئاً بي ويعبث
وما ضرّ بعض الناس لو كان زارني وكنـا خلونـا سـاعـة نتحـدّث
أمـولاي إني في هـواك معـذب وحتـام أبقى في الغـرام وأمكث
فخـذ مرة روحي تـرحني ولا أرى أمـوت مـرارا في النهـار وأبعث
فـاني لهـذا الضيم منـك لحـامـل ومنتـظر لـطفـا من الله يحـدث
أعيذك من هذا الجفـاء الذي بـدا خـلائـقـك الحسـنى أرقُ وأدمث
تـردّد ظنّ النـاس فيّ فـأكثـروا أحـاديث فيهـا مـا يـطيب ويخبث
وقد كرمت في الحبّ مني شمـائل ويـسـأل عني مـن أراد ويـبـحـث

النابلسي :

مـا كنت أعلم والضمائـر تصـدق أنّ المسـامـع كـالنـواظـر تعشق
حتى سمعت بـذكـركم فهـولتكم وكـذاك أسبـاب المحبـة تعلق
ولقـد قنعت من اللقـاء بسـاعـة إن لم يـكـن لي لـلدّوام تـطرّق
قـد ينعش العـطشـان بلة ريقـه ويغصّ بـالمـاء الكـثـير ويشـرق
فعسى عيوني أن ترى لـك سيدي وجهـاً يكـاد الحسن فيـه ينـطق

أبو الحسن الجزار :

في خـدّه من بقـايـا اللثم تخميش وبي لتشويش ذاك الصدغ تشويش
ظبي من التـرك اغنتـه لـواحـظه عـما حـوتـه من النبـل التـراكيش
إذا تثنى فقلب الـغصـن منكسـر وإن تبدّى فطرف البـدر مدهـوش
يا عاذلي إن تكن عن حسن صورته أعمى فـإني عـمّا قلت أطـروش
كم ليلة بـات يسقيني المـدام عـلى روض لـه بثيـاب الغيم تـرقيش
والغيث كالجيش يرتـجّ الوجـود له والبـرق رايتـه والـرعـد جـاويش
في مجلس ضحكت أرجـاؤه طلبـاً لأنـه ببـديـع الـزهـر مفـروش

سيدي أبو الفضل بن أبي الوفاء :

تـرى متى من فتور اللحظ ينتشط من قلبـه بحبـال الشعـر مـرتبط
قد رقّ لي خصره المضني فنـاسبني فقلت خير الأمور الأنسب الـوسط
وقـد خفى الردف عني من تثـاقله فقلت هذا على ضعفي هو الشطط
وصدره الرحب قـد عانقتـه سحرا والقلب منبعث الآمـال مـنبسط
وفيـه تلك النهـود المشتهـاة تـرى رمـانها فيـه ، قلبي أمـره فـرط
إنّ الصـواب تعجيل السـرور فقم قبـل الفـوات فـأوقـات الهنا غلط

القاضي مجد الدين بن مكانس :

أهـدى تحيتـه وجـاد بـوعـده | أفديه من قمـر بدا في سعـده
بـدر جرى مـاء الحيـاة بثغـره | وتـردّدت فـضـلاتـه في خـدّه
أسكنتـه قـلبي فـأوقـد خـدّه | نيـران أحشـائي عليـه ووجـده
من لي بـه حلو الشمـائـل أهيف | روت العـوالي عن مثقف قـدّه
يـا عـاذلي في حبـه لـو أبصـرت | عينـاك فوق الـردف مسبل جعده
لعـذرت كـلّ متيم في حبـه | وعـلمت أن ضـلالـه في رشـده
فـوحقّ مـوتي في هـواه صبابـة | وحيـاة مبسمـه الشهـيّ وبـرده
ما جاد غيث الدمع إلا من هوى | خلع القـلوب ببـرقـه وبـرعـده
قم يـا رسـول وأبلغ العشاق مـا | ألقـاه من جـور الحبيب وبُعـده
وإذا سـألتك أن تؤدّي في الهـوى | خبـري فصف فعل الغـرام وأبـده

عزّ الدين الموصلي : والصحيح أن هذه الأبيات لابن نباتة لأنها في ديوانه .

نفس عن الحبّ ما أغفت وما غفلت | بـأيّ ذنب وقـاك الله قـد قتلت
دعها ومدمعهـا الجاري لقـد لقيت | ما قدّمت من أسى قلبي وما عملت
أفديك من ناشط الأجفان في تلفي | والسحـر يـوهم طـرفي أنها كسلت
وأوضـح الحسن لو شـاءت ذوائبـه | في الأفق وصل دجا الظلماء لاتصلت
مـعسـل بـنـعـاس في لـواحـظه | أمـا تراهـا إلى كـلّ القلوب حلت
من لي بـألحاظ ظبي يـدّعي كسلا | وكم ثياب ضنى حاكت وكم غزلت
وحمـرة فـوق خـدّيـه ومـرشفـه | هـذي محاسنها تـزهـو وذي ذبلت
أمـا كفـاني تكحيـل الجفـون أسى | حتى المراشف منه بـاللمى كحلت

وغيره للفاضل :

شـرخ الشبـاب بحبكم أفنيتـه | والعمـر في كـلف بكم قضيتـه
وأنا الذي لـو مرّ بي من نحـوكم | داع وكـنـت بـحـفـرتي لـبـيـتـه
كـيف الـتعـرّض لـلسلوّ وحـبكـم | حبّ بـأيـام الشبـاب شـريتـه
لله داء في الـفـؤاد أجـنـه | يـزداد نـكـسـاً كـلما داويـتـه
قـالـوا حبيبـك في التجني مسـرف | قـاس عـلى العشـاق قلت فـديتـه
أأروم مـن كلفـي عليـه تخلصـاً | لا والـذي بـطحـاء مكـة بيتـه
ولو استطعت بكلّ إسم في الورى | من لـذّة الـذكـرى بـه سميتـه
أستودع الله أعطافاً شوت كبـدي | وكلما رمت تجديد الـوصـال قلت
ومهجـة لي كم ألقت بمسمعهـا | إلى المـلام ولا والله مـا قـبـلت

وللشيخ بدر الدين الدماميني :

سلّ السيفا من الجفون صقيلا   مذ تصدّى جلاه رحت قتيلا
صحّ عن جفنه حديث فتور   وهو ما زال من قديم عليلا
من أبدى لنا من الخصر ردفا   فأرانا مع الخفيف ثقيلا
ذو قوام كأنه الغصن لكن   بالهوى نحو وصلنا لن يميلا
كامل الحسن وافر ظلّ ، وجدي   فيه يا عاذلي مديدا طويلا
فاتك الجفن ذو جمال كثير   أتلف العاشقين إلا قليلا
قلت إذ لاح طرفه ولماه   فاتر اللحظ بكرة وأصيلا
كيف حالي وهل لصبّ إليه   من سبيل فقال لي سل سبيلا

وقال آخر :

لو أن قلبك لي يرقّ ويرحم   ما بتّ من ألم الجوى أتألم
ومن العجائب أنني لا سهم لي   من ناظريك وفي فؤادي أسهم
يا جامع الضدّين في وجناته   ماء يرقّ عليه نار تضرم
عجبي لطرفك وهو ماض لم يزل   فعلام يكسر عند ما تتكلم
ومن المروءة أن تواصل مدنفا[1]   والدهر سمح والحوادث نوّم

وقال آخر :

تصدّق بوعد إنّ دمعي سائل   وزوّد فؤادي نظرة فهو راحل
فخدك موجود به التبر دائماً   وحسنك معدوم لديه المماثل
أيا قمراً من شمس طلعة وجهه   وظل عذاريه الدجا والأصائل
تنقلت من طرف لقلب مع الهوى   وهاتيك للبدر المنير منازل
جعلتك للتمييز نصبا لخاطري   فهلا رفعت الهجر والهجر فاعل

وقال ابن صابر :

قبلت وجنته فألفت جيده   خجلا ومال بعطفه المياس
فانهلّ من خديه فوق عذاره   عرق يحاكي الطل فوق الآس
فكأنني استقطرت ورد خدوده   بتصاعد الزفرات من أنفاسي

وقال آخر :

وغزال كلّ من شبهه   بهلال أو ببدر ظلمه
قال إذا قبلت وهما فمه   قد تعديت وأسرفت فمه

---

(١) المدنف : العاشق المتألم .

وقال آخر :

بـأبي غـلام لست غـير غـلامـه ... مـذ جـاد لي بسـلامـه وكـلامـه
ذو حـاجب مـا إن رأيت كنـونـه ... أبـداً وصدغ مـا رأيت كـلامـه

وقال جمال الدين بن مطروح :

ذكر الحمى فصبا وكان قد أرعوى ... صب على عرش الغرام قد استوى
تجـري مـدامعـه ويخفق قـلبـه ... مهما جرى ذكـر العقيق مع اللوى
وإذا تـألـق بـارق مـن بـارق ... فهنـاك ينشر من هـواه ما انـطوى
فخذوا أحاديث الهـوى عن صادق ... ما ضل في شراع الغرام وما غوى
وبمـهجـتي رشـأ أطـالـت عـذّلي ... فيه الملام وقد حوى ما قد حـوى
قـالـوا أفيـه سـوى رشـاقـة قـدّه ... وفتـور عينيه وهـل مـوتي سـوى
مـا أبصـرتـه الشمس إلا واكتست ... خجـلا ولا غصن النقا إلا التـوى
يـروي الأراك محـاسنـاً عن ثغره ... يا طيب ما نقـل الأراك وما روى

وقال آخر :

عـبـث الـنـسـيم بقـده فتـأوّداً ... وسـرى الحيـاء بخـده فتـوردا
رشـأ تفـرّد فيـه قلبي بـالهـوى ... لمـا غـدا بـجـمـالـه مـتـفـرّدا
قـاسوه بـالغصن الـرطيب جهـالـة ... تـالله قـد ظلم المشبـه واعتـدى
حسن الغصون إذا اكتست أوراقها ... وتـراه أحسن مـا يكـون مجـرّدا

وقال غيره :

يـا حسـنـا مـالـك لم تحسـن ... إلى قـلوب في الهـوى متـعبـة
رقـمـت بـالـورد وبـالـسـوسـن ... صفحـة خد بـالسنـا مـذهبـة
وقـد أبى خـدك أن أجـتـني ... منـه وقـد ألـسعـني عـقـربـه
يـا حسنـه إذ قـال مـا أحسني ... ويـا لـذاك اللفظ مـا أعـذبـه
قـلت لـه كـلّك عـنـدي سـنـا ... وكـل ألـفـاظـك مستعـذبـة
فـفـوّق الـسـهـم ولم يخـطني ... ومـذ رآني مـيـتـاً أعـجبه[1]

وقال :

كـم مـن عـاشـق حـبـني ... وحـبـه إيـاي قـد أتـعـبـه
يـرحمـه الله عـلى أنـني ... قتـلي لـه لم أدر مـا أوجبـه

وقال آخر :

مليـح بغـار الغصن عنـد اهتـزازه ... ويخجـل بدر التّم عنـد شـروقـه
فـما فيه معنى نـاقص غـير خصـره ... ومـا فيـه شيء بـارد غـير ريقـه

---

(١) فوّق السهم : اعده للرماية .

وقال يحيى بن أكثم :

دناها جرى نحوي بمقلته الكحلا ... فلما رأى ذلي ثنى عطفه دلا
فتيمني شوقا وأنحلني أسى ... وأفقدني صبرا وأعدمني عقلا
شكوت فما ألوى وولى وما لوى ... وأعرض مزورّاً فسلّ الحشا سلا
إذا ما دعاه فرط سقمي لزورة ... يناديه فرط العجب من عطفه كلا

وقال أيضاً :

بأبي غزالاً غازلته مقلتي ... بين العذيب وبين شطي بارق
وسألت منه زورة تشفي الجوى ... فأجابني عنها بوعد صادق
بتنا ونحن من الدجا في خيمة ... ومن النجوم الزهر تحت سرادق
عاطيته والليل يسحب ذيله ... صهباء كالمسك الذكي لناشق
وضممته ضمّ الكميّ لسيفه ... وذؤابتاه حمائل في عاتقي[1]
حتى إذا مالت به سنة الكرى ... زحزحته عني وكان معانقي
أبعدته عن أضلع تشتاقه ... كي لا ينام على فراش خافق
لما رأيت الليل آخر عمره ... قد شاب في لمم له ومفارق
ودعت من أهوى وقلت تأسفا ... صعب عليّ بأن أراك مفارقي

وقال ابن نباتة :

بدا ورنت لواحظه دلالا ... فما أبهى الغزالة والغزالا
وأسفر عن سنا قمر منير ... ولكن قد وجدت به الضلالا
صقيل الخد أبصر من رآه ... سواد العين فيه فخال خالا
وممنوع الوصال إذا تبدّى ... وجدت له من الألفاظ لالا
عجبت لثغره السام أبدى ... لنا دراً وقد سكن الزلالا
شهدت بشهد ريقته لأني ... رأيت على سوالفه نمالا
فيا عجبا لحسن قد حواه ... وقد اهدى إلى قلبي الوبالا
سأشكو الحسن ما بقيت حياتي ... وأشكو من صنائعه الجمالا

القاضي فخر الدين بن مكانس :

يا غصناً في الرياض مالا ... حملتني في هواك مالا
يا رائحا بعد أن سباني ... حسبك ربّ السما تعالى

وله أيضاً :

أجارك الله قد رثت لي ... مما ألاقي عدا وحسد
وعاذلي مذ رأى ضلوعي ... تعد سقما بكى وعدّد

---

(١) الكمّي : الفارس الشجاع .

ابن رفاعة :

يقولون هل منّ الحبيب بزورة ... ومنّاكم المطلوب قلنا لهم منّا
فقالوا لنا غوصوا على قده وما ... يحاكى إذا ما اهتزّ ، قلنا لهم غصنا

الشيخ برهان الدين القيراطي :

ووردي خد نرجسي لواحظ ... مشايخ علم السحر عن لحظه رووا
وواوات صدغيه حكين عقاربا ... من المسك فوق الجلنار قد التووا
ووجنته الحمرا تلوح كجمرة ... عليها قلوب العاشقين قد اكتووا
وودي له باق ولست بسامع ... لقول حسود والعواذل إذ عووا
ووالله ما أسلو ولو صرت رمة ... فكيف وأحشائي على حبة انطووا

وللشيخ برهان الدين القيراطي أيضاً :

شبه السيف والسنان لعيني ... من لقتلي بين الأنام استحلا
فأبى السيف والسنان وقالا ... حدّنا دون ذاك حاشى وكلا

وله أيضاً :

بأبي أهيف المعاطن لدن ... حسد الأسمر المثقف قدّه
ذو جفون مذ رمت منها كلاماً ... كلمتني سيوفهن محدّه

وقال آخر :

تملك رقى شادن قد هويته ... من الهند معسول اللمى أهيف القد
أقول لصحبي حين يرنو بطرفه ... خذوا حذركم قد سل صارمه الهندي

ومما قيل في الغزل المؤنث للشيخ شمس الدين بن البديري :

خيال سلمى عن الأجفان لم يغب ... وطيفها عن عياني غير محتجب
وذكرها أنس روحي وهي نائية ... والقلب ما زال عنها غير منقلب
لم أصغ فيها للاح راح يعذلني ... ولا لواش خلّى بات يلعب بي
عذابها في الهوى عذب ألذّ به ... ومرّ هجرانها أحلى من الضرب
فان نأت أو دنت وجدي كما علمت ... تشيب فيه الليالي وهو لم يشب
دعها فأمر هوى المحبوب متبع ... وغير طاعته في الحب لم يجب

وقال عفا الله عنه :

سقى طللا حلته سلمى معاهد ... وحياه من دمعي مذاب وجامد
فربع به سلمى مصيف ومربع ... وأرض نأت عنها قفار جلامد
وحيث ثوت أرضاً فأعذب مورد ... ولو كدرت منها علي الموارد

رعى الله دهراً سالمتني صروفه ... وظلت لياليه بسلمى تساعد
وقد غفل الواشون عني ولم أزل ... ويقظان طرف البين عني راقد
وأيامنا بالقرب بيض أزاهر ... وأوقاتنا بالوصل خضر أمالد[1]
وأرواحنا ممزوجة وقلوبنا ... ونحن كأنا في الحقيقة واحد
وكم قد مرجنا في مروج صبابة ... ولم يطرد فينا من البين طارد
تجرّ ذيول اللهو في قمص الهوى ... تلوح علينا للغرام شواهد
ولم يخطر التفريق منا بخاطر ... ولم نحسب الأيام فينا تعاند
فهل أنت يا سلمى وقد حكم الهوى ... كما كنت لي أم حاد بالقلب حائد
وهل ودّنا باق وإلّا تغيرت ... على عادة الأيام منك العوائد
وهل محيت آثار رسم حديثنا ... وأنساك حفظ الودّ هذا التباعد
وهل تذكرين العهد إذ نحن باللوى ... وقولك لا عاش الخئون المعاهد
وهل أنت غيرت الذي أنا حافظ ... وهل أنت أحللت الذي أنا عاقد
وهل بدلت منك المودّة بالجفا ... وفيك يقيني بالوفا منك شاهد
وإني ما بدلت عهدك في الهوى ... ولا اختلفت فيما علمت العوائد
ولا بتّ مسروراً وعيشك ليلة ... وكيف سلوي والحبيب مباعد
فان كنت حبل الودّ صرمت طرفه ... فودّي طريف في هواك وتالد[2]
وإن قلت إن الحب غيّره النوى ... لعمري وجدي بالحشاشة واقد
وإن أوردوا يوماً صبابة عاشق ... فبي يضرب الأمثال من هو وارد
فما شئت كوني إنني بك مدنف ... صبور على البلوى شكور وحامد
ومنك تساوى عندي الوصل والجفا ... وفيك لقد هانت علي الشدائد
ولو رمت ألوي عن هواك أعنتي ... لقاد زمامي نحو حبك قائد
نصبت شراك الحب صدت حشاشتي ... فكيف خلاصي والهوى منك صائد
بعدت وقلت البين يسلي أخا الهوى ... وهل يسلي ذا الأشجان هذا التباعد
وما غير التفريق ما تعهدينه ... وسوق سُلوّي في المحبين كاسد
وجلّ مناي القرب منك وإنما ... إذا عظم المطلوب قل المساعد

وقال عفا الله عنه :

تهدّدني بتبريح وبين ... وتوعدني بتفريق وصدّ
وتحلف لي لتلبسني سقاما ... تهي جَلدي به وتذيب جلدي
وترميني بنبل من جفون ... فتضنيني وتصميني وتردي
وتحرقني بنار الصدّ حتى ... تذيب حشاشتي كمدا وكبدي

---

(١) الأملد : الأملس .   (٢) طريف وتالد : حديث وقديم .

فقلت لها ودمعي في انسكاب يفيض دما على صفحات خدي
ومن لي أن يقال قتيل وجد واذكر في هواك ولو بصدّي

وقال عفا الله عنه :

سلوّي عنك شيء ليس يروى وحبي فيك سار مع الركاب
ولم يمرر سواك على ضميري ووجدي فيك أيسره عذابي
ومالك عن سواد العين يوما وما لسواد قلبي من حجاب
وما اخضرّت دواعي الشوق إلا هززت إليك أجنحة التصابي

وقال عفا الله عنه :

قفا نبك دارا شطّ عنا مزارها وأنحلنا بعد البعاد ادكارها(1)
وعوجا بأطلال محتها يد النوى فأظلم بالنأي المشت نهارها
فقدنا بها ريما من الإنس إن رَنتْ بمقلتها يصمي القلوب احورارها
تصيد قلوب العاشقين أنيسة ويحسن منها صدّها ونفارها
ويهزأ بالأغصان لين قوامها إذا مال فوق الغصن منها خمارها
وليس لبدر التم قامة قدها وما هو إلا حجلها وسوارها
منازلها مني الفؤاد وإن نأى عن العين مثواها ففي القلب دارها
يمثلها بالوهم فكري لناظري وأكثر ما يضني النفوس افتكارها
وهيج دمعي حرّ نار صبابتي وما خمدت بالدمع مني نارها
وساعدني بالأيك ليلا حمائم تهاتف شجوا لا يقرّ قرارها
بكين ولم تسفح لهنّ مدامع وعيني فاضت بالدموع بحارها

ولمؤلفه رحمه الله تعالى وهو قول ضعيف على قدر حاله لكنه يسأل الواقف عليه من إفضاله ستر ما يراه من عيوبه وأن يدعو له بمغفرة ذنوبه .

نسيم الصبا بلغ سليمى رسائلي بلطف وقل عن حال صبك سائلي
فقد صار بالأسقام صبا معذباً قريح جفون من دموع هوامل
صبورا على حرّ الغرام وبرده حليف الضنى لم يصغ يوماً لعاذل
يبيت على جمر الغضى متقلبا يئنّ غراما فارحميه وواصلي
ألا يا سليمى قد أضرّ بي الهوى وهاجت بتبريح الغرام بلابلي
رُميت بسهم من لحاظك قاتل فلم يخط قلبي والحشا ومقاتلي
كتمت غرامي في هواك ولم أبح بسرّ فباحت أدمعي برسائلي
سليمى سلي ما قد جرى لي من النوى فقد عاد لي حال له رقّ عاذلي

---

(1) شطّ : بعد .

لعلّ تجودي للكئيب وتسمحي ... بوعد وبعد الوعد إن شئت ماطلي
عسى تنطفي بالوعد ناري وأشتفي ... فبالسقم أعضائي وهت ومفاصلي
خفيت عن العوّاد لولا تأوّهي ... وعظم أنيني لا يراني مسائلي
فرقي فقد رقت عداي لذلتي ... وفاضت على حالي عيون عواذلي
قطعت زماني في عسى ولعلها ... وما فزت في الأيام منك بطائل
فما آن أن ترضي علي وترحمي ... ضنى جسدي فالوجد لا شك قاتلي
توسلت بالمختار في جمع شملنا ... نبيّ له فضل على كل فاضل

رحمه الله تعالى :

يا ربة الحسن من بالصد أوصاكي ... حتى قتلت بفرط الهجر مضناكي
ويا فتاة بفتان القوام سبت ... من في الورى يا ترى بالقتل أفتاك
لقد جننت غراما مذ رأى نظري ... في النوم طيف خيال من محياكي
ومذ رآه جفا طيب المنام وقد ... أضحى عليلا حزينا لم يزل باكي
عذبتني بالتجني وهو يَعْذب لي ... فهل ترى تسمحي يوماً برؤياك
إن كنت لم تذكرينا بعد فرقتنا ... فالله يعلم أنا ما نسيناكي
ما آن أن تعطفي جودا علي فقد ... أضحى فؤادي أسيراً لحظ عيناكي
ما كنت أحسب أن العشق فيه ضنى ... ولا عذاب نفوس قبل أهواكي
حتى تولع قلبي بالغرام فما ... أمسى أسيرا سوى في حسن معناكي
رقي لعبدك جودا واعطفي وذري ... ولا تطيلي بحق الله جفواكي
يا هند رفقاً بقلب ذاب فيك أسى ... ومهجة تلفت يا هند ما أقساكي
رقّ العذول لحالي في الهوى ورثى ... وأنت يا هند لا ترثي لمضناكي
والله لومت ما أسلاك يا أملي ... ولو فنيت غراما لست انساكي

وقال آخر :

كأنّ فؤادي يوم سرت دليل ... يسير أمام العيس وهو ذليل
فسرت عقيب الظاعنين لكي أرى ... فؤادي سرى في الركب وهو عجول[1]
وقائلة لي كيف حالك بعدنا ... لتعلم ما هذا إليه يؤول
فقلت لها قد متّ قبل ترحلي ... فمن باب أولى أن يجدّ رحيل
وقلت فليلي طال هماً فأنشدت ... وما زال ليل العاشقين طويل
فقلت وجسمي لم يزل مترجفاً ... فقالت وجسم العاشقين نحيل
فقلت لها لو كنت أدري فراقنا ... بيوم وداع ما إليه سبيل
قلعت لعيني في هواك بأصبعي ... لكيلا أرى يوما علي ثقيل

---

(١) اي سرت بعد الراحلين .

وقال الوأواء الدمشقي[1] عفا الله عنه :

يـا من نفت عني لـذيـذ رقـادي ... مـالي ومـالـك قـد أطلت سهـادي
فـبـأي ذنـب أم بـأيـة حـالـة ... أبعـدتني ولـقـد سكـنت فـؤادي
وصددت عني حين قد ملك الهوى ... روحـي وقلبـي والحشـا وقيـادي
ملكت لحـاظك مهجتي حتى غـدا ... قلبي أسيـرا مـالـه من فـادي
لا غـرو أن قتلت عيونـك مغرمـا ... فلكم صرعت بهـا من الآسـادي
يا من حوت كل المحاسن في الورى ... والحسن منهـا عـاكف في بـادي
رفقـا بمن أسـرت عيـونـك قلبـه ... ودعي السيـوف تقرّ في الأغمـادي
وتـعــطفـي جــودا عـلي بـقـبـلة ... فبميم مبسمكي شفـاء الـصـادي
مــاتت أطـال الله عمـرك سلوتي ... ولقـد فني صبري وعـاش سهادي
ومن المنى لـو دام لي فيك الضنى ... يــا حـبــذا لأراك من عــوّادي
وأجيـل منك نـواظـري في نـاضـر ... مـن خــدّك المتـرقـرق الـوقـاد
وأقـول ما شئت اصنعي يا منيتي ... مـالي سـواك ولـو حرمت مـرادي
إلا مـديح المصطفى هـو عمدتي ... وبــه سـألقى الله يــوم معـادي

وقال البها زهير :

إذا جن ليـلي هام قلبي بـذكـركم ... أنـوح كـما نـاح الحمام المـطوّق
وفوقي سحاب يمطر الهمّ والأسى ... وتحـتي بحـار بـالجـوى تـتـدفق
سلوا أم عمرو كيف بات أسيـرها ... تفـك الأسـارى دونـه وهـو مـوثق
فـلا أنا مقتـول ففي القتل راحـة ... ولا أنـا ممنــون عليـه فـيـعـتـق

مجنون ليلى :

وقــد خبـروني أن تيـمـاء مـنـزل ... لليـلى إذا ما الليـل ألقى المراسيـا
فهذي شهور الصيف عنا ستنقضي ... فـما للنوى يـرمي بليـلي المـراميـا
أعـدّ الـليـالي ليلة بعـد لـيـلة ... وقـد عشت دهراً لا أعـدّ اللياليـا
وأخــرج من بــين البيــوت لعلني ... أحدّث عنك النفس بـالليل خـاليا
ألا أيهـا الركب اليمـانون عـرّجـوا ... علينـا فقـد أمسى هـوانـا يمـانيـا
يمينــاً إذا كـانت يمينـا فـإن تكن ... شمالاً ينازعني الهـوى عن شماليـا

---

[1] هو محمد بن احمد الغساني الدمشقي . ـ ابو الفرج ـ المعروف بالوأواء . شاعر مطبوع ، حلو الالفاظ ، في معانيه رقة كان مبدأ امره منادياً بدار البطيخ في دمشق له « ديوان شعر » . توفي سنة (نحو ٣٨٥هـ ـ نحو ٩٩٥ م) .
أنظر : فوات الوفيات (٢ : ١٤٦) . وابن خلكان (١ : ٤٩٢) .

أصلي فما أدري إذا ما ذكرتها — أثنتين صليت الضحى أم ثمانيا
خليليّ لا والله لا أملك الهوى — إذا علم من أرض ليلى بداليا
خليليّ لا والله لا أملك الذي — قضى الله في ليلي ولا ما قضا ليا
قضاها لغيري وابتلاني بحبها — فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا
ولو أن واش باليمامة داره — وداري بأعلى حضر موت اهتدى ليا
وددت على حبي الحياة لو أنه — يزاد لها في عمرها من حياتيا
على أنني راض بأن أحمل الهوى — وأخلص منه لا علي ولا ليا
إذا ما شكوت الحبّ قالت كذبتني — فمالي أرى الأعضاء منك كواسيا
فلا حبّ حتى يلصق الجلد بالحشا — وتخرس حتى لا تجيب المناديا

وقال آخر :

قالت لطيف خيال زارني ومضى — بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
فقال خلفته لو مات من ظمأ — وقلت قف عن ورود الماء لم يرد
قالت عهدت الوفا والصدق سيمته — يا برد ذاك الذي قالت على كبدي

كمال الدين بن النبيه :

أما وبياض مبسمك النقي — وسمرة مسكة اللمس الشهي
ورمان من الكافور تعلو — عليه طوالع الندّ للند
وقدّ كالقضيب إذا تثنى — خشيت عليه من ثقل الحلي
لقد أسقمت بالهجران جسمي — وأعطشني وصالك بعد ربي
إلى كم أكتم البلوى ودمي — يبوح بمضمر السرّ الخفي
وكم أشكو للاهية غرامي — فويل للشجيّ من الخلي

صفي الدين الحلي :

أبت الوصال مخافة الرقباء — وأتتك تحت مدارع الظلماء
أصفتك من بعد الصدود مودّة — وكذا الدواء يكون بعد الداء
أحيت بزورتها النفوس وطالما — ضنت بها فقضت على الأحياء
أمست بليل والنجوم كأنها — درّ بباطن خيمة زرقاء
أمست تعاطيني المدام وبيننا — عتب غنيت به عن الصهباء
آبت إلى جسدي لتنظر ما انتهت — من بعدها فيه يد البرحاء
ألفت به وقع الصفاح فراعها — جزعاً وما نظرت جراح أحشائي
أمصيبة منا بنبل لحاظها — ما أخطأته أسنة الأعداء
أعجبت مما قد رأيت وفي الحشا — أضعاف ما عاينت في الأعضاء

أمسي ولست بسالم من طعنة ... نجلاء أو من مقلة نجلاء

وله رحمه الله تعالى :

قفي ودّعينا قبل وشك التفرّق ... فما أنا من يحيا إلى حين نلتقي
قضيت وما أودى الحمام بمهجتي ... وشبت وما حلّ البياض بمفرقي
قنعت أنا بالذلّ في مذهب الهوى ... ولم تفرقي بين المنعم والشقي
قرنت الرضا بالسخط والقرب بالنوى ... ومزّقت شمل الوصل كلّ ممزّق
قبلت وصايا الهجر من غير ناصح ... وأحببت قول الهجر من غير مشفق
قطعت زماني بالصدود وزرتني ... عشية زمت للترحل أينقي[1]
قضى الدهر بالتفريق فاصطبري له ... ولا تذمي أفعاله وترفقي

وقال عفا الله عنه :

جاءت لتنظر ما أبقت من المهج ... فعطرت سائر الأرجاء بالأرج
جلت علينا محيا لو جلته لنا ... في ظلمة الليل أغنتنا عن السرج
جورية الخدّ تحمي ورد وجنتها ... بحارس من نبال الغنج والدعج
جزت إساءة أفعالي بمغفرة ... فكان غفرانها يغني عن الحجج
جادت لعرفانها أني المريض بها ... فما علّي إذا أذنبت من حرج
جست يدي لترى ما بي فقلت لها ... كفي فذاك جوى لولاك لم يهج
جفوتني فرأيت الصبر أجمل بي ... ولذّة الحبّ جور الناظر الغنج

وقال ابن نباتة :

رقن لنا حين همّ السفر بالسفر ... وأقبلت في الدجى تسعى على حذر
راض الهوى قلبها القاسي فجادلنا ... وكان أبخل من تموز بالمطر
رأت غداة النوى نار الكليم وقد شبت ... فلم تبق من قلبي ولم تذر
رشيقة لو تراها عند ما سفرت ... والبدر ساه إليها سهو معتذر
رأيت بدرين من وجه ومن قمر ... في ظلّ جنحين من ليل ومن شعر
رشفت درّ الحميا من مقبلها ... إذا نبهتني إليها نسمة السحر
رنت نجوم الدجى نحوي فما نظرت ... من يرشف الراح قبلي من فم القمر
راق العتاب وأبدت لي سرائرها ... في ليلة الوصل بل في غرّة القمر

وقال ابن الساعاتي :

قبلتها ورشفت خمرة ريقها ... فوجدت نار صبابة في كوثر
ودخلت جنة وجهها فأباحني ... رضوانها المرجوّ شرب المسكر

---

(١) اي تهيأت نوقي للرحيل .

وقال آخر :

بكت للفراق وقد راعها ... بكاء المحبّ لبعد الديار
كأنّ الدموع على خدّها ... بقية ظلّ على جلنار

الوأواء الدمشقي (تضمين) :

قالت متى الظعن يا هذا فقلت لها ... إما غدا أو لا فبعد غد
فأمطرت لؤلؤاً نرجس وسقت ... ورداً وعضت على العناب بالبرد

ولابن نباتة :

عذولي لست أسمع منه قولاً ... على غيداء مثل البدر تما
له طرف ضرير عن سناها ... ولي أذن عن الفحشاء صما

وقال آخر :

وربّ ليال في هواها سهرتها ... أراعي نجوم الليل فيها إلى الفجر
حديثي عال في السهاد لأنني ... رويت أحاديث السهاد عن الزهري

السراج[1] الوراق :

يا لائمي في هواها ... أسرفت في اللوم جهلا
ما يعلم الشوق إلا ... ولا الصبابة إلا

وقال آخر :

وعدت أن تزور ليلا فألوت ... وأنت في النهار تسحب ذيلا
قلت هلا صدقت في الوعد قالت ... كيف صدقت أن ترى ساشمس ليلا

لعزّ الدين الموصلي :

قد سلونا عن الغزال بخود ... ذات وجه بها الجمال تفتن
ورجعنا عن التهتك فيه ... ودفعناه بالتي هي أحسن

وقال آخر :

قالت وناولتها سواكا ... ساد بفيها على الأراك
سواي ما ذاق طعم ريقي ... قلت لها ذاقه سواكي

---

(١) هو عمر بن محمد بن حسن ـ ابو حفص ـ سراج الدين الوراق . شارع مصر في عصره . كان كاتباً لواليها الامير يوسف بن سباسلار له « ديوان شعر » كبير في سبعة مجلدات ، اختار منه الصفدي « لمع السراج » توفي بالقاهرة « سنة ٦٩٥هـ ـ ١٢٩٦ م) .
أنظر : فوات الوفيات (٢ : ١٠٧) . والنجوم الزاهرة (٨ : ٨٣) .

وقال آخر :

سألتها أن تعيد لفظاً ... قالت محبٌّ دعوه يعذر

حديثها سكر شهي ... وأحسن السكر المكرّر

ابن نباتة :

وملولة في الحبّ لما أن رأت ... أثر السقام بجسمي المنهاض

قالت تغيرنا فقلت لها نعم ... أنا بالسقام وأنت بالإعراض

وقال أبو الطيب المتنبي :[1]

بأبي الشموس الجانحات غواربا ... اللابسات من الحرير جلابيا

الناهبات عيوننا وقلوبنا ... وجناتهن الناهبات الناهبا

الناعمات القاتلات المحييا ... ت المبديات من الدلال غرائبا

حاولن تفديتي وخفن مراقبا ... فوضعن أيديهن فوق ترائبا

وبسمن عن برد خشيت أذيبه ... من حر أنفاسي فكنت الذائبا

يا حبذا المتجملون وحبذا ... واد لثمت به الغزالة كاعبا

كيف الرجاء من الخطوب تخلصا ... من بعد أن أنشبن فيّ مخالبا

وله أيضاً من جملة قصيدة :

ولما التقينا والنوى ورقيبنا ... غفولان عنا ظلت أبكي وتبسم

فلم أر بدراً ضاحكاً قبل وجهها ... ولم تر قبلي ميتاً يتكلم

الشريف الرضي :

وتميس بين مزعفر ومعصفر ... ومعنبر وممسك ومصندل

هيفاء إن قال الشباب لها انهضي ... قالت روادفها اقعدي وتمهلي

وإذا سألت الوصال قال جمالها ... جودي وقال دلالها لا تفعلي

---

(١) هو احمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي ـ ابو الطيب المتنبي ـ شاعر ، حكيم ، واحد مفاخر الادب العربي . له الامثال السائرة والحكم البالغة ، والمعاني المبتكرة . ولد بالكوفة سنة (٣٠٣هـ ـ ٩١٥م) وتنبأ في بادية السماوة (بين الكوفة والشام) فتبعه كثيرون . وقبل ان يستفحل امره خرج إليه لؤلؤ (أمير حمص ونائب الاخشيد) فاسره وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه . ووفد على سيف الدولة فمدحه ، وحظي عنده ، ومضى إلى مصر فمدح كافور الاخشيدي . ثم قصد العراق ، وزار بلاد فارس . قتل في قتال بين جماعته ومجموعة فاتك بن ابي جهل الاسدي سنة (٣٥٤هـ ـ ٩٦٥م) . له « ديوان شعر » .
أنظر اخباره في : ابن خلكان (١ : ٣٦) . ونسان الميزان (١ : ١٥٩) .

ابن إسرائيل :

وعدت بوصل والزمان مستوف ... حوراء ناظرها حسام مرهف
نشوانة خصباء منهل ثغرها ... درّ وريقتها سلاف قرقف
وتخال بين البدر منها والنقا ... غصناً يميس به النسيم مهفهف
لا تحسبن الخلف شيمة مثلها ... وعدت ولكن الزمان يسوّف
يا بانة قد أطلعت أغصانها ... ورداً جنياً باللواحظ يقطف
وغزالة يحكي الغزالة وجهها ... ويعبر ناظرها الحسام الأوطف[1]
ما تأمرين لمغرم تسطو به ... أجفانك المرضى ولا تستعطف
قسماً بوجهك وهو صبح مشرق ... وسواد شعرك وهو ليل مسدف[2]
ويهز غصن البان منك على النقا ... مالي إلى أحد سواك تشوّق

ولنذكر إن شاء الله في هذا الباب نبذة من ملح النظم ورقائق الشعر من غير تبويب ولا ترتيب للشيخ شمس الدين بن البديوي :

ولما نأت سلمى وشط بها النوى ... وأيقنت أني بالغرام أذوب
علقت بأخرى غيرها متلاهيا ... ليطفي ضرام في الحشا ولهيب
وكان هيامي والهوى وصبابتي ... لمن هو في الأولى إلي حبيب

وله في المعنى :

تلاهيت عنها في الغرام بغيرها ... وقلت لقلبي هذه هي زينب
وقبلت فاها مبرداً لصبابتي ... فأضرمت ناراً في الحشا تتلهب
فكنت كمن هو غريقاً بلجة ... تمسك بالموج الذي يتقلب

وقال أيضاً :

سألت القلب هل ميل لليلى ... وهل عند الفؤاد لها التفات
فقال الآن لا لكن تأني ... فقلت الحب فيه تقلبات
فإن الحب يهجم بعد يأس ... ويعتاد المحب تغيرات
فلا تظهر لها يوماً سلوّاً ... فتفضحك التصابي الواردات
وترمي بالصدود وبالتجني ... وتنحلك الوعود الكاذبات
فكن جلداً ولا تك ذا لجاج ... فما يغنيك إن فات الفوات

وقال البيطار :

يقولون هذي أم عمرو قريبة ... دنت بك أرض نحوها وسماء
ألا إنما قرب الحبيب وبعده ... إذا هو لم يوصل إليه سواء

---

(١) الاوطف : كثيف شعر الحاجبين .

(٢) المسدف : المظلم .

وقال غيره :

وقـالـوا بـع حبيبك وابـغ عنه حبيبـاً آخـر تحيـا سـعيـداً
إذا كـان القـديم هـو المصـافي وخـان فـكيـف آتمـن الجـديـدا

وقال آخر :

لم أنس إذ قلت من وجدي لها غلطان ووجهها مشرق في حندس الظلم
سلوت عنك فقالت وهي ضاحكة لتقـرعـن عـليّ السـن من نـدم

وقال آخر :

أمـن المـروءة أن أبيت مسـهـداً قلقـاً أبـلّ مـلابسي بـدمـوعي
وتبيت ريـان الجفـون من الكـرى وأبيـت مـنـك بـليلة الملسـوع

وقال آخر :

إلى الله أشكـو جور أهيف شـادن وقعت فمـالي من يـديـه خـلاص
جـرحت بعيني خدّه وهـو جارح بعينيـه قلبي والجـروح قصـاص

وقال أيضاً :

وقـد كنت اسمع بـالهوى فـأكذب وأرى المحب ومـا يقـول فـأعجب
حـتى رمـيـت بـحـلوه وبمـرّه من كـان يتهم الهـوى فيجـرب

فقال آخر :

سـألتهـا التقبيـل مـن خـدهـا عشراً ومـا زاد يكـون احتسـاب
فـمـذ تـلاقيـنـا وقبـلتـهـا غلطت في العـد وضـاع الحسـاب

وقال آخر :

يـا من سقامي من سقام جفونـه وسـواد حظي من سـواد عيـونـه
قد كنت لا أرضى الوصال وفوقـه واليـوم أقنـع بـالخيـال ودونـه

وقال آخر :

صبحتـه عنـد المسـاء فقـال لي تهزي بقدري أو تـريـد مـزاحـا
فـأجبته إشـراق وجهـك غـرّني حتى تـوهمت المسـاء صبـاحـا

أبو عبد الله الغوّاص :

من عـذيري من عـذول في رشـا قـامـر الـقـلب هـواه فـقـمـر
قـمـر لم يـبـق مـني حـسـنـه وهـواه غـير مـقـلوب ممـر

وقال آخر :

جاذبتها والريح تجذب برقعها   من فوق خد مثل قلب العقرب
وطفقت ألثم ثغرها فتحجبت   وتسترت عني بقلب العقرب

وقال آخر :

لو مت من كثرة الأشواق وانبدلت   مدامعي بدم من كثرة السهر
ما اخترت عنك سلوّاً لا ولا نظرت   عيني لغير محيا وجهك القمر

إبراهيم بن العباس :

تمر الصبا صفحاً بساكن ذي الغضا   ويسرع قلبي إذ يهبّ هبوبها
قريبة عهد بالحبيب وإنما   هوى كل نفس أين حلّ حبيبها

وقال النوفلي :

إذا اختلجت عيني رأت من تحبه   فدام لعيني ما حييت اختلاجها
وما ذقت كأساً مذ علقت بحبها   فأشربه إلا ودمعي مزاجها

وقال آخر رحمه الله تعالى :

يا ذا الذي زارا وما زارا   كأنه مقتبس نارا
قام بباب الدار من تيهه   ما ضرّه لو دخل الدارا

وقال آخر :

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي   وأبحت مني ظاهري لجليسي
فالكل مني للجليس مؤانس   وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

ابن نباتة :

أناشده الرحمن في جمع شملنا   فيقسم هذا لا يكون إلى الحشر
إذا ما غدا مثل الحديد فؤاده   فوالعصر إنّ العاشقين لفي خسر

أمين الدين بن أبي الوفاء :

يا نازلا مني فؤادا راحلا   ومن العجائب نازلا في راحل
أضرمت قلب متيم أهلكته   وسكنته والنار مثوى القاتل

وقال آخر :

يا عاذلي في هواه   إذا بدا كيف أسلو
يمرّ بي كل وقت   وكلما مرّ يحلو

الحاجبي :

مـلأت فؤادي من محبـة فـاتن ... أميـل إليـه وهـو كـالـظبي رائـغ
وقلت لقلبي قم لتعشـق شـادنـا ... سـواه فقـال القلب مـا أنـا فـارغ

وقال ديك الجنّ :[1]

ولي كـبـد حـرى ونـفس كـأنها ... بكف عـدّو مـا يـريـد سـراحهـا
كـأنّ عـلى قلبي قـطاة تـذكـرت ... عـلى ظـماء وردا فهـزت جنـاحهـا

وقال عبد الله بن طاهر :

أقـام بـبـلدة ورحـلت عـنـه ... كـلانـا بعـد صـاحبـه غـريب
أقـلّ النـاس في الـدنيا سـرورا ... محـب قـد نـأى عنـه الحـبيـب

وقال آخر :

ما اخترت ترك وداعكم يوم النوى ... والله لا مـلالا ولا لـتـجـنـب
لكن خشيت بـأن أموت صبـابـة ... فـيقـال أنـت قتلتـه فتقـاد بي

وقال ابن المعتز :

هـب لـعـيـني رقـادهـا ... وانـف عـنهـا سـهـادهـا
وارحـم المـقـلة الـتي ... كـنـت فـيـهـا سـوادهـا
كـن صـلاحـا لهـا كـما ... كـنـت دهـرا فـسـادهـا

وقال آخر :

وقـالـوا دع مـراقبـة الـثريـا ... ونـم فـالـليـل مسـود الجنـاح
فقلت وهـل أفـاق الـقلب حتى ... أفـرق بـين لـيـلي والـصـبـاح

وقال آخر :

ولي الفؤاد إذا طـال النزاع بـه ... طـار اشتيـاقـاً إلى لقيـا معـذّبـه
يفديك بالنفس صبّ لو يكـون له ... أعـزّ من نفس شيء فـداك بـه

وقال آخر :

ومـا هجـرتـك النفس يـا مي أنها ... قلتـك ولا أن قـلّ منـك نصيبهـا

---

(١) هو عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب الكلبي ، المعروف بديك الجن . شاعر مجيد ، فيه مجون ، من شعراء العصر العباسي . سمي (ديك الجن) لان عينيه كانتا خضراوين له «ديوان» توفي سنة (٢٣٥هـ ـ ٨٥٠ م) انظر : وفيات الاعيان (١ : ٢٩٣).

ولكنهم يا أحسن الناس أولعوا   بقول إذا ما جئت هذا حبيبها

وقال المحاربي :

إذا أنت لم توقن بما صنع الهوى   بأهل الهوى فافقد حبيباً وجرّب
ترى حرقات يلدغ القلب حرّها   بأنضج من كيّ الغضى الملتهب

وقال الأقرع بن معاذ :

أقول لمفت ذات يوم لقيته   بمكة والانضاء ملقى رحالها
بحقك أخبرني أما تأثم التي   أضرّ بجسمي منذ مرّ خيالها
فقال بلى والله أو سيصيبها   من الله بلوى في الزمان تنالها
فقلت ولم أملك سوابق عبرة   سريع على جيب القميص انهمالها
عفا الله عنها كلّ ذنب ولقيت   مناها وإن كانت قليلا نوالها

وقال آخر :

بالله ربكما عوجا على سكني   وعاتباه لعل العتب يعطفه
وعرضا بي وقولا في حديثكما   ما ضرّ لو بوصال منك تسعفه
فان تبسم قولا عن ملاطفة   ما بال عبدك بالهجران تتلفه
وإن بدا لكما من سيدي غضب   فغالطاه وقولا ليس نعرفه

وقال عبد الله بن أبي الشيص :

ومعرضة تظنّ الهجر فرضا   تخال لحاظها للضعف مرضى
كأني قد قتلت لها قتيلا   فما مني بغير الهجر ترضى

وقال الحسين بن الضحاك :[1]

بعضي بنار الهجر مات حريقا   والبعض أضحى بالدموع غريقا
لم يشك عشقا عاشق فسمعته   إلا ظننتك ذلك المعشوقا

وقال آخر :

وأجيل فكري في هوا   ك بلا لسان ناطق
أدعو عليك بحرقة   من غير قلب صادق

---

(١) هو الحسين بن الضحاك بن ياسر الباهلي ـ ابو علي ـ شاعر من ندماء الخلفاء. ولد ونشأ بالبصرة وتوفي ببغداد سنة (٢٥٠هـ ـ ٨٦٤ م). اخباره كثيرة وشعره رقيق عذب . جمع عبد الستار احمد فراج طائفة منه باسم « أشعار الخليع ».
أنظر : الاغاني (٦ : ١٦٥ ـ ٢٠٥). ووفيات الاعيان (١ : ١٥٤).

وقال آخر :

يـا ويـح من خبـل الأحبة قلبـه ... حـتى إذا ظـفـروا بـه قـتلوه[1]
عــزوا ومـال بـه الهوى فـأذلـه ... إنّ العـزيـز عـلى الـذليـل يتيه
انـظر إلى جسد أضـرّ بـه الجـوى ... لـولا تـقـلب طـرفـه دفـنــوه
من كـان خلوا من تباريـح الهوى ... فـأنـا الهــوى وحليفـه وأخــوه

وقال أحمد بن طاهر :

تـقــول العــاذلات تـسـلّ عنهـا ... وداو عـلـيـك صـبـرك بـالسـلوّ
فكيف ونـظرة منهـا اختـلاسـا ... ألــذّ مـن الشـمـاتـة بـالـعـدوّ

وقال إسحاق بن مولى المهلب :

هـبيــني يـا مـعـذّبـتي أسـأت ... وبـالهـجـران قـبـلكـم بـدأت
فـأين الفضل منـك فدتـك نفسي ... عــلي إذا أسـأت كـما أسـأت

وقال أبو العتاهية :

يقـول أناس لـو نعتّ لنـا الهـوى ... ووالله مــا أدري لهم كيف أنعت
سقـام عـلى جسمي كثير مـوسـع ... ونــوم عــلى عيني قليــل مفــوّت
إذا اشتدّ ما بي كان أفضل حيلتي ... له وضع كفي فوق خدّي وأسكت

وقال بشار :

يــا قــرّة العــين إني لا أسميكي ... أكني بـأخرى أسميهـا وأعنيـك
أخشى عليك من الجارات حاسدة ... أو سهم غيران يـرميني ويـرميك
لـولا الـرقيبـان إذ ودّعت غـاديـة ... قبلت فـاك وقلت النفس تفـديـك
يـا أطيب الناس ريقـا غـير مختبر ... إلا شهـادة أطـراف المسـاويـك
قـد زرتنا مـرّة في الـدهـر واحـدة ... بـالله لا تجعليهـا بيضـة الـديـك

وقال آخر :

ألم تعلم يـا أحسن النــاس أنني ... أحبـك حبـا مستكنـا وبـاديـا
أحبـك مـا لـو كـان بـين قبـائـل ... من النـاس أعـداء لجـرّ التصـافيـا

وقال آخر :

أقــول لشــادن في الحسن أضحى ... يـصـيـد بـطرفـه قـلب الكـميّ
ملكت الحسن أجمع في نـصـاب ... فــأدّ زكــاة مــنـظرك الــبـهــي
وذاك بــأن تجــود لمـســتـهــام ... بــرشـف من مـقـبلك الـشـهـي

---

(١) خبل : افسد .

فـقـال أبـو حـنـيفـة لي إمـام يـرى أن لا زكـاة عـلى الصبي

وقال آخر :

سقى الله ربعا كنت أخلو بوجهكم وثغر الهنا في روضة الحسن ضاحك
أقمنـا زمـانـا والعيـون قـريـرة وأصبحت يوما والجفون سوافك

وقال آخر :

ألم تعلمي يـا عـذبـة المـاء أنني أظـلّ إذا لم أسق مـاءك صـاديـا
وما زلت بي يا بين حتى لو انني من الوجد أستبكي الحمام بكى ليا

أبو العباس الشهير بالنفيس :[1]

يـا راحلا وجميـل الصبر يتبعـه هـل من سبيـل إلى لقيـاك يتفق
مـا أنصفتك جفوني وهي دامية ولا وفي لـك قلبي وهـو يحتـرق

الوزير ظهير الدين الملقب بأبي شجاع :

لأعـذبـنّ الـعـين غـير مفكـر فيها بكت بالـدمع أو فـاضت دما
ولأهجـرنّ من الـرقـاد لـذيـذة حتى يعود على الجفـون محرمـا
هي أوقعـتني في حبـائـل فتنـة لـو لم تكن نـظرت لكنت مسلما
سفكت دمي فـلاسفحنّ دموعهـا وهي التي بـدأت فكـانت أظلما

وقال العتبي :

أضحت بخـدّي للدّمـوع رسـوم أسفـا عليـك وفي الـفؤاد كـلوم
والصبـر يحمد في المـواطن كلهـا إلا عـلـيـك فـإنـه مـذمـوم

الرّفاء الأندلسي :

ومهفهـف كـالـغـصن إلا أنـه تتحـير الألبـاب عنـد لقـائـه
أضحى ينـام وقـد تكـلل خـدّه عـرقـا فقلت الـورد رشّ بمـائـه

وقال آخر :

اخضـرّ واصفـر لاعتـلال فصار كـالنـرجس المضعف
كـأنّ نـسـريـن وجـنتيـه بـشعـر أصـداغـه مـغلف
يـرشـح منـه الجبين مـاء كـأنـه لـؤلـؤ مـنـصـف

---

(١) هو احمد بن عبد الغني بن احمد ، من لخم . ـ ابو العباس ـ الملقب بالنفيس . شاعر ، اديب مصري ، له علم بالفقه ، وله « ديوان شعر » توفي سنة : (٦٠٣هـ ـ ١٢٠٦ م).
أنظر ابن خلكان (١ : ٥٢).

وقال آخر :

ما زال ينهل من صرف الطلا قمري ... حتى غدت وجنتاه البيض كالشفق
وقام يخطر والارداف تقعده ... طورا وحاول أن يسعى فلم يطق
فعائل فعلت فعل الشمول به ... فعل النسيم بغصن البانة الورق
جاذبته لعناقي فانثنى خجلا ... وكللت وجنتاه الحمر بالعرق
وقال لي بفتور من لواحظه ... إن العناق حرام قلت في عنقي

وقال آخر :

بأركان هذا البيت إني لطائف ... وفي الكون أسرار وفي لطائف
رعى الله أياما وناسا عهدتهم ... جيادا ولكنّ الليالي صارف
وبي ذهبي اللون صيغ لمحنتي ... يريد امتحاناتي وما أنا زائف
يذيب فؤاداً وهو لا غشّ عنده ... فيا ذهبي اللون إنك حائف

وقال آخر :

أسني ليالي الدهر عندي ليلة ... لم أخل فيها الكأس من أعمالي
فرقت فيها بين جفني والكرى ... وجمعت بين القرط والخلخالي

ومما قيل في الرقباء :

لو أنّ لي في الحبّ أمراً نافذاً ... وملكت بسط الأمر في التعذيب
لقطعت ألسنة العواذل كلها ... ولكنت أقلع عين كل رقيب

وقال أعرابي :

ابسهم الحب كَلِمٌ في فؤادي ... ولا كالكلم من عين الرقيب
تمكن ناظراه به وأضحى ... مكان الكاتبين من الذنوب
ومن حذر الرقيب إذا التقينا ... نسلم كالغريب على الغريب
ولولاه تشاكينا جميعاً ... كما يشكو المحبّ إلى الحبيب

وقال آخر :

من عاش في الدنيا بغير حبيب ... فحياته فيها حياة غريب
عين الرقيب غرقت في بحر العمى ... لا أنت لا بل عين كلّ رقيب

وقال أحمد بن أبي سلمة :

يعذلني فيه جميع الورى ... كأنني جئت بأمر عجيب
ظنّ نفسي لو تعشقتها ... بليت فيها بملام الرقيب

وأنا الغريب فلا ألام على البكا ... إنّ البكا حسن بكل غريب

وقال آخر :

وما فارقت سعدى عن قلاها ... ولكن شقوة بلغت مداها
بكيت نعم بكيت وكلّ إلف ... إذا بانت حبيبته بكاها

وقال آخر :

وقائلة ما بال دمعك أبيض ... فقلت لها يا علو هذا الذي بقي
ألم تعلمي أن البكا طال عمره ... فشابت دموعي عندما شاب مفرقي
وعما قليل لا دموع ولا دما ... ولم يبق إلا لوعتي وتحرّقي

وقال آخر :

ولم أر مثلي غار من طول ليله ... عليه لأن الليل يعشقه معي
وما زلت أبكي في دجى الليل صبوة ... من الوجد حتى ابيضّ من فيض أدمعي

وقال آخر :

رجوت طيف خيال ... وكيف لي بهجوع
والذاريات جفوني ... والمرسلات دموعي

وقال آخر :

يا نازح الطيف من نومي يعاودني ... فقد بكيت لفرط النازحين دما
أوجبت غسلا على عيني بأدمعها ... فكيف وهي التي لم تبلغ الحلما

وقال آخر :

ارحم رحمت للوعتي ... وابعث خيالك في الكرى
ودموع عيني لا تسل ... عن حالها يا ما جرى

وقال آخر :

أملت أن تتعطفوا بوصالكم ... فرأيت من هجرانكم ما لا أرى
وعلمت أن فراقكم لا بد أن ... يجري به دمعي وكذا جرى

وقال آخر :

إن عيني مذ غاب شخصك عنها ... يأمر السُهد في كراها وينهي
بدموع كأنهن الغوادي ... لا تسل ما جرى على الخد منها

وقال آخر :

يقولون لي والدمع قرّح مقلتي بنار أسى من حبة القلب تقدح
أدمعك جمر قلت لا تتعجبوا فكلّ وعاء بالذي فيه ينضح

وقال البدر الذهبي :

قالوا تباكى بالدموع وما بكى بدم على عيش تصرم وانقضى
فأجبتهم هو من دمي لكنه لما تصاعد صار يقطرأبيضاً

قال ابن مطروح في الغيرة :

ولو أمسي على تلفي مصرّاً لقلت معذّبي بالله زدني
ولا تسمح بوصلك لي فأني أغار عليك منك فكيف مني

وقال آخر :

أغار عليك من نظري ومني ومنك ومن مكانك والزمان
ولو أني خبأتك في جفوني إلى يوم القيامة ما كفاني

المظفر بن عمر الآمدي :

قلت للذين جفوني إذ لهجت بهم دون الأنام وخير القول أصدقه
أحبكم وهلاكي في محبتكم كعابد النار يهواها وتحرقه

وقال غيره :

لم أنس أيام الصبا والهوى لله أيام النجا والنجاح
ذاك زمان مرّ حلو الجنى ظفرت فيه بحبيب وراح

الشريف الرضي :

عللاني بذكركم واسقياني وامزجا لي دمعي بكأس دهاق
وخذا النوم من جفوني فاني قد خلعت الكرى على العشاق

قال آخر :

قالوا أترقد مذ غبنا فقلت لهم نعم وأشفق من دمعي على بصري
ما حق طرف هداني نحو حسنكم أني أعذبه بالدمع والسهر

عز الدين الموصلي :

فسدت لطول بعادكم أحلامنا وعقولنا وجفا الجفون منام
والطيف قد وعد الجفون بزورة يا حبذا إن صحت الأحلام

ومما قيل في السهر وطول الليل ونحو ذلك قال الشاعر :

وربّ ليل سهرناه وقد طلعت　　بقية البدر في أولى تسايره
كأنما أدهم الظلماء حين نجا　　من أشهب الصبح ألقى نعل حافره

وقال آخر :

ليل المحبين مطويّ جوانبه　　مشمر الذيل منسوب إلى القصر
ما ذاك إلا لأن الصبح نمّ بنا　　فأطلع الشمس من غيظ على القمر

وقال غيره :

فلم أر مثل ليل ذوي التصابي　　وكلّ يشتكيه بكلّ حال
فيشكو طوله أهل التجافي　　ويشكو قصره أهل الوصال

وقال آخر :

ليلي وليلى سواء في اختلافهما　　قد صيراني جميعا في الهوى مثلا
يجود بالطول ليلي كلما بخلت　　بالطول ليلى وإن جادت به بخلا

وقال آخر :

إن الليالي للأنام مناهل　　تطوي وتنشر بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة　　وطوالهن مع السرور قصار

وقال غيره :

ربّ ليل لم أذق فيه الكرا　　حظّ عيني فيه دمع وسهر
كلما هيج ليلي حرقي　　صحت يا ليل أما فيك سحر

وقال آخر :

يا ليل طل أو لا تطل　　لا بد لي أن أسهرك
لو بات عندي قمري　　ما بتّ أرعى قمرك

وقال بشار بن برد :

خليليّ ما بال الدجى لا يزحزح　　وما بال ضوء الصبح لا يتوضح
أضلّ إليها المستنير طريقه　　أم الدهر ليل كله ليس يبرح

وقال آخر :

كأن الثريا راحة تشبر الدجى　　ليعلم طال الليل أم قد تعرّضا
فليلي تراه بين شرق ومغرب　　يقاس بشبر كيف يرجى له انقضا

وقال ابن منقذ :

لما رأيت النجم ساه طرفه ... والقطب قد ألقى عليه سباتا
وبنات نعش في الحداد سوافر ... أيقنت أن صباحهم قد ماتا

وقال آخر في ليلة ممطرة :

أقول والليل في امتداد ... وأدمع الغيث في انسفاح
أظنّ ليلي بغير شكّ ... قد بات يبكي على الصباح

ومما جاء في الأشعار الخمرية قول صفي الدين الحلّي :

بدت لنا الراح في تاج من الحبب ... فخرّقت حلة الظلما باللهب
بكر إذا زوّجت بالماء أولدها ... أطفال درّ على مهد من الذهب
بقية من بقايا قوم نوح اذا ... لاحت جلت ظلم الأحزان والكرب
بعيدة العهد بالمعصار لو نطقت ... لحدثتنا بما في سالف الحقب
باكرتها برفاق قد ذهلت بهم ... قبل السلاف سلاف العلم والأدب
بكلّ متشح بالفضل مؤتزر ... كأن في لفظه ضربا من الضرب
بل ربّ ليل غدا في الإهاب غدت ... تنقض فيه كؤوس الراح كالشهب
بذلت عقلي صداقا حين بتّ به ... أزوّج ابن سحاب بابنة العنب
بتنا بكاساتها صرعى ... يعيد أرواحنا من شدّة الطرب
بعث ألمّ فلم نعلم لفرحتنا ... من نفخة الصور أم من نفخة القصب
بروضة طلّ فيها الطل أدمعه ... والزهر مبتسم عن ثغره الشنب

وقال أيضاً :

ناب الزمان من الذنوب فوات ... واغتم لذيذ العيش قبل فوات
تمّ السرور فقم بنا يا صاحبي ... نستدرك الماضي بنهب الآتي
توّج بكاسات الطلاهام الربا ... في روضة مطلولة الزهرات
تغدو سلاف القطر دائرة بها ... والكأس دائرة بكف سقاة
تلف النضار على العقار غنيمتي ... وفراغ راحاتي على الراحات
تركي لأكياس النضار جهالة ... من ذا أحق بها من الكاسات
تبت يدا من تاب عن رشف الطلا ... والكأس متقد كخد فتاة
تابع إلى أوقاتها داعي الصبا ... واعجب لما فيها من الآيات
تمم بها نقص السرور فأنها ... عند الكرام تتمة اللذات

وقال أيضاً :

حيّ الرفاق وطف بكأس الراح ... واطرز بكاسك حلة الأفراح

حث الكؤوس على جسوم أصبحت ... فيها المدام شريكة الأرواح
حاش الأنام وعاطني مشمولة ... ظنت فسادي وهي عين صلاحي
حمراء لو ترك السقاة مزاجها ... أغنى تلألؤها عن المصباح
حبب تظل به الكؤوس كأنها ... خصر الفتاة ممنطق بوشاح
حجب الحباب شعاعها فكأنه ... شفق تلهب تحت ذيل صاح
حكم الزمان وغضّ عنا طرفه ... يا صاح لا تقنع بأنك صاح

وقال آخر :

قد قلت إذ أضحى يعبس كلما ... دارت عليه بالمدام الأكؤس
تالله ما أنصفتها يا سيدي ... تأتيك باسمة وأنت تعبس

عز الدين الموصلي :

لئن شبه الساقي المدام بعسجد ... فقد مال بالتشبيه عن صيغة الأدب
ولكن رآها جوهرا سميت طلا ... فميز ما قد حلت الكأس بالذهب

يزيد بن معاوية :

وشمسة كرم برجها قعر دنها ... وطلعتها الساقي ومغربها فمي
مدام كتبر في إناء كفضة ... وساق كبدر مع ندامى كأنجم

وقال آخر :

كأن الندامى والسقاة ودننا ... وكاساتنا في الروض تملى وتشرب
شموس وأقمار وفلك وأنجم ... ونور ونوّار وشرق ومغرب

وقال آخر :

فكأنها وكأنّ حامل كأسها ... إذ قام يجلوها على الندماء
شمس الضحى رقصت فنقط وجهها ... بدر الدجى بكواكب الجوزاء

وقال كشاجم :

صدح الديك في الدجى فاسقنيها ... خمرة تترك الحليم سفيها
لست أدري من رقة وصفاء ... هي في الكأس أم هو الكأس فيها

كمال الدين بن النبيه :

قم يا غلام ودع مقالة من نصح ... فالديك قد صدع الدجى لما صدح
خفيت تباشير الصباح فاسقني ... ما ضلّ في الظلماء من قدح القدح
صهباء ما لمعت بكف مديرها ... لمقطب إلا تهلل وانشرح

تـالله مـا مـزج المـدام بمـائهـا ... لـكنـه مـزج المسـرّة بـالفـرح
هي صفوة الكرم الكريم فما سرت ... سـرّاؤهـا في بـاخـل إلا سمـح
من كف فتـان اللحـاظ بـوجهـه ... عـذر لمن خلع العذار أو افتضـح

وقال غيره :

ولـيـلـة أوسـعـتـنـي ... حـسـنـا ولهـوا وأنـسـا
مـا زلـت ألـثـم بـدرا ... بهـا وأشـهـد شـمـسـا

عبد الله بن محمد العطار . وقيل يزيد بن معاوية :

وكأس يرينا آية الصبح في الدجى ... فـأوّلهـا شمس وآخـرهـا بـدر
مقطبة مـا لم يزرهـا مزاجهـا ... فـإن جاءهـا جاء التبسم والبشـر
فيـا عجبـا للدهـر لم يخل مهجة ... من العشق حتى الماء يعشقه الخمر

وقال ابن تميم :

وليلة بت أسقي من غيـاهبهـا ... راحـا تسلّ شبـابي من يـد الهـرم
مـا زلت أشربهـا حتى نـظرت إلي ... غزالة الصبح ترعى نرجس الظلم

ابن مكانس :

نـزل الـطل بـكـرة ... وتـوالى تجـددا
والـنـدامـى تجـمـعـوا ... فأجل كأسي على النـدى

الشيخ شهاب الدين الحجازي :

كـأسـنـا يصـاح صـرفـا ... جـليـت بـين الـنـدامـى
لم نـجـد مـاء لمـزج ... فـقـنـعـنـا بـالـنـدامـى

صفي الدين الحلي :

كيف لا تخضـع العقـول لـديهـا ... وهي سلطان سـائـر المسكـرات
ألفـوا في الكؤوس إذا مزجـوهـا ... بـين مـاء الحيـا ومـاء الممـات

غيره :

صبهـا في الكـأس صـرفـا ... غـلـبـت ضـوء الـسـراج
ظـنـهـا في الـكـأس نـارا ... فـطـفـاهـا بـالمـزاج

مجد الدين بن تميم :

نـديمـي لا تـسـقـني ... سـوى الصرف فهـو الهني

ودع كـأسـهـا أطـلـسـا ولا تـسـقـني مـع دني

تقي الدين بن حجة :

حيـا بهـا عـاصرهـا في كـأسهـا مـشـرقـة بـاسـمـة كـالـثـغـر
وقـال هـذي تحفـة في عصرنـا قلت اسقنيهـا يـا إمـام العصـر

أبو الطيب المتنبي :

يا صاحبي امزجا كأس المدام لنا كيما يضيء لنا من أفقها الغسق
خمرا إذا ما نـديمي همّ بشربهـا أخشى عليه من اللألاء يحترق
لو راح يحلف أن الشمس ما غربت في فيـه كـذّبـه في وجهـه الشفق

وقال آخر :

بـنـت كـرم يـتـمـوهـا أمـهـا وأهـانـوهـا بـدوس بـالـقـدم
ثـم داروا حـكـمـوهـا فـيـهـم ويلهم من جـور مـظلوم حكـم

وقال آخر :

عـنـاقـيـد عـلى قـضب تـدلـت حكى منـظومهـا عـقـد الـلآلي
إذا عصـرت بدا في الكـأس منهـا دوالي قـد تـربـت في دوالي

برهان الدين بن المعمار :

بـاكـر لـكـرم العـنب المجـتـنى واستجـنـه مـن عـنـد عـتـابـه
واعصـره واستـخـرج لـنـا مـاءه لـكـي تـزيـل الهـمّ عـنـا بـه

جولان العاذلي :

إذا مـا الخمر في الكـاسات صبت رأيت لهـا شمـوسـاً في بـروج
وإن جليت عـلى النـدمان يومـاً تـزاحمت الهمـوم عـلى الخـروج

وقال في الشراب المطبوخ :

يـا من يعذّب مـاء الكـرم يحـرقـه بـالنـار في أيّ شيء تـظلم العنبا
إن الـتي طبـخـتـهـا أنـفـع لي ولست أخسر لا قدرا ولا حـطبا

وقال أيضاً :

وعـتيـقـة رقت وراق مـزاجـهـا لـطفا وأنحلها الـزمـان الغـابـر
لم يبق منهـا غـير نـور سـاطـع لا يستـطيع يجـول فيـه النـاظـر
تـرنـو إليك من الحبـاب بـأعين خـلقت ولم تخلق لهـن محـاجـر

وقال غيره :

لا تعصرن زبيباً واعتصر عنبا | فبين هذين فرّقنا بتصريح
هذا من الحيّ للأحياء معتصر | وذاك يعصر من جسم بلا روح

وقال غيره :

عابوا عليّ مداماً أخرتها لصبوحي | واستنكروها وقالوا تحللت قلت روحي

وقال آخر في الشراب على الرعد والبرق :

أما ترى الرعد بكى فاشتكى | والبرق قد أومض فاستضحكا
فاشرب على غيم كصبغ الدجى | أضحك وجه الروض لما بكى
وانظر لماء النيل في مدّه | كأنه صندل أو مصطكا

وقال آخر :

يا ليلة جمعت لنا الأحبابا | لو شئت دام لنا النعيم وطابا
بتنا بها نسقي سلافا قرقفا | يذر الصحيح بعقله مرتابا
من كفّ غانية كأن بنانها | من فضة قد قمعت عنابا

وقال غيره :

أما ترى الغيث كالباكي بأدمعه | والأرض تضحك والأزهار في فرح
فقم فديتك نشكو ما نكابده | من الزمان وما نلقي إلى القدح

ابن نباتة :

أما ترى الليل قد ولت غياهبه | وعارض الفجر بالإشراق قد طلعا
فاشرب على وردة وردية قدمت | كأنها خدّ ريم ريم فامتنعا

ومن شعر عضد الدولة :

طربت إلى الصبوح مع الصباح | وشرب الراح والغرر الملاح
وكان الثلج كالكافور نثرا | وناري بين نارنجي وراحي
فمشمومي ومشروبي وناري | وثلجي والصباح مع الصباح
لهيب في لهيب في لهيب | صباح في صباح في صباح

ابن وكيع :

وصفراء من ماء الكروم كأنها | فراق عدوّ أو لقاء صديق
كأن الحباب المستدير بطوقها | كواكب درّ في سماء عقيقي
صببت عليها الماء حتى تعوّضت | قميص بهار من قميص شقيق

وقال آخر :

وحمراء قبل المزج صفراء بعده ... أتت بين ثوبي نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق صرفا فسلطوا ... عليها مزاجا فاكتست لون عاشق

وقال آخر :

إذا الكروان صاح على الرمال ... وحلّ البدر في برج الكمال
وجعد وجه بركتنا هبوب ... تمرّ به الجنوب مع الشمال
وحرّكت الغصون فشابهتها ... قدود سقاتنا في كلّ حال
فهات الكأس مترعة ودعني ... أبادر لذّتي قبل ارتحالي
فكلّ جماعة لا شكّ يوما ... يفرق بينهم صرف الليالي

وقال آخر في الشراب على الغيم :

أرى غيما تؤلفه جنوب ... ويوشك أن يوافقنا بهطل
فوجه الرأي أن تدعو برطل ... فتشربه وتدعو لي برطل

وقال آخر :

فيا بكر باكر بكرة بكر كرمة ... تفز ببكور باكرتك بها بكر
وداوي خمار الخمر بالخمر إنما ... دواء خمار الخمر من دائها الخمر

وقال الصنوبري :

لا تبكينّ على الأطلال والدمن ... ولا على منزل أقوى من السكن[1]
وقم بنا نصطبح صهباء صافية ... تنفي الهموم ولا تبقي على الحزن
بكرا معتقة عذراء واضحة ... تبدو فتخبرنا عن سالف الزمن
حمرا مروقة صفراء فاقعة ... كأنما مزجت من طرفك الوسني
يسعى بها غنج في خده ضرج ... في ثغره فلج ينمي إلى اليمن
في ريقه عسل قلبي به خبل ... في مشيه ميل أربى على الغصن
كأنه قمر ما مثله بشر ... في طرفه حور يرنو فيجرحني
سبحان خالقه يا ويح عاشقه ... يهدى لرامقه صنفاً من الشجن
في روضة زهرت بالنبت قد حسنت ... كأنها فرشت من وجهه الحسن
يا طيب مجلسنا والطير يطربنا ... والعود يسعدنا مع منشد لسن

كمال الدين بن النبيه :

طاب الصبوح لنا فهاك وهات ... واشرب هنيئاً يا أخا اللذات

---

(١) اقوى : خلا .

كم ذا التواني والزمان مساعد — والدهر سمح والحبيب مواتي
قم واغتبق من شمس كاسك — بكواكب طلعت من الكاسات
حمراء صافية توقد نورها — فعجبت للنيران في الجنات
ينسلّ في قار الظروف حبابها — والدرّ مجتلب من الظلمات
عذراء واقعها المزاج أما ترى — منديل عذرتها بكف سقاة
يسعى بها عبل الروادف أهيف — خنث الشمائل شاطر الحركات
يهوى فتسبقه ذوائب شعره — ملتفة كأساود الحيات
لو قسمت أرزاقنا بيمينه — عدل الزمان على ذوي الحاجات

وقال أيضاً :

باكر صبوحك أهنى العيش باكره — فقد ترنم فوق الأياك طائره
والليل تجري الدراري في مجرته — كالروض تطفو على نهر أزاهره
وكوكب الصبح نجاب على يده — مخلق تملأ الدنيا بشائره
فانهض إلى ذوب ياقوت لها حبب — تنوب عن ثغر من تهوى جواهره
حمراء من وجنة الساقي لها شبه — فهل جناها من العنقود عاصره
ساق تكون من صبح ومن غسق — فابيض خدّاه واسودّت غدائره
بيض سوالفه لعس مراشفه — نعس نواظره خرس أساوره
مفلج الثغر معسول اللمى غنج — مؤنث الجفن فحل اللحظ شاطره
مهفهف القدّ يبدي جسمه ترفا — مخصر الخصر عبل الردف وافره
تعلمت بانة الوادي شمائله — وزوّرت سحر عينيه جآذره
كأنه بسواد اللحظ مكتحل — وركبت فوق صدغيه محاجره
فلو رأت مقلتا هاروت آيته الـ — ـكبرى لآمن بعد الكفر ساحره
خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما — وأنت ناه لهذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تستحلي أوائله — لكنه ربما مرّت أواخره
واجسر على فرص اللذات محتقرا — عظيم ذنبك إنّ الله غافره

وقال آخر :

شربنا بالبواطي ثم رحنا — نعلل بالكؤوس وبالقناني[1]
ولولا ضيقة الأجرام قلنا — لساقيها أدرها بالدنان

برهان الدين القيراطي :

أرى جرار الخمر تغلو وقد — عزت وبالإفلاس حالي عجيب
جئنا لخمار وقلنا له — احمل إلينا جرة كي نطيب

---

(١) البواطي مفردها الباطية وهي القدح الضخم .

قال زبيبا تريدون أم ... خمرا فان الكل مني قريب
قلنا له خمرا فنادى زنوا ... في جرة عشرين قلنا الزبيب

وقال أيضاً :

صرف الزبيب لصرف همي ... نص على نفعه طبيبي
آها على سكرة لعلي ... أن أخلط الهمّ بالزبيب

وقال :

قالوا اترك الخمر واجتنبها ... لا تتعدّ الحرام حدّا
قلت أراها للروح قوتا ... وطالب القوت ما تعدّى

ومما قيل في شرب الفقهاء :

يحمون بالفقه عرض الدين من سفه ... علما بتصريف أحوال وتحقيق
وبعضهم يكرع الصهباء مغتنما ... تحت الظلام بأفواه الأباريق

ومما قيل فيمن يطيل الحديث والكأس في يده :

وشادن نطقه جار إذا شفعت ... في مجلس الشرب كاسات بطاسات
يظلّ يحكي وكأس الراح في يده ... حكاية عرضها عرض السموات

ومما قيل في كريم السكر لئيم الصحو :

إذا هزّ اللئيم السكر يوما ... بدا في بذل مال فيه ضنا
يجود بماله في الشرب سكرا ... ويأكل كفه في الصحو حزنا

ومما قيل في شجاع السكر :

إذا شرب الجبان الخمر يوما ... أعارته الشجاعة باللسان
وعند الصحو تلقاه جزوعا ... إذا اشتدّ اللقا يوم الطعان

وفيه أيضاً :

يقول جبان القوم في حال سكره ... وقد شرب الصهباء هل من مبارز
وأين الخيول الأعوجيات في الوغى ... أناقل فيها كل ليث مناهز
ومن لي بحرب ليس تخمد نارها ... لعمري إني لست فيها بعاجز
ففي السكر قيس وابن معدي وعامر ... وفي الصحو تلقاه كبعض العجائز

وقال في شرب الثلاثة :

ثلاثة في مجلس طيب ... وعيشهم ما فيه تكدير
هذا يغني ذا وهذا الذي ... يسقي وذا بالشرب مسرور

وقيل في شرب الأربعة :

ألا إنما خير المجالس مجلس ... به وله صفو الزمان مساعد
فتاة وساق والمغني وصاحب ... وخامسهم هم على الكل زائد

وقيل في شرب الستة :

خير المجالس خمسة أو ستة ... أو سبعة وعلى الكثير ثمانية
فاذا تعدى صار شغلا شاغلا ... وتكسرت بين الرجال الآنية
فاهرب إذا ما كنت تاسع مجلس ... ولئن أتيت به فأمك زانية

ومما قيل في الشرب مع التجار :

شربت مع التجار وكان يوما ... جعلت حضورنا فيه وداعا
فذاك يقول كم أطلقت بيعا ... ووفيت الذي بعت الذراعا
وهذا قال عندي كل شيء ... ولكن لا أبيع ولا أباعا
فلا تجعلهمو أبدا ندامى ... فتكسب من مجالسهم صداعا

ومما قيل فيمن أكل على الشراب :

وندمان إذا ما الكأس دارت ... بغير الأكل ارتعدت يداه
نديم دأبه في السكر أكل ... فلا يبقي على شيء يراه

وقيل في قدح :

غرامي ووجدي بالذي كان في الثرى ... مهاناً فأضحى في المجالس حاكماً
قضى ما عليه من ورود جهنم ... فصار لجنات النعيم ملازما

محمد بن جعفر الأنصاري يستدعي بعض أصدقائه إلى الشراب :

بساط الأرض مسك أو عبير ... وزهر الروض وشي أو حرير
وقد صفي الدنان الخمر حتى ... لقد عادت لدينا وهي نور
ومن يرد السرور يعش هنيئا ... إذ العيش الهنيء هو السرور
وعندي اليوم فتيان كرام ... وجوههمو شموس أو بدور
وقطب الأمر أنت وهل لأمر ... بغير القطب فيه رحى تدور
فرأيك في الحضور فحق يومي ... عليك وقد دعاك له الحضور

وقال آخر :

باكر صبوحك واشربها مشعشعة ... واهنأ بعيش حميد غير مذموم
حمراء من بعد ما احمرت موردة ... طافت علينا فسرّت كل مهموم

كأنّ في كأسها والماء بقرعها — أكارع النمل أو نقش الخواتيم
لا صاحبتني يد لم تعن ألف يد — ولم ترد القنا حمر الخياشيم
بادر بجودك بادر قبل عائقه — فان خلف الفتى عندي من اللوم

سيف الدولة بن حمدان في ساق :

وساق صبيح للصبوح دعوته — فقام وفي أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم — فما بين منقض علينا ومنفض
وقد نشرت أيدي النجوم مطارفا — على الجوّاد كنا والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السماء بأصفر — على أحمر في أخضر تحت مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل — مصبغة والبعض أقصر من بعض

ابن نباتة :

سقى وواعدني وصلا ألذ به — عند المنام ولا والله ما وصلا
قبيله الله من ساق مواعده — كانت مواعيد عرقوب لها مثلا

وقال آخر في ساق :

وساق كالهلال سعى بكأس — لربة نرجس فسقى وحيًّا
فقلت تأملوا بدرا منيرا — سقى شمسا وحيًّا بالثريا

وفيه لأبن النبيه :

ساق صحيفة خدّه ما سوّدت — عبثا بلام عذاره وبنونه
جمد الذي بيمينه في خدّه — وجرى الذي في خدّه بيمينه

في جارية ساقية :

نديمتي جارية ساقية — ونزهتي ساقية جارية
جارية أعينها جنة — وجنة أعينها جارية

فيمن حبس الكأس في يده :

قالوا الذي تهواه يحبس كأسه — في كفه من غير ذنب موجب
فأجبتهم كفّوا الملام فانه — قمر ينزه طرفه في كوكب

وقال آخر في مجلس أنس :

ومجلس راق من واش يكدّره — ومن رقيب له باللوم إيلام
ما فيه ساع سوى الساقي وليس له — على الندامى سوى الريحان نمام

صفي الدين الحلّي في عود :

ولي عـود بـه عـاد السـرور لأنـه ... حوى اللهو قدما وهو ريان نـاعـم
يـغـرب في تـغـريـده فـكـأنـه ... يعيـد لنـا مـا لقنتـه الحمـائم

وقال آخر في زامرة :

ونـاطقـة بـالنفـخ عن روح ربهـا ... تـعـبـر عـما دونـنـا وتـتـرجـم
سكتنـا وقـالت للقلوب فـأطـربت ... فنحـن سكـوت والهـوى يتكـلم

ومما قيل في فانوس لأبن تميم :

انـظر إلى الفـانـوس تلق متيـماً ... ذرفت عـلى فقـد الحبيب دمـوعـه
يبـدو تلهب جسـمـه لنحـولـه ... وتعـدّ من تحت القميص ضلوعـه

وفيه لأبن قزل :

وكـأنما الفـانوس في غسق الـدجى ... دنـف بـراه شـوقـه وسـهـاده
أضـلاعـه خـفـيـت ورقّ أديمـه ... وجـرت مـدامـعـه وذاب فـؤاده

ولبعضهم في شمعة :

حكتني وقد أودى بي السقم شمعة ... وإن كنت صبـاً دونها متـوجـعـاً
ضـنى وسهـادا واصـفـرار ورقـة ... وصبـرا وصمتـا واحتـراقـا وأدمعـا

ومما قيل في الربيع والرياض والبساتين والمياه والنواعير ونحو ذلك ، قال الشاعر :

هـذا الـربـيـع وهـذه ازهـاره ... مـتـجـاوب في أيـكـه أطـيـاره
وبـدا البنفسـج والشقـائق مونق ... والـورد يضحـك بينهـا وبهـاره
فاشرب على وجه الحبيب وغنّ لي ... هـذا هـواك وهـذه آثـاره

وقال غيره :

الندى غدونا على الروض الذي طله ... سحيـراً وأوداج الأبـاريق تسفـك
فلم نـر شيئـاً كـان أحسن منـظرا ... من النور يجري دمعه وهو يضحك

وقال آخر :

أما ترى الأرض قد أعطتك زهرتها ... بخضـرة واكتسى بـالنـور عـاريهـا
فـللسـماء بـكـاء في جـوانـبهـا ... وللربيـع ابتسـام في نـواحـيهـا

غيره :

إنّ السـماء إذا لم تبـك مقلتـهـا ... لم تضحك الأرض عن شيء من الزهر

والأرض لا تنجلي أنوارها أبدا   إلا إذا رمدت من شدّة المطر

وقال ابن قرناص :

أيا حسنها من رياض غدا   جنوني فنونا بأفنانها
مشى الماء فيها على رأسه   لتقبيل أقدام أغصانها

وقال آخر :

انظر إلى الأغصان كيف تعانقت   وتفارقت بعد التعانق رجعا
كالصبّ حاول قبلة من إلفه   فرأى المراقب فانثنى متوجعا

وقال ابن تميم :

وحديقة ينساب فيها جدول   طرفي برونق حسنها مدهوش
يبدو خيال غصونها في مائه   فكأنما هو معصم منقوش

وقال أيضاً عفا الله عنه :

لم لا أهيم إلى الرياض وحسنها   وأظلّ منها تحت ظلّ ضافي
والزهر حياني بثغر باسم   والماء وافاني بقلب صافي

وقال آخر :

قد سعينا نبغي زيارة دوح   قد حبانا باللطف والإكرام
ناولتنا أيدي الغصون ثمارا   أخرجتها لنا من الأكمام

ومما قيل في الأزهار والثمار . قال بعضهم في الورد :

يا راقدا ونسيم الصبح منتبه   في روضة القصف والأطيار تنتحب
الورد ضيف فلا تجهل كرامته   فهاتها قهوة في الكأس تلتهب
سقيا له زائرا تحيا النفوس به   يجود بالوصل شهرا ثم يحتجب

وقال آخر فيه :

طاب الزمان وجاء الورد فاصطحبا   ما دام للورد أنوار وأزهار
واستقبلا عيشنا بالكأس مترعة   لا طوّلت للئام الناس أعمار

وقال آخر :

أشرب على الورد من حمراء صافية   شهرا وعشرا وخمسا بعدها عددا
واستوف بالكاس من لهو ومن طرب   فلست تأمن صرف الحادثات غدا

وقال آخر :

اشــرب عـلى ورد الخـدود فـانها ... أيـام ورد والـصبـوح يـطيـب
مـا الورد أحسن منـظر من وجنـة ... حمـراء جـاد بهـا عليـك حبيب

وقال بعضهم :

لـقـد رأيت الـورد يـلطم خـدّه ... ويقـول وهـو عـلى البنفسـج يحنق
لا تقـربـوه وإن تضـوّع نشـره ... من بينكـم فهـو الـعـدوّ الأزرق

ومما قيل في البنفسج . قال ابن المعتزّ :

ولا زورديـة وافـت بـزورتهـا ... بـين الريـاض على زرق اليـواقيت
كـأنها فـوق طـاقـات صففن بهـا ... أوائـل النـار في أطـراف كبـريت

وقال آخر :

اشـرب عـلى زهـر البنفسـج قهـوة ... تهـدي السرور لكـلّ صبّ مكمـد
فكـأنـه قـرص بخـدّ مهفهـف ... أو أعـين زرق كـحلن بـأثـمـد

ولبعضهم في الورد :

للورد فضل على زهر الربيع سوى ... أن البنفسـج أزكى منه في المهـج
كـأنه وعيـون النـاس تـرمقـه ... آثـار قرص يـد في خد ذي غنـج
يـا مهـديـا لي بنفسجـا أرجـا ... يـرتـاح صـدري لـه وينشـرح
بـشـرني عـاجـلا مصـحـفـه ... بـأن ضـيـق الأمـور ينـفـسـح

وقال غيره في النرجس :

وقـضـب زمـرد تـعـلو عـايـهـا ... عيـون لم تـذق طعم الغمـاض
تـوهمت الـغـمـام لهـا رقـيـبـا ... فنكست الـرؤوس إلى الـريـاض

وقال آجر فيه :

أنـت يـا نـرجس روض ... لـزهـور الأرض سـتّ
ودلـيـل الـقـول فـيـك ... أن أوراقـك سـتّ

وقال آخر :

أقول وطرف النرجس الغض شاخص ... إليّ ولـلـنـمـام حـولي إلمـام
أيـا ربّ حتى في الحـدائق أعـين ... علينا وحتى في الريـاحين نمـام

وقال أيضاً فيه :

لما تمادى الورد في زهره ... وراح من إعجابه يرأس
تلّون المنثور مما به ... واصفرّ من غيظ به النرجس

ومما قيل في الليلنوفر لابن المعزّ المصري :

وبركة تزهو بلينوفر ... نسيمه يشبه نشر الحبيب
مفتح الأجفان في نومه ... حتى إذا الشمس دنت للمغيب
أطبق جفنيه على خده ... وغاص في البركة خوف الرقيب

وقال تميم بن المعز المصري :

رأيت في البركة لينوفرا ... فقلت ما شأنك وسط البرك
فقال لي غرقت في أدمعي ... وصادني ظبي الفلا بالشرك
فقلت ما بال اصفرار بدا ... فيك وما هذا الذي غيّرك
فقال لي ألوان أهل الهوى ... صفر ولو ذقت الهوى صفرك

ومما قيل في البان :

قد أقبل الصيف وولى الشتا ... وعن قليل تسأم الحرّا
أما ترى البان بأغصانه ... قد قلب الفرو إليّ برا

وقال آخر فيه :

أما ترى البان الذي يزهو على ... كلّ الغصون بقده المياس
وافى يبشر بالربيع وقربه ... يختال في السنجاب والبرطاس

وقال في الشقيق :

حييته بشقائق في مجلس ... ورأى الرقيب فشقّ ذاك عليه
فاحمر من خجل فأنبت خده ... أضعاف ما حملت يداي إليه

وقال آخر :

لو لم أعانق من أحبّ بروضة ... أحداق نرجسها إلينا تنظر
ما انشق جيب شقيقها حسدا ولا ... بات النسيم بذيله يتعثر

وقيل إن ابن الرومي الشاعر زار قبر أخيه يوماً فوجد الشقائق قد نبتت على قبره فأنشد يقول :

قالت شقائق قبره ... ولربّ أخرس ناطق
فارقته ولزمته ... فأنا الشقيق الصادق

ومما قيل في المنثور :

تخال منثورها في الدوح منتشراً كأنما صيغ من درّ وعقيان
والطير ينشد في أغصانه سحرا هذا هو العيش إلا أنه فاني

وقال آخر :

قد أقبل المنثور يا سيدي كالدرّ والياقوت في نظمه
ثناك لا زال كأنفاسه ومخّ من يشناك مثل اسمه

ولبعضهم فيه :

ولقد خلوت مع الأحبة مرّة في روضة للزهر فيها معرك
ما بين منثور أقام ونرجس مع أقحوان وصفه لا يدرك
هذا يشير بأصبع وعيون ذا ترنو إليه وثغر هذا يضحك

ومما قيل في الياسمين :

والأرض تبسم عن ثغور رياضها والأفق يسفر تارة ويقطب
وكأن مخضرّ الرياض ملاءة والياسمين لها طراز مذهب

وقال آخر :

رأيت الفأل بشرني بخير وقد أهدى إليّ الياسمين
فلا تحزن فان الحزن شين ولا تيأس فان اليأس مين

ومما قيل في السوسن للأخطل الأهوازي :

سقيا لأرض إذا ما نمت نبهني بعد الهدوّ بها قرع النواقيس
كأنّ سوسنها في كلّ شارقة على الميادين أذناب الطواويس

ومما قيل في الأقحوان لعبد القادر بن مهنا المغربي :

أفدي الذي زارني سرّا فأتحفني بأقحوان يحاكي ثغر مبتسم
فبتّ من فرحي أفني مقبله لثما وأرشف من ريق له شبم

ولبعضهم فيه :

إن فاه ثغر الأقاحي في تشبهه بثغر حبك واستولى به الطرب
فقل له عند ما يحكيه مبتسما لقد حكيت ولكن فاتك الشنب

ومما قيل في الجلنار :

وجلنار مشرق على أعالي شجرة

كأن في غصنه أحمره وأصفره
قراضة من ذهب في خرقة معصفرة

ومما قيل في الآس :

أهديت مشبه قدّك المياس غصنا نضيرا ناعما من آس
فكأنما يحكيك في حركاته وكأنما تحكيه في الأنفاس

ومما قيل في الريحان :

وغصن من الريحان أخضر ناضر نما بين غصني نرجس وشقائق
يريك إذا كفّ الصبا عبثت به شمائل معشوق وذلة عاشق

وفيه أيضاً :

وريحان يميس بحسن قدّ يلذ بشمه شرب الكؤوس
كسودان لبسن ثياب خز وقد قاموا مكاشيف الرؤوس

وقال آخر :

قضيب من الريحان شاكل لونه إذا ما بدا للعين لون الزبرجد
فشبهته لما بدا متجعدا عاذارا تبدى في سوالف أغيد

ومما قيل في الفواكه والثمار على اختلافهما . قال ابن الرومي في الأترج :

كل الخلال التي فيكم محاسنكم تشابهت منكم الأخلاق والخلق
كأنكم شجر الأترج طاب معا حملا ونشرا وطاب العود والورق

ولبعضهم فيه :

حياك من تهوي بأترجة ناعمة مقدودة غضة
فجلدها من ذهب أصفر وجسمها الناعم من فضة

وقال آخر :

يا حبذا أترجة تحدث للنفس الطرب
كأنها كافورة لها غشاء من ذهب

في الليمون قول أبي الحسن رئيس الرؤساء :

يا حسن ليمونة حيا بها قمر حلو المقبل ألمى بارد الشنب
كأنها أكرة من فضة خرطت واستودعوها غلافا صيغ من ذهب

وفيه أيضاً :

وصاحب ناديته	والطير لم يغرّد
انهض إلى الراح ولا	ترضى بعيش نكد
واشرب سلافا قرقفا	من كفّ ساق أغيد
قد اكتست تلهبا	من خدّه المورد
ولا تدع مجتهدا	لذّة يوم لغد
أما ترى الليمون في	غصن من الزبرجد
كأكرة من فضة	مملوءة من عسجد

في النارنج لعبد الله بن المعتزّ :

نظرت إلى نارنجة في يمينه	كجمرة نار وهي باردة اللمس
فقرّبها من خده فتألفت	فشبهتها المريخ في دارة الشمس

وقال آخر :

ونارنجة بين الرياض نظرتها	على غصن رطب كقامة أغيد
إذا ميلتها الريح مالت كأكرة	بدت ذهبا في صولجان زبرجد

وقال آخر :

ونارنج يلوح على غصون	ومنه ما نرى كالصولجان
أشبهها ثديا ناهدات	غلائلها صبغن بزعفران

وقال آخر :

وأشجار نارنج كأنّ ثمارها	حقاق عقيق قد ملئن من الدرّ
فطالعها بين الغصون كأنها	قدود عذارى في ملاحفها الخضر
أتت كلّ مشتاق بريا حبيبه	فهاجت له الأشجان من حيث لا يدري

في التفاح لبعضهم :

ولما بدا التفاح أحمر مشرقا	دعوت بكأسي وهي ملأى من الشفق
وقلت لساقيها أدرها فعندنا	خدود الأغاني قد جمعن على طبق

وقال آخر في تفاحة :

وتفاحة من سندس صيغ نصفها	ومن جلنار نصفها وشقائق
كان الهوى قد ضمّ من بعد فرقة	بها خدّ معشوق إلى خدّ عاشق

ولبعضهم فيه :

تفاحة كسيت لونين خلتها ... خدي محب ومحبوب قد التصقا
تعانقا فبدا واشق فراعهما ... فاحمرّ ذا خجلا واصفرّ ذا فرقا

وقال آخر :

وتفاحة وردية ذهبية ... تجلى عن المهموم ليل همومه
كأنّ سلاف الخمر روّى أديمها ... بخمر فجاءت باحمرار أديمه
تذكرني شكل الحبيب وحسنه ... وتوريد خدّيه وطيب نسيمه

وقال آخر :

حمرة التفاح في خضرته ... أشبه الألوان من قوس قزح
فعلى التفاح فاشرب قهوة ... واسقنيها بنشاط وفرح

وفيه أيضاً :

أهدى لنا التفاح من كفه ... من لم يزل يجنيه من خدّه
وخط بالمسك على بعضها ... قد عطف المولى على عبده

ومما قيل في السفرجل :

حاز السفرجل لذات الورى فغدا ... على الفواكه بالتفضيل مشهورا
كالراح طعما وشم المسك رائحة ... والتبر لوناً وشكل البدر تدويرا

وقال آخر :

سفرجلة صفراء تحكي بلونها ... محبا شجاه للحبيب فراق
إذا شمها المشتاق شبه ريحها ... بريح حبيب لذ منه عناق
وطيبة عند المذاق فطعمها ... كريق حبيب طاب منه مذاق

وقال آخر :

سفرجلة جمعت أربعا ... فكان لها كل معنى عجيب
صفار النضار وطعم العقار ... ولون المحب وريح الحبيب

وقيل في الكمثرى :

وكمثرى لذيذ الطعم حلو ... شهيّ جاء من دوح الجنان
مناقير الطيور إذا اقتتلنا ... مغبرة بلون الزعفران

ابن برغش متغزلا :

وكمثرى سباني منه طعم ... كطعم الشهد شيب بماء ورد
لذيذ خلقه لما أتانا ... نهود السمر في معنى وقدّ

ما قيل في المشمش :

بدا مشمش الأشجار يذكو شهابه ... على غض أغصان من الروض ميد
حكى وحكت أشجاره في اخضراره ... جلاجل تبر في قباب زبرجد

ما قيل في الإجاص :

انظر إلى شجر الإجاص قد حملت ... أغصانه ثمرا ناهيك من ثمر
تراه في أخضر مستترا ... كما اختبى الزنج في خضر من الأزر

ما قيل في الخوخ :

أهدى إلي الصديق خوخا ... منظره منظر أنيق
من كل مخصوصة بحسن ... معناه في مثلها دقيق
حمراء صفراء مستعير ... بهجتها التبر والعقيق
كوجنة مسها خلوق ... فزال عن بعضها الخلوق

ما قيل في الفستق :

تفكرت في معنى الثمار فلم أجد ... لها ثمرا يبدو بحسن مجرّد
سوى الفستق الرطب الجنى فانه ... زها بمعان زينت بتجرّد
غلالة مرجان على جسم فضة ... وأحشاء ياقوت وقلب زبرجد

ما قيل في البندق :

ولقد شربت مع الحبيب مدامة ... حمراء صافية بغير مزاج
فتفضل الظبي البهيّ ببندق ... شبهته ببنادق من ساج
فكسرته فوجدت ثوباً أحمرا ... قد لفّ فيه بنادق من عاج

ومما قيل في النبق :

وسدرة كل يوم ... من حسنها في فنون
كأنما النبق فيها ... وقد حلا في العيون
جلاجل من نضار ... قد علقت في الغصون

ومما قيل في اللوز :

ومهد إلينا لوزة قد تضمنت ... لمبصرها قلبين فيها تلاصقا

كـأنهما حـبـان فـازا بـخـلوة　　عـلى رقبـة في مجلس فتعـانـقـا

في العنب لبعضهم :

هـديـة شـرّفتنـا مـن أخ ثقـة　　نعم الهدية اذا وافتـك من يـده
نـوعان من عنب جاءا على طبق　　كـأنّ طيبهـا من طيب محتـده
فـأبيض العين يحكي لـون أبيضـه　　وأسـود العيـن يحكي لـون أسوده

في قصب السكر :

ورمـاح لـغـير طعـن وضـرب　　بـل لأكـل ومص لـب ورشـف
كملت في استـوائهـا واستقـامت　　بـاعتـدال وحسـن قـدّ ولـطف

ومما قيل في البطيخ الأصفر :

أتانا غلام فاق حسنا على الـورى　　ببطيخة صفراء في لـون عـاشق
فـشبـهتـه بـدرا يـقـدّ أهـلة　　من الشمس ما بين النجوم ببارق

وقال آخر :

وبـطيخـة وافى بهـا فـوق كفـه　　إلينـا غـلام فـاق كـل غـلام
فخيـل لي شمس الأصيـل أهـلة　　يقـطعهـا بـالـبـرق بـدر تمـام

ومما قيل في البطيخ الأخضر :

وظبي أتى في الكف منـه بمديـة　　وقـد لاح في خـدّيـه شبه شقيق
فمـال إلى بـطيخـة ثم شقهـا　　وفـرّقهـا مـا بين كـل صـديق
فشبهتـهـا لمـا بـدت في أكفـهـم　　وقـد عملت فيهم كؤوس رحيق
صفـائح بلور بـدت في زبـرجـد　　مـرصعـة فيهـا فصـوص عقيق

وقال آخر :

وبـطيخـة خضـراء في كف أغيـد　　أتـانا بهـا فارتـاح ذو الهم وابتهـج
وأقبـل يفـريهـا بمـديتـه وقـد　　فرى طرفه الساجي القلوب مع المهج

ومما قيل في القثاء :

انـظر إليهـا أنـابيـا منضـدة　　من الـزمـرد خضـرا مـا لهـا ورق
إذا قلبت اسمهـا بـانت مـلاحتهـا　　وصـار في عكسـه أني بكم أثـق

ومما قيل في الباذنجان :

وكـأنمـا الأبـذنـج سـود حمـائم　　أوكـاره خمـل الـربيـع المبكـر

نقـرت مناقـره الـزمـرّد سمسها   فـاستودعته حـواصـلا من عنبر

وبما قيل في الأنهار والبرك والنواعير :

أما ترى البركة الغـرّاء قد كسيت   نورا من الشمس في حافاتها طلعا
والنهـر من فـوقـه يلهيك منـظره   شهب سمـاوية فـارتـجّ والتمعـا
كـأنـه السيف مصقـولا يقـلبـه   كف الكمي إلى ضرب الكماة سعى

وقال آخر في البركة :

يا من يرى البركة الحسناء رؤيتها   والآنسـات إذا لاحت معـانيهـا
فلو تمـرّ بهـا بلقيس عن عـرض   قـالت هي الصرح تمثيلا وتشبيهـا
كـأنها الفضـة البيضـاء سـائلة   من السبـائك تجري في مجاريهـا
إذا علتهـا الصبا أبـدت لها حبكـا   مثـل الجواشن مصقـولا حـواشيهـا
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكهـا   ورونق الغيث أحيـانـا يبـاكيهـا
إذا النجـوم تـراءت في جـوانبهـا   ليـلا حسبت سـماء ركبت فيهـا

وقال آخر :

وبـركـة لـلعـيـون تـبـدو   في غـايـة الحسـن والـصـفـاء
كـأنها إذ صـفـت وراقـت   في الأرض جـزء مـن الـسـماء

وقال محمد بن سارة المغربي :

النهـر قـد رقت غـلالـة صبغـه   وعليه من صبغ الأصيـل طراز
تـتـرقـرق الأمـواج فيـه كـأنها   عكن الخصـور تهزّهـا الأعجـاز

وقال آخر :

يـوم لـقـا بـالـنيـل مختصـر   ولـكـلّ وقت مـسـرة قـصـر
فـكـأنمـا أمـواجـه عـكـن   وكـأنمـا داراتـه سـرر

وقال آخر في نهر يسبح فيه الغلمان :

خليـج كـالحسـام لـه صقـال   ولـكـن فـيـه للرائـي مسـرّة
رأيت بـه المـلاح تجيـد عـومـا   كـأنهم نـجـوم في المـجـرّة

وقال آخر في النيل :

الـنـيـل قـال وقـولـه   إذ قـال مـلء مـسـامـعـي
في غـيظ مـن طـلـب الـعـلا   عـمّ الـبـلاد مـنـافـعـي
وعـيـونهم بـعـد الـوفـا   قـلـعـتـهـا بـأصـابـعـي

وقال آخر :

كـأنّ الـنيـل ذو فـهـم ولـبّ   لمـا يبـدو لعـين الـنـاس منـه
فيـأتي عنـد حـاجتـهـم إليـه   ويمضي حين يستغنـون عنـه

وقال آخر فيه :

وفـت أصابـع نـيـلنـا   وطـغت وطـافـت في الـبـلاد
وأتـت بـكـل مـسـرّة   مـا ذي أصـابـع ذي أيـادي

وقال آخر :

سـدّ الخليج بكسره جبر الـورى   طـرّا فكلّ قـد غـدا مسـرورا
والمـاء سـلطان فكيف تـواتـرت   عنه البشائـر إذ غـدا مكسـورا

وقال آخر :

ونهر خـالـف الأهـواء حـتى   غـدت طوعـا لـه في كـلّ أمر
إذا عصفت عـلى الأغصـان ألقت   إليـه بهـا فيـأخـذهـا ويجـري

وقال آخر في ناعورة :

وكـريمـة سقت الـريـاض بـدرّهـا   فغـدت تنوب عن الغمـام الهامع
بلسـان محزون ومـدمـع عـاشق   ومسـير مشـتـاق وأنـة جـازع

وقال آخر :

ونـاعـورة قـالت وقـد حـال لـونها   وأضلعهـا كـانت تعـدّ من السقم
أدور عـلى قـلبي لأني فـقـدتـه   وأما دموعي فهي تجري على جسمي

وفيها أيضاً :

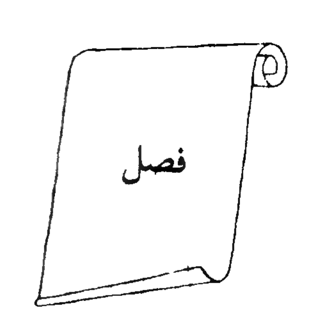
وحنـانة من غـير شـوق ولا وجـد   يفيض لهـا دمـع كمنتـثر العقـد
أحنّ إذا حنت وأبكي إذا بكـت   فليس لنا من ذلك الفعـل من بدّ
ولـكنهـا تبكي بغـير صبـابـة   وأبكي بـأفراط الصبابة والـوجـد
وأدمعهـا مـن جـدول مستعـارة   ودمعي من عيني يفيض على خدّي

وفيها أيضاً قال الخطيري :

ربّ نـاعـورة كـأنّ حـبيـبـا   فـارقتـه فقـد غـدت لي تحكي
أبـدا هـكـذا تئـن بـشـجـو   وعـلى إلفـهـا تـدور وتبـكـي

ابن تميم :

تأمل إلى الدولاب والنهر إذا جرى   ودمعهـا بين الـريـاض غـديـر
كـأنّ نسيم الجـوّ قـد ضـاع منهـا   فـأصبح ذا يجـري وذاك يـدور



في ذكر أرباب الصنائع ، والحرف ، والأسماء وما أشبه ذلك

لأبن عفيف في قاض مليح :

وربّ قاض لنا مليح يعرب عن منطق لذيذ
إذا رنا لي بسهم لحظ قلنا له دائم النفوذ

وقال في فقيه مليح :

وبمهجتي ظبي غدا متفقها وهو المهذّب في الرشاقة والحور
أمسى بسيط الشعر منه مطوّلا لكن وجيز الخصر منه المختصر

وقال في محدث مليح :

علقته محدثا شرّد عن جفني الوسن[1]
حديثه ووجهه كلاهما عندي حسن

وقال في إمام :

جاء يسعى إلى الصلاة بوجه يخجل البدر في ليالي السعود
فتمنيت أن وجهي أرض حين يومي بوجهه للسجود

ابن الرومي في عروضي وأجاد :

في عروضي مليح موتتي فيه حياة
عاذلاتي في هواه فاعلات فاعلات

في مؤذن مليح :

ومؤذن أضحى كريما وجهه لكنه بالوصل أيّ شحيح
أبدا أموت بهجره لكنني من بعد ذاك أعيش بالتسبيح

لأبن عربي :

وبنفسي مؤذن قد سباني لم يفدني شكوى الغرام إليه
كيف أصغي لما يقول حبيب واضع أصبعيه في أذنيه

---

(١) عَلِقْته : احببته . الوسن : النوم .

وقال آخر في مريد :

مراد قلبي مريد مخبأ في الزوايا
وليس ذا بعجيب ففي الزوايا خبايا

وفي فقير مليح :

بي فقير يتغنى بسنا وجه منير
لا تلمني في افتضاحي فغرامي بالفقير

في أمير شكار لأبن دانيال :

بي من أمير شكار وجد يذيب الجوارح
لما حكى الظبي حسنا حنت إليه الجوارح

في مليح مغن :

أضحى يخرّ لوجهه قمر الدجى وغدا يلين لحسنه الجلمود
فاذا بدا فكأنما هو يوسف وإذا شدا فكأنه داود

في مليح عوّاد :

غنى على العود ظبي سهم ناظره أمسى به قلبي المضني على خطر
دنا إلّي وجست كفه وترا فراحت الروح بين السهم والوتر

في مليح كاتب :

بروحي كاتبا كالبدر حسنا بديعا ما رأينا منه أجمل
على ريحان عارضه المفدّى بوجنته غدا دمعي مسلسل

غيره :

وراقنا ذا المفدّى فيه تزايد عشقي
فلو يجود بوصل لكان مالك رقي

وفيه أيضاً :

يا حسن ورّاق أرى خدّه قد راق في التقبيل عندي ورق
تميل في الدكان أعطافه ما أحسن الأغصان بين الورق

للسيد الشريف صلاح الدين الأسيوطي فيه أيضاً :

فديتك أيها الورّاق قلبي لمطلك بالوصال يكاد يبلي
وقد طلب الوفاء وغير بدع محب يسأل الوراق وصلا

وفي مليح صيرفي :

يا سائلا عن حالي ما حال من — أمسى بعيد الدار فاقد إلفه
بي صيرفي لا يرقّ لحالتي — قد متّ من جور الزمان وصرفه

في مليح بخانقي :

تسلطن في الملاح بخانقي — ولا يرضى ببدر التم نائب
وقد صفت له الأتراك جندا — وأصبح راكبا تحت العصائب

في مليح فراء :

قلت لفراء فرى أديمي — وزاد صدا وطال هجرا
قد فر نومي وفر صبري — فقال لما عشقت فرا

سيدي أبو الفضل بن أبي الوفاء في مزين :

حسبي المزين وافى — بعد البعاد بنشطه
ومص دمل قلبي — بكأس راح وبطه

في مليح قصاص :

أشكو إلى الله قصاصا يجرعني — بالهجر والصدّ أنواعا من الغصص
إن تحسن القصّ يمناه فمقلته — أيضا تقصّ علينا أحسن القصص

في مليح صياد :

ومولع بفخاخ — يمدّها وشراك
قالت له العين ماذا — تصيد قال كراكي

في مليح رامي بندق :

وأهيف القد ذي دلال — طائر قلبي عليه واجب
كالشمس في كفه هلال — يرمي إلى البدر بالكواكب

وقال آخر في راع :

أفديه من راع كبدر الدجى — قوامه فاق الغصون الرشاق
ضيفني بالجدي ناديته — ما القصد يا مولاي إلا العناق

القيراطي في مليح طحان :

حسن طحان سباني — بلحاظ وبقامة
خاف من واش فأضحى — يجعل الغمز علامة

القاضي بدر الدين البلقيني في تراب :

ربّ تراب مليح — أورث القلب عذابا

قلت لما أن بدا لي ليتني كنت ترابا

قال آخر في مليح عوّام :

يا حسن عوّام كغصن النقا يبخل بالوصل لمن هاما
وتقنع العشاق منه بأن يريهم الأرداف إن عاما

ابن نباتة في مليح حبشي :

بروحي مشروطا على الخد أسمرا دنا ووفى بعد التجنب والسخط
وقال على اللثم اشترطنا فلا تزد فقبلته ألفا على ذلك الشرط

وله أيضاً :

ومن عجب تدعى للطفك سنبلا ونشرك كافور .وذكرك عنبر
وسعدك إقبال وحسنك مرشد وخلقك ريحان ولفظك جوهر

وقال آخر فيمن به صفرة :

قالوا به صفرة شانت محاسنه فقلت ما ذاك من عيب به نزلا
عيناه مطلوبة في ثأر من قتلت فلست تلقاه إلا خائفاً وجلا

للشيخ شهاب الدين بن حجر في مليح اسمه زائد :

وزائر قال قلبي لطرف يا طرف شاهد
مدحته فتجنى تيها عليّ بزائد

وقال آخر في مليح أرمد :

شكا رمدا فقلت الآن كلت لواحظه من الفتكات فينا
وقالوا سيف مقلته تصدى فقلت نعم لقتل العاشقينا

لمجد الدين بن مكانس فيه :

تورمت مقلة المحبوب من رمد وبات يشكو لهيب القلب والألما
وبات يرمي محبيه بأسهمه فيا له من حبيب قد شكا ورما

لأبن أبي حجلة في أعور[1] :

ما شان من أهواه عين أصبحت مقلوعة بمحاسن متزايدة

---

(١) هو احمد بن يحيى بن ابي بكر التلمساني ـ ابو العباس ـ شهاب الدين ، ابن أبي حجلة . عالم بالادب ، شاعر ، من أهل تلمسان . سكن دمشق ، وولي مشيخة الصوفية بصهريج منجك (بظاهر القاهرة) ومات فيها بالطاعون سنة (٧٧٦هـ ـ ١٣٧٥ م) له أكثر من ثمانين مصنفاً منها « مقامات » وكتاب « ديوان الصبابة » و« منطق الطير » و« السجع الجليل فيما جرى في النيل » و« غرائب العجائب » وغيرها .
أنظر : الدرر الكامنة (١ : ٣٢٩) . وآداب اللغة (٣ : ١٢٣) .

لـولا استخفّ العـالمين بـأسـرهـم ما ظـلّ ينـظرهم بعـين واحـدة

وقال آخر في مليح راهب :

رأيتـه يضـرب النـاقـوس قلت لـه من علم البـدر ضربـا بـالنـواقيس
وقلت للنفس أي الضرب يؤلمكي ضـرب النواقيس أم ضـرب النوى قيسي

القيراطي في مليح اسمه بدر :

سـمّـوه بـدرا وذاك لمـا أن فـاق في حـسـنـه وتمـا
وأمـع الـنـاس إذ رأوه بـأنـه اسـم عـلى مـسـمـى

وآخر في مليح اسمه حمزة :

متى يبـدو لحـمـزة مـا بقـلبي ويـرثـي لي وينـظر في بـلائـي
وأشـفـى بـالمـبـرد مـن لمـاه وأجمـع بـين حـمـزة والـكسـائـي

وقال آخر :

كـلفـت بـه ولم أبـلغ مـرادي غـزال قـد تحكـم في قـيـادي
فـتصـحيـف اسمـه في وجنتيـه وفي مـعـسـول فـيـه وفي فـؤادي

في مليح سروجي :

فـتنـت بـه سـروجيـا بـديعـا بـه قد ذبت وجدا من ضجيجي
إذا جـذب الـغـرام لـه عنـاني يلذّ لي الـركـوب عـلى السـرج

وقال آخر في مليح محموم :

قـالـوا حبيبـك محموم فقلت لهم أنـا الذي كنت في حمـائـه السببـا
عـانقتـه ولهيب النـار في كبـدي فـأثـرت فيـه تلك النـار فـالتهبـا

لأبي النواس في مليح ألثغ :

ومهفهف دنف الصبـا ذي لثغـة تصبـو إليـه ذوو العقـول الرجح[1]
قبلت فـاه فـقـال لي متـخـوّفـا من كـاشـح متدلـل بـالشـا اثنحي

وقال في مليح خباز :

إن خـبـازنـا المليـح المـفـدى في حشـا الصبّ من جفاه كلوم
خـلت دكـانـه الـبـديـع سـماء وهـو بـدر والخبـز فيـه نجـوم

وقال في مليح حائك :

وحـائـك يـا صـاح أبصـرتـه كـالبـدر في كـفيـه مـاسـورة

---

(١) اللثغة : نطق الحرف على غير لفظه الحقيقي .

فلم أرح إلا وروحي لما   عانيت في كفيه ماسورة

وقال في مليح لاعب شطرنج :

لعبت بالشطرنج مع أهيف   رشاقة الأغصان من قده
أحلّ عقد البند من سعده   وألثم الشامات من خدّه

وفيه أيضاً قال :

تلاعبت بالشطرنج مع من أحبه   فنادمني حتى سكرت من الوجد
وأنشدني مالي أراك مفكراً   تدور على الشامات وهي على الخد

في مليح خياط :

خياطنا الفاتن المفدى   بديع حسن فريد شكل
فصل للجسم ثوب سقم   لما جفاني وكف وصلي

وقال غيره :

فتنت بخياط بديع ملاحة   له طلعة أبهى ضياء من الشمس
تراه على الكرسي للثوب خائطاً   فتقسم حقا أنه آية الكرسي

الصفي الحلي في مليح قلع ضرسه :

لحا الله الطبيب لقد تعدى   وجاء لقلع ضرسك بالمحال
أعاق الظبي في كلتا يديه   وسلط كلبتين على غزال

وقال في مليح سلم عليه :

تنبأ فيك قلبي فاسترابت   به قوم وعمهم الضلال
وصدهم الهوى أن يؤمنوا بي   وقالوا إن معجزه محال
ومذ سلمت سلمت البرايا   إلي وقيل كلمه الغزال

وقال في مليح يرمي بالسهام :

وظبي يشعر فوق طرف مفوّق   بقوس رمى في النقع وحشا بأسهم
كبدر بأفق فوق برق بكفه   هلال رمى في الليل جنا بأنجم

وقال في مليح يضرب بالعود :

فتن الأنام بعوده وبشدوه   شاد تجمعت المحاسن فيه
حتى كأن لسانه بيمينه   وكأن ما بيمينه في فيه

وقال أيضاً فيه :

وأغنّ قد أبدى لنا من عوده   نغما أصح في القلوب وأمرضا
بيد إذا سخطت على أوتاره   نال الرفاق بسخطها عين الرضا

وقال في مليح مشبب :

يا نافخ الصور بل يا باعث الصور   من رقدة السكر لا من رقدة الحفر
قرنت حسنك بالاحسان فيه لنا   فكان فيك مراد السمع والبصر
ضمنت للصحب إقبال السرور كما   ضمنت نايك نأي الهم والفكر
صوت بسيط به أرواحنا انبسطت   إذ جئت في اللفظ والمعنى على قدر

وقال في مليح ساق :

وساق من بني الأتراك طفل   أَتِيهُ به على جمع الرفاق
أملكه قيادي وهو رقي   وأفديه بعيني وهو ساقي

وقال أيضاً في رسول مليح أتاه من عند من يحبه :

من كنت أنت رسوله   كان الجواب قبوله
يا طلعة الشمس الذي   جاء الصباح دليله
لم يبد وجهك قبلة   إلا ارتقبت وصوله
فلذاك إذ واجهتني   بلّ الفؤاد غليله

في مليح قارىء :

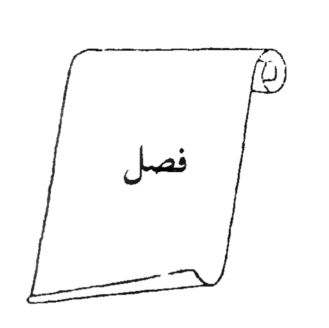
نفسي الفداء لشادن شاهدته   يوم الزيارة قارئاً في المصحف
فتن الأنام ببهجة وبلهجة   تسبي وتضني كل صب مدنف
فتلا مليا جل سورة يوسف   وجلا محيا مثل صورة يوسف

وقال آخر في مليح مكتمل العذار :

وكامل العارض قبلته   فصدني وأزورّ من قبلتي
وقال كم أنهاك عن مثل ذا   وأنت ما تفكر في لحيتي

وقال آخر في مليح حجام :

كلفت بحجام تحكم طرفه   فغدا على سفك الدماء يواطي
أضحى كثير الاشتطاط ولم تكن   منه اللحاظ كليلة المشراط



فصل في الألغاز :

في غزال :

اسم من قد هويته ظاهر في صروفه
فاذا زال ربعه زال باقي حروفه

في كوز فقاع :

ومحبوس بلا ذنب جناه له في السجن ثوب من رصاص
إذ أطلقته وثب ارتفاعا يقبل فاك من فرح الخلاص

في زر موزة :

مطية فارسها راجل تحمله وهو لها حامل
واقفة بالباب مزبولة لا تشرب الدهر ولا تأكل

وقال في طاحون :

ومسرعة في سيرها طول دهرها تراها مدى الأيام تمشي ولا تتعب
وفي سيرها ما تقطع الأكل ساعة وتأكل مع طول المدى وهي لا تشرب
وما قطعت في السير خمسة أذرع ولا ثلث ثمن من دراع ولا أقرب

في دواة :

ومرضعة أولادها بعد ذبحهم لها لبن ما لذ قط لشارب
وفي بطنها السكين والثدي رأسها وأولادها مدخورة للنوائب

في دواة أيضاً :

وما أم يجامعها بنوها وليس عليهم تجب الحدود
كأنهم إذا ولجوا حشاها أفاعي في أماكنها رقود

في قلم :

وأهيف مذبوح على صدر غيره يترجم عن ذي منطق وهو أبكم
تراه قصيرا كلما طال عمره ويضحى بليغا وهو لا يتكلم

وفيه أيضاً :

بصير بما يوحى إليه وماله | لسان ولا قلب ولا هو سامع
كأن ضمير القلب باح بسره | إليه إذا ما حركته الأصابع

وفيه أيضاً :

وأصفر عار أنحل السقم جسمه | يشتت شمل الخطب وهو جموع
حمى الجيش مفطوما كما كان تحتمي | به الأسد في الغابات وهو رضيع

وفيه أيضاً :

وذي نحول راكع ساجد | أعمى بصير دمعه جاري
ملازم الخمس لأوقاتها | مجتهد في طاعة الباري

في مرملة :

معشوقة لذوات العز قد صنعت | حزينة ما تراها قط تبتسم
كأنها من صروف الدهر خائفة | تبكي دماء على ما سطر القلم

في كتاب :

وذي أوجه لكنه غير بائح | بسرّ وذو الوجهين للسرّ يظهر
تناجيك بالأسرار أسرار وجهه | فتسمعها بالعين ما دمت تبصر

في سلطان حسن لأبن أبي حجلة :

ما اسم محبب للقلوب لأنه | حسن الحروف يجود بالإحسان
تصحيفه أمسى حبيباً كلما | صحفت أحرفه بحسن بيان
لو جاد لي يوماً برؤية وجهه | نلت المراد وعشت بالسلطان

في شبابة :

وما صفراء شاجية ولكن | تزينها النضارة والشباب
مكتبة وليس لها بنان | منقبة وليس لها نقاب
تصيح لها إذا قبلت فاها | أحاديث تلذ وتستطاب
ويحلو المدح والتشبيب فيها | وليست لاسعاد ولا الرباب

وفيها أيضاً :

ومقروحة الأجفان مثلي شجية | تناءت عن الأهلين أسقمها البعد
تزوّجها عشر وذاك محرم | ولا حرج كلا ولا وجب الحدّ
إذا ما وطئها القوم تصرخ صرخة | يلين إليها القلب لو أنه صلد

وفيها أيضاً :

منقبــة مهــما خلت مــع محبهــا يــزوّدها لثــما وينظرهــا شــزرا
وتصحيفهــا في كف حاملهــا فقــل إذا شئت في اليمنى وإن شئت في اليسرى

في دملج :

إلى الــنــســاء يــلــتــجــى وعــنــدهــن يــوجــد
الجــســم مــنــه فــضــة والــقــلــب مــنــه جــلــمــد

في خلخال :

ايــا عجبا من صابــر صــامت ولم يفه بكلام قط في ساعة الضــرب
أقــام ولم يبــرح مكــانــا ثــوى بــه على أنه أضحى يدور على الكعب

وفي شعر اللحية :

وذي عــدد كــالــرمــل ســـام محله جميــل عــلى كــل المــلاح لــه حق
يحــاذر من موسى ويــرهب باسمــه وفي قلب هارون له الهلك والمحق

في التين :

أي شــيء لــذ طــعــما نــاعــم الــلمس ولــين
كــيــف لا يــبــدو وضــوحــا وهــو في الــتــصــحــيــف بــين

في الموز :

مــا اسم لشــيء حســن شكــله تلقــاه عنــد النــاس مــوزونــا
تــراه مــعــدودا فــان زدتــه واوا ونــونــا صــار مــوزونــا

في حمزة :

من لي بمعتــدل القــوام مهفــهف أزرى بغصــن البــان لينــة قــدّه
في فيــه تصحيف اسمــه وبخــدّه وبقلب عــاشقــه لشــدّة صــدّه

وفيه أيضاً :

اسم الــذي أنــا أهــواه وأعشقــه وطــول دهــري أخشى من تجنيــه
تصحيفــه في فؤادي دائــماً أبــداً يبــدو وفي خــدّه أيضــا وفي فيــه

في ساقية :

وجــارية لــولا الحــوافــر مــا جــرت أشــاهدهــا تجري وليس لهــا رجــل
وتــرضــع أطفــالا ولا هي أمهم وليس لهــا ثــدي وليس لهــا بعــل

وفيها أيضاً :

وجـارية تبكي إذا الليـل جنها بلا ألم فيها ولا ضرب ضارب
عليها رجال شنقوا بعد حرقهم وما كان شنق القوم إلا بواجب

في زرّ وعروة :

ومـا أخت يجامعها أخوها وليس عليهما فيه جناح
ترى بجوازه الحكام طرّا وفي أعناقهم ذاك النكاح

في رواية :

وسوداء تشرب من رأسها وإن شئت تسقيك من فرد يد
ولون لها مثل لون أختها وثنتاهما واحد في العدد
وتحبل في الوقت هي وأختها وفي ساعة يضعان الولد

في الشطرنج :

يا ذا النهى ما اسم له حالة يحار فيها الذهن والفكر
له حروف خمسة إنما ثلاثة منها له شطر

في فيل :

أيها اسم تركيبه من ثلاث وهو ذو أربع تعالى الإله
حيوان والقلب منه نبات لم يكن عند جوعه يرعاه
فيك تصحيفه ولكن إذا ما رمت عكسا يكون لي ثلثاه

في بجع :

ما طائر في قلبه يلوح للناس عجب
منقاره في بطنه والعين منه في الذنب

في نار :

وما اسم ثلاثي به النفع والضرر له طلعة تغني عن الشمس والقمر
وليس له وجه ليس له قفا وليس له سمع وليس له بصر
يمدّ لسانا يختشي الرمح بأسه ويهزأ يوم الضرب بالصارم الذكر
يموت إذا ما قمت تسقيه عامدا ويأكل ما يلقى من النبت والشجر
فيا قاريء الأبيات دونك شرحها وإلا فنم عنها ونبه لها عمر

وفيها أيضاً :

وآكلة بغير فم وبطن لها الأشجار والحيوان قوت

إذا أطعمتهـا انتعشت وعـاشـت ... وإن أسـقـيـتـهـا مـاء تمـوت

في يد الهاون :

قـل لي فـما شيء يـرى نـاعـماً ... منتصب القـامـة طـول الـزمـان
أطـول مـن شـبـر لـه حـزّة ... مفيشـل الـرأس قـوي الجنـان
يـسـمـع في الـقـعـر لـه رنـة ... ويـظهـر الصفق بـأعـلى مكـان

وفيه أيضاً :

خـبـروني أيّ شـيء ... أوسـع مـا فـيـه فـمـه
وابـنـه في بـطـنـه ... يـرفـسـه ويـلـكـمـه
وقـد عـلا صـيـاحـه ... ولم يجـد مـن يـرحمـه

في خشخاش :

ومـا قبـة مبنيـة فـوق شـاهـق ... لهـا علم يحكي الملاحـة بـالـظرف
وأولادهـا في بطنهـا في جمـاعـة ... يكونون ألفا أو يزيـدون عن ألف
ويـأخذهـا الـطفـل الصغـير بجهله ... ويقلبهـا عسفـا على راحـة الكفّ

في كوز زير :

وذي أذن بـلا سـمـع ... لـه قـلـب بـلا لـبّ
إذا اسـتـولى عـلى صـبّ ... فـقـل مـا شئـت في الـصـبّ

في اسم عَلي :

اسـم الـذي أعـشـقـه ... أوّلـه في نـاظـره
إن فـاتـني أوّلـه ... فـإنّ لي في آخـره

في موسى للصفدي :

ومـا شـيء لـه حـدّ وخـدّ ... يـكـلـم مـن يـلامـسـه بـحـقـه
وكـلّ حـلقـه مـن تحـت رأسـي ... وهـذا الرأس صـارت تحتـه حلقـه

في حلب لأبن الفارض رحمه الله تعالى :

مـا بلدة بـالشـام قلب اسمهـا ... تصحيفـه أخـرى بـأرض العجم
وثـلثـه إن زال مـن قـلبـه ... وجـدتـه طـيـرا شجـي الـنـغـم

وقال في سمرقند :

ومـا اسم سـداسي إذا مـا لمحتـه ... تـرى فيـه أجـزاء تـذمّ وتشكـر

لـه ثلث يـأتي بـه المـوت فجـأة	وثلث مـع الكتاب يـطوى وينشـر
وثلث رعـاك الله يـا صـاحبي لـه	عـلى مـدد الأيـام نشـر معـطر
وفي نـصفـه لمـا تحـرّك بعضـه	حـديث شهيّ في الليـالي يـذكـر
وفي نصفـه الثـاني إذا مـا أعـدتـه	إلى النـار للتحليـل والعقـد سكـر
ففسر لنا ذا اللغز إن كنت ذا حجى	فليس عـلى ذي العقل لغـز معسر

وقال في كمون :

يـا أيهـا العـطار أعـرب لـنـا	عن اسم شيء قـلّ في سـومـك
تـراه بـالـعـين في يـقـظة	كـما تـرى بـالقلب في نـومـك

وقال في قالب الطوب :

ومـا آكـل في قعـدة ألف لقمـة	ولقمتـه أضعـاف أضعـاف وزنـه
إذا أنـزل المـأكـول جنبيـه لم يقم	سـوى لحظة أو لحظتين ببـطنـه

في العين :

وبـاسـطة بـلا عصب جنـاحـا	وتـسـبـق مـا يـطير ولا تـطير
إذا ألقمتهـا الحجـر اطمـأنـت	وتجـزع أن يبـاشـرهـا الحـريـر

ويكفي من ذلك ما أشرت إليه ، وما نبهت من هذا الفنّ عليه ، وقد مضى القول من الفنون السبعة على فنّ الشعر القريض ، وما فيه من الفنون المتقدّم ذكرها .

ولنذكر إن شاء الله تعالى بقية الفنون السبعة على وجه الاختصار . والفنون السبعة المذكورة عند الناس ، هي الشعر القريض ، والموشح ، والدوبيت ، والزجل ، والكان ، وكان ، والقوما ، ومنهم من جعل الحماق من السبعة ، وفي ذلك اختلاف وعند جميع المحققين أن هذه الفنون السبعة منها ثلاثة معربة أبداً ، لا يغتفر اللحن فيها ، وهي الشعر القريض ، والموشح والدوبيت ، ومنها ثلاثة ملحونة أبدا ، وهي الزجل والكان ، وكان ، والقوما . ومنها واحد وهو البرزخ بينهما يحتمل الإعراب واللحن وهي المواليا ، وقيل لا يكون البيت منه بعض ألفاظه معربة ، وبعضها ملحونة فإن هذا من أقبح العيوب التي لا تجوز وإنما يكون المعرب منه نوعاً بمفرده ، ويكون الملحون فيه ملحوناً لا يدخله الإعراب ، وقد أوضح قاعدة الجميع وأمثلتها صفي الدين أبو المحاسن الحلّي في ديوانه وسماه بالعاطل الحالي ، المرخص الغالي ، ولو بسطت المقال لاتسع المجال ، وكثر القال ، ولكن الاختصار يذهب الأوجال والحمد لله رب العالمين على كل حال .



في بيان الفن الثاني وهو الموشح

لأبن مبارك :

قد أنحل الجسم أسمر أكحل   وأوحل القلب فيه مذ حلّ

دور :

أميل له فلا يميل   يحول وعنه لا أحول
أقول إذا زادني النحول
أما حل عقد الصدود ينحل   ويرحل عن نجم المزحل

دور :

كم أبعدوكم أبيت مكمد   ويعمد بهجره لأفقد
وأجهد لارتصاد من قد   تحمل والحاسدون رحل
تمحل والوعد منه ما حل

دور :

متوّج بالحسن هذا الأبلج   مدبج عذاره البنفسج
مفلج وطرفه ذا الأدعج   مكحل وثغره منحل[1]
مخلخل بعنبر معجل

دور :

برغم من يستحل ظلمي   ويرمي بحربه لسلمي
وجسمي من التزام سقمي   منحل وقد غدا مرحل
فمن حلّ سفك دمي وما حل

دور :

قلاني واشتط ذا الفلاني   غزاني بطرفه اليماني
تراني أنشد لمن يراني   قد أنحل الجسم أسمر أكحل
وأوحل القلب فيه مذ حل

---

(١) الثغر المنحل : الناعم .

لأبن سناء الملك :

كللي يا سحب تيجان الربا بالحلى وإجعلي سوارك منعطف الجدول

دور :

يا سما فيك وفي الأرض نجوم وما كلما أخفيت نجما أظهرت أنجما

وهي ما تهطل إلا بالطلى والدما

فاهطلي على قطوف الكرم كي تمتلي وانقلي للدنّ طعم الشهد والقرنفل

دور :

تتقد كالكوكب الدريّ للمرتصد يعتقد فيها المجوسي بما يعتقد

فائتد يا ساقي الراح بها

واملي لي حتى تراني عنك في معزل قل لي فالراح كالعشق إن يزد يقتل

دور :

لا أليم في شرب صهبا وفي عشق ريم فالنعيم عيش جديد ومدام قديم

لا أهيم إلا بهذين فقم يا نديم

واجل لي من أكؤس صيرت من فوفل ألذّ لي من نكهة العنبر والمندل

دور :

خذهني واعطني كاسي مثل كأسك هني وأشقني على رضاب الفطن الملسن

والهني يبعض ما صيغ من الألسن

لو تلى مدح سناه مع رشا أكحل لذ لي على سنا الصهباء والسلسل

دور :

أزهرت ليلتنا بالوصل مذ أسفرت أصدرت بزورة المحبوب إذ بشرت

أخرت فقلت للظلماء مذ قصرت

طولي يا ليلة الوصل ولا تبخلي واسبلي سترك فالمحبوب في منزلي

دور :

من ظلم في دولة الحسن إذا ما حكم فالألم يجول في باطنه والندم

والقلم يكتب فيه عن لسان الأمم

من ولي في دولة الحسن ولم يعدل   يعـزى لألحـاظ الـرشـا الأكحـل

وله أيضاً :

تـرى هـل يشتفي منـك الغليـل   ويـشفـي من صـبـابتـه الـعليـل

دور :

لقـد أسرفت في هجـري وصـدي   بـلا سبب سـوى كلفي ووجـدي

وماذا في سلوّ عنك يجدي

خضـاب الوجـد ليس لـه نصـول   وأسيـاف الهـوى فيـنـا تصـول

دور :

لئـن شحيت عـني بـالسـلام   وطيفـك قـد جفـا لجفـا المنـام

فقد جادت بـأربعة سجـام

جفـون بالبكـا كـادت تحـول   خـد أسـف بـه الـنـحـول

دور :

لـقـد أرسلت في طـي الـنسـيم   حـديث هوى عن الـوجد القـديم

فعادت وهي عاطرة الشميم

تخـبـر أن ظـعـنهـم نـزول   بـدار لا يـلم لهـا نـزيـل

دور :

تـلقـتـه المـوالي والمـوالي   بـألحـاظ وزرق مـن نـصـال

وأعطاف وسمر من عـوالي

فكم بـطل هنـاك وكم قـتيـل   بـسيـف من لـواحـظه قـتيـل

وله أيضاً :

شـمس المـحـيـا أم الـقـمـر   أم بـارق الـشـغـر يـا بـشـر
أم الـبـهـا حـفـه الخـفـر   بـطرز خـديـك مـسـتـطر

سلسلة :

قم تباها بما تباها ولا تلاها

قفلة :

فـكـل أحـبـابـنـا حـضـروا   والـعـود يـشـجـيـك والـوتـر

الدور :

أفديك بالسمع والبصر يا أهيف وصله وطري
بدر بدا في دجى الشعر قد لذ في حبه سهري

سلسلة :

إذا تجلى وقد تحلى عليك يجلي

قفلة :

تحير في وصفه الفكر والعقل والسمع والنظر

الدور :

فهاك حدّث عن الطرب وعن سلاف ابنة العنب
إذا سقاها مع الضرب بدر بأفق الجمال ربي

سلسلة :

في ظل بان على المثاني من غير ثاني

قفلة :

إلا الندامى إذا سكروا والروض والماء والشجر

وقال رحمه الله تعالى :

وانسيم السحر هل لك خبر عن عريب همو بالمنحنى
فارقوني ولم أقض الوطر من لقاهم ولا نلت المنى
قلت يا قلب صبرا ما صبر والنبي ما الهوى إلا عنا[1]
ما كتمت الهوى إلا ظهر من شهود المدامع والضنى[2]

دور :

ليش تمنع وصالك يا حبيب عن محبك ولا يعشق سواك
راقب الله وارجع من قريب قبل يبلي جسمه في هواك
لست ألقى لدائي من طبيب غير رشفي حبيبي من لماك
لو رأى حالي العاذل عذر حينما ينظر جمالك والسنا

دور :

يا قمر فوق غصن من نقا أثخنتنا مطالك والصدود
يا رعى الله لويلات اللقا ليتها يا خلّ يوما لي تعود

---

(١) عنا : ذل وخضوع .

(٢) الضنى : السقم .

لـيلة الـسعـد مـا فيهـا شـقـا كيف تـشقـى وطـالعـهـا سعــود
صــفــوهــا لا يمــازجــه كــدر بـــالمـســرّات وأوقـــات الهـنـــا

غيره :

حمــلت مــذ ســارت الجـمــول وجــدا مضى العمـر وهــو بـاقي

دور :

ســاروا وســار الــفــؤاد لــكــن جــسمـي مقيم عــلى المســاكــن
وعني الحب صــار ظاعن
مــالي إلى وصــلـه وصــول لــو ســرت بـالـبـرق والـبــراق

دور :

وغــادة كــالــقــضــيــب قــدا والــورد والــيــاســمــين خــدا
كــأنها البــدر إذ تـبــدّى



في الفنّ الثالث وهو الدوبيت

لسيدي شرف الدين بن الفارض رحمه الله تعالى :

أهــوى قـمــرا لــه المعــاني رقّ من صبــح جبينه أضــاء الشـرق
أتــدري بـالله مـا يقـول البــرق مــا بــين ثـنـايـاه وبيـني فـرق

وقال أيضاً :

أهـوى رشـا كـل الأسى لي بعثـا مـذ عـاينـه تصبــري مـا لبثـا
نـاديت وقـد فكـرت في خلقتــه سبحـانك مـا خلقت هـذا عبثـا
وشــعــرهــا أســود طــويــل كــأنــه لــيــلة الــفــراق

دور :

هــونــا أتــتـنــا تمــيــل مــيــلا ســحــابــة كــالــســحــاب ذيــلا
فقلت شمس تــزور ليــلا

ومـا درى كـاشـح عـذول فـذاك مـن أعـجـب اتـفـاق

دور :

وسـدتهـا سـاعـدي لـسـعـدي وبـتّ أرعـى ريـاض وردي

وخمـر ريق كـذوب شهـد

لـو ذاقـهـا مـدنـف عـلـيـل لـعـاش والـروح في الـتـراقـي

دور :

لمـا رأتـني أذوب سـقـما ومـن ورد الـرضـاب أظـما

قـالت كلمت الخدود لثما

مـا يـشـتفي مـنـك ذا الغـلـيـل بـغـيـر نـومـي وشـيـل سـاقـي

وقال أيضاً :

عـرج بـطـويـلع فـلي ثم هـوى واذكـر خبـر الغـرام واسنـده إليّ

واقصص قصصي عليهم وابك عليّ قل مات ولم يحظ من الوصل بشيء

وقال أيضاً :

روحي لك يا زائراً في الليل فـدا يـا مؤنس وحدتي إذا الليـل هـدا

إذا كـان فراقنـا مـع الصبح بـدا لا أسفـر بعـد ذاك صبـح أبـدا

وقال آخر :

يـا شمس ضحى جبينه وضـاح سـاعـات وصـالـك كلهـا أفـراح

عشـاقك لـو فعلت مـا شئت بهم مـاتوا كمـدا وبالهوى مـا بـاحـوا

وقال آخر :

أهـواه مهفـهفـا ثـقيـل الـردف كـالبـدر يجـلّ حسنـة عن وصف

مـا أحس واو صدغه حـين بـدت يـا ربّ عسى تكون واو العـطف

وقال التلعفري :

قـلبي ذهبت لـبعـدكـم راحتـه مـا الصبـر على بعـادكم عـادتـه

بنتـم فـرثى لمـا بـه شـامتـه لا كـان فـراقكم ولا سـاعـتـه

وقال المنشد :

إحسـانك طـول الـدهـر لا أنسـاه لا أذكـر بعـد خـالقي إلا هــو

إن أبعـدك الـزمـان عني حسـدا مـولاي خـليفـتي عـليـك الله

وقال آخر :

إن جئت ربا الحمى ولاحت نجد فـاذكـر ولهي ومـا جنـاه البعـد
وقد كنت أقاسي الصدّ حتى رحلوا يـا ليتهم عـادوا وعـاد الـصـد



في الفنّ الرابع وهو الزجل

حمل للغباري :

قل لغزلان وادي مصر والشام يقصر وإذا النفار
لهم اجعـل حشـاشتي مـرعى وفؤادي قفـار
مصر والشام فيها ملاح أقمار بالمحاسن تسود

دور :

ذا أبيض وذا أحمر وذا مليح أسمر لو عيون نجل سود وذا غزال صار يفوق على الغزلان ويصيد الأسود
وذا غصن بان أهيف قوام قد وقدّ الأغصان جهار وذا بدر الكمال قد ظهر في الليل وذا شمس النهار
تذر بالله إيش قالت مليح الشام بعد ذاك الصدود.

دور :

قد سمينا بصحة الأبدان واعتـدال القدود وتخضب تفاحنا الأحمر فوق بيـاض الخدود
وأنتم يا عشاق لكم قلنا والحسود راح بنار أنتم التفـاح ومـا نقصـد منكم إلا الخيـار
وملاح مصر قالت إحنا أصحاب الوجوه الملاح.

دور :

والحلاوة وطيبة الأخـلاق في الخلائق مبـاح إحنا أقمار وإحنا بدور الليل وشموس الصباح
وفي الألفاظ والظرف والمعنى ليس لنا حدّ صار وورثنا الحسن من يوسف واكتسبنـا الفخار
حسن حبي الفرارجي فرحه بدر في السعد لاح.

دور :

فرخ ناجب خرج من القشرة فاق ملاح الملاح كلما أعمل على رضاه يفسد بجفاه الصلاح

ومن البيضة قد خرج نافر رد جفني بنار وجفاني وخد بياض جسمي خلطوا بالصفار
وقع الطل خط بالأبيض في اخضرار الطروس

دور :

قم يا ساقي على بساط زهري تحت ظلّ الغروس هاتها شمس راح شمول قرقف بكر عذرا عروس
عروس لها صفو النسيم ولطف اللمي وابتهاج الثمار قد جلوها في كأس زجاج أبيض فاكتسى باحمرار

خمر فيه سرّ لو جعل أشياف ردّ الأعمى بصير

دور :

أقطع القطف أسود يحاكي الليل شفق أحمر يصير يا ترى ذا السرّ في كرمه أو يكون في العصير
وترى النور دا عليه يلمح ذاك من إيش استنار وكذا الكأس يحاكي يا سمير من كساء جلنار
فهو عطار عندو شراب هندي وبراني جفاه.

دور :

كلّ من مص من لسانو يقو يلتقي فيه شفاه ورد خدو وحبتو سودا شبه خال في صفاه
جبل آس عارضو أسر قلبي والكبار والصغار في المحب غاروا على حسنو وكل من حبّ غار

دوّروني الملاح على كعبي ونصوا نصوص

دور :

بلا دعوى التفّ لفّ اليسير في هواهم خصوص وعليا صار نقشهم قاعد مثل نقش الفصوص
والبساط انطوى حين ما رأوا خلف له همه ولو اصطبار قمروني في عشق هذا القمر والمحبة قمار
لحبيبي ثغر من جوهر والشفيفات عقيق.

دور :

وعوارض ما ضرّهم عارض غير نبات الشقيق وخدود ورد من غير نمش ووصفنا عن حقيق
يحرس الورد خال عنبر تحت أهداب غزار في صفاء وجهو أنزه ظرفي عند خلع العذار
في رياض صفوف من الأزهار قابلتها صفوف.

دور :

كيف لا ترقص والنسيم بها موصول وورقها دفوف واعجب من النهر لو من الموج كفوف
والغيوم نقطت وحين جا النسيم طار أعلى مطار باختلاف الألحان سحر في الروض صاح على عودو طار
أشرف الخلق بين الإسلام والهدى والضلال

دور :

والشرائع والحق والباطل والحرام والحلال نبي من بين أصابعه تحقيق نبع الماء الزلال

ولو أن النبات جميعه أقلام والمداد والبحار والخلائق تكتب مديحو تاه كل كاتب وحار

أستاذ في الفن ما ينطاق ذاق عداه المنون

دور :

ما يعيبوا في الفن غير ناقص عقل زايد جنون شيخ مصدر لبيب قيم في جميع الفنون

باتضعو مع الصغار مرفوع فوق رؤوس الكبار وأهل الفنون تجري وما تلحق للغباري غبار

غيره لناصر الغيطي :

كنز روضي طالبوا يسعد يا خليع قم في دجى الأسحار تلتقي در الندى يرهج فوق فصوص غرائب النوار

كنز روضي نزهة الطالب جوهر وبين الندى يرهج .

دور :

ولجين الما بيتكسر يا خليع هيا تعا اتفرج بين عنابر تلتقي الخلع كل حد مع إلفو يدرج

وامش في عرض الرياض وارتع بين أغصان وما وأطيار فوق بساط زمرد وقضبان كل ورده أحكت لنا دينار

وترى الياسمين بحال فضه ضربت لأهل النزه صلبان .

دور :

والشحار ير لابسين أسود وقلانس كنهم رهبان وكذا الكتان وهو أصفر بعمائم زرق للناس بان

وانجلت بين القسوس في ألحان وعلينا دارها الخمار والقطيع الراهبي يحكي الشماس لابس الزنار

الفراق نار والوصال جنة والخلائق بعضهم يعشق .

دور :

دا حبيب قلبو عليه راضي ودا محبوبو عليه يشفق ولهيب الهجر يتوقد والوصال من الملاح يشتق

والمليح عندي وأنا مطمن وسط روضا زهرها معطار في نعيم حور ومع ولدان والعذول مسكين صبح في نار

وعمل في الروض سماع باكر بين الأغصان والزهور أنغام .

دور :

والنسيم شبب والغدير صفق والخليع من كثر وجدو هام والنخيل بأكمامها ترقص وأقبل الريحان بحال أعجام

والعصافير شيخهم زيق لو طريق بين الأزاهر طار والبلبل بالغنا يشجي فكأنو ناي أو مزمار

يا أحلا صحبت إنسان أنكر الصحبة وعاداني .

دور ناصر الغيطي :

وبغضني حين بقيت مسمى والإله بالفضل أسماني   في بلاد قبلي وأرض الشام يشكروني ساير أقراني

والشجيع الشاطر المذكور في جميع الأرض لو تذكار   والبلط يوقع لو تعلق ما يحصل شيء مع الشطار

جار حبيبي فقلت ذا الحجاج جا يجور أو يزيد.

لـو عدل عشت بـو مسرور ويكـون الرشيـد.

اقلع القلب في هوى العشاق والدموع في انحدار.

دور :

وبحور الهوى إذا هاجت ليس لها من قرار   كنت أحسب قلبي معو يس غرتو ذا البحار

صحت لما وحلت يا محبوب بحر عشقك يزيد   خفت فيه الغرق فقال أفرِح من غرق مات شهيد

أنا يوم في الغبوق باتفرج على شط الغدير

دور :

إذ رأيت على الشط واحد واقف شب صياد صغير   نـظرت مقلتي إلى منـظر مـا لحسنـو نـظيـر

قلت يا عين إن غرّك الصياد بالجمال المصيد   يوقعك في فخاخ شباك عشقو وكراكي يصيـد

من نحبو جديد حبيب قلبي يو صدفتو صدف

دور :

قلت لين يا قاسي لمن دمعو سال وحالو وقف   دار وقال لي ما الاسم بإنجيل قلت اسمي خلف

قال علينا يكتب ومن يسمع ذا الكلام يستفيد   في الحقيقة من لا يكون داود ما يلين لو الحديد

لك عوارض في الخدّ مرقومه ليس لها من مثال

دور :

وجفاك صار حماق وباب وصلك كان وكان يا غزال   وأنت دوبيت مـوشح القـاما يـا عزيـز الدلال

ولك ألفاظ صارت مواليا بالزجل والنشيد   وبشعـرك متـوّج القـامـا وأنت بيت القصيـد

عن محمـر شـرابنـا ضمنـا ونفـطر بـالثمـار

دور :

حين وجدنا سفرجل البستان يذهب الإصفرار   وغنـا الطيـر به الجمـاد يطرب وكـذا الجلنار

في ربيع حين أرى الثمر قاعد فيه تعاليق عقيد   حسب الروض النص من شعبان صار يقيد فيه وقيد

من لهيب مدمعي جرى الطوفان للهيب ما طفي

دور :

وأنا هوى الغباري في العشاق ما جرى لي كفي   حين عليـا بالصـدّ والهجران والبعـاد والجفـا

جار حبيبي فقلت ذا الحجاج جا يجرر أو يزيد　　لو عدل عشت بو مسرور ويكون الرشيد

حين سكنت القلب يا عيسى أمسى من بعدك الحزين فرحان
وتقدّس بك ولكنو ما جرت فيه يا ابن عين سلوان
عارضو لم عشق خذو غرت من وجدي بقيت حاير

دور :

جيت إلى طرفو وناديت لو أحرسو وكون عليه ناظر　　بعد حين نظرت في خدو النقي العارض وهو داير
وعليه قد دب بالسرقه جيت لطرفو قلت يا كسلان　　هكذا في عادة الحراس قال لي اعذرني أنا نعسان
بدر شعبان منبيتي لما في بروج السعد لاح نجمو

دور :

فقلت لو أقضي بفيض دمعي اطلقوا واجراه على رسمو　　قلت لو دام الله اطلاقك فالحزين قلبو المشوم قسمو
ايش قد أذنب حين قطرتو دايمغلط قول بالبهتان
قال لي صوم عن الوصال ناديت ليش أصوم يا بدر في شعبان
حين تدبج احمرار خدّو باخضرار العارض أسباني

دور :

ضحك فابيض واتبسم واسوداد شعري وأبكاني　　وحين أضحيت باصفرار لوني أشعث أغبر في هواه عاني
قال لي لونك قد صبح حايل وقد أبصر مدمعي طوفان　　ذقت تبريح الغرام ناديت في هواك ذقت الهوان ألوان
قلت لو حين عني تخلف لله كن لي يا رشيد مهدي

قد تلون دمعي من بعدك وتجري اليوم على خدي　　دار إلى إنسان مقلتي قال لو أنت ما عندك نظر بعدي
ما ترى ما قد جرى منك على الخدود قال يا فتان　　جرى الماء تحت من بعدك راقب الله فيّا يا إنسان
ذا الغزال النافر الأنسي للغزالة قد أعار النور

دور :

كسر قلبي كسير جفنو فاعجبوا للكاسر المكسور　　وبخمر الدن قد عربد وادّعى أني أنا المخمور
وابتسم لي عن نقا ثغرو وخطر والبشر فيّا بان　　صحت يا قلبي صفا وردك أنت ما بين النقا والبان

للصفي الحلّي :

أنا يا قبلة الكرام　　زينة المال والبنين
الله يعطيك فوق ذا المقام　　ويعيدك على السنين
أنت يا شاما بين الأنام　　الله يحرس شمايلك

دور :

ويزيدك بالدوام كي نعيش في فواضلك　　ما ينطوي ذكر الكرام لما تنشر فضايلك
ونهنيك لكلّ عام والخلائق تقول آمين　　قد بقينا بك في أمان الله يحييك طول السنين
ما رأينا تحت ذا الفلك من ندى كفك أعمّ

دور :

كل من جا ليسألك ليس تقول له سوى نعم　　أملك أنت وأو ملك ضاعف الله لك النعم
أنت في الجود كالغمام وسماك فوق ماردين　　درّ غيثك في اسنجام عمّ كل السائلين
لا عدمنا كل صوم ذا السحور فيك والهنا　　كل ليلة وكلّ يوم ينشر الذكر والثنا
الله يحييك من خير قوم بالغ القصد والمني.

دور :

حتى تقضي ذا الصيام ويليه باقي السنين　　وتعيش يا ذا الهمام بين ولدان وعين

غيره :

خال عبد الرحيم نقطة حبر من غير قاف　　ولام وميم ثغر معشوقي الفتان نون وعين وعين وميم
شال السعد فوق راسو عين ولام وميم　　دا لي قد هواه قلبي صاد وبا ويا
مليح ما رأيت مثله ظا وبا ويا　　ما أحلاه عندما يلبي قا ف وبا يا
ذقت من صدود حبي غين وصاد وصاد　　ولما رأيت صبري نون وقاف وصاد
النوم من جفون عيني خا ولام وصاد　　وأصبحت وجود فكري عين ودال وميم
قلي يوم لمن كان لي سين ونون ودال　　أعدل في الذي صبر ونون وفا ودال
ولا تهجر العشاق با وعين ودال　　ما أفلح قط يا ناس من ظا ولا وميم

جمل في الألغاز

المطلع في العين

وما طير أكلو الحجر يا كرام　　وجوهر حبابه يفسد أهل الصلاح
ولمس الحرير يؤذيه وريش النعام　　يصول بين جناحين سود كبيض الصفاح

دور في السراج :

وما بحر ما هو ما وفي الليل يزيد　　وينقص ولا هو خوض ولا هو غريق
وفيه شيء صفات حيه بلا وكر استفيد　　لها جوهره في فمها يا رفيق
بلا شك ينظره القريب والبعيد　　ويخفي ويظهر كلّ يوم عن حقيق
يغيب في النهار لكن إذا جا الظلام　　تشوفو يضيء بين الوجوه الصباح
ويسهر بحال عاشق حليف الغرام　　قتيل الهوى بين الربا والبطاح

دور في جوزة الكنافة :

وما هي التي تركب على ستين ألف ... وما مثل ذاك فسر لنا يا خبير
مليحة وقصيفة وتلبس ترف ... وتحمل وتوضع كل يوم في السعير
لها عشرة أعوان حالهم مختلف ... يشيلوا أودها الكبير والصغير
لها فحل يخدمها عليه السلام ... يحادي سراها في المجي والرواح
وأكثر تعبها في ليالي الصيام ... وذا اللغز قلته من غير مزاح

دور في الغربال :

وما هو الذي يا سعد كله عيون ... ولا يعتلم ضوء الظلام والضيا
وهو بين خشب مصلوب لتلك الفتون ... وميت وهو يحي أصول الحيا
إذا غاب عن أهله فرد يوم ما يهون ... ولا حدّ يعوّض موضعه لو عيا
وكم من رقيص في صنعته باهتمام ... مكابد عجاجه في المسا والصباح
ويحتاج له الناس كل يوم في الدوام ... على شان فنونه دول فنون ملاح

الفنّ الخامس في المواليا :

وله وزن واحد وأربع قوافي ، فمن تلك الأربعة واحد لصفي الدين الحلي :

يا طاعن الخيل والأبطال قد غارت ... والمخصب الربع والأمواه قد غارت
هو اطل السحب من كفيك قد غارت ... والشهب مذ شاهدت أضواك قد غارت

وقال أيضاً :

سل مقلتيك الكحال عمن سلاسلها ... ومرشفيك من رشف منها سلاسلها
وعارضيك التي مدّت سلاسلها ... كم من أسود ضواري في سلاسلها

وقال آخر :

قد أوعدونا الغضابا أننا نخلو ... في ظلّ بستان حافف بالتمر نخلو
والطلّ من فوقنا قد بلنا نخلو ... ومن كلام الأعادي قط ما نخلو

وقال آخر :

قسماً وبالله مفرّقها وجامعها ... كان افتتن في محاسنها وجامعها

ومن اثنين واثنين قال آخر :

قوم اسقني ما تبقى في أباريقو ... أما ترى الصبح قد لاحت أباريقو
مع شادن كلما دارت شفا ريقو ... سقى المداما وإن عزت سقى ريقو

وقال :

البارحة ريت بعيني في الدجاجيين　　اثنين مثل البدوره في الدجى جيين
ناديتهم فين كنتم يا خفاجيين　　قالوا لمن قد وعدنا في الخفاجيين

وقال :

قد زدت هجرك فجد بالعفو عن صبك　　وارحم خضوعي وخف في قتلتي ربك
يكفيك تهجر تكدر قلب من حبك　　ما ظنّ في الناس أقسى قلب من قلبك

غيره خمري عاطل :

كاس الطلا لطلاها طال لما سر　　وصار لما حوى حمراء مكلل در
مدام لو طعم كله حلو ما هو مر　　ما حلّ مملوك إلا صار ملك حر

غيره حربي :

لك يا إمام الوغى في كل موقع حرب　　سماع يطرب له السامع وينفي الكرب
هذا ولك كلما دارت رحاة الحرب　　سيوف تفني وكفك لا يملّ الضرب

الصفي الحلي في المدح :

أغنت وأقنت كفوفك في الندى والحرب　　في القرب والبعد في شرقها والغرب
وفيض جودك وسيفك بالعطا والضرب　　ذا الكرب فرج وهذا وقد رمى في الكرب

وقال أيضاً :

من قال جودة كفوفك والحيا مثلين　　أخطأ القياس وفي قوله جمع ضدّين
ما جدت إلا وثغرك مبتسم يا زين　　وذاك ما جاد إلا وهو باكي العين

وقال في التهنئة :

رأيت ذا العيد أوّل يوم في عصرك　　وريت ذا اليوم مع ذا الشهر في نصرك
وريت ذا الشهر مع ذا العام طوع أمرك　　والكلّ بالكلّ أوّل مبتدا عمرك

في المعاتبة :

عني تسليت واسياف الجفا سليت　　ومذ توليت عن طرق الوفا وليت
لما تمليت بالأعمال لي مليت　　إذا تخليت تعرف قدر من خليت

وقال أيضاً :

يا قلب إن غدروا فاغدر وإن خانوا　　فخن وإن هم قسوا فاقسا وإن لانوا
فلن وإن قربوا فاقرب وإن بانوا　　وكن لي معاهم كيفما كانوا

وقال آخر :

حلف عليا جكاره أن يقاطعني   وصدّ عني وأقسم ما يطاوعني
كم ذا يصدوكم يرجع يصدعني   إن كنت أنا المطلق لا يراجعني

وقال آخر هجواً :

قطع قفا ابن أخت خالك وابن أخوعمك   والحق يصفع أبو بنتك أو ابن أمك
وإن تكلمت تصفع بل يسيل دمك   وإن كنت تسكت يبول الكلب في فمك

وقال آخر :

إن ردت تسلم بطول الدهر ما تبرح   لا تيأسن ولا تقنط ولا تمرح
واستعمل الصبر لا تحزن ولا تفرج   وإن ضاق صدرك ففكر في ألم نشرح

وقال آخر :

إن كنت عاقل وربك بالتقى برّك   ادفع أذاك وهات خيرك ودع شرّك
وإن تعدّى حسودك والحسد ضرّك   ناديه يا أيها الإنسان ما غرّك

وقال آخر :

يا قلب إن خانك المحبوب لا تدبر   عنو وعن قصة السلوان لا تخبر
واستعمل الصبر دائم للعدا تقهر   فانّ والله ما خاب الذي يصبر

وقال آخر :

يا قلب إن خانك المحبوب لا تدبر   عنو وعن قصة السلوان لا تخبر
واستعمل الصبر دائم للعدا تقهر   فانّ والله ما خاب الذي يصبر

الفنّ السادس كان وكان :

وله وزن واحد وقافية واحدة ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الثاني فمنه هذه الوعظيات :

يا قاسي القلب مالك تسمع وما عندك خبر   ومن حرارة وعظي قد لانت الاحجار
أفنيت مالك وحالك في كلّ ما لا ينفعك   ليتك على ذي الحالة تقلع عن الاصرار
تحضر ولكن قلبك غائب وذهنك مشتغل   فكيف يا متخلف تحسب من الحضار
ويحك تنبه فتى وافهم مقالي واستمع   ففي المجالس محاسن تحجب عن الأبصار
يحصى دقائق فعلك وغمز لحظك يعلمه   وكيف تعزب عنه غوامض الأسرار
تلوت قولي ونصحي لمن تدبر واستمع   ما في النصيحة فضيحة كلا ولا إنكار

وقال أيضاً :

صرّح بذكر المحبة ما في المعمى فائدة وقل نعم أنا عاشق صادق بلا تمويه
ودع حديث العواذل ليس الخبر مثل النظر أنا عاشق لحبيب كلّ المعاني فيه
من أين للبدر حسن يحيكه أو شمس الضحى حاشا لذاك المحيا من مشبه يحيكه

إن غبت فهو انيسي وإن حضرت نديمي
وإن شربت مدامي فالكأس هو ساقيه
فمنه روحي وراحي إذا سكرت وراحتي
وفيه عزي وذلي بمهجتي أفديه
قولوا لمن يلحاني في الحب قصر واعتبر
هذا الذي قد عشقته قد حار وصفي فيه

الصفيّ الحلّي :

شاهدت في الليل طيري وقمت حتى أنصب شرك
ما كلّ صيد يحصل يفرح الصياد
طيري الذي كان إلفي لو ردت مثله ما حصل
وهو عليّ معوّد وأنا عليه معتاد
قد كان شرطي وخلقي لبرج غيري ما عرف
كأننا في الصحبة جينا على ميعاد
من قبلي ما أبصبص له يجيء ويدخل قصوري
وأنا أرصده في مطاره خائف عليه ينصاد

وقال آخر :

ما ذقت عمري جرعة أمر من طعم الهوى
الله يصبر قلبي على الذي يهواه
الناس تعلم مني حال الجلادة والقوى
وما أطيق التجلد على أليم جفاه
لي حبّ الخوخة لو لون وطعم وريحه
ما أكثر مغابن حبيبي وما أقلّ وفاه
أنا عرّفتو حظي وكلّ ما أحسن لو يسيء
لو كنت أعشق ظلي ما كنت قط أراه

وله في الفراقيات :

يا سادة هجروني وهم نزول بخاطري

لا أوحش الله منكم | في سائر الأوقات
أوحشتم العين مني | وأنسكم في خاطري
والقلب في نور منكم | والعين في ظلمات
قد انتهى الصبر مني | وما بقي فيا رمق
هيهات أني أحيا | من بعدكم هيهات
لم يبق غير خيالي | يلوح كالشبح الخفي
أعدّ بين الأحيا | وأنا مع الأموات
ودّعتموني وسرتم | والقلب يتبع ركبكم
ايش ضر لو كان جسمي | من جملة التبعات
ما مرّ ما ريت ضدّي | يقول لي من فرحته
هنا تشقّ المراير | وتسكب العبرات
لو لم أسلي روحي | وأرض نفسي بالمنى
لكان قلبي تقطع | من بعدكم حسرات
وقفت لما رحلتم | حيران بين أظعانكم
أخفض جناح المذلة | وأرفع الأصوات
ما أطول ليالي جفاكم | ساعاتها مثل السنة
وما أقصر أيام وصلي | كأنها ساعات
ما لي أرى حسناتي | بالسيئات تبدّلت
وسيئات الاعادي | اتبدّلت حسنات
خالفتموني وعمري | ما زلت أتبع أمركم
كذا العبيد تتابع | أوامر السادات
أسكت وأصبر عنكمو | ويفعل الله ما يشاء
والدهر من عاداته | يقلب الحالات

الفنّ السابع في القوما

قيل : أوّل من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر ، والصحيح أنه مخترع من قبله ، وكان الناصر يطرب له ، وكان لابن نقطة ولد صغير ماهر في نظم القوما ، فلما مات أبوه أراد أن يعرف الخليفة بموت أبيه ليجريه على مفروضه فتعذّر عليه ذلك فصبر إلى دخول شهر رمضان ثم أخذ أتباع والده من المسحرين ووقف أوّل ليلة من الشهر تحت الطيارة وغنى القوما بصوت رقيق فأصغى الخليفة إليه وطرب له فكان أوّل ما قاله قوله :

يا سيد السادات | لك بالكرم عادات
أنا بني ابن نقطة | تعيش أبو يا مات

فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار فاستحضره وخلع عليه وفرض له ضعفي ما كان لأبيه

ومنها للصفيّ الحلّي :

من كان يهوى البدور ووصل بيض الخدور
بالبيض والصفر يسخو وقد جلس في الصدور
من حب بيض الخدور ورام لزوم الصدور
يسمح وإلا فيبقى من بينهم مهدور
كم بين سجف الخدور من عاشق مصدور
يرعى الكواكب لعلو يرى جمال البدور
بين الحلل والخدور وجوه مثل البدور
إشراقها في المحاجر وغروبها في الصدور
قد كنت فوق الصدور بين الظبا والبدور
فصرت أحسد من أبصر خيامهم والخدور
نوائب المقدور مثل الكواكب تدور
من بعد طيب الخواطر يقضي بضيق الصدور
غيري يلازم الصدور وأنا عليكم أدور
وأصطلي الصد وأنا من بينهم مهدور

وقال أيضاً :

حال الهوى مخبور يريد جلد صبور
يصون سرّه وإلا يبقى من أهل القبور
من كان هواه مستور يحظى برفع الستور
ومن هتك سرّ حبو يمحي من الدستور
أبذل لبيض النحور أموال مثل البحور
إن أردت تملك وتظفر ولدانهم والحور
قم فابذل المدخور وفي العطا لا تجور
تريد هذي المحبه قلوب مثل الصخور
كم حول تلك الخدور من عاشق مغدور
مثل الدواليب تجري دموعها وتدور
من يركب المحذور هو في الهوى معذور
يظفر بحبه ويبلغ قصده ويوفي النذور
كن بالهوى مسرور ولا تبيت مغرور
واجعل تراب أعتابهم لأجفان عينك درور

طرق المحبة وعور | كم بينها مذعور
من فتك بيض السوالف | على سواد الشعور
كم عاشق مذعور | في حبّ بيض الثغور
يغار قلبه ولكن | مدامعه ما تغور
كم بينهم يعفور | كالظبي آنس نفور
من أهل بدر فديته | إيش ما عمل مغفور

ومن ذلك ما نظمه بعضهم ليسحر بعض الخلفاء في رمضان :

لا زال سعدك جديد | دائم وجدّك سعيد
ولا برحت مهنا | بكلّ صوم وعيد
في الدهر أنت الفريد | وفي صفاتك وحيد
والخلق شعر منقح | وأنت بيت القصيد
يا من جنابه شديد | ولطف رأيه سديد
ومن يلاقي الشدائد | بقلب مثل الحديد
لا زلت في تأييد | في الصوم والتعييد
ولا برحت مهنا | بكلّ عام جديد
نحن لذكرك نشيد | بقولنا والنشيد
ونبعث أوصاف مدحك | على خيول البريد
ظلك علينا مديد | ما فوق وجودك مزيد
وكم غمرت بفضلك | قريبنا والبعيد
لا زلت في كلّ عيد | تحظى بجد سعيد
عمرك طويل وقدرك | وافر وظلك مديد
لا زال قدرك مجيد | وظلّ جودك مديد
ولا برحت موقى | كما يوقى الوليد
ما زال برّك يزيد | على أقلّ العبيد
وما برح جود كفك | منا كحبل الوريد
لا زال برّك مزيد | دائم وبأسك شديد
ولا عدمنا نوالك | في صوم فطر وعيد

ومما قيل في فنّ الحماق :

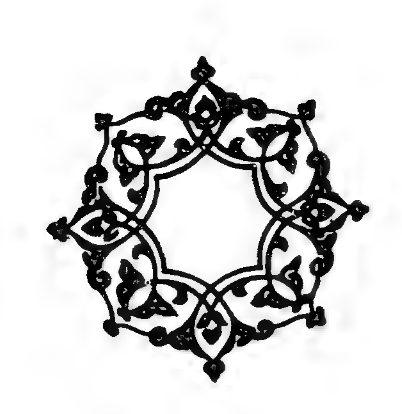
أنا ماعبوري الحمام | لجسمي لكي ينظف
إلا لدمع جاري | على الما ولا يوقف

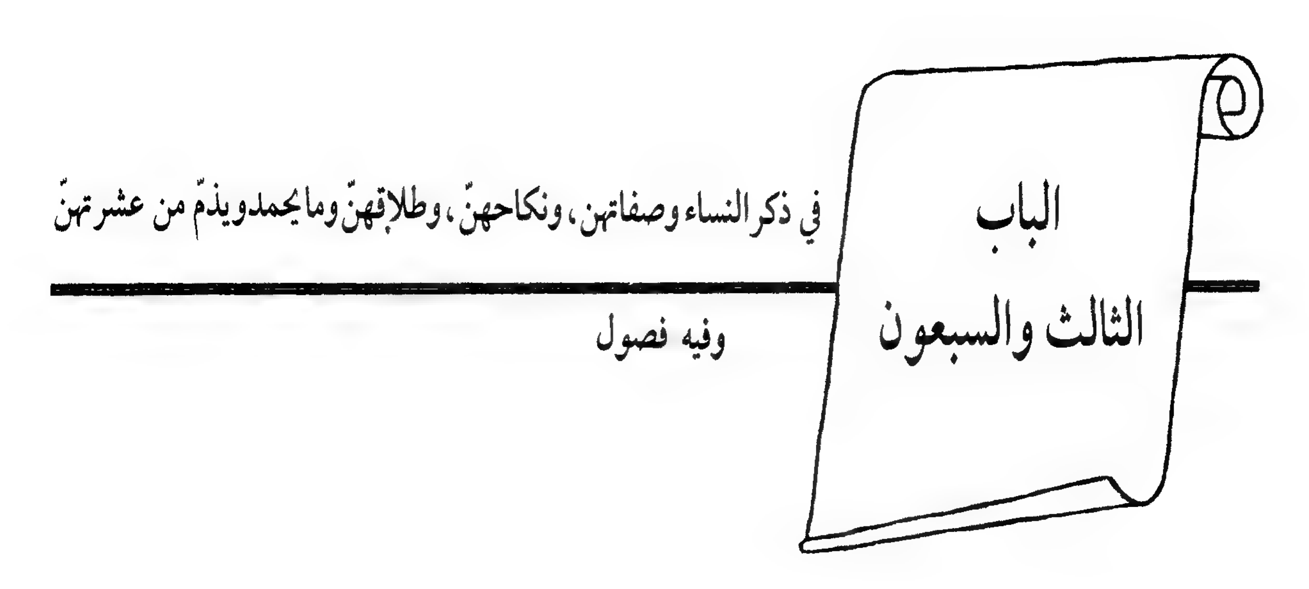
وديـك المـجـاري تجـري ودمـعـي يـسـابـقـهـا
تـقـول الأنـام في الحـمـام لـه أحـبـاب فـارقـهـا

وقال آخر :

تـرى كـلّ مـن تعشـقـو عـلـيـنـا يـقـيـم أنـفـه
فـاسـلاه واتـرك هـواه وسـدّ الـطـريـق خـلـفـه
وإن زاد عـلّي عـشـقـو وزاد بي الهـوى والـذل
تـركتـو ولـو كـان يحيى لأهـل الـقـبـور الـكـلّ

وقد انتهى الكلام فيما أشرت إليه من الفنون السبعة ، وذكرت منها ما تبتهج به النفوس ، وتقرّ به العيون ، واختصرت ذلك إلى الغاية ، فجاء بتوفيق الله في الحسن نهاية ، وأسأل الله التوفيق بمنه وكرمه والمزيد من برّه ونعمه وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .





الباب الثالث والسبعون

في ذكر النساء وصفاتهن، ونكاحهنّ، وطلاقهنّ وما يحمد ويذمّ من عشرتهنّ

وفيه فصول

الفصل الأول :
في النكاح وفضله والترغيب فيه

قال الله تعالى : ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع** ﴾[1] الآية وقال تعالى : ﴿ **وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **ولا جناح عليكم فيما عرّضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم** ﴾[3] الآية وقال رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوّج ، فانه أغضّ للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » وقال رسول الله ﷺ : « استوصوا بالنساء خيراً فانهن عوار عندكم » وقال رسول الله ﷺ : « تزوجوا الودود الولود فاني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » وقال ﷺ : « سوداء ولود ، خير من حسناء عقيم » وقال رسول الله ﷺ : « أحسن النساء بركة أحسنهنّ وجهاً ، وأرخصهنّ مهراً » فينبغي للرجل إذا أراد أن يتزوج أن يرغب في ذات الدين ، وأن يختار الشرف والحسب . كما حكي أن نوح بن مريم قاضي مرو أراد أن يزوج ابنته فاستشار جاراً له مجوسياً فقال سبحان الله : الناس يستفتونك وأنت تستفتيني . قال لا بد أن تشير علي . قال : إن رئيسنا كسرى كان يختار المال ، ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال ، والعرب كانت تختار الحسب والنسب ، ورئيسكم محمد كان يختار الدين . فانظر أنت بأيهم تقتدي . وقال رجل للحسن : إن لي ابنة فمن ترى أن أزوجها له . قال : زوجها ممن يتقي الله عز وجل ، فان أحبها أكرمها ، وأن أبغضها لم يظلمها . وقيل لرجل من الحكماء فلان يخطب فلانة فقال : أموسر من عقل ودين ؟ فقالوا نعم . قال فزوجوه إياها . ويستحبّ البكر لقوله ﷺ « عليكم بالأبكار فانهن أطيب أفواهاً وأنتق أرحاما »[4] وقالوا : أشهى المطي ما لم يركب ، وأحبّ اللآلىء ما لم يثقب ، وأنشد بعضهم :

---

(١) سورة النساء الآية ٣ .
(٢) سورة النور الآية ٣٢ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٥ .
(٤) انتق : تزوج امرأة كثيرة الاولاد.

قــالـوا نكحت صغيـرة فـأجبتهم   أشهى المـطي إلّي مـا لم يـركب
كم بـين حبـة لـؤلؤ مثقـوبـة   نـظمت وحبـة لـؤلؤ لم تـثقب

فأجابته امرأة :

إن المـطيـة لا يـلذ ركـوبهـا   حتى تـذلـل بـالـزمـام وتـركبـا
والـدرّ ليس بنـافـع أربـابـه   حتى يؤلـف بـالنـظام ويثقبـا

قال خالد بن صفوان :[1]

عليك إذا ما كنت في الناس ناكحا   بذات الثنايـا الغرّ والأعـين النجل

وقيل استشار رجل داود عليه السلام في التزويج ، فقال له : سل سليمان وأخبرني بجوابه فصادفه ابن سبع سنين وهو يلعب مع الصبيان راكبا قصبة فسأله . فقال : عليك بالذهب الأحمر ، أو الفضة البيضاء ، واحذر الفرس لا يضر بك ، فلم يفهم الرجل ذلك فقال له داود عليه الصلاة والسلام الذهب الأحمر البكر ، والفضة البيضاء الثيب الشابة ومن وراءهما كالفرس الجموح ، وقال رسول الله ﷺ : « تخيروا لنطفكم » وقال ﷺ : « انظر في أيّ شيء تضع ولدك ، فانّ العرق دساس » وقال عليه الصلاة والسلام « إياكم وخضراء الدمن ، قالوا وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال المرأة الحسناء في المنبت السوء » وأنشدوا فيه :

إذا تـزوجـت فـكـن حـاذقـا   واسـأل عن الغصن وعن منبتـه

وقال بعضهم :

وأوّل خبث المـاء خبث تـرابـه   وأوّل خبث القـوم خبث المناكـح

وعن عليّ رضي الله تعالى عنه ، عن النبيّ ﷺ : قال : « لا تسترضعوا الحمقاء ولا العمشاء فان اللبن يعدي » . وقيل إن جعفر بن سليمان بن عليّ عاب يوماً على أولاده وأنهم ليسوا كما يجب فقال له ولده أحمد بن جعفر : إنك عمدت إلى فاسقات مكة والمدينة ، واماء الحجاز فأوعيت فيهنّ نطفك ثم تريد أن ينجبن ، وإنما نحن كصاحبات الحجاز هلا فعلت في ولدك ما فعل أبوك فيك حين اختار لك عقيلة قومها فزوّجها منك ، وأنشدوا :

صفات من يستحب الشرع خطبتها   جلوتهـا لأولي الألبـاب مختصـرا
صـبـيــة ذات ديـن زانـه أدب   بكر ولود حكت في نفسهـا القمرا
غـريبة لم تكن من أهـل خـاطبهـا   تلك الصفات التي أجلو لمن نظرا
فيهـا أحاديث جـاءت وهي ثـابتـة   أحاط علما بها من في العلوم قـرا

---

(١) هو خالد بن صفوان بن عبدالله بن عمرو بن الاهتم التميمي المنقري . من فصحاء العرب المشهورين . كان يجالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك وله معهما اخبار . ولد ونشأ بالبصرة . وله كلمات سائرة . عاش إلى أن ادرك خلافة السفاح العباسي وحظي عنده ، واستحسن السفاح ادبه ٠توفي سنة (نحو ١٣٣هـ ـ نحو ٧٥٠ م).
أنظر : وفيات الاعيان (١ : ٢٤٣) ومعجم البلدان (٤ : ٣٨٧و ١٠٣٦) .

وقال آخر :

مـطيـات السـرور فـويق عشـر إلى العشـريـن ثم قـف المـطايـا
فان جزت المسير فسر قليلاً وبنت الاربعين من الرزايا

وقال آخر :

فـإيـاك إيـاك العجـوز ووطـأهـا فـما هـو إلا مثـل سم الأراقـم

واعلم أن العيش كله مقصور على الحليلة الصالحة ، والبلاء كله موكل بالقرينة السوء التي لا تسكن النفس إلى عشرتها ، ولا تقرّ العيون برؤ يتها . وفي حكمة سليمان بن داود عليهما السلام : المرأة العاقلة تعمر بيت زوجها ، والمرأة السفيهة تهدمه . وروي أنه لما حضر أبو طالب نكاح رسول الله ﷺ على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ومعه بنو هاشم ورؤ ساء مضر خطب فقال : الحمد لله الذي جعلنا من ذرّية إبراهيم ، وزرع إسماعيل وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسوّاس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً ، وحرماً آمناً ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخي من لا يوزن به رجل من قريش إلا رجح به براً وفضلاً وكرماً ومجداً ونبلاً ، فإن كان في المال قلّ فالمال ظل زائل ورزق حائل وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما عاجله وآجله من مالي كذا وكذا ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل . ولما خطب عمر بن حجر الكندي إلى عوف بن محلم الشيباني ابنته أم إياس وأجابه إلى ذلك أقبلت عليها أمها ليلة دخوله بها توصيها ، فكان مما أوصتها به أن قالت : أي بنية إنك مفارقة بيتك الذي منه خرجت ، وعشك الذي منه درجت إلى رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكوني له أمة ليكون لك عبداً ، واحفظي له خصالاً عشراً يكن لك ذخراً ، فأما الأولى والثانية فالرضا والقناعة ، وحسن السمع له والطاعة ، وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لمواقع عينيه وأنه فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم أنفه منك إلا أطيب الريح ، وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت طعامه ومنامه فإن شدة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة ، وأما السابعة والثامنة فالإحراز لما له والارعاء على حشمه وعياله ، وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصي له أمراً ولا تفشي له سراً ، فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره ، وإن أفشيت سرّه لم تأمني غدره ، وإياك ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً ، والكآبة لديه إذا كان فرحاً . فقبلت وصية أمها فأنجبت له الحارث بن عمرو جدّ امريء القيس الملك الشاعر. وعن الهيثم بن عدي الطائي عن الشعبي قال لقيني شريح فقال لي : يا شعبي عليك بنساء بني تميم فإني رأيت لهن عقولاً ، فقلت وما رأيت من عقولهن ؟ قال أقبلت من جنازة ظهراً فمررت بدورهنّ وإذا أنا بعجوز على باب دار وإلى جانبها جارية كأحسن ما رأيت من الجواري فعدلت إليها واستسقيت وما بي عطش .فقالت:لي أي الشراب أحبّ إليك؟ قلت ما تيسر قالت ويحك يا جارية ائتيه بلبن فاني أظنّ الرجل غريباً ، فقلت للعجوز ومن تكون هذه الجارية منك ؟ قالت هي زينب بنت جرير احدى نساء بني حنظلة قلت هي فارغة أم مشغولة ، قالت :بل فارغة قلت أتزوّجينيها؟ قالت إن كنت كفاء ولم تقل كفؤا ، وهي لغة بني تميم فتركتها ومضيت إلى منزل لأقيل فيها فامتنعت مني القائلة ، فلما صليت الظهر أخذت بيد إخواني من العرب الأشراف علقمة ، والأسود ، والمسيب ، ومضيت أريد عمها فاستقبلنا وقال ما شأنك أبا أمية قلت زينب ابنة أخيك . قال ما بها عنك رغبة فزوّجنيها ، فلما صارت في حبالي ندمت وقلت أي شيء صنعت بنساء بني تميم ،

وذكرت غلظ قلوبهن ، فقلت أطلقها ثم قلت ولكن أدخل بها فإن رأيت ما أحب وإلا كان ذلك . فلو شهدتني يا شعبي وقد أقبلت نساؤ ها يهدينها حتى أدخلت عليّ فقلت : إن من السنة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم ويصلي ركعتين ، ويسأل الله تعالى من خيرها ، ويتعوّذ من شرّها ، فتوضأت فإذا هي تتوضأ بوضوئي وصليت فإذا هي تصلي بصلاتي . فلما قضيت صلاتي أتتني جواريها فأخذن ثيابي وألبستني ملحفة قد صبغت بالزعفران . فلما خلا البيت دنوت منها فمددت يدي إلى ناصيتها . فقالت : على رسلك أبا أمية ، ثم قالت الحمد لله أحمده وأستعينه وأصلي على محمد وآله ، أما بعد فإني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك ، فبين لي ما تحب فآتيه ، وما تكره فأجتنبه فإنه قد كان لك منكح في قومك ، ولي في قومي مثل ذلك ، ولكن إذا قضى الله أمراً كان مفعولاً ، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله تعالى به ، إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولك ولجميع المسلمين . قال فأحوجتني والله يا شعبي إلى الخطبة في ذلك الموضع ، فقلت الحمد لله أحمده وأستعينه وأصلي على محمد وآله . أما بعد فإنك قلت كلاماً إن ثبتّ عليه يكن ذلك حظاً لي ، وإن تدعيه يكن حجة عليك أحب كذا وأكره كذا وما رأيت من حسنة فابثثيها وما رأيت من سيئة فاستريها . فقالت كيف محبتك لزيارة الأهل ؟ قلت ما أحب أن يملني أصهاري . قالت فمن تحب من جيرانك يدخل دارك آذن له ، ومن تكرهه أكرهه . قلت : بنو فلان قوم صالحون ، وبنو فلان قوم سوء . قال فبت معها يا شعبي بأنعم ليلة ومكثت معي حولاً لا أرى منها إلا ما أحب . فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء ، وإذا أنا بعجوز في الدار تأمر وتنهى قلت من هذه ؟ قالوا : فلانة أمّ حليلتك قلت مرحباً وأهلاً وسهلاً . فلما جلست أقبلت العجوز فقالت السلام عليك يا أبا أمية ، فقلت وعليك السلام ومرحباً بك وأهلاً . قالت كيف رأيت زوجتك ؟ قلت خير زوجة ، وأوفق قرينة ، لقد أدّبت فأحسنت الأدب ، وريضت فأحسنت الرياضة فجزاك الله خيراً . فقالت : يا أبا أمية إنّ المرأة لا يرى أسوأ حالاً منها في حالتين .قلت وما هما؟ قالت إذا ولدت غلاماً ، أو حظيت عند زوجها ، فإن رابك مريب فعليك بالسوط ، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم أشرّ من الروعاء المدللة . فقلت : والله لقد أدّبت فأحسنت الأدب ، وريضت فأحسنت الرياضة . قالت : كيف تحبّ أن يزورك أصهارك ؟ قلت : ما شاءوا ، فكانت تأتيني في رأس كل حول فتوصيني بتلك الوصية ، فمكثت معي يا شعبي عشرين سنة لم أعب عليها شيء . وكان لي جار من كندة يفزع امرأته ويضربها فقلت في ذلك :

رأيت رجـالاً يضـربـون نساءهم	فشلت يميني يـوم تضـرب زينب
أأضـربهـا من غـيـر ذنب أتت بـه	فما العدل مني ضرب من ليس يذنب
فـزينب شمس والنسـاء كـواكب	إذا طلعت لم يبـد منهنّ كـوكب

وخطب الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على ألفي ألف في السر ، وخمسمائة ألف في العلانية فأجابه إلى ذلك وحملها إلى العراق فأقامت عنده ثمانية أشهر ، فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الله بن مروان وافداً نزل بدمشق فأتاه الوليد بن عبد الملك على بغلة ومعه الناس فاستقبله ابن جعفر بالترحيب . فقال له الوليد لكنك أنت لا مرحبا بك ، ولا أهلا قال : مهلا يا ابن أخي فلست أهلا لهذه المقالة منك . قال : بلى والله وبشرّ منها ، قال وفيم ذلك ؟ قال لأنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب ، وسيدة نساء بني عبد مناف فعرّضتها لعبد ثقيف يتفخذها . قال : وفي هذا عتبت علي يا ابن أخي ؟ قال نعم ، فقال عبد الله : والله ما أحقّ الناس أن لا

يلومني في هذا إلا أنت وأبوك ، لأن من كان قبلكم من الولاة يصلون رحمي ويعرفون حقي ، وإنك وأباك منعتماني رفدكما حتى ركبني الدين . أما والله لو أن عبداً حبشياً مجدعاً أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوّجتها منه ، إنما فديت بها رقبتي ، فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه ومضى حتى دخل على عبد الملك . فقال مالك يا أبا العباس ؟ قال إنك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بني مناف ، فأدركت عبد الملك غيرة فكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل . قال ولم يكن يقطع الحجاج عنها رزقاً ولا كرامة ، يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا ، وما زال واصلاً لعبد الله بن جعفر حتى مات . وما كان يأتي عليه حول إلا وعنده عير مقبلة من عند الحجاج عليها أموال وكسوة وتحف . وحكي أن المغيرة بن شعبة لما ولي الكوفة سار إلى دير هند بنت النعمان وهي فيه عمياء مترهبة فاستأذن عليها فقالت من أنت ؟ قال المغيرة بن شعبة الثقفي. قالت ما حاجتك ؟ قال جئت خاطباً . قالت إنك لم تكن جئتني لجمال ولا مال ، ولكنك أردت أن تتشرف في محافل العرب فتقول تزوّجت بنت النعمان بن المنذر ، وإلا فأيّ خير في اجتماع عمياء وأعور . وكان عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما قد تزوّج عاتكة بنت عمرو بن نفيل وكانت من أجمل نساء قريش ، وكان عبد الرحمن من أحسن الناس وجهاً ، وأبرّهم بوالديه فلما دخل بها غلبت على عقله وأحبها حباً شديداً ، فثقل ذلك على أبيه فمرّ به أبو بكر يوماً وهو في غرفة له فقال يا بني : إني أرى هذه المرأة قد أذهلت رأيك ، وغلبت على عقلك فطلقها ، قال لست أقدر على ذلك . فقال أقسمت عليك إلا ما طلقتها ! فلم يقدر على مخالفة أبيه فطلقها فجزع عليها جزعاً شديداً وامتنع عن الطعام والشراب ، فقيل لأبي بكر أهلكت عبد الرحمن ؟ فمرّ به يوماً وعبد الرحمن لا يراه وهو مضطجع في الشمس ويقول هذه الأبيات :

فوالله لا أنساك ما ذرّ شارق ... وما ناح قمريّ الحمام المطوّق
فلم أر مثلي طلق اليوم مثلها ... ولا مثلها في غير شيء يطلق
لها خلق عفّ ودين ومحتد ... وخلق سويّ في الحياء ومنطق

فسمعه أبوه فرقّ له وقال له راجعها يا بنيّ فراجعها ، وأقامت عنده حتى قتل عنها يوم الطائف مع رسول الله ﷺ ، وأصابه سهم فقتله فجزعت عليه جزعاً شديداً وقالت ترثيه :

فآليت لا تنفكّ نفسي حزينة ... عليك ولا ينفكّ جلدي أغبرا
فتى طول عمري ما أرى مثله فتى ... أكرّ وأحمى في الهياج وأصبرا
إذا شرعت فيه الأسنة خاضها ... إلى القرن حتى يترك الرمح أحمرا(١)

ثم تزوّجها بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته ودعا الناس إلى وليمته فأتوه ، فلما فرغ من الطعام وخرج الناس قال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين ائذن لي في كلام عاتكة حتى أهنيها وأدعو لها بالبركة ، فذكر عمر ذلك لعاتكة فقالت : إن أبا الحسن فيه مزاح فائذن له يا أمير المؤمنين . فأذن له فرفع جانب الخدر فنظر إليها فإذا ما بدا من جسدها مضمخ بالخلوق فقال لها يا عاتكة ألست القائلة :

فآليت لا تنفكّ نفسي حزينة ... عليك ولا ينفكّ جلدي أغبرا

وقيل إنّ عمر لما قتل عنها جزعت عليه جزعاً شديداً ، وتزوّجت بعده الزبير بن العوّام وكان رجلاً غيوراً .

---

(١) شرعت الاسنة : حملت الرماح استعداداً للقتال .

وكانت تخرج إلى المسجد كعادتها مع أزواجها فشقّ ذلك عليه ، وكان يكره أن ينهاها عن الخروج إلى الصلاة ، لحديث رسول الله ﷺ : « ولا تمنعوا إماء الله مساجد الله » فعرض لها ليلة في ظهر المسجد وهي لا تعرفه فضرب بيده عجيزتها ثم انصرف . فقعدت بعد ذلك عن الخروج إلى المسجد . وكان يقول لها ألا تخرجين يا عاتكة ؟ فتقول : كنا نخرج إذ الناس ناس ، وما بهم من باس وأما الآن فلا ، ثم قتل عنها الزبير قتله عمرو بن جرموز بوادي السباع وهو نائم ثم تزوّجها بعده محمد بن أبي بكر فقتل عنها بمصر . فقالت : لا أتزوّج بعده أبداً ، إني لأحسبني أني لو تزّوجت جميع أهل الأرض لقتلوا عن آخرهم .وحكي عن الحارث بن عوف بن أبي حارثة أنه قال لخارجة بن سنان ، أترى أني أخطب إلى أحد فيردّني ؟ قال نعم . قال ومن هو ؟ قال أوس بن حارثة بن لام الطائي . قال اركب بنا إليه ، فركبنا إليه حتى أتينا أوس بن حارثة في بلاده فوجدناه في فناء منزله. فلما رأى الحارث بن عوف قال مرحبا بك يا حارث ، ثم قال ما جاء بك ؟ قال جئت خاطباً . قال : لست هناك فانصرف ولم يكلمه ، فدخل أوس على امرأته مغضباً . فقالت له : من الرجل الذي سلم عليك فلم تطل معه الوقوف ولم تكلمه ؟ فقال ذلك سيد العرب الحارث بن عوف فقالت فما لك لا تستنزله . قال : إنه استهجنني . قال : وكيف ؟ قال لأنه جاءني خاطبا . قالت ألست تزعم أنه سيد العرب ؟ قال نعم ، قالت إذا لم تزوّج سيد العرب في زمانه فمن تزوّج ؟ قال قد كان ذلك .قالت فتدارك ما كان منك ، قال فماذا ؟ قالت بأن تلحقه فترده قال وكيف ؟ وقد فرط مني إليه مافرط .قالت تقول له إنك لقيتني وأنا مغضب لأمر فلك المعذرة فيما فرط مني فارجع ولك عندي كل ما طلبت قال فركب في أثرهما . قال خارجة بن سنان فوالله إنا لنسير اذ حانت مني التفاتة فرأيته . فقلت للحارث وهو ما يكلمني هذا أوس في أثرنا فقال ما أصنع به. فلما رآنا لا نقف قال يا حارث أربع علي فوقفنا له وكلمه بذلك الكلام فرجع مسروراً . قال خارجة بن سنان فبلغني أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته ادعي لي فلانة أكبر بناته فأتته. فقال لها أي بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب جاءني خاطباً وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين : قالت لا تفعل . قال ولم ؟ . قالت لأن في خلقي رداءة وفي لساني حدة ، ولست بابنة عمه فيراعي رحمي ، ولا هو بجار لك في البلد فيستحي منك ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون عليّ بذلك مسبة . قال لها قومي بارك الله فيك . ثم دعا بنته الأخرى فقال لها مثل قوله لأختها . فأجابته بمثل جوابها . فقال لها قومي بارك الله فيك ، ثم دعا بالثالثة وكانت أصغرهنّ سناً . فقال لها مثل ما قال لأختيها فقالت له أنت وذاك . فقال لها إني عرضت ذلك على أختيك فأبتاه ولم يذكر لها مقالتهما . فقالت له والله إني الجميلة وجهاً ، الرفيعة خلقاً ، الحسنة رأياً ، فان طلقني فلا أخلف الله عليه ، فقال لها بارك الله فيك . ثم خرج إليه . فقال زوجتك يا حارث بابنتي هنيسة . قال : قد قبلت نكاحها وأمر أمها أن تهيئها له وتصلح شأنها ثم أمر ببيت فضرب له وأنزله إياه ، ثم بعثها إليه فلما دخلت عليه لبث هنيهة ثم خرج إليّ فقلت له : أفرغت من شأنك قال لا والله . قلت وكيف ذلك قال لما مددت يدي إليها قالت : مه، أعند أبي وإخوتي هذا ؟ والله لا يكون. ثم أمر بالرحلة فارتحلنا بها معنا وسرنا ما شاء الله . ثم قال لي تقدّم فتقدّمت فعدل عن الطريق فما لبث أن لحقني فقلت أفرغت من شأنك . قال لا والله . قلت ولم ؟ . قال قالت تفعل بي كما يفعل بالأمة السبية الأخيذة لا والله حتى تنحر الجزر والغنم ، وتدعو العرب ، وتعمل مثلك لمثلي . فقلت والله إني لأرى همة وعقلا ، فقال صدقت . قال وأرجو الله أن تكون المرأة النجيبة فوردنا إلى بلادنا فأحضر الإبل والغنم ونحر وأولم ثم دخل عليها وخرج إليّ ،فقلت أفرغت من شأنك قال لا والله . قلت ولم ذاك ؟ قال : دخلت عليها أريدها فقلت لها قد أحضرت من المال ما تريدين. قالت والله لقد ذكرت من الشرف بما

ليس فيك.قلت:ولِمَ ذاك قالت أتستفرغ لنكاح النساء ، والعرب يقتل بعضها بعضاً . وكان ذلك في أيام حرب قيس وذبيان . قلت فماذا تقولين . قالت أخرج إلى القوم فأصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ما تريد . فقلت والله إني لأرى عقلاً ورأياً سديداً . قال فاخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا بينهم بالصلح فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى ، ثم تؤخذ الدية فحملنا عنهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير فانصرفنا بأجمل ذكر ، ثم دخل عليها فقالت له أما الآن فنعم فأقامت عنده في ألذّ عيش وأطيبه وولدت له بنين وبنات . وكان من أمرهما ما كان والله أعلم بالصواب . وحكى الفضل أبو محمد الطيبي قال حدثنا بعض أصحابنا أن رجلاً من بني سعد مرت به جارية لأمية بن خالد بن عبد الله بن أسد ذات ظرف وجمال وكان شجاعاً فارساً فلما رآها قال طوبى لمن كان له امرأة مثلك ثم أتبعها رسولاً يسألها ، ألها زوج ويذكره لها ، وكان جميلا فقالت للرسول وما حرفته فأبلغه الرسول ذلك فقال ارجع إليها وقل لها :

وسائلة ما حرفتي قلت حرفتي — مقارعة الأبطال في كلّ شارق
إذا عرضت خيل لخيل رأيتني — أمام رعيل الخيل أحمي حقائقي[1]
أصبر نفسي حين لم أر صابرا — على ألم البيض الرقاق البوارق[2]

فلحقها الرسول فأنشدها ما قال . فقالت له : ارجع إليه وقل له أنت أسد ، فاطلب لك لبوة فلست من نسائك وأنشدته تقول :

ألا إنما أبغي جواداً بماله — كريما محياه كثير الصدائق
فتى همه مذ كان خود خريدة — يعانقها في الليل فوق النمارق[3]

وحدث يحيى بن عبد العزيز عن محمد بن الحكم عن الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه قال : تزوج رجل امرأة جديدة على امرأة قديمة فكانت جارية الجديدة تمر على بيت القديمة فتقول :

وما يستوي الرجلان رجل صحيحة — وأخرى رمى فيها الزمان فشلت

ثم تعود وتقول :

وما يستوي الثوبان ثوب به البلى — وثوب بأيدي البائعين جديد

فمرّت جارية القديمة على باب الجديدة يوما وقالت :

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى — ما الحبّ إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى — وحنينه أبدا لأول منزل

وقال عمرو بن العلاء وكان أعلم الناس بالنساء :

فان تسألوني بالنساء فانني — بصير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله — فليس له في ودّهنّ نصيب

---

(١) حقائقي : راياتي .

(٢) البوارق : السيوف .

(٣) خود خريدة : فتاة بكر . النمارق : الفراش .

وسئل المغيرة بن شعبة[1] عن صفة النساء فقال : بنات العم أحسن مواساة ، والغرائب أنجب ، وما ضرب رؤوس الأقران مثل ابن السوداء . وقال عبد الملك بن مروان من أراد أن يتخذ جارية للمتعة فليتخذها بربرية ، ومن أراد أن يتخذها للولد فليتخذها فارسية ، ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها رومية قال الشاعر :

لا تشتمنّ امرأ ممن يكون له ... أمّ من الروم أو سوداء عجماء
فإنما أمهات القوم أوعية ... مستودعات وللأنساب آباء

وقال الأصمعي : أتاني رجل من قريش يستشيرني في امرأة يتزوجها فقلت : يا ابن أخي أقصيرة النسب أم طويلته فلم يفهم عني ، فقلت يا ابن أخي أما القصيرة النسب فالتي إذا ذكرت أباها اكتفت به ، والطويلة النسب فهي التي لا تعرف حتى تطيل في نسبها فإياك أن تقع مع قوم قد أصابوا كثيراً من الدنيا مع دناءة فيهم فتضيع نسبك فيهم . وخرج رجل من أهل الكوفة في غزاة فكسب جارية وفرسا وكان مملكا على ابنة عمه فكتب إليها يعيرها ويقول :

ألا بلغوا أم البنين بأننا ... غنينا وأغنتنا الغطارفة النجد
يعيد مناط المنكبين إذا جرى ... وبيضاء كالتمثال زينها العقد
فهذا لأيام العدو وهذه ... لحاجة نفسي حين ينصرف الجند

فلما ورد عليها كتابه وقرأته قالت : يا غلام هات الدواة وكتبت جوابه تقول :

ألا فأقرّه مني السلام وقل له ... غنينا وأغنتنا غطارفة المرد
إذا شئت أغناني غلام مزجل ... ونازعته في ماء معتصر الورد
وإن شاء منهم ناشيء مد كفه ... إلى عكَنٍ ملساء أو كفل نهد[2]
فما كنتم تقضون حاجة أهلكم ... شهودا فتقضوها على النأي والبعد
فعجل إلينا بالسراح فانه ... منانا ولا ندعو لك الله بالردّ
فلا قفل الجند الذي أنت فيهم ... وزادك رب الناس بعدا على بعد

فلما ورد عليه كتابها لم يزد على أن ركب الفرس وأردف الجارية خلفه ولحق بابنة عمه فكان أوّل شيء بدأها به بعد السلام أن قال لها : بالله عليك هل كنت فاعلة ذلك ؟ فقالت له الله في قلبي أعظم وأجل ، وأنت في عيني أذل وأحقر من أن أغصي الله فيك ، فكيف ذقت طعم الغيرة ، فوهب لها الجارية وانصرف إلى الغزاة ، والله تعالى أعلم بالصواب .

---

(١) هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي ـ ابو عبد الله ـ أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم . صحابي . يقال له « مغيرة الرأي » ولد في الطائف (بالحجاز) ولما ظهر الاسلام تردد في قبوله إلى أن كانت سنة (٥ هـ) فأسلم ، وشهد الحديبية واليمامة ، وفتوح الشام . توفي سنة (٥٠هـ ـ ٦٧٠ م).
أنظر : الاصابة (ت ٨١٨١). وأسد الغابة (٤ : ٤٠٦).

(٢) العكن : ما تثنى من لحم البطن .



في صفات النساء المحمودة

كتب الحجاج إلى الحكم بن أيوب أن اخطب لعبد الملك بن مروان امرأة جميلة من بعيد ، مليحة من قريب ، شريفة في قومها ، ذليلة في نفسها ، مؤاتية لبعلها . فكتب إليه قد أصبتها لولا عظم ثدييها ، فكتب إليه : لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم ثدياها فتدفىء الضجيع وتروي الرضيع . وقال عبد الملك بن مروان لرجل من غطفان : صف لي أحسن النساء قال خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين ردماء الكعبين ، ناعمة الساقين . ضخماء الركبتين ، لفاء الفخذين ، ضخمة الذراعين ، رخصة الكفين ، ناهدة الثديين ، حمراء الخدين ، كحلاء العينين ، زجاء الحاجبين ، لمياء الشفتين ، بلجاء الجبين ، شماء العرنين ، شنباء الثغر ، محلولكة الشعر ، غيداء العنق ، مكسرة البطن ، فقال ويحك وأين توجد هذه ؟ قال تجدها في خالص العرب ، وفي خالص فارس . وقال حكيم : عليكم من تربت في النعيم ثم أصابتها فاقة فأثر فيها الغنى وأدبها الفقر . وقال رجل لخاطب ابغ لي امرأة لا تؤنس جاراً ، ولا توطن دارا ، يعني لا تدخل على الجيران ، ولا تدخل الجيران عليها . وفي مثل هذه قال الشاعر :

هيفاء فيها إذا استقبلتها صلف ... عيطاء غامضة الكعبين معطار
خود من الخفرات البيض لم يرها ... بساحة الدار لا بعل ولا جار

وقال الأعشى :

لم تمش ميلا ولم تركب على جمل ... ولم تر الشمس إلا دونها الكلل

وكانت امرأة عمران بن حطان من أجمل الناس وجهاً ، وكان هو من أقبح الناس وجهاً فقال لها يوماً أنا وإياك في الجنة إن شاء الله تعالىٰ ، فقالت له وكيف ذلك ، فقال لأني أعطيت مثلك فشكرت وأعطيت مثلي فصبرت ، والصابر والشاكر في الجنة . وقال بعضهم : رأيت في طريق مكة أعرابية ما رأيت أحسن منها وجهاً ، فقعدت أنظر إليها وأتعجب من جمالها ، فجاء شيخ قصير فأخذ بردائها وسار بها ومضى ، فلقيتها مرة أخرى فقلت لها من هذا الشيخ ؟ قالت زوجي ، قلت كيف يرضى مثلك بمثله ، فأنشدت :

أيا عجبا للخود يجري وشاحها ... تزف إلى شيخ بأقبح تمثال
دعاني إليه أنه ذو قرابة ... يعزّ علينا من بني العم والخال

وسمع بعضهم قائلاً يقول شعراً :

ومن لا يرد مدحي فان مدائحي ... توافق عند الأكرمين توامي

توافق عند المشترى الحمد بالندى　　نفاق بنات الحرث بن هشام

فقال يا ابن أخي ما بلغ من نفاق بنات الحارث بن هشام. قال كنّ من أجمل الناس وجوهاً ، وكان أبوهنّ إذا زوّجهنّ يسوقهنّ ومهورهنّ إلى بعولتهنّ ، فقال يا ابن أخي لو فعل هذا إبليس ببناته لتنافست فيهنّ الملائكة المقرّبون . وقال عبد الملك لأبن أبي الرقاع : كيف علمك بالنساء قال أنا والله أعلم الناس بهنّ وجعل يقول :

قضاعية الكعبين كندية الحشا　　خزاعية الأطراف طائية الفم

لها حكم لقمان ، وصورة يوسف　　ومنطق داود وعفة مريم

وقالوا الوجه الحسن أحمر وقد تضرب فيه الصفرة مع طول المكث في الكن ، والتضمخ بالطيب ، وقالوا إن الوجه الرقيق البشرة الصافي الأديم إذا خجل يحمر ، وإذا فرق يصفر ، ومنه قولهم ديباج الوجه يريدون تلونه من رقته . قال علي بن زيد في وصفه :

حمرة خلط صفرة في بياض　　مثل ما حاك حائك ديباجا

وقال علي بن عبد ربه :

بيضاء يحمر خدّها إذا خجلت　　كما جرى ذهب في صفحتي ورق

وقالوا ان الجارية الحسناء تتلوّن بتلوّن الشمس ، فهي بالضحى بيضاء ، وبالعشيّ صفراء فقال ذو الرمة :

بيضاء صفراء قد تنازعها　　لونان من فضة ومن ذهب

قالوا : ليس المرأة الجميلة التي تأخذ ببصرك جملة على بعد ، فاذا دنت منك لم تكن كذلك ، بل الجميلة التي كلما كررت بصرك فيها زادتك حسنا . وقالوا : إن أردت أن ينجب ولدك فأغضبها ثم قع عليها . قال الشاعر :

ممن حملن به وهنّ عواقد　　حبك النطاق فعاش غير مهبل

حملت به في ليلة مزؤودة　　كرها وعقد نطاقها لم يحلل





في صفة المرأة السوء نعوذ بالله تعالى منها

في حكمة داود عليه السلام : إن المرأة السوء مثل شرك الصياد لا ينجو منها إلا من رضي الله تعالى عنه ، وقيل : المرأة السوء غلّ يلقيه الله تعالى في عنق من يشاء من عباده . وقيل لأعرابيّ كان ذا تجربة للنساء : صف لنا شرّ النساء ، فقال شرهن النحيفة الجسم ، القليلة اللحم ، المحياض الممراض ، المصفرة الميشومة ، العسرة المبشومة ، السلطة البطرة ، النفرة ، السريعة الوثبة ، كأن لسانها حربة ، تضحك من غير عجب ، وتبكي من غير سبب ، وتدعو على زوجها بالحرب ، أنف في السماء ، واست في الماء ، عرقوبها حديد ، منتفخة الوريد ، كلامها وعيد ، وصوتها شديد ، تدفن الحسنات وتفشي السيئات ، تعين الزمان على بعلها ، ولا تعين بعلها على الزمان ، ليس في قلبها عليه رأفة ، ولا عليها منه مخافة ، ان دخل خرجت ، وإن خرج دخلت ، وإن ضحك بكت ، وإن بكى ضحكت ، كثيرة الدعاء ، قليلة الإرعاء ، تأكل لما ، وتوسع ذما ، ضيقة الباع ، مهتوكة القناع ، صبيها مهزول ، وبيتها مزبول ، إذا حدّثت تشير بالأصابع وتبكي في المجامع ، بادية من حجابها ، نباحة عند بابها ، تبكي وهي ظالمة ، وتشهد وهي غائبة ، قد دلى لسانها بالزور ، وسال دمعها بالفجور ، ابتلاها الله بالويل والثبور وعظائم الأمور . ويقال : إن المرأة إذا كانت مبغضة لزوجها فانّ علامة ذلك أن تكون عند قربها منه مرتدة الطرف عنه كأنها تنظر إلى إنسان غيره من ورائه ، وإن كانت محبة له لا تقلع عن النظر إليه . قال بعضهم :

لقد كنت محتاجا إلى موت زوجتي ولكن قـرين السـوء بـاق معمـر
فيا ليتها صـارت إلى القبر عـاجلاً وعـذبهـا فيـه نكـير ومنكـر

وقال زيد بن عمير :

أعـاتبهـا حتى إذا قلت أقلعت أبى الله إلا خـزيهـا فـتـعـود
فان طمثت قادت وإن طهرت زنت فـهـاتيـك تـزني دائـما وتقـود

وقال داود عليه الصلاة والسلام : المرأة السوء على بعلها كالحمل الثقيل على الشيخ الكبير ، والمرأة الصالحة كالتاج المرصع بالذهب كلما رآها قرّت عينه برؤيتها ، والله أعلم .



في مكر النساء وغدرهن وذمهنّ ومخالفتهنّ

في حكمة داود عليه الصلاة والسلام : وجدت في الرجال واحداً في ألف ، ولم أجد واحدة في جميع النساء . وقيل إن عيسى عليه الصلاة والسلام لقي إبليس وهو يسوق أربعة أحمرة عليها أحمال فسأله فقال : أحمل تجارة وأطلب مشترين ، فقال ما أحدها ؟ قال الجور ، قال من يشتريه ؟ قال السلاطين ، قال فما الثاني ، قال الحسد ، قال فمن يشتريه ، قال العلماء ، قال فما الثالث ؟ قال الخيانة ، قال فمن يشتريها ، قال التجار ، قال فما الرابع ، قال الكيد ، قال فمن يشتريه ، قال النساء . وقال حكيم : النساء شرّ كلهنّ ، وشرّ ما فيهنّ قلة الاستغناء عنهنّ . وقالت الحكماء : لا تثق بامرأة ولا تغترّ بمال وإن كثر . وقيل: النساء حبائل الشيطان . قال الشاعر :

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن	جزوعا إذا بانت فسوف تبين
وخنها وإن كانت تفي لك إنها	على قدم الأيام سوف تخون
وإن هي أعطتك الليان فانها	لغيرك من طلابها ستلين
وإن حلفت أن ليس تنقض عهدها	فليس لمخضوب البنان يمين
وإن سكبت يوم الفراق دموعها	فليس لعمر الله ذاك يقين

وقال ابن بشار :

رأيت مواعيد النساء كأنها	سراب لمرتاد المناهل حافل
ومنتظر الموعود منهنّ كالذي	يؤمل يوما أن تلين الجنادل

وقال بعض الحكماء : لم تنه المرأة عن شيء قط إلا فعلته . وقال الغنوي :

إنّ النساء متى ينهين عن خلق	فانه واقع لا بد مفعول

وقال النخعي : من اقتراب الساعة طاعة النساء . ويقال : من أطاع عرسه فقد اضاع نفسه . وقال عليّ رضي الله تعالى عنه : إياك ومشاورة النساء فان رأيهن إلى أفن ، وعزمهن إلى وهن ، اكفف أبصارهن بالحجاب فان شدة الحجاب خير لهنّ من الارتياب ، وليس خروجهنّ بأضر من دخول من لا يوثق به عليهن ، فان استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل . قال السمعاني :

لا تأمننّ على النساء ولو أخا	ما في الرجال على النساء أمين
إنّ الأمين وإن تحفظ جهده	لا بدّ أن بنظرة سيخون

وقال غيره :

لا تركننّ إلى النساء ولا تثق بعهودهنّ
فرضاؤهنّ جميعهن معلق بفروجهن

وقال عليّ رضي الله تعالى عنه : لا تطلعوا النساء على حال ولا تأمنوهن على مال ، ولا تذروهن إلا لتدبير العيال ، إن تركن وما يردن أوردن المهالك وأفسدن الممالك ، ينسين الخير ، ويحفظن الشرّ ، يتهافتن في البهتان ، ويتمادين في الطغيان . وقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : ذلّ من أسند أمره إلى المرأة . وقيل إنّ صياداً أتى أبرويز بسمكة فأعجبه حسنها وسمنها فأمر له بأربعة آلاف درهم فخطأته سيرين زوجته فقال لها ماذا أفعل ؟ فقالت له إذا جاءك فقل له أذكراً كانت أم أنثى ؟ فإن قال لك ذكر فاطلب منه الأنثى ، وإن قال لك أنثى ، فاطلب منه الذكر ، فلما أتاه سأله فقال كانت أنثى . فقال ائتني بذكرها . فقال عمر الله الملك كانت بكراً لم تتزوّج ، فقال زه ، وأمر له بثمانية آلاف درهم . وقال اكتبوا في الحكمة : الغدر ومطاوعة النساء يؤديّان إلى الغرم الثقيل . وقال حكيم : اعص النساء وهواك وافعل ما شئت . وقال عمر رضي الله تعالى عنه : أكثروا لهنّ من قول لا ، فإنّ نعم تغريهنّ على المسألة . وقال : استعيذوا بالله من شرار النساء ، وكونوا من خيارهنّ على حذر .

ومما قيل في الباءة : ذكر الجماع عند الإمام مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه قال : هو نور وجهك ، ومخّ ساقك ، فأقلل منه أو أكثر . وقال معاوية رضي الله تعالى عنه : ما رأيت نهما في النساء إلا عرفت ذلك في وجهه . وخلا تمام بجارية له فعجز عنها فقال ما أوسع حرك . فأنشأت تقول :

أنت الفداء لمن قد كان يملؤه ويشتكي الضيق منه حين يلقاه

وقال آخر :

شفاء الحبّ تقبيل ولمس وسحب بالبطون على البطون
ورهز تذرف العينان منه وأخذ بالمناكب والقرون

وقالت امرأة من أهل الكوفة : دخلت على عائشة بنت طلحة فسألت عنها فقيل هي مع زوجها في القيطون فسمعت شهيقاً وشخيراً لم أسمع مثله . ثم خرجت إليّ وجبينها يتصبب عرقاً ، فقلت لها ما ظننت حرّة تفعل هذا بنفسها ! فقالت إن الخيل تشرب بالصفير . وعاتبت امرأة زوجها على قلة إتيانها فأجابها يقول :

أنا شيخ ولي امرأة عجوز تراودني على ما لا يجوز
وقالت رقّ ايرك مذ كبرنا فقلت بلى قد اتسع القفيز[1]

وكان لرجل امرأة تخاصمه ، وكلما خاصمته قام إليها فواقعها فقالت ويحك كلما تخاصمني تأتيني بشفيع لا أقدر على ردّه . وأتى رجل إلى علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وقال : إن لي امرأة كلما غشيتها تقول قتلتني ، فقال اقتلها بهذه القتلة وعليّ إثمها . وقالوا : من قلّ جماعه فهو أصحّ بدنا وأنقى جلداً وأطول عمراً ، ويعتبر ذلك بذكور الحيوان وذلك أنه ليس في الحيوان أطول أعماراً من البغال ، ولا أقصر أعماراً من العصافير وهي أكثرها سفاداً ، والله تعالى أعلم بالصواب .

---

(١) القفيز : الفرج .



في الطلاق وما جاء فيه

عن عبد الرحمن بن محمد ابن أخي الأصمعي قال : قال عمي للرشيد في بعض حديثه يا أمير المؤمنين بلغني أن رجلاً من العرب طلق في يوم واحد خمس نسوة ،قال وكيف ذلك ؟ وإنما لا يجوز للرجل غير أربعة . قال يا أمير المؤمنين كان متزوّجاً بأربعة فدخل عليهنّ يوما فوجدهنّ متنازعات وكان شريراً ، فقال إلى متى هذا النزاع ما أظن هذا إلا من قبلك يا فلانة اذهبي فأنت طالق . فقالت له صاحبتها عجلت عليها بالطلاق ، ولو أدّبتها بغير ذلك لكان أصلح ، فقال لها وأنت أيضاً طالق . فقالت له الثالثة قبحك الله فوالله لقد كانتا إليك محسنتين . فقال لها وأنت أيضاً أيتها المعدّدة أياديها طالق . فقالت الرابعة وكانت هلالية : ضاق صدرك إلا أن تؤدّب نساءك بالطلاق فقال لها وأنت طالق أيضاً . فسمعته جارة له فأشرفت عليه وقالت له والله ما شهدت العرب عليك ولا على قومك بالضعف إلا لما بلوه منكم ، ووجدوه فيكم أبيت إلا طلاق نسائك في ساعة واحدة . فقال لها وأنت أيتها المتكلمة فيما لا يعنيك طالق ، إن أجازني بعلك . فأجابه زوجها قد أجزت لك ذلك فعجب الرشيد من ذلك . وطلق رجل امرأته فلما أرادت الارتحال قال لها اسمعي وليسمع من حضر إني والله اعتمدتك برغبة ، وعاشرتك بمحبة ، ولم أجد منك زلة ، ولم يدخلني عنك ملة ، ولكن القضاء كان غالباً . فقالت المرأة جزيت من صاحب ومصحوب خيراً ، فما استقللت خيرك ، ولا شكوت ضيرك ، ولا تمنيت غيرك ، ولا أجد لك في الرجال شبيهاً ، وليس لقضاء الله مدفع ، ولا من حكمه علينا ممنع . وقال رجل لابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ما تقول في رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء ؟ فقال يكفيه من ذلك عدد نجوم الجوزاء .

ذكر من طلق امرأته فتبعتها نفسه : قال الهيثم بن عدي : كانت تحت ابن الغربان بن الأسود بنت عمّ فطلقها فتبعتها نفسه ، فكتب إليها يعرّض لها بالرجوع فكتبت إليه تقول :

إن كنت ذا حاجة فاطلب لها بدلا ... إنّ الغزال الذي ضيعت مشغول

فكتب إليها يقول :

إن كان ذا شغل فالله يكلؤه ... فقد لهونا به والحبل موصول
وقد قضينا من استظرافه وطرا ... وفي الليالي وفي أيامها طول

وطلق الوليد بن يزيد زوجته سعدى فلما تزوّجت اشتدّ ذلك عليه وندم على ما كان منه ، فدخل عليه أشعب فقال له : هل لك أن تبلغ سعدى عني رسالة ولك عشرة آلاف درهم ؟ قال أقبضنيها فأمر له بها ، فلما قبضها قال له هات رسالتك قال ائتها فأنشدها :

أسعدى هل إليك لنا سبيل ... ولا حتى القيامة من تلاق
بلى ولعلّ دهراً أن يؤاتى ... بموت من خليلك أو فراق

قال فأتاها أشعب فاستأذن عليها فأذنت له فدخل . فقالت له ما بدا لك في زيارتنا يا أشعب ؟ فقال يا سيدتي أرسلني إليك الوليد برسالة ، ثم أنشدها الشعر ، فقالت لجواريها : عليكن بهذا الخبيث . فقال يا سيدتي إنه دفع لي عشرة آلاف درهم فهي لك وأعتقيني لوجه الله ، فقالت والله لا أعتقك أو تبلغ إليه ما أقول لك . قال يا سيدتي فاجعلي لي جعلا قالت لك بساطي هذا . قال قومي عنه فقامت فأخذه وألقاه على ظهره وقال هات رسالتك فقالت :

أتبكي على سعدى وأنت تركتها ... فقد ذهبت سعدى فما أنت صانع

فلما بلغه الرسالة ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وأخذته كظمة ، فقال لأشعب اختر مني إحدى ثلاث ، إما أن أقتلك ، وإما أن أطرحك من هذا القصر ،وإما أن ألقيك إلى هذه السباع فتفترسك . فتحير أشعب وأطرق ملياً ، ثم قال : يا سيدي ما كنت لتعذّب عينا نظرت إلى سعدى ، فتبسم وخلّى سبيله . . . وممن طلق امرأته فتبعتها نفسه الفرزدق الشاعر طلق النوّار ثم ندم على طلاقها وقال :

ندمت ندامة الكسعى لما ... غدت مني من مطلقة نوّار
فأصبحت الغداة ألوم نفسي ... بأمر ليس لي فيه اختيار
وكانت جنتي فخرجت منها ... كآدم حين أخرجه الضرار
ولو أني ملكت بها يميني ... لكان علي للقدر الخيار

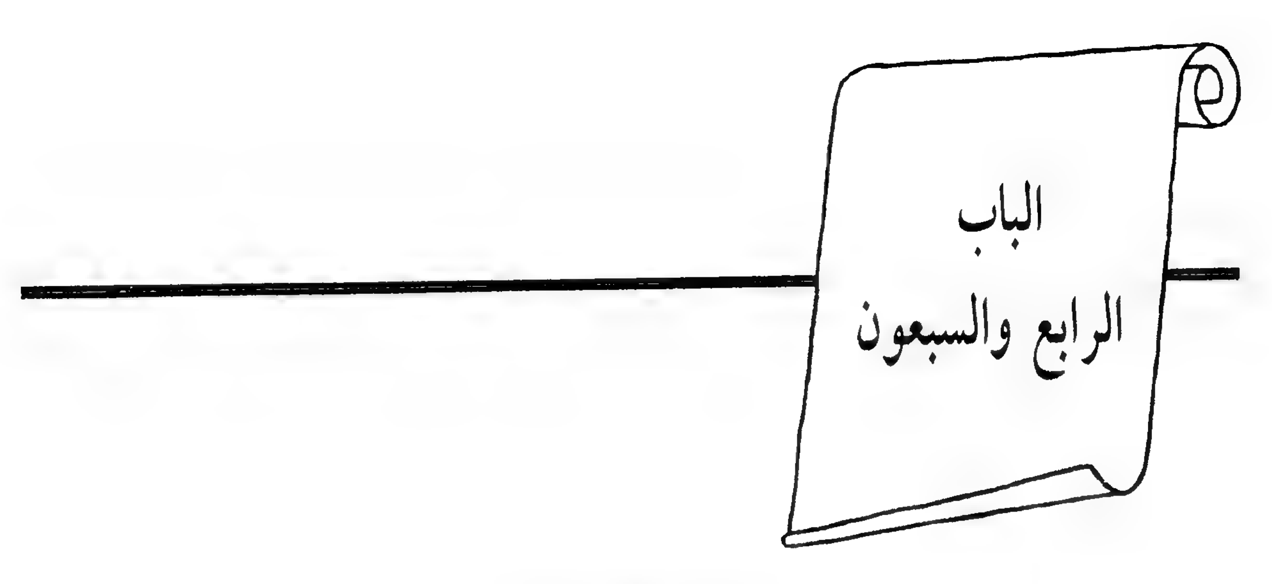
وممن طلق امرأته فتبعتها نفسه فندم قيس بن ذريح وكان أبوه أمره بطلاقها فطلقها وندم على ذلك فأنشد يقول :

فني صبري وعاودني رداعي ... وكان فراق لبنى كالخداع
تكنفني الوشاة فأزعجوني ... فيا للناس للواشي المطاع
فأصبحت الغداة ألوم نفسي ... على أمر وليس بمستطاع
كمغبون يعض على يديه ... تبين غبنه عند البياع

وحدث العتبي قال جاء رجل بامرأة كأنها برج من فضة إلى عبد الرحمن بن الحكم وهو على الكوفة فقال إن امرأتي هذه شجتني . فسألها عبد الرحمن فقالت نعم يا مولاي غير متعمدة لذلك ، كنت أعالج طيباً فوقع الفهر من يدي على رأسه وليس عندي علم ، ولا يقوى بدني على القصاص . فقال للرجل علام تمسكها وقد فعلت بك ما أرى . فقال : يا مولاي إن صداقها علي أربعة آلاف درهم ولا تطيب نفسي بفراقها . قال فان أعطيتك الأربعة آلاف درهم تفارقها قال نعم . قال هي لك قال فهي إذن طالق . فقال لها عبد الرحمن احبسي علينا نفسك وأنشأ يقول :

يا شيخ يا شيخ من دلاك بالغزل ... قد كنت يا شيخ عن هذا بمعتزل
رضت الصعاب فلم تحسن رياضتها ... فاعمد لنفسك نحو القرح الذلل

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الرابع والسبعون

في تحريم الخمر وذمها والنهي عنها

قد أنزل الله تعالى في الخمر ثلاث آيات : الأولى قوله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس** ﴾(١) الآية فكان من المسلمين من شارب ومن تارك إلى أن شرب رجل فدخل في الصلاة فهجر فنزل قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون** ﴾(٢) فشربها من شربها من المسلمين وتركها من تركها حتى شربها عمر رضي الله تعالى عنه فأخذ بلحي بعير وشجّ به رأس عبد الرحمن بن عوف ، ثم قعد ينوح على قتلى بدر بشعر الأسود بن يعفر يقول :

وكائن بالقليب قليب بدر	من الفتيان والعرب الكرام
أيوعدني ابن كبشة إن سنحيا	وكيف حياة أصداء وهام
أيعجز أن يرد الموت عني	وينشرني إذا بليت عظامي
ألا من مبلغ الرحمن عني	بأني تارك شهر الصيام
فقل لله يمنعني شرابي	وقل لله يمنعني طعامي .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج مغضباً يجر رداءه فرفع شيئاً كان في يده فضربه به. فقال أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله . فأنزل الله تعالى : ﴿ **إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون** ﴾(٣) فقال عمر رضي الله تعالى عنه انتهينا انتهينا . ومن الأخبار المتفق عليها في تحريمها قول سيدنا رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة مدمن خمر » وقوله ﷺ : « أول ما نهاني ربي بعد عبادة الأوثان عن شرب الخمر وملاحاة الرجال » . وممن تركها في الجاهلية عبد الله بن جدعان وكان جوادا من سادات قريش ، وذلك أنه شرب مع أمية بن أبي الصلت الثقفي فضربه على عينه فأصبحت عين أمية مخضرّة

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٩ .
(٢) سورة النساء الآية ٤٣.
(٣) سورة المائدة الآية ٩١.

يخاف عليها الذهاب . فقال له عبد الله ما بال عينك فسكت فألحّ عليه فقال ألست ضاربها بالأمس فقال أوبلغ مني الشراب ما أبلغ معه إلى هذا ، لا أشربها بعد اليوم ثم دفع له عشرة آلاف درهم . وقال الخمر علي حرام ، لا أذوقها بعد اليوم أبداً ، وممن حرّمها في الجاهلية أيضاً قيس بن عاصم . وذلك أنه سكر ذات ليلة فقام لابنته أو لأخته فهربت منه ، فلما أصبح سأل عنها فقيل له أو ما علمت ما صنعت البارحة فأخبر بالقصة فحرم الخمر على نفسه . وممن حرمها في الجاهلية أيضاً العباس بن مرداس ، وقيس بن عاصم وذلك أن قيساً شرب ذات ليلة فجعل يتناول القمر ويقول والله لا أبرح حتى أنزله ثم يثب الوثبة بعد الوثبة ، ويقع على وجهه فلما أصبح وأفاق قال ما لي هكذا فأخبروه بالقصة فقال والله لا أشربها أبداً . وقيل للعباس بن مرداس لم تركت الشراب وهو يزيد في سماحتك فقال أكره أن أصبح سيد قومي وأمسي سفيههم . ودخل نصيب على عبد الملك بن مروان فأنشده فأعجبه إنشاده وشعره ووصله ثم دعا بالطعام فطعم منه فقال له عبد الملك: يا نصيب هل لك فيها ينادم عليه. قال يا أمير المؤمنين جلدي أسود ، وخلقي مشوّه ، ووجهي قبيح وتكفيني مجالستك ومؤاكلتك ولم يوصلني إلى ذلك إلا عقلي وأنا أكره أن يدخل عليه ما ينقصه فأعجبه كلامه ووصله . وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج في وفدة وفدها عليه هل لك في الشراب فقال يا أمير المؤمنين لا خلاف لما أمرت ، ولكن أنا أمنع أهل عملي منه ، وأكره أن أمنعهم عن شيء ولا أمتنع منه وقد قال الله تعالى : ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم** ﴾[2] وقيل لأعرابي لم لا تشرب النبيذ فقال لا أشرب ما يشرب عقلي . وقال الضحاك بن مزاحم لرجل ما تصنع بشرب النبيذ ؟ قال يهضم طعامي . قال أما أنه يهضم من دينك وعقلك أكثر . وقال ابن أبي أوفى لقومه حين نهوا عن الخمر :

ألا يا لقومي ليس في الخمر رفعة ... فلا تقربوا منها فلست بفاعل
فاني رأيت الخمر شيئاً ولم يزل ... أخو الخمر دخالا لشرّ المنازل

وقال الحسن لو كان العقل يشترى لتغالى الناس في ثمنه ، فالعجب ممن يشتري بماله ما يفسده . وقال عليه الصلاة والسلام : « حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والنساء حبائل الشيطان ، والخمر داعية إلى كل شر » وقال بعضهم :

بلوت نبيذ الخمر في كلّ بلدة ... فليس لإخوان النبيذ حفاظ
إذا دارت الأرطال أرضوك بالمنى ... وإن فقدوها فالوجوه غلاظ

وقال حكيم . إياك وإخوان النبيذ ، فبينما أنت متوج عندهم مخدوم مكرم معظم ، إذ زلت بك القدم فجرّوك على شوك السلم فاحفظ قول القائل فيه :

وكلّ أناس يحفظون حريمهم ... وليس لأصحاب النبيذ حريم
فان قلت هذا لم أقل عن جهالة ... ولكنني بالفاسقين عليم

---

(١) سورة هود الآية ٨٨.

(٢) سورة البقرة الآية ٤٤ .

وللأعرج الطائي :

تـركت الشعـر واستبـدلت منـه إذا داعي صـلاة الصبح قـامـا
كتـاب الله ليس لـه شـريـك وودّعـت المـدامـة والـنـدامـى

وقال الصفدي :

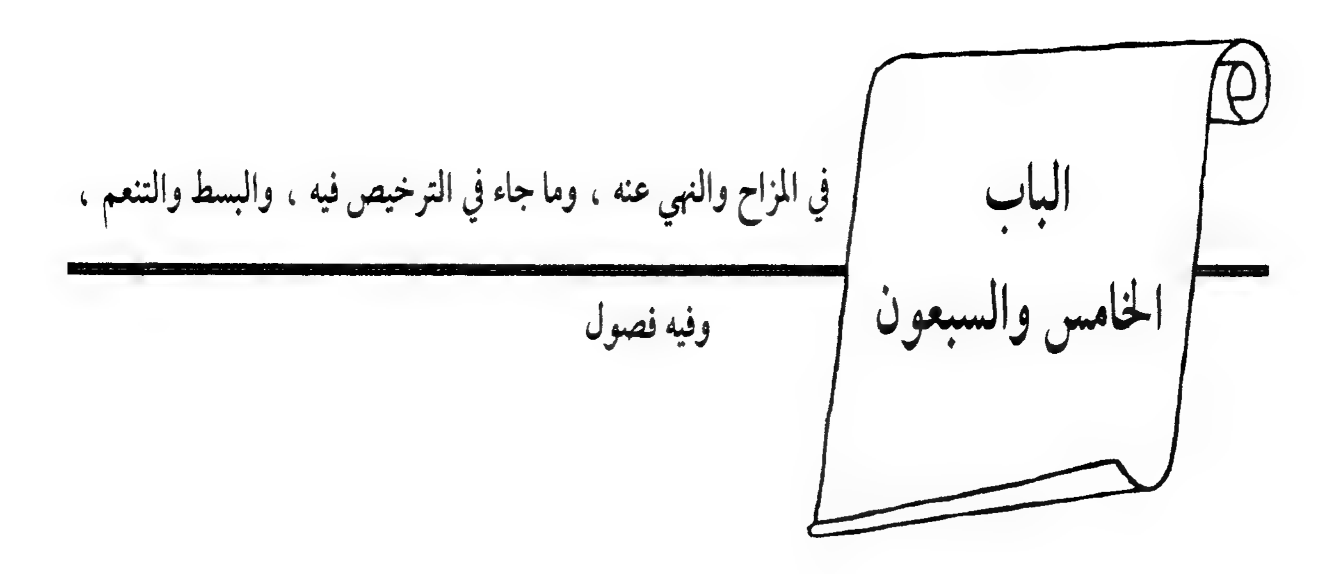
دع الخمر فالراحات في ترك راحها وفي كـأسهـا للمـرء كسـوة عـار
وكم ألبست نفس الفتى بعد نورها مـدارع قـارفي مـدار عـقـار

نكتة : اجتمع نصراني ومحدث في سفينة فصب النصراني خمراً من زق كان معه في شربة وشرب ، ثم صب فيها وعرض على المحدث ، فتناولها من غير فكر ولا مبالاة . فقال النصراني جعلت فداءك إنما هي خمر . قال من أين علمت أنها خمر قال اشتراها غلامي من يهودي وحلف أنها خمر فشربها المحدث على عجل وقال للنصراني يا أحمق نحن أصحاب الحديث نضعف مثل سفيان بن عيينة ، ويزيد بن هارون ، أفنصدّق نصرانياً عن غلامه ، عن يهودي والله ما شربتها إلا لضعف الإسناد . ومن المجون في ذلك ما حكي أن سكرانا استلقى على طريق فجاء كلب فلحس شفتيه فقال خدمك بنوك ولا عدموك فبال على وجهه فقال وماء حار أيضاً بارك الله فيك وقيل حالة السكارى ثلاثة : قرد حرك رأسه فرقص ، وكلب هارش فنبح ، وحية زويت فنامت . ومرّ عقال الناسك بمرداس بن خدام الأسدي فاستسقاه لبناً فصبّ له خمراً وعلاه بلبن فشربه وسكر ولم يتحرك ثلاثة أيام ، فقال :

سقيت عقـالا بـالعشيـة شـربـة فمـالت بعقـل الكـاهـلي عقـالي
قـرعت بـأم الخـل حبـة قلبـه فلم ينتعش منهـا ثـلاث ليـال

ويقال : الخمر مصباح السرور ولكنها مفتاح الشرور ، اللهم تب علينا وعلى العصاة والمذنبين برحمتك يا أرحم الراحمين آمين .





الباب الخامس والسبعون

في المزاح والنهي عنه ، وما جاء في الترخيص فيه ، والبسط والتنعم ،

وفيه فصول

الفصل الأوّل :

في النهي عن المزاح

قال رسول الله ﷺ : « المزاح استدراج من الشيطان واختلاع من الهوى » . وعن عليّ : ما مزح أحد إلا مج من عقله مجة . وعنه : إياك أن تذكر من الكلام ما يكون مضحكاً ، وإن حكيت ذلك عن غيرك . وكتب عمر رضي الله تعالى عنه إلى عماله : امنعوا الناس من المزاح فانه يذهب بالمروءة ويوغر الصدور . وقال بعض الحكماء : تجنب سوء المزاح ، ونكد الهزل ، فأنهما بابان إذا فتحا لم يغلقا إلا بعد غم . وقال آخر : لكل شيء بذر ، وبذر العداوة المزاح . وعن محمد بن المنكدر قال : قالت لي أمي لا تمازح الصبيان تهن عندهم . وخرج أعرابي بالليل فاذا بجارية جميلة ، فراودها ،فقالت أما لك زاجر من عقلك إذا لم يكن لك واعظ من دينك ؟ فقال والله ما يرانا إلا الكواكب ، فقالت له يا هذا وأين مكوكبها ، فأخجله كلامها فقال لها : إنما كنت مازحاً ، فقالت :

فـإيـاك إيـاك المـزاح فـانـه   يجري عليك الطفل والرجل النذلا[1]
ويـذهب مـاء الـوجـه بعد بهـائـه   ويـورث بعـد العـز صـاحبـه ذلا

وقال الأحنف : كثرة الضحك تذهب الهيبة ، وكثرة المزاح تذهب المروءة ، ومن لزم شيئاً عرف به . ومما روي عن الصحابة رضوان الله عليهم : أنهم كانوا يتحادثون ويتناشدون الأشعار ، فاذا جاء ذكر الله انقلبت حماليقهم كأنهم لم يعرفوا أحداً .

---

(١) يجري : اصلها يجرىء .



فيما جاء في الترخيص في المزاح والبسط والتنعم

لا بأس بالمزاح ما لم يكن سفها والله تعالى وعد في اللمم بالتجاوز والعفو فقال : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم** ﴾[1] وقيل أن يحيى بن زكريا لقي عيسى عليه الصلاة والسلام فقال ما لي أراك لاهياً كأنك آمن ، فقال له عيسى مالي أراك عابساً كأنك آيس ، فقالا لا نبرح حتى ينزل علينا الوحي . فأوحى الله إليهما أن أحبكما إليّ أحسنكما ظناً بي . . . ويروى أن أحبكما إليّ الطلق البسام . وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لجارية : خلقني خالق الخير وخلقك خالق الشرّ فبكت الجارية . فقال عمر لا بأس عليك فان الله خالق الخير والشر . قال الشاعر :

إن الصديق يريد بسطك مازحاً   فاذا رأى منك الملالة يقصر
وترى العدوّ إذا تيقن أنه   يؤذيك بالمزح العنيف يكثر

وكان رسول الله ﷺ يمزح ، ولا يقول إلا حقاً . فمن مزحه ﷺ أنه جاءه رجل فقال يا رسول الله : احملني على جمل ، فقال عليه الصلاة والسلام : لا أحملك إلا على ولد الناقة ، فقال يا رسول الله : إنه لا يطيقني ، فقال له الناس ويحك وهل الجمل إلا ولد الناقة . وقال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار : الحقي زوجك ففي عينيه بياض . فسعت إلى زوجها مرعوبة فقال لها ما دهاك ؟ قالت إن النبيّ ﷺ قال لي إن في عينيك بياضا فقال نعم والله وسواداً . وأتته أيضاً عجوز أنصارية فقالت يا رسول الله : ادع الله لي أن يدخلني الجنة فقال لها يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز . فولت المرأة تبكي ، فتبسم ﷺ وقال لها : « أما قرأت قوله تعالى:﴿ **إنا أنشأناهنّ إنشاء * فجعلناهن أبكارا * عربا أترابا** ﴾[2]وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها : سابقت رسول الله ﷺ فسبقته فلما كثر لحمي سابقته فسبقني فضرب بكتفي وقال هذه بتلك . وعنها أيضاً قالت : كان رسول الله ﷺ يدخل وأنا ألعب مع صويحباتي ولا يعيب عليّ . وسئل النخعي هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون ؟ قال نعم ، والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي . وكان نعيمان الصحابي من أولع الناس بالمزاح والضحك . قيل إنه يدخل الجنة وهو يضحك . فمن مزحه أنه مرّ يوماً بمخرمة بن نوفل الزهري وهو ضرير فقال له : قدني حتى أبول فأخذ بيده حتى أتى به إلى المسجد فأجلسه في مؤخرة ، فصاح به الناس إنك في المسجد فقال من قادني ؟ قالوا نعيمان قال لله عليّ نذر أن أضربه بعصاي هذه إن وجدته . فبلغ ذلك نعيمان فجاء إليه وقال له يا أبا المنور هل لك في نعيمان قال نعم .

---

(١) سورة الشورى الآية ٣٧ .
(٢) سورة الواقعة الآيات ٣٥ و٣٦ و٣٧ .

قال ها هو قائم يصلي ، وأخذ بيده وجاء به إلى عثمان بن عفان وهو يصلي . وقال هذا نعيمان فعلاه بعصاه فصاح الناس أمير المؤمنين . فقال : من قادني قالوا نعيمان ، فقال والله لا تعرضت له بسوء بعدها . وقال عطاء بن السائب : كان سعيد بن جُبير يقصّ علينا حتى يبكينا ، وربما لم يقم حتى يضحكنا وكان رجل يسمى تاج الوعظ ، يعظ الناس ، ويقصّ عليهم حتى يبكيهم ، ثم لم يقم حتى يضحكهم ويبسط آمالهم . فمن لطائفه أنه حكى يوماً بعد ما فرغ من ميعاده قال : سمعت الناس يتكلمون في التصحيف وكنت لا أعرفه ، فوقع في قلبي أن أتعلمه فدخلت في سوق الكتبية واشتريت كتاباً في التصحيف فأوّل ما تصفحته وجدت فيه سكباج تصحيفه شك تاج ، فرميت الكتاب من يدي ، وحلفت أني لا أشتغل به أبداً فضحك الناس حتى غشي عليهم . ودخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان فوجده يتأوّه ، فقال يا أمير المؤمنين لو أدخلت عليك من يؤنسك بأحاديث العرب ، ويباسطك استرحت ، فقال لست بصاحب لهو ، فقال ما الذي تشكوه يا أمير المؤمنين قال هاج بي عرق النسا في ليلتي هذه فبلغ مني ما ترى ، فقال إن بديحا مولاي أرقى الخلق منه ، فأمر بإحضاره . فلما مثل بين يديه قال عبد الملك : يا بديح ارق رجلي ، فقال يا مولاي أنا أرقى الناس لها ، ثم وضع يده عليها وجعل يقول ما لا يسمع ، فقال عبد الملك قد وجدت راحة بهذه الرقية أين فلانة ائتوني بها تكتبها لئلا يهيج بي الوجع بالليل . فقال بديح : الطلاق يلزمه ما أكتبها إلا بتعجيل جائزتي ، فأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقال يا أمير المؤمنين : الطلاق يلزمه ما أكتبها حتى تحمل جائزتي إلى بيتي قال تحمل فحملت . فقال يا أمير المؤمنين : الطلاق يلزمه ما رقيت رجلك إلا مباسطة بقول نصيب حيث قال :

ألا إن ليلى العامرية أصبحت على البعد مني ذنب غيري تنقم

فقال ويلك ما تقول ، فقال : الطلاق يلزمه ما رقيتك إلا بها ، فقال اكتمها علي ، فقال كيف وقد سارت بها الركبان إلى أخيك بمصر ، فضحك حتى فحص برجليه وأعجبه هذا البسط .

وروي أن ابن سيرين كان ينشد قول الشاعر :

أنبئت أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

ثم يضحك حتى يسيل لعابه :

ومما جاء في الشطرنج واللعب به والنهي عنه والترخيص فيه : أما النهي عنه فقد قيل إن علياً كرّم الله وجهه مرّ بقوم يلعبون الشطرنج . فقال لهم : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون . وكان أبو القاسم الكسروي يقول : لا ترى شطرنجياً غنياً إلّا بخيلاً ، ولا فقيراً إلا طفيلياً ، ولا تسمع نادرة باردة إلا على الشطرنج . واحتضر شطرنجي فصار يقول شاه مات ، شاه مات ، مكان الشهادتين حتى مات . وأما الترخيص فيه فقد سئل الشعبي عن اللعب بالشطرنج ، فقال لا بأس به إذا لم يكن هناك تقامر وتبادل وقال بعضهم : كنا في السجن مع ابن سيرين فكان يرانا ونحن نلعب بالشطرنج فيقوم فيأتي ويقول ارفع الفرس ، ارفع كذا ، افعل كذا ، ولا يعيب علينا . وعن سعيد بن المسيب قال : كنت ألعب بالشطرنج مع صديقي في بيته حين خفت الحجاج . ومما قيل لعلّي بن الجهم في الشطرنج ، وقيل للمأمون :

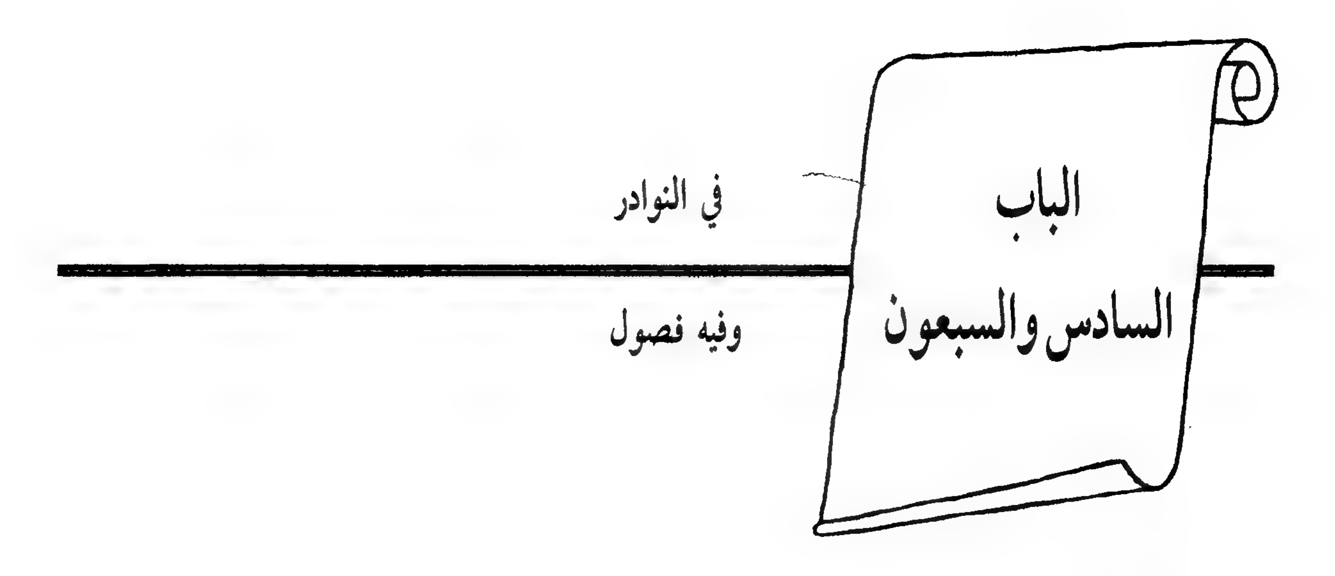
أرض مربعة حمراء من أدم ما بين حرين معروفين بالكرم

تـذكرا الحـرب فاحتـالا لها فـطنـا | من غـير أن يـأثـما بسفـك دم
هـذا يغـير عـلى هـذا وذاك عـلى | هـذا يغير وعـين الحـزم لم تنم
فـانـظر إلى همم جـاشت بمعـركـة | في عسكـرين بـلا طبـل ولا علم

قالوا : إن سبب وضع الشطرنج أن ملوك الهند ما كانوا يرون بقتال ، فاذا تنازع ملكان في كورة أو مملكة تلاعبا بالشطرنج ، فيأخذها الغالب من غير قتال ، وقيل إنه كان لبعض ملوك الفرس شطرنج من ياقوت أحمر وأصفر ، القطعة منه بثلاثة آلاف دينار .

ومما جاء في لعب الغلمان ما حكي أن غلماناً من أهل البحرين خرجوا يلعبون بالصوالجة وأسقف البحرين قاعد فوقعت الكرة على صدره فأخذها فجعلوا يطلبونها منه فأبى . فقال غلام منهم سألتك بحق محمد ﷺ إلا رددتها علينا فأبى لعنه الله وسبّ رسول الله ﷺ ، فأقبلوا عليه بصوالجهم فما زالوا يخبطونه حتى مات لعنة الله عليه ، فرفع ذلك إلى عمر رضي الله تعالى عنه . فوالله ما فرح بفتح ولا غنيمة كفرحته بقتل الغلمان لذلك الأسقف وقال : الآن عز الإسلام ، إن أطفالا صغاراً شتم نبيهم ، فغضبوا له وانتصروا ، وأهدر دم الأسقف والله سبحانه وتعالى أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .





الباب السادس والسبعون

في النوادر

وفيه فصول

الفصل الأول

من هذا الباب

في نوادر العرب

خرج المهدي يتصيد فغار به فرسه حتى وقع في خباء أعرابي ، فقال : يا أعرابي هل من قرى ، فأخرج له قرص شعير فأكله ، ثم أخرج له فضلة من لبن فسقاه ،ثم أتاه بنبيذ في ركوة فسقاه ، فلما شرب قال : أتدري من أنا ؟ قال : لا ! قال : أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة . قال : بارك الله في موضعك ، ثم سقاه مرة أخرى فشرب فقال : يا أعرابي أتدري من أنا ؟ فقال : زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة . قال : لا أنا من قواد أمير المؤمنين . قال : رحبت بلادك وطال مرادك ، ثم سقاه الثالثة فلما فرغ قال : يا أعرابي أتدري من أنا ؟ قال : زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين . قال : لا ولكنني أمير المؤمنين قال : فأخذ الأعرابي الركوة فوكأها وقال : إليك عني فوالله لو شربت الرابعة لادعيت أنك رسول الله . فضحك المهدي حتى غشي عليه ثم أحاطت به الخيل ونزلت إليه الملوك والأشراف . فطار قلب الأعرابي فقال له لا بأس عليك ولا خوف ، ثم أمر له بكسوة ومال جزيل . ووجد أعرابي يأكل ويتغوط ويغلي ثوبه ، فقيل له في ذلك فقال : أخرج عتيقاً وأدخل جديداً وأقتل عدواً .وقيل لبعض الأعراب إن شهر رمضان قدم فقال : والله لأبددن شمله بالأسفار . وسمع أعرابي قارئاً يقرأ القرآن حتى أتى على قوله تعالى : ﴿ **الأعراب أشد كفراً ونفاقاً** ﴾[1]. فقال : لقد هجانا ، ثم بعد ذلك سمعه يقرأ : ﴿ **ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾[2]. فقال : لا بأس هجا ومدح هذا كما قال شاعرنا :

هجوت زهيراً ثم إني مدحته ... وما زالت الأشراف تهجى وتُمدح

وحضر أعرابي على مائدة يزيد بن مزيد فقال لأصحابه : أفرجوا لأخيكم . فقال الأعرابي : لا حاجة لي

---

(١) سورة التوبةالآية ٩٧.

(٢) سورة التوبة الآية ٩٩.

بافراجكم إن أطنابي طوال ـ يعني سواعده ـ فلما مد يده ضرط ، فضحك يزيد فقال : يا أخا العرب أظن أن طنبا من أطنابك قد انقطع . ورؤي أعرابي يغطس في البحر ومعه خيط ، وكلما غطس غطسة عقد عقدة ، فقيل له ما هذا ؟ قال : جنابات الشتاء أقضيها في الصيف . وسرق أعرابي غاشية من على سرج ثم دخل المسجد يصلي ، فقرأ الإمام : هل أتاك حديث الغاشية ، فقال : يا فقيه لا تدخل في الفضول . فلما قرأ وجوه يومئذ خاشعة قال : خذوا غاشيتكم ولا يخشع وجهي لا بارك الله لكم فيها ، ثم رماها من يده وخرج . وحضر أعرابي مجلس قوم فتذاكروا قيام الليل فقيل له : يا أبا أمامة أتقوم الليل ؟ فقال : نعم . قالوا ما تصنع ؟ قال : أبول وأرجع أنام . وسرق أعرابي صرة فيها دراهم ثم دخل المسجد يصلي وكان اسمه موسى فقرأ الامام : وما تلك بيمينك يا موسى . فقال الاعرابي : والله إنك لساحر ، ثم رمى الصرة وخرج وحكى الأصمعي قال : ضلت لي إبل فخرجت في طلبها وكان البرد شديداً ، فالتجأت إلى حي من أحياء العرب وإذا بجماعة يصلون وبقربهم شيخ ملتف بكساء وهو يرتعد من البرد وينشد :

أيا رب إنّ البرد أصبح كالحا ... وأنت بحالي يا إلهي أعلم
فان كنت يوماً في جهنم مدخلي ... ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

قال الأصمعي : فتعجبت من فصاحته وقلت له : يا شيخ ما تستحي تقطع الصلاة وأنت شيخ كبير ، فأنشد يقول :

أيطمع ربي أن أصلي عاريا ... ويكسو غيري كسوة البر والحر
فوالله لا صليت ما عشت عاريا ... عشاء ولا وقت المغيب ولا الوتر
ولا الصبح إلا يوم شمس دفيئة ... وإن غيمت فالويل للظهر والعصر
وإن يكسني ربي قميصاً وجبة ... أصلي له مهما أعيش من العمر

قال : فأعجبني شعره وفصاحته فنزعت قميصاً وجبة كانا عليّ ودفعتهما إليه وقلت له البسهما وقم فصل فاستقبل القبلة وصلى جالساً وجعل يقول :

إليك اعتذاري من صلاتي جالسا ... على غير طهر موميا نحو قبلتي
فمالي ببرد الماء يا رب طاقة ... ورجلاي لا تقوى على ثني ركبتي
ولكنني أستغفر الله شاتيا ... وأقضيكها يا رب في وجه صيفتي
وإن أنا لم أفعل فأنت محكم ... بما شئت من صفعي ومن نتف لحيتي

قال : فعجبت من فصاحته وضحكت عليه وانصرفت . وصلى أعرابي مع قوم فقرأ الإمام : ﴿ **قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا** ﴾[1] فقال الأعرابي أهلكك الله وحدك إيش كان ذنب الذين معك ، فقطع القوم الصلاة من شدة الضحك . وقيل : دخلت أعرابية على قوم يصلون فقرأ الإمام : ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء** ﴾[2] وجعل يرددها، فجعلت الأعرابية تعدو وهي هاربة حتى جاءت لأختها فقالت : يا أختاه ما زال الإمام يأمرهم أن ينكحونا حتى خشيت أن يقعوا عليّ . وصلى أعرابي خلف إمام فقرأ الإمام : ﴿ **ألم نهلك الأولين** ﴾[3] .

---

(١) سورة الملك الآية ٢٨ . (٢) سورة النساء الآية ٣ . (٣) سورة المرسلات الآية ١٦ .

وكان في الصف الأول فتأخر إلى الصف الآخر ، فقرأ : ﴿ **ثم نتبعهم الآخرين** ﴾[1]، فتأخر . فقرأ : ﴿ **كذلك نفعل بالمجرمين**﴾[2]، وكان اسم البدوي مجرما، فترك الصلاة وخرج هارباً وهو يقول : والله ما المطلوب غيري ، فوجده بعض الأعراب ، فقال له : ما لك يا مجرم ؟ فقال : إن الإمام أهلك الأولين ، والآخرين ، وأراد أن يهلكني في الجملة والله لا رأيته بعد اليوم . وجلس بعض الأعراب يشرب مع ندمائه فاحتاج إلى بيت الخلاء فدلوه عليه ، فلما دخل جعل يضرط ضراطاً شنيعاً فضحكوا عليه فأنشد يقول :

إذا ما خلا الإنسان في بيت غائط ... تراخت بلا شك مصاريع فقحته
فمن كان ذا عقل فيعذر ضارطا ... ومن كان ذا جهل ففي وسط لحيته

وكان لسابور ملك فارس نديم مضحك يسمى مرزوان ، فظهر له من الملك جفوة ، فلما زاد ذلك عليه تعلم نبيح الكلاب ، وعوي الذئاب ، ونهيق الحمير ، وصهيل الخيل ، وصوت البغال . ثم احتال حتى دخل موضعاً بقرب خلوة الملك وأخفى أمره ، فلما خلا الملك بنفسه نبح نبيح الكلاب ، فلم يشك الملك في أنه كلب ، فقال : انظروا ما هذا ؟ فعوى عواء الذئاب ، فنزل الملك عن سريره ، فنهق نهيق الحمير ، فمضى الملك هارباً ومضت الغلمان يتبعون الصوت ، فلما دنوا منه صهل صهيل الخيل فاقتحموا عليه وأخرجوه عريانا . فلما وصلوا به إلى الملك ورآه مرزبان ضحك الملك ضحكاً شديداً وقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : إن الله عز وجل مسخني كلباً ، وذئباً ، وحماراً ، وفرساً ، لما غضب عليّ الملك . قال : فأمر الملك أن يخلع عليه ، وأن يرد إلى مرتبته الأولى . ومن الملح قول بعض الشعراء :

أيا من فاق حسنا واعتدالا ... وولج في عطيته السبابا
أما في مال ردفك من زكاة ... فتدخل فيه لي هذا النصابا

وحكى الأصمعي أن عجوزاً من الأعراب جلست في طريق مكة إلى فتيان يشربون نبيذاً فسقوها قدحاً فطابت نفسها فتبسمت فسقوها قدحاً آخر ، فاحمر وجهها وضحكت ، فسقوها ثالثاً فقالت : خبروني عن نسائكم بالعراق أيشربون النبيذ ؟ قالوا نعم قالت : زنين ورب الكعبة ، والله إن صدقتم ما فيكم من يعرف أباه . وصلى أعرابي خلف إمام فقرأ : إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ثم وقف وجعل يرددها فقال الأعرابي : أرسل غيره يرحمك الله وأرحنا وأرح نفسك . وصلى آخر خلف إمام فقرأ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي ووقف وجعل يرددها فقال الأعرابي : يا فقيه إذا لم يأذن لك أبوك في هذا الليل نظل وقوفاً إلى الصباح ثم تركه وانصرف . ولزم أعرابي سفيان ابن عيينة مدة يسمع منه الحديث فلما أن جاء ليسافر قال له سفيان يا أعرابي ما أعجبك من حديثنا قال : ثلاثة أحاديث حديث عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يحب الحلوى والعسل . وحديثه عليه الصلاة والسلام إذا وضع العشاء وحضرت الصلاة فابدأوا بالعشاء . وحديث عائشة أيضاً ليس من البر الصوم في السفر . وقيل لأعرابية ما صفة الأير عندكم قالت عصبة ينفخ فيها الشيطان فلا يرد أمرها . وانفرد الرشيد وعيسى بن جعفر ومعه الفضل بن يحيى فاذا هو بشيخ الأعراب على حمار ، وهو رطب العينين فقال له الفضل هل أدلك على دواء لعينيك قال : ما أحوجني إلى ذلك قال خذ عيدان الهواء وغبار الماء فصيره في قشر بيض

---

(١) سورة المرسلات الآية ١٧ . (٢) سورة المرسلات الآية ١٨ .

الذرّ واكتحل به ينفعك فانحنى الشيخ وضرط ضرطة قوية . وقال خذ هذه في لحيتك أجرة وصفتك ، وإن زدت زدناك ، فضحك الرشيد حتى استلقى على ظهر دابته . وخرج معن بن زائدة في جماعة من خواصه للصيد فاعترضهم قطيع ظباء فتفرقوا في طلبه وانفرد معن خلف ظبي حتى انقطع عن أصحابه فلما ظفر به نزل فذبحه فرأى شيخاً مقبلاً من البرية على حمار فركب فرسه واستقبله فسلم عليه فقال : من أين وإلى أين ؟ قال : أتيت من أرض لها عشرون سنة مجدبة ، وقد أخصبت في هذه السنة فزرعتها مقثأة فطرحت في غير وقتها فجمعت منها ما أستحسنته وقصدت به معن بن زائدة لكرمه المشكور وفضله المشهور ومعروفه المأثور وإحسانه الموفور قال : وكم أملت منه ؟ قال : ألف دينار قال فان قال لك كثير ، قال خمسمائة . قال فان قال لك كثير ، قال ثلثمائة . قال فان قال لك كثير قال مائة . قال : فان قال لك كثير قال خمسين. قال فان قال لك كثير. قال فلا أقل من الثلاثين قال فان قال لك كثير قال أدخل قوائم حماري في حر أمه وأرجع إلى أهلي خائباً . فضحك معن منه وساق جواده حتى لحق بأصحابه ونزل في منزله وقال لحاجبه إذا أتاك شيخ على حمار بقثاء فادخل به علي . فأتى بعد ساعة فلما دخل عليه لم يعرفه لهيبته ، وجلالته وكثرة حشمه وخدمه ، وهو متصدر في دسته والخدم والحفدة قيام عن يمينه وشماله وبين يديه ، فلما سلم عليه قال : ما الذي أتى بك يا أخا العرب قال أملت الأمير وأتيته بقثاء في غير أوان فقال : كم أملت فينا قال ألف دينار قال كثير فقال والله لقد كان ذلك الرجل ميشوماً عليّ ، قال خمسمائة دينار قال كثير فما زال إلى أن قال خمسين ديناراً فقال له كثير فقال لا أقل من الثلاثين فضحك معن فعلم الأعرابي أنه صاحبه فقال يا سيدي إن لم تجب إلى الثلاثين فالحمار مربوط بالباب . وها معن جالس فضحك معن حتى استلقى على فراشه ثم دعا بوكيله فقال أعطه ألف دينار ، وخمسمائة دينار ، وثلثمائة دينار ، ومائة دينار ، وخمسين ديناراً ، وثلاثين ديناراً ، ودع الحمار مكانه فتسلم الأعرابي المال وانصرف .



في نوادر القراء والفقهاء

عن محمد بن عبد الله قال كنا في دهليز عثمان بن شيبة فخرج إلينا فقال : ن والقلم في أي سورة . ومر بعضهم بقارىء يقرأ ألم غلبت الترك في أدنى الأرض فقال له الروم ، فقال له كلهم أعداؤنا قاتلهم الله . وكان جماعة يجلسون إلى أبي العيناء وفيهم رجل لا يتكلم فقيل له يوماً كيف علمك بكتاب الله قال أنا عالم به فقيل له هذه الآية في أي سورة الحمد لله لا شريك له فقال له في سورة الحمد فضحكوا عليه . وجاء رجل إلى فقيه فقال : أفطرت يوماً في رمضان فقال اقض يوماً مكانه ، قال قضيت وأتيت أهلي وقد عملوا مأمونية فسبقتني يدي إليها فأكلت منها . فقال اقض يوماً آخر مكانه . قال قضيت وأتيت أهلي وقد عملوا هريسة فسبقتني يدي إليها فقال أرى أن لا تصوم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك . وجاء رجل إلى بعض الفقهاء فقال له : أنا أعبد الله على مذهب ابن حنبل ، وأني توضأت وصليت فبينما أنا في الصلاة إذ أحسست ببلل في سراويلي يتلزق فشممته فاذا رائحته خبيثة

قال الفقيه : عافاك الله خريت باجماع المذاهب . وجاء رجل إلى فقيه قال أنا رجل أقسو في ثيابي حتى تفوح روائحي فهل يجوز أن أصلي في ثيابي قال نعم لكن لا كثر الله في المسلمين مثلك . ووقع بين الأعمش وبين امرأته وحشة فسأل بعض أصحابه من الفقهاء أن يرضيها ويصلح بينهما فدخل إليها وقال إن أبا محمد شيخ كبير فلا يزهدنك فيه عمش عينيه ، وقدة ساقيه ، وضعف ركبتيه ، ونتن إبطيه ،وبخر فيه،وجمود كفيه فقال له الأعمش : قم قبحك الله فقد أريتها من عيوبي ما لم تكن تعرفه . وسكن بعض الفقهاء في بيت سقفه يقرقع في كل وقت فجاءه صاحب البيت يطلب الأجرة فقال له أصلح السقف فانه يقرقع قال لا تخف فانه يسبح الله تعالى قال : أخشى أن تدركه رقة فيسجد .



في نوادر القضاة

كان لبعض القضاة بغلة فقرأ يوماً في المصحف وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها فقال لغلامه أطلق البغلة ورزقها على الله فصارت البغلة تدور الأسواق والأزقة وتأكل من قشور الباذنجان ، وقشور الرمان ، وقشور البطيخ ، وقمامات الطريق فماتت فأمر الغلام باحضار المشاعلية ليحملوها لظاهر المدينة فأحضرهم فطلبوا من القاضي عشرة دراهم أجرة حملها ، وقالوا ليس لنا شيء نرتزق منه إلا من مثل هذا وسيدنا رجل غني وله أشياء كثيرة العدالة والتزويج والعقود والوراقة والسجن والاطلاق وحاكمية الحكم وأجرة اليمين والتدريس والأوقاف فقال لهم القاضي ألمثلي يقال هذا ؟ وأنتم لكم اثنا عشر باباً من أبواب المنافع : منها الوسخ ، والزفر ، والهلع والولع ، وبيت النبذة ، وشركة النفوس ، وجباية الأسواق ، وحرق النار ، وسلب الشطار ، ولكم الصياح وثمن الاصلاح وما تروّحوا من هذه البغلة بلا شيء ، جلدها للدّباغين ، وذنبها للغرابلية ، ومعرفتها للشعار وتبطبيقتها للبيطار . قال فتقدم أحدهم إليه وقال بحق من تاب عليك ورد عاقبتك إلى خير وأراحك من هذا المعاش تصدق علينا بشيء ولا تدعنا نروح بلاش . تفسير هذه الألفاظ ، الزفر النساء الزانيات ، والوسخ المراحيض ، والهلع جباية الأسواق ، والولع القمار ، وبيت النبذة محل المزر ، وشركة النفوس كل من حمل ميتاً ولحقوه قبل أن يخرج من باب البلد كانوا شركاءه ، وسلب الشطار كل من شنقوه لهم سلبه . ووليّ يحيى بن أكثم قاضياً على أهل جبلة فبلغه أن الرشيد انحدر إلى البصرة فقال لأهل جبلة إذا اجتاز الرشيد فاذكروني عنده بخير فوعدوه بذلك فلما جاء الرشيد تقاعدوا عنه فسرح القاضي لحيته ، وكبر عمته وخرج فرأى الرشيد في الحراقة ومعه أبو يوسف القاضي فقال يا أمير المؤمنين : نعم القاضي قاضي جبلة عدل فينا وفعل كذا وكذا وجعل يثني على نفسه فلما رآه أبو يوسف عرفه فضحك فقال له الرشيد : ممّ تضحك ؟ فقال يا أمير المؤمنين المثني على القاضي هو القاضي فضحك الرشيد حتى فحص برجله الأرض ثم أمر بعزله فعزل . وأحضر رجل ولده إلى القاضي فقال : يا مولانا إن ولدي هذا يشرب

الخمر ولا يصلي فأنكر ولده ذلك فقال أبوه يا سيدي أفتكون صلاة بغير قراءة ، فقال الولد : إني اقرأ القرآن . فقال له القاضي إقرأ حتى أسمع فقال :

علق القلب الربابا بعد ما شابت وشابا
إن دين الله حق لا أرى فيه ارتيابا

فقال أبوه إنه لم يتعلم هذا إلا البارحة ، سرق مصحف الجيران وحفظ هذا منه فقال القاضي وأنا الآخر أحفظ آية منها وهي :

فارحمي مضنى كئيبا قد رأى الهجر عذابا

ثم قال القاضي قاتلك الله يعلم أحدكم القرآن ولا يعمل به . وتقدم اثنان إلى أبي صمصامة القاضي فادعى أحدهما على الآخر طنبوراً ، فأنكر فقال للمدعي ألك بينّة فقال لي شاهدان فاحضر رجلين شهدا له . فقال المدعى عليه سلهما يا سيدي عن صناعتهما . فأخبر أحدهما أنه نباذ ، وقال الآخر إنه قوّاد فالتفت القاضي إلى المدّعى عليه وقال أتريد على طنبور أعدل من هذين إدفع إليه طنبوره . وتحاكم الرشيد وزبيدة إلى أبي يوسف القاضي في الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب فقال أبو يوسف أنا لا أحكم على غائب ، فأمر الرشيد باحضارهما وقدما بين يدي أبي يوسف فجعل يأكل من هذا مرة ومن هذا مرة حتى نصف الجامين ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ما رأيت أعدل منهما كلما أردت أن أحكم لأحدهما أتى الآخر بحجته . وأتى بعض المجان لبعض القضاة فقال يا سيدي : إن امرأتي قحبانا فقال له القاضي . طلقناها فقال عشقانها فقال قوّدناها. وادعى رجل عند قاض على امرأة حسناء بدين فجعل القاضي يميل إليها بالحكم فقال الرجل أصلح الله القاضي ، حجتي أوضح من هذا النهار فقال له القاضي اسكت يا عدو الله فإن الشمس أوضح من النهار قم لا حق لك عليها . فقالت المرأة جزاك الله عن ضعفي خيراً فقد قويته . فقال الرجل لا جزاك الله عن قوتي خيراً فقد أوهيتها . ورفعت امرأة زوجها إلى القاضي تبغي الفرقة ، وزعمت أنه يبول في الفراش كل ليلة فقال الرجل للقاضي يا سيدي لا تعجل عليّ حتى أقص عليك قصتي إني أرى في منامي كأني في جزيرة في البحر ، وفيها قصر عال ، وفوق القصر قبة عالية ، وفوق القبة جمل ، وأنا على ظهر الجمل وأن الجمل يطأطىء برأسه ليشرب من البحر فإذا رأيت ذلك بلت من شدة الخوف فلما سمع القاضي ذلك بال في فراشه وثيابه وقال : يا هذه أنا قد أخذني البول من هول حديثه فكيف بمن يرى الأمر عياناً وحكى أن تاجراً عبر إلى حمص فسمع مؤذناً يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن أهل حمص يشهدون أن محمداً رسول الله فقال : والله لأمضينّ إلى الإمام وأسأله فجاء إليه فرآه قد أقام الصلاة وهو يصلي على رجل ، ورجله الأخرى ملوثة بالعذرة فمضى إلى المحتسب ليخبره بهذا الخبر فسأل عنه فقيل إنه في الجامع الفلاني يبيع الخمر فمضى إليه فوجده جالساً ، وفي حجرة مصحف وبين يديه باطية مملوءة خمراً وهو يحلف للناس بحق المصحف إن الخمرة صرف ليس فيها ماء وقد ازدحمت الناس عليه وهو يبيع فقال : والله لأمضين إلى القاضي وأخبره فجاء إلى القاضي فدفع الباب فانفتح فوجد القاضي نائماً على بطنه وعلى ظهره غلام يفعل الفاحشة فقال التاجر : قلب الله حمص . فقال القاضي لم تقول هذا ؟ فأخبره بجميع ما رأى فقال يا جاهل أما المؤذن فإن مؤذننا مرض فاستأجرنا يهودياً صيتاً يؤذن مكانه فهو يقول ما سمعت ، وأما الإمام فإنهم لما أقاموا الصلاة خرج مسرعاً فتلوثت رجله بالعذرة ، وضاق الوقت فأخرجها من الصلاة واعتمد على رجله الأخرى ولما فرغ غسلها ، وأما المحتسب فإن ذلك الجامع ليس له وقف إلا

كرم ، وعنبه ما يؤكل فهو يعصره خمراً ويبيعه ويصرف ثمنه في مصالح الجامع ، وأما الغلام الذي رأيته فإن أباه مات وخلف مالاً كثيراً وهو تحت الحجر وقد كبر وجاءه جماعة شهدوا عندي أنه بلغ فأنا أمتحنه فخرج التاجر من البلد وحلف أنه لا يعود إليها أبداً .



في نوادر النحاة

وقف نحوي على بياع يبيع أرزا بعسل ، وبقلا بخل ، فقال بكم الأرزز بالأعسل . والأخلل بالأبقل ، فقال بالأصفع في الأرؤس والأضرط في الأذقن . ووقع نحوي في كنيف فجاء كناس ليخرجه فصاح به الكناس ليعلم أهو حي أم لا ، فقال له النحوي : أطلب لي حبلاً دقيقاً ، وشدني شداً وثيقاً ، واجذبني جذباً رقيقاً . فقال له الكناس امرأتي طالق إن أخرجتك منه ثم تركه وانصرف . وكان لبعضهم ولد نحوي يتقعر في كلامه فاعتل أبوه علة شديدة أشرف منها على الموت فاجتمع عليه أولاده وقالوا له : ندعو لك فلاناً أخانا قال لا : إن جاءني قتلني . فقالوا نحن نوصيه أن لا يتكلم . فدعوه فلما دخل عليه قال له : يا أبت قل لا إله إلا الله تدخل الجنة وتفوز من النار ، يا أبت والله ما أشغلني عنك إلا فلان فانه دعاني بالأمس فأهرس ، وأعدس ، واستبذج ، وسكبج وطهبج وأفرج ، ودحج ، وأبصل ، وأمضر ، ولوزج ، وافلوذج ، فصاح أبوه غمضوني فقد سبق ابن الزانية ملك الموت إلى قبض روحي . وجاء نحوي يعود مريضاً فطرق بابه فخرج إليه ولده فقال كيف وجدت أباك قال يا عم ورمت رجليه . قال لا تلحن . قل رجلاه ثم ماذا ، قال ثم وصل الورم إلى ركبتاه قال لا تلحن قل إلى ركبتيه ، ثم ماذا قال مات وأدخله الله في بظر عيالك وعيال سيبويه ونفطويه وجحشويه . وعاد بعضهم نحوياً فقال ما الذي تشكوه قال حمى جاسية ، نارها حامية منها الأعضاء واهية ، والعظام بالية ، فقال له لا شفاك الله بعافية يا ليتها كانت القاضية .



في نوادر المعلمين

قال الجاحظ مررت بمعلم صبيان وعنده عصا طويلة ، وعصا قصيرة ، وصولجان ، وكرة ، وطبل ، وبوق ، فقلت : ما هذه ؟ فقال عندي صغار أوباش فأقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصفر لي بضرطة فأضربه بالعصا القصيرة فيتأخر ، فأضربه بالعصا الطويلة ، فيفر من بين يدي فأضع الكرة في الصولجان وأضربه فأشجه فتقوم إليّ

الصغار كلهم بالألواح فاجعل الطبل في عنقي ، والبوق في فمي ، وأضرب الطبل وأنفخ في البوق ، فيسمع أهل الدرب ذلك فيسارعون إليّ ويخلصوني منهم .وحكى الجاحظ أيضاً . قال : مررت على خربة فاذا بها معلم وهو ينبح نبيح الكلاب فوقفت أنظر إليه وإذا بصبي قد خرج من دار فقبض عليه المعلم وجعل يلطمه ويسبه فقلت عرفني خبره . فقال هذا صبي لئيم يكره التعليم ويهرب ويدخل الدار ، ولا يخرج ، وله كلب يلعب به ، فاذا سمع صوتي ظنّ أنه صوت الكلب فيخرج فأمسكه . وجاءت امرأة إلى المعلم بولدها تشكوه . فقال له إما أن تنتهي وإلا فعلت بأمك . فقالت يا معلم هذا صبي ما ينفع فيه الكلام فافعل ما شئت لعله ينظر بعينيه ويتوب فقام وفعل بها أمام ولدها . وقال الجاحظ رأيت معلماً في الكتّاب وحده فسألته فقال : الصغار داخل الدرب يتصاعدون . فقلت : أحب أن أراهم . فقال : ما أشير عليك بذلك . فقلت : لا بد . قال : فاذا جئت إلى رأس الدرب اكشف رأسك لئلا يعتقدوك المعلم فيصفعونك حتى تعمى . وقال بعضهم رأيت معلماً وقد جاء صغيران يتماسكان فقال أحدهما ، هذا عضّ أذني . فقال الآخر ، لا والله يا سيدنا هو الذي عضّ أذن نفسه . فقال المعلم : يا ابن الزانية هو كان جمل يعض أذن نفسه . وقال بعضهم رأيت معلماً وهو يصلي العصر فلما ركع أدخل رأسه بين رجليه ونظر إلى الصغار وهم يلعبون وقال : يا ابن البقال قد رأيت الذي عملت ،وسوف أكافئك إذا فرغت من الصلاة حكي عن الجاحظ أنه قال ألفت كتاباً في نوادر المعلمين وما هم عليه من التغفل ثم رجعت عن ذلك ، وعزمت على تقطيع ذلك الكتاب فدخلت يوماً مدينة فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة فسلمت عليه فرد عليّ أحسن رد ، ورحب بي فجلست عنده وباحثته في القرآن فاذا هو ماهر فيه ، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المنقول وأشعار العرب فاذا هو كامل الآداب . فقلت : هذا والله مما يقوي عزمي على تقطيع الكتاب قال فكنت أختلف إليه وأزوره فجئت يوماً لزيارته فاذا بالكتّاب مغلق ولم أجده فسألت عنه فقيل مات له ميت فحزن عليه وجلس في بيته للعزاء فذهبت إلى بيته وطرقت الباب فخرجت إليّ جارية . وقالت ما تريد : قلت سيدك فدخلت وخرجت وقالت باسم الله فدخلت إليه وإذا به جالس فقلت عظم الله أجرك لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة كل نفس ذائقة الموت فعليك بالصبر ثم قلت له هذا الذي توفى ولدك قال لا ، قلت فوالدك قال لا ، قلت فأخوك قال لا ، قلت فزوجتك قال لا فقلت : وما هو منك قال حبيبتي فقلت في نفسي هذه أوّل المناحس فقلت سبحان الله النساء كثير وستجد غيرها فقال أتظن أني رأيتها قلت وهذه منحسة ثانية ، ثم قلت وكيف عشقت من لم تر ؟ فقال اعلم أني كنت جالساً في هذا المكان وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلاً عليه برد وهو يقول :

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ردّي عليّ فؤادي أينما كانا
لا تأخذين فؤادي تلعبين به فكيف يلعب بالانسان انسانا

فقلت في نفسي لولا أنّ أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

لقد ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت فحزنت ، وأغلقت المكتب ، وجلست في الدار . فقلت : يا هذا إني كنت ألفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه والآن قد قويت عزمي على إبقائه وأول ما أبدأ بك إن شاء الله تعالى .



في نوادر المتنبئين

ادعى رجل النبوة في أيام الرشيد فلما مثل بين يديه قال له : ما الذي يقال عنك ؟ قال : إني نبي كريم . قال فأي شيء يدل على صدق دعواك قال سل عما شئت قال أريد أن تجعل هذه المماليك المرد القيام الساعة بلحى ، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال : كيف يحل أن أجعل هؤلاء المرد بلحى ، وأغير هذه الصورة الحسنة ، وإنما أجعل أصحاب هذه اللحى مرداً في لحظة واحدة . فضحك منه الرشيد وعفا عنه وأمر له بصلة . وتنبأ إنسان فطالبوه بحضرة المأمون بمعجزة . فقال : أطرح لكم حصاة في الماء فتذوب قالوا رضينا فأخرج حصاة معه وطرحها في الماء فذابت . فقالوا : هذه حيلة ولكن نعطيك حصاة من عندنا ودعها تذوب فقال لستم أجل من فرعون ، ولا أنا أعظم حكمة من موسى ، ولم يقل فرعون لموسى لم أرض بما تفعله بعصاك حتى أعطيك عصا من عندي تجعلها ثعباناً فضحك المأمون وأجازه . وتنبأ رجل في أيام المعتصم فلما حضر بين يديه قال : أنت نبّي ؟ قال نعم قال وإلى من بعثت ؟ قال إليك . قال : أشهد أنك لسفيه أحمق . قال إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم ، فضحك المعتصم وأمر له بشيء . وتنبأ رجل في أيام المأمون وادعى أنه ابراهيم الخليل . فقال له المأمون : إن إبراهيم كانت له معجزات وبراهين . قال : وما براهينه قال أضرمت له نار وألقي فيها فصارت عليه برداً وسلاماً ، ونحن نوقد لك ناراً ونطرحك فيها فان كانت عليك كما كانت عليه آمنا بك . قال : أريد واحدة أخف من هذه . قال : فبراهين موسى . قال وما براهينه قال ألقى عصاه فاذا هي حية تسعى ، وضرب بها البحر فانفلق وأدخل يده في جيبه فأخرجها بيضاء . قال : وهذه عليّ أصعب من الأولى . قال فبراهين عيسى ، قال وما هي قال إحياء الموتى قال مكانك قد وصلت . أنا أضرب رقبة القاضي يحيى بن أكثم وأحييه لكم الساعة فقال يحيى أنا أوّل من آمن بك وصدّق . وتنبأ آخر في زمن المأمون ، فقال المأمون أريد منك بطيخاً في هذه الساعة ، قال أمهلني ثلاثة أيام ، قال ما أريده إلا الساعة ، قال ما أنصفتني يا أمير المؤمنين ، إذا كان الله تعالى الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ما يخرجه إلا في ثلاثة أشهر ، فما تصبر أنت عليّ ثلاثة أيام فضحك منه ووصله . وتنبأ آخر في زمن المأمون فلما مثل بين يديه قال له من أنت قال أنا أحمد النبي ، قال لقد ادعيت زوراً ، فلما رأى الأعوان قد أحاطت به ، وهو ذاهب معهم قال يا أمير المؤمنين أنا أحمد النبي فهل تذمه أنت فضحك المأمون منه وخلى سبيله . وتنبأ آخر في زمن المتوكل فلما حضر بين يديه قال له أنت نبيّ قال نعم قال فيما الدليل على صحة نبوّتك قال القرآن العزيز يشهد بنبوّتي في قوله تعالى : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾[1] وأنا أسمي نصر الله قال فما معجزتك قال ائتوني بامرأة عاقر أنكحها تحمل بولد يتكلم في الساعة ويؤمن بي فقال المتوكل لوزيره الحسن بن عيسى أعطه زوجتك حتى تبصر

---

(١) سورة النصر. آية رقم: ١

كرامته فقال الوزير أما أنا فأشهد أنه نبي الله وإنما يعطي زوجته من لا يؤمن به فضحك المتوكل وأطلقه . وادعى رجل النبوّة في زمن خالد بن عبد الله القسري وعارض القرآن فأتي به إلى خالد فقال له ما تقول قال عارضت القرآن قال بماذا قال : الله تعالى إنا أعطيناك الكوثر الآية وقلت أنا اعطيناك الجماهير ، فصل لربك وجاهر ، ولا تطع كل ساحر . فأمر به خالد فضرب عنقه وصلب. فمرّ به خلف بن خليفة الشاعر فضرب بيده على الخشبة وقال إنا أعطيناك العود ، فصل لربك من قعود ، وأنا ضامن لك أن لا تعود . وأتى المأمون برجل ادعى النبوّة فقال له ألك علامة قال علامتي إني أعلم ما في نفسك قال وما في نفسي قال في نفسك أني كاذب قال صدقت ثم أمر به إلى السجن فأقام فيه أياماً ثم أخرجه فقال له أوحي إليك بشيء قال لا ، قال ولم ؟ قال لأن الملائكة لا تدخل الحبوس . فضحك منه وخلى سبيله . وأُتي بامرأة تنبأت في أيام المتوكل فقال لها أنت نبية قالت نعم قال أتؤمنين بمحمد قالت نعم قال فانه ﷺ قال لا نبي بعدي . قالت : فهل قال لا نبية بعدي فضحك المتوكل وأطلقها . وتنبأ رجل يسمى نوحاً وكان له صديق نهاه فلم يقبل فأمر السلطان بقتله فصلب فمر به صديقه فقال له يا نوح ما حصلت من السفينة إلا على الصاري .



في نوادر السؤال

وقف أعرابي بباب يسأل فقال له صغير من بباب الدار بورك فيك . فقال قبح الله هذا الفم لقد تعلمت الشر صغيراً . ووقف سائل على باب فقال يا أصحاب المنزل فبادر صاحب الدار قبل أن يتم كلامه وقال فتح الله عليك ، فقال السائل يا قرنان كنت تصبر لعلي جئت أدعوك إلى وليمة . وقال أبو عثمان الجاحظ وقف سائل بقوم فقال إني جائع فقالوا له كذبت فقال جربوني برطلين من الخبز ورطلين من اللحم . ووقف سائل على باب فقالوا يفتح الله لك فقال كسرة ، فقالوا ما نقدر عليها ، قال فقليل من بر ، أو فول ، أو شعير . قالوا لا نقدر عليه قال فقطعة دهن ،أو قليل زيت ، أو لبن قالوا لا نجده قال فشربة ماء قالوا وليس عندنا ماء قال فما جلوسكم ههنا ، قوموا فاسألوا فأنتم أحق مني بالسؤال .



في نوادر المؤذنين

قيل لمؤذن ما نسمع أذانك فلو رفعت صوتك . فقال : اني اسمع صوتي من مسيرة ميل . وقال بعضهم

رأيت مؤذناً أذن ثم غدا يهرول . فقلت له . إلى أين فقال أحب أن أسمع أذاني أين بلغ . واختصم رجلان في جارية فأودعاها عند مؤذن فلما أصبح وفرغ من الأذان قال لا إله إلا الله ذهبت الأمانة من الناس . فقالوا له كيف ذهبت الأمانة من الناس ؟ قال هذه الجارية التي وضعت عندي قيل أنها بكر ، فلما أتيتها وجدتها ثيباً . وسمع مؤذن حمص يقول في سحور رمضان تسحروا فقد أمرتكم ، وعجلوا في أكلكم قبل أن أؤذن فيسخم الله وجوهكم .وشوهد مؤذن يؤذن من رقعة ، فقيل له ما تحفظ الأذان ؟ فقال سلوا القاضي فأتوه فقالوا السلام عليكم فأخرج دفتراً وتصفحه وقال عليكم السلام فعذروا المؤذن . وسمعت امرأة مؤذناً يؤذن بعد طلوع الشمس ويقول الصلاة خير من النوم . فقالت : النوم خير من هذه الصلاة . ومر سكران بمؤذن رديء الصوت فجلد به الأرض ، وجعل يدوس بطنه ، فاجتمع إليه الناس فقال : والله ما بي رداءة صوته ولكنه شماتة اليهود والنصارى بالمسلمين .



في نوادر النواتية

حكي أن بعض النواتية[1] تولى أحد الكراسي السلطانية لما ساعده الزمان ، فبينما هو جالس في داره إذ سمع صوتاً وراء الباب فقال لزوجته . إني أسمع غاغة في البرّحلي قلوعي واعملي أسفيرتي على جاموري ، وقدمي إلّي اسقالة الرجل ، وقيميني بمدرة . فامتثلت كلامه فنزل وجلس على مصطبته ، وقد علت مرتبته ، واصطفت المقدمون بين يديه ، ووقفت الحبرتية حواليه وإذا بشيخ قد أقبل وثيابه مقطعة ، وعمامته في حلقه ، والدم نازل من أنفه ، وهو يصيح بصوت عال أنا بالله وبالوالي . فقال له : تعال يا شيخ مالي أرى أرطمونك في حلقك ، وشبورتك مكسورة ، وأنت بتزلع ماء متغير ، وتقيم الهليلا في الساحل دخل عليك شرد غربي ، وإلا دخلت على بواجي فقال الشيخ : والله يا سيدي بعض نواتية البحر عمل بي هذا . فقال يا أولاد : جيبوا عويموه وبخنسوا عدته ، وقشطوا ظهره ، وجروه على مقدمه ، فامتثلوا كلام الأمير . وجاءوا بالغريم فلما مثل بين يديه قال له : ويلك هو أنت بغنوس بسفر البحر ، أنت الذي قطعت القلس ، وخرجت في الشعت حتى لقيت هذا الرجل نطحت مخطمته ، وكسرت اسقالته لو انصلح كنت عملتك في بدراوة ، وعقلك في الصاري فلما سمع الرجل كلام الوالي علم أنه من أولاد المعيشة . فقال له بهمترة النواتية والله يا خوند هو كارزني في معاشي اجصطن على الوحسة ، وأنا عايم في الليل إلا وشرد جاني من الشرق كابس هز اطرافي ، وكسر شابورتي ، وقطع لباني وها هو بحمد الله على بر السلامة ، وإن كان انصلح فيه شيء فأنا بمرسوم الأمير أجيب له القلفاط أسد فتحه ، وأعيد له

---

(١) بحري يعمل على القوارب .

وسقه ، وأخليه يروح في طريقه . فقال له الوالي : أنت بتقدف في وجهي ، وتطرح مقاديفك حتى نعبر على الحجر ، يا رجالة الصاري سلسلوا أطرافه ، وعروا مقاديفه ، وبلوا شيبنة اللبان ، وانزلوا عليه وأوسقوه الجنبين والظهر حتى تلعب الميه على بطونسته ، هيا قوامك خلوا جنب برا وجنب جوا قدام الخن وراء الصاري . فأكل علقة من كعبه إلى أذنه ، فقالت النواتية يا خوندا هوّخنفست عليه الطمية البحرية . قال مدارتين وقيموه فلما أقاموه باس يد الأمير وقال يا خوند سألتك بهبوب الرياح ، وطيب النسيم ، الرب لا يبليك بجر اللبان في الحلافي وأنت حافي في الصيافي ويكفيك شر الأربعينات . قال : فرق عليه قلب الأمير وقال له وحق من ضرب القلع باللبان الحلفا عند بخنسة الريح وفروغ الزاد بعيد من البلاد ، وعياط الركاب عند قيام الموجة ، وبعد البر في أيام النيل ، لولا شفاعة الركاب لكنت أهدّ اسقالتك ، وأقعد في زوايدك ، حتى أخلي ظهرك جيفة . فقال له والله يا خوند ما بقي جنبي يحمل هذا الوثق العظيم ، ولكن إن عدت أعبر لهذا الوجه اخسف من أضلاعي ، لوح وغرقني بالقايم . فقال له الأمير أحمد الله على السلامة ، وأخرج في دي الطيابة وكتب له مرسوم وعلم عليه علامة الرياس البحرية للنواتية الله لك الله لي يا عملات على أبوس .

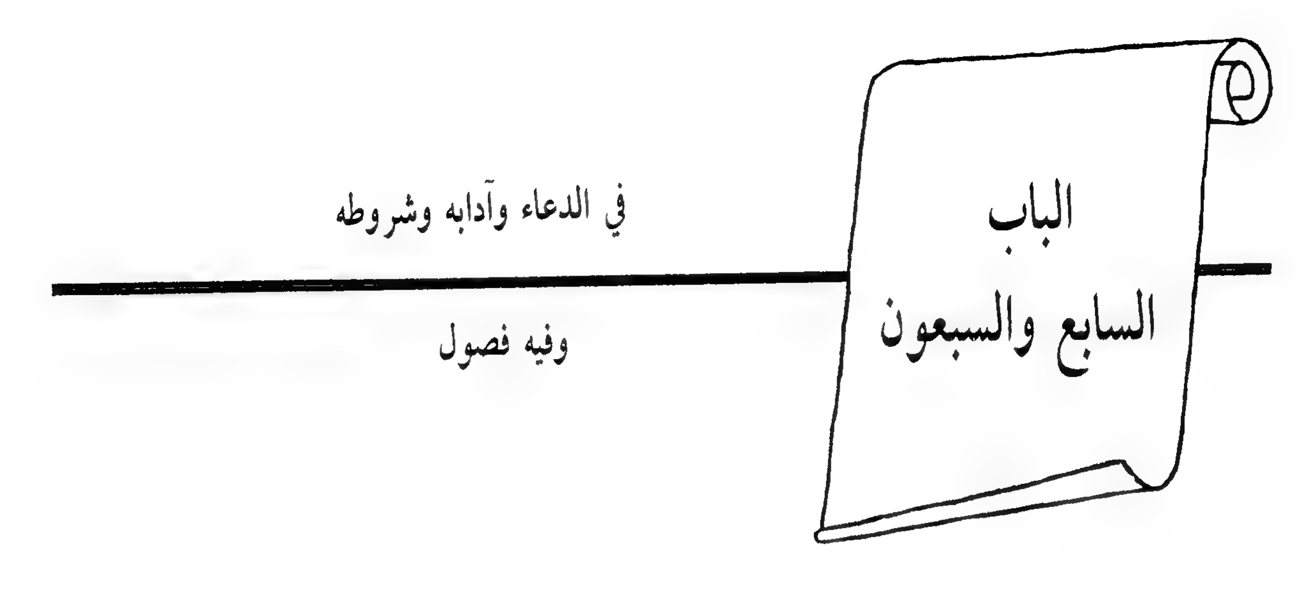


في نوادر جامعة

سمعت امرأة في الحديث أن صوم يوم عاشوراء كفارة سنة فصامت إلى الظهر ، ثم أفطرت . وقالت يكفيني كفارة ستة أشهر منها شهر رمضان . وأسلم مجوسي في شهر رمضان فثقل عليه الصيام فنزل إلى سرداب وقعد يأكل فسمع ابنه حسه فقال من هذا فقال أبوك الشقي يأكل خبز نفسه ويفزع من الناس . وسئل بعض القصاص عن نصرانيّ قال لا إله إلا الله لا غير إذا مات أين يدفن ؟ قال يدفن بين مقابر المسلمين والنصارى ليكون مذبذباً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . وأهدي إلى سالم القصاص خاتم بلا فص فقال إن صاحب هذا الخاتم يعطي في الجنة غرفة بلا سقف . وبنى بعض المغفلين نصف دار ، وبنى رجل آخر النصف الآخر فقال المغفل يوماً قد عولت على بيع النصف الذي لي ، وأشتري به النصف الآخر لتكمل لي الدار كلها . وسئل جامع الصيدلاني عن عمر ابنته فقال لا أدري إن أمها ذكرت أنها ولدتها في أيام البراغيث . وقيل لطفيلي أي سورة تعجبك في القرآن قال المائدة . قيل فأي آية قال ذرهم يأكلوا ويتمتعوا . قيل ثم ماذا قال آتنا غداءنا ، قيل ثم ماذا قال ادخلوها بسلام آمنين . قيل ثم ماذا قال وما هم منها بمخرجين . وقيل لعثمان بن دراج الطفيلي يوماً كيف تصنع بدار العرس إذا لم يدخلك أصحابها . قال أنوح على بابهم فيتطيرون من ذلك فيدخلوني . وقيل له أتعرف بستان فلان قال إي والله إنه الجنة الحاضرة في الدنيا ، قيل لم لا تدخله وتأكل من ثماره وتستظل بأشجاره ، وتسبح في أنهاره قال لأن فيه كلباً لا يتمضمض إلا بدماء عراقيب الرجال . وقيل له يوماً ما هذه الصفرة التي في لونك قال من الفترة بين الصحنين . وقال مرت بنا جنازة يوماً ومعي ابني ، ومع الجنازة امرأة تبكي وتقول الآن يذهبون بك إلى بيت لا فراش فيه ، ولا

غطاء ، ولا وطاء ، ولا خبز ولا ماء فقال ابني يا أبت إلى بيتنا والله يذهبون . وحكي عن هارون الرشيد أنه أرق ذات ليلة أرقاً شديداً فقال لوزيره أعفر بن يحيى البرمكي إني أرقت في هذه الليلة ، وضاق صدري ، ولم أعرف ما أصنع ، وكان خادمه مسرور واقفاً أمامه فضحك فقال له ما يضحكك استهزاء بي ، أم استخفافاً ؟ فقال وقرابتك من سيد المرسلين ﷺ ما فعلت ذلك عمداً ولكن خرجت بالأمس أتمشى بظاهر القصر إلى جانب الدجلة فوجدت الناس مجتمعين ، فوقفت فرأيت رجلاً واقفاً يضحك الناس يقال له ابن المغازلي فتفكرت الآن في شيء من حديثه وكلامه فضحكت والعفو يا أمير المؤمنين . فقال له الرشيد ائتني الساعة به فخرج مسرور مسرعاً إلى أن جاء إلى ابن المغازلي فقال له أجب أمير المؤمنين فقال سمعاً وطاعة . فقال له بشرط أنه إذا أنعم عليك بشيء يكون لك منه الربع والبقية لي فقال له بل اجعل لي النصف ، ولك النصف فأبى فقال الثلث ، ولك الثلثان فأجابه إلى ذلك بعد جهد عظيم فلما دخل على الرشيد سلم فأبلغ ، وترجم فأحسن ، ووقف بين يديه فقال له أمير المؤمنين : إن أنت أضحكتني أعطيتك خمسمائة دينار ، وإن لم تضحكني أضربك بهذه الجراب ثلاث ضربات . فقال ابن المغازلي في نفسه وما عسى أن تكون ثلاث ضربات بهذا الجراب وظن في نفسه أن الجراب فارغ فوقف يتكلم ويتمسخر وفعل أفعالاً عجيبة تضحك الجلمود فلم يضحك الرشيد ولم يتبسم فتعجب ابن المغازلي وضجر وخاف فقال له الرشيد الآن استحقيت الضرب ثم إنه أخذ الجراب ولفه وكان فيه أربع زلطات كل واحدة وزنها رطلان فضربه فلما وقعت الضربة في رقبته صرخ صرخة عظيمة وافتكر الشرط الذي شرطه عليه مسرور . فقال العفو يا أمير المؤمنين اسمع مني كلمتين قال قل ما بدا لك . قال إن مسروراً شرط عليّ شرطاً ، واتفقت أنا وإياه على مصلحة ، وهو أن ما حصل لي من الصدقات يكون له فيه الثلثان ، ولي فيه الثلث وما أجابني إلى ذلك إلا بعد جهد عظيم ، وقد شرط عليّ أمير المؤمنين ثلاث ضربات فنصيبي منها واحدة ، ونصيبه اثنتان وقد أخذت نصيبي ، وبقي نصيبه قال فضحك الرشيد ودعا مسروراً فضربه وقال يا أمير المؤمنين قد وهبت له ما بقي فضحك الرشيد وأمر لهما بألف دينار فأخذ كل واحد منهما خمسمائة ، ورجع ابن المغازلي شاكراً والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .





الباب السابع والسبعون

في الدعاء وآدابه وشروطه

وفيه فصول

الفصل الأول :

في الدعاء وآدابه

قال الله تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الدّاعي إذا دعانِ** ﴾[1] اختلف في سبب نزولها فقال مقاتل إن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه واقع امرأته بعد ما صلى العشاء في رمضان فندم على ذلك وبكى وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ورجع مغتماً وكان ذلك قبل الرخصة فنزلت هذه الآية وإذا سألك عبادي عني فاني قريب . وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : قالت اليهود كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام ، وغلظ كل سماء مثل ذلك فنزلت هذه الآية . وقال الحسن إن قوماً قالوا للنبي ﷺ : أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ، فنزلت هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾[1] أي أقبل عبادة من عبدني فالدعاء بمعنى العبادة والإجابة بمعنى القبول . وقال قوم إن الله تعالى يجيب كل الدعاء فأما أن يعجل الإجابة في الدنيا ، وإما أن يكفر عن الداعي ، وإما أن يدخر له في الآخرة ، لما رواه أبو سعيد الخدري قال قال : رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ، ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها ثلاثا : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخر له ثوابها ، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها » . وروي أنه إذا كان يوم القيامة واستقر أهل الجنة في الجنة ، فبينما العبد المؤمن في قصره ، وإذا ملائكة من عند ربه يأتونه بتحف من عند الله فيقول ما هذا ، أليس الله قد أنعم عليّ وأكرمني . فيقولون ألست كنت تدعو الله في الدنيا ، هذا دعاؤك الذي كنت تدعوه قد أدخره لك واعلم أن إجابة الدعاء لا بد لها من شروط ، فشرط الداعي أن يكون عالماً بأن لا قادر إلا الله ، وأن الوسائط في قبضته ومسخرة بتسخيره ، وأن يدعو بنية صادقة وحضور قلب . فان الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب لاه ، وأن يكون متجنباً لأكل الحرام ، ولا يمل من الدعاء . ومن شروط المدعو فيه أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعا كما قال عليه الصلاة والسلام : ما لم يدع بإثم ، أو قطيعة رحم

(١) سورة البقرة الآية ١٨٦ .

فيدخل في الأثم كل ما يأثم به من الذنوب ، ويدخل في الرحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم . قال ابن عطاء الله : إن للدعاء أركانا ، وأجنحة ، وأسبابا وأوقاتا فان وافق أركانه قوي ، وإن وافق أجنحته طار إلى السماء ، وان وافق مواقيته فاز ، وإن وافق أسبابه نجح ، فأركانه حضور القلب والخشوع ، وأجنحته الصدق ، ومواقيته الأسحار ، وأسبابه الصلاة على النبي ﷺ ، ومن شروط الدعاء أن يكون سليماً من اللحن كما قال بعضهم :

ينـادي ربـه بـاللحـن ليـث كـذاك إذا دعـاه لا يجـاب

وقيل : إن الله تعالى لا يستجيب دعاء عريف ، ولا شرطي ، ولا جاب ، ولا عشار ، ولا صاحب عرطبة وهي الطنبور ، ولا صاحب كوبة وهي الطبل الكبير الضيق الوسط . ومن آداب الدعاء أن يدعو الداعي مستقبلا القبلة ، ويرفع يديه لما روي عن رسول الله ﷺ قال : إن الله ربكم حي كريم ليستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفرا ، وأن يمسح بهما وجهه بعد الدعاء . لما روي عن عمر قال كان رسول الله ﷺ : إذا مد يديه في الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه ، وأن لا يرفع بصره إلى السماء لقوله ﷺ لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء ، أو ليخطفن الله أبصارهم ، وأن يخفض الداعي صوته بالدعاء لقوله تعالى : ﴿ **أدعوا ربكم تضرعا وخفية**[1]. وعن أبي عبد الرحمن الهمداني قال صليت مع أبي أسحاق الغداة فسمع رجلاً يجهر في الدعاء فقال : كن كزكريا إذ نادى ربه نداء خفياً . وينبغي للداعي أن لا يتكلف ، وأن يأتي بالكلام المطبوع غير المسجوع لقوله ﷺ : إياكم والسجع في الدعاء بحسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة ، وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار ، وما قرب إليها من قول وعمل . وقيل ادعوا بلسان الذلة والاحتقار ولا تدعوا بلسان الفصاحة والانطلاق وكانوا لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات فما دونها كما في آخر سورة البقرة . وعن سفيان بن عيينة لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فقد أجاب الله دعاء شر الخلق إبليس إذ قال : ﴿ **رب أنظرني إلى يوم يبعثون**﴾[2] وعن النبي ﷺ إذا سأل أحدكم مسألة فتعرف الإجابة ، فليقل الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، ومن أبطأ عليه من ذلك شيء فليقل الحمد لله على كل حال . وعن سلمة بن الأكوع قال : ما سمعت رسول الله ﷺ يستفتح الدعاء إلا قال : سبحان ربي الأعلى الوهاب . وعن أبي سليمان الداراني من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على رسول الله ﷺ ، وينبغي للمؤمن أن يجتهد في الدعاء ، وأن يكون على رجاء من الإجابة ، ولا يقنط من رحمة الله لأنه يدعو كريماً . وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الاجابة وذلك وقت السحر ، ووقت الفطر وما بين الأذان والاقامة ، وعند جلسة الخطيب بين الخطبتين إلى أن يسلم من الصلاة ، وعند نزول الغيث ، وعند التقاء الجيش في الجهاد في سبيل الله تعالى ، وفي الثلث الأخير من الليل ، لما جاء في الحديث : « إن في الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه » وفي حالة السجود لقوله عليه الصلاة والسلام أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء ، وما بين الظهر والعصر في يوم الاربعاء ، وأوقات الاضطرار ، وحالة السفر والمرض هذا كله جاءت به الآثار . قال جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه دعا رسول الله ﷺ في مسجد الفتح ثلاثة أيام يوم الاثنين ويوم الثلاثاء واستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين فعرفت السرور في وجهه . قال جابر ما نزل بي أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف

---

(١) سورة الاعراف الآية ٥٥ . (٢) سورة الحج الآية ٣٦ .

الإجابة . وفي بعض الكتب المنزلة يا عبدي إذا سألت فاسألني فإني غني ، وإذا طلبت النصرة فاطلبها مني فإني قوي ، وإذا أفشيت سرك فافشه إليّ ، فاني وفي ، وإذا أقرضت فأقرضني فاني ملي ، وإذا دعوت فادعني فاني حفيّ . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفر فأغفر له . وقال وهب بن منبه بلغني أن موسى مر برجل قائم يبكي ويتضرع طويلا . فقال موسى يا رب أما تستجيب لعبدك فأوحى الله تعالى إليه يا موسى لو أنه بكى حتى تلفت نفسه ورفع يديه حتى بلغ عنان السماء ما استجبت له قال يا رب لم ذلك ، قال لأن في بطنه الحرام . ومر إبراهيم بن أدهم بسوق البصرة فاجتمع الناس إليه وقالوا يا أبا اسحق ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا ، قال لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء ، الأول : أنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه . الثاني : زعمتم أنكم تحبون رسول الله ﷺ ثم تركتم سنته . الثالث : قرأتم القرآن ولم تعملوا به . الرابع : أكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها . الخامس : قلتم أن الشيطان عدوكم ووافقتموه . السادس : قلتم إن الجنة حق فلم تعملوا لها . السابع : قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها . الثامن : قلتم إن الموت حق فلم تستعدوا له . التاسع : انتبهتم من النوم واشتغلتم بعيوب الناس ، وتركتم عيوبكم . العاشر : دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم . وكان يحيى بن معاذ يقول من أقرّ لله باساءته جاد الله عليه بمغفرته ، ومن لم يمن على الله بطاعته أوصله إلى جنته ومن أخلص لله في دعوته من الله عليه باجابته . وقال علي رضي الله تعالى عنه ارفعوا أفواج البلايا بالدعاء . وعن أنس رضي الله تعالى عنه يرفعه : « ألا تعجزوا عن الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد » .



في الأدعية وما جاء فيها

كان من دعاء شريح رحمه الله تعالى اللهم إني أسألك الجنة ، بلا عمل عملته ، وأعوذ بك من النار بلا ذنب تركته . ودعت أعرابية عند البيت فقالت إلهي لك أذل وعليك أدل . وكان من دعاء بعض الصالحين : اللهم إن كنا عصيناك فقد تركنا من معاصيك أبغضها اليك وهو الإشراك ، وإن كنا قصرنا عن بعض طاعتك فقد تمسكنا بأحبها إليك وهو شهادة أن لا إله إلا أنت وأن رسلك جاءت بالحق من عندك . ومن دعاء سلام بن مطيع : اللهم إن كنت بلغت أحداً من عبادك الصالحين درجة ببلاء فبلغنيها بالعافية . وقيل لفتح الموصلي ادع الله لنا . فقال : اللهم هبنا عطاءك ، ولا تكشف عنا غطاءك . وكان من دعاء بعض السلف اللهم لا تحرمني خير ما عندك لشر ما عندي فان لم تقبل تعبي ونصبي فلا تحرمني أجر المصاب على مصيبته . اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى الناس فنضيع . وقال الحسن من دخل المقابر فقال : اللهم رب الأرواح الفانية ، والأجساد البالية ، والعظام النخرة التي خرجت من الدنيا وهي بك مؤمنة أدخل عليها روحا من عندك وسلاما منك، كتب الله له بعدد من مات من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة حسنات . وحكي عن معروف القاضي أن الحجيج كانوا يجتهدون في الدعاء وفيهم رجل من

التركمان ساكت لا يحسن أن يدعو فخشع قلبه وبكى فقال بلغته : اللهم إنك تعلم أني لا أحس شيئاً من الدعاء فأسألك ما يطلبون منك بما دعوا فرأى بعض الصالحين في منامه أن الله قبل حج الناس بدعوة ذلك التركماني لما نظر إلى نفسه بالفقر والفاقة . وقال الأصمعي حسدت عبد الملك على كلمة تكلم بها عند الموت وهي اللهم إن ذنوبي وإن كثرت وجلت عن الصفة فانها صغيرة في جنب عفوك فاعف عني . وركب إبراهيم بن أدهم في سفينة فهاجت الريح وبكى الناس وأيقنوا بالهلاك وكان إبراهيم نائماً في كساء فاستوى جالساً وقال أريتنا قدرتك ، فأرنا عفوك ، فذهب الريح وسكن البحر . وقال الثوري كان من دعاء السلف اللهم زهدنا في الدنيا ، ووسع علينا فيها ولا تزوها عنا ولا ترغبنا فيها . وكان بعض الأعراب إذا أوى إلى فراشه قال اللهم إني أكفر بكل ما كفر به محمد ، وأومن بكل ما آمن به ثم يضع رأسه . وسمعت بدوية تقول في دعائها يا صباح يا مناح يا مطعم يا عريض الجفنة يا أبا المكارم فزجرها رجل فقالت دعني أصف ربي ، وأمجد إلهي بما تستحسنه العرب . وقال الزمخشري في كتابه ربيع الأبرار سمعت أنا من يدعو من العرب عند الركن اليماني يا أبا المكارم ، يا أبيض الوجه وهذا ونحوه منهم إنما يقصدون به الثناء على الله تعالى بالكرم والنزاهة على القبيح على طريق الاستعارة ، لأنه لا فرق عندهم بين الكريم ، وأبي المكارم ولا بين الجواد ، والعريض الجفنة ، ولا بين المنزه والأبيض الوجه ، وقيل لأعرابي أتحسن أن تدعو ربك قال نعم ثم قال : اللهم إنك أعطيتنا الاسلام من غير أن نسألك ، فلا تحرمنا الجنة ونحن نسألك . وذكر لعبد السلام بن مطيع أن الرجل تصيبه البلوى فيدعو فتبطىء عنه الإجابة ، فقال بلغني أن الله تعالى يقول : « كيف أرحمه من شيء به أرحمه » وقال طاوس بينما أنا في الحجر ذات ليلة إذ دخل عليّ علي بن الحسين فقلت رجل صالح من أهل بيت الخير لاسمعنّ دعاءه فسمعته يقول : عبيدك بفنائك مسكينك بفنائك ، فقيرك بفنائك ، فما دعوت بهما في كرب إلا فرج عني . ودعا أعرابي فقال اللهم إنا نبات نعمتك . وقال ابن المسيب سمعت من يدعو بين القبر والمنبر اللهم إني أسألك عملاً باراً ورزقاً دارا ، وعيشا قارا ، فدعوت به فما وجدت إلا خيرا . ودعت أعرابية بالموقف فقالت أسألك سترك الذي لا تزيله الرياح ، ولا تخرقه الرماح . وقيل اتقوا مجانيق الضعفاء . أي دعواتهم. ودعا أعرابي فقال اللهم امح ما في قلبي من كذب وخيانة، واجعل مكانه صدقا وأمانة . وصلى رجل إلى جنب عبد الله بن المبارك وبادر القيام فجذب ثوبه وقال أما لك إلى ربك حاجة . وقال سفيان الثوري سمعت أعرابياً يقول : اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله ، وإن كان في الأرض فأخرجه ، وإن كان بعيدا فقرّبه وإن كان قريباً فيسره ، وإن كان قليلا فكثره ، وإن كان كثيراً فبارك لي فيه . وقال أبو نواس :

أحببت من شعر بشار وكلمته ... بيتا لهجت فيه من شعر بشار

يا رحمة الله حلي في منازلنا ... وجاورينا فدتك النفس من جار

وكان بشار يعني بذلك جارية بصرية كان يحبها ويتغزل فيها ، ونعني بها هنا رحمة الله التي وسعت كل شيء ، وسمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه رجلاً يقول وهو متعلق بأستار الكعبة يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل ، ولا يبرمه إلحاح الملحين أذقني برد عفوك ، وحلاوة مغفرتك فقال علي : والذي نفسي بيده لو قلتها وعليك ملء السموات والأرض من الذنوب لغفر لك . ومن دعائه رضي الله عنه اللهم صن وجهي باليسار ، ولا تبدل جاهي بالاقتار فأسترزق طامعاً رزقك من غيرك ، وأستعطف شرار خلقك ، وأبتلي بحمد من أعطاني وأفتتن بذم من منعني ، وأنت من وراء ذلك كله وليّ الإجابة والمنع . وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن

النبي ﷺ قال ما انتهيت إلى الركن اليماني قط إلا وجدت جبريل قد سبقني إليه يقول : قل يا محمد اللهم أني أعوذ بك من الكفر ، والفقر ، والفاقة . وهي من مواقف الخزي . وهبط جبريل على يعقوب فقال : يا يعقوب إن الله تعالى يقول لك : قل يا كثير الخير يا دائم المعروف رد عليّ ابنيّ : فقالها فأوحى الله تعالى إليه وعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك . وكان أبو مسلم الخراساني إذا نابه أمر قال : يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين . وقال جعفر بن محمد : ما المبتلي الذي اشتد بلاؤه بأحق بالدعاء من المعافى الذي لا يأمن وقوع البلاء . وكان الزهري يدعو بعد الحديث بدعاء جامع فيقول : اللهم اني أسألك من خير ما أحاط به علمك في الدنيا والآخرة ، وأعوذ بك من شر ما أحاط به علمك في الدنيا والآخرة . وعن عقبة بن عبد الغافر دعوة في السر أفضل من سبعين دعوة في العلانية . واعلم أن التوحيد والدعاء عند نوازل الملمات هو سفينة النجاة من الحوادث المهلكات . وعن أبي الدرداء قال صلى بنا رسول الله ﷺ العصر فمر بنا كلب فما بلغت يده رجله حتى وقع ميتاً . فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلاته قال من الداعي على الكلب آنفاً قال رجل من القوم:أنا يا رسول الله.قال:لقد دعوت الله باسمه الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، قال كيف دعوت الله ؟ قال قلت اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت ، المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والاكرام . وقيل إنه دخلت أذن رجل من أهل البصرة حصاة فعالجها الأطباء فلم يقدروا عليها حتى وصلت إلى صماخه فأتى إلى رجل من أصحاب الحسن فشكا له ما أصابه من الحصاة فدعا له بدعاء العلاء بن الحضرمي وهو : يا علي يا عظيم يا حليم يا عليم . قال الراوي فما برحنا حتى خرجت الحصاة من أذنه ولها طنين حتى ضربت الحائط . وعن أنس إذا قال العبد : يا رب يا رب يا رب يقول الله عز وجل لبيك عبدي . وعنه قال مر رسول الله ﷺ وهو يقول يا أرحم الراحمين فقال له رسول الله ﷺ : « سل حاجتك فقد نظر الله إليك » . وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا فتح الله على عبد الدعاء فليكثر ، فان الله يستجيب له » . وروي عن علي بن أبي زفر عن أخ له وكان فاضلاً صالحاً فقال : دعوت الله أن يريني الاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب فقمت ليلة أصلي فسمعت قعقعة في سقف البيت ثم هبط نور حتى صار تلقاء وجهي وإذا مكتوب بالنور . فقرأته : يا الله يا رحمن يا ذا الجلال والاكرام . ومن دعاء الكرب ما روي عن وهب أن ابن عباس رضي الله عنهما قال له هل تجد فيما تقرأ من الكتب دعاء تدعو به عند الكرب؟ قال نعم: اللهم أني أسألك يا من يملك حوائج السائلين ، ويعلم ضمير الصامتين فان لكل مسألة منك سمعا حاضرا ، وجواباً عتيداً . ولكل صامت منك علما ناطقا محيطا ، أسألك بمواعيدك الصادقة ، وأياديك الفاضلة ، ورحمتك الواسعة أن تفعل بي كذا وكذا . فقال ابن عباس هذا دعاء علمته في النوم ما كنت أرى أن أحداً يحسنه . وعن وهب أيضاً قال لما أهبط الله تعالى آدم من الجنة إلى الأرض استوحش لفقد أصوات الملائكة فهبط إليه جبريل وقال يا آدم هل أعلمك شيئاً تنتفع به في الدنيا والآخرة ؟ قال بلى . قال : اللهم أتمم النعمة حتى تهنيني المعيشة . اللهم اختم لي بخير حتى لا تضرني ذنوبي ، اللهم اكفني مؤنة الدنيا ، وكل هول في القيامة حتى تدخلني الجنة معافى . وعن معروف الكرخي قال اجتمعت اليهود أخزاهم الله على قتل عيسى عليه الصلاة والسلام بزعمهم وأهبط الله تعالى عليه جبريل ، وفي باطن جناحيه مكتوب : اللهم أني أدعوك باسمك الأجل الأعز ، وأدعوك اللهم باسمك الأحد الصمد ، وأدعوك اللهم باسمك العظيم الوتر ، وأدعوك اللهم باسمك الكبير المتعالي الذي ملأ الأركان كلها أن تكشف عني ضر ما أصبحت وأمسيت فيه . فأوحى الله عز وجل إلى جبريل أن إرفع عبدي إليّ . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه عليكم بهذا الدعاء ولا تستبطئوا الاجابة ، فان ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . اسناد هذا

متصل إلى معروف الكرخي ثم هو منقطع ولو لم يكن فيه من البركة إلا رواية معروف لكان كافياً في قوله والعمل به . حدث عبد الله بن إبان الثقفي رضي الله عنه قال وجهني الحجاج بن يوسف في طلب أنس بن مالك فظننت أنه يتوارى عني فأتيته بخيلي ورجلي فاذا هو جالس على باب داره ماداً رجليه فقلت له أجب الأمير فقال أي الأمراء فقلت أبو محمد الحجاج فقال غير مكترث به قد أذله الله ، ما أراني أعزه لأن العزيز من عزّ بطاعة الله ، الذليل من ذل بمعصية الله وصاحبك قد بغى وطغى واعتدى وخالف كتاب الله والسنة والله لينتقم الله منه . فقلت له أقصر عن الكلام وأجب الأمير فقام معنا حتى حضر بين يدي الحجاج فقال له أنت أنس بن مالك قال نعم . قال أنت الذي تدعو علينا وتسبنا قال نعم . قال ومم ذاك قال لأنك عاص لربك ، مخالف لسنة نبيك تعز أعداء الله ، وتذل أولياء الله فقال له أتدري ما أريد أن أفعل بك قال لا . قال أريد أن أقتلك شر قتلة .قال أنس:لو علمت أن ذلك بيدك لعبدتك من دون الله . قال الحجاج ولم ذاك قال لأن رسول الله ﷺ علمني دعاء وقال من دعا به في كل صباح لم يكن لأحد عليه سبيل وقد دعوت به في صباحي هذا . فقال الحجاج علمنيه فقال معاذ الله أن أعلمه لأحد ما دمت أنت في الحياة . فقال الحجاج خلوا سبيله . فقال الحاجب أيها الاميرلنا في طلبه كذا وكذا يوما حتى أخذناه فكيف نخلي سبيله قال : رأيت على عاتقه أسدين عظيمين فاتحين أفواهما . ثم إن أنساً رضي الله عنه لما حضرته الوفاة علم الدعاء لإخوانه وهو : بسم الله الرحمن الرحيم باسم الله خير الأسماء باسم الله الذي لا يضر مع اسمه أذى ، باسم الله الكافي باسم الله المعافي ، باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ، باسم الله على نفسي وديني ، وباسم الله على أهلي ومالي ، باسم الله على كل شيء أعطانيه ربي الله أكبر الله أكبر أعوذ بالله مما أخاف وأحذر ، الله ربي لا أشرك به شيئاً عز جارك وجل ثناؤك ، وتقدست أسماؤك ولا إله غيرك اللهم إني أعوذ بك من شر كل جبار عنيد وشيطان مريد ومن شر قضاء السوء ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم . وهذا دعاء مشهور الاجابة وله شرح طويل تركناه لطوله وهو : اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء ، وعلوت بعظمتك على العظماء ، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك ، وعلانية القول كالسر في علمك ، وانقاد كل شيء لعظمتك ،وخضوع كل ذي سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك لا بيد غيرك ، اجعل لي من كل هم وغم أصبحت أو أمسيت فيه فرجا ومخرجا إنك على كل شيء قدير . اللهم إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك عن قبيح عملي أطمعني أن أسألك ما لا أستوجبه منك مما قضيته لي أدعوك آمناً وأسألك مستأنساً لا خائفاً ، ولا وجلا لأنك أنت المحسن إليّ وأنا المسيء إلى نفسي فيما بيني وبينك ، تتودد إلّي بالنعم مع غناك عني ، وأتبغض إليك بالمعاصي مع افتقاري إليك فلم أر مولى كريماً أعطف منك على عبد لئيم مثلي ، لكن الثقة بك حملتني على الجراءة على الذنوب . فأسألك بجودك وكرمك واحسانك وطولك أن تصلي على محمد وآله وأن تفتح لي باب الفرج بطولك وتحبس عني باب الهم بقدرتك ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين فأعجز ، ولا إلى الناس فأضيع برحمتك يا أرحم الراحمين . وروى الحافظ النسفي باسناده عن الزهري عن أبي مسلمة عن ابي هريرة قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل ساجد وهو يقول في سجوده : اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك من مظالم كثيرة لعبادك قبلي فأيما عبد من عبادك ، أو أمة من أمائك كانت له قبلي مظلمة ظلمتها اياه من مال أو بدن أو عرض ، علمتها أو لم أعلمها ولم استطع أن أتحللها فأسألك أن ترضيه عني بما شئت وكيف شئت ثم تهبها لي من لدنك إنك واسع المغفرة ولديك الخير كله . يا رب ما تصنع بعذابي ورحمتك وسعت كل شيء فلتسعني رحمتك فاني

لا شيء وأسألك يا رب أن تكرمني برحمتك ولا تهني بذنوبي وما عليك أن تعطيني الذي سألتك يا رب يا الله . فقال رسول الله ﷺ : ارفع رأسك فقد غفر الله لك ، إن هذا دعاء أخي شعيب عليه السلام . وقال صالح المزني قال لي قائل في منامي إذا أحببت أن يستجاب لك فقل اللهم إني أسألك باسمك المخزون المكنون المبارك الطيب الطاهر المطهر المقدس . فما دعوت بها في شيء إلا تعرفت الإجابة وقيل إن هذا الدعاء فيه اسم الله الأعظم وهو بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إني أسألك بالعزة التي لا ترام ، والملك الذي لا يضام ، والعين التي لا تنام ، والنور الذي لا يطفأ ، وبالوجه الذي لا يبلى، وبالديمومية التي لا تفنى، وبالحياة التي لا تموت وبالصمدية التي لا تقهر ، وبالربوبية التي لا تستذل أن تجعل لنا في أمورنا فرجا ومخرجا حتى لا نرجو غيرك يا أرحم الراحمين. وقال سعيد بن المسيب دخلت المسجد في ليلة مقمرة وأظن أني قد أصبحت وإذا الليل على حاله فقمت أصلي وجلست أدعو وإذا بهاتف يهتف من خلفي يا عبد الله قل قلت ما أقول قال قل : اللهم إني أسألك بأنك ملك ، وأنت على كل شيء قدير ، وما تشاء من أمر يكون . قال سعيد : فما دعوت به قط في شيء إلا رأيت نجحه، وعن الشيخ كمال الدين الدميري قال روينا عن قاضي القضاة عز الدين بن جماعة قال : أنبأنا الشيخ شرف الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مناع الفزاري خطيب دمشق قال أنبأنا الشيخ زين الدين أبو البقاء خالد بن يوسف النابلسي بقراءتي عليه قال أنبأنا الحافظ بهاء الدين ناصر السنة محمد بن الإمام أبي محمد بن الحافظ أبي القاسم علّي بن الحسين بن هبة الله بن عساكر قراءة عليه وأنا أسمع قال رويت بالاسناد وذكر إسناده إلى الإمام الحجة التابعي الجليل محمد بن سيرين قال نزلنا بنهر تيرا فأتانا أهل ذلك المنزل فقالوا لنا ارحلوا فإنه لم ينزل هذا المنزل أحد إلا أخذ متاعه ، فرحل أصحابي وتخلفت فلما أمسينا قرأت آيات فما تمت حتى رأيت أقواماً قد أقبلوا وجاءوا إلى جهتي أكثر من ثلاثين نفراً وقد جردوا سيوفهم فلم يصلوا إليّ فلما أصبحت رحلت فلقيني شيخ على فرس ومعه قوس عربية فقال لي : يا هذا إنسي أنت أم جني ؟ فقلت : بل أنا من بني آدم . قال : فما بالك لقد أتيناك في هذه الليلة أكثر من سبعين مرة وفي كل ذلك يحال بيننا وبينك بسور من حديد قلت حدثني ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من قرأ في ليلة ثلاثا وثلاثين آية لم يضره في تلك الليلة لص طار ، ولا سبع ضار وعوفي في نفسه وأهله وماله حتى يصبح . فنزل عن فرسه وكسر قوسه وأعطى الله تعالى عهداً أن لا يعود لهذا الأمر . وهذه الآيات وهي أن تقرأ بعد الفاتحة ألم ذلك الكتاب إلى قوله المفلحون وآية الكرسي إلى قوله هم فيها خالدون وآمن الرسول إلى آخر السورة وإن ربكم الله الذي إلى قوله المحسنين وقل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن إلى آخر السورة والصافات صفاً إلى قوله لازب ويا معشر الجن والانس إن استطعتم إلى قوله فلا تنتصران . لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً . إلى آخرها . وأنه تعالى تعالى جدّربنا إلى قوله شططا ، زاد البوني إلى قوله شهاباً راصداً والله من ورائهم محيط إلى قوله محفوظ . قال محمد بن سيرين فذكرت هذا الحديث لشعيب ابن حرب فقال كنا نسميها آيات الحرز . ويقال إن فيها شفاء من مئة داء وعدواً منها الجذام وغير ذلك . قال محمد بن علي قرأتها على شيخ لنا قد أفلج فأذهب الله تعالى عنه ذلك الفالج .
قال البوني هذه الآيات شرفها مشهور وفضلها مذكور ، لا ينكرها إلا غبي أو غيور وقد جربها المشايخ وعرف سرها من له في العلم قدم راسخ ، وقدر شامخ ، وهي على ما رويناه بل ما رأيناه أولها الفاتحة ثم أول البقرة إلى آخر الآيات . وقال أبو العباس أحمد القسطلاني سمعت الشيخ أبا عبد الله القرشي يقول : سمعت أبا زيد القرطبي يقول في بعض الآثار ، إن من قال لا إله إلا الله سبعين ألف مرة كانت فداءه من النار فعملت ذلك رجاء بركة الوعد ففعلت منها لأهلي ، وعملت أعمالاً ادخرتها لنفسي ، وكان إذ ذاك يبيت معنا شاب يكاشف بالجنة

والنار ، وكانت الجماعة ترى له فضلاً على صغر سنه وكان في قلبي منه شيء فاتفق ان استدعانا بعض الأخوان إلى منزله فنحن نتناول الطعام والشاب معنا إذ صاح صيحة منكرة واجتمع في نفسه وهو يقول يا عم هذه أمي في النار ويصيح بصياح عظيم لا يشك من سمعه أنه عن أمر ، فلما رأيت ما به من الازعاج قلت اليوم أجرب صدقه فألهمني الله تعالى السبعين ألفاً ولم يطلع على ذلك إلا الله تعالى . فقلت في نفسي الأثر حق والذين رووه لنا صادقون ، اللهم إن هذه السبعين ألفاً فداء أمّ هذا الشاب من النار فما استتممت هذا الخاطر في نفسي أن قال يا عم هذه أمي أخرجت من النار والحمد لله فحصل عندي فائدتان امتحاني لصدق الأثر ، وسلامتي من الشاب وعلمي بصدقه . ومن خاف انساناً فليصل ركعتين بعد صلاة المغرب ثم يضع جبهته على التراب ويقول يا شديد المحال يا عزيز أذللت بعزتك جميع من خلقت صل على محمد وآله ، واكفني فلاناً بما شئت كفاه الله تعالى شره . وروى الثقفي رحمه الله تعالى باسناده إلى محمد بن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول لولده يا بنيّ من أصابته مصيبة في الدنيا أو نزلت به نازلة فليتوضأ وليحسن الوضوء وليصل أربع ركعات أو ركعتين ، فإذا انصرف من صلاته يقول يا موضع كل شكوى ، ويا سامع كل نجوى ، ويا شاهد كل بلوى ، ويا منجي موسى والمصطفى محمد ، والخليل إبراهيم عليهم السلام أدعوك دعاء من اشتدت فاقته ، وضعفت حركته ، وقلت حيلته دعاء الغريب الغريق الفقير الذي لا يجد لكشف ما هو فيه إلا أنت يا أرحم الراحين ، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . قال علي بن الحسين رضي الله عنهما لا يدعو به مبتلي إلا فرج الله عنه . وقيل الاسلام الأعظم هو: ((باسم الله الرحمن الرحيم اللهم إني أسألك يا مؤنس كل وحيد ، يا قريباً غير بعيد يا شاهداً غير غائب يا غالباً غير مغلوب ، يا حي يا قيوم ، يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والاكرام أسألك باسمك باسم الله الرحمن الرحيم الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم اسألك باسمك باسم الله الرحمن الرحيم الذي عنت له الوجوه ، وخشعت له الأصوات ، ووجلت له القلوب أن تصلي على محمد وعلى آله وأن تعطيني كذا وكذا إنك على كل شيء قدير)) . وهذه أبيات الفرج لأحمد بن حمزة البوني . قيل إن فيها اسم الله الأعظم وهي هذا :

إني لأرجو عطفة الله ولا	أقول إن قيل متى ذاك متى
لا بد أن ينشر ما كان طوى	جوادا وان يمطر ما كان خوى
وربما ينشر ما كان زوى	وربما قدّر ما كان لوى
وكل شيء ينتهي إلى مدى	والشيء يرجى كشفه إذا انتهى
لطائف الله وإن طال المدى	كلمحة الطرف إذا الطرف رمى
كم فرج بعد إياس قد أتى	وكم سرور قد أتى بعد الأسى
من لاذ بالله نجا فيمن نجا	من كل ما يخشى ونال ما رجا
سبحان من نهفوا ويعفو دائماً	ولم يزل مهما هفا العبد عفا
يعطي الذي يخطي ولا يمنعه	جلاله من العطا لذي الخطا

ومن المنظوم أيضاً :

يا من يرى ما في الضمير ويسمع	أنت المعدّ لكل ما يتوقع
يا من يرجى للشدائد كلها	يا من إليه المشتكى والمفزع

يا من خزائن رزقه في قول كن ... أمنن فان الخير عندك أجمع
ما لي سوى فقري إليك وسيلة ... فبالافتقار إليك فقري أدفع
مالي سوى قرعي لبابك حيلة ... فلئن رددت فأي باب أقرع
ومن ذا الذي أدعو وأهتف باسمه ... إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لجودك أن تقنط عاصيا ... الفضل أجزل والمواهب أوسع
ثم الصلاة على النبيّ وآله ... خير الأنام ومن به يتشفع

وقال آخر :

يا خالق الخلق يا رب العباد ومن ... قد قال في محكم التنزيل أدعوني
إني دعوتك مضطراً فخذ بيدي ... يا جاعل الأمر بين الكاف والنون
نجيت أيوب من بلواه حين دعا ... بصبر أيوب يا ذا اللطف نجيني
واطلق سراحي وامنن بالخلاص كما ... نجيت من ظلمات البحر ذا النون

ثم يقرأ ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾[1] قال بعضهم :

يا رب ما زال لطف منك يشملني ... وقد تجدد بي ما أنت تعلمه
فاصرفه عني كما عوّدتني كرما ... فمن سواك لهذا العبد يرحمه

وقال آخر :

يا من تُحل بذكره ... عقد النوائب والشدائد
يا من إليه المشتكى ... وإليه أمر الخلق عائد
يا حي يا قيوم يا ... صمد تنزه عن مضادد
أنت الرقيب على العبا ... د وأنت في الملكوت واحد
أنمت المعز لمن أطا ... عك والمذل لكل جاحد
إني دعوتك والهمـ ... ـوم جيوشها نحوي تطارد
فافرج بحولك كربتي ... يا من له حسن العوائد
فخفي لطفك يستعا ... ن به على الزمن المعاند
أنت الميسر والمسبـ ... ـب والمسهل والمساعد
يسر لنا فرجا قر ... يبا يا إلهي لا تباعد
كن راحمي فلقد يئست ... من الأقارب والأباعد
ثم الصلاة على النبي ... وآله الغر الأماجد
وعلى الصحابة كلهم ... ما خر للرحمن ساجد

---

(١) سورة الانبياء الآية ٨٧ .

دعاء عظيم مأثور

اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي إلى من تكلني ، إلى بغيض يتهجمني ، أو إلى قوّي ملكته أمري ، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن يحل بي غضبك ، أو ينزل سخطك ، فلك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة لنا إلا بك يا رب العالمين .

ومما جاء في أدعية الناس بعضهم لبعض

دعا رجل لآخر فقال سرك بما ساءك ، ولا ساءك فيما سرك . ودعا رجل لآخر فقال . لا اخلاك الله تعالى من ثناء صادق باق ودعاء صالح واق . ودعا أعرابي لآخر فقال : رحب واديك ، وعز ناديك ، ولا ألم بك ألم ، ولا طاف بك عدم ، وسلمك الله ولا أسلمك . وسمعت بعض العرب يدعو لرجل ويقول : سلمك الله تعالى من الرهق والوهق وعافاك الله تعالى من الوحل والزحل ، وسلمك الله تعالى من الشاردات والواردات ، وسلمك الله بين الأعنة والأسنة . ودعا أعرابي لعبد الله بن جعفر رضي الله عنه فقال : لا ابتلاك الله تعالى ببلاء يعجز عنه صبرك ، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك ، وأبقاك ما تعاقب الليل والنهار وتناسخت الظلم والأنوار . ودعا بعضهم لآخر فقال زودك الله تعالى الأمن في مسيرك ، والسعد في مصيرك ، ولا أخلاك من شر، تستجده وخير من الله تستمده . وعزّى شبيب بن شبة يهودياً فقال أعطاك الله على مصيبتك أفضل ما أعطى أحداً من أهل ملتك .

ومما جاء في الدعاء على الأعداء والظلمة ونحوهم دعا اعرابي على ظالم فقال : لا ترك الله لك شفراً ولا ظفراً أي عينا ولا يداً . ومن دعاء العرب فته الله فتاً ، وحته حتاً ، وجعل أمره شتى . وخرج أعرابي إلى سفر وكانت له امرأة تكرهه فأتبعته نواة. وقالت: شط نواك، ونأى سفرك ثم أتبعته روثة وقالت رثتك أهلك ، وورث خيرك ، ثم أتبعته حصاة وقالت حاص رزقك وحص أثرك . ودعا أعرابي على آخر فقال : أطفأ الله ناره وخلع نعليه . أي جعله أعمى مقعداً . ودعا اعرابي على آخر فقال : سقاه الله دم جوفه أي قتل ابنه ، وأخذ ديته ، فشرب لبنها . ودعا أعرابي على آخر فقال بعث الله عليه سنة قاشورة تحلقه كما يحلق الشعر بالنورة . ودعا رجل على أمير فقال :

أزال الله دولته سريعاً ... فقد ثقلت على عنق الليالي

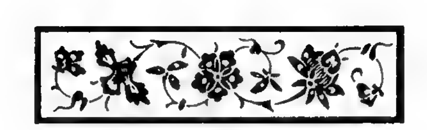
وقالت امرأة من بني ضبة في زوجها :

وما دعوت عليه حين ألعنه ... إلا وآخر يتلوه بآمين

فليته كان أرض الروم منزله ... وليتني قبله قد صرت للصين

وقال رسول الله ﷺ في خطبته يوم الأحزاب : اللهم أكلّ سلاحهم ، واضرب وجوههم ، ومزقهم في البلاد تمزيق الريح للجراد . ودعا رجل فقال اللهم أكفنا أعداءنا ومن أرادنا بسوء فلتحط به ذلك

السوء إحاطة القلائد بترائب الولائد ، ثم أرسخه على هامته كرسوخ السجيل على هام أصحاب الفيل وحسبنا الله ونعم الوكيل . ولنختم هذا الباب بهذا الدعاء المبارك وهو اللهم إنك عرفتنا بربوبيتك ، وغرقتنا في بحار نعمتك ، ودعوتنا إلى دار قدسك ، ونعمتنا بذكرك وأنسك إلهي إن ظلمة ظلمنا لنفوسنا قد عملت ، وبحار الغفلة على قلوبنا قد طمت ، والعجز شامل ، والحصر حاصل ، والتسليم أسلم وأنت بالحال أعلم إلهي ما عصيتك جهلاً بعقابك ، ولا تعرضاً لعذابك ولكن سوّلتها نفوسنا وأعانتنا شقوتنا وغرنا سترك علينا ، وأطمعنا في عفوك برك بنا . فالآن من عذابك من ينقذنا ، وبحبل من نعتصم إن قطعت حبلك عنا ، واخجلتاه غدا من الوقوف بين يديك ، وافضيحتاه إن عرضت فعالنا القبيحة عليك ، اللهم اغفر ما علمت ، ولا تهتك ما سترت . إلهي إن كنا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل ، حيث علمنا أن لنا رباً يغفر لنا ولا يبالي . إلهي تحرق بالنار وجهاً كان لك مصلياً ، ولساناً كان لك ذاكراً وداعياً ، لا بالذي دلنا عليك وأمرنا بالخشوع بين يديك وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم أنبيائك وسيد أصفيائك فان حقه علينا أعظم الحقوق بعد حقك ، كما أن منزلته لديك أشرف المنازل ، سيد خلقك ، ومعدن أسرارك ، صل يا رب على محمد وآله وأصحابه وارحم عباداً غرهم طول إمهالك ، وأطمعهم كثرة إفضالك فقد ذلوا لعزك وجلالك ، ومدوا أكفهم لطلب نوالك ولولا ذلك لم يصلوا إلى ذلك . اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين أجمعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .





في القضاء والقدر ، وأحكامه ، والتوكل على الله عز وجل

إعلم أن كل ما يجري في العالم من حركة وسكون ، خير وشر ، ونفع وضر ، وإيمان وكفر ، وطاعة ومعصية ، فكل بقضاء الله وقدره وكذلك فلا طائر يطير بجناحيه ، ولا حيوان يدب على بطنه ورجليه ، ولا تطن بعوضة ، ولا تسقط ورقة إلا بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته ، كما لا يجري شيء من ذلك إلا وقد سبق علمه به . وأعلم أن كل ما قضاه الله تعالى وقدره فهو كائن لا محالة ، كما أن ما في علم الله تعالى يكون فهو كائن قريب ، وما قدّر الله وصوله إليك بعد الطلب فهو لا يصل إليك إلا بالطلب ، والطلب أيضاً من القدر ، فان تعسر شيء فبتقديره وإن اتفق شيء فبتيسيره فمن رام أمراً من الأمور ليس الطريق في تحصيله أنه يغلق بابه عليه ، ويفوض أمره لربه ، وينتظر حصول ذلك الأمر ، بل الطريق أن يشرع في طلبه على الوجه الذي شرعه الله له فيه وقد ظاهر النبي ﷺ بين درعين ، واتخذ خندقاً حول المدينة حين تحزبت عليه الأحزاب يحترس به من العدوّ ، وأقام الرماة يوم أحد ليحفظوه من خالد بن الوليد وكان يلبس لأمة الحرب ويهيىء الجيوش ويأمرهم وينهاهم لما فيه من مصالحهم واسترقى وأمر بالرقية ، وتداوى وأمر بالمداواة ، وقال الذي أنزل الداء أنزل الدواء . فان قيل قد روي أن النبي ﷺ قال من استرقى أو اكتوى فهو بريء من التوكل . قلنا أليس قد قال اعقلها وتوكل . فان قيل فما الجمع بين ذلك ، قلنا معناه من استرقى أو اكتوى متكلا على الرقية أو الكي وأن البرء من قبلهما خاصة لهذا يخرجه عن التوكل ، وإنما يفعله كافر يضيف الحوادث إلى غير الله ، وقد أمرنا بالكسب والتسبب ألا ترى أن الله قال لمريم عليها السلام ﴿وهزي اليك بجذع النخلة﴾[1] فهلا أمرها بالسكون وحمل الرطب إلى فمها وأنشدوا في ذلك :

ألم تـر أن الله قـال لمـريـم ... وهزي إليك الجذع يساقط الرطب
لو شاء أن تجنيه من غير هـزها ... جنته ولكن كـل شيء لـه سبب

وقد تقدّم هذا الشعر في باب الكسب والتسبب ولهذا قال رسول الله ﷺ : « لو توكلتم على الله حق

(١) سورة مريم الآية ٢٥ .

توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » فلم يحمل أرزاقها إليها في أوكارها بل ألهمها طلبها بالغدو والرواح وقد جمعوا بين الطلب والقدر فقالوا إنهما كالعدلين على ظهر الدابة إن حمل في واحد منهما أرجح مما في الآخر سقط حمله ، وتعب ظهره ، وثقل عليه سفره ، وإن عادل بينهما سلم ظهره ، ونجح سفره ، وتمت بغيته . وضربوا فيه مثالاً عجيباً فقالوا : إن أعمى ومقعداً كانا في قرية بفقر وضر ، لا قائد للأعمى ،ولا حامل للمقعد وكان في القرية رجل يطعمهما قوتهما في كل يوم احتسابا بالله تعالى ، فلم يزالا بنعمة إلى أن هلك ذلك الرجل فلبثا بعده أياماً ، واشتد جوعهما ، وبلغ الضر منهما جهده ، فأجمع رأيهما على أن الأعمى يحمل المقعد ، فيدله المقعد على الطريق ببصره . فاشتغل الأعمى بحمل المقعد ويدور به ويرشده إلى الطريق ، وأهل القرية يتصدّقون عليهما فنجح أمرهما ، ولولا ذلك لهلكا . فكذلك القدر سببه الطلب ، والطلب سببه القدر وكل واحد منهما معين لصاحبه ، ألا ترى أن من طلب الرزق والولد ثم قعد في بيته لم يطأ زوجته ولم يبذر أرضه معتمداً في ذلك على الله واثقاً به أن تلد امرأته من غير مواقعة ، وأن ينبت الزرع من غير بذر كان عن المعقول خارجاً ولأمر الله كارهاً ، قال الغزالي أما المعيل فلا يخرج عن حل التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم ، وتسكيناً لقلوبهم وقد ادخر رسول الله ﷺ قوت سنة ونهى أم أيمن وغيرها أن تدّخر شيئاً . وقال أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا . وقال عبد الله بن الفرج اطلعت على إبراهيم بن أدهم وهو في بستان بالشام فوجدته مستلقياً على قفاه وإذا بحية في فمها باقة نرجس فما زالت تذب عنه حتى انتبه فحسبك توكل يؤدي إلى هذا . وعن عبد الله الهروي قال كنا مع الفضيل بن عياض على جبل أبي قبيس فقال لو أن رجلاً صدق في توكله على الله ، ثم قال لهذا الجبل اهتز لاهتز ، فوالله لقد رأيت الجبل اهتز وتحرك فقال له الفضيل رحمه الله تعالى : لم أعنك رحمك الله فسكن . وفي الاسرائيليات أن رجلاً احتاج إلى أن يقترض ألف دينار فجاء إلى رجل من المتموّلين فسأله في ذلك وقال له تمهل عليّ بدينك إلى أن أسافر إلى البلد الفلاني فانّ لي مالاً آتيك به وأوفيك منه ، وتكون مدّة الأجل بيني وبينك كذا وكذا فقال له هذا غرر . فأنا ما أعطيك مالي إلا أن تجعل لي كفيلاً ، إن لم تحضر طلبته منه . فقال الرجل الله كفيل بمالك وشاهد عليّ ، أن لا أغفل عن وفائك فان رضيت فافعل فداخل الرجل خشية الله تعالى وحمله التوكل على أن دفع المال للرجل فأخذه ومضى إلى البلد الذي ذكره فلما قرب الأجل الذي بينه وبين صاحبه جهز المال وقصد السفر في البحر فعسر عليه وجود مركب ومضت المدّة وبعدها أيام وهو لا يجد مركباً فاغتم لذلك وأخذ الألف دينار وجعلها في خشبة وسمر عليها ثم قال اللهم إني جعلتك كفيلاً بإيصال هذه إلى صاحبها وقد تعذر عليّ وجود مركب وعزمت على طرحها في البحر وتوكلت عليك في إيصالها إليه ثم نقش على الخشبة رسالة إلى صاحبها بصورة الحال طرحها في البحر بيده ، وأقام في البلد مدّة بعد ذلك إلى أن جاءت مركب فسافر فيها إلى صاحب المال فابتدأه وقال أنت سيرت الألف دينار في خشبة صفتها كيت وكيت ، وعليها منقوش كذا وكذا قال نعم . قال قد أوصلها الله تعالى إلي ، والله نعم الكفيل . فقال فكيف وصلت إليك،قال لما مضى الأجل المقدّر بيني وبينك بقيت أتردد إلى البحر لأجدك أو أجد من يخبرني عنك فوقفت ذات يوم إلى الشط وإذا بالخشبة قد استندت إلي ، ولم أر لها طالباً فأخذها الغلام ليجعلها حطباً فلما كسرها وجد ما فيها فأخبرني بذلك فقرأت ما عليها فعلمت أنّ الله تعالى حقق أملك لما توكلت عليه حق التوكل . وقيل

إن سبب بداية ذي النون المصري رحمه الله تعالى أنه رأى طيراً أعمى بعيداً عن الماء والمرعى فبينما هو يتفكر في أمر ذلك الطائر فاذا هو بسكرجتين[1] برزتا من الأرض إحداهما ذهب ، والأخرى فضة ، هذه فيها ماء ، والأخرى فيها قمح فلقط القمح وشرب الماء ، ثم غاب بعد ذلك فذهل ذو النون وانقطع إلى الله تعالى من ذلك الوقت .

وحكي أن رجلاً من أبناء الناس كانت له يد في صناعة الصياغة ، وكان أوحد أهل زمانه فساء حاله وافتقر بعد غناه فكره الإقامة في بلده فانتقل إلى بلد آخرِ فسأل عن سوق الصاغة فوجد دكاناً لمعلم السلطنة وتحت يده صناع كثيرون يعملون الأشغال للسلطنة وله سعادة ظاهرة ما بين مماليك وخدم وقماش وغير ذلك فتوصل الصائغ الغريب إلى أن بقي من أحد الصناع الذين في دكان هذا المعلم وأقام يعمل عنده مدة وكلما فرغ النهار دفع له درهمين من فضة وتكون أجرة عمله تساوي عشرة دراهم فيكسب عليه ثمانية دراهم في كل يوم . فاتفق أن الملك طلب المعلم وناوله فردة سوار من ذهب مرصعة بفصوص في غاية من الحسن قد عملت في غير بلاده ، كانت في يد إحدى محاظيه فانكسرت فقال له الحمها فأخذها المعلم وقد اضطرب عليه في عملها فلما أخذها وأراها للصناع الذين عنده ، وعند غِيره فما قال له أحد إنه يقدر على عملها فازداد المعلم لذلك غماً ومضت مدة وهي عنده لا يعلم ما يصنع . فاشتد الملك على إحضارها وقال هذا المعلم نال من جهتنا هذه النعمة العظيمة ، ولا يحسن أن يلحم سواراً ، فلما رأى الصانع الغريب شدة ما نال المعلم قال في نفسه هذا وقت المروءة اعملها ولا أؤاخذه ببخله عليّ ، وعدم إنصافه ، ولعله يحسن إليّ بعد ذلك فحط يده في درج المعلم وأخذها وفك جواهرها وسبكها ثم صاغها كما كانت ونظم عليها جواهرها فعادت أحسن ما كانت فلما رآها المعلم فرح فرحاً شديداً ثم مضى بها إلى الملك فلما رآها استحسنها وادعى المعلم أنها صنعته فأحسن إليه ، وخلع عليه خلعة سنية فجاء وجلس مكانه فبقي الصائغ يرجو مكافأته عما عامله به ، فما التفت إليه المعلم ولما كان النهار ما زاده على الدرهمين شيئاً فما مضت إلا أيام قلائل وإذا الملك اختار أن يعمل زوجين أساور على تلك الصورة فطلب المعلم ورسم له بكل ما يحتاج إليه ، وأكد عليه في تحسين الصنعة وسرعة العمل فجاء إلى الصانع وأخبره بما قال الملك فامتثل مرسومه ، ولم يزل منتصباً إلى أن عمل الزوجين وهو لا يزيده شيئاً على الدرهمين في كل يوم ولا يشكره ولا يعده بخير ، ولا يتجمل معه فرأى المصلحة أن ينقش على زوج منهما أبياتاً يشرح فيها حاله ليقف عليها الملك فنقش في باطن إحداهما هذه الأبيات نقشاً خفيفاً يقول :

مصائب الدهر كفي ... إن لم تكفي فعفي
خرجت أطلب رزقي ... وجدت رزقي توفي
فلا برزقي أحظى ... ولا بصنعة كفي
كم جاهل في الثريا ... وعالم متخفي

قال وعزم الصانع على أنه ان ظهرت الأبيات للمعلم شرح له ما عنده وان غم عليه ولم يرها كان

---

(١) السكرجة : الصفحة التي يوضع فيها الطعام (الكلمة فارسية).

سبب توصله إلى الملك ثم لفهما في قطن وناولهما للمعلم فرأى ظاهرهما ولم ير باطنهما لجهله بالصنعة ولما سبق له في القضاء فأخذهما المعلم ومضى بهما فرحاً إلى الملك وقدمهما إليه فلم يشك الملك في أنهما صنعته ، فخلع عليه وشكره ثم جاء فجلس مكانه ولم يلتفت إلى الصانع وما زاده في آخر النهار شيئاً على الدرهمين ، فلما كان اليوم الثاني خلا خاطر الملك فاستحضر الحظية التي عمل لها السوارين الذهب فحضرت وهما في يدها فأخذهما ليعيد نظره فيهما ، وفي حسن صنعتهما فقرأ الأبيات فتعجب وقال هذا شرح حال صانعهما والمعلم يكذب فغضب عند ذلك وأمر باحضار المعلم فلما حضر قال له من عمل هذين السوارين قال : أنا أيها الملك قال فما سبب نقش هذه الأبيات قال لم يكن عليهما أبيات قال كذبت ثم أراه النقش وقال إن لم تصدقني الحق لأضربن عنقك فأصدقه الحق فأمر الملك باحضار الصانع فلما حضر سأله عن حاله فحكى له قصته وما جرى له مع المعلم فرسم الملك بعزل المعلم وأن تسلب نعمته وتعطى للصانع. وأن يكون عوضاً عنه في الخدمة ، ثم خلع عليه خلعة سنية وصار مقدماً سعيداً فلما نال هذه الدرجة وتمكن عند الملك تلطف به حتى رضي عن المعلم الأول وصارا شريكين ومكثا على ذلك إلى آخر العمر ورحم الله من قال :

إذا كان سعد المرء في الدهر مقبلا ... تدانت له الأشياء من كل جانب

وقال آخر :

ما سلم الله هو السالم ... ليس كما يزعم الزاعم
تجري المقادير التي قدرت ... وانف من لا يرتضي راغم

وقال كعب بن زهير :

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني ... سعي الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأمور ليس يدركها ... والنفس واحدة والهم منتشر
والمرء ما عاش ممدود له أمل ... لا ينتهي ذاك حتى ينتهي العمر

وروي في الإسرائيليات أن نبياً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مر بفخ منصوب ، وإذا بطائر قريب منه فقال له الطائر يا نبي الله هل رأيت أقل عقلاً ممن نصب هذا الفخ ليصيدني به ، وأنا أنظر إليه قال فذهب عنه ذلك النبي عليه السلام ثم رجع وإذا بالطائر في الفخ فقال له عجباً لك ألست القائل كذا وكذا آنفاً . فقال يا نبي الله إذا جاء الحين لم يبق أذن ولا عين . ويروى أن رجلاً قال لبزرجمهر تعال نتناظر في القدر . قال : وما تصنع بالمناظرة . قال : رأيت شيئاً ظاهراً استدللت به على الباطن ، رأيت جاهلاً مبروراً ، وعالماً محروماً ، فعلمت أن التدبير ليس للعباد . ولما قدم موسى بن نصير بعد فتح الأندلس على سليمان بن عبد الملك قال له يزيد بن المهلب أنت أدهى الناس وأعلمهم فكيف طرحت نفسك في يد سليمان فقال إن الهدهد ينظر إلى الماء في الأرض على ألف قامة ويبصر القريب منه والبعيد على بعد في التخوم ، ثم ينصب له أهل الصبي الفخ بالدودة ، أو الحبة فلايبصره حتى يقع فيه وأنشدوا في ذلك :

وإذا خشيت من الأمــور مـقــدرا   وفــررت منــه فنحــوه تتــوجــه

وقال آخر :

أقام على المسير وقد أنيخت   مـطاياه وغـرد حـاديـاهـا
وقـال أخـاف عـاديـة الـليـالي   عـلى نـفسي وأن ألـقي رداهـا
مشيـنـاهـا خـطا كتبت عـلينـا   ومن كتبت عليـه خـطا مشـاهـا
ومـن كـانـت مـنـيـتـه بـأرض   فـليس يمـوت في أرض سـواهـا

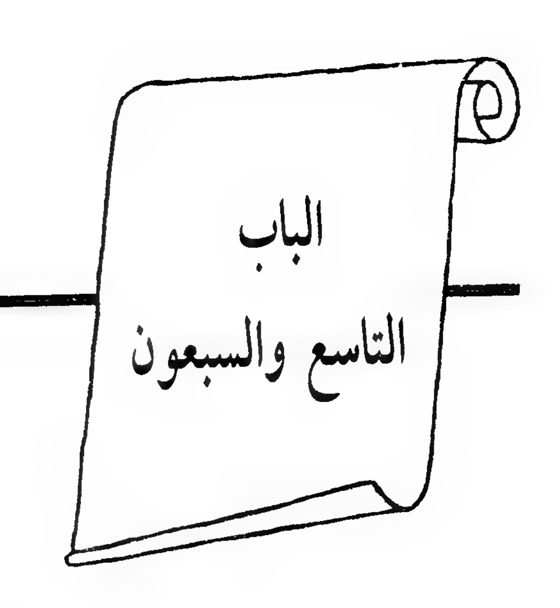
ولما قتل كسرى بزرجمهر وجد في منطقته كتاب فيه : إذا كان القضاء حقاً ، فالحرص باطل . وإذا كان الغدر في الناس طباعاً فالثقة بكل أحد عجز وإذا كان الموت بكل أحد نازلاً فالطمأنينة إلى الدنيا حمق . وقال ابن عباس وجعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى : ﴿ **وكان تحته كنز لهما** ﴾(١) إنما كان الكنز لوحاً من ذهب مكتوب فيه بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يوقن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يوقن بالرزق كيف ينصب ، وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يوقن بالحساب كيف يغفل ، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وحكى الطرطوشي رحمه الله تعالى في كتابه سراج الملوك قال من عجيب ما اتفق بالاسكندرية أن رجلاً من خدم نائب الاسكندرية غاب عن خدمته أياماً ، ففي بعض الأيام قبض عليه صاحب الشرطة وحمله إلى دار النائب فانفلت في بعض الطرق وترامى في بئر والمدينة إذ ذاك مسردبة بسرداب يمشي الماشي فيه قائماً . فما زال الرجل يمشي إلى أن لاحت له بئر مضيئة فطلع منها فاذا البئر في دار النائب فلما طلع أمسكه النائب وأدبه فكان فيه المثل السائر : الفار من القضاء الغالب ، كالمنقلب في يد الطالب.وأنشدوا فيه :

قـالـوا تـقـيـم وقـد أحـــ   ـــاط بـك الـعـدوّ ولا تـفـر
لا نـلـت خـيـرا إن بـقـيــ   ــت ولا عـداني الـدهـر شـر
إن كـنـت أعـلـم أن غـيــ   ــر الله يـنـفـع أو يـضـر



(١) سورة الكهف الآية ٨٢.



في التوبة والاستغفار

قد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة وأمر الله تعالى بالتوبة فقال : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾[1] ووعد بالقبول فقال تعالى : ﴿ **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده** ﴾[2] وفتح باب الرجاء فقال : ﴿ **يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمةالله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾[3] وروي في الصحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « يا أيها الناس توبوا إلى الله تعالى فاني أتوب إلى الله تعالى في اليوم مائة مرة » روى أحمد بن عبد الرحمن السلماني قال اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال أحدهم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى يقبل التوبة من عبده قبل أن يموت بيوم » ، فقال الثاني أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ قال نعم . قال : وأنا سمعته يقول إن الله تعالى يقبل توبته قبل أن يموت بنصف يوم ، فقال الثالث أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ قال نعم قال وأنا سمعته يقول إن الله تعالى يقبل توبة العبد قبل موته بضحوة ، أو قال بضجعة ، فقال الرابع أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ قال نعم قال وأنا سمعته يقول : إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر . وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « الله أفرح بتوبة عبده ، من رجل نزل بأرض دوية مهلكة معه راحلته فنام واستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا أدركه الموت قال أرجع إلى المكان الذي ضللتها فيه وأموت ، فأتى مكانه فغلبته عينه فاستيقظ ، وإذا راحلته عند رأسه فيها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه . فالله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده » وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » رواه البخاري . وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

---

(١) سورة النور الآية ٣١ .
(٢) سورة الشورى الآية ٢٥ .
(٣) سورة الزمر الآية ٥٣ .

« إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » رواه مسلم . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » رواه مسلم . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال : « كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعبد أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ قال : لا فقتله وكمل به المائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فأتاه وقال له : إنه قد قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال نعم ومن يحل بينك وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فان بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله تعالى معهم ولا ترجع إلى أرضك فانها أرض سوء . فانطلق حتى كان نصف الطريق أدركه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة ، وملائكة العذاب . فقالت ملائكة الرحمة جاءنا تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى . فقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط . فأتاهم ملك في صورة آدمي فحكموه بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو أقرب لها فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة . متفق عليه . وفي الصحيحين : فكان أدنى إلى أرض التوبة الصالحة بشبر فجعل من أهلها: وعن أبي نجيد بضم النون وفتح الجيم عمران بن الحصين الخزاعي رضي الله عنه أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا فقالت يا رسول الله أصبت حداً فأقمه عليّ فدعا نبي الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت . ثم صلى عليها . فقال عمر يا رسول الله تصلي عليها وقد زنت قال : لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم . وهل وجدت أفضل ممن جادت بنفسها لله عز وجل . رواه مسلم . وعن أبي نضرة قال : لقيت مولى لأبي بكر رضي الله عنه فقلت له : سمعت من أبي بكر شيئاً قال نعم سمعته يقول : قال رسول الله ﷺ : « ما أصرّ من استغفر ولو عاد إلى الذنب في اليوم سبعين مرة » .

وحكي أن نبهان التمار وكنيته أبو مقبل أتته امرأة حسناء تشتري تمراً فقال لها : هذا التمر ليس بجيد ، وفي البيت أجود منه فذهب بها إلى بيته وضمها إلى نفسه وقبلها فقالت له : اتق الله فتركها وندم على ذلك فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله تعالى : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة** ﴾[1] إلى آخر الآية . وعن أسماء بن الحكم الفزاري قال : سمعت عليا يقول : إني كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله حديثاً ينفعني الله منه بما شاء ينفعني ، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته ، فاذا حلف لي صدقته وإنه حدثني أبو بكر وصدّق أبو بكر أنه سمع رسول الله يقول : « ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ويصلي ثم يستغفر الله إلا غفر له » وروي في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا أذنب العبد ذنباً فقال يا رب أذنبت ذنباً فاغفره لي قال الله عز وجل : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ، ويأخذ به فغفر له ، ثم إذا مكث ما شاء الله وأصاب ذنباً آخر فقال يا رب أذنبت ذنباً فاغفره لي . قال ربه علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء » . وكان قتادة رضي الله تعالى عنه يقول : القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم أما دواؤكم

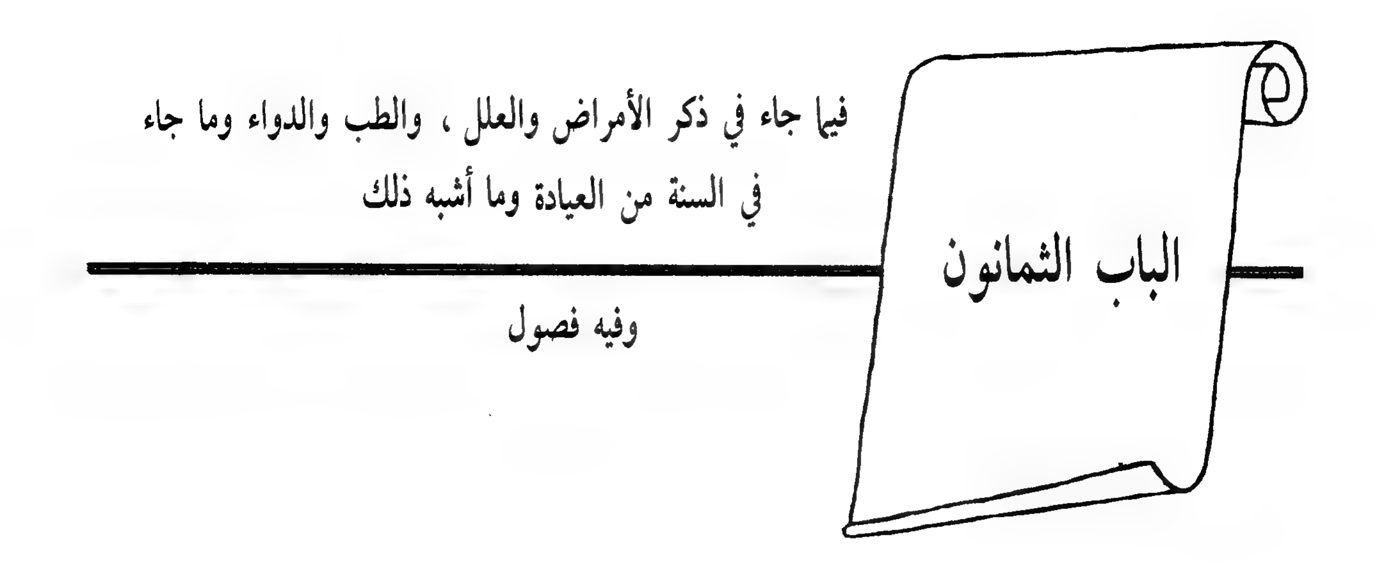
---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٥ .

فالاستغفار ، وأما داؤكم فالذنوب . وكان علي رضي الله تعالى عنه يقول : العجب لمن هلك ومعه كلمة النجاة قيل : وما هي ؟ قال : الإستغفار . وقال رسول الله ﷺ : « من قال عشراً حين يصبح ، وحين يمسي استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه وأسأله التوبة والمغفرة من جميع الذنوب غفرت ذنوبه ولو كانت مثل رمل عالج . ومن قال : سبحانك ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي ذنوبي فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت ذنوبه ولو كانت مثل دبيب النمل » . وقال أبو عبد الله الوراق : لو كان عليك من الذنوب مثل عدد القطر ، وزبد البحر محيت عنك إذا استغفرت بهذا الاستغفار وهو هذا : اللهم إني أسألك واستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه ، واستغفرك من كل ما وعدتك من نفسي ، ثم لم أوف لك به وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك ، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها عليّ فاستعنت بها على معصيتك . يقول الله عز وجل لملائكته : ويح ابن آدم يذنب الذنب ثم يستغفرني فأغفر له ، ثم يذنب الذنب فيستغفرني فأغفر له ، لا هو يترك الذنب من مخافتي ولا ييأس من مغفرتي أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت له . وقال بشر الحافي : بلغني أن العبد إذا عمل الخطيئة أوحى الله تعالى إلى الملائكة الموكلين ترفقوا عليه سبع ساعات فان استغفرني فلا تكتبوها وإن لم يستغفرني فاكتبوها .(نكتة) قيل : انقطع الغيث عن بني إسرائيل في زمن موسى عليه الصلاة والسلام حتى احترق النبات ، وهلك الحيوان فخرج موسى عليه الصلاة والسلام في بني إسرائيل وكانوا سبعين رجلاً من نسل الأنبياء مستغيثين إلى الله قد بسطوا أيدي صدقهم وخضوعهم وقربوا قربان تذللهم وخشوعهم ودموعهم تجري على خدودهم ثلاثة أيام فلم تمطر لهم فقال موسى : اللهم أنت القائل ادعوني استجب لكم وقد دعوتك وعبادك على ما ترى من الفاقة والحاجة والذل فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى إن فيهم من غذاؤه حرام ، وفيهم من يبسط لسانه بالغيبة والنميمة وهؤلاء استحقوا أن أنزل عليهم غضبي ، وأنت تطلب لهم الرحمة كيف يجتمع موضع الرحمة وموضع العذاب فقال موسى : ومن هم يا رب حتى نخرجهم من بيننا فقال الله تعالى يا موسى لست بهتاك ولا نمام ، ولكن يا موسى ، توبوا كلكم بقلوب خالصة فعساهم يتوبوا معكم فأجود بانعامي عليكم فنادى منادي موسى في بني إسرائيل أن اجتمعوا فاجتمعوا فأعلمهم موسى عليه الصلاة والسلام بما أوحي إليه ، والعصاة يسمعون فذرفت أعينهم ورفعوا مع بني إسرائيل أيديهم إلى الله عز وجل وقالوا إلهنا جئناك من أوزارنا هاربين ، ورجعنا إلى بابك طالبين ، فارحمنا يا أرحم الراحمين فما زالوا كذلك حتى سقوا بتوبتهم إلى الله تعالى ، اللهم تب علينا وعلى سائر العصاة والمذنبين يا رب العالمين . أوحى الله إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ، ورفقي لهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليّ ، وتقطعت أوصالهم من محبتي . يا داود هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي بالمقبلين عليّ . ولقد أحسن من قال :

أسيء فيجزي بالاساءة إفضالا — وأعصي فيوليني برا وإمهالا
فحتى متى أجفوه وهو يبرني — وأبعد عنه وهو يبدل إيصالا
وكم مرة زغت عن نهج طاعة — ولا حال عن ستر القبيح ولا زالا

وهذا آخر ما يسره الله تعالى في هذا الباب والله أعلم بالصواب .



الباب الثمانون

فيما جاء في ذكر الأمراض والعلل ، والطب والدواء وما جاء في السنة من العيادة وما أشبه ذلك

وفيه فصول

الفصل الأول :

في الأمراض والعلل وما جاء في ذلك من الأجر والثواب

روي عن عبد الله بن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « أيكم يحب أن يصح جسمه فلا يسقم ، فقالوا كلنا يا رسول الله . قال أتحبون أن تكونوا كالحمير الصوالة ، ألا تحبون أن تكونوا أصحاب بلايا وأصحاب كفارات ، والذي بعثني بالحق نبياً ، إن الرجل لتكونن له الدرجة في الجنة فلا يبلغها بشيء من عمله ، فيبتليه الله تعالى ليبلغ درجة لا يبلغها بعمله » . وقال ﷺ : « ما من مسلم يمرض مرضاً إلا حط الله من خطاياه كما تحط الشجرة ورقها » . وكان يقول لا تزال الاوصاب والمصائب بالعبد حتى تتركه كالفضة البيضاء النقية المصفاة . وقيل إن الناس قد حموا في فتح خيبر ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال : « أيها الناس إن الحمى رائد الموت وسجن الله في الأرض وقطعة من النار ، فاذا وجدتم ذلك فبردوا لها الماء في الشنان ثم صبوا عليكم بين المغرب والعشا ، ففعلوا ذلك فزالت عنهم » . وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على شاب وهو في الموت فقال له : كيف تجدك فقال أرجو الله ، وأخاف ذنوبي . فقال عليه الصلاة والسلام : « هما لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف » . وعن عفيرة بنت الوليد البصرية العابدة الزاهدة رحمها الله تعالى أنها سمعت رجلاً يقول ما أشد العمى على من كان بصيرا . فقالت له يا عبد الله عمى القلب عن الله أشد من عمى العين عن الدنيا ، والله لوددت أن الله وهب لي كنه معرفته ولم يبق مني جارحة إلا أخذها . وكتب مبارك لأخيه سفيان الثوري يشكو إليه ذهاب بصره فكتب إليه : أما بعد فقد فهمت كتابك فيه شكاية ربك ، فاذكر الموت يهن عليك ذهاب بصرك والسلام . وقيل لعطاء في مرضه ما تشتهي قال ما ترك خوف جهنم في قلبي موضعاً للشهوة . وأصاب ابن أدهم بطن فتوضأ في ليلة سبعين مرة . وقيل لأعرابي في مرضه ما تشتهي ، قال الجنة فقيل أفلا ندعو طبيباً . قال طبيبي هو الذي أمرضني .



من هذا الباب

في ذكر العلل كالبخر والعرج والعمى والصمم والرمد والفالج وغير ذلك نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة .

قيل تسارر أبخر وأصم فقال له الأصم : قد فهمت ثم فارقه . فسأله رجل فقال والله لا أدري غير أنه فسا في أذني . وقيل إن عبد الملك بن مروان كان أبخر فعض يوماً على تفاحة ورمى بها إلى زوجته ، فدعت بسكين فقال ما تصنعين بها ؟ قالت أميط الأذى عنها ، فشق عليه ذلك منها فطلقها . وسارر أبو الأسود الدؤلي سليمان بن عبد الملك وكان أبو الأسود أبخر ، فستر سليمان أنفه بكمه فعير أبو الأسود وهو يقول : لا يصلح للخلافة من لا يقدر على مناجاة الشيوخ البخر . وقيل طول انطباق الفم يورث البخر ، وكل رطب الفم سائل اللعاب سالم منه . وقيل إن الزنج أطيب الناس أفواهاً . والسباع موصوفة بالبخر ، والمثل مضروب بالأسد والصقر في البخر ، والكلب من بينهما طيب الفم وليس في البهائم أطيب أفواهاً من الظباء :

وحكي أن أبخر تزوج بامرأة فلما ضاجعها عافته وتولت عنه بوجهها ثم أنشدت تقول :

يا حب والرحمن إن فاكا ... أهلكني فولني قفاكا
إذا غدوت فاتخذ مسواكا ... من عرفط إن لم تجد أراكا
لا تقربني بالذي سوّاكا ... إني أراك ماضغا خراكا

وفي ديوان المنثور : كم من ذي عرج في درج المعالي عرج ، وكم من صحيح قدم ليس له في الخير قدم . وقيل إن من الصم من يسمع السر ، فاذا رفعت إليه الصوت لم يسمعه . ورأيت من العمش من لا ينظر صورة الإنسان من قريب . ولكن يقرأ الخط الرقيق الحواشي . وقيل إن طريفاً الشاعر مدح عمرو ابن هدّاب وكان أبرص فلما انتهى إلى قوله :

أبرص فياض اليدين مهذب . صاح به الناس وقالوا : قطع الله لسانك . فقال عمرو: مه إن البرص مما تتفاخر به العرب . أما سمعتم قول سهل حيث قال :

أيشتمني زيد بأن كنت أبرصا ... وكل كريم لا أبا لك أبرص

وقال :

كفى حزنا أني أعاشر معشرا ... يخوضون في بعض الحديث وأمسك
وما ذاك من عي ولا من جهالة ... ولكنه ما فيّ للصوت مسلك

فـان سد مني السمع فـالله قـادر　　عـلى فتحـه والله لـلعبـد أمـلك

ومما جاء في العمى ما روي عن النبي ﷺ أنه قال : من عدم إحدى كريمتيه ضمنت له على الله الجنة . وكان أبو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام يطعم الطعام وكان أعور ، فجعل أعرابي يطيل النظر إليه حابساً نفسه عن طعامه ، فكلمه المغيرة في ذلك فقال له : والله إني ليعجبني طعامك وتريبني عينك. قال : فما يريبك من عيني قال : أعور وأراك تطعم الطعام وهذه صفة الدجال فقيل له : إن عينه أصيبت في فتح الروم فقال : إن الدجال لا تصاب عينه في سبيل الله . وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من قاد أعمى أربعين خطوة لم تمسه النار .وقال علي كرم الله وجهه : ربما أخطأ البصير قصده وأصاب الأعمى رشده . وقال أبو علي البصير :

لئن كـان يهـديني الغـلام لـوجهتي　　ويقتـادني في السـير إذ أنـا راكب
لقد يستضيء القوم بي في وجوههم　　ويخبـو ضياء العيـن والقلب ثـاقب

وقال :

إذا عـدمت طـلابـة العلم مـالهـا　　من العلم إلا ما تسطر في الكتب
غــدوت بـتشـمـير وجـد عليهم　　ومحبرتي سمعي وها دفتـري قلبي

وقال :

إن يـأخـذ الله من عينيّ نـورهمـا　　ففي لسـاني وسمعي منهـما نـور
فهمي ذكي وقلبي غـير ذي غفـل　　وفي فمي صـارم كالسيف مشهـور

وقــال :

عزاءك أيهـا العــين الســكـوب　　وحــقــك إنها نــوب تــنـوب
وكـنت كــريمـتي وســراج وجـهي　　وكــانت لي بـك الـدنيا تـطيب
عـلى الـدنيـا السلام فـما لشيـخ　　ضـريـر العين في الـدنيـا نصيب
يمـوت المـرء وهــو بـعـد حيـا　　ويخلف ظنـه الأمـل الـكـذوب
إن مـات بعضـك فـابـك بعضـا　　فــان البعض مـن بعض قــريـب

وحكي أن ربيعة رمدت عينه فأرسل إلى امرأة كان يحبها ثم أنشد يقول :

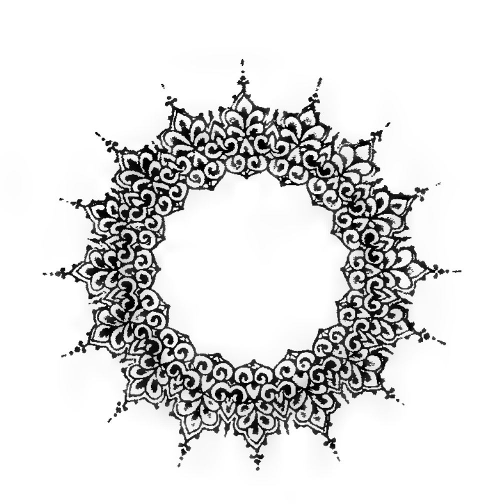
عينـا ربيعـة رمــداوان فـاحتسبي　　بنظرة منك تشفيـه من الـرمـد
إن تكتحـل بـك عينـاه فـلا رمـد　　عــلى ربيعة يخشى آخـر الأمـد

وعن عبد الرحمن بن قيس عن النبي ﷺ أنه قال : « داء الأنبياء الفالج واللقوة » . قال الجاحظ : ومن المفاليج سيدنا ادريس عليه الصلاة والسلام وأكثر ما يعتري المتوسطين من الناس ، لأن الشباب كثير الحرارة والشيخ كثير اليبس . وقيل إن إبان بن عثمان كان أفلج حتى صار مثلاً ، فكانت الناس تقول لا رماك الله بفالج ابن عثمان . وكان معاوية ألوق ، وعبد الملك بن مروان أبخر ، وحسان أعمى ، وابن

سيرين أصم . وممن فلج ابن أبي داود قاضي قضاة المعتصم كان من الشرف والكرم بمنزلة عظيمة قد ضرب المثل بفالجه . قال الشاعر في رجل ضرب غلامه :

أتضـرب مثله بـالسـوط عشـرا ضُـربت بفـالـج ابـن أبي داود

وشجة عبد الحميد كانت مثلاً في الحسن وهو عبد الحميد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهم ، وكان بارعاً في الحسن والجمال فزادته حسناً إلى حسنه ، حتى أن النساء كن يخططن في وجوههن شجة عبد الحميد . وكان يقال لعمر بن عبد العزيز أشج بني أمية . وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول : إن من ولدي رجلاً بوجهه أثر في جبهته . قال أصبغ : الله أكبر هذا أشج بني أمية يملأ الأرض عدلاً . وقال أعور لأبي الأسود : ما الشيء ونصف الشيء ولا شيء . فقال : أما الشيء فالبصير كأنا ، وأما لا شيء فالأعمى ، وأما نصف الشيء فأنت يا أعور . اللهم أكفنا شر العاهات برحمتك ومنك وكرمك آمين .





من هذا الباب
في التداوي من الأمراض والطب

قال رسول الله ﷺ : « تداووا فان الذي أنزل الداء أنزل الدواء ». وقال ﷺ : « ما أنزل الله داء إلا وله دواء عرفه من عرفه ، وجهله من جهله ». وسئل رسول الله ﷺ عن الدواء والرقي هل يردان شيئاً من قضاء الله تعالى قال هما من قدر الله تعالى . وقال عبد الله بن عكرمة عجبت لمن يحتمي من الطعام خوف الداء ، ولا يحتمي من الذنوب خوف النار . وقيل إن الربيع بن خيثم لما مرض قالوا له : ألا ندعو لك طبيباً . فقال لهم إن مرضي من الطبيب وأنه متى أراد عافاني ولا حاجة لي بطبيبكم وأنشد :

فأصبحت لا ادعو طبيباً لطبه ولكنني أدعوك يا منزل القطر

وعاد الفرزدق مريضاً فقال :

يا طالب الطب من داء تخوفه أن الطبيب الذي أبلاك بالداء
فهو الطبيب الذي يرجى لعافية لا من يذيب لك الترياق بالماء

قال ولما مرض بشر الحافي[1] رحمه الله تعالى قالوا ندعو لك طبيباً فقال إني بعين الطبيب يفعل بي ما يريد . فألح عليه أهله وقالوا لا بد أن ندفع ماءك إلى الطبيب فقال لأخته إدفعي إليهم الماء في قارورة . وكان بالقرب منهم رجل ذمي وكان حاذقاً في الطب فأتوه بمائه في القارورة ، فلما رآه قال حركوه فحركوه ثم قال ضعوه ، ثم قال ارفعوه ، فقالوا له ما بهذا وصفت لنا . قال وبم وصفت لكم ؟ قالوا بالحذق والمعرفة قال هو كما تقولون . غير أن هذا الماء إن كان ماء نصراني فهو راهب قد فتتت كبده العبادة ، وإن كان مسلماً فهو ماء بشر الحافي فانه أوحد أهل زمانه في السلوك مع الله تعالى . قالوا هو ماء بشر الحافي فأسلم النصراني وقطع زناره . فلما رجعوا إلى بشر قال لهم أسلم الطبيب فقالوا ومن أعلمك ؟ قال لما خرجتم من عندي هتف بي هاتف . وقال يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب وصار من أهل الجنة . وفلج الربيع بن خيثم فقيل له هلا تداويت ؟ فقال قد عرفت أن الدواء حق ولكن عاد وثمود وقرون بين ذلك كثيراً كانت فيهم الأوجاع كثيرة ، والأطباء أكثر فلم يبق المداوي ولا المداوى وقد أبادهم الموت ثم قال هذا المفرد :

---

(١) هو بشر بن الحافي بن علي بن عبد الرحمن المروزي ـ ابو نصر ـ المعروف بالحافي . من كبار الصالحين . له من الزهد والورع اخبار ، وهو من ثقات رجال الحديث . من أهل « مرو » سكن بغداد وتوفي بها سنة (٢٢٧هـ ـ ٨٤١ م).
أنظر : روضات الجنات : (١ : ١٢٣). ووفيات الاعيان (١ : ٩٠).

هلك المداوي والمداوى والذي جلب الدواء وباعه والمشتري

وقيل لجالينوس حين نهكته العلة أما تتعالج ؟ فقال إذا كان الداء من السماء ، بطل الدواء من الأرض وإذا نزل قضاء الرب بطل حذر المربوب . ومرّ قوم بماء من مياه العرب فوصف لهم ثلاث بنات متطيبات وهن من أجمل الناس فأحبوا أن يروهن فحكوا ساق أحدهم حتى أدموها ثم قصدوهن فقالوا هذا جريح مريض فهل من طبيب فخرجت صغراهن وهي كأنها الشمس الطالعة فلما رأت جرحه قالت ليس هو بمريض بل خدشه عود بالت عليه حية ، فاذا طلعت الشمس مات فكان الأمر كما قالت . وقيل دواء كل مريض بغقاقير أرضه فان الطبيعة تتطلع لهوائها . وقالوا من قدم إلى أرض غير أرضه وأخذ من ترابها وجعله في مائها وشربه لم يمرض فيها وعوفي من وبائها . واحتمى أحمد بن المعدل لعلة أصابته فبريء فقال : الحمية طالع الصحة لأهل الدنيا تبرئهم من المرض ولأهل الآخرة تبرئهم من النار . وقيل إن الأبدان المعتادة بالحمية آفتها التخليط ، والمعتادة بالتخليط آفتها الحمية لأن الحكماء تقول عوّدوا كل جسد بما اعتاد . وكان كسرى أنو شروان يمسك عما تميل إليه شهوته ولا ينهمك عليه . ويقول تركنا ما نحبه لنستغني عن العلاج بما نكرهه . وقال لقمان لا تطيلوا الجلوس على الخلاء فأنه يورث الباسور . وكانت هذه الحكمة مكتوبة على أبواب الحشوش : أي الكنف . وقيل كفى بالمرء عاراً أن يكون صريع مأكله وقتيل أنامله .

فكم أكلة أكلت نفس حر وكم أكلة جلبت كل ضر

وقيل من غرس الطعام أثمره الأسقام . وعن بعض أهل البيت النبوي عليهم السلام أنه كان إذا أصابته علة جمع بين ماء زمزم والعسل واستوهب من مهر أهله شيئاً وكان يقول : قال الله تعالى : ﴿ **ونزّلْنا من السماء ماء مباركاً** ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ **فيه شفاء للناس** ﴾[٢]. وقال عليه الصلاة والسلام : « ماء زمزم لما شرب له » وقال تعالى : ﴿ **فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً** ﴾[٣] فمن جمع بين ما بورك فيه وبين ما فيه شفاء وبين الهنيء والمريء يوشك أن يلقى العافية . وقيل خمسة من المهلكات : دخول الحمام على الشبع ، والمجامعة على الشبع ، وأكل القديد وشرب الماء البارد على الريق ، ومجامعة المرأة العجوز . وقال لا تنكح العجوز . ولا تخرج الدم وأنت مستغن عن إخراجه . وقال الإمام علي رضي الله عنه :

توقى مدى الأيام إدخال مطعم على مطعم من قبل هضم المطاعم
وكل طعام يعجز السن مضغه فلا تقربنه فهو شرّ لطاعم
ووفر على الجسم الدماء فانها لقوة جسم المرء خير الدعائم
وإياك أن تنكح طواعن سنهم فان لها سماً كسم الأراقم
وفي كلّ أسبوع عليك بقيئة تكن آمناً من شر كل البلاغم

---

(١) سورة ق الآية ٩ .
(٢) سورة النحل الآية ٦٩ .
(٣) سورة النساء الآية ٤ .

ومما يورث الهزال ، النوم على غير وطاء ، وكثرة الكلام برفع الصوت . وقال النظّام رحمه الله تعالى : ثلاثة تخرب العقل : طول النظر في المرآة ، وكثرة الضحك ، والنظر إلى النجوم . وفي الحديث : احتجم رسول الله ﷺ في أم مغيث ، وهي وسط الرأس ، وكان النبي ﷺ يحتجم في الأخدعين ، ونهى عن الحجامة في نقرة القفا فانها تورث النسيان ، وأمر بالاستنجاء بالماء البارد فانه أمان من الباسور . وخطب المأمون بمسجد مروان فوجد غالب أهل المسجد يشكون السعال فقال في آخر خطبته : من كان يشكو سعالاً فليتداوَ بالخل ففعلوا فعافاهم الله . وقال بعض الحكماء : إياك أن تطيل النظر في عين أرمد ، وإياك أن تسجد على حصير جديدة قبل أن تمسها بيدك فرب شظية حقيرة قلعت عيناً خطيرة . وقيل كانت الأدوية تنبت في محراب سليمان عليه الصلاة والسلام ويقول كل دواء يا نبي الله أنا دواء لكذا وكذا . وقال جالينوس البطنة تقتل الرجال وتورث الفالج ، والاسهال الذريع ، وصنفاً من الجذام ، يقال له الفهد لا يسمع صاحبه ولا يبصر . نسأل الله العفو والعافية . وقيل البطنة تورث الصداع ، والكمنة في العينين ، والضربان في الأذنين والقولنج في البطن . فعليك أيها الإنسان بالطريقة الوسطى ، واتق الليل وطعامه جهدك . وقال جالينوس : الغم المفرط يميت القلب ويجمد الدم في العروق فيهلك صاحبه ، والسرور المفرط يلهب حرارة الدم حتى يغلب الحرارة الغريزية فيهلك صاحبه . وقيل إنه وضع على مائدة المأمون في يوم عيد أكثر من ثلاثين لوناً فكان يصف وهو على المائدة منفعة كل لون ومضرته فقال يحيى بن أكثم يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب فأنت جالينوس في معرفته ، أو في النجوم فأنت هرمس في صناعته ، أو في الفقه فأنت علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في علمه ، أو في السخاء فأنت حاتم في كرمه ، أو في الحديث فأنت أبو ذر في صدق لهجته ، أو في الوفاء فأنت السموءل بن عادياء في وفائه فسر بكلامه وقال : يا أبا محمد إنما فضل الإنسان على غيره بالعقل ، ولولا ذلك لكانت الناس والبهائم سواء . وقال طبيب الهند : إن منفعة الحقنة للجسد كمنفعة الماء للشجر . وقال سفيان بن عيينة : أجمع أطباء فارس على أن الداء إدخال الطعام على الطعام . وقالوا : إدخال اللحم على اللحم يقتل السباع في البر . وقيل : الشرب في آنية الرصاص أمان من القولنج ، وعرض رجل على طبيب قارورته .فقال له : ما هي قارورتك لأنه ماء ميت ، وأنت حي تكلمني ، فما فرغ من كلامه حتى خر الرجل ميتاً . وقيل : إن ملكاً من الملوك حصل عنده صداع في رأسه فأحضر الطبيب فأمر أن يضع قدميه في الماء الحار وكان عنده خصي فقال : أين القدمان من الرأس ؟ فقال له الطبيب : وأين وجهك من خصيتيك نزعتا فذهبت لحيتك . وقيل إن المأمون حصل له صداع بطرسوس فأحضر طبيباً كان عنده فلم ينفعه علاجه فبلغ قيصر فأرسل إليه قلنسوة وكتب له : بلغني صداعك فضعها على رأسك يزل ما بك فخاف أن تكون مسمومة فوضعها على رأس القاصد فلم يصبه شيء ، ثم إنه أحضر رجلاً به صداع فوضعها على رأسه فزال ما به ، فتعجب المأمون ، ثم إنه فتحها فوجد فيها رقعة مكتوب فيها : بسم الله الرحمن الرحيم كم من نعمة لله تعالى في عرق ساكن ، وغير ساكن ، حمعسق لا يصدعون عنها ولا ينزفون من كلام الرحمن . خمدت النيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وقال علي رضي الله تعالى عنه : ادهنوا بالبنفسج فأنه حار في الشتاء بارد في الصيف . وقال أيضاً رضي الله عنه : عليكم بالزيت فانه يذهب البلغم ويشد العصب ، ويحسن الخلق ويطيب النفس ويذهب الغم . وعنه رضي الله عنه : إن لم يكن في شيء شفاء

ففي شرطة حاجم أو شربة من عسل . وقال الحجاج لطبيبه : أخبرنا بجوامع الطب فقال : لا تنكح إلا فتاة ، ولا تأكل من اللحم إلا فتياً ، وإذا تغذيت فنم ، وإذا تعشيت فامش ولو على الشوك ، ولا تدخل بطنك طعاماً حتى تستمرىء ما فيه ، ولا تأو إلى فراشك حتى تدخل الخلاء وكل الفاكهة في إقبالها ، وذرها في إدبارها . وأوصى حكيم خليفته وصية ووعده إذا لازمها لا يمرض إلا مرض الموت فقال : إياك أن تدخل طعاماً على طعام ، ولا تمش حتى تعيا ، ولا تجامع عجوزا ولا تدخل حماما على شبع . وإذا جامعت فكن على حال وسط من الغذاء ، وعليك في كل اسبوع بقيئة ولا تأكل الفاكهة إلا في أوان نضجها ولا تأكل القديد من اللحم ، وإذا تغذيت فنم وإذا تعشيت فامش أربعين خطوة . ونم على يسارك لتقع الكبد على المعدة فينهضم ما فيها وتستريح الكبد من حرارة المعدة ولا تنم على يمينك فيبطىء الهضم ولا تأكل بشهوة عينيك بعد الشبع ، ولا تنم ليلا حتى تعرض نفسك على الخلاء إن احتجت إلى ذلك أو لم تحتج واقعد على الطعام وأنت تشتهيه وقم عنه وأنت تشتهيه . قال بعضهم :

شره النفوس على الجسوم بلية ... فتعوّذوا من كل نفس تشره
ما من فتى شرهت له نفس وإن ... نال الغنى إلا رأى ما يكره

وقال أبو الفيض القضاعي يمدح الفضل وقد فصد :

أرقت دماً لو تسكب المزن مثله ... لأصبح وجه الأرض أخضر زاهياً
دما طيبا لو يطلق الشرع شربه ... لكان من الأسقام للناس شافيا



فيما جاء في العيادة وفضلها

قال رسول الله ﷺ: « ثلاثة في ظل العرش : عائد المريض ، ومشيع الموتى ، وطائع والديه » . وفي رواية : ومعزي الثكلى . ومن السنة تخفيف الجلوس في العيادة ، مرض بكر بن عبد الله المزني فعاده أصحابه فأطالوا الجلوس عنده فقال : المريض يعاد ، والصحيح يزار . قال الشاعر :

يعدن مريضاً هن هيجن داءه ... ألا إنما بعض العوائد دائيا

وقيل : إذا دخل العواد على الملك فحقهم أن لا يسلموا عليه فيحوجوه إلى رد السلام ويتعبوه ، فاذا علموا أنه لا حظهم دعوا له وانصرفوا . قيل : مرض إنسان فكتب إليه بعض أصدقائه : كشف الله عنك ما بك من السقم ، وطهرك بالعلة من الخطايا ، ومتعك بأنس العافية وأعقبك دوام الصحة .

ومرض إنسان فكتب إليه صديقه :

باخوانك الأدنين لا بك كل ما	شكوت إلّي القيام من ألم الورد
فكل امرىء منهم بقدر احتماله	وإن عجزوا عنه تحملته وحدي

وقال آخر :

بي السوء والمكروه لا بك كلما	أرادك كانا بي وكان لك الأجر

وقال عبد الله بن مصعب :

ما لي مرضت فلم يعدني عائد	منكم ويمرض كلبكم فأعود

فسمي بعد ذلك عائد الكلاب . وعاد مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه بعض المرضى فقال :

عادني مالك فلست أبالي	بعد من عادني ومن لم يعدني

وقال علي بن الجهم :(١)

أراقد الليل مسروراً عدمت إذاً	عيشي ، وأحمد يرعى ليله وصبا(٢)
الله يعلم أني قد نذرت له	صيام شهر إذا ما أحمد ركبا

وقال آخر :

إذا مرضتم أتيناكم نعودكمو	وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

وقال آخر :

أعاذك الله من أشياء أربعة	الموت والعشق والافلاس والجرب

وقيل إن حق العيادة يوم بعد يوم أو يوم بعد يومين وعلى الأول قول الشاعر :

قالت مرضت فعدتها فتبرمت	فهي الصحيحة والعليل العائد
والله لو أن القلوب كقلبها	ما رق للولد الصغير الوالد

وعلى الثاني قول بعضهم :

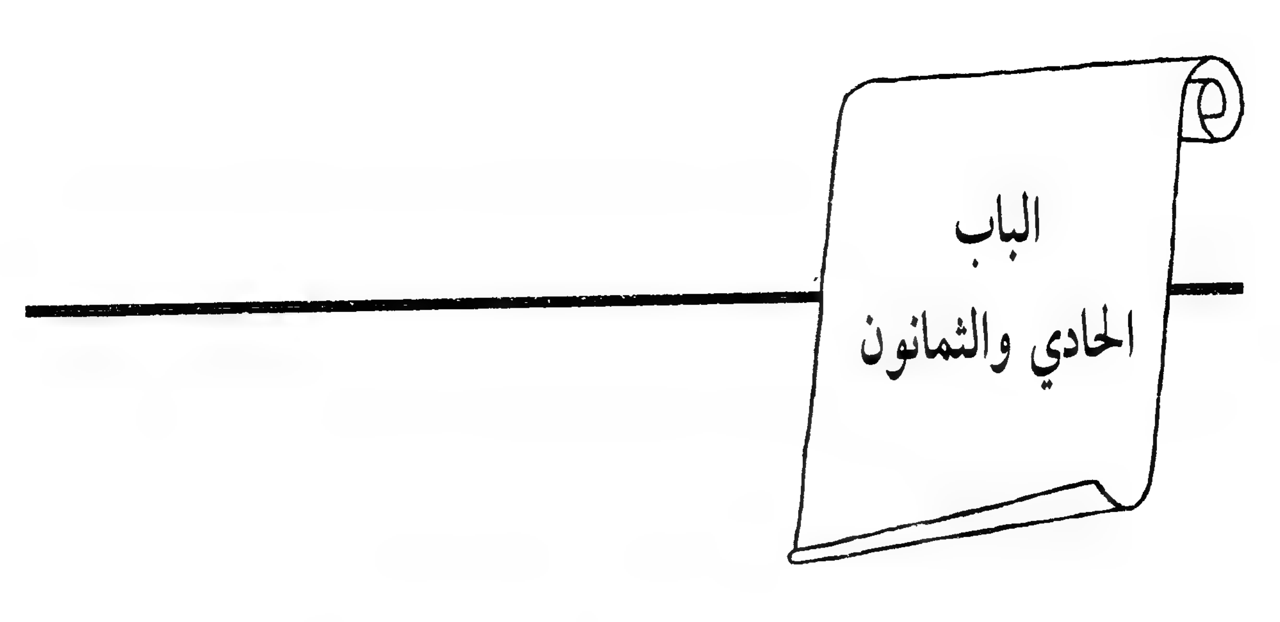
حق العيادة يوم بعد يومين	وجلسة مثل خلس اللحظ بالعين
لا تبرمن عليلا في مسألة	يكفيك من ذاك تسآل بحرفين

وفضل العيادة مشهور وشرفها مذكور وبها تعظم الأجور . وهذا ما انتهى إلينا من هذا الباب والله الموفق للصواب .

---

(١) هو علي بن الجهم بن بدر - ابو الحسن - من بني سامة ، من لؤي بن غالب ، شاعر رقيق الشعر ، أديب ، من أهل بغداد كان معاصراً لابي تمام . توفي سنة (٢٤٩هـ - ٨٦٣ م) له « ديوان شعر » .
أنظر ابن خلكان (١ : ٣٤٩). والطبري (١١ : ٨٦).

(٢) الوصب : المرض .



في ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال قال رسول الله ﷺ : « إذا مات لأحدكم ميت فحسنوا كفنه ، وعجلوا إنجاز وصيته ، وأعمقوا له في قبره وجنبوه جار السوء ».قيل يا رسول الله وهل ينفع الجار الصالح في الآخرة؟ قال وهل ينفع في الدنيا؟ قالوا نعم . قال : وكذلك في الآخرة . ومن وصية علي رضي الله عنه لأبي ذر : زر القبور تذكر بها الآخرة ، ولا تزرها بالليل ، وغسل الموتى يتحرك قلبك ، وصل على الجنائز لعل ذلك يحزنك فان الحزين في ظل الله تعالى . ويقال جزعك في مصيبة صديقك أحسن من صبرك ، وصبرك في مصيبتك أحسن من جزعك . ونظر فيلسوف إلى ميت يحمل إلى قبره فقال : حبيب تحمله أهله إلى حبس الأبد . ودخل عمرو بن العاص رضي الله عنه على معاوية في مرضة مرضها . فقال لـه : أعائد أنت أم شامت فقال له عمرو لم تقول هذا؟ والله ما كلفتني رهقاً ، ولا أصدعتني زلقاً ولا جرعتني علقاً ، فلم أستطل حياتك ولم أستبطىء وفاتك فأنشد معاوية يقول :

فهـل من خـالـدين إذا هلكنـا ... وهـل في الموت بـين النـاس عـار

لما مرض معاوية رضي الله عنه مرضه الذي مات فيه وفد إليه الناس يعودونه فقال لأهله مهدوا لي فراشاً ، واسندوني ، وأوسعوا رأسي دهاناً ثم اكحلوا عيني بالاثمد ثم ائذنوا للناس يدخلوا ويسلموا عليّ قياما ، ولا تجلسوا عندي أحداً ففعلوا ذلك فلما خرجوا من عنده أنشد يقول :

وتجـلدي لـلشـامـتـين أريهـم ... أني لـريب الـدهـر لا أتضعضـع
وإذا المنيـة أنشبـت أظـفـارهـا ... ألـفيـت كـل تميمـة لا تـنـفـع

وقيل لما دنا منه الموت تمثل بهذا البيت :

هو الموت لا منجى من الموت والذي ... نحـاذر بعـد المـوت أدهى وأفـظع

قال ثم رفع يديه وقال : اللهم أقل العثرة ، واعف عن الزلة ، وعد بحلمك على من لم يرج غيرك

ولا يثق إلا بك فانك واسع المغفرة وليس لذي خطيئة منك مهرب ومات رحمة الله تعالى . وذكر أبو العباس الشيباني قال وفد على أبي دلف عشرة من أولاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه في العلة التي مات فيها فأقاموا ببابه شهراً لا يؤذن لهم لشدة العلة التي أصيب بها ، ثم أفاق فقال لخادمه: بشر إن قلبي يحدثني أن بالباب قوماً لهم إلينا حوائج فافتح الباب ولا تمنعن أحداً . قال فكان أول من دخل ، آل علي رضي الله عنه فسلموا عليه ، ثم ابتدأ الكلام رجل منهم من ولد جعفر الطيار فقال : أصلحك الله أنا من أهل بيت رسول الله ﷺ وفينا من ولده وقد حطمتنا المصائب ، وأجحفت بنا النوائب ، فان رأيت أن تجبر كسيراً ، وتغني فقيراً لا يملك قطميراً فافعل فقال لخادمه : خذ بيدي وأجلسني ثم أقبل معتذراً إليهم ودعا بدواة وقرطاس وقال : ليكتب كل منكم بيده أنه قبض مني ألف دينار قالوا : فبقينا والله متحيرين فلما أن كتبنا الرقاع ووضعناها بين يديه قال لخادمه : عليّ بالمال فوزن لكل واحد منا ألف دينار ثم قال لخادمه : يا بشر إذا أنا مت فادرج هذه الرقاع في كفني فاذا لقيت محمداً ﷺ في القيامة كانت حجة لي أني قد أغنيت عشرة من ولده ، ثم قال يا غلام ادفع لكل واحد منهم ألف درهم ينفقها في طريقه حتى لا ينفق من الألف دينار شيئاً حتى يصل موضعه قال : فأخذناها ودعونا له وانصرفنا ثم مات رحمه الله . لما دفن عمر بن عبد العزيز نزل عند دفنه مطر من السماء فوجدوا بردة مكتوب فيها بالنور (بسم الله الرحمن الرحيم أمان لعمر بن عبد العزيز من النار) وقيل لأعرابي : إنك تموت قال : وإلى أين أذهب ؟ قالوا : إلى الله تعالى ، فقال : لا أكره أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه . وبكى الخولاني عند موته فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : ابكي لطول السفر وقلة الزاد وقد سلكت عقبة ، ولا أدري إلى أين أهبط ، وإلى أي مكان أسقط . ودخل ملك الموت على داود عليه السلام فقال له : من أنت ؟ قال : أنا الذي لا يهاب الملوك ، ولا تمنع منه القصور ، ولا يقبل الرشا . فقال : إذن أنت ملك الموت وإني لم استعد بعد ، فقال له : يا داود أين فلان جارك ؟ أين فلان قريبك ؟ قال : ماتا قال : أما كان لك في موت هؤلاء عبرة لتستعد بها ثم قبضه عليه السلام وفي الخبر من حديث حميد الطويل عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : إن الملائكة تكتنف العبد وتحتبسه ولولا ذلك لكان يعدو في الصحراء والبراري من شدة سكرات الموت . وقد أجمعت الأمة على ان الموت ليس له زمن معلوم ، فليكن المرء على أهبة من ذلك .
وقيل : بينما حسان جالس وفي حجره صبي يطعمه الزبد بالعسل إذ شرق الصبي فمات فقال :

إعمل وأنت صحيح مطلق فرح ... ما دمت ويحك يا مغرور في مهل
يرجو الحياة صحيح ربما كمنت ... له المنية بين الزبد والعسل

وقيل : إن المأمون لما قربت وفاته دخل عليه بعض أصدقائه فوجده قد فرش له جلد دابة وبسط عليه الرماد وهو يتمرغ فيه ويقول : يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه ولما احتضر عمرو بن العاص دعا بغل وقيد وقال : ألبسوني إياهما فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن التوبة مقبولة ما لم يغرغر ابن آدم بنفسه ثم استقبل القبلة وقال : اللهم إنك أمرتنا فعصينا ، ونهيتنا فارتكبنا وهذا مقام العائذ بك فان تعف فأنت أهل العفو ، وإن تعاقب فبما قدمت يداي ، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . ثم مات وهو مغلول مقيد فبلغ ذلك الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما

فقال : استسلم الشيخ ولعلها تنفعه . لما احتضر المعتصم جعلوا يهونون عليه فقال : هان على النظارة ما يمرّ بظهر المجلود . سمع أبو الدرداء رجلاً في جنازة يقول : من هذا ؟ فقال : أنت فان كرهت فأنا . وقيل : مات عكرمة مولى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وكثير عزة في يوم واحد فقال رجل : اللهم كما جمعتهما في زيارة القبور فلا تفرق بينهما يوم النشور ، فما بقي في المدينة أحد إلا استحسن كلامه. ولما احتضر إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام قال : هل رأيت خليلاً يقبض روح خليله ، فأوحى الله إليه هل رأيت خليلاً يكره لقاء خليله قال : فاقبض روحي الساعة . وقيل : إذا قضى الله لرجل أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة فيسيره إليها . وقال بعضهم :

إذا ما حمام المرء كان ببلدة ... دعته إليها حاجة فيطير

حكي أن شاباً تقياً من بني إسرائيل كان يجتمع مع سليمان عليه السلام ويحضر مجالسه فبينما هو عند سليمان في مجلسه إذ دخل ملك الموت عليه ، فلما رآه الشاب اصفر لونه وارتعدت فرائصه وقال : يا نبي الله إني خفت من هذا الرجل فمر الريح أن تذهب بي إلى الهند . فأمر سليمان الريح فذهبت به فلما كان إلا قليل حتى دخل ملك الموت على سليمان وهو متعجب ، فقال له سليمان : مم تعجب ؟ قال : أعجب أني أمرت بقبض روح الشاب الذي كان عندك بأرض الهند ودخلت عليك فوجدته عندك فصرت متعجباً ، ثم توجهت إلى الهند فرأيته هناك وقبضت روحه فهذا عجبي ، فقال له سليمان : إنه لما رآك خاف وانزعج وطلب مني أن تحمله الريح إلى الهند فأمرتها فحملته وفي ذلك المعنى قال محمد بن الحسن :

ومتعب الروح مرتاح إلى بلد ... والموت يطلبه في ذلك البلد

وقيل : إن الإنسان يحصل له عند الموت قوة حركة نحو ما يحصل للسراج عند انطفائه من حركة سريعة ، وضياء ساطع ، وتسميها الأطباء النعشة الأخيرة والله أعلم . وقيل إن الرشيد ماتت له جارية وكانت من خواص محاظيه فجزع عليها جزعاً شديداً فقال لبعض أصدقائه : أما ترى ما بليت به ما أحببت أحداً إلا مات ، فقال : يا أمير المؤمنين أحبني فقال : ويحك إن الحب ليس هو شيء يصنع ، إنما هو شيء يقع في القلب تسوقه الأسباب فقال : قل أنا أحبك . قال : نعم أنا أحبك قال : فحُمَّ من وقته ومات . وفي الحديث المرفوع : كسر عظم الميت ككسره في حياته . وقال يزيد بن أسلم : لقد كان يمضي في الزمن الأول أربعمائة سنة ما يسمع فيها بجنازة . وعن ميمون بن مهران قال : شهدت جنازة ابن عباس رضي الله عنه بالطائف ، فلما وضع ليصلي عليه جاء طائر أبيض حتى وقف على أكتافه ثم دخل فيها فالتمسناه فلم نجده ، ولما سوينا عليه التراب سمعنا من يسمع صوته ولا نرى شخصه يقول : ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك** ﴾[1] الآية . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن قبر آدم عليه السلام بمسجد الخيف بمنى . وقال عطاء : بلغني أن قبره تحت المنارة التي وسط الخيف . وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى ما لا يبكيه عند ذكر الجنة والنار . فقيل له في ذلك فقال :

---

(١) سورة الفجر الآيتان ٢٧ و٢٨ .

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « القبر أول منازل الآخرة فان نجا العبد منه فما بعده أيسر منه » . وعن معاذ بن رفاعة الزرقي قال : أخبرني رجل من رجال قومي أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ في جوف الليل معتجراً بعمامة من استبرق فقال : يا محمد من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش فقام رسول الله ﷺ يجر ثوبه مبادراً إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه فوجده قد قبض . وقال الحسن رضي الله عنه : ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح وجوه الناس خمس مرات فمن رآه على لهو ، ولعب ، أو معصية أو ضاحكاً حرك رأسه وقال له : مسكين هذا العبد غافل عما يراد به ثم يقول له : اعمل ما شئت فان لي فيك غمزة أقطع بها وتينك . وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لرجاء بن حيوة : يا رجاء إذا وضعت في لحدي فاكشف الثوب عن وجهي فان رأيت خيراً فاحمد الله ، وإن رأيت غير ذلك فاعلم أن عمر قد هلك ، قال رجاء : فلما دفناه كشفت عن وجهه فرأيت نوراً ساطعاً فحمدت الله تعالى أن قد صار إلى خير . وقال أيضاً : دخلت على عمر بن عبد العزيز وهومحتضرفقال : يا رجاء إني أرى وجوهاً كراماً ليست بوجوه إنس ولا جان وهو يقلب طرفه يميناً وشمالاً ثم رفع يده فقال : اللهم أنت أمرتني فقصرت ، ونهيتني فعصيت فان غفرت فقد مننت وإن عاقبت فما ظلمت إلا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك المصطفى ، ونبيك المرتضى بلّغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح الأمة فعليه السلام والرحمة ثم قضى نحبه رحمه الله . وعن أسماء بنت عميس قالت : كنت عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد ما ضربه ابن ملجم إذ شهق شهقة بعد أن أغمي عليه ثم أفاق وقال : مرحباً الحمد لله الذي صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فقيل له : ما ترى ؟ قال : هذا رسول الله ﷺ ، وهذا أخي جعفر ، وعمي حمزةْ وأبواب السماء مفتحة والملائكة ينزلون عليّ يبشرونني بالجنة ، وهذه فاطمة قد أحاط بها وصفاؤها من الحور العين وهذه منازلي لمثل هذا فليعمل العاملون .ولما احتضر عبد الملك بن مروان قال لأبنه الوليد : إذا أنا متّ إياك أن تجلس وتعصر عينيك كالمرأة الوكعاء ، لكن ائتزر وشمر والبس جلد النمر وضعني في حفرتي ، وخلني وشأني ، وعليك شأنك ، ولدع الناس إلى بيعتك فمن قال برأسه هكذا ، فقل له بسيفك هكذا . ثم بعث إلى محمد وخالد ابنيّ يزيد بن معاوية فقال : هل عندكما ندامة في بيعة الوليد فقالوا لا نعرف أحداً أحق منه بالخلافة ، فقال : أما أنكما لو قلتما غير هذا لضربت الذي فيه أعينكما ، ثم رفع كنار فراشه فاذا تحته سيف مسلول تحت يمينه . كل هذا وروحه تتردد في حنجرته وهو يقول : الحمد لله الذي لا يبالي ، أصغيراً أخذ ، أم كبيراً لا إله إلا الله محمد رسول الله ثم بعد ساعة نفذت روحه فدخل عليه الوليد ومعه بناته يبكون فتمثل بقول الشاعر :

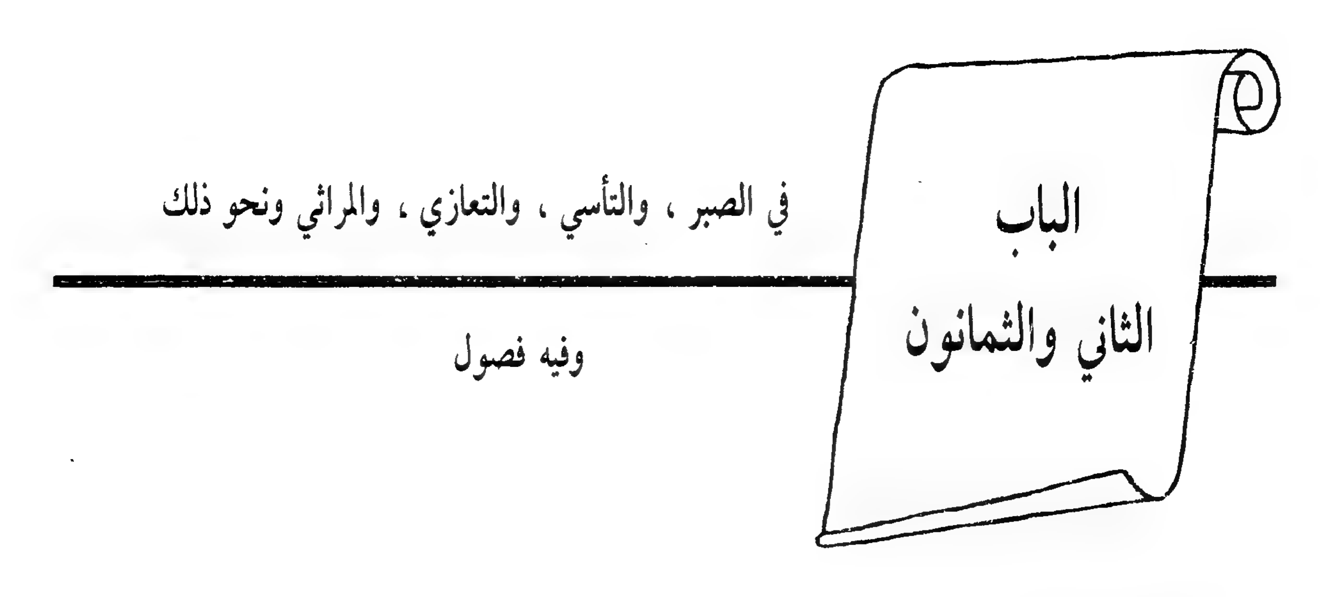
ومستخبر عنا يريد بنا الردى ... ومستخبرات والعيون سواكب

وقال محمد بن هارون :

كأني بأخواني على جنب حفرتي ... يهيلون فوقي والعيون دما تجري
فيا أيها المذري عليّ دموعه ... ستعرض في يومين عني وعن ذكري
عفا الله عني أنزل القبر ثاوياً ... أزار فلا أدري وأجفى فلا أدري

وكان يزيد الرقاشي يقول من كان الموت موعده ، والقبر بيته ، والثرى مسكنه ، والدود أنيسه ، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف تكون حالته ، ثم يبكي حتى يغشى عليه . فيجب على العاقل أن يحاسب نفسه بنفسه على ما فرط من عمره ويستعد لعاقبة أمره بصالح العمل ، ولا يغتر بالأمل فان من عاش مات ، ومن مات فات وكل ما هو آت آت . نسأل الله أن يلهمنا رشدنا ويوفقنا لاتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، وأن يجعل الموت خير غائب ننتظره ، وأن يختم لنا بالخير وأن يتغمدنا برحمته . إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .





الباب الثاني والثمانون

في الصبر ، والتأسي ، والتعازي ، والمراثي ونحو ذلك

وفيه فصول

الفصل الأول :

في الصبر

قال الله تعالى :﴿ وبشر الصابرين* الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾[1] .
وقال ﷺ: ما من مسلم يصاب بمصيبة وإن قل عهدها فأحدث استرجاعاً ، إلا أحدث الله له مثله وأعطاه مثل أجره ذلك يوم أصيب بها . وعن انس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من أصبح حزيناً ، أصبح ساخطاً على ربه ، ومن أصبح يشكو مصيبة فكأنما يشكو الله ، ومن تواضع لغني سأله ما في يده أحبط الله ثلثي عمله ، ومن أعطي القرآن ولم يعمل به وتهاون به حتى دخل النار أبعده الله عن رحمته ، لأنه هو الذي فعل ذلك بنفسه حيث لم يعرف حرمة القرآن». وروي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من مات له ثلاثة من الولد لم يلج النار إلا تحلة القسم » . يعني قوله تعالى : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾[2]. وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال : « من أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبتي ، وأعقبني خيراً منها إلا فعل الله به ذلك » . وروي أنه لما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ ذرفت عيناه فقال له عبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ألم تنه عن البكاء قال إنما نهيت عن الغناء والصوتين الأحمقين والندب . ولكن هذه الرحمة جعلها الله تعالى في قلوبنا ، ومن لا يَرْحم لا يُرْحم فان القلب يخشع ، والعين تدمع وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون . ولا نقول إلا ما يرضي الله ربنا إنا لله وإنا إليه راجعون . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أول شيء كتبه الله في اللوح المحفوظ : إنني أنا الله لا إله إلا أنا محمد عبدي ورسولي ، من استسلم لقضائي ، وصبر على بلائي وشكر نعمائي ، كتبته صديقاً وبعثته مع الصديقين . ومن لم يستسلم لقضائي ، ولم يصبر على بلائي ، ولم يشكر نعمائي فليتحذر باسوائي . وقال ابن المبارك إن المصيبة واحدة فاذا جزع صاحبها فهما إثنتان ، لأن احداهما المصيبة بعينها ، والثانية ذهاب أجره ، وهو

---

(١) سورة البقرة الآيتان ١٥٥ و١٥٦ .

(٢) سورة مريم الآية ٧١ .

أعظم من المصيبة . وعن العلاء بن عبد الرحمن أن النبي ﷺ لما حضرته الوفاة بكت فاطمة . فقال لا تبكي يا بنتاه قولي إذا مت إنا لله وإنا إليه راجعون فان لكل إنسان مصيبة معوضة . قالت ومنك يا رسول الله قال ومني . وعن عطاء بن أبي رباح قال قال النبي ﷺ : « من أصابته مصيبة ، فليذكر مصيبته بي فانها من أعظم المصائب » . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال : « من أخذت حبيبتاه يعني عينيه ، فصبر واحتسب أدخله الله الجنة » . وقيل إن امرأة أيوب عليه الصلاة والسلام قالت له : لو دعوت الله تعالى أن يشفيك . فقال لها ويحك كنا في النعماء سبعين عاماً ، أفلا نصبر على الضراء مثلها . فلم يلبث إلا يسيراً أن عوفي . وقيل الصبر مفتاح الظفر ، والتوكل على الله تعالى رسول النجاح . وقيل من لم يلق نوائب الدهر بالصبر طال عتبه عليه . وقيل إن معاوية رضي الله تعالى عنه : خرج يوماً ومعه عبد العزيز بن زرارة الكلبي وكان ذا منصب وشرف وعقل وأدب فقال له معاوية : يا عبد العزيز أتاني نعي بسيد شباب العرب . فقال له ابني أو ابنك . قال بل ابنك . قال للموت تلد الوالدة . ومما قيل اصبر لحكم من لا تجد معوّلاً إلا عليه ولا مفزعاً إلا إليه . وقال سويد السدوسي :

فأوصيكما يا ابني سدوس كلاكما ... بتقوى الذي أعطاكما وبراكما
بشكر إذا ما أحدث الله نعمة ... وصبر لأمر الله فيما ابتلاكما

وقال :

أيا صاحبي إن رمت أن تكسب العلا ... وترقى إلى العلياء غير مزاحم
عليك بحسن الصبر في كل حالة ... فما صابر فيما يروم بنادم

وقال آخر :

هو الدهر قد جربته وبلوته ... فصبرا على مكروهه وتجلدا

وحدث الزبير قال قامت عائشة بعدما دفن أبوها أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فقالت نضر الله وجهك ، وشكر صالح سعيك ، فقد كنت للدنيا مذلاً بادبارك عنها ، وللآخرة معزاً باقبالك عليها ، ولئن كان رزؤك أعظم المصائب بعد رسول الله ﷺ ، وأكبر الأحداث بعده فان كتاب الله تعالى قد وعدنا بالثواب على الصبر في المصيبة ، وأنا تابعة له في الصبر فأقول إنا لله وإنا إليه راجعون ومستعيضة بأكثر الأستغفار لك فسلام الله عليك توديع غير قالية لحياتك ، ولا رازئة على القضاء فيك ولما مات ذرّ الهمداني جاء أبوه فوجده ميتاً وكان موته فجأة وعياله يبكون عليه فقال : ما لكم والله ما ظلمناه ولا قهرناه ولا ذهب لنا بحق ، ولا أصابنا فيه ما أخطأ من كان قبلنا في مثله . ولما وضعه في حفرته قال رحمك الله يا بني وجعل أجري فيك لك ، والله ما بكيت عليك ،وإنما بكيت لك ، فوالله لقد كنت بي باراً ولي نافعاً وكنت لك محباً وما بي إليك من وحشة ، وما بي إلى أحد غير الله من فاقة وما ذهبت لنا بعزة ، وما أبقيت لنا من ذل ، ولقد شغلنا الحزن لك ، عن الحزن عليك ، يا ذرّ لولا هول المطلع لتمنيت ما صرت إليه . فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك . ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إنك وعدت الصابرين على المضيبة ثوابك ورحمتك . اللهم وقد وهبت ما جعلت لي من الأجر إلى ذرّ صلة مني له فلا تحرمني ولا

تعرفه قبيحاً وتجاوز عنه فانك رحيم بي وبه . اللهم قد وهبت لك إساءته لي فهب لي إساءته إليك فانك أجود مني وأكرم . اللهم إنك قد جعلت لك عليه حقاً ، وجعلت لي عليه حقاً قرنته بحقك فقلت اشكر لي ولوالديك إليّ المصير . اللهم إني قد غفرت له ما قصر فيه من حقي فاغفر له ما قصر فيه من حقك فأنك أولى بالجود والكرم . فلما أراد الانصراف قال يا ذرّ قد انصرفنا وتركناك ، ولو أقمنا عندك ما نفعناك . وفي الحديث إذا مات ولد العبد يقول الله تعالى للملائكة ماذا قال عبدي عند قبض روح ولده ، وثمرة فؤاده ؟ فيقولون إلهنا حمدك واسترجع . فيقول الله تعالى : أشهدكم يا ملائكتي أني بنيت له بيتاً في الجنة وسميته بيت الحمد . وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه دفن ابنا له وضحك عند قبره ، فقيل له أتضحك عند القبر ؟ قال : أردت أن أرغم أنف الشيطان . فينبغي للعبد أن يتفكر في ثواب المصيبة فتسهل عليه ، فاذا أحسن الصبر استقبله يوم القيامة ثوابها حتى يود لو أن أولاده وأهله وأقاربه ماتوا قبله لينال ثواب المصيبة . وقد وعد الله تعالى في المصيبة ثواباً عظيماً إذا صبر صاحبها واحتسب وقال تعالى : ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين** ﴾[2] الآية . اللهم رضينا بقضائك وصبرنا على بلائك واغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين يا رب العالمين .



من هذا الباب

في التعازي والتأسي

روى الترمذي في كتاب السنن للبيهقي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ : « قال من عزّى مصاباً فله مثل أجره». وروينا في كتاب الترمذي أيضاً بسند متصل إلى رسول الله ﷺ : « من عزّ ثكلى كُسي برداء في الجنة » . وروينا في سنن ابن ماجه والبيهقي باسناد حسن عن عمرو بن حزم عن النبي ﷺ قال : « ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبته إلا كساه الله من حلل الكرامة يوم القيامة ». واعلم أن التعزية هي التصبر ، وذكر ما يسلي صاحب الميت ، ويخفف حزنه ، ويهون مصيبته وهي مستحبة . فانها مشتملة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي أيضاً داخلة في قوله تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى** ﴾[3]

---

(١) سورة محمد الآية ٣١ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٥٥ .

(٣) سورة المائدة الآية ٢ .

وهي من أحسن ما يستدل به في التعزية . وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال : « والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه » . واعلم أن التعزية مستحبة قبل الدفن وبعده . وتكره بعد ثلاثة أيام لأن التعزية لتسكين قلب المصاب ، والغالب سكونه بعد ثلاثة أيام فلا يجدد الحزن . هكذا قال الجماهير من أصحاب الشافعي رضي الله تعالى عنه ، وقيل إنها لا تفعل بعد ثلاثة أيام إلا في صورتين ، وهما إذا كان المعزي أو صاحب المصيبة غائباً حال الدفن ، فاتفق رجوعه بعد الثلاثة . وأما لفظ التعزية فلا حجر فيه ، فبأي لفظ عزاه حصلت . واستحب أصحاب الشافعي أن يقول في تعزية المسلم بالمسلم عظم الله أجرك وأحسن عزاءك وغفر لميتك . وفي المسلم بالكافر . أعظم الله أجرك وأحسن عزاءك ، وفي الكافر بالكافر أخلف الله عليك ، ولا نقص لك عدداً . روي أن النبي ﷺ فقد بعض أصحابه فسأل عنه ، فقالوا يا رسول الله بنيه الذي رأيته هلك . فلقيه النبي ﷺ فسأل عن بنيه فقالوا يا رسول الله هلك فعزاه فيه . ثم قال يا فلان أيما كان أحب إليك أن تتمتع به عمرك أولا تأتي غدا باباً من أبواب الجنة إلا وجدته وقد سبقك إليه فيفتحه لك . فقال يا رسول الله سبقه إلى باب الجنة أحب إلّي من التمتع به في دار الدنيا قال : ذلك لك . وروى البيهقي بإسناده في مناقب الشافعي رحمهما الله أن الشافعي قد بلغه أن عبد الرحمن بن مهدي مات له ابن فجزع عليه جزعاً شديداً فبعث إليه الشافعي رحمه الله يقول : يا أخي عز نفسك بما تعزي به غيرك ، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك ، واعلم أن أمض المصائب فقد سرور وحرمان أجر فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وزر ألهمك الله عند المصائب صبراً ، وأجزل لنا ولك بالصبر أجراً . وروي عن ابن المبارك قال : مات لي ابن فمر بي مجوسي . وقال ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام ، فقال اكتبوها منه . وعن معاذ بن جبل أنه قال : مات لي ابن فكتب إلّي رسول الله ﷺ من محمد رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل سلام عليكم فإني أحمد الله الملك ، الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فعظم الله لك الأجر ، وألهمك الصبر ، ورزقنا وإياك الشكر ، ثم اعلم أن أنفسنا وأموالنا وأهلنا وأولادنا من مواهب الله تعالى الهنية ، وعواريه المستودعة ، يمتعنا بها إلى أجل معدود ويقبضها لوقت معلوم . ثم فرض الله تعالى علينا الشكر إذا أعطى والصبر إذا ابتلى ، وكان ابنك من مواهب الله الهنية وعواريه المستودعة ، متعك الله به في غبطة وسرور ، وقبضه بأجر كبير إن صبرت واحتسبت ، واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً ولا يطرد حزناً . وروي أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه كان إذا عزى مرزأ قال ليس مع العزاء مصيبة ، ولا مع الجزع فائدة ، والموت أشد مما قبله ، وأهون مما بعده ، فاذكر مصيبتك برسول الله ﷺ تهن عليك مصيبتك . وعزى الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه صديقاً له فقال :

إنـا نعزيـك لا أنا عـلى ثقـة	من الحياة ولكن سنـة الـدين
فـما المعـزى بباق بعـد ميتـه	ولا المعزي ولو عاشا إلى حين

وكتب بعضهم إلى أخ له يعزيه ، أنت يا أخي أعزك الله ، عالم بالدنيا وما خلقت له من الفناء ، وأنها لم تعط إلا أخذت ، ولم تسر إلا أحزنت ، وأن الموت سبيل محتوم على الأولين والآخرين لا دافع عنه ولا مؤخر لما قضى الله عز وجل منه وإنا لله وإنا إليه راجعون . وعزى رجل بعض الخلفاء بابن له فكتب إليه يقول :

تـعـز أمـير المؤمـنـين فـانــه لما قد تـرى يغدو الصغير ويولد
هــل الأبن إلا من ســلالــة آدم لكـل عـلى حــوض المنية مــورد

وكتب بعضهم إلى صديق له وقد ماتت ابنته فقال :

المــوت أخـفـى سـوأة لـلبـنــات ودفنهــا يــروي من المكــرمــات
أمــا رأيــت الله ســبــحــانــه قـد وضـع النعش بجنب البنــات

وكتب بعضهم إلى صديق له يعزيه بأخيه ويسليه : ما تصنع يا أخي والقضاء نازل ، والموت حكم شامل وإن لم تلذ بالصبر فقد اعترضت على مالك الأمر ، وأنت تعلم أن نوائب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر ، فاجعل بين هذه اللوعة الغالبة ، والدمعة الساكبة ، حاجباً من فضلك ، وحاجزاً من عقلك ودافعاً من دينك ومانعاً من يقينك . فان المحن إذا لم تعالج بالصبر كانت كالمنح إذا لم تقابل بالشكر فصبراً صبراً ففحول الرجال لا تستفزها الأيام بخطوبها ، كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها ، فعزيز عليّ أن أخاطب مولاي معزياً ، وأكاتبه مسلياً عن كبير أو صغير مما يتعلق بخدمته أو ينتمي إلى جملته ، فكيف بالصنو الأكرم والذخر الأعظم ، والركن الأشد ، والسهم الأسد ، والشهاب الأسطع ، والحسام الأقطع . لكن التعزية سير سائرة وسنة ماضية غابرة ، وقدر الله هو المقدر ، وأجل الله إذا جاء لا يؤخر ، ولولا أن الذكرى تنفع ، والتعزية يستوي فيها الأشرف والأوضع ، لأجللت مولاي أن أفاتحه معزياً ، وأخاطبه مسلياً ، ولكن بحمد الله العالم لا يعلم ، والسابق لا يتقدم ، فبمولاي يقتدى في الصبر على النوائب ، بنوره يهتدى في مشكلات المذاهب ، وكل ما كان من الردى أرجع كان الأجر عليه أوسع ، جعل الله مولاي من الصابرين على المصيبة وعظم أجره وجعل الجنة نصيبه . وعزى رجل فتى عن أبيه فلم يجده كما أحب فقال يا بني سوء الخلف أضر علينا من فقد السلف . ومات لبعض ملوك كندة ابنة فوضع بين يديه بدرة من المال وقال : من بالغ في تعزيته فهي له . فدخل عليه اعرابي وقال عظم الله أجر الملك كفيت المؤنة ، وسترت العورة ونعم الصهر القبر . فقال قد أبلغت وأوجزت ثم دفعها له . وعزت أعرابية قوماً فقالت جافى الله عن ميتكم الثرى وأعانه على طول البلى وآجركم ورحمه . وكان لعلّي بن الحسين جليس مات له ابن فجزع عليه جزعاً شديداً فعزاه علي بن الحسين رحمه الله ووعظه فقال يا ابن رسول الله : إن ابني كان مسرفاً على نفسه فقال لا تجزع . فإن من ورائه ثلاث خلال أولهن شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن سيدنا محمداً رسول الله . والثانية شفاعة جدي ﷺ ، والثالثة رحمة الله التي وسعت كل شيء فأين يخرج ابنك عن واحدة من هذه الخلال . وقال سليمان بن عبد الملك عند موت ابنه لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة : إن في كبدي جمرة لا يطفئها إلا عبرة . فقال عمر أذكر الله يا أمير المؤمنين وعليك بالصبر فنظر إلى رجاء كالمستريح بمشورته . فقال رجاء أفضها يا أمير المؤمنين فما بذلك من بأس لقد دمعت عينا رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم . وقال إن العين لتدمع ، وإن القلب ليخشع ، ولا نقول ما يسخط الرب ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون . فأرسل سليمان عينيه حتى قضى أربه ثم أقبل عليهم وقال لولا أن نزفت هذه العبرة لانصــدع كبدي ثم إنه لم يبك بعدها . وكتب الاسكندر إلى أمه قبل وفاته بقليل . إذا وصل إليك كتابي هذا فأجمعي أهل بلدك وأعدي لهم طعاماً ،

ووكلي بالأبواب من يمنع مَنْ أصابته مصيبة ، في أم أو أب أو أخ أو أخت أو ولد ففعلت . فلم يدخل إليها أحد فعلمت أن الاسكندر عزاها في نفسه . ولما قتل الفضل بن سهل دخل المأمون على أمه يعزيها فيه فقال لها أماه : لا تحزني على الفضل فأنا خلف منه . فقالت كيف لا أحزن على ولد عوضني عنه خليفة مثلك ، فعجب المأمون من جوابها وكان يقول : ما سمعت قط أحسن منه ، ولا أجلب للقلوب . فقال لها عليك بالصبر فإن فيه مزيد الأجر . وممن جزع على ولده جعفر بن علية لما قتله الحرث قام نساء الحي يبكون عليه ، وقام أبوه إلى ولد كل شاة وناقة فذبحه وألقاها بين أيديهن وقال لهن ابكين معي على جعفر فما زالت النوق ترغو ، والشياه تيعر والنساء يصرخن ويبكين ، وهو يبكي معهن فلم ير مأتم كان أوجع منه . وقال يحيى بن خالد التعزية بعد ثلاثة أيام تجدد الحزن ، والتهنئة بعد سنة تجدد الفرح. ومما قيل في التأسي والتسلي بالخلف عن السلف: قيل عزى بعض الشعراء يزيد بن معاوية في والده فقال :

اصبر يزيد فقد فارقت ذائقة   واشكر إلهك من بالملك حاباكا
لا رزء أصبح في الأيام نعرفه   كما رزئت ولا عقبى كعقباكا

وقال آخر :

لا بد من فقد ومن فاقد   هيهات ما في الناس من خالد

وقال آخر :

تبصر فلو أن البكا ردّ هالكا   على أحد فأكثر بكاك على عمر

وكتب بعضهم إلى أولاد صديقه يعزيهم ويسليهم في والدهم فقال :

فلو كان فيض الدمع ينفع باكيا   لعلمت غرب الدمع كيف يسيل
فإن غاب بدر فالنجوم طوالع   ثوابت لا يقضي لهن أفول
يغاث بها في ظلمة الليل حائر   ويسري عليها بالرفاق دليل

ودخل عبد الملك بن صالح على الرشيد وقد مات له ولد ، وولد له في تلك الليلة ولد ، فقال سرك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سرك ، وجمع لك بين أجر الصابر وثواب الشاكر .
وقال بعضهم :

أليس لهذا صار آخر أمرنا   فلا كانت الدنيا القليل سرورها
فلا تعجبي يا نفس مما ترينه   فكل أمور الناس هذا مصيرها

وسئل الأصمعي عن قول الخنساء في نعيها صخرا حين مات ونعته فقالت :

يذكرني طلوع الشمس صخرا   وأندبه لكل غروب شمس

فقالوا له : لماذا أنها خصت الشمس دون القمر والكواكب فقال لكونه كان يركب عند طلوع الشمس يشن الغارات وعند غروبها يجلس مع الضيفان . فذكرته بهذا مدحاً لأنه كان يغير على أعدائه

ويتقيد بضيفه . وقد رثته بعد البيت الأول بأبيات منها :

ألا يا نفس لا تنسيه حتى   أفارق عيشتي وأزور رمسي
ولولا كثرة الباكين حولي   على أمواتهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن   أسلي النفس عنه بالتأسي

وقال آخر :

ولولا الأسى ما عشت في الناس ساعة   ولكن إذا ناديت جاوبني مثلي

وقال آخر :

وهوّن وجدي عن خليلي أنني   إذا شئت لاقيت الذي أنا صاحبه

وقال آخر :

ومما يؤديني إلى الصبر والعزا   تردد فكري في عموم المصائب



في المراثي

لما توفي رسول الله ﷺ رثاه جماعة من أصحابه ، وآله بمراث كثيرة ، منها ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فانه كان أقرب الناس إليه وهو أول من رثاه فقال :

لما رأيت نبينا متجندلا   ضاقت عليّ بعرضهن الدور
فارتاع قلبي عند ذاك لموته   والعظم مني ما حييت كسير
أعتيق ويحك إن خلك قد ثوى   والصبر عندك ما بقيت يسير
يا ليتني من قبل مهلك صاحبي   غيبت في لحد عليه صخور
فلتحدثن بدائع من بعده   تعيا بهن جوانح وصدور

وقال آخر :

فقدت أرضنا هناك نبيا   كان يغدو به النبات زكيا
خلقا عاليا ودينا كريما   وصراطا يهدي الأنام سويا
وسراجا يجلو الظلام منيرا   ونبيا مؤيدا عربيا

حـــازمـــا عـــازمـــا حليـــا كـــريمـــا　　عـــائـدا بـــالـنـوال بـــرّا تـقـيـا
إن يـــومـــا أتى عـــليـــك لـــيـــوم　　كـــوّرت شـمـسـه وكـــان خـليـا
فـعليـك الـسـلام منا جـميـعـا　　دائم الـدهـر بـكـرة وعـشـيـا

ورثاه ﷺ أبو سفيان بن الحرث فقال :

أرقت فـبـات لـيـلي لا يـزول　　ولـيـل أخي المصيبة فيـه طـول
وأسـعـدني الـبـكـاء وذاك فـيـما　　أصـيـب المسـلـمـون بـه قـلـيـل
لقـد عـظمت مصيبتنـا وجلت　　عشية قيل قـد قبض الرسـول
وأضـحت أرضـنـا مما عـراهـا　　تـكـاد بـنـا جـوانـبـهـا تميـل
فقـدنـا الـوحي والتنزيـل فينـا　　يـروح بـه ويـغـدو جـبـرائـيـل
وذاك أحـق مـا سـالـت عـلـيـه　　نفـوس الناس أو كـادت تسيل
نـبي كـان يجـلـو الـشـك عـنـا　　بمـا يـوحى إلـيـه ومـا يـقـول
ويهـديـنـا فـلا نخشى مـلامـا　　عـلـيـنـا والـرسـول لـنـا دلـيـل
أفـاطم إن جزعت فـذاك عـذر　　وإن لم تجـزعي فـهـو الـسـبـيـل
فقبـر أبيـك سيـد كـل قـبـر　　وفيـه سيـد الـنـاس الـرسـول

ولما مات أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه رثاه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بهذه الأبيات حين رجع من دفنه فقال :

ذهـب الـذيـن أحـبـهـم　　فـعـلـيـك يـا دنـيـا الـسـلام
لا تـذكـريـن الـعـيـش لي　　فـالـعـيـش بـعـدهـم حـرام
إني رضـيـع وصـالـهـم　　والـطـفـل يـؤلـمـه الـفـطـام

ورثى بعضهم محمد بن يحيى بعد موته فقال :

سألت الندى والجود مالي أراكما　　تـبـدلـتـما عـزا بـذل مـؤبـد
وما بال ركن المجد أمسى مهدّما　　فقـالا أصبنا بـابن يحيى محمـد
فقلت فهـلا متـما بعـد مـوتـه　　وقـد كنتما عبديه في كـل مشهد
فقـال أقمنا كي نعـزي بفقـده　　مسـافـة يـوم ثم نتلوه في غـد

وقال آخر :

ولا أرتجي في الموت بعدك طائلا　　ولا أتقي للدهر بعدك من خطب

وفي المعنى لبعضهم :

لقد آمنت نفسي المصائب بعده　　فـأصبحت منها آمنـا أن أروّعـا
فـما أتقي للدهـر بعـدك نكبـة　　ولا أرتجي للعيش بعـدك مرتعـا

ورثى أشجع السلمي عبد الله بن سعيد فقال :

مضى ابن سعيد حيث لم يبق مشرق ... ولا مغرب إلا له فيه مادح
وما كنت أدري ما فواضل كفه ... على الناس حتى غيبته الصفائح
وأصبح في لحد من الأرض ميتا ... وكان به حيا تضيق الصحاصح[1]
سأبكيك ما فاضت دموعي فان تفض ... فحسبك مني ما تكن الجوانح
وما أنا من رزء ، وإن جل جازع ... ولا بسرور بعد فقدك فارح
لئن حسنت فيك المراثي بذكرها ... فقد حسنت من قبل فيك المدائح

وقال آخر :

إلى الله أشكو لا إلى الناس إنني ... أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب[2]
أخلاي لو غير الحمام أصابكم ... عتبت ولكن ما على الدهر معتب

وقال العباس بن الأحنف :

إذا ما دعوت الصبر بعدك والبكا ... أجاب البكا طوعاً ولم يجب الصبر
فان ينقطع منك الرجاء فانه ... سيبقى عليك الحزن ما بقي الدهر

وقال آخر يرثي صديقه :

خليلي ما ازداد إلا صبابة ... إليك وما تزداد إلا تنائيا
خليلي لو نفس فدت ميتاً ... فديتك مسروراً بنفسي وماليا
وقد كنت أرجو أن تعيش وإن مت ... فحال قضاء الله دون رجائيا
ألا فليمت من شاء بعدك إنما ... عليك من الأقدار كان حذاريا

أخذها بعضهم فقال :

كنت السواد لمقلتي ... يبكي عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت ... فعليك كنت أحاذر

وقال آخر يرثي بعض أولاده :

وقاسمني دهري بنيّ مشاطرا ... فلما تقضى شطره عاد في شطري
ألا ليت أمي لم تلدني وليتني ... سبقتك إذ كنا إلى غاية نجري
وقد كنت ذا ناب وظفر على العدا ... فأصبحت لا يخشون نابي ولا ظفري

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخنساء : أخبريني بأفضل بيت قلتيه في أخيك فقالت :

وكنت أعير الدمع قبلك من بكى ... فأنت على من مات بعدك شاغله

---

(١) الصحاصح : الارضّ المستوية .
(٢) الاخلاء : الأصحاب .

ولأبي المحاسن الشواء في صديق له مات وسقط الثلج عقيب موته :

لم أنسه وبنو الملوك أمامه ... يدمون للأسف الأكف عضاضا
والثلج قد غطى الربا فكأنها ... من حزنها لبست عليه بياضا

وقال آخر :

وليس صرير النعش ما تسمعونه ... ولكنه أصلاب قوم تقصفوا
وليس نسيم المسك ريا حنوطه ... ولكنه ذاك الثناء المخلف

وقال مقاتل بن عطية يرثي الوزير نظام الملك :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة ... يتيمة صاغها الرحمن من شرف
عزت ولم تعرف الأيام قيمتها ... فردها عندما عزت إلى الصدف

وقال آخر :

وقبرت وجهك وانصرفت مودعا ... بأبي وأمي وجهك المقبور
وأرى ديارك بعد وجهك قفرة ... والقبر منك مشيد معمور
فالناس كلهم لفقدك واحد ... في كل بيت رنة وزفير
عجبا لأربع أذرع في خمسة ... في جوفها جبل أشم كبير

وكان رجل توفي ولده يوم عيد فقال :

لبس الرجال جديدهم في عيدهم ... ولبست حزن أبي الحسين جديدا
أيسرني عيد ولم أر وجهه ... فيه إلا بعدا لذلك عيدا
فارقته وبقيت أخلد بعده ... لا كان ذاك بقا ولا تخليدا
من لم يمت جزعا لفقد حبيبه ... فهو الخؤون مودة وعهودا
مت مع حبيبك إن قدرت ولا تعش ... من بعده ذا لوعة مكمودا
ما أم خشف قد ملا أحشاءها ... حذرا عليه وجفنها تسهيدا
إن نام لم تهجع وطافت حوله ... فيبيت مَكْلوماً بها مرصودا
مني بأوجع إذا رأيت نوائحا ... لأبي الحسين وقد لطمن خدودا
ولقد عدمت أبا الحسين جلادتي ... لما رأيت جمالك المفقودا
كنت الجليد على الرزايا كلها ... وعلى فراقك لم أجد تجليدا
ولئن بقيت وما هلكت فان لي ... أجلا وإن لم أحصه معدودا
لا موت لي إلا إذا الأجل انقضى ... فهناك لا أتجاوز المحدودا
حزني عليك بقدر حبك لا أرى ... يوماً على هذا وذاك مزيدا
ما هدّ ركني بالسنين وإنما ... أصبحت بعدك بالأسى مهدودا

يـا ليت إني لم أكن لـك والـدا … وكـذاك أنـك لم تـكن مـولـودا
فلقـد شقيت وربمـا شقي الـفتى … بفـراق من يهـوى وكـان سعيـدا
من ذم جفنـا باخـلا بـدمـوعـه … فعليـك جفني لم يـزل محمـودا
فـلأنـظمـن مـراثيـا مشهـورة … تـنسـي الأنـام كثيـرا ولبيـدا
وجميـع من نظم القـريض مفـارق … ولـدا لـه أو صـاحبـا مفقـودا

وقال الفقيه منصور بن إسماعيل المصري :

سألت رسوم القبـر عمن ثوى بـه … لأعلم مـا لاقى فقالت جـوانبـه
أتسـأل عمن عـاش بعـد وفـاتـه … بـاحسـانـه إخـوانـه وأقـاربـه

وقال الإمام السبكي رحمه الله تعالى يرثي فضل الله العالم :

مصـاب ليس يـشبهـه مصـاب … لـذي الألبـاب إذ فقـد الشهـاب
إمـام قـد حـوى من كـل علم … كنـوزاً نحوهـا يسعى الـركـاب
لـيبـكي كـل ذي عـلم عليـه … فـكـم عـلم لـه ضـم الـتـراب
وكـم كـلم مـوانـع قـد أتـتـه … ثنـاهـا وهي عـاصيـة صعـاب
فـسلطان الـبـلاغ بـغـير شـك … شهـاب الـدين مـا فيـه ارتيـاب
سقى الله الكـريم ثـراه صـوبـا … لـه من كـل رضـوان رضـاب

وقال الصدفي :

يـا غائباً في الثرى تبلى محاسنه … الله يـوليـك غفـرانـا وإحسـانـا
إن كنت جرعت كأس الموت واحدة … في كـل يـوم أذوق الموت ألـوانـا

وقال محمد بن عبد الله العتبي يرثي ابناً له :

أضحت بخـدي للدمـوع رسـوم … أسفـا عليـك وفي الـفؤاد كـلوم
والصبـر يحمـد في المـواطن كلهـا … إلا عـلـيـك فـانـه مـذمـوم

وكتب أحمد بن يوسف إلى عمر بن سعيد يرثي بنتاً له فقال :

عـجبـا لـلمنـون كـيـف أتـتـهـا … وتخـطت عبـد الحميـد اخـاكـا
شـمـلتـنـا مـصيبـتـان جمـيـعـا … فـقـدنـا هـذه ورؤيـة ذاكـا

وله يرثي الأمير يلبغا :

ألا إنمـا الـدنيـا غـرور وبـاطـل … فـطوبى لمن كفـاه منهـا تفـرغـا
ومـا عجبي إلا لمن بـات واثقـا … بأيـام دهـر مـا وعى حق يلبغـا

وقال آخر :

إلى الله أشكـو أن كـل قـبيـلة … من الناس قد أفنى الحمام خيارها

وقال رجل يرثي صديقاً له توفي وكان من الكرماء :

ما درى نعشه ولا حاملوه ... ما على النعش من عفاف وجود

ولبعض الكتاب في ابن مقلة :

استشعر الكتاب فقدك سالفا ... وقضت بصحة ذلك الأيام

فلذاك سوّدت الدواة كآبة ... أسفا عليك وشقت الأقلام

وقال الحسن بن مطير الأسدي يرثي معن بن زائدة رحمه الله تعالى :

هلما إلى معن وقولا لقبره ... سقتك الغوادي مربعا ثم مربعا

فيا قبر معن كنت أوّل حفرة ... من الأرض خطت للسماحة مضجعا

ويا قبر معن كيف واريت جوده ... وقد كان منه البر والبحر مترعا

بلى قد وسعت الجود والجود ميت ... ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا

فتى عاش في معروفه بعد موته ... أناس لهم بالبر قد كان أوسعا

ولما مضى معن مضى الجود كله ... وأصبح عرنين المكارم أجدعا

وقال آخر :

عجبت لصبري بعده وهو ميت ... وقد كنت أبكيه دما وهو غائب

وقال آخر :

فديتك لم أصبر ولي فيك حيلة ... ولكن دعاني اليأس منك إلى الصبر

وقالت ريطة بنت عاصم :

وقفت فأبكتني ديار عشيرتي ... على رزئهن الباكيات الحواسر

غدوا كسيوف الهند وراد حومة ... من الموت أعيا وردهن المصادر

فوارس حاموا عن حريمي وحافظوا ... بدار المنايا والقنا متشاجر

ولو أن سلمى نالها مثل رزئنا ... لهدت ولكن محمل الرزء عامر

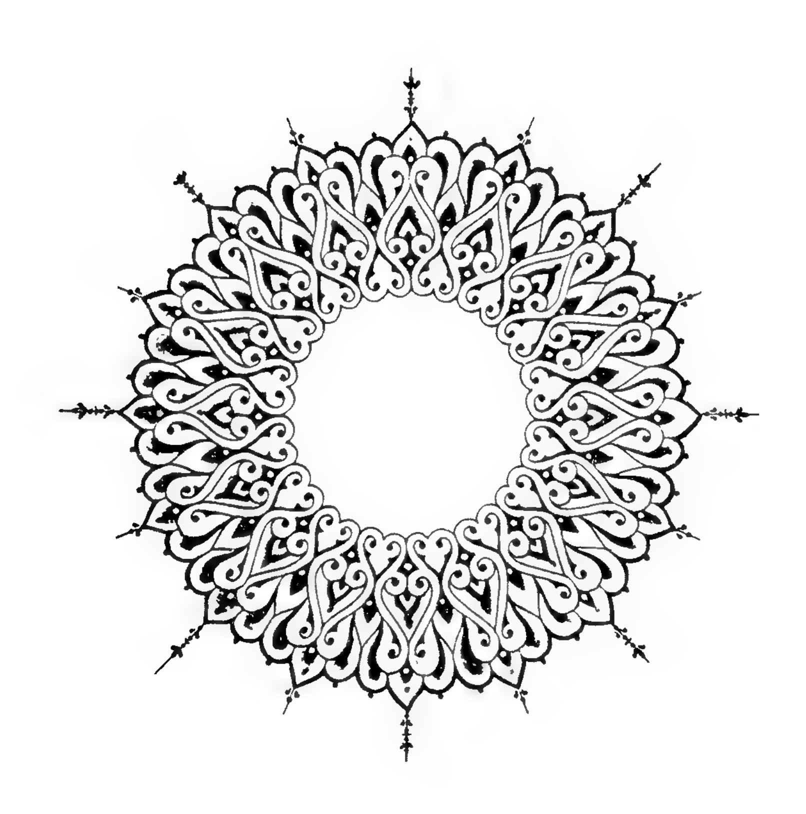
ولما قتل إبراهيم بن عبد الله بن الحسين وحمل رأسه إلى المنصور أنفذها المنصور مع الربيع إلى عميه إدريس ومحمد وكانا في حبسه، وكان أبوه قائماً يصلي . فقال له محمد أوجز فأوجز وسلم ، فلما أتاه وضع الرأس في حجره ، فقال أهلا وسهلا يا أبا القاسم تالله لقد كنت من الناس الذين قال الله تعالى في حقهم : ﴿ **الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق** ﴾[1] ثم قبله بين عينيه وأنشأ يقول :

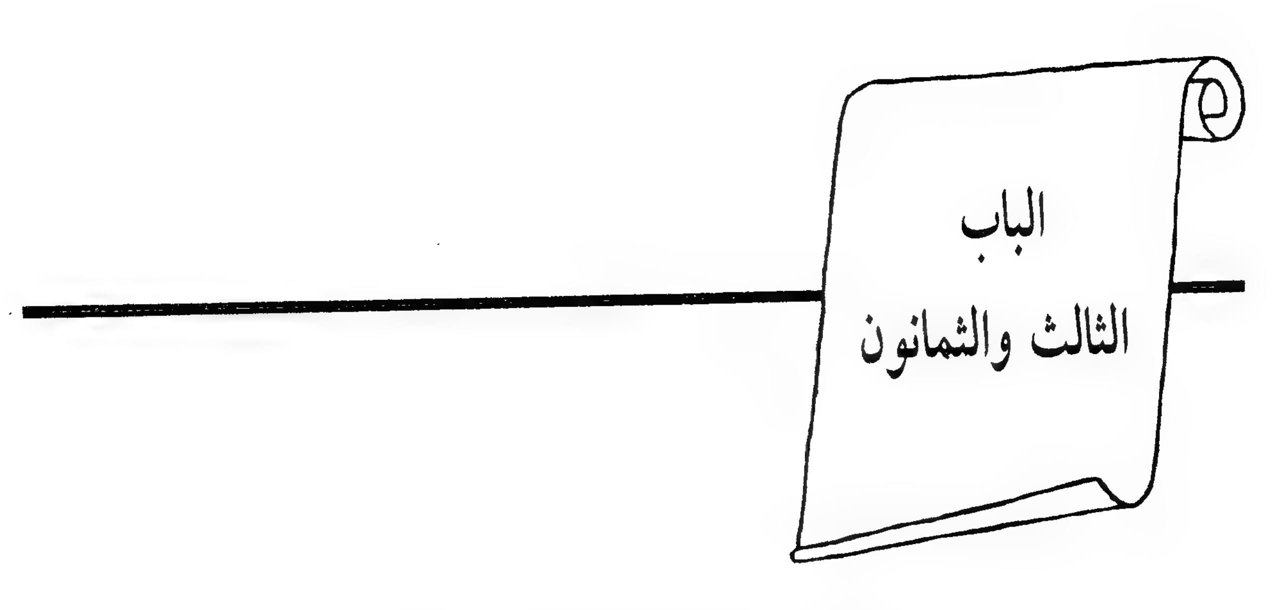
فتى كان يحميه من العار سيفه ... ويكفيه سوآت الأمور اجتنابها

---

(١) سورة الرعد الآية ٢٠ .

ثم قال للربيع قل لصاحبك المنصور قد مضى من بؤسنا أيام ، ومن نعمتك أيام ، والملتقى غداً بين يدي الله تعالى . فكان ذلك فألا على المنصور ولم ير بعد ذلك اليوم راحة . وقيل لحسان ما بالك لم ترث رسول الله ﷺ ؟ قال لم أر شيئاً إلا رأيته يقصر عنه . والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .





في ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها

قال الله تعالى : ﴿ **قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى** ﴾(١). فوصف سبحانه وتعالى جميع الدنيا بأنها متاع قليل وأنت أيها الإنسان تعلم أنك ما أوتيت من القليل إلا قليلاً . ثم إن القليل إن تمتعت به فهو لعب ولهو لقوله تعالى : ﴿ **إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة** ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ **وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** ﴾(٣) فلا تبغ أيها العاقل حياة قليلة تفنى بحياة كثيرة تبقى كما قال ابن عياض : لو كانت الدنيا ذهباً يفنى والآخرة خزفاً يبقى ، لوجب علينا أن نختار ما يبقى على ما يفنى . ثم تأمل بعقلك هل آتاك الله من الدنيا مثل ما أوتي سليمان عليه الصلاة والسلام ، حيث ملكه الله تعالى جميع الدنيا من إنس وجن ، وسخر له الريح ، والطير ، والوحوش ثم زاده الله تعالى أحسن منها حيث قال : ﴿ **هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب** ﴾(٤)، فوالله ما عدها نعمة مثل ما عددتموها ولا حسبها رفعة مثل ما حسبتموها ، بل خاف أن يكون استدراجاً من حيث لا يعلم فقال : ﴿ **هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر** ﴾(٥). وهذا فصل الخطاب لمن تدبر هذا وقد قال لك ولجميع أهل الدنيا :﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون** ﴾(٦) وقال تعالى : ﴿ **وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾(٧). وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : ألا أريك الدنيا بما فيها . قلت بلى يا رسول الله فأخذ بيدي وأتى إلى واد من أودية المدينة ، فاذا مزبلة فيها رؤوس الناس ،

---

(١) سورة النساء الآية ٧٧.
(٢) سورة الحديد الآية ٢٠ .
(٣) سورة العنكبوت الآية ٦٤ .
(٤) سورة ص الآية ٣٩ .
(٥) سورة النمل الآية ٤٠ .
(٦) سورة الحجر الآيتان ٩٢ و٩٣ .
(٧) سورة الانبياء الآية ٤٧ .

وعذرات ، وخرق بالية وعظام البهائم فقال يا أبا هريرة هذه الرؤ وس كانت تحرص حرصكم وتأمل آمالكم وهي اليوم صارت عظاما بلا جلد ثم هي صائرة عظماً رميما وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبتموها في الدنيا فأصبحت والناس يتحامونها وهذه الخرق البالية رياشهم أصبحت والرياح تصفقها وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد فمن كان باكياً على الدنيا فليبك . قال فما برحنا حتى اشتد بكاؤ نا . وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على النبي ﷺ وهو على سرير من الليف . وقد أثر الشريط في جنبه فبكى عمر رضي الله تعالى عنه فقال رسول الله ﷺ ما يبكيك يا عمر ؟ فقال تذكرت كسرى وقيصر وما كانا فيه من سعة الدنيا ، وأنت رسول الله وقد أثر الشريط بجنبك . فقال ﷺ هؤلاء قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا ، ونحن قوم أخرت لنا طيباتنا في الآخرة . وروي عن الضحاك قال لما أهبط الله آدم وحواء إلى الأرض ووجدا ريح الدنيا وفقدا ريح الجنة غشي عليهما أربعين يوماً من نتن الدنيا . وعن ابن معاذ قال الحكمة تهوي من السماء إلى القلوب فلا تسكن في قلب فيه أربع خصال : ركون إلى الدنيا ، وهم عدو ، وحسد أخ ، وحب شرف . وعن النبي ﷺ أنه قال لعلي : « يا علي أربع خصال من الشقاء جمود العين ، وقسوة القلب ، وبعد الأمل ، وحب الدنيا » . وروى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال يؤ تى بالدنيا يوم القيامة على صورة عجوز شمطاء زرقاء العينين ، أنيابها بادية ، مشوهة الخلق ، لا يراها أحد إلا هرب منها فتشرف على الخلائق أجمعين فيقال لهم أتعرفون هذه ؟ فيقولون لا نعوذ بالله من معرفة هذه . فيقال هذه الدنيا التي تفاخرتم بها وتقاتلتم عليها . وعن الفضيل بن عياض أنه قال : جعل الخير كله في بيت واحد ، وجعل مفتاحه الزهد في الدنايا ، وجعل الشر كله في بيت واحد ، وجعل مفتاحه حب الدنيا . وقيل إن الدنيا مثل ظل الإنسان إن طلبته فرّ وإن تركته تبعك وفيه قال بعضهم :

إنما الرزق الذي تطلبه ... يشبه الظل الذي يمشي معك
أنت لا تدركه متبعا ... وهو وإن وليت عنه تبعك

وقد شبهها بعضهم بخيال الظل فقال :

رأيت خيال الظل أعظم عبرة ... لمن كان في علم الحقائق راقي
شخوصاً وأصواتاً يخالف بعضها ... لبعض وأشكالا بغير وفاق
تجيء وتمضي بابة بعد بابة ... وتفنى جميعا والمحرك باقي

وما أحسن ما قال سليمان بن الضحاك :

ما أنعم الله على عبده ... بنعمة أوفى من العافية
وكل من عوفي في جسمه ... فانه في عيشة راضية
والمال حلو حسن جيد ... على الفتى لكنه عارية
ما أحسن الدنيا ولكنها ... مع حسنها غدارة فانية

وتوفي رجل من كندة فكتب على قبره هذه الأبيات :

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا ... أن الحمام بكم علينا قادم

لـو تنزلـون بشعبنـا لعـرفتمـو أن المـفـرط في الـتـزود نـادم
لا تستعـزوا بـالحيـاة فـانكـم تبنـون والمـوت المفـرق هـادم
سـاوى الردى مـا بيننـا في حفـرة حيث المخـدّم واحـد والخـادم

وقال آخر :

عـن قليـل أصـير كـوم تـراب وتـقـول الـرفـاق هـذا فـلان
صـار تحت التراب عـظما رميـا وجـفـاه الأصـحـاب والخـلان

وما أحسن ما قال عبد الله بن طاهر :

أليس إلى ذا صـار آخـر أمـرنـا فلا كانت الـدنيا القليـل سرورهـا
فـلا تعجبي يـا نفس ممـا تـرينـه فكـل أمور النـاس هذا مصيـرهـا

وقال شرف الدين بن أسد :

يـا من تملك ملكـاً لا بقـاء لـه حملت نـفـسـك آثـامـاً وأوزارا
هل الحياة بذي الدنيا وإن عذبت إلا كـطيف خيـال في الكـرا زرارا

وقال بعضهم :

وغـايـة هـذي الـدار لـذة سـاعـة ويعقبهـا الأحـزان والهـم والنـدم
وهـاتيـك دار الأمن والعـز والتقى ورحمـة رب النـاس والجـود والكرم

وقال غيره :

حسنت ظنـك بـالأيـام إذا حسنت ولم تخـف سـوء مـا يـأتي بـه القـدر
وسـالمتـك الليـالي فـاغتـررت بهـا وعنـد صفـو الليـالي يحدث الكـدر

وقال آخر :

فإن كنت لا تدري متى الموت فاعلمن بـأنـك لا تبقى إلى آخـر الـدهـر

اين آدم أين الأولون والآخرون . أين نوح شيخ المرسلين . أين ادريس رفيع رب العالمين . أين إبراهيم خليل الرحمن . أين موسى الكليم من بين سائر النبيين . أين عيسى روح الله وكلمته رأس الزاهدين وإمام السائحين . أين محمد خاتم النبيين . أين أصحابه الأبرار ، أين الأمم الماضية . أين الملوك السالفة . أين القرون الخالية . أين الذين نصبت على مفارقهم التيجان . أين الذين قهروا الأبطال والشجعان . أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب . أين الذين اغتروا بالأجناد . أين أصحاب الوزراء والقواد . أين أصحاب السطوة والأعوان . أين أصحـاب الإمرة والسلطان . أين أصحـاب الأعمال والولايات . أين الذين خفقت على رؤوسهم الألوية والرايات . أين الذين قادوا الجيوش والعساكر . أين الذين عمرو القصور والدساكر . أين الذين أعطوا النصر في مواطن الحروب والمواقف . أين الذين آمنوا

بسطوتهم كل خائف . أين الذين ملأوا ما بين الخافقين فخرا وعزا . أين الذين فرشوا القصور حريرا وقزا . أين الذين تضعضعت لهم الأرض هيبة وعزا . هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ذكرا . أفناهم الله مفني الأمم ، وأبادهم مبيد الرمم ، وأخرجهم من سعة القصور إلى ضيق تحت الجنادل والصخور . فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم لم ينفعهم ما جمعوا ولا أغنى عنهم ما اكتسبوا أسلمهم الأحباء والأولياء وهجرهم الإخوان والأصفياء ونسيهم الأقرباء والبعداء لو نطقوا لأنشدوا :

مقيم بالحجوم رهين رمس وأهلي راحلون بكل واد
كأني لم أكن لهمو حبيبا ولا كانوا الأحبة في السواد
فعوجوا بالسلام فان أبيتم فأوموا بالسلام على البعاد

وقالوا لا فخر فيما يزول ، ولا غنى فيما لا يبقى . وهل الدنيا إلا كما قال بعض الحكماء المتقدمين : قدر يغلي ، وكنيف يملي وفي هذا المعنى قال الشاعر :

ولقد سألت الدار عن أخبارهم فتبسمت عجبا ولم تبد
حتى مررت على الكنيف فقال لي أموالهم ونوالهم عندي

ولقد أصاب ابن السماك حيث قال للرشيد لما قال له عظني وكان بيده شربة ماء فقال له يا أمير المؤمنين لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك ؟ قال نعم . قال يا أمير المؤمنين لو شربتها وحبست عن الخروج أكنت تفديها بملكك قال نعم . فقال له لا خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة . وقال ابن شبرمة إذا كان البدن سقيما لم ينفعه الطعام ، وإذا كان القلب مغرماً لم تنفعه الموعظة . وروي أن أبا العتاهية مر بدكان وراق وإذا بكتاب فيه :

لا ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر .

فقال لمن هذا البيت . فقيل : لأبي نواس قاله للخليفة هارون الرشيد حين نهاه عن حب الجمال ، وعشق الملاح فقال وددت أنه لي بنصف شعري . وممن استبصر من أبناء الملوك فرأى عيب الدنيا وتقضيها وزوالها إبراهيم بن أدهم بن منصور كان من أبناء ملوك خراسان من كورة بلخ لما زهد الدنيا ، زهد في ثمانين سريرا . قال ابن بشار سألت ابراهيم بن أدهم كيف كان بدء أمرك حتى صرت إلى هذا ؟ فقال كان أبي من ملوك خراسان ، وكان قد حبب إلّي الصيد فبينا أنا راكب فرسي ، وكلبي معي إذ رأيت ثعلباً أو أرنباً فحركت فرسي نحوه فسمعت نداء من ورائي يا إبراهيم ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت . فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلم أر أحداً فقلت لعن الله الشيطان ، ثم حركت فرسي فسمعت نداء أعلى من الأول يا إبراهيم ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت ، فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلم أر شيئاً فقلت لعن الله الشيطان ثم حركت فرسي فسمعت النداء من قربوس سرجي يا إبراهيم ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت . فوقفت وقلت هيهات جاءني النذير من رب العالمين والله لا عصيت ربي ما عصمني بعد يومي هذا . فتوجهت إلى أهلي ، وخلفت فرسي ، وجئت إلى بعض رعاة أبي فأخذت جبته وكساءه ، وألقيت إليه ثيابي ، فلم أزل أرض تقلني ، وأرض تضعني حتى صرت إلى العراق فعملت بها أياما ، فلم يصف لي شيء من الحلال ،

فسألت بعض المشايخ عن الحلال . فقال : عليك بالشام قال فانصرفت إلى بلد يقال لها المنصورية ، فعملت بها أياما فلم يصف لي شيء من الحلال ، فسألت بعض المشايخ . فقال : إن أردت الحلال فعليك بطرسوس ، فان المباحات بها والعمل فيها كثير فانصرفت إليها . قال فبينا أنا قاعد على باب البحر ، إذ جاءني رجل فاكتراني أنظر بستاناً ، فتوجهت معه فأقمت في البستان أياما كثيرة ، فإذا خادم له قد أقبل ومعه أصحاب له ، ولو علمت أن البستان بخادم ما نظرته فقعد في مجلسه ثم قال يا ناطورنا فأجبته . قال اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه ، فأتيته برمان فكسر الخادم واحدة فوجدها حامضة فقال يا ناطورنا أنت منذ كذا وكذا في بستاننا تأكل من فاكهتنا ورماننا ولا تعرف الحلو من الحامض ، فقلت والله ما أكلت من فاكهتكم شيئاً ، ولا أعرف الحلو من الحامض . قال فغمز الخادم أصحابه وقال ألا تعجبون من هذا ، ثم قال لي لو كنت إبراهيم بن أدهم ما كنت بهذه الصفة . قال ثم تحدث الناس بذلك وجاءوا إلى البستان . فلما رأيت كثرة الناس اختفيت والناس داخلون وأنا هارب منهم . وكان يأكل من كسب يده ، وكان يحصد ويحفظ البساتين ، ويعمل في الطين فبينما هو يوماً يحرس كرما إذ مر به جندي فقال : اعطنا من هذا العنب فقال له : إن صاحبه لم يأذن لي فضربه بالسوط فطأطأ رأسه وقال اضرب رأساً طالما عصى الله يا سيدي الجندي . فاستحى الرجل وتركه ومضى . وروي أن داود عليه الصلاة والسلام بينما هو يسيح في الجبال إذ مر على غار فيه رجل عظيم الخلقة من بني آدم ملقى على ظهره وعند رأسه حجر محفور مكتوب فيه : أنا دوسم الملك تملكت ألف عام وفتحت ألف مدينة ، وهزمت ألف جيش وفضضت ألف بكر من بنات الملوك ثم صرت إلى ما ترى التراب فراشي ، والحجر وسادي فمن رآني فلا تغره الدنيا كما غرتني . وقال وهب بن منبه خرج عيسى عليه الصلاة والسلام ذات يوم مع أصحابه فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أفرك . فقالوا يا نبي الله إنا جياع . فأوحى الله تعالى إليه أن أئذن لهم في قوتهم فأذن لهم فتفرقوا في الزرع يفركون ويأكلون فبينما هم كذلك إذ جاء صاحب الزرع يقول زرعي ، وأرضي ورثتها من أبي وجدي فباذن من تأكلون يا هؤلاء ؟ قال فدعا عيسى ربه أن يبعث جميع من ملكها من لدن آدم إلى تلك الساعة فاذا عند كل سنبلة ما شاء الله من رجل وامرأة يقولون أرضنا ورثناها عن آبائنا وأجدادنا ، ففر الرجل منهم وكان قد بلغه أمر عيسى ولكن لا يعرفه . فلما عرفه قال معذرة إليك يا نبي الله إني لم أعرفك ، زرعي ومالي حلال لك ، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال ويحك هؤلاء كلهم ورثوها وعمروها ثم ارتحلوا عنها ، وأنت مرتحل عنها ولاحق بهم ليس لك أرض ولا مال . ولما مات اسكندر قال ارسطاطاليس أيها الملك : لقد حركتنا بسكونك . وقال بعض الحكماء من أصحابه : لقد كان الملك أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس . أخذه أبو العتاهية فقال :

كفى حزناً بدفنك ثم إني نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت في حياتك لي عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وقال عبد الله بن المعتز :

نسير إلى الآجال في كل ساعة فأيامنا تطوى وهن مراحل

ولم أر مثـل المـوت حتى كـأنـه إذا مـا تخطتـه الأمـانيّ بـاطـل
ومـا أقبح التفـريط في زمن الصبا فكيف به والشيب في الرأس شاعل
تـرحل من الـدنيا بـزاد من التقى فـعـمـرك أيـام تـعـد قـلائـل

وقال عبد الله بن المعلم خرجنا من المدينة حجاجاً فاذا أنا برجل من بني هاشم من بني العباس بن عبد المطلب قد رفض الدنيا وأقبل على الآخرة فجمعتني وإياه الطريق فأنست به وقلت له : هل لك أن تعادلني ، فان معي فصلاً من راحلتي فجزاني خيراً وقال لو أردت هذا لكان سهلاً ، ثم أنس إليّ فجعل يحدثني . فقال أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة ، وكنت ذا كبر شديد ونعمة طائلة ، ومال كثير وبذخ زائد ، فأمرت خادماً لي أن يحشو لي فراشاً من حرير ومخدة بورد نثير ففعل . فاني لنائم إذا بقمع وردة قد نسيه الخادم فقمت إليه فأوجعته ضرباً ثم عدت إلى مضجعي بعد إخراج القمع من المخدة ، فأتاني آت في منامي في صورة فظيعة فهزني وقال أفق من غشيتك وانتبه من رقدتك ثم أنشأ يقول :

يـا خـل إنـك أن تـوسـد لينا وسـدت بعـد اليـوم صم الجنـدل
فـامهد لنفسـك صالحـا تسعـد بـه فـلتنـدمـن غـدا إذا لم تـفـعـل

فانتبهت مرعوباً وخرجت من ساعتي هارباً إلى ربي كما تراني ثم أنشأ يقول :

من كـان يعلم أن المـوت يـدركـه والقبـر مسكنـه والبعث يخرجـه
وأنـه بـين جنـات مـزخـرفـة يـوم القيـامـة أو نـار ستنضجـه
فكل شيء سوى التقوى به سمج ومن أقـام عليـه منـه اسمجـه
تـرى الذي اتخذ الدنيـا له وطنـا لم يـدر أن المنايـا سـوف تـزعجـه

قال وهب بن منبه أصبت على قصر غمدان وهو قصر سيف بن ذي يزن بأرض صنعاء اليمن وكان من الملوك الأجلة مكتوباً بالقلم المسندي فترجم بالعربي فاذا هي أبيات جليلة وموعظة عظيمة جميلة وهي هذه الأبيات :

بـاتوا عـلى قلل الأجبـال تحـرسهم غلب الـرجـال فلم تنفعهم القلل
واستنـزلوا من أعـالي عـز معقلهم فـأسكنوا حفـرة يا بئس مـا نزلـوا
ناداهموصـارخ من بعـدمـا دفنـوا أيـن الأسـرة والتيجـان والحـلل
أين الـوجـوه التي كـانت محجبـة وكـان من دونها الأستـار والكلل
فـأفصح القبـر عنهم حين سـاءلهم تلك الـوجوه عليهـا الـدود يقتتـل
قـد طالمـا أكلوا دهرا ومـا شربـوا فأصبحوا بعد ذاك الأكل قد أكلوا

وروي أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان معه صاحب في بعض سياحاته فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية فقال عيسى عليه الصلاة والسلام لصاحبه : انطلق فاطلب لنا طعاماً من هذه القرية وأعطاه ما يشتري به فذهب الرجل وقام عيسى عليه الصلاة والسلام يصلي فجاء الرجل بثلاثة أرغفة

فقعد ينتظر انصراف عيسى من الصلاة فأبطأ عليه فأكل رغيفاً ، وكان عيسى عليه الصلاة والسلام رآه حين جاء ورأى الأرغفة ثلاثة ، فلما انصرف من صلاته لم يجد إلا رغيفين . فقال له أين الرغيف الثالث ؟ فقال الرجل ما كانا إلا رغيفين فأكلاهما ثم مرا على وجوههما حتى أتيا على ظباء ترعى فدعا عيسى عليه الصلاة والسلام واحداً منها فجاءه فذكاه وأكلا منه ، فقال له عيسى : بالذي أراك هذه الآية من أكل الرغيف الثالث ؟ فقال ما كانا إلا إثنين . ثم مرا على وجوههما حتى جاءا قرية فدعا عيسى ربه أن ينطق له من يخبره عن حال هذه القرية فأنطق الله له لبنة فسألها عيسى فأخبرته بكل ما أراد وصاحبه يتعجب مما رأى فقال له عيسى بحق من أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث ؟ فقال ما كانا إلا إثنين فمرا على وجوههما حتى انتهيا إلى نهر عجاج فأخذ عيسى صلوات الله عليه بيد الرجل ومشى به على الماء حتى جاوزا النهر فقال الرجل سبحان الله فقال عيسى عليه الصلاة والسلام بالذي أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث ؟ فقال ما كانا إلا إثنين . فمرا على وجوههما حتى أتيا قرية عظيمة خربة وإذا قريب منها ثلاث لبنات عظام وقيل ثلاثة أكوام من الرمل ، فقال لها كوني ذهباً باذن الله فكانت فلما رآها الرجل قال هذا مال فقال عيسى نعم واحدة لي ، وواحدة لك ، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث . فقال الرجل أنا صاحب الرغيف الثالث.فقال عيسى عليه الصلاة والسلام هي لك كلها ثم فارقه عيسى . وأقام الرجل ليس معه ما يحملها عليه فمر به ثلاثة نفر فقتلوه فقال اثنان منهما للثالث انطلق إلى القرية فأتنا بطعام فانطلق ، فلما غاب قال أحدهما للآخر إذا جاء قتلناه ، واقتسمنا المال بيننا فقال الآخر نعم ، وأما الذي ذهب ليشتري الطعام ، فأنه أضمر لصاحبيه السوء . وقال أجعل لهما في الطعام سماً فاذا أكلاه ماتا وآخذ المال لنفسي ، فوضع السم في الطعام وجاء فقاما إليه فقتلاه ، وأكلا الطعام فماتا . فمر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام وهم مصروعون حولها . فقال هكذا الدنيا تفعل بأهلها . وقال الهيثم بن عدي وجد غار في جبل لبنان زمن الوليد بن عبد الملك وفيه رجل مسجى على سرير من ذهب ، وعند رأسه لوح من الذهب أيضاً مكتوب فيه بالرومية : أنا سبأ بن نواس خدمت عيص بن اسحاق بن إبراهيم خليل الرب الأكبر وعشت بعده دهراً طويلاً ورأيت عجباً كثيراً ، ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت وهو يرى مصارع آبائه ويقف على قبور أحبابه ، ويعلم أنه صائر إليهم ثم لا يتوب وقد علمت أن الأجلاف الجفاة يستنزلونني عن سريري ، ويتولونه وذلك حين يتغير الزمان ويكثر الهذيان ، ويترأس الصبيان . فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلاً ومات ذليلاً . وعن عمرو بن ميمون أنه قال افتتحنا مدينة بفارس فدللنا على مغارة فيها بيت فيه سرير من الذهب عليه رجل عند رأسه لوح مكتوب فيه :أنا بهرام ملك فارس كنت أعتاهم بطشاً ، وأقساهم قلباً ، وأطولهم أملاً ، وأحرصهم على الدنيا ، قد ملكت البلاد ، وقتلت الملوك ، وهزمت الجيوش ، وأذللت الجبابرة ، وجمعت من الأموال ما لم يجمعه أحد قبلي ، ولم أستطع أن أفتدي به من الموت إذ نزل بي . ويروى في الإسرائيليات أن عيسى عليه الصلاة والسلام بينما هو في سياحته إذ مر بجمجمة نخرة فسأل الله في أن تتكلم فأنطقها الله له فقالت : يا نبي الله أنا بلوان بن حفص ملك اليمن عشت ألف سنة ورزقت ألف ولد ، وافتضضت ألف بكر ، وهزمت ألف جيش وفتحت ألف مدينة ، فما كان كل ذلك إلا كحلم النائم . فمن سمع قصتي فلا يغتر بالدنيا ، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام بكاء شديداً حتى غشي عليه . ووجد مكتوب على قصر قد خربت أركانه ،

وباد أهله ، وأظلمت نواحيه هذه الأبيات :

هــذي مـنــازل أقــوام عهــدتـم ... يوفون بالعهد مذ كانـوا وبالـذمم
تبكي عليهم ديــار كـان يــطربهـا ... تــرنم المجد بـين الجـود والكــرم

وقيل في المعنى :

بـالله ربـك كم قصـر مـررت بـه ... قـد كان أعمـر باللذات والـطرب
نـادى غـراب المنايـا في جــوانبـه ... وصـاح من بعده بـالويـل والخرب

وفيه :

أيهــا الــرافــع الــبنــاء رويــدا ... لا يــرد المنــون عنـك البـنــاء

وحكي أن رجلين تنازعا في أرض ، فأنطق الله تعالى لبنة من جدار تلك الأرض فقالت إني كنت ملكاً من الملوك ، ملكت الدنيا ألف سنة ثم صرت رمياً ألف سنة ، ثم أخذني خزّاف وعملني إناء ، فاستعملت ألف سنة ، حتى تكسرت وصرت تراباً ، فأخذني وعملني لبناً وأنا في هذا الجدار كذا وكذا سنة ، فلم تتنازعان في هذه الأرض ، وأنتم عنها زائلون وإلى غيرها منقلبون . والله سبحانه وتعالى أعلم وروي أن ملكاً بنى قصراً ، وقال : انظروا إن كان فيه عيب فأصلحوه فقال رجل أرى فيه عيبين : فقالوا له وما هما . قال يموت الملك ، ويخرب القصر . قال صدقت ثم أقبل على الله وترك القصر والدنيا . وقيل سئل الخضر عليه السلام عن أعجب شيء رآه في الدنيا مع طول سياحته ، وقطعه للقفار والفلوات ، فقال : أعجب شيء رأيته أني مررت بمدينة لم أر على وجه الأرض أحسن منها . فسألت بعض أهلها متى بنيت هذه المدينة ؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤ نا ولا أجدادنا متى بنيت ، وما زالت كذلك من عهد الطوفان ، ثم غبت عنها خمسمائة سنة ومررت بها فاذا هي خاوية على عروشها ولم أر أحداً أسأله ، وإذا رعاة غنم فدنوت منهم فقلت أين المدينة التي ههنا ؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤ نا ولا أجدادنا أنه كان ههنا مدينة ، ثم غبت خمسمائة سنة ومررت بها وإذا موضع تلك المدينة بحر ،وإذا غواصون يخرجون منه شبه الحلية . فقلت للغواصين منذ كم هذا البحر هنا ؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤ نا ولا أجدادنا ، إلا أن هذا البحر من عهد الطوفان ، فغبت خمسمائة سنة وجئت فاذا البحر قد غاض ماؤه ، وإذا مكانه غيضة وصيادون يصيدون فيها السمك في زوارق صغار . فقلت لبعضهم أين البحر الذي كان ههنا ؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤ نا ولا أجدادنا أنه كان ههنا بحر فغبت خمسمائة عام ثم جئت إلى ذلك فإذا هو بالمدينة على الحالة الأولى ، والحصون ، والقصور والأسواق قائمة فقلت لبعضهم أين الغيضة التي كانت ههنا ؟ ومتى بنيت هذه المدينة ؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤ نا ولا أجدادنا إلا أن هذه المدينة على حالها من عهد الطوفان فغبت عنها نحو خمسمائة سنة ثم أتيت إليها فاذا عاليها سافلها ، وهي تدخن بدخان شديد ، فلم أر أحداً أسأله ثم أتيت راعياً فسألته أين المدينة قال سبحان الله لم يذكر آباؤ نا ولا أجدادنا إلا أن هذا المكان هكذا منذ كان . فهذا أعجب شيء رأيته في سياحتي فسبحان مبيد العباد ومفني البلاد ، ووارث الأرض ومن عليها وباعث من خلق منها بعد رده إليها . ولبعضهم :

قف بـالـديـار فهـذه آثـارهـم تبكي الأحبـة حسـرة وتشـوّقـا
كم قـد وقفت بها أسـائـل أهلها عن حـالها متـرحمـا أو مشفقـا
فـأجابني داعي الهـوى في رسمهـا فـارقت من تهـوى وعـزّ الملتقى

ولبعضهم :

أيـا الـربـع الـذي قـد دثـرا كـان عينـاً ثم أضحى أثراً
أيـن سكـانـك مـاذا فـعـلوا خبـرن عنهم سقيت المـطرا
فـلقـد نـادى منـادي دارهـم رحـلـوا واسـتـودعـوني عـبـرا

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام : أوحى الله إلى الدنيا من خدمني فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه يا دنيا ، مري على أوليائي ولا تحلي لهم فتفتنيهم . وقال بعض الحكماء : الدنيا كالماء المالح ، كلما ازداد صاحبها شرباً ازداد عطشاً ، أو كالكأس من عسل وفي أسفله سم فللذائق منه حلاوة عاجلة ، وفي أسفله الموت ، أو كحلم النائم يفرح في منامه فاذا استيقظ زال فرحه ، أو كالبرق يضيء قليلاً ثم يذهب . ولما بنى المأمون قصره الذي ضرب به المثل نام فيه فسمع قائلاً يقول :

أتبـني بنـاء الخـالـدين وإنمـا بقـاؤك فيهـا إن عقلت قليـل
لقـد كـان في ظـل الأراك كفـايـة لمن كـان يـوم يقتضيـه رحيـل

قال فلم يلبث بعدها إلا قليلاً ومات وقال :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قـابض على الماء خـانته فـروج الأصـابـع

ووجد مكتوب على قصر باد أهله :

هـذي منـازل أقـوام عهـدتـم في خفض عيش نفيس ما له خطر
صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا إلى القبـور فـلا عـين ولا أثـر

ولو قيل للدنيا صفي نفسك ما عدت ما وصفها به أبو نواس بقوله :

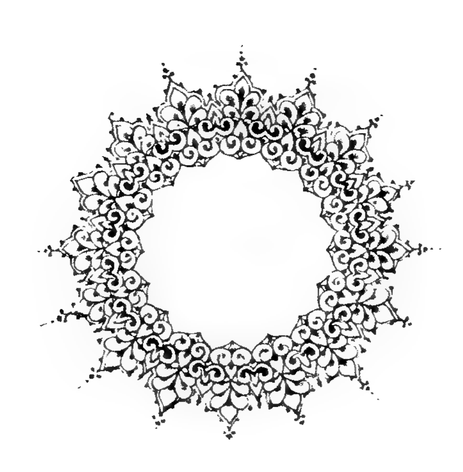
وما النـاس إلا هالك وابن هـالك وذو نسب في الهـالكـين عـريق
إذا امتحن الـدنيـا لبيب تكشفت لـه عن عـدوّ في ثيـاب صـديق

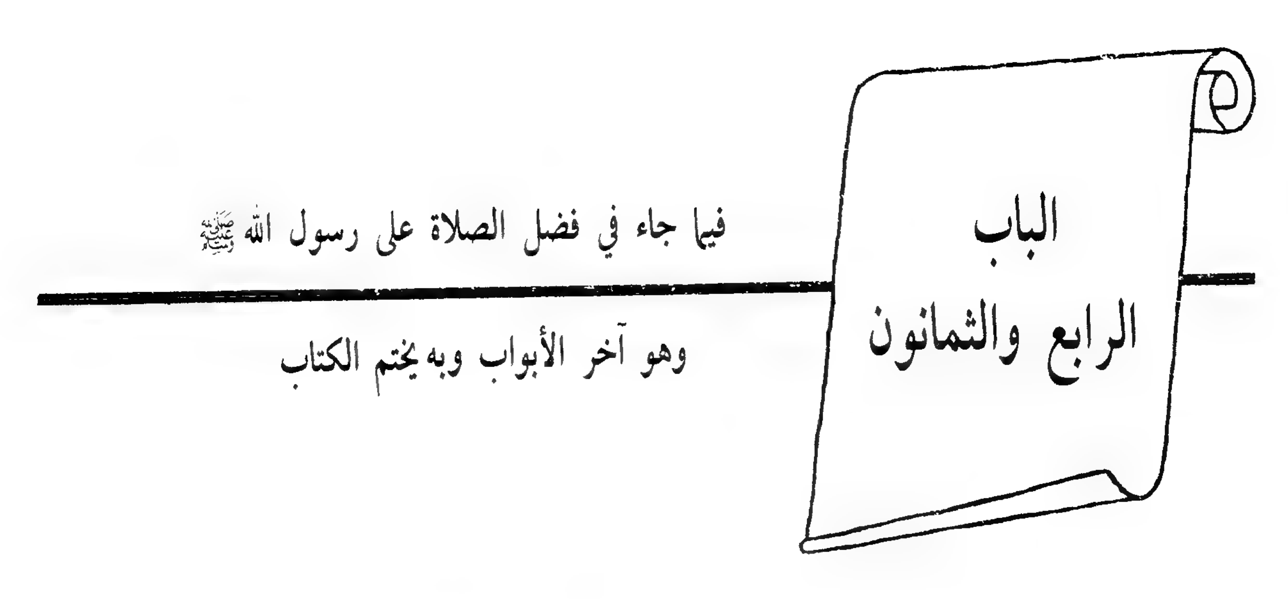
وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لما رجع من صفين ودخل أوائل الكوفة رأى قبراً . فقال قبر من هذا ؟ فقالوا قبر خباب بن الأرث فوقف عليه وقال : رحم الله خباباً أسلم راغباً ، وهاجر طائعاً ، وعاش مجاهداً ، وابتلي في جسمه آخـراً ألا وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، ثم مشى فاذا هو بقبور فجاء حتى وقف عليها وقال : السلام عليكم أهل الديار الموحشة ، والمحال

---

(١) دثرا : انمحى

المقفرة ، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع ، وبكم عما قليل لاحقون . اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عنا وعنهم ، طوبى لمن ذكر المعاد وعمل ليوم الحساب ، وقنع بالكفاف ورضي عن الله تعالى ، ثم قال يا أهل القبور أما الأزواج فقد نكحت ، وأما الديار فقد سكنت ، وأما الأموال فقد قسمت وهذا ما عندنا فما عندكم ، ثم التفت إلى أصحابه وقال : أما أنهم لو تكلموا لقالوا : وجدنا خير الزاد التقوى . والله سبحانه وتعالى أعلم .





ولنذكر أربعين حديثاً في فضل الصلاة على النبي ﷺ

الحديث الأول : عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليّ صلت عليه الملائكة ، ومن صلت عليه الملائكة صلى الله عليه ، ومن صلى الله عليه لم يبق شيء في السموات ولا في الأرض إلا صلى عليه » .

الحديث الثاني : قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليّ صلاة واحدة أمر الله حافظيه أن لا يكتبا عليه ذنباً ثلاثة أيام » .

الحديث الثالث : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى عليّ مرة خلق الله من قوله ملكاً له جناحان ، جناح بالمشرق ، وجناح بالمغرب ، رأسه وعنقه تحت العرش وهو يقول اللهم صل على عبدك ما دام يصلي على نبيك » .

الحديث الرابع : قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليّ ألفاً لم يعذبه الله بالنار » .

الحديث الخامس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى عليّ مرة صلى الله عليه بها عشرا ، ومن صلى عليّ عشرا صلى الله عليه بها مائة ، ومن صلى عليّ مائة صلى الله عليه بها ألفاً ومن صلى عليّ ألفاً لم يعذبه الله بالنار » .

الحديث الخامس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى عليّ مرة كتب الله له عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات » .

الحديث السادس : قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل يوماً قال يا محمد جئتك ببشارة لم آت بها أحداً قبلك ، وهي أن الله تعالى يقول لك : « من صلى عليك من أمتك ثلاث مرات غفر الله له إن كان قائماً قبل أن يقعد ، وإن كان قاعداً غفر له قبل أن يقوم » ، فعند ذلك خر ساجداً لله شاكراً .

الحديث السابع: قال رسول الله ﷺ: « من صلى عليّ في الصباح عشراً محيت عنه ذنوب أربعين سنة » .

الحديث الثامن : قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليّ ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرة غفر الله له خطيئة ثمانين سنة » .

الحديث التاسع : قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليّ ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرة قضى الله له مائة حاجة ، ووكل الله به ملكاً حين يدفن في قبره يبشره كما يدخل أحدكم على أخيه بالهدية » .

الحديث العاشر : قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليّ في يوم مائة مرة قضيت له في ذلك اليوم مائة حاجة »

الحديث الحادي عشر : قال رسول الله ﷺ : « أقربكم مني مجلساً أكثركم عليّ صلاة »

الحديث الثاني عشر : قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليّ ألف مرة بشر بالجنة قبل موته » .

الحديث الثالث عشر : قال رسول الله ﷺ : « جاءني جبريل عليه السلام وقال لي يا رسول الله لا يصلي عليك أحد إلا ويصلي عليه سبعون ألفاً من الملائكة » .

الحديث الرابع عشر : قال رسول الله ﷺ : « الدعاء بعد الصلاة عليّ لا يرد » .

الحديث الخامس عشر : قال رسول الله ﷺ : « الصلاة عليّ نور على الصراط » . وقال عليه الصلاة والسلام « لا يلج النار من يصلي عليّ » .

الحديث السادس عشر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جعل عبادته الصلاة عليّ قضى الله له حاجة الدنيا والآخرة » .

الحديث السابع عشر : قال رسول الله ﷺ : « من نسي الصلاة عليّ أخطأ طريق الجنة » .

الحديث الثامن عشر : قال رسول الله ﷺ : « إنّ لله ملائكة في الهواء ، بأيديهم قراطيس من نور ، لا يكتبون إلا الصلاة عليّ وعلى أهل بيتي » .

الحديث التاسع عشر : قال رسول الله ﷺ : « لو أن عبداً جاء يوم القيامة بحسنات أهل الدنيا ، ولم تكن فيها الصلاة عليّ ردت عليه ولم تقبل منه » .

الحديث العشرون : قال رسول الله ﷺ : « أولى الناس بي أكثرهم عليّ صلاة » .

الحديث الحادي والعشرون : قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليّ في كتاب لم تزل الملائكة تصلي عليه ، ما لم يندرس اسمي من ذلك الكتاب » .

الحديث الثاني والعشرون : قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني الصلاة عليّ من أمتي فأستغفر لهم » .

الحديث الثالث والعشرون : قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليّ كنت شفيعه يوم القيامة ، ومن لم يصل عليّ فأنا بريء منه » .

الحديث الرابع والعشرون : قال رسول الله ﷺ : « يؤمر بقوم إلى الجنة فيخطئون الطريق . قالوا يا رسول الله ولم ذاك ؟ قال : سمعوا اسمي ولم يصلوا عليّ ».

الحديث الخامس والعشرون : قال رسول الله ﷺ : « يؤمر برجل إلى النار فأقول ردوه إلى الميزان فأضع له شيئاً كالأنملة معي في ميزانه وهو الصلاة عليّ فيرجح ميزانه وينادي سعد فلان ».

الحديث السادس والعشرون : قال رسول الله ﷺ : « ما اجتمع قوم في مجلس ولم يصل عليّ فيه إلا تفرقوا كقوم تفرقوا عن ميت ولم يغسلوه ».

الحديث السابع والعشرون : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى وكل بقبري ملكاً أعطاه أسماء الخلائق كلها فلا يصلّي عليّ أحد إلى يوم القيامة إلا بلغني اسمه وقال يا رسول الله : « إن فلان ابن فلانة صلى عليك ».

الحديث الثامن والعشرون : عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه قال : الصلاة على النبي ﷺ أمحى للذنوب من الماء لسواد اللوح .

الحديث التاسع والعشرون : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام إن أردت أن أكون إليك أقرب من كلامك إلى لسانك ، ومن روحك لجسدك ، فأكثر من الصلاة على النبي الأمي ﷺ ».

الحديث الثلاثون : قال رسول الله ﷺ : « إن ملكا أمره الله تعالى باقتلاع مدينة غضب عليها فرحمها ذلك الملك ، ولم يبادر إلى اقتلاعها فغضب الله عليه ، وكسر أجنحته فمر به جبريل عليه السلام فشكا له حاله ، فسأل الله فيه ، فأمره أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم فصلى عليه فغفر الله له ، وردّ عليه أجنحته ببركة الصلاة على النبي ﷺ ».

الحديث الحادي والثلاثون : عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : من صلى على رسول الله ﷺ عشر مرات وصلى ركعتين ، ودعا الله تعالى ، تقبل صلاته ، وتقضى حاجته ، ودعاؤه مقبول غير مردود .

الحديث الثاني والثلاثون : عن زيد بن حارثة قال : سألت رسول الله ﷺ عن الصلاة عليه فقال ﷺ : « صلوا عليّ واجتهدوا في الدعاء وقولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ».

الحديث الثالث والثلاثون : عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صلوا عليّ فإن صلاتكم عليّ زكاة لكم واسألوا الله لي الوسيلة » .

الحديث الرابع والثلاثون : عن سهل ابن سعد الساعدي أن النبي ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يصل على نبيه ﷺ ».

الحديث الخامس والثلاثون : عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ .

الحديث السادس والثلاثون : عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « من قال جزى الله عنا محمداً خيراً وجزى الله نبينا محمداً بما هو أهله فقد أتعب كاتبيه » .

الحديث السابع والثلاثون : عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا عليّ فان صلاتكم تبلغني حيثما كنتم » .

الحديث الثامن والثلاثون : عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من أحد يصلي عليّ إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه » .

الحديث التاسع والثلاثون : قال رسول الله ﷺ : « أقربكم مني منزلاً يوم القيامة أكثركم عليّ صلاة »

الحديث الأربعون : نقل الشيخ كمال الدين الدميري رحمه الله تعالى عن شفاء الصدور لابن سبع أن النبي ﷺ قال : « من سره أن يلقى الله وهو عليه راض فليكثر من الصلاة عليّ فأنه من صلى عليّ في كل يوم خمسمائة مرة لم يفتقر أبداً ، وهدمت ذنوبه ، ومحيت خطاياه ، ودام سروره ، واستجيب دعاؤه ، وأعطي أمله ، وأعين على عدوّه وعلى أسباب الخير ، وكان ممن يرافق نبيه في الجنان » اللهم صل على سيد المرسلين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين الذي أنزل عليه في محكم الكتاب العزيز تعظيماً له ، وتوقيراً . **﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ، ومبشراً ، ونذيراً * وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾**[١]، فهذا خطاب خاص الخاص ، ولم يخاطب الله أحداً من المرسلين ولا من الأنبياء ولا رسولاً بالرسالة ، إلا سيد خلقه محمداً صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى نادى أبا البشر : **﴿ يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾**[٢]، **﴿ ويا نوح اهبط بسلام منا ﴾**[٣] **﴿ ويا ابراهيم أعرض عن هذا ﴾**[٤] **﴿ويا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾**[٥] **﴿ ويا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك ﴾**[٦] وقال لمحمد ﷺ : **﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾**[٧]. **﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك ﴾**[٨]. **﴿ يا أيها النبي حسبك الله * يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ﴾**[٩]. **﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار**

---

(١) سورة الاحزاب الآيات ٤٥ و٤٦ و٤٧ .
(٢) سورة البقرة الآية ٣٥ .
(٣) سورة هود الآية ٤٨ .
(٤) سورة هود الآية ٧٦.
(٥) سورة ص الآية ٢٦ .
(٦) سورة المائدة الآية ١١٠ .
(٧) سورة المائدة الآية ٦٧ .
(٨) سورة المائدة الآية ٤١.
(٩) سورة الانفال الآيتان ٦٤ و٦٥.

والمنافقين ﴾[1] . **﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾**[2] . **﴿ يا أيها النبي لم تحرم ﴾**[3] . **﴿ يا أيها النبي اتق الله ﴾**[4] . **﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾**[5] وما ناداه باسمه يا محمد كغيره إلا في أربعة مواضع اقتضت الحكمة أن يذكر هناك باسمه محمد ﷺ ، الأول قوله عز وجل : **﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾**[6] لأن سبب إنزالها أن الشيطان صاح يوم أحد قد قتل محمد ، وكان ما كان فأنزل الله تعالى هذه الآية ولو قال وما رسولي لقال الأعداء ليس هو محمد فذكره باسمه لأنهم ما كانوا ينكرون أن اسمه محمد . الثاني قوله عز وجل : **﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾**[7] .

الثالث قوله عز وجل : **﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد ﴾**[8] فلو قال وآمنوا مما نزل على رسولي لقال الأعداء ليس هو فعرفه باسم محمد ﷺ. **الرابع** قوله عز وجل: **﴿ محمد رسول الله ﴾**[9] والحكمة في ذكره هنا باسمه أنه سبحانه وتعالى قال قبلها هو الذي أرسل رسوله بالهدى ، ودين الحق ليظهره على الدين كله فكان من الأعداء من يقول : من هو رسوله الذي أرسله فعرفه باسمه فقال : محمد رسول الله وسماه تعالى باسمه أحمد في موضع واحد وله حكمة ، وهي أن الله تعالى لما أرسل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام قال لقومه من بني إسرائيل : **﴿ يا بني اسرائيل إني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾**[10] لأنهم كانوا يعرفونه في التوراة أحمد فما ناداه سبحانه وتعالى باسمه محمد وإنما ذكر ذلك إعلاماً به ، وتعريفاً له ، وما ناده إلا بالنبوة والرسالة فقال : **﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا ﴾**[11] أي شاهداً بالإيمان للمؤمنين ، ومبشرا لأهل التمجيد ، ونذيراً لأهل التجحيد ، وقيل شاهداً لأهل القرآن ، ومبشراً لهم بالغفران ، ونذيراً لأهل الكفر والعصيان ، وقيل شاهداً لأمتك ، ومبشراً بشفاعتك ، ونذيراً لمن ارتكب مخالفتك وقيل شاهداً بالمنة ، ومبشراً بالجنة . وقوله وداعياً إلى الله باذنه أي يدعو الناس بأمر الله تعالى إلى لا إله إلا الله قال تعالى : وأنه لما قام عبد الله يدعوه وسمّى رسول الله ﷺ نفسه داعياً فقال أنا

---

(1) سورة التوبة الآية ٧٣ .
(2) سورة الطلاق الآية ١ .
(3) سورة التحريم الآية ١ .
(4) سورة الاحزاب الآية ١ .
(5) سورة الاحزاب الآيتان ٤٥ و٤٦ .
(6) سورة آل عمران الآية ١٤٤ .
(7) سورة الاحزاب الآية ٤٠ .
(8) سورة محمد الآيتان ١ و٢ .
(9) سورة الفتح الآية ٢٩ .
(10) سورة الصف الآية ٦ .
(11) سورة الاحزاب الآيتان ٤٥ و٤٦ .

الداعي إلى الله وقوله تعالى وسراجا منيراً أي يهتدى به كما يهتدى بالسراج في ظلمة الليل (فان قلت) ما الحكمة في قوله تعالى وسراجا منيرا ولم يقل قمرا منيرا . فالجواب عن ذلك أن السراج أعم من القمر، لأن المراد بالسراج هنا الشمس. قال تعالى : وجعل الشمس سراجا ، والشمس أعم نفعا ونورا من القمر وقيل المراد بقوله تعالى وسراجا منيرا السراج الذي يقتبس منه ، لأن القمر لا تصل إليه الأيدي حتى يقتبسون منه ، والسراج إذا كان في بلد يملأ ذلك البلد نوراً ، لأن كل من جاء يقتبس منه . والقمر ليس كذلك ، ولهذا كانت الدنيا قبل ولادته ﷺ ظلاماً ، فلما ولد ظهر سراج دينه بمكة بمكان أول من اقتبس من الرجال أبو بكر ، ومن النساء خديجة ، ومن الشباب علي ، ومن الموالي زيد ، ومن العبيد بلال رضي الله تعالى عنهم أجمعين . وجاء سلمان من أرض فارس فاقتبس ، وصهيب من الروم ، وبلال من الحبشة ، ووفد الوفود واقتبسوا وأبو لهب إلى جانب البيت ولم يقتبس ، واقتبس الناس من مشارق الأرض ومغاربها حتى امتلأت الأرض من نور سراجه ، فهو صلى الله عليه وسلم أعظم الأنبياء ، وأكرم المرسلين ، وسيد الخلق أجمعين لم يخلق الله أحسن ولا أجمل ولا أكمل ولا أفضل ولا أفصح ولا أرجح ولا أسمح ولا أصبح ولا أجل ولا أعظم ولا أسخى ولا أكرم ولا أبهى ولا أنصف ولا أعدل منه صلى الله عليه وسلم . فلو أن البحار مداد ، والنبات أقلام ، وجميع الخلق تكتب معجزاته صلى الله عليه وسلم لعجزوا عن وصف نزر النزر من معجزاته ﷺ .

اللهم اجعلنا من خالص أمته واحشرنا في زمرته ، وأمتنا على محبته ، ولا تخالف بنا عن ملته ولا عمن جاء به برحمتك يا أرحم الراحمين آمين .

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي عدد ما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون .



فهرس المجلد الثاني

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الصفحة